الجامعة الإسلامية – غزة
عمادة الدراســـات العليا
كليـــــــــــة الآداب
قسم التاريـــــــخ والآثار



الأوضاع الاجتماعية في فلسطين زمن الحروب الصليبية (492-690هـ/1099-1291م)

إعداد الطالب /
حسام حلمي يوسف الأغا

إشراف /
أ.د. رياض مصطفى شاهين

قدم هــذا البحث استكمالاً لمتطلبات الحصــول علــى درجـــة
الماجستير فــي التاريـــخ الإسلامي
1428هـ/2007م


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــــــــــداء

إلى من جعلهما الله سبباً في وجودي، والديّ أبقاهما الله ومتعهما بالصحة والعافية

إلـــى كل الذين ضحوا بأموالهم وأنفسهم من أجل أن يحيى الآخرين

إلى من شاركوني مشـــوار الحياة بكـــل ما فيها ......

وكانوا لي نبراساً ومعيناً وزاداً على طول الطريق ..

إلى أبنائـــــي.. وليـــــد.. ومـــي.. ومها

وإلى الشعب الفلسطيني المجاهد الصامد

شكـــــــر وتقديـــــــر

إلى كل من ساعدني في إنجاز هذا العمل العلمـــي شـــكري وامتنــــاني،وأخص بـــذلك الأستاذ الدكتور رياض شاهين الذي تجشم العناء والمتاعب في سبيل إخراج هـــذا البحـــث إلى النور، ولم يبخل عليّ بوقتـــه وجهده وعلمه؛ فلـــه مني كل الشكر والامتنان والتقدير.

كما وأسجل شكري وعرفاني إلى أساتذتي في قسم التاريخ بالجامعـــة الإســـلامية، ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى الدكتور خالد زنيد المحاضر في جامعة الأزهر الذي قام بمراجعة فصول الدراسة، كما أتقدم بالشكر للأستاذ محفوظ الأغا علـــى تفـــضله بقـــراءة الرسالة وتنقيحها لغويا ونحوياً.

ويسعدني أن أقدم الشكر لكل من أسهم بإمدادي بالمعلومات القيمـــة لإتمـــام بحثـــي، وأخص بالذكر الأستاذ عبد اللطيف أبو هاشم الذي فتح لي مكتبته الخاصة وزودني بما هو متاح لديه من مصادر ومراجع، وكذلك أتقدم بالشكر لكل القائمين بالعمل في مكتبة الجامعة الإسلامية، ومكتبة جامعة الأزهر ومكتبة جامعة الأقصى.

الفهـــــــــــرس

المختصـــــــــــرات

الكلمـــــــــــة		الرمـــــز
توفى	:	ت
الجزء	:	ج
دون مكان نشر	:	د.م
دون تاريخ نشر	:	د.ت
دون طبعة	:	د.ط
دون ناشر	:	د.ن
قبل الميلاد	:	ق.م
الطبعة	:	ط
العدد	:	ع
كيلو متر	:	كم
متر	:	م
مجلد	:	مج
ميلادي	:	م
هجري	:	هـ

المختصرات الأجنبية

Act. No.	:	Act number
Doc. No.	:	Documents Number
Ed.	:	Editor
Loc, cit	:	(L. Loco citato)in the place
Op.cit	:	(L. opera citatoe) in the work
p.	:	page
Vol.	:	Volume

المقدمـــــــــــة

- مقدمـــــــــة البحث
- دراسة تحليلية لأهم مصادر البحث ومراجعة

أولاً: المصادر العربيـــــة

أ- المصادر التاريخيـــــة

ب- كتب الجغرافيا والرحلات

ج- كتب التراجـــــــــم

ثانياً: المصادر الأجنبية

أ- الـــــوثائق

ب- المصادر التاريخيـــة

ج- كتب الرحالة الأجانب

ثالثا المراجع الحديثـــــة

مقدمـــة البحث:

شهدت بلاد الشام وفلسطين بوجه خاص هجمة شرسة قادها الغــرب الأوروبـــي فـــي العصور الوسطى ضد المسلمين في المنطقة العربية، واتخذوا من الدين شعاراً لهـــم يخفـــي أغراضهم الحقيقية المتمثلة بالاستعمار والاستيطان والسيطرة الاقتصادية، فالحركة الصليبية تعد إحدى الظواهر الرئيسة المميزة لتاريخ العصور الوسطى، وقد استمدت أهميتها من أنهـــا استغرقت نحو قرنين من الزمن في بلاد الشام، وأن الجانبين الإسلامي والصليبي، قد تـــأثرا بها في كافة نواحي الحياة، الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وعلى ذلك فان أهمية دراسة هذه الحركة لا تقتصر على الناحية العسكرية فحسب بل هي بالأحرى دراسة للعلاقات بـــين الشرق والغرب في شتي جوانبها؛ إذ كان الكيان الصليبي صـــنيعة أوروبيـــة علـــى ارض الشرق، وظل الارتباط وثيقاً بين مملكة بيت المقدس الصليبية، والغرب الأوربي الذي وفـــر للمشروع الصليبي كل دعم مادي ومعنوي.

فالباحث المتأمل لواقع تاريخ الحروب الصليبية يُدرك من فوره أنها ذات طابع دمـــوي تعصبي؛ لذلك ظهر منذ البواكير الأولى للمشروع الصليبي أنه مشروع دموي تتكـــرر فيـــه المذابح التي اقترفها الصليبيون ضد أعدائهم خاصة المدنيين، وخلال ذلك تم الفتك بعـــشرات الآلاف من أعدائهم، وجاء ذلك وسط موجة عارمة من العداء والكراهية، والرغبة الجامحـــة في القتل لكل من لا يدين بالنصرانية، ولا أدل على ذلك من المذابح التي حدثت على طـــول الطريق من أنطاكية إلى بيت المقدس، ووصلت إلى ذروتها في المدينة الأخيرة؛ حيث جرت مذبحة مروعة خلال المدة من23شعبان-3رمضان492هـــ/ 15-25يوليو 1099م. تم فـــي أعقابها الاستيلاء على المدينة؛ ثم تواصل العدوان الصليبي على فلسطين، وتم احتلال معظم المدن الفلسطينية باستثناء عسقلان التي تم احتلالها في سنة 548هـــ/1153م.

وعندما استولي الصليبيون على الأراضي المقدسة أسسوا مملكة بيت القدس الـــصليبية، وقاموا بنقل النظام الإقطاعي الأوروبي إليها؛ فقسمت المملكة إلى أربع إقطاعيـــات كبـــري، واثني عشر إقطاعية صغرى، ونفذ الفرنجة الصليبيون عملية بناء المستوطنات مـــن خـــلال تطبيق النظام الإقطاعي الأوروبي، وليس من شك في أن عملية الاستيطان لم تتم بـــسهولة، ودون مقاومة من أصحاب البلاد الأصليين الذين قاوموا وتصدوا لعمليات مصادرة أراضيهم لبناء المستوطنات، وكانت النتيجة أن تعرضوا للقمع والتنكيل والتهجير.

لقد كانت فلسطين أرضاً حضارية عريقة، شغلت منذ فجر التـــاريخ أدواراً حـــضارية مختلفة، والتقت في فلسطين تيارات المد لأفواج الهجرات البشرية فـــي العـــصور القديمـــة والوسطى، فتنوعت عناصر السكان فيها، وهذا التنوع في عناصر السكان كان يوازيه تنـــوع

آخر في دياناتهم ومذاهبهم، وعندما جاء الصليبيون، جاءت معهم عناصر جديدة زادت من تنوع البنية السكانية في فلسطين من جهة؛ كما أدت إلى جعل هذه التركيبة السكانية في حالة من السيولة، وعدم الاستقرار من جهة ثانية إذ أن المذابح الصليبية، والتهجير والاستيطان، وإعادة التوطين فضلاً عن أن تبادل السيادة على بعض المناطق بين المسلمين، والصليبيين خلال الصراع الطويل أدى إلى عدم استقرار البنية السكانية، واختلال القوى الاجتماعية في بعض المناطق.

إن العلاقات بين الطرفين الإسلامي، والصليبي لم تكن دائماً علاقات حرب وصراع؛ فقد تخللها نوع من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وحدث نوع من تبادل المؤثرات التي كان لها انعكاساتها على جماهير الناس، من هنا تأتي أهمية دراسة العلاقات الاجتماعية؛ فظهرت الأبحاث والدراسات التي تناولتها في الشرق والغرب على حد سواء، وعلى الرغم من ذلك، فلا يزال المجال فسيحا أمام الباحثين، ليقدموا أعمالا إضافية حولها، إذ أن جوانب كثيرة من الحركة الصليبية لم تحظَ بالدراسة العميقة المتأنية.

ولا شك أن المتأمل في الدراسات التاريخية لفلسطين، وبلاد الشام في عصر الحروب الصليبية؛ يلاحظ أن معظمها انصب على معالجة الجوانب السياسية والعسكرية؛ في حين تم إسدال ستار من الصمت على تاريخ المجتمع في هذه المنطقة، والحاصل أن هذا الموضوع لا تزال تعتريه المحدودية، ولا يزال الغموض والإبهام يلف بعض جوانبه؛ مما يجعله حلقةً من الحلقات المعتمة في تاريخ الحروب الصليبية؛ لذا فإن التاريخ الاجتماعي لهذه الحقبة ما زال في حاجة إلى الدراسة للوقوف على أوضاع المجتمع الإسلامي والصليبي في المناطق التي استولى عليها الفرنجة، فكان ذلك من الأسباب التي دفعت الباحث إلى اختيار موضوع " الأوضاع الاجتماعية في فلسطين فترة الحروب الصليبية" لكي يكون محوراً للدراسة.

واعتمد الباحث في تكوين الصورة الاجتماعية لطبيعة المجتمع الفلسطيني في الفترة محل الدراسة على المنهج التاريخي التحليلي القائم على قراءة ما اجتمع للباحث من المصادر الأولية والمراجع؛ بحيث جمعت هذه المعلومات، وصنفت وفق خطة البحث ثم درست وحللت ونقدت، وتم أخذ ما كان مناسباً لسياق الأحداث، وقد اقتبس الباحث ما كان يراه مناسبا لتدعيم الآراء أو ما يمكن أن تقل قيمته بشرحه.

وقد اقتضت طبيعة دراسة الموضوع تقسيمه إلى أربعة فصول سبقتهم مقدمة اشتملت على دراسة نقدية لأهم مصادر البحث، ومراجعه، وتناول الفصل الأول الذي جاء تحت عنوان "الاحتلال الفرنجي لفلسطين وقيام مملكة بيت المقدس الصليبية "أحداث العدوان الصليبي، والسيطرة على الأراضي والمدن الفلسطينية، وما تعرض له سكانها من قتل وتهجير؛ عدا عن عمليات السلب والنهب؛ كما تعرض لعلاقة المُقْطِع بالأرض؛ من خلال

تناول البناء السياسي والإداري للمجتمع الإقطاعي الصليبي الجديد، وكذا السمات الرئيسية له، وتحدثت عن العلاقات الإقطاعية بين طبقات المجتمع الصليبي الذي كان على هيئة مثلث، رُبطت أضلاعه ببعضها البعض بما أُصْدِرَ من قوانين غير أن ذلك لم ينفِ وجود طبقات إقطاعية داخل المثلث الإقطاعي نفسه، وكانت عملية التعاقد بين الفصل وسيده الإقطاعي التي تحدد لكل منهما التزاماته، وواجباته هي حجر الأساس في تلك العلاقات على أن الخدمات الحربية المفروضة على الملاك الإقطاعيين تجاه ملك مملكة بيت المقدس الصليبية تمثل أهم تلك الالتزامات، ومارست الكنيسة، والمؤسسات الكنسية في المستعمرات الصليبية دورها نفسه في الغرب الأوربي لهذا فقد انخرطت في النظام الإقطاعي الصليبي، ومنحها الصليبيون العديد من الإقطاعات.

كما تعرضت الدراسة في هذا الفصل لعلاقة المقطع بالفلاح حيث جاء ما يمكن تسميته بالنظام الإداري للقرية ليكون بمثابة الوسيلة المثلى للسادة الإقطاعيين من أجل ضمان استمرارية العمل الزراعي، وقد مثل الريس والترجمان والكاتب أضلاع المثلث الإداري الصليبي للقرية، ثم تناولت الدراسة العلاقات المالية بين طبقات المجتمع الفلسطيني؛ فكنتيجة حتمية للنظام الإقطاعي فإن الفلاحين كانوا في أدنى درجات السلم الإقطاعي، وأجبروا على دفع العديد من الضرائب العينية والنقدية لأسيادهم الإقطاعيين

أما الفصل الثاني وعنوانه "الاستعمار الاستيطاني الصليبي لفلسطين والموقف الشعبي منه " فتضمن تعريف بعض الباحثين الغربيين للغزو واتجاهات الحركة الفرنجية التي وصفت من قبل بعضهم بأنها حركة توسع استيطاني في الشرق الإسلامي، وتناول دعوة البابا للمسيحيين في الغرب الأوروبي لاحتلال الأرض المقدسة، وتحويلها إلى كيان صليبي، وتَحققْ هذا الهدف بنجاح الحملة الصليبية الأولى في الاستيلاء على القدس، بعد أن ارتُكِبت المذابح والمجازر، وما رافق عمليات الاحتلال والاستيلاء على الأراضي من تهجير وهجرة لعدد كبير من السكان، وذلك من أجل تحقيق الأهداف الصليبية المتمثلة بتغيير واقعها السكاني والجغرافي، وطمس عروبة الأرض من خلال اتباع برنامج شامل للتنصير، وفرض سياسة الأمر الواقع بإقامة سلسلة من القلاع والحصون والمستوطنات
الزراعية؛ لإحكام السيطرة على المناطق المحتلة، وتمزيق المنطقة جغرافياً وسياسياً.

ثم أشار الباحث إلى عناصر الاستيطان، والسياسة التي اتبعها الصليبيون من أجل زيادة العنصر البشري، وما سن من قوانين لتشجيع الهجرة والاستيطان، وفي الإطار نفسه أُشيرَ إلى الدعم العسكري والمالي الأوروبي، وما فُرض من ضرائب لدعم الكيان الصليبي

كما تم استعراض المقاومة الإسلامية والشعبية وتعدد أساليب المقاومة للاحتلال الصليبي وموقف فئات السكان المختلفة من الاحتلال، ومشاركة سكان فلسطين في عمليات تحرير

واسترداد المدن الفلسطينية المحتلة.

أما الفصل الثالث، وعنوانه "البنية السكانية لفلسطين زمن الاحتلال الصليبي" فدار البحث فيه حول أقسام السكان، وما شهدته فلسطين من تنوع في بنيتها السكانية، وكان هذا التنوع على مستوى عناصر السكان يوازيه تنوع آخر في دياناتهم، ومذاهبهم، وعندما غزا الصليبيون فلسطين استوطنتها عناصر مختلفة منهم؛ مما زاد في تنوع البنية السكانية لفلسطين من مسلمين، ونصارى، ويهود بطوائفهم، وعناصرهم المختلفة.

وكان هؤلاء السكان ينقسمون تبعاً لنمط المعيشة إلى قسمين؛ الأول المجتمعات المستقرة من مدن وقرى، والثاني البدو؛ فتحدث عن المدينة العربية الإسلامية التي احتلها الصليبيون، وما أحدثوه من إضافات جديدة على بنيتها بغية كثلكة المدن الإسلامية، وتلبية للظروف العسكرية والسياسية، والاقتصادية، والسكانية التي واجهها الصليبيون في حقبة استيطانهم لفلسطين؛ ثم انتقلت للحديث عن القرى، وبلاد المناصفات، وسكانها، وسياسة الفرنجة الصليبيين تجاههم، ومن ثم تطرقت للسياسة التي اتبعها المسلمون لإعادة إعمار الريف، ودعم المزارعين في المناطق المحررة، وبالنسبة للبدو تحدثت عن قبائلهم، وتوزيعهم الجغرافي، وموقفهم من الغزو، والاحتلال الصليبي لفلسطين، وسياسة المملكة الصليبية، والدولة الإسلامية تجاههم.

وأشرت في نهاية هذا الفصل إلى العوامل المؤثرة على البنية السكانية، والمتمثلة في الحروب، والكوارث الطبيعية، والأوبئة والمجاعات؛ حيث أدت هذه العوامل في مجموعها إلى تدمير المحاصيل الزراعية، وألحقت أضراراً كبيرة في الممتلكات، ومثلت عاملاً طارداً للسكان؛ مما أدى إلى اختلال القوى الاجتماعية في بعض المناطق.

أما الفصل الرابع فجاء بعنوان" مظاهر الحياة الاجتماعية في المجتمع الفلسطيني زمن الحروب الصليبية" حيث استهله الباحث بالحديث عن العادات والتقاليد، ومدى تأثر الصليبيين بالحضارة العربية الإسلامية، وامتداد هذا التأثير إلى الجوانب المادية، والطبائع، نتيجة للحياة اليومية، والسلمية بين الجانبين، وكانت وسائل التسلية، والألعاب الرياضية من فروسية، وصيد، وغيرها حلقة أخرى من حلقات التفاعل الاجتماعي، والاتصال الثقافي.

وكان لا بد لتنظيم المجتمع الصليبي في فلسطين من نظام قضائي يمكن الاحتكام إليه، ويصبح بمثابة الغطاء الشرعي، والقانوني لجميع الممارسات الإقطاعية، لذلك أوجد الصليبيون نظاماً قضائياً يتكون من محاكم عدة، لكي يستطيع تغطية كافة أنواع النزاعات التي تنشب بين جميع طوائف، وفئات المجتمع.

أما فيما يخص المؤسسات التعليمية والاجتماعية فتحدثت عن الحياة الثقافية في فلسطين تحت الاحتلال الصليبي؛ مقارناً إياها بما أصبحت عليه في ظل السيادة الإسلامية، وذكرت

عددا مـــن المنشآت التعليميــــــة والصحيــــــة.

وتختتم الدراسة الفصل بعرض الآثار الاجتماعية للحروب الصليبية، وتأثيرات حـــروب التحرير على البنية السكانية لفلسطين؛ حيث كانت إحدى الآثار السلبية للحـــروب الـــصليبية تدمير المدن، كما عانى المجتمع الفلسطيني كثيرا من مظاهر التدهور الاجتماعي على صعيد النظام القيمي والأخلاقي، فانحرفت الأخلاق لانتشار الأمراض الاجتماعية، ومن ناحية أخرى كان للتنظيم الإقطاعي العسكري آثاره السلبية على المدى الطويل، ولاسيما التعديلات التـــي جرت على النظام الإقطاعي المملوكي، وفشلهم في إدارة المجتمع على أساس مدني.

وأخيرا وضع الباحث خاتمة لبحثه تعرض فيها لأهم النتائج التي تم التوصل إليها، وذيل البحث بمجموعة من الملاحق والخرائط التي تقدم المزيد من المعلومات، وتخدم الدراسة.

أما عن أهم العقبات التي اعترضت الدراسة فتتمثل في ندرة المادة العلميـــة وتناثرهـــا في المصادر، إذ أن مصادر تلك الحقبة اهتم فيها مؤرخوها في المقام الأول بإيراد الأحـــداث السياسية والعسكرية وقل الاهتمام بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

ومن هذه العقبات قلة الدراسات التي تناولت الجانب الاجتماعي، من أجـــل تحليـــل ظـــاهرة الحروب الصليبية من خلال البناء الاجتماعي لكل من الطرفين المتصارعين.

وتبقى هذه الدراسة عملاً متواضعاً في حقل التاريخ الاجتماعي لفلـــسطين فـــي حقبـــه تاريخية محددة؛ سعت إلى رسم صورة للأوضاع الاجتماعية لفلسطين خلال فترة الحـــروب الصليبية؛ فان أحسنت الصنع فيها فذلك توفيق من الله عز وجل، وان أخطأت فمن نفسي آملاً من العلي القدير أن يعينني على سداد ثغراتها، وتلافي نواقصها، وان يلهم الباحثين والمهتمين بدراسة هذه الفترة من تاريخ بلادنا في تصويب هفواتها أو إظهار حقائق جديدة في التـــاريخ الاجتماعي.

دراســـــة تحليليـــــة لأهم مصادر البحث ومراجعـــــة:

تعد المصادر التاريخية من أهم المصادر التي يمكن أن يجد فيها الباحث إشارات مفيدة عن الأوضاع الاجتماعية في فلسطين، وتتراوح هذه المصادر بين الوثائق وكتب الحوليات، فكتب السير، والمنظومات الشعرية؛ ثم مؤلفات الرحالة والجغرافيين الذين زاروا فلسطين خلال فترة الاحتلال الصليبي، وأوردوا إشارات عن تلك الأوضاع، ودراسة الأوضاع الاجتماعية تتطلب الرجوع إلى المصادر المتنوعة العربية منها والأجنبية، وذلك لمعرفة وجهتي النظر الإسلامية والأجنبية، من اجل رسم صورة للحياة الاجتماعية في تلك الحقبة التاريخية.

أولاً: المصادر العربيــــة:

أ- المصادر التاريخيــــة.

1-ابن القلانسي([1]) "ذيل تاريخ دمشق": يعد كتاب ابن القلانسي من أهم الكتب العربية التي عالجت تاريخ بلاد الشام بصفة عامة، ودمشق بصفة خاصة؛ حيث تناول المؤلف في كتابه تاريخ الفترة الحرجة التي شهدت نزوح وسيطرة السلاجقة على بلاد الشام، وكذلك الغزو الصليبي، للساحل والاستيلاء على بعض المدن وتهجير سكانها؛ كما أنه تتبع خطوات إقامة الوحدة الإسلامية ضد الصليبيون، وسجل كثيراً من الحروب التي وقعت ضدهم حتى وفاته عام 555هـ/1160م فأشار إلى بداية توحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين، واشتراك قوات الموصل ودمشق في مهاجمة بيت المقدس الصليبية 507هـ/1113م تحت قيادة شرف الدين مودود، ووقوف العناصر الإسلامية داخل الأراضي المحتلة لجانب المسلمين.

كما تعرض ابن القلانسي لبعض العلاقات الودية بين الصليبيين والمسلمين، ومن ذلك ذكره للعديد من حالات التعايش بين دمشق والصليبيين؛ الأمر الذي أدى إلى اقتسام المحاصيل الزراعية بينهم في المناطق الحدودية، وتعرض لذكر العديد من الكوارث والأوبئة والمجاعات وأثرها على البنية السكانية.

2- العماد الأصفهاني([2]) "الفتح القسي في الفتح القدسي": يعد كتاب الفتح القسي من الكتب المهمة لدراسة تاريخ الحروب الصليبية في عصر الملك الناصر صلاح الدين، فقد تناول

([1]) **ابن القلانسي:** هو أبو يعلا حمزة ابن راشد التميمي الدمشقي، ولد سنة 472هـ/1079م وقد اهتم بدراسة العلوم الدينية والأدب وأمضى معظم حياته في ديوان الإنشاء في مدينة دمشق، وأصبح رئيسا للديوان، وكان دقيقا وموضوعيا في كل ما تطرق له في كتابه وليس من شك في أن رئاسته لديوان الإنشاء جعلته مطلعا على كافة الأمور والإحداث، ومكنته من الاطلاع على الوثائق الرسمية، ولم تتعرض كتب التراجم التي تحدثت عن ابن القلانسي إلى ذكر نشاطاته وسلوكه وصفاته، كما أنها لم تذكر اسم واحد من أساتذته، وكانت أسرة ابن القلانسي من أكبر أسر دمشق وأعظمها مكانة، وقد احتفظت أسرته بمكانة مرموقة في دمشق لعدت قرون. الذهبي، سير،ج20، ص361.ابن خلكان، وفيات،ج7، ص144.

([2]) **العماد الكاتب الأصفهاني:** هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد، وكنيته أبو عبد الله بن أبى فرج الأصفهاني، ولد في أصفهان س519هـ/1125م وكان فقيها شافعيا تفقه بالمدرسة النظامية على يد أبى منصور سعيد بن محمد الرزاز وعمل= =

الأحداث من سنة583-589هــ/1187-1193م وتأتى أهمية هذا الكتاب كون مؤلفــه كـــان معاصراً وشاهدا عيانا لأحداث تلك الفترة، وكان ملازماً لصلاح الدين، وقد أفاد الباحث منه بمعلومات قيمة عن جهود الملك الناصر صلاح الدين في محاربة الصليبيين، واسترداد البلاد الإسلامية منهم؛ كما أفدت منه في العديد من القضايا الاجتماعية والاقتصادية، وخاصة جهود صلاح الدين في إعادة أسلمة المناطق المحررة، وما أورده من معلومات عن سكان القـــرى المحررة، كما أورد العديد من الإشارات عن دور المرأة الصليبية في المجتمع الصليبي.

3-ابن شداد([1]) "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ": وهو يعد من المصادر المهمة التـــي أرخت لحياة صلاح الدين، وجهاده ضد الصليبيين، وذلك أن مصنفه التحق بخدمـــة صـــلاح الدين584هــ/1188م وكان ملازماً له، ومن هنا تأتى أهمية هذا المصنف كون مصنفه كان شاهد عيان للأحداث ومشاركا فيها؛ حيث ذكر الكثير من أعمال صلاح الدين، وأشـــار إلـــى المتاعب التي قامت بها قلعة الكرك في مواجهة الوحدة الإسلامية والقوافل التجاريـــة التـــي كانت تجتاز الطريق البرى بين مصر ودمشق؛ كما ذكر العديد مـــن الروايـــات حـــول دور القبائل العربية في حرب التحرير، والكمائن التي كانت تقوم بها المقاومة الإسلامية ضد العدو الصليبي؛ كما أفدت منه في ذكر العديد من الروايات الاجتماعية.

4- ابن الأثير([2])ألف ابن الأثير العديد من الكتب التاريخية أهمها كتابة "الكامل في التاريـــخ":

وقد امتاز في كتابه بحسن الاطلاع، والرؤية الدقيقة الفاحصة للأحداث التي عاصـــرها، ويعد هذا الكتاب من أهم المصادر التي تناولت الأحداث التاريخية منذ بدء الخليقة وحتى سنة 628هــ/1230م وهو مرتب على نظام الحوليات، وقد أفادت الدراسة من هذا الكتاب مـــن خلال ما احتواه الجزءان التاسع والعاشر من معلومات عـــسكرية، وسياســـية، واقتـــصادية واجتماعية؛ كما أفاد الباحث من بعض تراجـــم الأعلام، والعلماء والفقهاء، والقادة العسكريين

في خدمة نور الدين محمود بدمشق، وأشرف على ديوان الإنشاء ثم عمل في خدمة صلاح الدين وأصبح كاتبـــا فـــي الدولـــة الصلاحية، وكان القاضي الفاضل يثنى عليه ويمتدحه ووصفه "بالزناد الوقاد" صـــنف العديـــد مـــن الكتـــب أهمهـــا "البـــرق الشامي""الفتح القسي في الفتح القدسي" وغيرها؛ توفى في رمضان 597هــ/ حزيران1201م. الأصـــفهاني، الفـــتح، مقدمـــة المؤلف، ص6-10. أبو شامة، الروضتين،ج5، ص42.ابن خلكان، وفيات،ج5، ص147-152.

([1]) **أبن شداد:** هو بهاء الدين ابن رافع بن تميم بن عتبة بن محمد اللأسدي المعروف بابن شداد، ولد بالموصل في شهر رمـــضان 539هــ/ مارس1145م ونشأ بها في رعاية أخواله بني شداد فنسب إليهم، وكان والده قد توفى وهو حدث صغير، وكان بهاء الدين فقيها شافعيا؛ تلقى علومه على يد شيوخ الموصل والبصرة؛ توفى في صفر 632هـــ نـــوفمبر1234م. أبـــو شـــامة، الروضتين،ج5، ص248.أبن خلكان، وفيات،ج7، ص84،85.الذهبي، سير،ج22، ص384.

([2]) **ابن الأثير:** هو عز الدين بن علـــى بن أبى الكرم محمد بن عبد الكريـــم الـــشيبانـــي، ولـــد بـــالجزيرة فـــي4جمـــادى الأولـــى555هــ/12ايار1160م انتقل إلى الموصل مع والـــده، وكـــان إمامـــا فـــي حفـــظ الحـــديث، وحافظـــا للتـــواريخ المتقدمة والمتأخرة؛ كما كان خبيرا بأنساب العرب وأخبارهم وأيامهم ووقائعهم، وصنف عدة تصانيف منهـــا كتـــاب"الكامـــل في التاريخ" ابتـــدأه مـــن أول الزمـــان حتـــى ســـنة628هـــ/1230-1231م وكتـــاب"البـــاهر فـــي الدولـــة الأتابكيـــة ". ابن خلكان، وفيات،ح348-350.الذهبي، سير،ح21، ص488-491

الذين ورد ذكرهــم فــي هذا المصدر، وشاركوا في صنع الأحداث فــي فلسطين وخارجها.
5- أبو شامة ([1])1- "الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية "
2- "الذيل على الروضتين":

يعد الكتاب الأول من كتب التاريخ المحلى والإقليمي، وصنف حسب طريقة الحوليات بــدأها أبو شامة بسنة548هــ/1153م وأنهاها بإحداث سنة589هــ/1193م، وهى سنة وفاة صلاح الدين، وتحدث فيه عن سيرة نور الدين محمود، وصلاح الدين، والأحداث والوقــائع التــي جرت في عهدهما، وخاصة محاولتهما تحرير البلاد من أيدي الغزاة الــصليبيين، وبالتــالي احتوى الكتاب على العديد من القضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

ويحتل كتاب الروضتين منزلة مرموقة كمصدر موثوق لقرب عهد مؤلفة مــن الفتــرة الزمنية التي ألف لها، واعتماده على مصنفات المؤرخين الذين عاشوا في قلــب الأحــداث، وكانوا شهود عيان لها؛ كابن القلانسي، وابن عساكر، ويحيى بن أبى طيء، وابــن الأثيــر وابن شداد، والعماد الكاتب، ويعد كتاب الروضتين من أكثر الكتب اعتمادا في مــواده علــى الوثائق الرسمية، وقد تم الإفادة من كتاب الروضتين في جميع فصول الدراسة

أما الكتاب الثاني المعروف "بالذيل على الروضتين" وهو كتاب تراجم لرجال القــرنين السادس والسابع الهجــريين، وهــو مرتــب حوليــا؛ يبــدأ بحــوادث 590هــــ/1193م وينتهي بحوادث عام665هــ/1266م وقد تضمن هذا الكتاب الكثيــر مــن تــراجم علمــاء الشام وفلسطين فــي الفترة موضوع الدراسة فقدم بــذلك معلومــات قيمــة للدراســة عــن جوانب مهمة في حياتهم الاجتماعية والاقتصادية

6- ابن واصل([2]) " مفرج الكروب في أخبار بني أيوب": وهو من المصادر المهمــة التــي تناولت تاريخ الدولة الأيوبية، وتعود أهميه الكتاب لمــا فيــه مــن تفاصــيل عــنهم، قلمــا توجد في كتــاب آخــر، وهــو كتــاب حــولي أرخ فيــه مؤلفــه للحــوادث المهمــة حتى سنة681هــ/1282م وقد أفادت الدراســة مــن هذا المصدر في مواضع كثيرة حيث

([1]) **أبو شامة:** هو عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان بن أبى بكر بن إبراهيم المقدسي الشافعي، ولد في دمشق فــي الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة 599هــ/ يناير 1203م عرف بابي شامة لوجود شامة كبيرة فوق حاجبة الأيسر، وكان فقيها شافعيا، وصنف كتبا كثيرة أهمها كتاب "الروضتين في أخبار الدولتين " " وكتاب الذيل على الروضتين"، وكان متواضعا بعيدا عن التكلف، ثقة في النقل، توفى في رمضان 665هــ/1267م. أبو شامة، الروضتين،ج1، مقدمة المؤلــف، ص7- 18 ابن واصل، مفرج،ج3، ص27-28. ابن كثير، البداية،ح13، ص255،254.

([2]) **ابن واصل:** هو جمال الدين بن محمد بن سالم أبو عبد الله المازني التميمي، كان فقيها شــافعيا، ولــد فــــي مدينــــة حمــاه سنـــة 604هــ/1208م، وتلقى فيها علومه، من ثم رحل في طلب العلــم إلى دمشق وحلب وبيت المقدس والقاهرة والكــــرك وبغداد وغيرها، ونبغ في علوم كثيرة، وله عدة مصنفات، أقام بمصر مدة طويلة، وعاصــر الحمـــلات الــصليبية المتــأخرة، وسقوط الدولة الأيوبية، وقيام الدولة المملوكية؛ توفى في 697هــ/1298م ومن أهم المؤرخين اللذين نقل عنهم؛ ابن القلانــسي العماد الأصفهاني ابن الأثير وغيرهم. ابن واصل، مفرج، مقدمة المحقق،ح1، ص

حيث احتوى علـــى معلومات اجتماعيـــة، واقتصاديـــة كان لها أثرها في إثراء الدراســـة.

7- ابن عبد الظاهر([1]) 1- " الروض الزاهـــــر فـــي سيرة الملك الظاهـــر"

2- " تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور"

وهما من المصادر المهمة، وقد استمدا هذه الأهمية من اطـــلاع صـــاحبهما علـــى الوثـــائق الرسمية التي أفادت الباحث بدراسة الأوضاع الاجتماعية فيما يتعلق بالفترة المتـــأخرة مـــن الصراع الصليبي الإسلامي، حيث تمت الإفادة من هذين المصدرين فـــي الفـــصلين الثالـــث والرابع بصفة خاصة حيث أورد العديد من الإشارات في الجانـــب الاجتمـــاعي، وإذا كـــان المؤلف قد أمدنا بمعلومات عن اتفاقية بيبرس مع بيت الإسبتار في كتابة الأول؛ فإنه زودنـــا بوثيقة الهدنة التي وقعت بين السلطان منصور قلاوون وإفرنج عكا في كتابه الثاني.

8- المقريزي([2]) من مؤلفاته 1- "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار"

2- "السلـــوك فـــي معرفـــــة دول الملـــــوك"

3- "إغاثـــــــة الأمــــــــة بكشـــف الغمـــــــة "

4- "الضـــــوء الساري فـــي خبـــر تميـــــم الداري"

5- "البيان والأعراب عما نزل بأرض مصر من الأعراب":

وفي هده المؤلفات ذكر المقريزي كثيراً من الحقائق التي أفادت موضـــوع الدراســـة علـــي امتداده، وتميزت مؤلفاته بأنها نقلت عن عدة أصول اندثر بعضها، كما كتب بإسلوب واضح وبسيط، وتطرق المقريزي في أعماله المختلفة، إلى الأوضـــاع الاجتماعيـــة والاقتـــصادية والسياسية والفكرية والأخلاقية للمجتمع الإسلامي عامة والمصري خاصة.

فتعرض في كتابـــه الخطط بصفة عامة لكثير من الظواهر الحضارية، وبعض الجوانب التاريخية، أما كتابه الثاني السلوك

من حيث دقة معلوماته، ووضوح عباراته، وشموليته حيث أشار خلاله إلى بعض التغيـــرات في النظم الإدارية والاقتصادية والسياسية للسلطة المملوكية، وأعمال الـــسلاطين والأمـــراء؛ منها أنه زودنا بقائمة إعادة توزيع أراضي قيسارية بعد فتحها على يد الظاهر بيبرس؛ بهدف

([1]) **ابن عبد الظاهر:** هو محي الدين أبو الفضل عبد الله رشيد الـــدين عبـــد الظـــاهر، ولـــد بالقـــاهرة ســـنة623هـــــ/1223م. عمل في ديوان الإنشاء لسيف الدين قطز، ومن بعده للظاهر بيبرس، وقـــد رافـــق ابـــن عبـــد الظـــاهر قطـــز فـــي حملتـــه ضد التتار، وســـرعان مـــا اتـــصل بالظـــاهر بيبـــرس وحـــاز ثقتـــه؛ بعـــد أن تـــولى الأخيـــر حكـــم مـــصر والـــشام، واستمر في منصبة حتى بداية عصر المنصور قـــلاوون تـــوفى ســـنة692هـــــ/1292م. ابـــن عبـــد الظـــاهر، تـــشريف، مقدمة المحقق، ص1209. ابن كثير، البداية،ج13، ص338.

([2]) **المقريزي:** هو تقي احمد بن على المقريزي، ولد بالقاهر 766هــ/1364م، وهو سليل أسرة شيعية فاطمية، ولا خـــلاف فـــي تبوئه صدارة المؤرخين المصريين في النصف الأول من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، ويكفى دليلا علـــى هذا أن تلاميذه مثلوا فطاحل المؤرخين في مصر خلال العصر المملوكي، وقد تناولت كتابات المقريزي أوجها عديـــدة مـــن تاريخ مصر والشام في عهود مختلفة، توفى في القاهرة عام 845هــ/1442م . المقريزي مقدمة المحقق،ح1، ص7-17.

تعميرها بالمسلمين، أما كتابه الثالث إغاثة الأمة فله أهمية خاصة لأنه من الكتب القليلة التي ركز فيها المؤرخون على دراسة الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية، وقد استفدت منه بمعلومات دعمت رسالتي وأفادتها، في حين انفرد المقريزي في كتابه الرابع "الضوء الساري" بالإشارة إلى أن إقطاع تميم الداري عاد إلى أصحابه بعد القضاء على الوجود الصليبي في الخليل، أما كتابه "البيان والأعراب" فقد تضمن بعض التفاصيل المهمة عن القبائل العربية التي سكنت في جنوب فلسطين؛ مما أفاد في التأكد من حقيقة العناصر السكانية التي سكنت فلسطين، وموقفها من الغزو والاحتلال الصليبي.

9- القلقشندى([1]) 1- "صبح الأعشى في صناعة الإنشا"

2- "نهاية الأرب في معرفة انساب العرب":

فالكتاب الأول هو كتاب طويل يقع في أربعة عشر جزءا، وفيه مواد علي جانب كبير من الأهمية، وهو يعطي النموذج الأمثل للمؤرخ المدقق، ويقدم معلومات قيمة في كثير من العلوم، وميزة مؤلفه أنة يتمتع بفكر ثابت وذهن صاف ينفذ من خلاله عبر الحوادث، فالكتاب موسوعة علمية في التاريخ والجغرافيا والسياسة والأدب والعلوم الاجتماعية ويتميز الكتاب بان مؤلفه كان رئيسا لديوان الإنشاء في القاهرة، ويحتوي الكتاب على نصوصٍ إدارية وتجارية، ومعاهدات، واتفاقيات تبحث شتي المجالات، وخاصة بلاد المناصفات، وبعض الشؤون والقضايا الخاصة باليهود والنصارى، أما كتابه الثاني نهاية الأرب، فقد تصدى فيه لذكر القبائل العربية بفروعها والتي سكنت في فلسطين، وموقف من عاصر منها الغزو الصليبي.

ب- كتب الجغرافيا والرحلات :

قدمت كتب الجغرافيا معلومات قيمة عن الكثير من المدن والقرى الوارد ذكرها في الدراسة كما حددت هذه المعلومات المواقع الجغرافية لتلك المدن والقرى، أما كتب الرحلات فقد كان لصاحبها دور كبير في جمع المعلومات المتنوعة من خلال مشاهدتهم، وتجاربهم، وعلاقاتهم العامة والخاصة مع الناس من مختلف الطبقات الاجتماعية، وقد أفادت الدراسة من هذه المعلومات في مواضع مختلفة، ومن أهم كتب الجغرافيا والرحلات التي أفادت الدراسة.

([1]) **القلقشندي:** هو شهاب الدين أبو العباس احمد بن علي القلقشندي، ولد سنة 756هـ/1355م ينسب إلى قبيلة بدر بن فزاره التي كانت تقطن في بلدة قلقشنده بالقرب من قليوب؛ درس علوم اللغة بشكل أساسي فأتقن النحو والأدب والشعر والكتابة، إضافة إلي الفقه الشافعي، ابتدأ حياته العملية في خدمة نائب الإسكندرية؛ ثم انتقل إلى القاهرة واستمر بها، فعمل في ديوان الأحباس، وبتوقيع الدرج دون معلوم، ثم عمل قاضيا شافعيا إلي أن التحق بالعمل في ديوان الإنشاء سنة 791هـ/1388م وتوفي في عشرة جماد الآخر 821هـ/1418م، ومن مؤلفاته قلائد الجمان في قبائل العربان، ومآثر الأناقة في معلم الخلافة، طبقات الخلفاء والولاة مع ذكر الحوادث والمجاريات، وغيرها. القلقشندي، صبح، مقدمة المتحقق،ح1، ص7- 10.

1- ناصر خسرو([1]) "سفر نامة": قام ناصر خسرو بزيارة فلسطين 436هـ/1047م وخلف لنا وصفا لرحلته يدل على أنه كان يدون مشاهداته أولا بأول، وعلى الرغم من أن الرحلة تمت قبيل الغزو الصليبي لمنطقة الشرق الإسلامي إلا أنها غنية بالمعلومات التي تلقي الضوء على الكثير من الأحول الاقتصادية والاجتماعية؛ فمست بذلك نواحي هامة شكلت جذورا للعديد من الظواهر الاقتصادية، والاجتماعية في مرحلة الدراسة؛ فذكر التطور العمراني في فلسطين، وتنامي عددٍ من القرى حتى أصبحت تضاهى المدن، وعند ذكره لمدينة القدس ذكر أن عدد سكانها بلغ عشرين ألف نسمة، وقدم وصفا للبيمارستان في مدينة القدس، حيث صنفه بأنه بيمارستان عظيم يصرف لمرضاه العلاج والدواء.

2- المقدسي([2]) "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم": يعتبر هذا الكتاب من أهم الكتب الجغرافية التي اعتمدت عليها في كثير من الجوانب المتعلقة بموضوع الدراسة، فقد أفدت من كتاب المقدسي فيما يتعلق بجغرافية فلسطين، ومصادرها المائية بالإضافة إلى التطور العمراني، ونمو العديد من القرى حيث اتفق في ذلك مع ناصر خسرو، وانفرد بالإشارة إلى اعتناق نصف سكان نابلس للمذهب الشيعي، كما انفرد بذكر العادات والتقاليد التي كانت سائدة في بعض المدن الفلسطينية قبل استيلاء الصليبيين عليها.

3- ابن منقذ([3]) "الاعتبار": قدم لنا أسامة العديد من الجوانب الاجتماعية في بلاد الشام، ومن أمثلة ذلك تناوله للمرأة المسلمة في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، ومظاهر البطولة الفردية لعدد من النساء في ميادين القتال، وكذلك أوضاع الأسرى منهن، ومن ثم تعرض للمرأة الصليبية، والانحلال الجنسي لدى الصليبيين، وتحليله لسلوكياتهم من الايجابيات والسلبيات؛ كما أن أسامة يقدم لنا تصورا هاما وموضوعياً لصفات الصليبيين، وقد وصفهم بالشجاعة والاحتراز في الحرب، وقرر انه لا فضيلة لهم إلا الشجاعة، وان

([1]) **ناصر خسرو**: ولد في بلدة من أعمال بلخ بإقليم خراسان في عام 394هـ/1003م سافر إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج، وقام برحلات طويلة في العالم الإسلامي، وكان يعنى بالاتصالات بالشعوب التي مر بها، ويتفهم مظاهر الحضارة التي يشاهدها؛ توفى عام 453هـ/1061م. خسرو، سفر نامه، مقدمة المحقق، ص15- 29 .

([2]) **المقدسي**: هو شمس الدين أبو عبد الله ابن احمد ابن أبى بكر، ولد في بيت المقدس سنة 336هـ/946-947م. ويعتبر المقدسي من أعظم الجغرافيين العرب؛ عمل في التجارة حيث كان يتنقل بين مختلف الأمصار الإسلامية؛ مما ساعده في وصف أحوال الشعوب، والأمم التي شاهدها بعيدا عن المجاملة والأهواء الشخصية. المقدسي، أحسن، مقدمة المؤلف ص8-10. خوري، نوابغ، ص15-18.

([3]) **ابن منقذ**: هو مؤيد الدولة أسامة ابن منذ ابن مرشد ابن علي الشيزري، ولد في 27جماد الآخر 488هـ/4يولية 1095م. وكان من كبار رجال بني منقذ أصحاب قلعة شيزر، سكن دمشق على أيام نور الدين محمود، وقام بالهجرة إلى القاهرة، ثم اضطر للإقامة في حصن كيفا، وكان من الرجال المشهورين، والشعراء المبرزين، وكان له علاقات شخصية مع الصليبيين أوقات السلم، وعندما استولى صلاح الدين على مدينة دمشق استدعاه وهو شيخ قد تجاوز الثمانين من عمره، وغمره بإحسانه وعطفه؛ توفى أسامة في 23رمضان584هـ/15 نوفمبر1188م. ابن منقذ، الاعتبار، مقدمة المحقق، ص6-131. ابن خلكان، وفيات،ج1، ص195،196. عوض، الجغرافيون، ص245- 247.

الفرسان مقدمون بينهم، وأفادت الدراسة من المعلومات التي قـدمها أسـامة عـن الفـارق الحضاري بين كل من المسلمين والصليبيين، ونجد ذلك واضحا في مجال العلوم الطبية، ومن ناحية أخرى ألقى الضوء على ما يتصل بفنون الصيد، كما تناول دور المقاومة الشعبية فـي مقاومة الصليبين واستنزافهم اقتصاديا، والمحاكمات الصليبية التي جـرت فـي الأراضـي المحتلة للتقليل من حدة المقاومة.

4- ابن جبير([1]) رحلته المعروفة باسم "اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمـة والمناسـك": تناول ابن جبير في رحلته العديد من الجوانب المتصلة بحياة بلاد الشام سواء في المنـاطق الصليبية أو الإسلامية، ومن ذلك تعرضه للساحل الشامي، والجوانب الاقتـصادية المتعـددة ثم دور عناصر المغاربة في حياة بلاد الشام، والخريطة المذهبيـة لتلـك الـبلاد، وتحـدث عن القلاع والحصون.

وتناول ابن جبير كذلك جانباً مهماً من جوانب العلاقات السلمية بين الصليبيين والمسلمين في بلاد الشام، وذلك من خلال التعامل والتبادل التجاري بينهما، ووصفه للطرق التجارية، ومن أبرز ما ذكره؛ وصفه لأحد جمارك بوابات مدينة عكا والرسوم الجمركيـة التـي فرضـها الصليبيون على بوابات مدينة عكا.

كما أن ابن جبير حرص على إيراد بعض الجوانب الخاصة بالعادات والتقاليـد الاجتماعيـة سواء لدى المسلمين أو الصليبيين على نحو أدى إلى إثراء الرسالة، وانفرد بالحـديث عـن حصن الزيب الصغير الواقع إلى الشمال من عكا، والذي شكل حماية لها مع بعض القـلاع، وتناول الحديث عن العناصر السكانية في فلسطين، وذكر أن المسلمين كانوا يشكلون أغلبيـة في القرى بسبب عدم هجرة الكثير منهم أو أنهم عادوا بعد فترة وجيزة إلى قراهم وأراضيهم.

5- الإدريسي([2]) "نزهة المشتاق في اختراق الأفاق": ترجع أهمية كتاب نزهة المشتاق كونه يعبر عن رؤية شاهد عيان معاصر للوجود الصليبي لعدد من المناطق المحتلة حيث يتحـدث عن المدن الرئيسية في الساحل الشامي، وذكر الجوانب الاقتصادية فيها فمثلا عندما تنـاول الحديث عن عكا ذكر أنها مدينة كبيرة ذات أرجاء متسعة، وان أهلها أخلاط وأنـاس شـتى

([1]) **ابن جبير:** وهو محمد بن احمد بن جبير الكناني أبو عبد الله، وقيل أبو الحسن المعروف بابن جبير، ولد فـي مدينـة بلنـسيا سنة540هـ/1145م. وتلقى العلم على يد شيوخ عصره في غرناطة وسبته، وقام ابن جبير بثلاث رحـلات إلـى المـشرق الإسلامي، الأولى 578هـ وانتهى منها بعودته إلى نابلس 581هـ والثانية في 585هـ بعد أن استرد صـلاح الـدين بيـت المقدس؛ أما الثالثة فكانت سنة614هـ ولكـن لـم يطـل بـه العمـر حيـث تـوفى فـي الإسـكندرية فـي27شـعبان 614هـ/30نوفيمبر1217م. ابن جبير، الرحلة، مقدمة المحقق، ص6-10، عوض، الجغرافيون، ص283-287.

([2]) **الإدريسي:** هو محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس، ولد بالمغرب الأقصى عام 499هـ/1100م بدا الارتحال والتنقل وهـو في سن السادسة عشر من عمرة ارتحل إلى مصر وبلاد الشام واليونان، التي رحل إليها في عام513هـ/1116م. اتـصل ببلاط ملك صقلية روجر الثاني 533هـ/1138م. وتوفى س560/1164م. عوض، الجغرافيون، ص17- 19.

كما تناول الإدريسي جهود الصليبين في تنصير الأراضي الإسلامية من خلال تحويل المساجد إلى كنائس.

6- ياقوت الحموي([1]) "معجم البلدان": تعرض ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان للعديد من الجوانب المتصلة بأوضاع بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، فمن ذلك تناوله لمدن الساحل الشامي ذات الأهمية الخاصة، وكذلك الوضع السكاني للمدن الشامية، والجوانب الاقتصادية سواء مصادر المياه أو الأنشطة الصناعية أو التجارية والزراعية ثم العمائر الحربية والمزارات الدينية، ولاشك في أن تعدد كافة تلك العناصر التي تعرض لها ذلك الجغرافي تعكس مدى اهتمامه ببلاد الشام فمثلا نجده يقدم لنا إشارات هامة عن الوضع السكاني لبعض المدن الشامية في عصره من حيث كثافتها وازدحامها بالسكان، فذكر أن مدينة عكا من أحسن بلاد الساحل وأعمرها، وأشار إلى أن دمشق تعاني أزمة سكانية عندما أشار إلى أن المساكن بها عزيزة بسبب كثرة أهلها، وفى الوقت الذي تحدث فيه ياقوت عن كثافة بعض المدن الشامية، ذكر أن عددا من المدن قد ترجع إلى مستوى القرى، ومن أمثلة ذلك قيسارية.

كما تحدث عن، تطور الحياة الريفية في بعض المدن، ومن أمثلة ذلك ذكره للريف الحلبي حيث ذكر أن بها ثمانمائة ونيفاً وعشرين قرية ملكاً لأهلها، ونحو مائتين ونيف قرية مناصفة بين الرعية والسلطان وحرص ياقوت الحموي على إيراد عدد من القلاع الإسلامية، والصليبية من أجل توضيح دورها؛ بيد أن معالجته اختلفت من قلعة إلى أخرى.

ج- كتب التراجـــــم.

تبدو أهمية كتب التراجم في أنها تلقي ضوءاً على الجوانب الفكرية والثقافية في فلسطين خلال فترة الدراسة وبعدها، وتتطرق أحيانا خلال ترجمتها للأشخاص إلى تقديم بعض اللمحات عن النواحي الحضارية الأخرى؛ الاجتماعية والإدارية والاقتصادية، فضلاً عن الجوانب السياسة، فهي تتكامل من النواحي الموضوعية؛ فبعضها يختص بتراجم الساسة والقادة العسكريين، وبعضها الآخر بالعلماء والأدباء والشعراء، وثالث يختص بالقضاة والأطباء والمحدثين؛ ومن كتب التراجم التي اعتمدت عليها.

1- ابن خلكان([2]) "وفيات لأعيان وأنباء أبناء الزمان": يعد هذا الكتاب من كتب التراجم

([1]) **الحموي:** هو أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، ولد في الفترة الواقعة بين سنتي 574-575/1178-1179م. ببلاد الروم، ولكنة وقع في الأسر وهو صغير، واشتراه احد تجار بغداد كي يعتمد عليه في تجارته، وتنقل ياقوت بين كثير من الأمصار، توفي بظاهر مدينة حلب سنة622هـ/1228م.ابن خلكان، وفيات،ج6، ص127-139.

([2]) **ابن خلكان:** هو شمس الدين محمد بن بكر، ولد في ابريل س608هـ/1211م.وتفقه بالموصل والشام، التقى كبار العلماء، وسكن مصر مدة وناب في القضاء، ثم ولى قضاء الشام عشر سنين وكان إماما فاضلا بصيرا بالعربية علامة في الأدب والتاريخ توفى سنة 681هـ/1282م.ابن خلكان، وفيات،ج1، مقدمة المحقق، ص5-13.ابن كثير، البداية،ج13، ص305.

المهمة، وتكمن أهميته في كون مصنفه اعتمد على مصادر عديدة، وقد ترجم ابن خلكان لعدد من السلاطين والملوك الأيوبيين والمماليك، وكان لبعضهم دور في النواحي الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية؛ بالإضافة لذلك ترجم لعدد من السياسيين والعلماء والأدباء وغيرهم وقد أفادت الدراسة كثيرا من تلك التراجم.

2- ابن أبى أصيبعه([1]) "عيون الأنباء في طبقات الأطباء": وفى هذا الكتاب زودنا ابن أصيبعه بمعلومات عن علم الطب في فلسطين في فترة الدراسة، واستفدت منة بشكل خاص في الفصل الرابع عند الحديث عن الحياة العلمية في فلسطين، وخاصة عند الحديث عن الجانب الطبي والبيمارستانات في فلسطين.

3- الذهبي([2])"سير أعلام النبلاء":يعد هذا الكتاب من اكبر الموسوعات التاريخية الشاملة التي بحثت في التراجم، والطبقات، ومن خصائص موسوعة الذهبي أنها غطت سبع قرون ونيفا من تاريخ رجال الإسلام، وذلك منذ فجر الدعوة الإسلامية، وحتى سنة 746هـ/1345م. كما أنها تناولت جميع طبقات الشعب؛ خلفاء وسلاطين وملوك وحكام وأمراء وشعراء وأدباء مسلمين وغير مسلمين، وقد أفادت الدراسة من هذه الموسوعة في معظم فصول الدراسة.

ثانيا المصادر الأجنبية:

أ- الــــوثائق.

يعد كتاب "سجل كنيسة القيامة في بيت المقـــدس" "le Cartulaire de Chapitre de Saint Sepulere de Jerusalem" من أهم المصادر الأساسية التي رجع إليها الباحث، وقد قامت الباحثة الفرنسية جنفيف برسك بوتيه Genevieve Bresc Bautier بنشر وثائق السجل باللغة اللاتينية في باريس سنة 1984م بعناية فائقة مع فهارس كاملة للأعلام والأماكن والمصطلحات، كما قامت بوضع ملخص باللغة الفرنسية لكل وثيقة من الوثائق التي ورد ذكرها، وترجع أهمية وثائق كنيسة القيامة بالنسبة للبحث، أنها قدمت صورة كاملة عن حجم المنح والإقطاعات التي حازت عليها كنيسة القيامة في حدود مملكة بيت المقدس، وتلك الاقطاعات التي قام رجال الدين بشرائها، كما أشارت وثائق كنيسة القيامة إلى أن رجال

([1]) **ابن أبى أصيبعه:** هو موفق الدين احمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي الشهير بابن أبى أصيبعه، ولد في دمشق سنة 600هـ/1203م. كان عالما في الأدب والطب والتاريخ، وكان له فضل عظيم فما جمعة من أخبار ومعلومات فاق فيها غيرة في التاريخ الطبي؛ فقد ترجم لأطبائه تراجم دقيقة بلغت أربعمائة ترجمة توفى سنة 668هـ/1269م. ابن كثير، البداية،ح13، ص261. ابن العماد، شذرات،ح3، ص327 الغامدي، بلاد الشام، ص24.

([2]) **الــذهبي:** هو شمس الدين محمد، ولد بدمشق سنة 673هـ/1211م. برع في علوم الحديث والقراءات والتاريخ، صنف مصنفات عديدة بلغت حوالي مائة مصنف، وفى عام 741هـ/1340م.فقد بصرة فإنقطع عن التأليف، واكب على التدريس بمدارس دمشق حتى وفاته سنة748هـ/1347م.الذهبي، السير،ح1، مقدمة المحقق، ص13- 15. أبو المحاسن، النجوم،ح10، ص145،144. ابن العماد، شذرات،ح3 ص153- 155.

الدين اللاتين في كنيسة القيامة قاموا بإنشاء مجتمعات استيطانية في بعض الاقطاعات التي حصلوا عليها، ومن هذه المواقع على سبيل المثال قرية البيرة، وقرية القبيبة([1]).

ولإنجاح العملية الاستيطانية عملوا على استقطاب المستوطنين الأوروبيين للإقامة في هذه المجتمعات، وقدموا كثيراً من الإغراءات والإعفاءات من أجل تشجيعهم على الإقامة في هذه المجتمعات والقرى؛ فعلى سبيل المثال قدموا إغراءات كثيرة لثلاثة أفراد من المواطنين الأوربيين من اجل تشجيعهم على الاستقرار في مستوطنة راماتيس التي قاموا بإنشائها بالقرب من مدينة القدس، حيث قدموا لهم قطعا من الأرض، وسمحوا لهم بإقامة المنازل على الأرض التي حصلوا عليها دون دفع بدل الإيجار([2])

وتعرضت بعض وثائق كنيسة القيامة إلى السياسة الصليبية ضد السكان المسلمين وتعرضهم للطرد والتهجير من قراهم، وأراضيهم وذلك من اجل تفريغ القرى والأراضي، ومنحها للكنائس والأديرة، ومن أمثلة ذلك ما تعرض له سكان قرية كفر مالك المسلمون الذين هاجروا إلى قرية بيت فوريك الواقعة في حدود إقطاعية نابلس، وذلك من اجل منح قرية كفر مالك إلى كنيسة القيامة ([3])

كذلك أشارت الوثائق إلى فئات السكان التي كانت تقيم في الاقطاعات الكنسية([4]) ومشاكل سكان هذه الاقطاعات مع رجال الدين، وأوضحت هذه الوثائق أن كثيراً من الخلافات نشبت بين رجال الدين اللاتين حول بعض الأمور الدنيوية، وتركزت، هذه الخلافات حول ملكية بعض الأراضي وجباية ضريبة العشر وبذلك أفادت هذه الوثائق الباحث في التعرف على النظام الضرائبي الذي قررته المملكة الصليبية على أراضي المستوطنين([5]).

ولكن على الرغم من الإفادة الكبيرة التي قدمتها هذه الوثائق لموضوع الدراسة إلا أنها لم تأت على حجم المبالغ المالية التي قدمها رجال الدين اللاتين من اجل تأسيس مستوطنات جديدة، كذلك لم تتعرض لذكر جميع الطوائف المسيحية التي كانت تعيش في المملكة؛ كذلك لم تشر إلى أنوع الصناعات التي كانت قائمة في الإقطاعات الكنسية، ولم تشر إلى عدد السرجندية الذين كانت تقدمهم كنيسة القيامة للملك الصليبي، ومهما يكن من أمر فانه لا غنى للباحث في النشاط الاقتصادي، والأوضاع الاجتماعية في فلسطين خاصة وبلاد الشام عامة من الإفادة من هذه المعلومات الواردة في سجل كنيسة القيامة نظراً لما تحتويه من معلومات

([1]) Genevieve, B.B. Ie cartulaire de chapitre, Actes no.150,151,pp.292_301.

([2]) Genevieve, op.cit., Acte no,126,pp.252,253.

([3]) Ibid., Actes no.30,31.pp. 92-95.

([4]) Ibid., Acte no.43,pp.41,112.acte no.121, pp. 244 -247.

([5]) Ibid ,Acte no.126, pp. 252,253.

قيمة في طريق التعامل مع فئات المجتمع في المملكة وعن تقسيمات الأراضي الزراعية وأنواع المحاصيل ، هذا إلى جانب أنها زودتنا بمعلومات مهمة عن نظام الضرائب التي فرضها رجال الدين اللاتين.

ومن الوثائق والسجلات التي أفادت موضوع الدراسة في كثير من جوانبه ما ورد في كتاب "سجل ملوك بيت المقدس" "Regesta Regni Hierosolymitana" الذي وضعة رينالد روهرشت Rohricht الألماني([1]) وعلى الرغم من أن هذا الكتاب يعتبر من المؤلفات الحديثة إلا أن مادته تتصف بالأصالة، حيث تم استخلاص ونقل محتواه من مصادر أصلية أشارت إلى المنح والإقطاعات التي حصلت عليها الكنائس والأديرة في الأراضي المقدسة، وتسهيلا للاطلاع صنف روهرشت مؤلفه بتجميع وثائق كل سنة في مجموعة واحدة، وحرص على ضبط تاريخها مشيرا إلى الوثائق والمصادر التي استقى منها المعلومات، وتكمن أهمية هذا السجل في أن وثائقه تناولت موضوعات سياسية، واقتصادية، واجتماعية في المملكة الصليبية منذ عام 492هـ/1099م ولعل أهمها القرار الذي اتخذه الملك عموري الأول بإعفاء المزارعين في عكا من الضرائب على المحاصيل الزراعية إذا ما تعرضت لحالات التدمير والتخريب؛ من قبل القوات الإسلامية، كما ذكرت بعض الوثائق التي تتحدث عن البدو وعلاقتهم بالسلطة الصليبية.

ولعل من أهم الوثائق المنشورة ما احتوته مجموعة "المواثيق العامة لجماعة إسبتارية القديس يوحنا في بيت المقدس" التي نشرها المؤرخ ديلافيل لي رولكس Delaville Le Roulx في أربعة مجلدات ضخمة([2]) وهذا الكم الهائل من الوثائق يدل على أن فرسان الاسبتارية أولوا عملية الاحتفاظ بها عناية فائقة منذ القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي حتى الوقت الحاضر، حيث اصطحبوها معهم خلال انتقالاتهم من الشام إلى قبرص ثم إلى رودس ومالطة، والذي يهم موضوع البحث الجزء الأول من المجموعة إضافة إلى قليل من وثائق الجزء الثاني، ويتضح من بين ثنايا الدراسة أن هذه الوثائق أفادت الباحث في تتبع كثير من القضايا التي تتعلق برسم الخريطة الإقطاعية لفلسطين، وما طرأ عليها من تغيرات بفضل المنح، والهبات التي حصلت عليها جماعة الاسبتارية، ومما يؤخذ على هذه الوثائق أنها لم تشر إلى كثير من أوجه الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية.

وتلي مجموعة مواثيق الاسبتارية في الأهمية مجموعة أخرى، دأب على نشرها المؤرخ الايطالي سبستيان باولى paoli sabastiano تحت اسم "المراسلات الدبلوماسية للجماعة

([1]) Rohricht, R., Regni Hierosolymitam,voli,ti,Innsbruck,1893.

([2]) Delaville Le Roulx,(ed.) Cartulaire General de L,order des Hospitaliers de S. Jean de Jerusalem (1100 -1310), 4 vols., Paris, 1894-1906.

الرهبانية المحاربة في بيت المقدس "والتي تعرف اليوم بجماعة مالطة([1]) وذلك في جــزءين عامي1731–1734م وقد ركز باولى أثناء جمعه للوثائق من أرشـيف مالطـة فـي هـذه المجموعة على إبراز أعمال مقدمي الاسبتارية وجهودهم الدبلوماسية أو اتصالاتهم بغيـرهم من القادة الصليبيين، وجاء تصنيف الناشر لمجموعة الوثائق في قسمين: الأول يحتوى العقود الدبلوماسية الموثقة بين مقدمي الجماعة والملوك والأمراء العلمانيين، بينما خصص الثـاني للمراسيم البابوية الصادرة بشان أمور تخص الإسبتارية، وامتازت مجموعته بأنهـا أوردت، وثائق لم تحتويها مجموعة ديلافيل، وتم الإفادة من المجموعتين فيما يتعلق بموضوع البدو.

ب- المصادر التاريخية.

1–فوشيه الشارتري fulcher of charters([2]) وضع فوشيه الشارترى كتابه "أعمال الفرنجة حجاج بيت المقدس" "Gesta Francorum Iherusale peregrinantium" واعتمد الباحث على الترجمة العربية لهذا الكتاب التي قام بها زياد العسلي بعنوان "تاريخ الحملة إلى القدس" والتاريخ الذي كتبة فوشيه هو المؤلف الوحيد الذي كتبه مستوطن إفرنجي محلي يغطى كـل الفترة التكوينية الباكرة التي أعقبت الحملة الصليبية الأولى، وكان شاهد عيان لمعظم الإحداث التي دونها في كتابة علاوة على أنة استقى بعض المعلومات الأخرى من شهود عيان، وكذلك من الخطابات المرسلة من بيت المقدس إلى الغرب الأوربي، وعلى هذا فالمادة التاريخية التي قدمها فوشيه غزيرة حيث غطت جوانب كبيرة من تاريخ الصليبيين في الشرق، وبخاصة في مملكة بيت المقدس الصليبية وما حلّ بمملكة بيت المقدس خلال العقود الثلاثة الأولى، وقـد أفاد الرسالة في إشارته بشان الدور الحربي لحامية عسقلان في مهاجمة مملكة بيت المقـدس الصليبية، وخاصة الحدود الجنوبية لها الأمر الذي ساعد في توضيح إسناد المملكـة لـبعض قلاعها للهيئات الحربية، كما أفادني تحديداته لبعض القلاع، كما أفاد الدراسة في ذكر أحداث معركة الصنبره 507هـ/1113م وما أعقبها من اجتياح القوات الإسـلامية وتمكنهـا مـن الوصول إلى أسوار مدينة القدس وإحداثهم أضرارا اقتصادية للأراضي الزراعيـة، ومـن المعلومات المهمة التي جاءت في كتابه؛ الهجوم الذي تعرضت له قرية البيرة الاستيطانية من قبل حامية عسقلان 518هـ/1124م وأمدنا فوشيه بمعلومات في غاية الأهمية عن عمليات التهجير العنصرية التي اتبعها الفرنج فـي حـق سـكان مدينـة بيـت المقـدس وغيرهـا من المدن الفلسطينية.

وأفاد كتاب فوشيه الدراسة في تزويدها بمعلومات عن تأثر الفرنجة خلال حقبة زمنيـة قصيرة بعادات وتقاليد الشرقيين سواء الاجتماعية منها والاقتصادية وذلك باختلاطهم بالسكان

([1]) paoli, S. (ed.), Codice Diplomatico Del Sacro Militare Ordine Geroslimitan Oggi Di Malto, 2 vols.

([2]) **فوشيه الشارتري**: ولد فوشيه بمدينه شارتر بفرنسا في الفترة الواقعة بين سنتي 450_451هـ/1058_1059م واشتـرك=

الأصليين، وزواجهم من المسيحيات الشرقيات، واهتمامهم بالزراعة كما كان الشارتري شاهد عيان معاصر للكوارث، والأوبئة التي حلت بمملكه بيت المقدس الصليبية، وقدم إشارات مهمة في هدا الشأن

2- ألبرت ديكس Albert d,Aix([1]) صنف ألبرت ديكس كتاب "تاريخ بيت المقدس" "Historia Hierosolymitana" وأفادت الدراسة من الكتاب في جوانب عديدة عن الحملة الفرنجية الأولى وتأسيس مملكه بيت المقدس الصليبية، وعلى الرغم من أن المؤلف كان قد ألف كتابه بناء على سماعه ممن اشترك في الحملة الأولى ثم عاد إلى فرنسا بعد تحقيق نجاح الفرنجة في الاستيلاء على المدينة المقدسة فضلا عما استقاه من المصادر المعروفة، وبعض المراسلات، ومن هذه الجوانب استمرار الصليبيين في غزو البلدان الإسلامية المجاورة وملاحقة أفراد المقاومة الإسلامية بهدف تأمين حدود الكيان الصليبي، ومصادرة الأراضي، وتشجيع الحركة الاستيطانية، ومن القضايا الأخرى التي أفادت البحث ما ورد في كتابه حول الضريبة التي فرضت على مدن عكا وقيسارية وعسقلان وقيمتها خمسه ألاف بيزنت مقابل الأمان وعدم الاعتداء على سكانها، ومن الأمور الأخرى التي أفادت الباحث في دراسته عزم الأمير جودفري ومن بعده الملك بلدوين الأول Baldwin I على توسيع الرقعة الاستيطانية من خلال وضع خطة مدروسة ومحكمة لمهاجمة المدن الساحلية والداخلية بهدف الاستيلاء عليها وزودنا ألبرت ديكس بكثير من المعلومات عن بعض الشخصيات الفرنجية الإقطاعية، وكذلك أمدنا بمعلومات مهمة عن الخلافات التي نشبت بين هؤلاء الإقطاعيين حول إقطاعيه حيفا، وقيام الملك بلدوين الأول بتقسيم إمارة الجليل إلى إقطاعيات صغيره بعد رحيل تانكرد Tancred وانفرد بذكر انقسام القبائل العربية على نفسها بين خاضعين للفرنج، وحلفاء لكل من مصر ودمشق.

3- وليم الصوري willim of tyre ([2]) صنف كتابه "تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار" "Historia Rerum in partibus Trans Mar in is Gestarum"، وقد اعتمدت

= في الحملة الفرنجية الأولى في شوال 489هـ/تشرين الأول سن1096م ضمن قوات روبرت دوق نورمانديا، وستيفن كونت بلوا وشارتر، وكان فوشيه مرافقا لبلدوين الأول، وأقام معه في الرها نحو سنتين، ثم مكث في بيت المقدس حتى521هـ/1127م0 الشارتري، تاريخ الحملة، ص7-11.يوسف، العرب، ص7.

([1]) **ألبرت ديكس:** ينتمي مؤلف كتاب تاريخ بيت المقدس لمدينه ديكس الألمانية،وليست البروفانسية على عكس ما كان يعتقد الكتاب القدامى،وكان ألبرت كاهنا وأمينا لكنيسة ايكس، ولم تمدنا المصادر المعاصرة ولا حتى المراجع الحديثة بأيه معلومات عن اسمه الكامل أو عن اسم أسرته كما أن المصادر لم تشير إلى تاريخ ولادته أو وفاته. توديبود، تاريخ الرحلة، مقدمه المحقق، ص22.يوسف، العرب، ص10.

([2]) **وليم الصوري:** ولد وليم الصوري سنة 524هـ/1130م في بيت المقدس وقد أمضى فترة صباه فيها؛ ثم سافر إلى أوربا متنقلاً بين فرنسا وايطاليا طلبا للعلم؛ فدرس الفلسفة والرياضيات والقانون وعلم اللاهوت ،وفى سنة561هـ/1165م.عاد إلى

على الترجمة العربية لهذا الكتاب التي قام بها سهيل زكار، وهو بعنوان "تاريخ الحروب الصليبية"، ويعد كتاب وليم الصوري موسوعة في تاريخ الحروب الصليبية، وتكمن أهميته في أنه يتناول حقبة طويلة من تاريخ الصليبيين امتدت حتى سنة580هـ/1184م وتأتى أهميته أيضا لكون مؤلفه كان معاصراً لأحداث الحروب الصليبية، وكان شاهد عيان عليها.

كما أمدنا وليم بمعلومات اقتصادية واجتماعية وعسكرية أثرت الدراسة بالمعلومات حول احتلال الصليبيين للمدن الفلسطينية، وارتكابهم المجازر الوحشية ضد المسلمين، وذلك لإجبار الساكن في المناطق الأخرى على هجر أراضيهم وأملاكهم.

كما زودنا كتاب الصوري بكثير من المعلومات حول الاضطهاد الصليبي للمسلمين، وقد تجلت مظاهر الاضطهاد في إصدار الصليبيين قراراً بتحريم دخول المسلمين مدينة القدس أو الإقامة فيها لكونهم غير جديرين بالاحترام.

وأمدنا وليم الصوري بمعلومات عن جهود ملوك بيت المقدس في بناء العديد من القلاع وظروف تطورها واختيار أفضل المواقع لها من حيث توافر مصادر المياه، والارتفاع والحصانة الطبيعة التي تمكن الصليبيين من مهاجمة المقاومة الإسلامية، ثم مساهمتها في تمزيق وحدة المسلمين، وأفادت الدراسة من كتاب الصوري في توضيح أثر القلاع والحصون الفرنجية في تدعيم حركة الاستيطان الصليبي في المنطقة بعد طرد وتهجير أصحابها.

كما أفادت الدراسة من المعلومات التي قدمها وليم الصوري عن الإقطاعيات الصليبية والأسر الإقطاعية المختلفة، وتأسيس الهيئات الدينية في مملكة بيت المقدس الصليبية، وخاصة هيئتي الاسبتارية والداوية، وانتقد الدور السلبي الذي قامت به هذه التنظيمات في سبيل مراعاة مصالحها السياسية العليا على حساب مصالح الصليبيين في الشرق.

4- مجهول ([1]) Anonymous وجاء كتابه بعنوان "Le continuation de Guillaume de tyre (1184-1197)" وقد اعتمدت على الترجمة العربية لهذا الكتاب التي قام بها سهيل زكار وهى بعنوان "ذيل تاريخ وليم الصوري" وتكمن أهمية هذا الكتاب في أنه يعتبر تذييلا وتكميلا لكتاب وليم الصوري، وقد اتبع مؤلفه طريقة السرد الحولي للأحداث، وهى الطريقة

الشرق حيث أصبح رئيس ديوان الرسائل في مملكة بيت المقدس ثم تقلد عدة مناصب دينية كان أخرها رئيسا لأساقفة صور 571-580هـ/1175-1184م. كما عمل وليم الصوري مستشارا للمملكة الصليبية من 570هـ/1174م. حتى وفاته. انظر الصوري، تاريخ، مقدمة المترجم من 7-73.توديبود، تاريخ الرحلة، مقدمة المترجم ص26. رنسيمان، تاريخ،ح2، ص773،774.

([1]) هذا الذيل هو فصول كتبها صاحبها المجهول، وأراد بها إكمال كتاب وليم الصوري، وقد عثر على هذا الكتاب في مكتبة بلدية ليون بفرنسا، ونشر لأول مرة عام 1982م. وعكفت على نشره السيدة مرجريت روث موغان Margaret Ruth Morgan، وقد سبقته بدراسة لتاريخ أرنول وذيول تاريخ وليم الصوري. كأطروحة للدكتوراه في كلية اللغة الحديثة ولغات القرون الوسطى بفرنسا، وقد قام بترجمة الرسالة إلى العربية سهيل زكار تحت اسم، ذيل تاريخ وليم الصوري وقع ضمن الموسوعة الشاملة في الحروب الصليبية، الجزء الثامن.

التي كان يتبعها معظم المؤرخين المسلمين وقت ذاك؛ بدأ المؤرخ تاريخه بإعطـاء لمحـات سريعة عن بداية الحكم الصليبي للأراضي المقدسة، وأهم الأعمال التي قام بها ملوك بيـت المقدس الأوائل وسنوات حكمهم، وأمدنا الكتاب بمعلومات عن الأسر الحاكمة للإقطاعيـات وتطورها وانتخاب البطريرك هرقل وغرامياته مع باسك دى رفيـري Basqus de Riveri زوجة احد التجار الصليبين في مدينة نابلس، وتعرض الكتاب لنشاط صلاح الدين الأيـوبي وجهوده الرامية إلى تحرير الأراضي المقدسة من الصليبيين، وذكر أن مـن أسـباب عقـد ريموند للصلح مع صلاح الدين هو الخروج من الأزمة الاقتصادية التي كانـت تمـر بهـا المملكة لانحباس الأمطار، وكان من نتائج هذه المعاهدة إمداد المملكـة الـصليبية بـالمواد التموينية من قبل المسلمين، وأشار الكتاب إلى معركة حطين وانتصار المسلمين، وما صاحب ذلك من قيام القوات الإسلامية باستعادة معظم الأراضي المحتلة.

وأفاد الكتاب بمعلومات مفيدة عن فتح صلاح الدين لبيت المقدس والمعاملة الحسنة التي وجدها الصليبيون من صلاح الدين، وتعرض الكتاب لذكر حصار الصليبيين لعكا، وأشار إلى الأوضاع الصعبة التي لحقت بالمسلمين والصليبيين على حد سواء بسبب قلة السلع الغذائيـة وارتفاع الأسعار، وأشار إلى الترتيبات التي اتخذها الصليبيون بعد استعادة مدينة عكا، وإعادة توزيع الأملاك على أصحابها، بالإضافة إلى ذلك أمدنا بمعلومات قيمة عن الأسر الإقطاعية وخاصة أسرة الإيبليين التي ترسخ نفوذها في الأراضي المقدسة

5- مجموعه" قوانين بيت المقدس" "Assises de Jerusalem"؛ التي قام بنشرها Beugnot في جزءين؛اشتمل الجزء الأول علـى كتاب حنا ابلين Jean d,Ibelin ([1]) المعنون باسـم "Livre des Assises de la haute" والجزء الثاني لكتاب فيليب دي نوفـار Philip de Navarre([2]) المعنون باسم "Livre de forme de blait" وتعتبر مجموعه القوانين مـن أهم المصادر اللاتينية التي تناولت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والأحـوال القانونيـة للصليبيين في مملكة بيت المقدس، واعتمد الباحث بشكل خاص على قوانين بيت المقدس عند الحديث عن الخدمات العسكرية التي كان على الإقطاعات القيام بها لحساب المملكة اللاتينية، وكذا أفاد بوجود محاكم برجوازية.

وتحدثت قوانين بيت المقدس أيضا عن الأسواق الصليبيـة، وعن الدور المهم الذي كان

([1]) **حنا ابلين:** وهو صاحب يافا، وابن فيليب دى ابلين صاحب بيرسـتيرونا peristerona فـي مقاطعـة ميـسورا Messorea القبرصية، وأمه هي أليس دى مونتبليارد التي كان أبوها وكيلا لقبرص أثناء صغر سن هيوج الأول ملك قبرص في الفترة ما بين سنة1205-1218م. نوفار، حروب، ص230،231، هامش11.

([2]) **فليب دي نوفار:** ولد حوالي سنة1195م. في مدينة نوفار في لومباردي هاجر إلى الشرق سنة 1218م. وعمـل لـدى رالـف صاحب طبرية ثم انتقل إلى خدمة حنا ابلين صاحب بيروت وأصبح واحدا من مستشاريه ومن اتباعية الإقطاعيين، وفي سـنة 1265م. كتب مؤلفه القانوني وتوفى سنة 1269م. نوفار، حروب، ص16-20.عطية، إمارة أنطاكية، ص 42، هامش30.

يقوم به المحتسب بمساعدة رجال الشرطة، وأمدنا حنا ابلين بمعلومات عن القادمين الجـــدد من أوربا، وذكر أن معظم القادمين الفرنجة هم من الفلاحين؛ مما يعنى أنه كان عنـــد قـــادة الصليبيين اهتماما كبيرا لتوطين هؤلاء في القرى للاستغناء عن خدمات الفلاحين المسلمين.

6- يعقوب الفيترى Jacque de vitry ([1]) ألف يعقوب الفيترى كتاب" تاريخ بيت المقدس" "the history of Jerusalem" وقد اعتمدت على الترجمة العربية لهذا الكتاب التي قام بها سعيد البيشاوى، وقد أشار الفيتري إلى قلة عدد الفرنجة والصليبيين الذين استقروا في المدينة المقدسة في بداية الاستيطان الصليبي في فلسطين؛ كما أشار إلى أعمال ملوك بيت المقـــدس الصليبيين سواء من خلال استيلائهم على المدن والقرى والضياع؛ أو بتشييد القلاع ومحاربة المسلمين؛ كما أفادت الدراسة من المعلومات الاجتماعية التي قدمها الفيتـــرى عـــن البنيـــة السكانية للمملكة الصليبية، وتأثر الصليبيين في المملكة الصليبية بالمسلمين أو ما يمكـــن أن نسميه بظاهرة التمشرق.

ج- كتب الرحالــــــة الأجانب.

وإلى جانب المصادر التاريخية الأوروبية المعاصرة اعتمد الباحث على العديد من المصادر الجغرافية، وكتب الرحلات التي أفادت البحث في كثير من الجوانب المهمة، وألقت الـــضوء علي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والدينية في فلسطين خلال فترة الحـــروب الـــصليبية ومن أهم هذه المصادر

1- سايولف saewulf ([2]) والذي جـــاء كتابـــه تحـــت عنـــوان "Introduction of the pilgrimage of saewulf to Jerusalem and the holy land."، واعتمـــدت علـــي الترجمة العربية التي قام بها سعيد البيشاوي لهدا الكتاب بعنوان" وصف رحلة الحاج سايولف لبيت المقدس والأراضي المقدسة 1102-1103م" وتمثل رحلة سايولف أهمية خاصة بـــين رحلات مجموعة الحجاج إلى فلسطين نظراً لأنها تمت خلال السنوات الأولي مـــن تـــاريخ الاستقرار الصليبي، وتكمن أهميتها بأن صاحبها انفرد بالإشارة إلى أساليب المقاومـــة التـــي كان يتبعها أفراد المقاومة الإسلامية ضد القوات الصليبية من خلال بعض الكمائن، كمـــا أن سيولف يزودنا ببيان واضح عن سرعة قيام الصليبيين بتنصير القدس باعتماد برنامج شامل

([1]) **يعقوب الفيترى**: يعتبر واحد من ابرز الأسماء اللامعة في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، ولد بمدينـــة الفيتـــرى على نهر السين عام 1187م. وأتم دراسته في جامعة باريس، وكان يعقوب الفيترى واحدا من المتحمسين للحركـــة الـــصليبية ففي عام610هـــ/1213م. قام بالدعوة للحملة الصليبية ضد الالبيجلسيين في إقليم لانجلوا بجنوب فرنسا؛ تولى منصب رئـــيس أساقفة عكا 614هـــ/1217م.ورافق قوات الحملة الصليبية الخامسة إلى دمياط 615هـــ/1218م وفى عام 627هـــــ/1217م. عينة البابا جريجورى التاسع رئيسا لأساقفة بيت المقدس؛ توفى سنة 1240م الفيترى.، تاريخ ، مقدمة المؤلف ص9-11.

([2]) زار الحاج سايولف الأراضي المقدسة في بداية الحكم الفرنجى الصليبي لها، وهناك من يشير إلى أن سايولف عبارة عن اسم مستعار وقد اتخذه بسبب رحلاته المتكررة لذا فهو شخصية غير معروفة في التاريخ.دانيال، وصف، ص22، هامش6.

لتشييد الأبنية الدينية، وتغيير أسماء الأماكن في القدس، ففي وصف فلسطين الذي أورده سايولف تعبيرا عن الاعتقاد الشائع بان فلسطين ارض ميراث مسيحي.

2- دانيال Daniel([1]) "pilgrim age of the Russian abbot in the holy land." واعتمد الباحث على الترجمة العربية التي قام بها سعيد البيشاوي وداود أبو هدبه لهدا الكتاب بعنوان "رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب في الديار المقدسة 1106-1107م "وتكمن أهمية الرحلة في أن صاحبها تعرض إلي مسألة الأمن في المنطقة، وتحدث عن استمرار المقاومة الإسلامية فيها، كما أمدنا الرحالة بمعلومات عديدة أفادت موضوع الدراسة في الجوانب الحضارية التي كانت سائدة في الأراضي المقدسة أثناء زيارته، وتعرضه لبعض الفئات السكانية في منطقة الخليل مثيرا إلى عنصر السريان، وانتشارهم في عدد من القرى

3- يوحنا فورزبورغ John of wurzburg ([2]) صنف رحلته تحت عنوان "Introduction of the description of the holy land by john of wurzburg."، واعتمد الباحث على الترجمة العربية التي قام بها سعيد البيشاوى لهذا الكتاب بعنوان "وصف الأراضي المقدسة في فلسطين" وقد أفادت رحلته في إلقاء الضوء على أحداث الحملة الصليبية الثانية وما دار من أقوال حول دور الداوية في إفشال الحملة، وأشار إلى هيئتي الاستبارية والداوية، ومدى ثرائهم وتميزهم في المملكة؛ كما تناولت الرحلة جانبا مهما وهو التنافس السياسي بين الأمم الأوربية التي ساهمت في المشروع الصليبي؛ حيث يقرر أن القلة القليلة من الألمان بقيت في المملكة بعد سقوط بيت المقدس، وتحدث عن مستشفى القديس يوحنا، وبعض الأعياد الصليبية؛ ومنها الاحتفال بسقوط القدس في أيدي الصليبيين.

4- ثيودريش Theodrich([3]) الذي صنف رحلته تحت اسم "Description of the holy land.": وقد اعتمدنا على الترجمة التي قام بها سعيد البيشاوى ورياض شاهين تحت عنوان "وصف الأماكن المقدسة في فلسطين" وأفادنا الرحالة في ذكره للعديد من الإشارات الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية؛ فتحدث عن التنظيمات الدينية والقلاع الصليبية

([1]) بدا الحجاج الروس يغدون إلى الأراضي المقدسة منذ بداية القرن الحادي عشر الميلادي؛ فقد زارها العديد من الحجاج قبل خضوعهم للحكم الفرنجي؛ أما دانيال فقد زارها في سنة 500-501هـ/1106-1107م. كان دانيال أسقفا لمدينة سوريف suriev سنة 509هـ/1115م. توفى في 516هـ-1122م. وقد ترجمت رحلته إلى العديد من اللغات. دانيال، وصف، مقدمه المؤلف، ص25-38.

([2]) **يوحنا فورزبورغ:** هو مواطن ألماني من مدينة فورزبورغ، وقد زار الأراضي المقدسة فيما بين 1160-1170م. وقد ذكر أنه كان قسيسا في كنيسة فورزبورغ على الرغم من أن سجل كنيسة فورزبورغ لا يشمل على اسم شخص يدعى يوحنا. فورزبورغ، وصف، مقدمة المؤلف، ص14.

([3]) **ثيودريش:** لم يعرف عنة سوى أسمه الأول، ولم تزودنا المصادر المعاصرة بأية معلومات عن نسبه، ومكان مولده ونشأته أو عن الأعمال التي يمارسها، وكان ثيودريش متواجدا في فلسطين 559هـ/1164م. وقد صاغ رحلته على هيئة كتاب؛ كتبه بعد عودته إلى ألمانيا وبعد استعادة المسلمين583هـ/1187م. ثيودريش، وصف، مقدمة المؤلف، ص11-15

والأسواق، وتطرق إلى وضع غير النصارى من المسلمين واليهود في مملكة بيت المقـدس، وذكر أنه لا يمكن لأحد منهم التواجد أو المرور في مدينة بيت المقدس إلا إذا حصلوا علـى تصريح خاص، كما أنه تحدث عن الطرق التجارية الداخلية، والقرى التي أنشأها الصليبيون.

5- بنيامين التطيلى Benjamin of Tudela([1]) وقد احتوت رحلته على إشـارات مفيـدة عن هيئتي الاستبارية والداوية، وخاصة فيما يتصل بالجانب العلاجي للأولى، ومقر الثانيـة.

كما أفدت من المعلومات التي أوردها الرحالة عـن اليهـود وأعـدادهم فـي المـدن الصليبيـة، وأوضاعهم الاجتماعية والاقتصاديـة، وتحدثه عن ميناء عكا بوصفه العاصمـة التجارية للمملكة الصليبية، ومحطة رئيسية للحجاج الصليبيين.

6- بورشارد "Burchard."([2]) "Description of the holy land " واعتمد الباحث على الترجمة العربية التي قام بها سعيد البيشاوى لهذه الرحلة بعنوان "وصف الأراضي المقدسـة" وقد اعتبرها الباحث من أهم كتب الرحلات وبالتالي للدراسة، حيث تحدث بورشـارد عـن البنية السكانية في فلسطين بما فيها من تنوع واختلاف، وانفرد عن غيره من الرحالة الـذين زاروا الأراضي المقدسة بالإشارة إلى البدو والتركمان الذين كانوا يعيشون على تربية الماعز والماشية، والحياة غير المستقرة، كما أنه ذكر عادات العناصر السكانية في فلسطين، حيـث أشار إلى أنه ليس من عادات المسلمين تناول النبيذ والخمر كما هو الحال عند المـسيحيين، وأسهب بالحديث عن الأوضاع الاقتصادية لفلسطين خلال فترة الحروب الـصليبية، وأمـدنا بمعلومات عن أهم الصناعات التي كانت تعتمد على الموارد الزراعية.

ثالثا المراجع الحديثـــة:

وأفادت الدراسة من عدد من المراجع الحديثة التي لا تمثل فائدة في إثراء وتعزيز المادة المصدرية فحسب؛ بل وفى التعرف على اهتمامات الباحثين والدارسـين بفتـرة الحـروب الصليبية، وما توصلت إلية دراساتهم، الخاصة للأوضاع الاجتماعية في الأراضي المقدسة، ومن أبرز الدراسات المتخصصة التي تمت الإفادة منها كتاب.

1- ميـرون بنفينـستي Meron Benvenisti "الـصليبون فـي الأراضـي المقدسـة" "the crusaders in the holy land" واعتمد الباحث علـى النـسخة الـصادرة باللغـة

([1]) **بنيامين**: ارتحل إلى الـشرق مـن مدينـة طليطلـه، وقـام بـالتجول فـي منـاطق جنـوب فرنـسا وايطاليـا واليونـان والقسطنطينية، وكذلك بلاد الشام والعراق ومصر واليمن؛ ثم عاد إلى اسبانيا، وكانت رحلته في حدود مـابين أعـوام 561-569هـ/1165-1173م. بنامين، الرحلة، مقدمة، المؤلف، ص138- 148.

([2]) **بورشارد**: كان موطنا ألماني من بلدة سترازبورغ، وقد اشتغل في سلك الرهبنـة، وأصـبح راهبـا فـي هيئـة الـدومنيكان التي أسست عام 1215م، ذهب بورشارد إلى الشرق عام 630هـ/1232م. وقد قام بزيارة أرمينيا وسوريا ومـصر، ويقـال أنه امضي في جبل صهيون نحو عشر سنوات، وأنة لم يعد إلى أوربا حتى أواخر عمره، غير أن تاريخ وفاته غير معـروف. بورشارد، وصف، مقدمة المؤلف، ص16،17.

الانجليزية في استقائه للمعلومات؛ حيث يتحدث فيه المؤلف عن حياة الفــرنج، وأنظمــتهم، وقوانينهم ومستوطناتهم، وقلاعهم في فلسطين، وقد أورد فصلا عن نظام الحياة عند الفرنجة، وأكد فيه مدى تأثرهم بأنماط الحياة التي كانت سائدة في المشرق الإســلامي؛ كمــا اســتفاد الباحث من هذا الكتاب حول الاستيطان الفرنجى فــي فلــسطين، وقيــام الملــوك الفرنجــة الأوائل ببناء العديد من المستوطنات وتشجيع الأوربيين على المجيء للسكن فيهــا بعــد أن تم طرد سكان البلاد الأصليين أو أجبروا على المغــادرة، وإرغــام البــاقي علــى العمــل في الزراعة، ودفع الضرائب؛ كما تحدث في كتابــه عــن الطــرق التجاريــة والعــسكرية التي كانت تصل بين دمشق وفلسطين حيث ذكر أن أحد أسباب بناء القــلاع كــان للــتحكم في هذه الطرق، وتأمين حدود المملكة الصليبية.

2- يوشع براور Joshua prawer الذي ألف عدداً من الكتب والأبحاث عن أحوال مملكــة بيت المقدس من كافة النواحي(انظر القائمة في نهاية الرسالة) وقد اســتفاد الباحــث منهــا عند الحديث عن أحوال المملكة، وفئات السكان المختلفة وأوضاعهم الاجتماعية، ودوافعهــم لبناء القلاع والمستوطنات، وأماكن وجودها، وأعداد سكانها، حيث قدر عدد سكان المملكــة في نهاية القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي ما بين 120-150 ألف نسمة، وكذلك استفاد الباحث من بعض المعلومات حول النواحي القانونية، والإدارية، والاقتــصادية التــي تناولها براور في دراساته.

3- محمد فتحي الشاعر" أحوال المسلمين في مملكة بيت المقدس الــصليبية 1099-1187م" وقد سبق بذلك دراسة حسين عطية عن الموضوع نفسه حيث تحدث عن أوضاع المــسلمين داخل الكيان الصليبي ولعل أهم، ما أورده في كتابه المذكور ما اتصل بأوضاع المسلمين في المملكة الصليبية، وفى هذا الصدد تعرض لأمر عدم تمكين المسلمين من ممارسة شــعائرهم الدينية بحرية في المناطق الخاضعة للاحتلال الصليبي نظراً لأن الغزاة لم يسمحوا لهم ببناء المساجد كما أن المساجد المقامة ثم تحويلها إلى كنائس؛ كما تعرض المؤلــف إلــى تحــول المسلمين إلى عبيد تحت حكم الصليبيين الجائر.

4- حسين عبد الوهاب "مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي" وقد تناول ضــمن فــصول الكتاب السبعة أربعةَ فصول مترجمة وخامساً من تأليفه؛ تختص بالنواحي الاجتماعية حيــث تحدثت هذه الفصول الخمسة عن الاســتيطان، واللاجئــين، والزنــا والــدعارة، والرشــوة في المجتمع الصليبي.

5- سعيد البيشاوي "الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبيــة" ويعد الكتاب واحدا من الدراسات العربية الفريدة التي تناولت موضوع النظام الإقطاعي الفرنجى، وكيف استطاع الصليبيون نقل كثير من نظمه وتطبيقها في الشرق الإسلامي، كما أفاد الباحث في الاطــلاع

على الخطط التي اتبعها الفرنجة في مصادرة الأراضي، والبدء ببنـاء مـستوطنات جديـدة كالبيرة والقبيبة وقلندية وغيرها، وهى مما لاشك فيه دراسة جديدة في تـاريخ الأراضـي المقدسة خلال فترة الحروب الصليبية.

ومن المراجع والدراسات الأخرى التي أثرت موضوع الدراسة دراستي قاسـم عبـده قاسم الأولى باسم"بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية" والثانية "أثر الحروب الصليبية في العالم العربي– سكانياً– اجتماعياً– سياسياً" وكذلك الدراسة التي قدمها سعيد عبد الفتاح عاشور تحت عنوان "المجتمع الصليبي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية" ورسالة جلال سلامة "الاستيطان الصليبي في الأراضي المقدسة".

ومن الدراسات السابقة في هذا الموضوع دراسة إبراهيم زعرور التي جاءت تحت عنوان"الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي" حيث ركز الباحث في دراسته على العصر المملوكي الثاني فتحدث عن العامة وتنظيماتهم الداخليـة، وتطـرق لأوضاع الفلاحين والبدو، غير انه لم يتناول في دراسته أحوال المسلمين تحت الحكم الصليبي كما انه لم يتحدث عن غير المسلمين؛ أما دراسة عبد المجيد إبراهيم التي تناولـت" الحيـاة الاجتماعية في بلاد الشام في العصر الأيوبي" فجاءت دراسته مقتضبة ومختصرة فقد تنـاول عناصر المجتمع الشامي في العصر الأيوبي في خمس صفحات، وركز في دراسـته علـى أوضاع النخبة السياسية والفكرية، ولم يتعرض في دراسته لأوضاع الفلاحين والبدو سـواء تحت الحكم الإسلامي أو الصليبي، ومن جوانب القصور في الدراستين السابقتين أنهما ركزتا على مدينتي دمشق وحلب أما فيما يتعلق بمحاولة الباحث الهادفة إلـى دراسـة الأوضـاع الاجتماعية في فلسطين فقد اهتم بدراسة البنية السكانية لفلسطين سواء من حيث أقسام السكان أو من حيث نمط معيشتهم، والعوامل المؤثرة على البنية السكانية كما اهتم بالحـديث عـن الإجراءات الصليبية ضد الأرض والإنسان بغية كثلكة أرض فلسطين، والسياسة التي اتبعها السلاطين المسلمين من اجل إعادة أسلمة المناطق المحررة، ودعم صمود سكانها.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الدراسة النقدية التحليلية لأهم مـصادر البحـث الأجنبيـة والإسلامية إنما الهدف منها إلقاء الضوء على أهمية بعض مصادر الحركة الـصليبية مـن وجهة النظر الإسلامية والأجنبية، هذا إلى جانب تقويم المعلومات التي أوردها المؤرخـون عن موضوع الدراسة سلبياً أو ايجابياً، والإشارة إلى من انفرد منهم بذكر بعـض الأحـداث المتعلقة بموضوع الدراسة، دون أن ترد عند غيره من المـؤرخين المعاصـرين للحركـة الصليبية، والمتأخرين أيضا بعض الشيء.

الفصـــــــل الأول

الاحتلال الفرنجي لفلسطين وقيام مملكة بيت المقدس الصليبية.

ا- المعارك والاستيلاء على الأراضي وهجرة السكان.

ب- علاقة المقطع بالأرض:

- نظام ملكية الأراضي في الإقطاع الفرنجي الصليبي.
- تقسيم مملكة بيت المقدس إلى إقطاعيات.
- العلاقات الإقطاعية بين طبقات المجتمع الفرنجي الصليبي.
- الخدمات الحربية في الإقطاع الصليبي.
- الإقطاعات الكنسية.

ت – علاقة المقطع بالفلاح:

- سلطات صاحب الإقطاع0
- العلاقات المالية .

أ- المعارك والاستيلاء على الأراضي وهجرة السكان.

ظهرت فكرة فلسطين كهدف لحملة عسكرية نصرانية لأول مرة في مشروع البابا جريجوري السابع Gregory vII سنة 467هـ/1074م ([1])، وبعد ذلك بعشر سنوات فكر الأسقف بنتسو pentso في زحف عسكري إلى القدس([2]).

وأخيراً نجح البابا أوربان الثاني urban II([3]) في تجسيد الفكرة في كليرمونت([4]) بإرسال جيش مسيحي إلى الشرق للاستيلاء على الأرض المقدسة([5]) على اعتبار أن فلسطين أرض ميراث مسيحي فقد قال البابا "إن المرء إذا قرأ في الكتابات المقدسة والنبوءات، إن هذه الأرض كانت هي الميراث..."([6]) وأرض الآباء التي يجب استردادها بالقوة المسلحة "أيها الجنود المسيحيون يجب أن تدافعوا بالسلاح عن حرية أرض الآباء حقاً وعدلاً "([7]).

هكذا تم صياغة الفكرة الصليبية على أساس ديني واضح، وكانت دوافع القوى الاجتماعية في الغرب الأوروبي للمشاركة في هذه الحرب مزيجا من الدوافع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية، فقد كانت خطبة البابا أوربان الثاني في كليرمونت بمثابة الصياغة النهائية للفكرة التي أفرزت الحركة الصليبية([8]).

لقد حمل خطاب البابا أوربان الثاني في كليرمونت 488هـ/1095م دعوة صريحة لحكّام وأمراء أوروبا المسيحية الإقطاعية لاحتلال فلسطين، للخروج من الأزمة الاجتماعية والاقتصادية الخانقة بسبب النمو السكاني، ونقص الإنتاج الزراعي، ولقد عبر البابا أوربان في خطابه؛ عن أوضاع المجتمع الأوروبي بقوله "إن هذه الأرض التي تعيشون عليها محاطة بالبحر من كل جانب وتحوطها سلاسل الجبال، وتضيق بأعدادكم الكثيرة، وهي لا تفيض بالثروة الطائلة، وإنما لا تكاد تحقق من الطعام ما يكفي زرعها فقط..... انطلقوا على طريق الضريح المقدس أنقذوا تلك الأرض من ذلك الجنس المرعب واحكموها بأنفسكم"([9]).

([1]) **جريجوري السابع:** كان راهبا من أصل توسكاني، تولى الكرسي البابوي من سنة 1073- 1085م وكان طموحا حتى لقد اتهمه أعداؤه بحب السيطرة والسيادة، وفي عهده بدا الكفاح العنيف بين البابوية والإمبراطورية على الأمور الدنيوية وفي عهده استقلت البابوية استقلالا تاما في الناحيتين الدينية والسياسية، هارتمان، وباراكلاف، الدولة والإمبراطورية، ص 49،50.

([2]) ما مستتاك، السلام، ص171.

([3]) **أوربان الثاني:** كان صديقا وتلميذا لجريجوري السابع حامل لواء حركة الإصلاح الكلونيه، وقد نازع كليمنت الثالث على البابوية إلى أن انفرد بها من سنة 1088 – 1099م، وهو الذي أطلق جماح الحركة الصليبية، الشارترى، تاريخ الحملة، ص87، هامش3.

([4]) **كليرمونت:**هي من المدن الفرنسية الواقعة في إقليم اوفرين جنوبي فرنسا.الصوري، تاريخ،ج1، ص186.

([5]) رواية بلدريك الدوللى عن مجمع كليرمونت،ترجمة، قاسم، الحملة الصليبية، ص87.

([6]) رواية جيوبرت النوجنتى عن مجمع كليرمونت، ترجمة، قاسم، الحملة الصليبية، ص81.

([7]) المصدر نفسه، ص82.

([8]) قاسم، الخلفية الأيديولوجية، ص116,72.

([9]) رواية روبير الراهب عن مجمع كليرمونت، ترجمة، قاسم، الحملة الصليبية، ص79.

لذا انطلقت من أوروبا إلى بلاد الشام جموع صليبية ضخمة عبـرت البوسـفور إلـى الشاطئ الأسيوي في عام489هـ/1096م ([1]).

وفى 1رجب 492هـ/24مايو1099م وصلت الجموع الصليبية إلى شمال فلسطين بهـدف الاستيلاء على مدينة القدس بعد أن كلّفهم ذلك الكثير من الجهد والوقت والمال([2]).

بادر حاكم عكا([3]) الفاطمي بطلب الأمان والمحافظة على الضياع والبساتين التي تحيط بالمدينة بما قدمه من مؤن وهدايا([4]) وصار الجيش باتجاه حيفا([5]) ملتزمـا السير بمحـاذاة الساحل حتى وصل إلى قيسارية([6]) في3 رجب492هـ/26مايو1099م وأمضي فيها أربعـة أيام احتفلوا خلالها بعيد العنصره([7]) في6رجب492هـ/29مـايو1099م وغـادر الجـيش الصليبي قيسارية جنوبا باتجاه أرسوف([8]) ومنها توغلوا للداخل حتى وصلوا إلى الرملـة([9])

([1]) الشارترى، تاريخ الحملة، ص41.

([2]) مجهول، أعمال الفرنجة، ص42– 114. ريموندأجيل، تاريخ الفرنجة، ص59–72. الشارترى، تاريخ الحملـة، ص45– 69، ابن القلانسى، ذيل، ص134– 137.ابن الأثير، الكامل،ج9، ص13– 16.

([3]) **عكا:** بلده فينيقية قديمة على بعد ثمانية أميال من جبل الكرمل، وكانت في القرن الأول للميلاد تـدعي بطلوميـاس، فتحهـا المسلمين في عهد عمر بن الخطاب، واستولى عليهـا الـصليبين497هـ/1104م واسـتعادها صـلاح الـدين سـنة 583هـ/1187م ثم استولى عليها الصليبيون أثناء الحملة الصليبية الثالثة سنة 587هـ/1191م بعـد حـصار دام سـنتين وأصبحت عاصمة مملكة بيت المقدس، وتم تحريرها على يد الأشراف خليـل سـنة 690هـ/1291م، الحمـوي، معجـم، ج4، ص143،144.بورشارد،وصف، ص39،40.جونز، مدن، ص12.

([4]) ريموندأجيل، تاريخ الفرنجة، ص224.الصوري تاريخ،ج1، ص399.

([5]) **حيفا:** وهى إحدى المدن الفلسطينية الواقعة على البحر المتوسط وتعد منفذا لمرج بن عامر استولى الـصليبيون علـى حيفـا سنة493هـ/1100م وسقطت في عهد السلطان بيبرس سنة 1265م، وصفها الرحالة ناصر خسرو بأنها " مشيده على البحر وبها نخل وأشجار كثيرة" ووصفها ياقوت الحموي بأنها "حصن على ساحل بحر الشام قرب يافا"، خسرو، سفر نامة، ص53. الحموي، معجم،ج2، ص332، عوض، الرحالة، ص58،هامش26.

([6]) **قيسارية:** تعد من أجمل مدن فلسطين وجعلها الرومان عاصمة فلسطين الأولى وعرفت في البداية باسـم دور DOR، وكمـا عرفت باسم برج ستراتو، وقام حاكم هيرود بإعادة بنائها وسماها قيسارية وتبعد عن عكا 21 ميلا (سـبع فراسـخ) وتـشتهر قيسارية بخصوبة أرضها، استولى عليها الفرنجة في494هـ/1101م واستعادها الظاهر بيبرس سنة663هـ/1265م لم يبقـى منها سوى أثار.خسرو سفر نامة، ص54.دانيال، وصف، ص،86.الحموي، معجم،ج4، ص421.بورشارد،وصف، ص161.

([7]) **عيد العنصره:** من أعياد النصارى وياتى بعد عيد القيامة بخمسين يوماً ويحتفل به بحلـول الـروح القـدس علـى الرسـل، القلقشندى، صبح،ج2، ص455.

([8]) **أرسوف:** مدينة فلسطينية تقع على بعد ثلاثة فراسخ جنوب فيسارية كانت تدعى أبولونيا (apollania) في العهد الروماني أمـا الاسم أرسوف فيرجع إلى الإله السامي(رسف) الذي كان نظيره الإله اليوناني(ابولو) وهو إله الخير والخـصب سـقطت بيـد الفرنج بعد محاولات عده سنة493هـ/1100م وأصبحت إمارة إقطاعية؛حررها الظاهر بيبرس سنة663هـ/1265م.عـادت قرية بعد إن كانت إقطاعية. ابن القلانسى، ذيل، ص139، بورشارد، وصف، ص162،163.الحموي، معجم،ج1، ص151

([9]) **الرملة:** مدينة قديمة وجدت في العصر البيزنطي، جدد بناءها سليمان بن عبد الملك عندما كان أميراً على فلسطين؛ قيل سماها بهذا الاسم لكثرة الرمال وقيل سميت بذلك نسبه إلى امرأة تدعى رمله، واعتقد أن الـرأي الأول وهـو الـصحيح، وصـفها الجغرافيون بالحسن والجمال واتساع المساجد وهى ذات تجارة رائجة وتعد الممر الذي يصل مدينة يافا بالقدس، وكـان لهـا سور متين، ولها قلعه حصينة هدمها صلاح الدين بعد أن حررها من الفرنج، اليعقوبى البلدان ص116، المقدسـي، أحـسن التقاسيم ص142،143.الحموي، معجم،ج3، ص69.القلقشندى، صبح،ج4، ص 103.

في 11 رجب492هـ/3يونيو1099م([1]) التي هجرها سكانها خوفاً من الفرنجة، ثم سيطروا على مدينة اللد([2]) القريبة منها ومكث الصليبيون أربعة أيام في الرملة عينوا خلالها أسقفا للمدينة([3])، وفى الرملة عقد الصليبيون مجلساً للحرب ناقشوا فيه مسائل عدة أهمها الرأي القائل بتأجيل الزحف إلى القدس والتحول لمهاجمة مصر والاستيلاء على الإسكندرية والقاهرة، ليكون ذلك الانجاز مفتاحاً للاستيلاء على بيت المقدس، غير أن ذلك الاقتراح لم يلقَ قبولاً لدى كثير من القادة الصليبيين نظراً لقلة الإمكانيات، وأولوية الاستيلاء على القدس الهدف الأساسي للحملة الصليبية([4]).

وباستيلاء الصليبيين على الرملة أصبح الطريق أمامهم مفتوحاً إلى بيت القدس، وفي الطريق إليها عسكر الجيش في عمواس([5])، فَقَدِمَ على جودفرى أوف بويون Bouillon of Godfry([6]) وفدٌ من نصارى بيت لحم([7]) يستحثونه على الإسراع لاحتلال مدينة بيت المقدس، والأماكن المقدسة، فأرسل جودفري سريةً من مائة فارس إلى بيت لحم بقيادة تانكرد Tancerd([8]) فسيطر على المدينة التي خلت من المدافعين عنها([9]) وفي يوم الثلاثاء 15رجب492هـ/7يونيو1099م وصل الجيش الصليبي إلى القدس؛ في الوقت الذي اتخذ فيه الحاكم الفاطمي للمدينة افتخار الدولة([10]) كافة الاستعدادات لمواجهة الصليبيين، والدفاع

([1]) مجهول، أعمال الفرنجة، ص114. الشارترى، تاريخ الحملة، ص69. الصوري، تاريخ،ج1، ص399،400.

([2]) **اللد:** من أشهر المدن الفلسطينية وهى تقع في الجنوب الشرقي من يافا، وعلى بعد 13 ميلا حوالي 24كم منها، وهي تقع في الشمال الشرقي من الرملة، وعلى بعد ثلاثة أميال، وقد أحرقها الرومان عدة مرات ثم أعادوا بنائها وأطلق عليها فاسبسيانوس اسم ديوسبولس بمعنى مدينة الإله.اليعقوبي، البلدان، ص166. ثيودريش، ص122، الدباغ، بلادنا، ق2،ج4، ص465،466.جون، مدن، ص98.

([3]) مجهول، أعمال الفرنجة، ص114. ريموندأجيل، تاريخ الفرنجة، ص225، الشارترى، تاريخ الحملة، ص70.

([4]) ريموندأجيل، تاريخ الفرنجة. ص226،225.

([5]) **عمواس:** هي ضيعة جليلة على بعد ستة أميال من الرملة على طريق القدس واليها ينسب الطاعون في عهد الخليفة عمر بن الخطاب . الحموي، معجم،ج4، ص157.

([6]) **جودفري أوف بويون:** كان يعرف بدق اللورين السفلي، ولد في سنة 445هـ/ 1058م وهو إبن الكونت يوستاس، وكان دق اللورين بدون أولاد فتبنى ابن أخته جودفرى ليكون ابنا، وفى حالة وفاته فان جودفرى سيتولى عرش الدوقية، وكانت ماتلدا أخت جود فري متزوجة من الملك ستيفن ملك انجلترا. الصوري، تاريخ،ج1، ص454،450.

([7]) **بيت لحم:** تقع على بعد 3أميال من بيت المقدس ولد فيها السيد المسيح عليه السلام، وقد وصفها الكثير من الرحالة والجغرافيين وذكروا أن بها كنيسة عظيمة فضلا عن وجود شجرة النخيل التي وردت في القران الكريم. خسرو، سفرنامه، ص70. البكري، معجم، ج1، ص189.الهراوي، الإشارات، ص34.دانيال، وصف، ص73.الحموي، معجم،ج1، ص521.

([8]) **تانكرد:** ينتمي لأسره شهيرة فوالده الماركيز ادوبونز ووالدته هي إما ابنه روبرت جويكارد، وقد حقق تانكرد مجدا عسكريا حيث فاق أقاربه في الشجاعة واستخدام السلاح، وكان قد قدم مع الحملة التي قادها بوهمند النورماندي، وعمل مع الأمير جودفرى ثم أصبح أميرا. الصوري، تاريخ،ج1، ص215، هامش2.

([9]) الشارترى، تاريخ الحملة، ص70. Albert d' Aix , Histria Hierosojymitana,p.463.الصوري، تاريخ،ج1، ص403.

([10]) افتخار الدولة: عينه الأفضل على القدس بعد أن استعادها من الأراتقة سنة 489هـ/1095 فلما اقتحم الفرنجة بيت المقدس اعتصم في برج داود وطلب الأمان له ولجنوده؛ فغادر القدس إلى عسقلان، إبن خلدون، تاريخ،ج5، ص25.

عن المدينة([1]) وفور وصول الصليبيين إلى القدس عقدوا اجتماعا لمناقشة الخلاف الذي نشب بين قادة الحملة؛ عقب استيلاء تانكرد على بيت لحم، ولانتخاب أحد الأمراء ليكـون حاكمـاً على المدينة المقدسة بعد سقوطها؛ لكن تم إرجاء هذه المسألة([2]) وتم في الاجتمـاع مناقـشة الوسائل التي يمكن بها مهاجمة المدينة، وإعداد آلات الحصار والبحـث عـن الأخـشاب([3]) ويشير وليم الصوري إلى أن الصليبيين عقدوا اجتماعا مع الرجـال ذوى الخبـرة والدرايـة بتضاريس المنطقة لمناقشة الأماكن التي يـسهل منهـا اقتحـام المدينـة، وقـد تـم اتخـاذ القرار بمهاجمة المدينة من الجهة الشمالية، وعليه تم فرض الحصار على المدينـة المقدسـة من بوابة دمشق (القديس ستيفن)([4]) وحتى الباب الواقع عند بـرج داود([5]) علـى الجانـب الغربي من المدينة([6]).

وعلى ذلك شرع قادة الجيش الصليبي في حصار المدينة المقدسة، وتضيق الخناق عليها، فاتخذ جودفري وتانكرد موقعهما في الناحية الغربية بينما كان روبرت النورماندى Robert de Normandy([7]) وروبرت كونت فلاندر Robert cont Flanders([8]) يحاصرونها من الناحية الشمالية، والكونت ريموند أوف سنجيل Raymond of Singles([9]) مـن الناحيـة الجنوبية على جبل صهيون([10]) وبذلك أحاطوا بالمدينة المقدسة من جهاتها الثلاثـــــــ([11])

([1]) الصوري، تاريخ،ج1، ص401.

([2]) مجهول، أعمال الفرنجة، ص116،117. ريموندأجيل، تاريخ الفرنجة، ص240.

([3]) الشارترى، تاريخ الحملة، ص73.

([4]) **بوابة دمشق:** (بوابة العمود) تعتبر هذه البوابة من أشهر بوابات بيت المقدس وأضخمها حجمـا كمـا أنهـا بمثابـة المـدخل الرئيسي للمدينة، تشتهر هـذه البوابـة بعـدة أسـماء منهـا بوابـة القـديس سـتيفن وبوابـة النـصر وبوابـة نـابلس. بورشارد، وصف، ص145،146.

([5]) **برج داود:**شيد بالجهة الشرقية من المقدس وهو يقع داخل السور الغربي للمدينة قرب باب الخليل، بورشارد، وصف،ص142.

([6]) الصوري، تاريخ،ج1، ص416.

([7]) **روبرت النورماندى:** كان روبرت دوق نورمانديا الابن الأكبر لوليم الفاتح، ولد تقريبا سـنة 1054م/446هــ. كـان أخـوه الأصغر ويليام روفوس ملكاً لانجلترا، ولقد كانت مشاركته في الحروب الصليبية مخرجا له من مصاعبه التي كانت قائمة مع عائلته. الصوري، تاريخ،ج1، ص225، هامش2.

([8]) **روبرت كونت فلندر:** خلف روبرت الأول الفريزى على حكم فلندر سن491هــ/1097م وكان الأخير قد حج إلى القدس تكفيرا عن آثامه، وكان قد زار الكسيوس في رحلة عودته، ووعده بإرسال الجنود لمـساعدته ضـد الأتـراك، وأتـم وعـده سـنة 483هــ/1090 وكان لابنه روبرت الثاني اهتمام تقليـدي فـي الـصراع ضـد المـسلمين، واسـترداد الأرض المقدسـة. الصوري، تاريخ، ج1، ص216. هامش1.

([9]) **ريموند أوف سنجيل:** ولد سنة435هــ/1043م هو كونت طولوز وطرابلس أول قائد اخذوا الصليب، وهو ابن اصغر لريموند الثالث؛ كان قد احتفظ بممتلكات صغيرة نسبيا، ورث إقليم طولوز عن أخيه ويليام الرابع الـذي تـوفى سـنة 1093م وكـان ريموند إحدى كبار الحملة الصليبية الأولى وكان القائد الأكثر ثراء. الصوري، تاريخ،ج1، ص217، هامش1.

([10]) **جبل صهيون:** هو احد جبال مدينة القـدس ويقـع شـرقي المدينـة، وقـد أقيمـت عليـه كنيـسة تحمـل نفـس الاسـم. الحموي، معجم،ج3، ص436.

. ([11]) مجهول، أعمال الفرنجة، ص114، ريموندأجيل، تاريخ الفرنجة، ص235. توديبود، تاريخ الرحلة، ص313 .

باستثناء المنطقة الشرقية حيث كانت الممرات والأودية تعيق أي هجوم على المدينة([1]) لذا لم يقم المسلمون بتحصين الجهة الشرقية وركزوا تحصيناتهم على باقي الجهات.

وفى25رجب492هـ/17يونيو1099م وصل أسطول جنوى إلى ميناء يافا([2]) محمــلاً بالمواد التموينية والإمدادات العسكرية، واستطاع السيطرة على المدينة بعد أن هجرها سكانها عندما علموا باقتراب القوات الصليبية من أرسوف([3]).

وقد لجأ الصليبيون المحاصرون للقدس إلى تأمين الطريق بينهم وبين يافا ليتمكنوا مــن الحصول على المساعدات التي تجلبها لهم الأساطيل الغربية، ومممــا لا شــك فيــه أن تلــك المساعدة الجنويه كان لها أثرها الفعال في دعم مركز الصليبيين مما مكنهم مــن مواصــلة الحصار والهجوم([4]).

ونتيجة لمقاومة المسلمين المستميتة والقوية في هذه الجهات وقوة التحصينات([5]) أدرك الصليبيون أنه لا يمكن اقتحام المدينة المقدسة منها، لذا تم نقل جزء من معسكرهم من الجهة الشمالية إلى الجهة الشرقية، وذلك لقلة التحصينات والدفاعات فيها، ومــن ثــم عــدم توقــع المسلمين لأي هجوم من الشرق لسبب شدة انحدار الصخور في هذه المنطقة([6]).

وفى يومي20-21 شعبان 492هـ/13-4 يوليو قام الصليبيون بمحاولة لإقتحام المدينة المقدسة، لكن الهجوم الصليبي باء بالفشل، ولم يسفر عنه سوى تحطيم الــدفاعات الخارجيــة للمدينة، ويبدو أن فشل الهجوم الصليبي يعود إلى قله الــسلالم([7]) والــى خــوف وتخــاذل الصليبيين([8]) حيث أبدى أهالي المدينة مقاومة عنيفة حتى إن الصليبيين أوشكوا على اليــأس نتيجة لشدة المقاومة([9]).

وفى يوم الجمعة 22شعبان492هـ/15يوليو1099م تمكن الصليبيون من اقتحام المدينة

([1]) الصوري، تاريخ،ج1، ص409.

([2]) **يافا:** إحدى المدن الفلسطينية المشهورة والاسم مشتق من اللفظة الكنعانية يافى بمعنى الجميل تقع على ساحل البحر المتوســط إلى الجنوب من مصب نهر العوجا، وهى من أقدم موانى العالم وقد بناها الكنعانيون وفتحها عمــرو بــن العــاص، وصــفها المقدسي " بأنها تقع على ساحل البحر ولكنها بلده صغيره " أما الإدريسي فقد وصفها بأنها فرضه بيت المقدس وتحــيط بهــا الأشجار والكروم. المقدسي، أحسن، ص148. الإدريسي، نزهه المشتاق، ص385. الحموي، معجم،ج5، ص426.

([3]) الصوري، تاريخ،ج1، ص423.

([4]) مجهــول، أعمــال الفرنجــة، ص115،116. ريمونــدأجيل، تــاريخ الفرنجــة، ص238،239. الــصوري، تاريخ،ج1، ص422،423. عاشور، الحركة الصليبية، ج1،ص196.

([5]) ريموندأجيل، تاريخ الفرنجة، ص244. الصوري، تاريخ، ج1، ص426

([6]) مجهول، أعمال الفرنجة، ص117.ريموندأجيل، تاريخ الفرنجة، ص244. توديبود، تاريخ الرحلة، ص317. الصوري، تاريخ،ج1، ص426.

([7]) مجهول، أعمال الفرنجة، ص115. الشارتري، تاريخ الحملة، ص73. الصوري، تاريخ،ج1، ص417.

([8]) ريموندأجيل، تاريخ الفرنجة، ص245.

([9]) الصوري، تاريخ،ج1، ص431.

بعد حصار لها دام خمسة أسابيع"ولبث الفرنج في البلدة أسبوعاً يقتلون فيه المسلميـــن"([1])

فاستبيحت المدينة، وتعرضت لأبشع المجازر التي شهدها التاريخ فقد كانت إبادة سكان المدينة شبه تامة، وقد أفاضت المصادر المعاصرة لتلك الفترة في وصف وحشية وهمجية الصليبيين "فقد كانت المجزرة التي اقترفت في كل مكان في المدينة مخيفة جدا، وكان سفك الدماء رهيبا جدا لدرجة عانى منها حتى المنتصرون من أحاسيس الرعب والاشمئزاز"([2]) "فما تأتّى لأحد قط انه سمع أو رأى مذبحة كهذه المذبحة"([3]).

ويعترف فوشيه بالأسلوب الوحشي ضد سكان القدس عند اقتحام المدينة فيقول "لو كنت هناك لتلطخت قدماك حتى الكواحل بدماء القتلى. ماذا أقول ؟ لم يبق منهم احد ولم يرحموا امرأة ولا طفلاً"([4]).

ويقول ريموندأجيل "خاض الصليبيون بخيولهم في الدم الذي وصل ركبهم وسروج خيولهم.. وامتلأت بيت المقدس الآن بالجثث وتلطخت بالدماء"([5]) فقد "انتشرت المذابح المخيفة في كل مكان وتكدست الرؤوس المقطوعة في كل ناحية بحيث تعذر الانتقال على الفور من مكان لأخر إلا على جثث المقتولين([6]) " كما أن القوات الصليبية الغازية لم تتردد في أن تمارس أبشع التمثيل بجثث الضحايا، وبقر بطون ضحاياهم لانتزاع الدنانير الذهبية التي كان يخفيها الأهالي بين ثنايا ملابسهم وفى داخل أحشائهم([7])، ولم ينجُ من سكانها سوى قائد الحامية الفاطمية افتخار الدولة وعدد من رجاله([8]) وقد قدر عدد القتلى بما يزيد عن سبعين ألفاً من المسلمين كان بينهم عددٌ من الأئمة والعلماء والزهاد([9]).

وصدرت الأوامر بطرح جثث المسلمين خارج القدس لحرقها خشية انتشار الأوبئة، ولشدة النتن المتصاعد منها وبلغ من كثرة عدد جثث المسلمين أنها حاذت البيوت ارتفاعا([10])

إن المجزرة التي ارتكبها الصليبيون ضد المسلمين العزل، وما قاموا به من سفك للدماء وما أحدثوه من دمار مريع "بتصميم مشترك"([11]) يعد برهانا على "التعصب المسيحي" ([12]).

([1]) ابن الأثير، الكامل،ج9، ص19، مجهول،أعمال الفرنجة، ص118،119.الصوري، تاريخ،ج1، ص435.

([2]) الصوري، تاريخ،ج1، ص436.

([3]) مجهول، أعمال الفرنجة، ص120.

([4]) الشارترى، تاريخ الحملة، ص75.

([5]) ريموندأجيل، تاريخ الفرنجة، ص247.

([6]) الصوري، تاريخ،ج1، ص435.

([7]) الشارترى، تاريخ الحملة، ص115.الصوري، تاريخ،ج1، ص496.

([8]) ابن الأثير، الكامل،ج9، ص19.

([9]) مجهول، الحملتين الأولي والثانية، ص25.ابن الأثير، الكامل،ج9، ص19.ابن خلدون، تاريخ،ج5، ص25.

([10]) مجهول، أعمال الفرنجة، ص119،120.الشارترى، تاريخ الحملة، ص75.الصوري، تاريخ،ج1، ص442.

([11]) الصوري، تاريخ،ج1، ص436.

([12]) رنسيمان، تاريخ،ج1، ص427.

ولا شك أن الاشتباكات كشفت للصليبيين عن حقيقة أمر الدولة الفاطمية ومدى انحلالها في ذلك الوقت، الأمر الذي جعل الصليبيين يطمعون في الاستيلاء على بقية فلسطين، ولتحقيق هذا الهدف كان على قادة الصليبيين توجيه غزوهم في ثلاث اتجاهات رئيسة الأول جهة الشمال حيث إقليم الجليل، والثاني جهة الجنوب حيث هضبة جنوب فلسطين، والثالث جهة الغرب حيث مدن فلسطين الساحلية.

ولقد تم إخضاع جنوب فلسطين من خلال أربع حملات؛ فقد توجه جودفري على رأس حملة عسكرية إلى بيت لحم، وبعد أن نظم صفوفه، وأتم استعداداته اجتاز الشعاب التي تتخلل الهضاب والتلال بسرعة نحو الجنوب فأخذت قرى الخليل وريفها تتساقط في يديه الواحدة تلو الأخرى، ولم تلبث القوة الصليبية إن هاجمت مدينة الخليل([1]) وتمكنت من إسقاطها بعد هجوم قصير، وفر المسلمين منها، وقام جودفري ببناء قلعة حصينة لحمايتها، ولقد غدت هذه القلعة التي وصفت بأنها عظيمة المنعة والثروة، مقرا للعمل والإدارة([2])، وبذلك ضم جودفري الخليل إلى دولته الناشئة.

وفى 16صفر494هـ/15نوفمبر1101م تولى بلدوين الأول([3]) قيادة جيش يضم مائة وخمسين فارسا بالإضافة إلى خمسمائة من الرجال المشاة([4])؛لغزو جنوب فلسطين، وتوجه أولا إلى غرب إقليم الخليل حيث بيت جبرين([5]) وتل الصافية([6]) ويبنه([7]) وبعد أن اطمأن لغزوه في تلك الجهات القريبة من عسقلان توجه بحملته جهة الشرق، وقد أقدم على تدمير

([1]) **الخليل**: مدينة عربية كنعانية عرفت بأسماء مختلفة منها قرية أربع، وحبرون، بيت عينون، وبيت إبراهيم، ومن المسميات القديمة لمدينة الخليل وادي بركة، ووادي البكاء، وأكثر المسميات شيوعا على مر العصور فهو حبرون، وسميت في عصر الحروب الصليبية باسم القديس إبراهارم مع الاحتفاظ باسم حبرون ولقد أصبحت مقرا إقطاعية فرنجية، الهراوي، الإشارات، ص35.الحموي، معجم،ج2، ص338.علي، الخليل، ص59،61 .

([2]) .Albert d, Aix,op.cit,PP.523,524 .علي، الخليل، ص104،108 .

([3]) **بلدوين الأول**: كان دوق اللورين السفلى قبل إن يشارك في الحملة الصليبية الأولى؛ أقام إمارة الفرنج في الرهان عام 490هـ/1097م ثم اختير ملكا على القدس بعد وفاة جودفري493هـ/1100م. الشارترى، تاريخ الحملة، ص51،103.الصوري، تاريخ،ج1،ص479، 477.

([4]) Albert d, Aix, op, cit, P.541.

([5]) **بيت جبرين**: بلده قديمة تعود إلى الكنعانيين وفى العهد الروماني كانت عاصمة لأكبر مقاطعة في فلسطين هدمها الفرس سنة40ق.م . وأعيد بناؤها عام 68م باسم بيت جبرا، وفى القرن الرابع للميلاد كانت مركزا أسقفيا، استولى عليها الصليبيون وأطلقوا عليها اسم Bat Giblin استردها صلاح الدين بعد معركة حطين. الصوري، تاريخ،ج2، ص682،683. الحموي، معجم،ج1، ص519. الدباغ، بلادنا، ق2،ج5، ص286،287.

([6]) **تل الصافية**: تقع على بعد ثمانية أميال من عسقلان إلى الشمال الغربي لمدينة الخليل؛ بالقرب من حدود قضائي غزه والرملة أقام فيها الملك فولك قلعة عرفت باسمها وعرفت في اللغة الدارجة بلانكفورد وتعنى برج المراقبة الأبيض،و شكلت هذه القلعة مع قلعة بيت جبرين ويبنه خط دفاعي لحماية جنوب المملكة الصوري، تاريخ،ج2، ص729. الحموي، معجم،ج2، ص42.

([7]) **يبنه**: كانت تعرف بأسماء عديدة منها Ibelin، وهى تقع جنوب يافا؛ على بعد فرسخين منها أي ما يعادل (ستة أميال) وقد قام الملك فولك ببناء قلعة على أرضها عام 1141م. الصوري، تاريخ،ج2، ص728. الحموي، معجم،ج5، ص428.

القرى التي مر بها مما اجبر أهلها من العرب لهجرها إلى الكهوف والجبال بسبب الإرهاب الصليبي([1]) ثم واصل الملك بلدوين الأول هجومه على المناطق الواقعة غربي البحر الميت وجنوبه؛ بهدف إخضاع الريف الفلسطيني، فيذكر فوشيه أن الجيش الصليبي اجتاز جبال شفيلا([2]) الواقعة غربي الخليل فبرية الخليل([3]) وصولا إلى شاطئ البحر الميت([4]) من جهة الغرب حيث قرية عين جدي([5])، وفيها حصل الصليبيون على ما يلزمهم من مؤن([6]) ثم اتجه الجيش الصليبي بقيادة بلدوين الأول إلى جنوبي البحر الميت حيث قرية صغر([7]) التي هجرها سكانها عندما علموا باجتياح القوات الصليبية لمنطقة وادي عربة([8]) ومن هناك تحرك الجيش الصليبي بعد قليل من الراحة إلى مناطق شرقي الأردن نحو هضبة مؤاب وتخللوا شعابها وصعدوا خلالها، ولم يجدوا بها شيئا يسلب إذ كان أهالي القرى قد لجأوا إلى الكهوف بمتاعهم وماشيتهم للاحتماء بها([9]) ثم توجه الجيش الصليبي إلى وادي موسى([10]) الغنى بالثروات الزراعية والرعوية، وخلال ثلاثة أيام تّم نهب وسلب المنطقة([11]).

وبحلول عام 500هـ/1106م كان الصليبيون قد نجحوا في فرض سيطرتهم على المناطق الواقعة حول إقليم الخليل حتى شواطئ البحر الميت والنقب الشمالي([12]).

وفى509هـ/1115م شهد جنوب فلسطين تحركات عسكرية كثيفة لقوات مملكة بيت

([1]) الشارترى ، تاريخ الحملة، ص108. الصوري، تاريخ،ج2، ص728. بورشارد، وصف، ص164.

([2]) **شفيلا:** وهى تلال قليلة الارتفاع تمثل حافة هضبة جنوب فلسطين في انحدارها نحو الغرب حيث سهول البحر المتوسط. السيد، الخليل، ص64.

([3]) **برية الخليل:** وهى تتمثل في المرتفعات الشرقية من جبال الخليل حتى البحر الميت، ويبلغ أقصى علوها نحو 600م . الدباغ، بلادنا، ق2،ج5، ص20.

([4]) الشارترى، تاريخ الحملة، ص109 .Albert d, Aix, op. cit p.535

([5]) **عين جدي:** وهى عين وبلده معا تقع على الساحل الغربي للبحر الميت، وكان يقوم على أرضها حصون تامارا الكنعانية، وهى تنخفض عن سطح البحر بنحو (370م) وتقع على بعد خمسة وثلاثين ميلا إلى الجنوب الشرقي من بيت المقدس. بورشارد، وصف، ص122،123. الدباغ، بلادنا، ق2،ج8، ص522.

([6]) Albert d, Aix, lok. Cit, p.535 .

([7]) **قرية صغر:** تقع عند الطرف الجنوبي الغربي من البحر الميت بالقرب من مصب وادي الحسى؛ في منطقة تشتهر بالخصب ولقد جعلها المقدسي قصبه لكوره الشراه، وهى من بقية مدن لوط عليه السلام وكان لصغر أهمية كبيرة لوقوعها على طريق آيلة القدس المارة بالخليل. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص136،151.الحموي، معجم،ج3، ص411. بورشارد، وصف، ص121. جونز، مدن،ص121. الدباغ، بلادنا، ق1،ج1، ص108،109.

([8]) **وادي عربة:** يعرف بغور الصافي، ويمتد من الطرف الجنوبي للبحر الميت إلى آيلة، ويبلغ طوله حوالي 112ميل وعرضه من 4أميال إلى 14 ميلا .الدباغ، بلادنا، ق1،ج1، ص106،107.

([9]) الشارترى، تاريخ الحملة، ص109.Albert d, Aix, op.cit.,p333,336

([10]) **وادي موسى:** يقع في جنوب القدس بين المدينة المقدسة والحجاز ينشا من الجبال الواقعة غربي إمعان، ويصب في وادي عربه يقع فيه عدد من القلاع منها قلعة سلع ، وهرمز، والطفيل، وهو وادي جميل مليْ بأشجار الزيتون.الحموي معجم،ج3، ص236،ج4، ص27،ج5،ص 402.غوانمه إمارة الكرك، ص65.

([11]) الشارترى، تاريخ الحملة، ص110.

([12]) السيد، الخليل، ص119.

المقدس الصليبية استعدادا للتوجه في حملة جديدة على منطقة جنوب البحر الميت، وشـرق الأردن([1]) بهدف توطيد امتداد الصليبيين في منطقة وادي عربة وشرق البحر الميت([2]).

فبعد أن استعدت الحملة الصليبية في الخليل تحركت في شعبان/ ديسمبر من العام نفسه، وسارت في اتجاه الجنوب، واجتازت وادي عربه، وما لبث الصليبيون أن وصلوا إلى منطقة الشوبك التي تكسوها الغابات، وقام الملك بلدوين بتشييد قلعة الشوبك([3]) ووضع فيها حامية عسكرية([4])، حيث تم من خلالها السيطرة على الريف المحيط بها([5]).

وفى510هـ/1116م شهدت منطقة جنوب فلسطين تحركات صـليبية جديـدة لتـدعيم الاحتلال الصليبي في جنوب فلسطين، ومنطقة شرق الأردن؛ حيث واصلت القوات الصليبية مد نفوذها جنوبا فاحتلوا مدينة آيلة([6]) وفيها شيدوا قلعة عرفت باسمها، وعبروا خليج العقبة إلى جزيرة فرعون([7]) الواقعة على بعد "أربعين كم" منها، وأسسوا فيها قلعه أخرى، ووضع الصليبيون حامية عسكرية في كل من هاتين القلعتين([8])

ولأجل إخضاع الجبهة الشمالية فقد عهـد جـودفري إلـى تـانكرد مهمـة احـتلال الجليل([9])حيث بادر تانكرد إلى تجهيز قواته في مدينة نابلس([10]) وعندها أكمـل اسـتعداداته تحرك منها جنوب إقليم الجليل للاستيلاء على مدنـه الهامـة حيـث سـاعدت الظـروف الموضوعية في الجليل تانكرد للاستيلاء عليه عـام 492هـــ/ 1099م ([11]) فـتمكن مـن

([1]) Albert d, Aix, op. cit, p.702.

([2]) رنسيمان، تاريخ،ج2، ص159.

([3]) **الشوبك:** تقع الشوبك على يمين وادي عربة بين الطفيلة ومعان والى الشمال الشرقي من البتراء، وقد بنا الـصليبيون قلعتهـا على قمة جبل عالٍ يطل على البحر الميت، وأقيمت بهدف مراقبة المنطقة الشرقية من المملكة وحمايتها؛ شيدها الملك بلـدوين الأول سنة509هـ/1115م.سميت القلعة باسم مونتريال. الشارترى، تاريخ، ص158. الصوري، تاريخ،ج1، ص559.

([4]) الشارترى، تاريخ الحملة، ص157،158. Albert d, Aix, op. cit, p.702,703. الصوري، تاريخ،ج1، ص559.

([5]) الفيترى، تاريخ، ص35.

([6]) **أيله:** مدينة على ساحل بحر القلزم "البحر الأحمر" مما يلي الشام، وهى أخر الحجاز وأول الشام؛ تقع على رأس خليج العقبـة؛ على موقع قرية المرشش، وكانت آيلة في العصور الماضية ثغرا تجاريا مهما على خليج العقبة، وورد ذكرها فـي التـوراة كمدينة ذات شان تجارى كبير. الحموي، معجم،ج2، ص292. التطيلي، الرحلة، ص160، هامش1. جونز، مدن، ص19.

([7]) **قلعة فرعون:** قامت القلعة بدور المراقبة من موقعها الممتاز المشرف على ملتقى أراضي مصر والشام والحجاز، وهى عبارة عن كتلة صخرية صلبة يبلغ طولها حوالي 300متر وعرضها 150متر ولقد أقيمت القلعة في الجزء الشمالي.اسـتولى عليهـا صلاح الدين عام 1182م/578هـ. وقام بتدميرها. شقير، تاريخ سيناء، ص164-168. شاهين، قلعة، ص550،551.

(1) Albert d, Aix, op.cit,p.702 . الصوري، تاريخ ،ج1، ص565،566. شاهين، قلعة، ص552.

([9]) **الجليل:** يقع في شمال فلسطين وينقسم إلى قسمين اعلي وأسفل، الأعلى حده جبل الشيخ وهو مرتفع جـدا أمـا الأسـفل فاقـل ارتفاعا ويتخلله سهول البطوف وعرابه. الدباغ، بلادنا، ق1،ج1، ص47. دانيال، وصف، ص79.

([10]) **نابلس:** تقع في وسط فلسطين وتعتبر عاصمة الإقليم الجبلي، تبعد عن القدس شمالا(69كم) وكلمة نابلس هي تحريـف عـن الاسم اليوناني نيا بوليس شيدت نابلس غربي مدينة شكيم المدمرة على يد فاسبسيانوس في موقع قرية مابرثه في الفتـرة مـا بين71-72ق.م.ثيودريش وصف، ص126.بورشارد، وصف، ص108.الحموي، معجم،ج5، ص248.جونز، مدن، ص12.

([11]) البيشاوي، نابلس، ص49،50.

الاستيلاء على مدينة بيسان([1]) فجعلها قاعدة لينطلق منها لاستكمال احتلال الجليل، لـذا قـام ببناء الاستحكامات والتحصينات داخل المدينة وحولها([2]) وانطلق تانكرد مـن بيـسان إلـى طبرية([3]) فتمكن من الاستيلاء عليها بعد أن هجرها سكانها المسلمون؛ فحصنها واتخذها مقرا لإمارته الجديدة([4]) ثم توجه إلى مدينة الناصرة([5]) والتي خضعت للاحتلال دون مقاومة لكون غالبية سكانها من النصارى، ومنها تحرك صوب جبل طابور([6]) ومن ثم قام تانكرد بعدد من الغارات السريعة على القرى والأرياف الواقعة في الجليل لبسط سـيطرته عليـه([7]) وبهـذه الغارات يكون تانكرد قد أنجز بنجاح المهمة التي عهد إليه بها جـودفرى، وهـى احـتلال الأجزاء الشمالية من فلسطين مكونا بذلك ما عرف باسم إمارة الجليل الصليبية.

أما الجبهة الساحلية فقد تم إخضاعها للصليبيين من خلال عده حملات عسكرية فكان من الطبيعي أن تتجه القوات الفرنجية الصليبية بعد أن حكمت سيطرتها علـى معظـم منـاطق فلسطين الجنوبية والشمالية إلى مد نفوذها على المدن الساحلية.

بدأت المحاولات الأولى من أجل السيطرة على المدن الساحلية الفلسطينية منـذ عهـد جودفري، وذلك لتدعيم الارتباط بالحليف الأوروبي؛ لدعم المملكة الصليبية الناشئة، والتـي اعتمد وجودها على الإمدادات العسكرية والبشرية القادمة من الغرب الأوروبي([8]) وكـذلك بهدف خنق القوى الإسلامية الشامية، وجعلها قوى برية حتى يمكن التحكم في اقتـصاديات

([1]) **بيـسان:** مدينة في الغور وهى مدينة عربية كنعانية دعاها الكنعانيون "بيت شان" أطلق عليها اليونانيون سكيثوبولس نسبة إلـى عنصر يوناني استقربها وأطلق عليها اسم انطونيوس تخليدا لابن أخته كما عرفت باسم مدينة الشمس تم احتلالهـا مـن قبـل الفرنجة سنة492هـ/ 1099م وأصبحت أماره إقطاعية. دانيال، وصف، ص93. الحموي، معجم،ج1، ص527 . جونز، مدن، ص20،63. نعيرات، بيسان، ص53،59.

([2]) Albert d, Aix, op, cit, p.517. نعيرات، إقطاعية بيسان، ص88،89.

([3]) **طبرية:** مدينة في الغور على الشاطئ الغربي للبحيرة المعروفة باسمها، وهى مدينة عربية كنعانية دعاهـا الكنعـانيون "رقـه" بمعنى الأرض المنبسطة، وردت في التلمود باسم رفات، وأشار لها الكتاب المقدسي باسم سيفاريت والاسم الشائع للمدينة هـو طبرية نسبة إلى الإمبراطور طيباريوس قيصر الذي عهد إلى هيرود انتباس بالإشراف على بنائها عـام 26م. وفـى زمـن الاحتلال الفرنجي احتفظت طبريا باسمها وفى عام492هـ/ 1099م.سقطت المدينة بأيدي الفرنجة.المقدسي، أحسن التقاسـيم، ص140،141.الهراوي، الإشارات، ص26. الحموي، معجم،ج4، ص17 دويكات، طبرية، ص30-35 . جونز، مدن، ص12،19،102.

([4]) Albert d, Aix, op, cit, p.517, 518 .

([5]) **الناصرة:** إحدى المدن الفلسطينية نسب إليها السيد المسيح الذي دعي بالناصري، ولدت فيها مريم العذراء، وهى مكان مقـدس لدى المسيحيين، والناصرة تقع على بعد 141كم إلى الشمال من بيت المقدس كما أنها تقع على بعد 67كم إلـى الـشمال مـن نابلس. سايولف، وصف، ص42. دانيال، وصف، ص102. الهراوي، الإشارات، ص29. الدباغ، بلادنا، ق2،ج1، ص48.

([6]) **جبل طابور:** يقع في إقليم الجليل في ظاهر قرية دبوريه التي شيدت عند سفحه الغربي ويشرف على سهل مـرج ابـن عـامر ويبعد حوالي 4أميال إلى الشرق من الناصرة، ويرتفع عن سطح البحر نحو 588 مترا. سايولف، وصـف، ص44. دانيـال، وصف، ص99. بورشارد، وصف، ص94.الدويكات، أقطاعية طبريا، ص95.

([7]) رنسيمان، الحروب،ج4، ص 451.

([8]) براور، عالم، ص50.

المنطقـــة وجعلهـــا فـــي قبضـــة الصليبيين([1]).

هذا وقد جرت محاولة للاستيلاء على عسقلان واستسلامها بعد المعركـــة التـــي دارت بالقرب منها في21رمضان 492هــ/12 أغسطس 1099م وكادت عسقلان إن تستسلم لهـــم لولا ظهور روح المنافسة بين القادة الصليبيين([2])

كما جرت محاولة من قبل جودفري للاستيلاء على أرسوف إلا أنه فشل في ذلـــك([3]) وقام بشن الغارات المتواصلة على المدن الساحلية من الناحية البرية طالما أنه ليس بإمكانـــه الاستيلاء عليها من الناحية البحرية؛ خاصة مع ملاحظة فعاليات الأسطول الفاطمي، وحتى يحرمها من مؤنها التي تحصل عليها من الريف([4]) وهدف جودفرى من خلال شن العمليات العسكرية ضدها؛ إشعار أهلها بأنهم تحت رحمة قوته وبطشه، وان تلك المدن ليس بمقدورها العيش دون التوصل إلى حلٍّ سلميّ مع الصليبيين، ومعنى ذلك انه أراد أن تـــسقط المـــدن الإسلامية في النطاق الساحلي أو أن يفرض عليها التبعية بالقوة الحربية، وكان طبيعياً بعـــد ذلك أن تتجه مدن أرسوف وعسقلان و قيسارية وعكا إلى مهادنته، ودفعوا جزية مـــشتركة شهرية قدرها خمسة ألاف دينار رمزا للتبعية([5])، منتظرا فرصة وصـــول دعـــم أوروبـــي بحري حتى يتمكن من احتلالها.

وفى8 شعبان493هــ/18يونيو1100م وصل أول أسطول للبنادقة في الحروب الصليبية يتكون من مائتي سفينة، وقد اتجه هذا الأسطول إلى يافا؛ فتوجـــه جـــودفري لاســـتقباله([6]) ورحب جودفري بقائد الأسطول ألبندقي والأسقف الذي صحبه، وبدأ في مناقـــشة الـــشروط التي سيبذل البنادقة بمقتضاها المساعدة للصليبيين؛ غير أن جودفري كان مريضا في ذلـــك الوقت فلم يستطع أن يتمم المفاوضات في يافا، وطلب استئنافها في بيت المقدس وأناب عنه ابن عمه وارنر جراى Warner Gray رئيسا للجنة المفاوضات مـــع$البنادقـــة وعـــرض البنادقة على ملك بيت المقدس الصليبي، وضع أنفسهم تحت خدمة المملكة الـــصليبية؛ فـــي مقابل منحهم في كل مدينة ساحلية أو داخلية من المدن التي استولى عليهـــا الـــصليبيين أو يستولوا عليها مستقبلا كنيسة وقطعة أرض فضاء صالحة لإقامة سوق عليها، وطلبوا كذلك التنازل عن ثلث أي مدينة تسقط في أيديهم في المعارك القادمة على أن يحتفظ الـــصليبيون بالثلثين الآخرين، وإذا استولى الصليبيون على مدينة طرابلس يتنازل لهم جـــودفري عنهـــا

([1]) عوض، دراسات تاريخية، ص63.

([2]) أبن القلانسي، ذيل، ص137.أبن الأثير، الكامل،ج9، ص21.

([3]) Albert d, Aix, op, cit, p..516, 517 .الشارترى، تاريخ، ص114.الصوري، تاريخ،ج1، ص472.

([4]) رنسيمان، تاريخ،ج1، ص457.

([5]) Albert d, Aix, op. cit, pp..515 , 516 .رنسيمان، تاريخ،ح1، ص458.عاشور، الحركة الصليبية،ح1،ص213.

([6]) رنسيمان، تاريخ،ج1، ص426.

بدون أي التزامات أو واجبات إقطاعية بالإضافة إلى إعفائهم من جميع الضرائب الجمركية على تجارتهم في مختلف مدن مملكة بيت المقدس([1]).

وتم الاتفاق بين الصليبيين والبنادقة على أن تكون عكا هي المدينة التي يوجــه إليهــا الهجوم لاحتلالها، على الرغم من المعاهدة التي أبرمها جودفري مع أميرها المــسلم زهــر الدولة الجيوشي، ثم يستولون بعد ذلك على حيفا([2]) التي وعد جــودفري جالــديمار كانبــل Geldemar Carpinel([3]) بمنحها له بعد الاستيلاء عليها([4]).

وفي9رمضان493هـ/18يوليو 1100م توفى جودفرى، ونقل نبأ وفاته إلى البنادقة الذين كانوا يقفون على ساحل يافا فتحير البنادقة في موقفهم، واقتــرح دايمبــرت Daimbert ([5]) بطريرك بيت المقدس وتانكرد أمير الجليل على البنادقة تغيير الخطة المقترحة للهجوم علــى عكا وتوجيه الجهد ضد حيفا لأنها أقرب إلى بيت المقدس، وأكثر نفعا للصليبيين([6]).

تحرك الجيش الصليبي إلى حيفا وتمّ فرض الحصار عليها براً وبحراً فــي9رمــضان/ أواخر شهر يوليو من العام نفسه، وقد ثارت ثائرة تانكرد حين علم بمنحها لجالــديمار لأنــه ادعى حسبما يذكر وليم الصوري بأن جودفرى منحها له([7]) فامتنع عن المشاركة في الحصار لكونه كان يطمع في ضمها لإمارته لتكون منفذاً بحرياً لها، ولذا أخذ يضغط في اتجاه عــدم المشاركة في الحصار ليحصل عليها، غير أن بطريرك بيت المقدس دايمبرت أقنعه بضرورة الاشتراك في الحرب ومواصلة الحصار، وبعد ســقوط حيفــا فــي 18شــوال 493هــــ/ 20أغسطس 1100م قام تانكرد بضم المدينة لإمارته([8]).

وفى14 جماد الأول494هـ/16 ابريل1101م وصل إلى ميناء يافا الأسطول الجنــوي، فاستغل الملك بلدوين الأول فرصة وصوله؛ لتنفيذ مشروعه في توسيع حدود مملكــة بيــت

([1]) رنسيمان، تاريخ،ج1، ص462. صبره، العلاقات، ص21.

([2]) رنسيمان، تاريخ،ج1، ص463.

([3]) **جالديمار كارنبل:** هو احد الفرسان الصليبيين الذين حضروا مع الأمير ريموند الصنجيل إلى فلسطين، كان يحمل لقــب كولــد، وذاع صيته كأحد القادة حتى انه كان يقود احد الفرق العسكرية في ذلك الوقت تقدر بثلاثين فارسا وخمسين من المشاة، ودخل في معركة أساسية ضد المسلمين بالقرب من الرملة أثناء عمليات حصار القدس. ريموندأجيل، تاريخ الفرنجة، ص238،239. الصوري، تاريخ،ج1، ص422.البيشاوى،الممتلكات، ص71.

([4]) Albert d, Aix, op, cit, p.521.

([5]) **دايمبرت:** أصبح دايمبرت الرئيس الأول لأساقفة بيزا عندما رفعت هذه المدينة إلى أسقفية بإضافة كورسيكا إليها، التــي كــان البيزيون انتزعوها من المسلمين، وقد شارك في الحملة الصليبية باعتباره قائدا للأسطول البيزى، حيث حضر مع عــدد مــن المرافقين إلى ميناء اللاذقية، عينه البابا أوربان كممثل بابوي، ونائبا ليخلف أدهمار الذي توفى في شهر آب 1098م بأنطاكيا اختير بطريركا للقدس في صفر 493هـ/ ديسمبر1099م. الصوري، تاريخ،ح1، ص464، هامش 1.

([6]) عاشور، الحركة الصليبية،ح1، ص223.

([7]) الصوري، تاريخ،ح1، ص463.

([8]) Albert d, Aix, op.cit.,pp.521– 523.

المقدس الصليبية بالاستيلاء على المدن الساحلية([1]) فذهب إلى يافا لمقابلة الجنويه، واصطحبهم معه إلى بيت المقدس، حيث احتفلوا بعيد الفصح ثم بدأت المفاوضات حول مشاركة الجنويه في احتلال مدن الساحل، ولم يلبث أن تم الاتفاق بين الطرفين على أن يقدم الجنويه المعونة البحرية مقابل حصولهم على ثلث الغنائم من المنقولات، وكذلك حصولهم على حيٍّ لهم في كل مدينة يتم الاستيلاء عليها بمشاركة الأسطول الجنوي([2]).

وفى23جمادي الأول/25 ابريل فرض الملك بلدوين حصارا برياً وبحرياً على مدينة أرسوف، ويقدرعدد السفن الجنويه التي شاركت في فرض الحصار حول أرسوف بحوالي 34 سفينة حربية، وبالرغم من حصانة المدينة فان أهلها اضطروا إلى إجراء مفاوضات استسلام استمرت ليومين مع الملك بلدوين الأول، وانتهت تلك المفاوضات بخروج أهلها المسلمين وتهجيرهم إلى مدينة عسقلان وعلى ذلك دخل الصليبيون مدينة أرسوف في28 جمادى الأول494هـ/29 ابريل1101م ([3])

بعد احتلال مدينة أرسوف ترك فيها الملك بلدوين حاميه عسكرية، واتجه براً وبمحاذاته الأسطول الجنوبي في البحر شمالا قاصدا قيسارية، وفرض الحصار عليها في ا رجب 494هـ/مايو1101م ولكنهم لم يستطيعوا أخذها بسرعة بسبب مناعة أسوارها ومقاومة أهلها، وبعد خمسة عشر يوماً من الحصار تمَّ تدمير المواقع المرتفعة على السور واقتحم الصليبيون المدينة في16رجب/17مايو، واستباحوا المدينة، وارتكبوا مذبحة بشعة ضد سكان المدينة، ونهبوا كل ما فيها([4]) ولقد وصف الصوري المذبحة بقوله " وقامت هنالك مذبحة مروعة جداً...لدرجة أن أقدام المهاجمين تلطخت بدم القتلى، وأثار منظر الجثث التي لا تحصى والدمار؛ الرعب الشديد"([5]).

كما قام الصليبيون بالتمثيل بجثث ضحاياهم بحرقهم، وبقر بطونهم بحثا عن الدنانير الذهبية التي قد تكون مخبئة في أحشائهم، ولم ينجحُ من كل سكان المدينة إلا عدد قليل من الرجال؛ أما الغالبية العظمى من النساء فقد نجون من القتل ليواجهن حياة العبودية والرق، وابقي الصليبيون على حياة قاضى المدينة، وقائد الحامية الفاطمية بهدف الحصول على فدية كبيرة من الفاطميين([6]) .

([1]) الصوري، تاريخ،ح1، ص494.

([2]) الشارترى، تاريخ الحملة، ص113 . 515 , Albert d, Aix, op.cit.,pp.514 .الصوري، تاريخ،ح1، ص491.

([3]) الشارترى، تاريخ الحملة، ص113. ابن القلانسى، ذيل، ص139، الصوري، تاريخ،ج1، ص494،495. إبن الأثير، الكامل،ح9، ص43.

([4]) الشارترى، تاريخ الحملة، ص114،115.ابن القلانسى، ذيل، ص139. الصوري، تاريخ،ج1، ص495،496. إبن الأثير، الكامل،ح9، ص43.المقريزي، اتعاظ،ج2، ص161.

([5]) الصوري، تاريخ،ح1، ص496.

([6]) الشارترى، تاريخ الحملة، ص115. .Albert d, Aix, op. cit., p. 542 .الصوري، تاريخ،ح1، ص496،497.

وعلى الرغم من محاولات الفاطميين في التصدي للمحاولات التوسعية للملكية الصليبية إلا أنهم فشلوا في وقف هذا المد التوسعي بعد هزيمتهم في معركة الرملة الأولى في10 ذي القعدة 494هـ/6سبتمبر 1101م([1]) وحتى بعد انتصارهم في بداية معركة الرملة الثانية في27رجب 495هـ/7مايو 1102م لم يستطيعوا وقف النشاط التوسعي الفرنجي، لأنهم لم يستغلوا هذا النصر في مهاجمة القدس بسرعة؛ مما أدى إلى قدوم نجدات صليبية من إمارة الجليل الأمر الذي أدى إلى هزيمة الفاطميين في نهاية المعركة([2]).

وفى جماد الآخرة496هـ/ مارس 1103م استدعى الملك بلدوين الأول القوات الفرنجية من مختلف أنحاء مملكة بيت المقدس الصليبية([3]) ثم سار بهم نحو عكا وفرض عليها حصاراً شديداً، ولكن على الرغم من كل استعداداته فإن مقاومة الأهالي والحامية داخل عكا، وشدة تحصيناتها([4]) فضلا عن وصول أسطول فاطمي قد حالت دون قدرة القوات الصليبية على اقتحام أسوارها؛ مما اضطره إلى فك الحصار والانسحاب عنها([5]) وبعد الفشل في الاستيلاء على عكا قام الملك بلدوين بالاستيلاء على الريف المحيط لعكا وقتل أصحابه، واستولى على ممتلكاتهم([6]).

وفى497هـ/ربيع1104م وصل إلى ساحل حيفا أسطولٌ جنويٌ مؤلف من سبعين سفينة([7]) والتقى بلدوين قيادة الأسطول في حيفا وظفر بمحالفتهم لإخضاع عكا بعد أن تم الاتفاق بينهم على منحهم امتيازات تجارية واستيطانية([8]) كما ساهمت كلٌ من البندقية وبيزا ومرسيليا بتقديم العون العسكري للمملكة للاستيلاء على عكا مقابل الحصول على امتيازات تجارية واستيطانية([9]).

في الوقت الذي حاصر فيه الصليبيون عكا من الناحيتين البرية والبحرية كان والى المدينة زهر الدولة الجيوشى([10]) وحاميتها يبذلون قصارى جهدهم في الدفاع عن المدينة،

([1]) ابن القلانسي، ذيل، ص140. الشارتري، تاريخ الحملة، ص116-.120 الصوري، تاريخ،ج1، ص500،499.
Albert d, Aix, op.cit.,pp.545 – 551.

([2]) ابن القلانسي، ذيل، ص141.الشارتري، تاريخ الحملة، ص125-597.129- 590..Albert d, Aix., op.cit.,pp. .
إبن الأثير، الكامل،ج9، ص68.

([3]) Albert d, Aix,op.cit.,p.601.

([4]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص130.الصوري، تاريخ،ح1، ص510،511.

([5]) إبن الأثير، الكامل،ج9، ص 56.

([6]) الصوري، تاريخ، ص511.

([7]) يذكر ابن القلانسى أن الأسطول تالف من أكثر من 90 سفينة من جنوه، ص144.

([8]) الصوري، تاريخ،ح1، ص512.رنسيمان، تاريخ،ح2، ص143.

([9]) سلامة، عكا، ص49.

([10]) **زهر الدولة ألجيوشي:** يعرف أيضا باسم بنا وهو أخر والى فاطمي على عكا، وقد قام بتسليم المدينة للفرنج بعد أن عجز عن الدفاع عنها،وسميَّ جيوشي نسبة إلى أمير الجيوش بدرالجمالي.ابن القلانسي، ذيل، ص144.ابن الأثير، الكامل،ج9، ص72

ولكنه لم يقو على مقاومة الحصار المحكم الذي فرضه الصليبيون على عكا من ناحيتي البر والبحر والذي استمر أكثر من عشرين يوما في الوقت الذي لم تقدم فيه الدولة الفاطميـة أي مساعدة للمحاصرين فاضطر لتسليم المدينة في24شعبان 497هـ/26مايو1104م([1]) "وملـك الفرنج البلد بالسيف قهرا وفعلوا بأهله الأفعال الشنيعة"([2]) وبسقوط عكـا حـرم الأسـطول الفاطمي من أهم قواعده بالشام، وصارت للصليبيين السيادة على شواطئ فلسطين.

وبنهاية عام510هـ/1116م أحكم الصليبيون احتلالهم لفلسطين باستثناء عسقلان التي سقطت في أيديهم عام 548هـ/1153م ([3]) بعـد إن كانـت قاعـدة متقدمـه تهـدد الوجود الصليبي في جنوب فلسطين، ونقطة انطلاق استخدمتها الدولـة الفاطميـة للهجـوم على المملكة الصليبية، وأصبح سهل الرملة ميدانا سنويا للحـرب بـين حاميـة عـسقلان والفرنج([4]) وأوضحت المصادر العربية والفرنجية أن قوات الغزو الصليبي فـي سياسـتها الرامية إلـى إغتـصاب الأرض الفلسطينية، والاسـتيطان والتوسـع بالاسـتيلاء علـى المدن، والموانى والقرى وفرض هيمنتها على الأرض، والقضاء على المقاومـة الإسـلامية أو التخفيف من عنفها؛ قد اعتمد بـصورة أساسـية علـى ارتكـاب المـذابح والمجـازر الجماعية أو فرض سياسية التهجير.

ومما يجدر ذكره أن الطريقة التي هُجرَ أو طُردَ بها سكان فلسطين، من مدنهم وقراهم لم تكن متشابهة في بعض الأحياء؛ فعندما اقتربت القوات الصليبية الغازية مـن فلـسطين، وسماع سكانها عما إرتَكبتهُ القوات الفرنجية الغازية من مذابح ومجازر مروعة ضد المسلمين في أنطاكية([5]) ومعرة النعمان([6]) وجد سكان بعض المدن الغير محصنة أنفسهم مـضطرين للخروج عنها كما هو الحال مع سكان مدينة الرملة الذين نزحوا عن مدينتهم قاصدين اللجوء إلى مدينة عسقلان التي كانت أكثر حماية وأمنا، وتشير بعض المصادر الصليبية أن عمليـة النزوح الجماعية هذه قد تمت قبيل وصول الفرنجة إلى مدينة الرملة واحتلالهم لها بيوم واحد أي يوم الخميس الموافق11رجب 492هـ/2 يونيو1099م حيث دخلها الفرنجة فـي اليـوم الثاني وبدون مقاومة تذكر([7]).

لم تكن مدينة الرملة وحدها هي التي غادرها سكانها بهذه الطريقة فمدينة طبرية في الجليل

([1]) إبن القلانسي، ذيل، ص144. الصوري، تاريخ،ج1، ص512،513.

([2]) إبن الأثير، الكامل،ح9، ص72.

([3]) إبن القلانسي، ذيل، ص321.الصوري، تاريخ،ج2، ص821.

([4]) براور، الاستيطان، ص37.

([5]) مجهول، أعمال فرنجة ص 70. ابن القلانسي، ذيل، ص135، الشارتري، تاريخ الحملة، ص58.

([6]) مجهول، ص106، ابن القلانسي، ذيل، ص136. الشارتري، تاريخ الحملة، ص68.

([7]) مجهـول، أعمـال الفرنجـة، ص114.ريمونـدأجيل، تـاريخ الفرنجـة، ص169.الـشارترى، تـاريخ الحملـة، ص70. الصوري، تاريخ،ج1، ص400.

جلا عنها سكانها عندما علموا بأنباء اقتراب القوات الفرنجية([1]) كما نـزح سـكان مـدينتي يافا([2]) والخليل([3]) عن مدنهم.

لم يقتصر نزوح السكان عن المدن غير المحصنة فحسب بل إن أهل الريف الفلسطيني نزحوا عن قراهم واتجهوا إلى الإقامة بالمدن المحاطة بالأسوار والقلاع لعلها تحميهم؛ فيروي الصوري إن أهالي القرى والريف المحيط بالقدس قد جلوا عن قراهم إلى مدينة القدس هربا من وجه القوات الغازية وبحثا عن السلامة لأنفسهم([4]).

وظهرت مسألة اللاجئين في فلسطين على إثر المذابح الجماعية الشرسة التي تعرضـت لها مدينة القدس([5]) وقيسارية([6]) فعندما قام بلدوين الأول بحملته على المناطق الواقعة جنوب غرب البحر الميت لإخـضاع الريـف الفلـسطيني سـنة494هـ/1100م جـلا العديـد من سكان القرى عن قراهم؛ فيذكر فوشيه الذي رافقه بلدوين في حملتـه أن سـكان قريـة صغر جفلوا عنها حين سمعوا بقدوم القوات الفرنجية الغازيـة نحوهـا([7]) كمـا أنّ سـكان مدينة أيله جفلوا عن مدينتهم عندما قام بلدوين الأول بحملته لاحتلال المدينة من أجـل مـد نفوذه على البحر الأحمر([8]).

لم يكتفِ الفرنجة الصليبون بسياسة تفريغ المدن من سكانها عن طريق ما قـاموا مـن مذابح جماعية وعمليات إبادة للسكان بل لجأوا إلى سياسة الطرد والتهجير الجماعي لـسكان المدن من أجل تفريغ الأرض من سكانها الأصليين، وتمثلت هذه السياسة في المـدن التـي كانت قد استسلمت للفرنجة والتزم فيها الفرنجة بمواثيقهم بشان الحفاظ على حيـاة الـسكان ومنحهم حق مغادرة مدنهم وفقـا لاتفـاق بيـنهم، ونجـد مثـل هـذا الأمـر فـي مـدن أرسوف594هـ/1101م ([9]) وعكا سنة 497هـ/1104([10]) وعسقلان سنة 548هـ/1153م التي خرج منها من أمكنه الخروج من البر والبحر إلى ناحية مصر وغيرها"([11])0

([1]) Albert d, Aix, op.cit.,pp.517, 518.

([2]) الصوري، تاريخ،ج1، ص423.

([3]) سايولف، وصف، ص42.

([4]) الصورى، تاريخ،ح1، ص416.

([5]) مجهول،أعمال الفرنجة، ص120. ريموندأجيل، تاريخ الفرنجة، ص247. توديبود، تاريخ الرحلة، ص318. الشارتري، تاريخ الحملة، ص75. ابن الأثير، الكامل،ج9، ص19.

([6]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص115. الصوري، تاريخ،ج1، ص496.

([7]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص109.

([8]) الصوري، تاريخ،ج1، ص566.

([9]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص113.ابن القلانسي، ذيل، ص139 .ابن الأثير، الكامل،ج1، ص43.

([10]) الصوري، تاريخ،ج1، ص513. ويندوفر، ورود التاريخ، ص114.

([11]) ابن القلانسي، ذيل، ص321.الصوري، تاريخ،ج2، ص822.

ب علاقة المقطع بالأرض:

– نظام ملكية الأرض في الإقطاع الفرنجي الصليبي:

لقد وضع جودفري نظاماً إقطاعياً صليبياً شبيهاً بالنمط الأوروبي من أجل الدفاع عن المملكة الصليبية الناشئة في فلسطين، وتنظيم الوجود الصليبي فيها([1]) مع إجراء بعض التعديلات التي تتلائم مع التركيبة السكانية في بلاد الشام وفلسطين لمواجهة الظروف المحلية والتحديات الخاصة([2]) ويمكن أن نعزو تطبيق النظام الأقطاعى في المملكة الصليبية إلى السمة العسكرية لهذه المملكة خاصة وأنها تعيش وسط محيط إسلامي معادٍ، والى عقلية النبلاء والفرسان التي تشبثت بالأنماط التقليدية للهرم الاجتماعي([3]).

وقد سهلت طبيعة التركيبة الاجتماعية والاقتصادية في بلاد الشام وفلسطين عملية تطبيق النظام الإقطاعي الفرنجي الصليبي([4]) ويرجع ذلك إلى نظام الإقطاع الحربي الذي ادخله السلاجقة([5]) إلى العالم الإسلامي، ففي سنة470هـ/1077م أقطع السلطان ملكشاه([6]) أخاه تاج الدولة تتش([7]) بلاد الشام، وصار تتش يقطع أتباعه فاقطع القدس لأرتق([8]) سنة 479هـ/1089م ([9]) ولهذا كان من السهل أن يحتل الفارس الصليبي مكان الفارس السلجوقي دون أن يحدث نتيجة لذلك أي تغير في طبيعة الأوضاع الاجتماعية ولإدارية لبلاد

([1]) **فنك**، تأسيس، ص69.

([2]) براور، الاستيطان، ص457. براور، عالم، ص97

([3]) براور، عالم، ص97. البيشاوي، الممتلكات، ص63.

([4]) chalandon, F., histoira . de la Premiere croisads,p.298.

([5]) **السلاجقة:** مجموعة من القبائل التركية أطلق عليها اسم "الغز" هاجروا من تركستان خلال القرن 2.3.4. للهجرة تحت ظروف قاهرة، وهم ينتسبون إلى قائدهم سلجوق بن دقاق وكان لا يعرف لهم اسم خاص قبل توليهِ أمرهم، ويبدو انه هو الذي جمع شملهم تحت زعامته، وقد حكموا أقاليم مترامية الأطراف من آسيا الوسطى والدنيا من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر الميلادي، ومن أهم هذه الأسر السلاجقة العظام، وسلاجقة العراق، وسلاجقة كرمان، وسلاجقة الشام، وسلاجقة آسيا الصغرى (الروم). مصطفى، دخول الترك، ص318–326.

([6]) **ملكشاه:** هو أبو الفتح ملكشاه ابن ألب ارسلان، ولد سنة447هـ/ 1055م وتملك بعد أبيه وكان ملكشاه يعرف بالسلطان العادل، وقد اهتم بأمور الدولة وعمارتها وعمل على تحصين مدنها كما انشأ الرباطات، وعمر طرق القوافل التجارية توفى سنة485هـ/ 1092. الطوسي، سياسة نامه، ص18. ابن الأثير، الكامل،ج8، ص394،403. إبن خلكان، وفيات،ج5، ص283. الذهبي، سير،ج19، ص54،55.

([7]) **تتش:** هو أبو السعيد تتش بن ألب ارسلان؛ سيره أخاه السلطان ملكشاه إلى الشام وأمره بفتحها على حساب الفاطميين. جرى بينه وبين أخيه بركياروق حروب، وقتل في المعركة التي دارت بينهما قرب الري سنة 458هـ . إبن الأثير، الكامل،ج8، ص477، 418. إبن خلكان، وفيات،ج1، ص295.

([8]) **ارتق:** هو جد الملوك الارائقة كان حاكما على مدينة حلوان الواقعة في الشمال الغربي من العراق، كان السلطان السلجوقي ملكشاه يعتمد عليه كثيرا لأنة كان شهما ذو عزيمة، تولى حكم بيت المقدس من قبل تاج الدولة تتش ولما توفى عام 491هـ.تولى ابناه سقمان ويلغازى، ولم يزالا به، حتى قصدهما الأفضل إبن بدر الجمالي . ابن الأثير، الكامل،ج8، ص442. ابن خلكان، وفيات،ج1، ص191.

([9]) ابن الأثير، الكامل،ج8، ص418،443.

الشام([1]) فعندما تـم إختيـار جـودفرى حاكمـا علـى الدولـة الـصليبية أصـبح مالكـا لجميـع الأراضـي التـي نجـح الـصليبيون فـي الاسـتيلاء عليهـا فـي فلسطين؛ قام بتوزيع هذه الأراضي على شكل إقطاعات لطبقة النبلاء، وقادة الجيش الصليبي واحـتفظ لنفـسه بمـساحات معينـه، هـي كـل مـا تمثلـه ثروتـه العقاريـة([2]) ويذكر أنه في بداية الاستقرار الصليبي في فلسطين لـم يـتم تقـديم المـنح والإقطاعـات للنبلاء على نطاق واسع لأنه من الـصعب التأكـد مـن ولاء الإقطـاعيين، فـضلاً عـن تخوف الملك الصليبي من نهوض قوى إقطاعية منافسة له، مع صـغر مـساحة الأراضـي التي تم الاستيلاء عليها في فلسطين؛ مما أدى إلى الحد إلى توزيع الإقطاعات([3]).

كان ملوك وأمراء الصليبيون يمنحون الإقطاعات والقرى والضياع لأتباعهم كي يضمنوا لهم دخلاً ثابتاً يمكنهم من القيام بواجباتهم العسكرية على أكمل وجه ويساعدهم على أن يحيوا حياه تتناسب مع مكانتهم الاجتماعية([4]) فقد ذكر وليم الصوري أن الأمير تانكرد طلب مـن الأمير جودفرى أن يمنحه طبريا مع ولاية الجليل كاملة كحق وراثي إلى الأبد([5]) غيـر أن تانكرد لم يقنع بإقطاعه إمارة الجليل، وسعى إلى توسيع حدود إمارته على حساب غيره من الأمراء الصليبيين فبعد استيلاء الصليبيين على مدينة حيفا قام بضمها لإمارته؛ متجاهلا وعد جودفرى بمنح المدينة إلى جالديمار كارنبيل([6]) متذرعا بان جودفرى قد منحها لـه وذلـك حسب رواية الصوري([7]) وقد تمكن تانكرد في غضون سنة من فرض سيطرته على نـابلس وطبريا والناصرة وبيسان وحيفا وأصبحت هذه المدن تشكل ما يعرف باسم إمارة الجليل([8]). كذلك منح جودفري جيرارد افسنيز Gerard of Avesnes ([9]) مدينة الخليل التي سقطت في أيدي الصليبيين بعد سقوط مدينة بيت المقدس([10]) هكذا تحولت مدينة الخليل والزمام الزراعي لمحيط بها إلى إقطاعية صليبية يسيطر عليها أحد الأمراء، وكذلك وعد جـودفري روبـرت أوف أبوليا Robert of Apulia بمنحه مدينة أرسوف على الرغم من أنها لم تكن قد سقطت

([1]) البيشاوي، الممتلكات، ص63.

([2]) الفيتري، تاريخ، ص62. chalandon, f. op. cit.,p.298.

([3]) براور، الاستيطان، ص155. براور، عالم ، ص97.

([4]) براور، عالم، ص97

([5]) الصوري، تاريخ،ج1، ص463.

([6]) Albert d, Aix, op.cit.,p.521.

([7]) الصوري، تاريخ،ج1، ص463.

([8]) Albert d, Aix, op.cit.,pp.521, 523. فنك، تأسيس،ص69.

([9]) **جيرارد افسنيز**: ينتمي إلى حصن افسنيز وهو أحد الفرسان الذين شاركوا مع الأمير جودفري في حصار أرسوف، وقد أرسله لتولى أمر التفاوض مع سكان المدينة الذين قبضوا عليه وعذبوه ثم أطلقوا سراحه .البيشاوي، الممتلكات، ص70، هامش3.

([10]) Albert d, Aix, op.cit.,p.516. فنك، تأسيس، ص69.

بعد في أيدي الصليبيين([1]) وهكذا وبرغم قصر مدة حكم جودفري البويونى 492- 493هـ/ 1099-1100م إلاّ أنه جرى خلالها إرساء قواعد النظام الإقطاعي الصليبي في فلسطين من أجل تنفيذ المشروع الإقطاعي الاستيطاني.

وفى عهد الملك بلدوين الأول من 494- 512هـ/1100- 1118م اتضحت معالم النظام الإقطاعي الصليبي في فلسطين، وتشكلت حدود مملكة بيت المقدس الصليبية بعد أن اتسعت حدودها على حساب القوى الإسلامية المجاورة([2]) فقد أشار ألبرت ايكس إلى أنه في اليوم الرابع لوصول بلدوين شقيق جودفري وخليفته قد تم استدعاء جميع الفرسان وعلِيه القوم ليقدموا له بياناً شاملاً عن أسلحتهم، وإقطاعاتهم وكل ما يحصلون عليه من عائدات المدن التي خضعت لسيطرة الصليبيين، وبعد ذلك تم نزع يمين الولاء والتبعية من الفرسان وكبار رجال الدولة في المملكة، وطبق قانون عدم الفساد([3]).

واستمراراً لسياسة سلفه في تشكيل النظام الإقطاعي الصليبي قام الملك بلدوين الأول بتقسيم مملكة بيت المقدس الصليبية إلى إقطاعات منح معظمها إلى كبار الأمراء والنبلاء في الدولة؛ فقد منح إقطاعية قيسارية إلى يوستاس جارنيه Eustace Garnier([4]) سنة502هـ/1108م ([5]) كما منحه مدينة أريحا([6]) مع توابعها بعد أن كانت وقفاً كنسياً بالإضافة إلى الدخل السنوي لمدينة أريحا، والبالغ نحو خمسة آلاف قطعة ذهبية([7])؛ كما مُنحَ بارونية صيدا([8]) كحق موروث سنة504هـ/1110م([9]).

اتجه بلدوين إلى تفتيت إمارة الجليل إلى إقطاعيات صغيرة بسبب صراعه مع تانكرد([10]).

([1]) فنك، تأسيس، ص69.

([2]) براور، براور، عالم، ص98.

([3]) Albert d, Aix, op.cit.,p.598.

([4]) **يوستاس جارنيه:** يعتبر من أعظم السادة الإقطاعيين في مملكة بيت المقدس الصليبية، وكان سيدا على إقطاعية قيسارية وبارونية صيدا، وقد تزوج من ايما Emma ابنة أخت البطريرك ارنولف مالكرون الذي قام بمنحها مدينة أريحا لتكون مهرا لها. الصوري، تاريخ،ج1، ص543.

([5]) الصوري، تاريخ،ج1، ص543.

([6]) **أريحا:** من أقدم المدن في العالم، ذكرها الرحالة والجغرافيون المسلمون بأنها مدينة الجبارين تشتهر بكثرة أشجار النخيل وقد شيدت المدينة قبل ثلاث آلاف سنة ق.م وسميت يريحو، وتعنى في اللغة الكنعانية والارمية مدينة القمر وتتميز بموقعها الجغرافي الجميل وكانت من الممالك الكنعانية الشهيرة، وهى أول من تعرضت للغزو العبراني فورد في كتاب العهد القديم أن يوشع بن نون أمر جماعته بإحراق المدينة وقتل أهلها. الهراوي، الإشارات، ص25.الحموي، معجم،ج1، ص165.

([7]) الصوري، تاريخ،ج1، ص543.

([8]) **صيدا:** وهى مدينة فينيقية قديمة تقع على ساحل البحر المتوسط، وصفها الجغرافيون العرب بأنها مدينة كبيرة عامره الأسواق رخيصة الأثمان محدقة البساتين والأشجار، وهى متصلة بجبل لبنان خضعت للسيطرة الصليبية504هـ/1110م وأصبحت إقطاعية صليبية.ابن القلانسي، ذيل، ص171. الإدريسي، نزهة المشتاق، ص370. بورشارد، وصف، ص49،48.

([9]) الصوري، تاريخ،ج1، ص542.

([10]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص106.الصوري، تاريخ،ج1، ص485.

وما لمسه من خطورة تجميع أملاك بهذا الحجم في يد أمير واحد لذلك فكر في إتباع سياسة ترمي إلى ربط وتقوية صلة الاقطاعات الصليبية بالتاج مستقبلاً، والعمل على تقوية نفوذ الملك اتجاه الأمراء الإقطاعيين لذا عمل على تقسيم إمارة الجليل بهدف تقوية الرقابة على الأمراء الجدد، والتقليل من الموارد العسكرية والاقتصادية التي في حوزتهم لتشتيت أملاكهم، والمضاعفة من قوة ونفوذ التاج بتأسيس منطقة نفوذ مَلَكِيْة فمنح الإقطاعات لأفصاله وأتباعه([1]).

فبعد رحيل تانكرد إلى إنطاكية سنة494هـ/1101م احتفظ الملك بلدوين بجزء من الإمارة، وأقطع الباقي لبعض الأمراء؛ فأقطع هيو أوف سانت وأُمر Hugh of saint. omer([2]) طبريا بحق وراثي([3]) ومنح جالديمار كارنبيل حيفا([4]) الذي طالب بحقه القديم بها، ففي أول انعقاد لمجلس محكمة الملك court Le Rol تقدم جالديمار بمظلمته عارضاً أحقيته في حيفا، وعرض على الحضور كيف استولى تانكرد عليها بالقوة رغم أن الأمير جودفري كان قد منحها إياه، وبعد سلسلة من الاجتماعات والمفاوضات بين الملك وتانكرد حدث فجأة ما أغرى تانكرد على ترك أمارة الجليل([5]) فقام الملك بمنحها لجلديمار([6]).

كما منح الملك بلدوين الأول جزءً من نابلس كإقطاعية لباين دى ميللى Payne de Milly([7]) سنة502هـ/1108م على الرغم من أن نابلس كانت ضمن البلاد التي تخضع لملكيه التاج([8]) وقام بلدوين كذلك بفصل بيسان عن إمارة الجليل وغدت بيسان تشكل إقطاعية تعتمد على التاج مباشرة حيث تمّ إقطاعها لآدم بيثون([9]) Adam سنة494هـ/1101م([10]). هكذا اتضحت في عهد الملك بلدوين الأول معالم النظام الإقطاعي الصليبي في فلسطين

([1]) براور، الاستيطان، ص88.

([2]) **هيو اوف سانت اومر:** ينسب هذا الأمير لمنطقة فولكنبرج في فرنسا، وذلك لأنه من مواليد تلك البلد وكان هيو قد حكم مدينة سانت اومر في ظل السيادة الإقطاعية لأسرته منذ القرن السابع الميلادي، ومن هنا ارتبطت الأسرة بالمدينة، وكان من أعظم نبلاء الملك بلدوين الأول.الشارتري، تاريخ الحملة، ص127. الصوري، تاريخ،ج1، ص489.

([3]) Albert d, Aix, op.cit.,p.537. الصوري، تاريخ،ج1، ص489.

([4]) Albert d, Aix, op.cit.,pp.537 , 538.

([5]) وصل إلى حيفا وفد من نبلاء أنطاكية طالبين من تانكرد الانتقال لحكم الإمارة في مكال خاله بوهيموند Bohemond بصفته الوريث الشرعي لممتلكات خاله الأسير.Albert d, Aix, op.cit.,p.537. الصوري، تاريخ،ج1، ص489.

([6]) Albert d, Aix, op.cit.,pp.537,538.

([7]) **باين دي ميللى:** ينتمي لإحدى الأسر النبيلة التي استقرت في فلسطين بعد قدوم الصليبين، وترجع أسرة ميللى قي أصلها إلى العنصر الفلمنكي، وقام الملك بلدوين الأول بمنح جزء كبير من نابلس كإقطاعية. لباين كبير عائلة ميللي، وقد آلت إقطاعية نابلس بعد وفاه باين لابن أخيه فيليب دى ميللى. البيشاوي، الممتلكات، ص78، هامش2.

([8]) البيشاوي، نابلس، ص75.

([9]) **آدم بيثون:** تولى حكم إقطاعية بيسان عندما فصلت عن إمارة الجليل، وظهر اسم آدم حاكم بيسان في أحداث حمله الرملة الثانية سنة 496هـ/1102م. كما ظهر أثناء حصار مدينة عكا سنة 496هـ/1103م .نعيرات، إقطاعية بيسان، ص96.

([10]) المرجع نفسه، ص95.

بفضل جهوده؛ من أجل توطيد أركان دولته، وقد أصبحت الأرض والعلاقات الشخصية محددة وراسخة بطريقة أفضل؛ بعد أن تم تحديد الهيكل الحكومي في الدولة الصليبية الناشئة([1]) ومن المرجح أن يكون تكامل الأنظمة الصليبية قد أصبح واضحا في جميع النواحي زمن الملك بلدوين الثانيBaldwin II([2])512-525هـ/1118-1131م ففي عهده تشكلت الخطوط العريضة للخريطة الإقطاعية في المملكة الصليبية على الرغم من أن عملية تشكيل النظام الإقطاعي قد استمرت بشكل متقطع حتى الربع الثالث من القرن السادس هجري/الثاني عشر الميلادي ([3]).

كان الملك الصليبي في بيت المقدس يحتل قمة الهرم الإقطاعي في المملكة الصليبية ويليه أربعة من كبار السادة الإقطاعيين، وهم سيد بارونية صيدا، وأمير الجليل، وأمير كونتيه يافا، وأمير الكرك والشوبك، وكان هؤلاء الأمراء يضارعون الملك بما كان لديهم من كبار الموظفين، والى جانب الإقطاعيات الكبيرة؛ اشتملت مملكة بيت المقدس الصليبية على اثني عشر إقطاعية صغيرة هي قيسارية، وأرسوف، وحيفا وبيروت([4]) واسكندرونة([5]) وبيسان، والداروم([6]) وتبنين([7]) وقيمون([8]) ونابلس، واللد، والخليل([9]) وتم منح هذه الإقطاعيات الصغيرة لاثني عشر سيدا لإدارة شؤونها تحت إشراف مباشر لحكومة بيت المقدس، وكان هذا التقسيم الإقطاعي يتطلب مبدئيا تقديم يمين الولاء والتبعية الإقطاعية([10]).

([1]) براور، عالم، ص98.

([2]) **بلدوين الثاني:** هو ابن هيو الأول، وهو ابن عم جودفري وبلدوين الأول، وقد خلف بلدوين الأول على ولاية الرها أولا سنة494- 512هـ/1100- 1118م ثم على مملكة بيت المقدس من سنة512- 525هـ/ 1118- 1131م. الشارتري، تاريخ الحملة، ص185.الصوري، تاريخ،ج1، ص565-570.

([3]) براور، الاستيطان، ص175.

([4]) **بيروت:** إحدى المدن الساحلية الواقعة على الساحل البحر المتوسط استولى عليها الفرنجة سنة 503هـ/1111.م تمتاز أراضي بيروت بالخصوبة وبها ميناء جليل، وبينها وبين مدينة جبيل ثمانية عشر ميلا. الحموي، معجم،ج1، ص525. .

([5]) **اسكندرونه:** تقع على ساحل البحر المتوسط بين صور وعكا على بعد خمسة أميال جنوبي صور، بني فيها الفرنجة قلعة سنه511هـ/ 1117م. الشارتري، تاريخ الحملة، ص161.

([6]) **الداروم:** هي كلمة سامية بمعنى الجنوب كانت هذه الكلمة تطلق في وقت ما على السهل الساحلي الواقع في جنوب اللد وفي العهد المسيحي اتسع هذا الاسم ليشمل البلاد حتى البحر الميت ويرى يعقوب الفيترى أن هذه التسمية تعنى بيت الرهبان ذكرها الحموي بأنها قلعة بعد غزه للقاصد إلى مصر ذلك أن الملك عموري الأول قام ببناء قلعة الداروم564هـ/ 1170م على بعد خمسة أميال جنوب غزه.الصوري، تاريخ ،ج2، ص949.الحموي، معجم،ج2، ص424. الفيتري، تاريخ، ص44

([7]) **تبنين:** تقع قلعة تبنين في مقابل مدينة صور على بعد عشرة أميال نحو (23.5كم) إلى الجنوب الشرقي من مدينة بانياس ولقد خضعت لهيئة فرسان الاسبتارية سنة 1157م وعندها كانت تفرض المكوس على تجارة العبور المارة بتلك المنطقة الخاضعة للسيادة الصليبية. ابن جبير، الرحلة، ص234. الصوري، تاريخ،ح1، ص525. الحموي، معجم،ج2، ص14.

([8]) **قيمون:** أقيمت قلعة قيمون على تل قيمون الواقع على حافة مرج بن عامر، وعلى طريق حيفا جنين، وعلى بعد 12 ميلا جنوب غرب الناصرة.الحموي، معجم،ج4، ص424. الدباغ، بلادنا، ق2،ج7، ص583،584.

([9]) الفيتري، تاريخ، ص62. براور، عالم، ص98،99. عاشور، الحركة الصليبية،ج1، ص384.

([10]) الفيتري، تاريخ، ص62. براور، الاستيطان، ص158.ينظر خريطة رقم (2) ص 308 .

أما بالنسبة لمنطقة النفوذ الملكية فقد تألفت من أربع مدن هي بيــت المقــدس، وعكــا، ونابلس، وصور، وفى وقت متأخر أضيفت إليها الداروم والمنطقة المحيطــة بهــا([1]) وكــان التاريخ المبكر لمختلف الإقطاعات التي نشأت في مملكة بيت المقدس الصليبية يشوبه الكثيــر من الغموض بسبب التغير المستمر في الأسر الإقطاعية؛ كما يوضح الجدول التالــــــــــي.

الجــــليل([2])	الخــــليل([3])
492هـ/1099م منحها جود فري لتانكـــــــرد	**493هـ/1099م صارت إقطاعا لجيرارد افسنيز**
494هـ/1101م منحها بلدوين لهيو سانت أومر	**494هـ/1100م منحها بلدوين لجالديمار كارنبيل**
500هـ/1106م منحها بلدوين لجيرفاس ([4])	**494هـ/1101م أقطعت جودفري سيد برج داود ([8])**
503هـ/ 1109م عادت لسلطة تانكرد الاسمية([5])	**494هـ/1103م صارت إقطاعا إلى هيو سانت أبراهام الأول ([9])**
507هـ/ 1113م اقطعها الملك لجوسليـــــن([6])	
513هـ/1119م منحت لوليم بـــــــــور([7])	**499هـ/1105م أقطعت لروجر دى حيفــا**
564هـ/ 1168م عادت إلى أسرة سانت أومـــر	**501هـ/1107م أصبحت في يد جوتيه المحمودى**
569هـ/1173م صارت من أملاك ريمونـــــد	**509هـ/1115م توارثتها أسرة إقطاعية**

([1]) الفيتري، تاريخ، ص62. براور، عالم، ص98،99. ريتشارد، تكوين، ص150،151.

([2]) الدويكات، إقطاعية طبريا، ص102–115. العرينى، نمو طبقة النبلاء، ص40.

([3]) السيد، الخليل، ص 110–250، 393.

([4]) **جيرفاس أوف باسوك:** كان سيدا إقطاعيا زمن الملك بلدوين الأول الذي لم يكن راضيا عنه في البداية، وبعــد ذلــك اكتــسب رضاه بسبب إقدامه ونشاطه، وقد أعلن جيرفاس ولائه للملك بلدوين الأول، وقد وقع أسيرا بيد طغتكين الــذي عــرض عليــه الإسلام فرفض اعتناقه، وحكم عليه بالإعدام، ذكره ابن القلانسي باسم جيرفاس في حوادث سنة 501هـ/1107م . ابن القلانسي، ذيل، ص61.البيشاوي، الممتلكات، ص85.

([5]) يذكر انه في سنة503هـ/ 1109م أثناء حصار طرابلس عرض الملك بلدوين الأول على تانكرد التخلي عن مطالبتــه بالرهــا مقابل إعادة حصوله على ممتلكاته في طبريا ،ويصبح تابعا للملك بلدوين. الدويكات إقطاعية طبريا، ص107.

([6]) **جوسلين كورتناي:** هو نبيل فرنسي من مقاطعة Gaitanis وهو أحد أقارب الملك بلدوين الثاني،أغدق عليه الكثير من المــنح والإقطاعات، تولى حكم إمارة الرها خلفاً لابن عمه بلدوين الثاني. الصوري، تاريخ،ج1، ص 553، 572، 573 .

([7]) **وليم دي بور:** هو أحد الفرسان الصليبيين الذين استقروا في فلسطين منذ وقت مبكر، وقد ظهر كأحد الشخصيات البارزة فــي إمارة الجليل، شارك إلى جانب جوسلين أمير الجليل في المعركة التي قادها سنة513هـ/1119م ضد قبائــل شــرق الأردن، منحه بلدوين الثاني أمارة الجليل بعد رحيل جوسلين إلى الرها، وتولي الوصاية على مملكة بيت المقدس بعد وفــاة يوســتاس جارنيه.الشارترى، تاريخ الحملة، ص200.الصوري، تاريخ،ج1،ص573، 597. Albert d, Aix , op. cit., pp. 710

([8]) **جودفري سيد برج داوود:** يعد من أبرز أفصال الملك بلدوين الأول إذ كان يرأس حامية برج داوود في بيت لحم حتــى وقــع أسيراً في أيدي المسلمين سنة1103/497م. السيد، الخليل، ص 120.

([9]) **هيو سانت إبراهــارم** وهو: من فرسان الحملة الصليبية الأولى، اشترك في أحداث معركة الرملة الثالثة وذلك حين استنجد بــه الملك بلدوين الأول الذي كان معتصماً في يافا الانضمام إليه لمواجه الجيش الفاطمي.الشارترى، تــاريخ الحملــة، ص 127. 0Albert d, Aix, op. cit., p. 621 وأشار ألبرت ديكس إلى أن روجر كان في ذلك الوقت سيداً على إقطاعية حيفــا منــذ إقطاعها له بعد مقتل جالديمار كارنبيل494هـ/1101م وأنه ظل يشرف على الإقطاعيتين حتى وفاته وأشار إلــى أن الــذي تولى رئاسة حامية قلعة سانت إبراهارم بعد روجر جوتيه. Albert d, Aix, op. cit., pp. 593, 639

نـــــــــــابلس
492هــ/ 1099م كانت من أملاك تانكرد لجزء من إمارة الجليل
494هــ/1101م عادت للسيادة الملكية
502هــ/1108م اقتطعت جزء منها لأسرة ميللي
556هــ/1161م عادت للسيادة الملكية

يتضح من الجدول السابق التغيرات التي حدثت في الأســـر الإقطاعيـــة، فـــي معظـــم الإقطاعيات الصليبية في مملكة بيت المقدس، وهذه التغيرات المستمرة في الأسر الإقطاعيـــة تفسر ما أحاط هذه الإمارات من الغموض في السنوات الأولى من قيامها، فقد كـــان ملـــوك بيت المقدس يمنحون إقطاعاً لشخص ثم بعد فترة يمنحوه لـــشخص آخـــر، وبعـــد ســـنوات قليلة يؤول هذا الإقطاع مرة ثانية لملك بيت المقدس لكي يمنحه ويقطعه لأي سيد إقطـــاعي آخر، وترجع أسباب هذه التغيرات إلى عوامل عدة اجتماعية وسياسية واقتصادية.

لعب العامل الاجتماعي دوراً مهماً في عملية التغيير المستمر للأســـر الإقطاعيـــة إذ أن الحروب، وما أدت إليه من القتل والأسر دون أن يكون للأمراء والبارونات ورثة مباشرون من العوامل التي ساعدت على التغيرات المستمرة للعائلات الإقطاعية كما هو الحـــال علـــى سبيل المثال في إقطاعية الخليل، فعندما قتـــل جالـــديمار كارنبيـــل فـــي معركـــة الرملـــة الأولى494هــ/1101م ([1]) قام الملك بلدوين الأول بمنح إقطاعية الخليل لجودفري، وعندما وقع جودفري أسيراً ([2]) منحها الملك لأسرة أخرى، وهكذا ظلت إمارة الخليل تنتقل من أسرة إلى أخرى إلى أن أضحت في يد أسرة توارثتها منذ 509هــ/1115م([3]).

وهذا ما حدث كذلك لإقطاعية طبرية فقـــد قـــام الملـــك بلـــدوين بمنحهـــا لهيـــو أوف سانت أومر([4]) وعندما قتل بعد أن تم أسره على يد طغتكين([5]) سنة 502/ 1108م([6]) منحها بلدوين لأسرة أخرى.

ويعتبر العامل السياسي كذلك من العوامل التي أدت إلى تغيير الأسر الإقطاعية؛ فتنازل تانكرد عن إمارة الجليل([7])؛ بسبب وقوع خاله الأمير بوهمند أسيراً في يد الأتراك في إحدى

([1]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص 116–119. Albert d, Aix, op.cit., P. 549. السيد، الخليل، ص119.

([2]) السيد، الخليل، ص120.

([3]) العريني، طبقة النبلاء، ص40.

([4]) الصوري، تاريخ،ج1، ص 489.

([5]) **طغتكين:** هو ظهير الدين أحد أتباع تاج الدولة تتش ابن ألب أرسلان، تزوج من والدة دقاق ابن تاج الدولة، وبعـــد وفـــاة تـــاج الدول تتش التحق بخدمة الأمير دقاق الذي مال إليه وحكمه في بلاده وبعد موت دقاق سيطر طغتكين على دمشق وعامل أهلها معاملة حسنة توفي سنة 522هــ /1128م. ابن الأثير، الكامل،ج9، ص74. ابن خلكان، وفيات،ج1، ص296.

([6]) ابن القلانسي، ذيل، ص161.

([7]) الشارتري، تاريخ، الحملة، ص113.

المعارك التي جرت بالقرب من ملطية([1]) في رمضان 493هـ/أغسطس 1100م ([2]) وما تبع ذلك من قيام أهالي إنطاكية بإرسال وفد إلى تانكرد يطلبون منه الانتقال لحكم إمارة إنطاكية بدلاً من خاله الأسير بصفته الوريث الشرعي لممتلكات الأمير بوهمند([3]).

يتضح من ذلك أن الاعتبارات السياسية هي التي دفعت تانكرد لترك إمارة الجليل والتوجه إلى أنطاكية على الرغم من أنه كان أميراً شبه مستقل في إمارته؛ فضلاً عن أنه لم يكن يعترف بالتبعية للملك الصليبي، وكان يسعى دائماً لتحقيق أطماعه، وقد اتضح ذلك عندما رفض الاستمرار في المشاركة في حصار حيفا عندما علم أن الأمير جودفري وعد بمنحها لجالديمار كارنبيل([4]).

كما أن انتقال جوسلين لحكم إمارة الرها بدلاً من إقطاعية الجليل كان بسبب اختيار بلدوين الثاني ملكاً على مملكة بيت المقدس بعد وفا ة الملك بلدوين الأول ([5]).

ولقد كان للعامل السياسي دورٌ مهمٌ في هذا التغيير حيث كان لجوسلين دورٌ بارزٌ في انتخاب بلدوين الثاني لحكم مملكة بيت المقدس؛ حيث أن بلدوين الأول قد أغفل مسألة وراثة العرش، لذلك بادر مجلس المملكة للانعقاد لاختيار خليفة له، وكان هناك من يرى بوجوب انتقال العرش إلى شقيق بلدوين يوستاس([6]) كونت بولونيا، إلا أن هذا النفر لم يستطع أن يفرض رأيه أمام جوسلين أمير طبرية وأقوى أعضاء المجلس نفوذاً وسلطاناً، واقترح أن يعين كونت الرها وقال "إن كونت الرها موجود الآن.. ومن الحكمة كثيراً اتخاذه ملكاً علينا"، واعتقد عددٌ كبيرٌ أن أقوال جوسلين قد صدرت عنه بإخلاص صادق؛ لأنهم كانوا يعرفون تمام المعرفة المعاملة السيئة التي كان قد لقيها من كونت الرها؛ فوافقوه غير عارفين أن هدفه الحقيقي كان تنصيب الكونت على العرش أملاً بأن يرث هو إمارة الرها مستقبلاً([7]) ونتيجة لموقفه هذا إلى جانب بلدوين الثاني قام بمنحه إمارة الرها على أن يحكمها باعتباره من أتباع الملك بلدوين الثاني([8]).

كما كانت بنية المجتمع الصليبي في الفترة الباكرة من عمر المملكة الصليبية، وغياب

([1]) **ملطية:** أطلق عليها الصليبيين اسم قليتن، وهي تبعد حوالي90ميلا عن الرها. الحموي، معجم،ج5، ص192.

([2]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص84،85 .

([3]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص113. Albert d,Aix, op. cit., p537 .الصوري، تاريخ،ج1، ص489.

([4]) Albert, d,Aix, op. cit., p. 521.

([5]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص 185.

([6]) **يوستاس:** وهو من بولون وهو ابن اللورد يوستاس الأكبر ووالدته إيدا Ida شقيقه جودفري، ورث ممتلكات أبيه بعد وفاته وتزوجت ابنته متيلدا Matilda من ستيفن ملك إنجلترا وعندما توفي بلدوين الأول دون وريث أرسل إليه بعض النبلاء في المملكة للحضور ليرث مملكة بيت المقدس، ولكنه لم يحضر لأنه خشي أن يحدث نزاع.الصوري، تاريخ،ج1، ص451.

([7]) الصوري، تاريخ،ج1، ص571، 572.ماير، تاريخ،ج1، ص 112.

([8]) الصوري، تاريخ،ج1، ص574،573.

الروابط والالتزامات الأسرية؛ هي السبب المباشر في حدوث التغييرات في الأسر الحاكمة، وعودة الإقطاع للتاج بعد وفاة صاحبها، ونادراً ما كان يوجد ولد أو قريب لهذا السيد المتوفى يطالب بوراثة هذا الإقطاع، وعندئذ يصبح الملك الصليبي حراً في أن يمنح هذا الإقطاع لأي فارس من أتباعه، وفي الغالب كان هذا الإقطاع الذي يتركه صاحبه المتوفى يمنح إلى أحد المهاجرين الصليبيين الجدد الذي يقرر الاستقرار والاستيطان في المملكة الصليبية([1])

وبعد جيل تقريباً من تأسيس المملكة الصليبية بدأت تتضح أصول مُلاك الإقطاعات من الصليبيين بشكل أكثر وضوحاً، وبدأت تظهر عملية انتقال الإقطاعات بشكل منظم حيث"تأسست البيوتات والأسر الإقطاعية الصليبية الحاكمة والتي عرفت باسم عائلات ما وراء البحار"([2]).

كانت عائلة جارنيه Garnier في قيسارية وصيدا هي العائلة الوحيدة التي وطدت أقدامها في مملكة بيت المقدس الصليبية؛ منذ وقت مبكر حيث استمرت تحكم كعائلة إقطاعية منذ سنة502هـ/1108م([3]) وحتى قيام جوليان جارنيه Gulian Garnier ([4]) ببيع بارونية صيداً إلى فرسان الداوية([5]) سنة659هـ/1261م([6]) ثم قيام الظاهر بيبرس بالاستيلاء على ممتلكات هذه الأسرة في قيسارية سنة663هـ/1265م([7]) ومن الملاحظ أن أسرة يوستاس جارنيه استمرت كأسرة إقطاعية نحو مائة وسبع وخمسين سنة، وهي بذلك تعد من أوائل الأسر الإقطاعية الصليبية التي ظهرت في فلسطين وبلاد الشام، واستمرت تحكم إقطاعية قيسارية وبارونية صيدا.

هذا ووجدت في المملكة الصليبية عدة أشكال للنظام الإقطاعي الصليبي الإستيطاني في

([1]) براور، الاستيطان، ص 92، 93.

([2]) المرجع نفسه، ص93.

([3]) منح بلدوين الأول يوستاش جارني إقطاعية قيسارية في سنة502هـ/1108م كما منحه بارونيه صيدا سنة504هـ/ 1110م كحق موروث.الصوري، تاريخ،ج1، ص543.

([4]) **جوليان جارنيه:** هو آخر من تولى حكم بارونيه صيدا من أسرة جارنيه، وكان قد ورثها عن والده باليان رينالد بن جيرارد جارنيه سنة637هـ/ 1239م وكان جوليان فارساً شجاعاً قوياً مفتول العضلات، غير أنه لم يكن حكيماً في تصرفاته وتعامله مع ألآخري وقد قدم جوليان جارنيه في الفترة الأخيرة من حكمة لبارونية صيدا العديد من المنح والإقطاعات لهيئة فرسان التيوتون وفى سنه 659هـ/1261م باع بارونية صيدا إلى فرسان الداوية البيشاوي، الممتلكات، ص87، هامش2.

([5]) **فرسان الداوية:** تأسست هيئة فرسان الداويه سنة512هـ/1118م أي زمن الملك بلدوين الثاني، ويرجع تأسيس هيئة فرسان الداوية إلى كل من هيو دى بانيز وجيفري دى سانت أومر، وقد قدم لهما الملك بلدوين الثاني جزءً من المسجد الأقصى الذي أطلق عليه الصليبيون اسم المعبد، ولذلك أطلق عليهم فرسان المعبد. وكانت مهمة هؤلاء الفرسان في بداية الأمر حماية طرق الحجاج، وبعد تأسيس هيئة فرسان الداوية بتسع سنوات تم عقد اجتماع في مدينة تروي بفرنسا، وصادق فيه المجتمعون على إنشاء هذه الهيئة.الصوري، تاريخ،ج1، ص 576، 577. الفيتري، تاريخ، ص90، 91. سلامه، دراسات، ص46-65.عوض،التنظيمات، ص39،42

([6]) سلامة، دراسات، ص 327. البيشاوي، الممتلكات، ص87.

([7]) أبو شامه، الروضتين،ج5، ص352.

فلسطين حيث يشير حنا ابلين إلى وجود عدة أشكال للنظام الإقطاعي الصليبي في مملكة بيت المقدس، وهما الإقطاع النقدي، والإقطاع العيني، والإقطاع النقدي هو كل ما يتقاضاه الفصل من السيد الإقطاعي من أجر؛ سواء كان هذا الأجر غلة الإقطاع أو دخل الإقطاع النقدي([1]) ولقد كانت الإقطاعات النقدية تتساوى مع الإقطاعات العقارية من حيث ما يجب عليها أن تقدمه للسيد الإقطاعي الأعلى من خدمة وولاء([2]).

ويرجع تطبيق النظام الإقطاعي النقدي في المملكة الصليبية إلى مدى التأثر بالنظام الإقطاعي الإسلامي حيث عَرف العالم الإسلامي نظاماً اقتصادياً نقدياً متقدماً([3]) واستمر الصليبيون في تقليد نظام الإقطاع النقدي في الأراضي المحتلة وعُرف الإقطاع النقدي وقتذاك باسم "إقطاعات البيزنت"([4]) ولقد حاز كثير من السادة الإقطاعيين إقطاعات نقدية بمعنى أنهم حصلوا على إيرادات مالية ثابتة من المدن والقرى التابعة لهم؛ في مقابل توفير الحماية لها، ولم تتحدد قيمة الإقطاع النقدي الممنوح، ولكن يمكن تقدير دخل إقطاع الفارس بخمسمائة بيزنت، وهي الإقطاعية التي تستحق عليها تقديم خدمة عسكرية قدرها فارس واحد([5]).

وفي حالة توقف الملك عن دفع مرتبات أفصاله، ولم يكن لديهم أية موارد أخرى، جاز لهم أن يبيعوا سلاحهم، وأن يعيشوا بثمنه، ويترتب على ذلك إعفاؤهم من الخدمة الحربية؛ أما إذا كان الملك ميسوراً فينبغي عليه أن يدفع لهم أجورهم، كما أن الملك لم يكن ملتزماً بدفع ما تأخر من الأجور، إذا نقصت موارده بسبب غارات المسلمين، أو ضعف المحصول أو انتشرت الأوبئة، وزخرت قوانين مملكة بيت المقدس بالإشارات العديدة إلى حالات توقف فيها الملك، أو السادة الإقطاعيون الكبار عن دفع مرتبات الجنود، والأفصال بسبب سوء الأحوال الاقتصادية([6]).

وكان يتم وراثة الإقطاع النقدي؛ فإذا توفي أحد البرجوازيين تاركاً وراءه العديد من الأبناء فإن الممتلكات الخاصة به من أرض ومنازل وحدائق وثمار(عقارات) تؤول حينئذ إلى أكبر أبنائه، ويتساوى في ذلك الابن أو الابنة، وإذا توفي أحد الأبناء دون الحصول على

([1]) Beugnot(ed.), Liver des Assises, I, pp. 396-399.

([2]) I bid., pp. 633, 634.

([3]) الطوسي، سياسة نامه، ص139. براور، الاستيطان، ص91.

([4]) براور، الاستيطان، ص 155.

البيزنت: هي عملة ذهبية بيزنطية سميت بذلك نسبة إلى بيزنطة، وكانت هذه العملة متداولة في العالم الإسلامي وأوروبا أيام الحروب الصليبية، وهي مساوية للصلدوس solidus الذهبي القديم، وكانت تقسم إلى عشرة أقسام، وامتاز البيزنت باستقرار قيمته الذهبية وكان يعادل حوالي ثلاثة ونصف جرام من الذهب. نسيم، العدوان الصليبي على مصر، ص 216، هامش 2. صبره، العلاقات، ص45،هامش129.

([5]) براور، الاستيطان، ص156.

([6]) Beugnot (ed.), op. cit., I , pp. 128,209,211.

الجزء الذي يخصه في هذا التوزيع فإنه لا يحق بيع نصيبه أو التصرف فيه، وإنما يجـري توزيعه على الشقيقات والأشقاء الآخرين بالتساوي([1]).

- العلاقات الإقطاعية بين طبقات المجتمع الفرنجي الصليبي:

كان النظام الإقطاعي الصليبي في فلسطين وبلاد الـشام علـى هيئـة هـرم، وكـان الملك الصليبي يحتل قمة الهرم الإقطاعي([2])، ويليه أربعة من كبار السادة الإقطـاعيين، ثـم سادة الإقطاعات الصغار الذين كان يعهـد إلـيهم إدارة شـئون الإقطاعيـات والإشـراف على مختلف جوانب الحياة فيها([3]).

كان الملك هو القائد الأعلى للجيش، والمتحكم فـي الأرض، والمـوارد فـضلاً عـن الإقطاعات التي كانت تؤول إليه عند انقراض الأسر الإقطاعيـة؛ إضـافة إلـى الوصـاية الإقطاعية على أرباب الإقطاعات أثناء حداثتهم([4]) كما ارتبطت به مسئولية الإدارة المركزية حيث يقوم بتعيين موظفيها؛ كما اتجه إلى تقديم المنح والهبات مع ملاحظة أن الكرم الزائد في هذه الزاوية على نحو خاص أدى إلى تحديد الموارد الملكية، وصار الملك الصليبي باستمرار يفتقر إلى المال([5]).

كانت علاقة السيد الإقطاعي بالملك تحكمها حدود وأبعاد الروابط والعلاقات الإقطاعية، وكان السادة الإقطاعيون يقدمون يمين الولاء والتبعية إلى الملك الصليبي في المملكة الصليبية ويلتزمون بأداء الخدمة العسكرية([6]) فضلاً عن تزويد الخزانة الملكية بجزء مـن الـواردات الإقطاعية المالية إذ كان الدخل الملكي يعتمد في جانب منه على الأرض المقطعة ([7]).

كان من واجبات الملك حماية المملكة الصليبية ضد الغارات الخارجية وإقامـة القـلاع والحصون اللازمة لحمايتها؛ فالمملكة مثلت موقعاً جغرافياً جعلها بصفة مـستمرة معرضـة لخطر الهجوم من جانب القوى الإسلامية المجاورة، لذلك لجأ الملوك الصليبيون إلى تـشييد العديد من القلاع والحصون التي فاق عددها ما تم تشييده من قبل؛ سواء في العصر الروماني أو البيزنطي أو الإسلامي ([8]) وحوطت مملكة بيت المقدس الصليبية نفسها بسلسلة من القلاع والحصون التي شيدت في مناطق إستراتيجية لتكون بمثابة دروع وقائية تحول دون سـهولة

([1]) Beugnot (ed.), op. cit.,1,p. 633.

([2]) براور، الاستيطان، ص88. رنسيمان، تاريخ،ج2، ص480.

([3]) الفيتري، تاريخ، ص62. براور، عالم، ص88، 89.

([4]) العريني، طبقة النبلاء، ص 43.

([5]) رنسيمان، تاريخ،ج2، ص481.

([6]) الفيتري، تاريخ، ص62.

([7]) براور، الاستيطان، ص147.

([8]) عوض، دراسات، ص 75.

اختراق المناطق الصليبية من جانب المسلمين، ومن أجل تأمين المملكة الصليبية وحفظ الأمن والاستقرار فيها؛ سار ملوك بيت المقدس الذين تولوا مقاليد الحكم فيها من عهد جودفري إلى عهد الملك عموري الأول([1])559-570هـ/1162-1174م على نفس النهج والسياسة، وحرصوا على تشييد القلاع بطول المملكة وعرضها([2]).

فقد أشار ألبرت ديكس إلى أنه بعد احتلال مدينة طبرية أقدم تانكرد بمعاونة جودفري على ترميم التحصينات والاستحكامات القوية بحيث أحيطت المدينة بخندق من حولها، وتم بناء هذه التحصينات على الجبل المجاور للمدينة من ناحية الغرب([3]) كما قام جودفري ببناء قلعة الخليل([4]).

وقام الملك بلدوين الأول بتشييد عدد من القلاع، ففي سنة499هـ/1105م قام بتشييد حصن علعال([5]) في منطقة السواد([6]) شمال شرقي طبرية، وقد وصف الحصن "بالمنعة والحصانة" إلا أن هذا الحصن لم يدم طويلاً إذ سرعان ما تحرك ظهير الدين طغتكين أتابك دمشق وهاجم الحصن واستولى عليه، ودمره([7]) وشيد بلدوين في عام 509هـ/1115م قلعة الشوبك جنوبي البحر الميت([8]) وأقام قلعة اسكندرونه جنوبي مدينة صور من أجل العمل على إخضاع المدينة المنيعة للسيادة الصليبية([9]) ولقد كانت هذه الشبكة من القلاع والحصون التي أقامها الملوك الصليبيين هي التي تؤلف هيكل مملكة بيت المقدس الحربي([10]).

وكان الملك الصليبي مقيداً في كثير من المسائل الهامة برأي أمرائه وأفصاله ورأي

([1]) **عموري الأول:** هوا لملك الرابع لمملكة بيت المقدس تولى الحكم فيها سنة 559 -570هـ/ 1163-1174م بعد أخيه الملك بلدوين الثالث وكان قبل ذلك كونت يافا وعسقلان وقد امتاز بالخبرة بالحرب والمكر ؛ تزوج من اجنيس أخت جوسلين الثالث ولكنة نفصل عنها بطلب من المحكمة العليا حتى يتم الاعتراف به ملكا .الصوري، تاريخ،ج2، ص878- 884.

([2]) عوض، العلاقات، ص 105.

([3]) Albert d, Aix, op. cit., p. 517.

([4]) Ibid., p. 524.

([5]) **علعال:** اختلف في تحديد موقع علعال أو العال يحددها بعضهم بالعال الواقعة شمال نهر اليرموك في الهضبة المشرفة على بحيرة طبريه، ولكن الأقرب إلى الدقة بالنسبة إلى هذا الموقع هو قرية علعال " العال الحالية" الأردنية الواقعة على رأس وادي الشلالة تقريباً وترتفع القرية حوالي 400متر عن سطح البحر. الحموي، معجم،ج4، ص146. الحيارى، "حصن حبيس جلدك"، ص 147، هـ 19.

([6]) **السواد:** تختلف الدراسات في تحديد سواد طبريه أو الأردن في تلك الفترة والأغلب يحدده بالمنطقة الواقعة جنوب كورة الجولان بين بحيرة طبرية والبثنية وحوران أي شمال نهر اليرموك ولكن دراسة متأنية للإشارات المتوفرة تدل على أن المنطقة المقصودة هي الأراضي المستوية نسبياً الواقعة إلى الشمال والشمال الشرفي لجبال عجلون وجرش والمحصورة بوادي اليرموك شرقاً وبوادي الشلالة، وربما امتدت إلى المنطقة المذكورة. الحياري، "حصن حبيس جلدك"، ص 147.

([7]) ابن القلانسي، ذيل، ص 149.ريشار، تكوين، ص 150.

([8]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص 158.الصوري، تاريخ،ج1، ص 559.

([9]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص161.الصوري، تاريخ،ج1، ص 567 .

([10]) ريشار، تكوين، ص 150.

المحكمة العليا؛ فلم يكن بوسعه عزل أي أمير عن إقطاعه إلا بموافقة المحكمة العليا([1]) ومن أمثلة ذلك حين أقدم فردريك الثاني Frederick II بنزع أقطاعية بيروت من حنا إبلين سيد بيروت دون أن تجرى محاكمته أمام المحكمة العليا رفض تنفيذ القرار، وأيده في ذلك سائر بارونات مملكة قبرص، وبيت المقدس نظرا لأنه بمقتضي قانون من أهم قوانين المملكة لا يجوز تجريد رجل حر من اقطاعة إلا بعد أن تصدر المحكمة العليا قراراً بذلك وأمتنع البارونات عن خدمة الإمبراطور وهذا الأجراء يتفق مع القانون ([2]).

وعلى الرغم من أن النظام الإقطاعي الصليبي كان وراثياً في معظم الأحيان إلا أنه كان هناك حالات استثنائية يتم فيها مصادرة أملاك بعض السادة الإقطاعيين؛ إذا أخلوا بفروض الولاء والتبعية للملك الصليبي، ووجهت لهم تهمة الخيانة العظمى والتآمر على قتل الملك أو تعرض أمن البلاد للخطر؛ ففي سنة526هـ/1132م رفض هيو الثاني أوف بوزيه([3]) كونت يافا تقديم يمين الولاء والتبعية للملك فولك أوف أنجو([4])، وأصر بعناد على رفض أوامره([5]) فما كان من ولتر سيد قيسارية وبإيعاز من الملك فولك إلا أن اتهم هيو الثاني "بالخيانة العظمي والتآمر على قتل الملك"، وأثناء انعقاد المحكمة العليا أنكر هيو الثاني التهم الموجهة إليه، وتم تحديد جلسة أخرى لمناقشة القضية، غير أن هيو لم يحضر جلسة المحكمة ليرد على الاتهامات الموجهة إليه لذا اعتبرته المحكمة مذنباً وقررت مصادرة أملاكه وإدانته "غيابياً وجرمته بالتهمة الموجهة إليه وذلك بسبب تمرده المتصلب ورفضه تلبية الدعوة "([6]) وعندما علم هيو بذلك تحصن بمدينة يافا وطلب مساعدة أمير عسقلان المسلم ضد الملك فولك فأجابه إلى طلبه فاجتاح المناطق الشمالية من عسقلان حتى مقاطعة أرسوف([7]) وعندما علم فولك بذلك جهز قواته وتوجه نحو يافا، وفرض عليها الحصار إلى أن استسلم هيو الثاني بعد أن تخلى عنه أتباعه، وانضموا إلى الملك

([1]) عاشور، الحركة،ج1 ص 386. رنسيمان، تاريخ،ج2، ص481.

([2]) نوفار، حروب فردريك، ص83،84.

([3]) **هيو الثاني أوف بوزريه:** كونت يافا ولد هيو الثاني في أبولياعام500هـ/1106م ووالده هيو الأول من مقاطعة أورليز، وقد تولى هيو الثاني كونتيه يافا بعد وفاة والده ثم تزوج من إما ابنة أخ البطريرك أرنولف وأرملة يوستاس جارنيه، كانت تربطه بالملكة ميسلند رابطة قوية من جهة الأب إذ أن والديهما كانا أولاد خالات، وقد رفض هيو أن يكون تابعاً للملك فولك، وظهرت العداوة بين الطرفين بسبب ما أشيع عن وجود علاقة بين الملكة ميسلند وبين هيو الثاني مما أدى في النهاية إلى عزله عن كونتيه سنة526هـ/1132م الصوري، تاريخ،ج2، ص 673– 676.

([4]) **فولك أوف أنجو:** هو ابن فولك الرابع كونت أنجو ولد حوالي عام 484هـ/1091م. وفي 515هـ /1121م قام بالحج إلى فلسطين ثم قدم إليها مرة أخرى في523هـ/ 1129م بناء على دعوة من الملك بلدوين الثاني لتزويجه من ابنته ميسلند وتولى عرش المملكة في525هـ/ 1131م وهو في سن الأربعين.الصوري، تاريخ،ج2، ص652– 656.

([5]) الصوري، تاريخ،ج2، ص 675.

([6]) المصدر نفسه،ج2، ص675.

([7]) المصدر نفسه،ج2، ص675.

فولك([1]) وعلى إثر ذلك تقرر نفي هيو الثاني أوف بوزيه خارج حدود المملكة لمدة ثلاث سنوات وإعادة يافا إلى السيادة الملكية([2]).

وفي عهد الملك بلدوين الثالث537-559هـ/1143-1163م([3]) سن قانوناً أكد فيه حق الملك في مصادرة إقطاعات كبار أفصاله الإقطاعيين بدون محاكمة في حالة ارتكابه لإحدى الجرائم الكبرى([4]) ومن أمثلة ذلك راؤول رالف سيد طبرية الذي جرده الملك عموري الثاني ([5]) من إقطاعه بسبب خيانته، دون أن تجرى محاكمته أمام المحكمة العليا([6]).

وكان للنظام الإقطاعي الصليبي ممارساته الخاصة منها على سبيل المثال إمكانية تبادل إقطاع السيد الإقطاعي بإقطاع أحد الأفصال، وأبرز مثال على ذلك ما حدث بين الملك بلدوين الثالث وبين فيليب دي ميللي Philip de Milly([7]) حيث حصل منه الملك على إقطاع نابلس مقابل التنازل له عن إقطاع الكرك والشوبك والخليل وذلك سنة 557هـ/1161م ([8]) وبالطبع كان لابد لكل تبادل للإقطاعات من أسباب تؤدي إليه وفي الحالة السابقة نجد رغبة الملك بلدوين في الحصول على إقطاع نابلس لما به من إيرادات كبيرة، علاوة على أنه أراد أن يؤمن جانب فيليب دي ميللي الذي كان في معسكر الملكة ميسلند([9]) أثناء الصراع على العرش بينهما([10]).

([1]) الصوري، تاريخ،ج2، ص 676.

([2]) المصدر نفسه،ج2، ص676.

([3]) **بلدوين الثالث:** حكم حوالي عشرين عاماً بعد والده بلدوين الثاني كان شخصية قوية قام بتحصين بعض القلاع خاصة قلعة غزة، تميز عصره بالأحداث وخاصة احتلال عسقلان وتحرير الرها والحملة الفرنجية الثانية على دمشق. الصوري، تاريخ،ج2، ص 734، 735، 739، 781.

([4]) براور، الاستيطان، ص 132.

([5]) **عموري الثاني:** ورث مملكة قبرص بعد وفاة أخيه غي لوزجنان591هـ/1194م. حضر إلى بلاد الشام وتزوج من إيزابيل وريثة عرش المملكة وأرملة هنري دي شمبانيا سنة495هـ./1198م وبهذا الزواج أصبح عموري ملكاً على بيت المقدس باعتباره زوج الوريثة الشرعية للمملكة وبذلك تم توحيد مملكتين قبرص وبيت المقدس. وتوفي سنة601هـ/ 1204م . مجهول، ذيل، ص453، 454، 516.

([6]) رنسيمان، تاريخ،ج3، ص167. العريني، طبقة النبلاء، ص59.

([7]) **فيليب دي ميللي:** هو سيد نابلس وأحد السادة الإقطاعيين، الذين ولدوا في فلسطين، وكان عمه باين دي ميللي أول سيد إقطاعي يتولى إدارة إقطاعية نابلس، وقد تولي فيليب حكم الإقطاعية بعد عمه باين وفي سنة557هـ/1161م تولى السيادة على الكرك والشوبك وأرغم عن التخلي عن إقطاعية نابلس لصالح التاج وفي سنة565هـ/1169م تخلى عن إقطاعه لورثته وصار المقدم الأعلى لفرسان الداوية. الصوري، تاريخ،ج2، ص996، 1021. البيشاوي، الممتلكات، ص 89 هامش 3.

([8]) Rohricht, R., Regesta, Doc. No. 366, pp. 96, 97. البيشاوي، نابلس، ص 106

([9]) **ميسلند:** وهي كبرى بنات الملك بلدوين الثاني، ووريثة عرشه تزوجت من فولك عام522هـ/1128م وتولت حكم المملكة بعد وفاة زوجها سنة538هـ/1143م وقد دخلت في نزاع على العرش مع ابنها الملك بلدوين الثاني حينما حاولت الاستئثار بالسلطة ولكنها اضطرت في النهاية إلى التنازل عن العرش والإقامة في مدينة نابلس.الصوري، تاريخ،ج2 ص 636، 637.

([10]) الصوري، تاريخ،ج2، ص798.

وفي576هـ/1180م أقدم الملك بلدوين الرابع على إصدار مرسوم بعقد مبادلة للممتلكات داخل المملكة بموجب اتفاق تم التوصل إليه مع أفصاله بحصول همفري الرابع Humphrey de Toron IV([1]) على إقطاع شرق الأردن في مقابل التنازل عن ممتلكاته في تبنين وبانياس وما يحيطهما من أراضي([2]) ومن الثابت أن تبنين قد أصبحت في وقت لاحق من ممتلكات غنيس Genes([3]) أم الملك بلدوين الرابع، فقد أشار الرحالة ابن جبير الذي زار تبنين في عام579هـ/ 1183م أنها كانت من ممتلكات الخنزيرة أم الخنزير صاحب عكا يقصد بها غنيس([4])؛ بما يفيد بأن همفري الرابع فقد حقوقه الوراثية في تبنين.

وبالرغم من عمليات تبادل الاقتطاعات؛ إلا أن وراثة الإقطاع كانت تمثل إحدى خصائص النظام الإقطاعي الصليبي مع وجود بعض الاستثناءات التي فرضتها الظروف السياسية، فمثلاً يرى البعض أن الإقطاعات الصليبية لم تكن تعتبر وراثية في بداية الاستقرار الصليبي المبكر في فلسطين([5]) حيث استولى بلدوين الأول على إقطاع الجليل رغم وجود الفارس جيرارد الذي كان له حق وراثة إقطاع أخيه هيو أوف سانت أومر، ومما يبرر هذا التصرف هو خوف الملك بلدوين الأول من مشروع تانكرد لتأسيس إمارة مستقلة بالجليل وبالتالي أسرع في ضم طبرية إلى أملاك التاج الصليبي([6]).

ولقد تم إقرار قانون وراثة الإقطاع بعد عهد الملك بلدوين الثاني([7]) فإذا توفي أحد السادة الإقطاعيين تاركاً وراءه العديد من الأبناء، فإن الممتلكات الخاصة به من عقارات تؤول إلى أكبر أبنائه ويتساوى في ذلك الابن أو الابنة، وإذا ما حدث أن توفي أحد الأبناء دون الحصول على الجزء الذي يخصه في هذا التوزيع فإنه لا يحق بيع نصيبه أو التصرف فيه بأي شكل، وإنما يجري توزيعه على الأشقاء والشقيقات بالتساوي([8]) وفي حال موت حائز الإقطاع دون أن يترك ورثة أو على الأقل لم يترك

([1]) **همفري الرابع**: ينتمي إلى أسرة تضم أربعه يحملون نفس الاسم قام بتأسيسها همفري أوف ثيرون الأول الذي تمكن من تكوين إقطاعية صليبية على حساب إمارة الجليل الصليبية في الأراضي الجليلية حول قلعة تبنين، التي وقد خلفه في حكم الإقطاعية بقية الأسرة؛ تزوج أبيه همرفي الثالث من استيفاني ابنة فيليب دي ميللي، الذي توفي في حياة أبيه همفري الثاني وورث همفري الرابع عن جده همفري الثاني كنداسطبل المملكة ممتلكاته.الصوري، تاريخ،ج2، ص1022،1021،974،797،627.

([2]) الصوري، تاريخ،ج2، ص 1022 Roehricht,R.,Regesta,doc.no.366.

([3]) **غنيس**: هي ابنة جوسلين الثالث تزوجت من رينو صاحب مرعش وبعد وفاته تزوجت من عموري كونت يافا وأثمر هذا الزواج بإنجاب الملك بلدوين الرابع وسبيلا، وبعد أن انفصل عنها الملك عموري بضغط من الكنيسة لوجود قرابة بينهم تزوجت من هيو أوف أبلين. الصوري، تاريخ،ج2، ص 657، 884. مجهول، ذيل، ص 259، 260.

([4]) ابن جبير، الرحلة، ص 234.

([5]) رنسيمان، الحروب،ج2، ص476.

([6]) براور، الاستيطان، ص156.

([7]) رنسيمان، الحروب،ح2، ص 476.

([8]) Beugnot (ed.), op. cit., I, P. 633.

سوى وريثــه كــان للملك الصليبي الحق فــي أن يختار لها زوجاً([1]) أو يحق لها اختيــار واحد من بين ثلاثة يرشحهم الملك للزواج منها ففي سنة 545هــ/1150م عــرض الملــك بلدوين الثالث على كونستانس([2]) أميرة أنطاكية أن تختار واحداً من بين ثلاثة رجال تقدموا لخطبتها، ومع ذلك لم يجبرها الملك على أن تقبل أحداً منهم([3]).

وفي سنة547هــ/1152م أصدر الملك عموري الأول قانوناً يحد من تجزئة الإقطــاع فقبل إصدار هذا القانون كانت إقطاعات المملكة تبــذل للمقطــع مــن الورثــه المباشــرين وغير المباشرين، وبعد إصدار القــانون أصــبحت تجزئــة الإقطــاع لا تــورث إلا فــي حدود ضيقة، فلم تبــذل إلا للمقطــع وســلالته المباشــرين الــذين أنجــبهم مــن زوجتــه الشرعية([4]) ولعل الهدف من وراء إصدار هذا القانون هو استرداد الملك للإقطــاع بــزوال الأسرة الإقطاعية حتى يتم منحها لمقطع آخر.

وكان السيد الإقطاعي الذي يمتلك إقطاعية معينة هو وحده الذي يستطيع التصرف فيها من خلال تنازله إما بكل الإقطاعية أو بجزء منها إلى غيره من النبلاء([5]) معنى ذلك أنه كان ينسلخ من إقطاعيات السيد الكبير إقطاعيات مختلفة يتمتع بها النبلاء الخاضعين له، ولــذلك فإننا نجد سلسلة من الارتباطات الإقطاعية، وتتوزع هذه الروابط بين عدد كبير من النــبلاء الذين تتحدد أهميتهم حسب مكانتهم وتدرجهم في السلم الاجتماعي، وكثيراً ما كان يلجأ السادة الإقطاعيون إلى منح أجزاء من الإقطاعية إلى القادة العسكريين والفرسان حتى يقوموا بحماية إقطاعية السيد الإقطاعي، وبالتالي بدأت تتكون طبقة من الفرســان تعمــل لــصالح الــسادة الإقطاعيين([6]) وعلى ذلك كان الفصل يحوز عدداً من الإقطاعات عن طريق المنح أو الشراء أو الوراثة، وبالتي كان يتبع عدداً من السادة الإقطاعيين فعليه أن يحلف يمين الولاء، ويؤدي الخدمة الشخصية والحربية لصالح سيده الإقطاعي الأول؛ حتى ولــو تعــارض ذلــك مــع مصالح الآخرين، وإذا قامت الحرب بينهم وجــب علــى التــابع أن يــدخل المعركــة دون إبطاء لصالح السيد الإقطاعي الذي منحه إقطاعه([7]).

([1]) يذكر أنه في سنة524هــ/1129م زوج الملك بلدوين ابنته ميسلند لفولك أوف أنجو وفي ســنة532هـــ/1137م زوج الملــك فولك كونستانس ابنة الأمير بوهيمند ووريثه لريموند بواتيه. الصوري، تاريخ،ج2، ص 644، 663، 681.

([2]) **كونستانس:** هي ابنة الأمير بوهيمند الثاني ووريثته، كانت والدتها أليس ابنة الملك بلدوين الثاني وأخت الملكة ميــسلند وابنــة خالة الملك بلدوين الثالث، زوجها الملك فولك أوف أنجو لريموند بواتيه الذي توفي في إحدى معاركه مع نــور الــدين، ثــم تزوجت من رينو دي شايتون.الصوري، تاريخ،ج2، ص 663، 658، 790، 804.

([3]) الصوري، تاريخ،ج2، ص 804. رنسيمان، تاريخ،ج2، ص 477.

([4]) العريني، طبقة النبلاء، ص 53.

([5]) chalandon, op. cit., p. 300.

([6]) chalandon, op. cit., p. 300. براور، الاستيطان، ص89.

([7]) Beugnot (ed.), op. cit., I , pp. 323, 336.

ونتيجة لتعدد السادة الإقطاعيين وتعدد الأفصال التابعين لهم ووجود العقد الإقطاعي بين كل سيد إقطاعي وفصله على حده؛ سبب الكثير من التناقضات التي لم تكن في صالح المملكة، وواجهت الملوك الصليبيين إشكالية قانونية مؤداها إنه عند اختلاف الملك الصليبي مع أحد أفصاله الأمراء أو البارونات فكيف يكون موقف أفصال الأخير؟.

من الطبيعي وكما أشار حنا ابلين أنه سوف يدين بالولاء أولاً لسيده الإقطاعي المباشر حسب عملية التعاقد الإقطاعي بينهما، وهذا التصرف وإن كان صحيحاً من الناحية القانونية إلا أنه لا يخدم توجهات ملوك المملكة الصليبية، لذلك أصدر الملك عموري الأول في حوالي سنة558هـ/ 1162م قانونه الشهير الذي عرف باسم قانون التبعية الإقطاعية "The Asseses Sur La Ligece"، ولقد كان لهذا القانون تأثيره على مختلف نواحي الحياة العامة فأصبح على كل حائزي الإقطاعات في المملكة اللاتينية أن يقدم كل حائز منهم قسماً مباشراً بالولاء والتبعية للملك الصليبي([1]).

وهكذا جعل القانون؛ الأفصال الفرعيين يعترفون بالملك الصليبي سيداً مباشراً لهم، وأن يصبح الملك مقدماً في الترتيب من ناحية الولاء على سيدهم الإقطاعي المباشر، وشجع هذا القانون الأفصال على مساعدة بعضهم البعض، فعلى سبيل المثال إذا وقع ظلم على أحدهم؛ من قبل السيد الإقطاعي كان الواجب عليهم مساندة بعضهم البعض مطالبين السيد باستجواب الفصل أمام المحكمة قبل أن يستولي على إقطاعه، وإذا رفض السيد الإقطاعي كان على الملك أن يتدخل لصالحهم، ويقيم الملك تابع هذا السيد في أراضيه الملكية([2]) وكان على الملك أن يعوضهم عما فقدوه خلال أربعين يوماً، فإذا لم يؤدِ لهم هذا التعويض جاز لهم أن يعودوا إلى سيدهم وبذلك يفقد الملك مساعدتهم([3]).

لقد كان القانون السابق؛ محاولة من قبل الملك الصليبي لاستخدام الأفصال الصغار كقوة مضادة ومعاكسة لطبقة النبلاء العليا، ونظراً للطبيعة التوسعية للكيان الصليبي في فلسطين فقد استلزم ذلك أن يحصل الملك على ما يشبه التفويض من جميع الأفصال التابعين له وللأمراء والكنيسة، من أجل منحه حرية الحركة في الاستمرار في توسعاته الاستيطانية، وفي استمراره في الدفاع عن المملكة الصليبية ضد هجمات المسلمين التي لم تتوقف.

أما فيما يخص العلاقة بين رجال الدين والعلمانيين فقد تميزت منذ البداية بالتنافس فيما بينهم، ولقد ظهر ذلك واضحاً بعدما تمكن الصليبيون من احتلال بيت المقدس، حيث طالب رجال الدين بانتخاب بطريرك للمدينة قبل الشروع في اختيار حاكم لها، وحجة هذا الفريق

([1]) براور، الاستيطان، ص 142.

([2]) ألعريني، نمو طبقة، ص 56، 57.

([3]) المرجع نفسه، ص60

أنه لابد من وجود بطريرك يرأس مجمع انتخاب الحاكم أو الملك، ولكن هذه الفكرة أرجئت بسبب معارضة رجال الدين البروفانس واللورين، وعدم تأييدهم لانتخاب مرشح وحيد([1]).

وبعد أن تم انتخاب جودفري كأول حاكم صليبي على بيت المقدس بعد مناقشات ومداولات بين رجال الدين والعلمانيين([2]) سرعان ما ظهرت مشكلة أخرى تتعلق بانتخاب بطريرك لاتيني لمدينة القدس الأمر الذي أدى لانقسامهم إلى عدة أحزاب([3]) وبعد مداولات ومناقشات تم اختيار أرنولف مالكورون([4]) Arnulf Malecorne([5]) وقرر رجال الدين أن البطريرك لن يكون معيناً رسمياً حتى يحصلوا على موافقة البابا بتعيين أرنولف بطريركاً على بيت المقدس([6]).

وانتشرت بين رجال الدين ظاهرة الدسائس والمكائد فعمل دايمبرت على خلع أرنولف من منصب البطريركية([7]) وتولاه بدلاً منه؛ الأمر الذي دفع أرنولف إلى تدبير المؤامرات والمكائد لخصمه والعمل على الإيقاع به([8]).

وجاءت وفاة جودفري في رمضان 493هـ/يوليو1100م لتكشف عن أطماع رجال الدين اللاتين ورغبتهم في إقامة حكومة دينية في بيت المقدس فقد ذكر وليم الصوري أن الأمير جودفري أوصى بأنه في حالة موته دون وجود وريث شرعي يخلفه في حكم بيت المقدس فإن جميع ممتلكاته سوف تؤول ملكيتها إلى سلطة البطريرك دايمبرت([9]) ومن الواضح أن تنفيذ مثل هذه الوصية كان يعني تحويل الدولة الصليبية الناشئة في بيت المقدس والمناطق المحتلة الأخرى إلى حكومة دينية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالكنيسة اللاتينية وهذا ما كان يسعى إليه البطريرك دايمبرت([10]).

ولكن أخذت طموحات دايمبرت الرامية لإقامة حكومة دينية تتلاشى بسبب قيام مجموعة من الفرسان اللوثرنجيين بالاستيلاء على برج داوود، وإنفاذ الرسل إلى بلدوين الأول يطلبون منه القدوم من الرها إلى بيت المقدس ليتولى حكم البلاد مكان أخيه جودفري([11]) وقد تمت

([1]) حبشي، الحرب، ص181-183.

([2]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص 77. الصوري، تاريخ،ج1، ص 444 – 447 .

([3]) الصوري، تاريخ،ج1، ص449.

([4]) **أرنولف مالكورون:** وكان مرافقاً لروبرت النورماندي وقد اشترك بالحملة الصليبية بصحبة أدو أوف بوي شقيق ولـيم الفاتح وكان أرنولف لا يزال شماساً مساعداً وكانت حياته غير ثابتة. البيشاوي، الممتلكات، ص107، هامش 2 .

([5]) مجهول، أعمال الفرنجة، ص120. ريموندأجيل، تاريخ الفرنجة، ص257.

([6]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص77.

([7]) الصوري، تاريخ،ج1، ص465.

([8]) المصدر نفسه،ج1، ص 486، 518.

([9]) المصدر نفسه،ج1، ص481 .

([10]) المصدر نفسه،ج1، ص 482.

([11]) المصدر نفسه، ج1، ص479،480.

هذه الأمور بالتنسيق والتشاور مع أرنولف مالكورون، حيث وقف أنولف وجماعته في وجه أطماع دايمبرت، ولم يسمحوا له بإقامة حكومة دينية بل إنهم شجعوا على إقامة حكومة ملكية وراثية في بيت المقدس([1]) فقد حاول البطريرك دايمبرت منع بلدوين من وراثة عرش أخيه وكان يفضل تولية الأمير بوهمند النورماندى على عرش بيت المقدس، إذ أجرى مشاورات بهذا الشأن مع الأمير تانكرد([2]).

وقد استمر الصراع بين ملوك المملكة الصليبية ورجال الدين حتى وفاة البطريرك ستيفن أوف شارتر Stephen of charters([3]) سنة524هـ/1130م الذي طالب الملك بلدوين الثاني بالتنازل عن مدينة يافا بأكملها لكنيسة القيامة كما طلب منه التنازل عن بيت المقدس في حالة استيلاء الصليبيين على مدينة عسقلان([4])

وبوفاة البطريرك ستيفن لم تتكرر الصراعات مرة أخرى بين البطاركة، وملوك بيت المقدس حيث استمر الملك الصليبي يتحمل مسئولية اختيار البطريرك، بينما أصبح البطريرك خادماً لكنيسة بيت المقدس([5]).

كان البطريرك وبعض الأساقفة سادة إقطاعيين متنفذين([6]) فكان بطريرك بيت المقدس اللاتيني يأتي على قمة الهرم الإقطاعي الكنسي ويليه في المنزلة أربع رؤساء أساقفة وهم: رؤساء أساقفة صور وقيصريه والناصرة والكرك، ويأتي بعد هؤلاء أساقفة سبسطية وعكا وبيروت وبانياس وطبرية وبيت لحم والخليل واللد ورئيس أساقفة جبل سيناء ثم يليهم في التدريج الإقطاعي الكنسي رئيس كنيسة القيامة، ورئيس دير القديسة مريم في وادي جوسفات، ورئيس كنيسة جبل صهيون، ورئيس دير كنيسة جبل الزيتون، ورئيس دير بيثاني وغيرهم([7]).

- الإقطاعات الكنسية:

حصلت المؤسسات الكنسية اللاتينية في فلسطين على مئات المنح الإقطاعية والأراضي الزراعية، في مختلف أرجاء المملكة الصليبية، وكانت الممتلكات الإقطاعية القريبة من

([1]) عاشور، الحركة،ج1، ص 227.

([2]) Albert, d, Aix, op. cit. P 538

([3]) **ستيفن أوف شارتر**: كان رئيساً لدير القديس جون في تشارترز، وهو أحد أقارب الملك بلدوين وكان من أصحاب الفروسية، قدم إلى فلسطين في إحدى رحلات الحج، وعندما توفي البطريرك جرموند، وقع اختيار رجال الدين على ستيفن ليكون بطريرك لبيت المقدس. الصوري، تاريخ،ج2، ص 644، 648.

([4]) الصوري، تاريخ،ج2، ص 645.

([5]) البيشاوي، الممتلكات، ص127.

([6]) ريشار، تكوين، ص160.

([7]) مجهول، حجاج مجهولون، ص 39، 40 .الفيتري، تاريخ، ص70- 73. ويندوفر، ورود التاريخ، ص 93-94.

المدينة، أو الممتلكات البرجوازية يحظر نقل ملكيتها إلى الكنيسة، ولقد سجل المشرعون الصليبيون هذا الحظر والتحريم بوضوح، غير أن سجلات كنيسة القيامة كما يقول براور قد أظهرت أن الكنيسة كانت تحصل على منح كبيرة من أملاك المدينة، والزمام الريفي المحيط بها([1]).

وحصلت المؤسسات الكنسية في فلسطين على بعض المدن كإقطاع خاص بها، ففي أثناء الزحف الصليبي في الحملة الصليبية الأولى لفرض الحصار على مدينة القدس احتل الصليبيون مدينتي الرملة واللد، وأنشأوا أسقفية لاتينية فيهما، وكانت أسقفية الرملة أول أسقفية يؤسسها الصليبيون في فلسطين([2]) كما كانت أول إقطاعية كنسية، وكانت أسقفية الرملة تضم مدينتي الرملة واللد، وما يحيط بهما من أراضي([3]) وامتدت أراضيها لتشمل مدينة رام الله([4]) وفي سنة 513هـ/1119م إنسلخت عنها مدينة رام الله وأقطعت لأحد السادة العلمانيين([5]).

وفي سنة493هـ/1100م طلب دايمبرت بطريرك بيت المقدس جودفري بالتنازل عن جزء من مدينة يافا وجزء من مدينة بيت المقدس([6]) ووافق جودفري على ذلك نتيجة لإصرار دايمبرت على طلبه، بل لقد قام جودفري بمنح مدينة بيت المقدس وقلعتها فضلاً عن مدينة يافا والزمام الريفي المحيط بها للبطريرك دايمبرت، غير أن جودفري وضع شرطاً مفاده الاستمرار بالتمتع بعائدات المدينة المقدسة وما يحيط بها من الأراضي حتى يتم الاستيلاء على مدينة أو مدينتين أخريين من المسلمين([7]) وتفرد وليم الصوري بنقل هذه الرواية دون غيره من المؤرخين الذين عاصروا الحدث، ويبدو أن الذي دفع جودفري لأن يقدم هذه المنحة في هذا الوقت هو حاجته للأسطول البيزي الذي يسيطر عليه دايمبرت([8]) وإحتفظت كنيسة القيامة بربع مدينة يافا نحو ثمانية عشر سنة، وفي عام511هـ/1118م إستردها الملك بلدوين الثاني من كنيسة القيامة، ومنح يافا لهيو الأول أوف بوزيه([9]).

([1]) براور، الاستيطان، ص 197.

([2]) مجهول، أعمال الفرنجة، ص 114.ريموندأجيل، تاريخ الفرنجة، ص225.الشارتري، تاريخ الحملة، ص70

([3]) Albert. op. cit., p 461. الصوري، تاريخ الحملة،ج1، ص400.

([4]) **رام الله:** تقع في منطقة الهضاب الوسطى في فلسطين على قمم سلسلة جبال القدس، التي هي جزء من سلسلة الجبال الغربية من بلاد الشام، ترتفع عن سطح البحر بحوالي 880م وتبعد مسافة 16كم إلى الشمال الغربي من مدينة القدس، وعلى مسافة 67كم إلى الشرق من مدينة يافا الساحلية. نيروز، رام الله، ص 20،19.

([5]) براور، الاستيطان، ص 196.

([6]) يبدو أن الجزء الذي طالب به دايمبرت جودفري في مدينة القدس هو حي البطريرك. الصوري، تاريخ،ج1، ص 468

([7]) الصوري، تاريخ،ج1، ص 468.

([8]) وصل الأسطول البيزي إلى سواحل سوريا في أواسط آب أغسطس492 هـ/ 1099م. الشارتري، تاريخ، ص 81.

([9]) **هيو أوف بوزيه:** كان ينتمي إلى أسقفية أورلينز، وكان يتولى رعاية الحجاج القادمين إلى الأراضي المقدسة، وكان خصماً =

Hugh I of Puset([1]) وفي سنة 503هـ/1109م أسست أسقفية الناصرة، فنقلت الأسقفية من بيسان إلى الناصرة بسبب قداسة المكان، وأصبحت الناصرة من ضمن الإقطاعات الكنسية([2]).

وفي عهد الملك بلدوين الثاني، حصلت كنيسة القيامة على مدينة أريحا وما يحيط بها من أراضي([3]) ولم تحدد المصادر التاريخية تاريخ حصول كنيسة القيامة على مِنحة مدينة أريحا فقد كانت من أملاك الكنيسة قبل سنة509هـ/1115م ولكن وليم الصوري يذكر أن البطريرك أرنولف قدم المدينة وكافة زمامها الريفي لتكون مهراً لابنة أخيه إيما Emma عندما تزوجها يوستاس جارنيه صاحب إقطاعيتي قيسارية وصيدا([4]) وكانت مدينة أريحا وتوابعها تدر على كنيسة القيامة دخلاً سنوياً يقدر بخمسة آلاف قطعة ذهبية([5]) وقد قام بعض رجال الدين بتقديم شكوى ضد البطريرك أرنولف إلى البابا باسكال الثاني Paschal II([6]) بخصوص عدد من القضايا والتصرفات، ومن بينهما التصرف بأملاك كنيسة القيامة من خلال منحه مدينة أريحا مع جميع توابعها لابنة أخيه، وفي سنة 509هـ/1115م تم عقد مجمع كنسي في مدينة بيت المقدس ترأسه ممثل البابا باسكال الثاني لبحث الشكوى ضد البطريرك أرنولف، وأقرّ المجمع خلع أرنولف([7]).

كانت مدينة بيت لحم مقاطعة دينية أخرى من الإقطاعات الكنسية([8]) ففي عام 503–504هـ/1110م تم إنشاء أسقفية لاتينية في بيت لحم، وذلك بفضل جهود الملك بلدوين الأول الذي قرر رفع كنيستها إلى منزلة كاتدرائية بعد أن كانت كنيسة بيت لحم حتى ذلك الوقت مجرد دير صغير([9]).

= لكل من فيليب الأول ولويس السمين، وأجبر على مغادرة بلاده إلى فلسطين وكان من أقارب الملك بلدوين الأول الذي منحه يافا، فور وصوله إلى المملكة ولكنه لم يلبث أن توفي بعد فترة حصوله على يافا، الصوري، تاريخ،ج2، ص647، 673. البيشاوي، الممتلكات، ص 150 هامش 4.

([1]) الصوري، تاريخ،ج 2، ص 647.

([2]) الفيتري، تاريخ، ص 70. براور، الاستيطان، ص 196.

([3]) الصوري، تاريخ،ج2، ص647.

([4]) المصدر نفسه،ج2، ص543.

([5]) المصدر نفسه،ج2، ص543.

([6]) **البابا باسكال الثاني:** تولى المنصف البابوي في أغسطس آب 1099م/ رمضان 492هـ بعد وفاة البابا أوربان الثاني وقد اتخذ العديد من القرارات لصالح بطريركية القدس عندما صرح بأن المدن والمقاطعات التي استولى عليها الملك بلدوين الأول أو التي سوف يستولي عليها في المستقبل يجب أن تخضع لسلطة مملكة بيت المقدس، وتوفي البابا باسكال في سنة 511هـ/ 1118م. الصوري، تاريخ،ج2، ص562،563،574.

([7]) الصوري، تاريخ،ج1، ص 559. البيشاوي، الممتلكات، ص 179

([8]) الصوري، تاريخ،ج1، ص537.

([9]) المصدر نفسه،ج1، ص536.

وعلى الرغم من حصول المؤسسات الكنسية على بعض المدن كإقطاع خاص ببعض الكنائس إلا أن القرية كانت الوحدة الأساسية الأولى للإقطاع في العصر الوسيط([1]) حيث قام جودفري بمنح كنيسة القيامة إحدى وعشرين قرية تقع في محيط مدينة القدس([2]).

وفي صفر 503هـ/سبتمبر 1109م قام الملك بلدوين الأول بمنح أسقفية بيت لحم خمس قرى وهي قرية البيدر Bedar([3]) الواقعة في إقطاعية عكا، وقرية سيلون Seylon([4]) الواقعة في حدود إقطاعية نابلس، وقرية بيت بيزان Beth bezan([5]) الواقعة في حدود إقطاعية بيت لحم الكنسية، وقريتين في حدود منطقة عسقلان هما: كيكفا "كوكبة" caicapha([6]) والسوافير الشرقية([7]) zeophir وما يحيط بها من أراضي([8]).

وفي سنة522هـ/ 1128م قام الملك بلدوين الأول بمنح قرية كفر مالك Kafer Malk([9]) الواقعة في حدود إقطاعية نابلس مع كافة الأراضي والضياع المحيطة بها لكنيسة القيامة([10]) كما منح وليم ديبور أمير الجليل قريتي جبول Gebul([11])

([1]) رنسيمان، تاريخ، ج2، ص 476.

([2]) Genevieve, B.B., le cartulaire du chapitre de saint – sepulcre de Jerusalem, Act. No. 26, pp. 86-88.

([3]) **قرية البيدر:** تعرف باسم (خربة البيدر) وقد شيدت هذه القرية مكان قرية Besara التي كانت قائمة في العهد الروماني ويوجد في موقع القرية مرافق محفورة في الصخر، وقرية البيدر تقع على بعد نحو خمسة وعشرين كم جنوب مدينة عكا بانحراف قليل نحو الشرق، وتجد الإشارة إلى أن البيدر هو المكان الذي تدرس فيه الحبوب.الدباغ، بلادنا، ق2،ج7، ص 579.

([4]) **قرية سيلون:** هي إحدى القرى الواقعة في حدود إقطاعية نابلس، ويحدها من الشرق قرية صرة (خربة صرة) ومن الجنوب قرية ترمسعيا، ومن الجنوب الغربي قرية سنجل، ومن الغرب قرية المزرعة، ومن الشمال الغربي قرية اللبن، وسيلون من المواقع الأثرية الهامة إذ يوجد بها مرافق وبقايا معاصرة، أرضها مرصوفة فسيفساء، وأطلق عليها العهد القديم اسم سيلو. الهراوي، الإشارات، الحموي، معجم، ج3، ص299. الدباغ، بلادنا، ق2،ج2، ص325،324 . نيروز، رام الله، ص 83.

([5]) **قرية بيت بيزان:** وهي إحدى القرى الواقعة في شمال إقطاعية بيت لحم، اشتهرت القرية بهذا الاسم في العهد الروماني، وبعد ذلك عرفت بعدة أسماء منها: "خربة البصة"، و"خربة بيت بصة"، و"بير بيثا" و"بيت بازار" والقرية تقع في الجنوب الشرقي من بيت لحم، ويحدها من الغرب بانحراف قليل إلى الجنوب قرية أرطاس، ويحدها من الشمال الغربي مدينة بيت لحم، ومن الجنوب الشرقي قرية بيت تعمر. الدباغ، بلادنا، ق2،ج2، ص 453. البيشاوي، الممتلكات، ص 175، هامش 2.

([6]) **كوكبة:** تقع في الشمال الشرقي من عسقلان، وعلى بعد سبعة عشر كيلو متر منها، ويحدها من الشرق قرية الفالوجة، ويحدها من الشمال الشرقي قرية الجلدية، ومن الشمال الغربي قرية قمصا، وتعرف كوكبة باسم "خربة كركف" واسم كرتفا. الدباغ، بلادنا، ق2،ج2 ص 252 .البيشاوي، الممتلكات، ص175، هامش 3

([7]) **السوافير الشرقية:** السوافير الشرقية اسم لثلاث قرى هي: السوافير الشرقية، السوافير الغربية، والسوافير الشمالية، وتقع جميعها على بعد تسعة كيلو متر إلى الجنوب من أسدود، وقد ذكرها الرومان باسم "شافيرا" والسوافير الشرقية تقع في الشمال الشرقي من عسقلان، وعلى بعد خمسة عشر كيلومتر منها. الدباغ، بلادنا، ق2،ج1، ص212.

([8]) الصوري، تاريخ،ج1، ص 537.

([9]) **كفر مالك:** تقع في أقصى حدود إقطاعية نابلس الجنوبية، وهي تبعد عن مدينة نابلس نحو 32كم يحدها من الشمال قرية ترمسعيا وخربة كفر ستينا. الدباغ، بلادنا، ق2،ج8، ص 309.

([10]) Genevieve, B.B., op. cit., Act. No. 30, pp.92, 93

([11]) **جبول:** هي إحدى القرى الواقعة في إمارة الجليل، تقع على بعد سبعة كيلومترات ونصف إلى الشمال من بيسان؛ يحدها من الشمال الشرقي قرية كوكب الهواء، ومن الجنوب مدينة بيسان، ومن الغرب قرية يبلي، وترتفع القرية عن سطح البحر نحو=

وهيلكار Helkar([1]) الواقعتين في حدود إقطاعية الجليل مع كـل مـا يحـيط بهمـا مـن أراضي لكنيسة القيامة([2]).

وكذلك أغدق ملوك وأمراء ورجال الدين في المملكة الكثير من المـنح، والإقطاعـات على الأديرة، ففي سنة502هـ/1108م قام الملك بلدوين الأول بمنح دير القديسة مريم([3]) في وادي جوسـفات([4]) قريـة عـسكر Ascher([5]) الواقعـة فـي حـدود إقطاعيـة نـابلس بكافة زمامها([6]) كما قام روجر أسقف الرملة Roger bishop of Ramleh سنة509هـ/1115م بمنح قرية صفورية Saffurieh([7]) لدير القديسة مريم في وادي جوسفات([8]).

وأولت الملكة ميسلند عنايتها واهتمامها بجميع المؤسسات الكنسية اللاتينية فـي مملكـة بيت المقدس الصليبية فعندما أرادت أن تقيم ديراً للنساء قامت بالبحث عن مكـان مناسـب لإقامة هذا الدير وبعد عمليات من البحث والمعاينة قررت إقامة الدير على أراضـي قريـة بيثانى Bethany([9]) الواقعة جنوب بيت المقدس([10]) ولما كانت بيثانى من أمـلاك كنيـسة

= مائة متر، وقد عرفت القرية بهذا الاسم منذ العهد الروماني، وهي تحريف لكلمـة جبـولا الـسريانية بمعنـى الخـزاف. الدباغ، بلادنا، ق2،ج6، ص508.

([1]) **هيلكار:** تعرف باسم "خربة قار" وهي تقع غرب قرية كفرة؛ يحدها من الشمال قرية الناعورة، ومن الجنوب خربـة طيعـون، ومن الشرق قرية كفرا، ومن الغرب قرية سولم. البيشاوي، الممتلكات، ص 235، هـامش 2

([2]) Genevieve, B.B., op. cit., Act. No. 62, pp.155,156.

([3]) **دير القديسة مريم:** في وادي جوسفات كان في الأصل كنيسة بيزنطية كما أنه كان من أكثر الأديرة رخاء وغنـى؛ إذ حـصل على كثير من المنح والهبات في الأرض المقدسة، ويقع بالقرب من كنيسة الجثمانية .Benvenisti, op. cit., p. 73 .

([4]) **وادي جوسفات:** يمتد شرقي بيت المقدس بين جبل الزيتون شرقاً وجبل صهيون غرباً، وقد أطلق عليه المؤرخون في العصور الوسطى اسم وادي جهنم، ويعتبر جزء من وادي قـدرون، ويعـرف وادي جوسـفات بعـدة أسـماء منهـا: وادي مـريم، وادي النـار، وادي سـلوان. الهـراوي، الإشـارات، ص 33 . الـصوري، تـاريخ،ج1، ص 409 ،410. الـدباغ، بلادنا، ق2، ج8، ص16.عوض، الرحالة، 65، هـامش 51.

([5]) **قرية عسكر:** إحدى قرى نابلس، وتشتهر بكثرة أشجار الزيتون المزروعة بأراضيها وهي تقع على بعد ميل واحد مـن شـرق نابلس. الحموي، معجم،ج4، ص 123. الدباغ، بلادنا، ق2،ج2، ص282.

([6]) Rohricht, R., Regeta Regni Hierosolymitani, Doc. No. 52, pp. 10, 11.

([7]) **قرية صفورية:** هي إحدى القرى الواقعة في إقليم الجليل، يحدها من الـشرق قريـة كفـر كنـا، ومـن الجنـوب الـشرقي مدينة الناصرة، ومن الجنوب الغربي قرية عيلوط، ومن الشمال قرية روما؛ خضعت زمن الفتح الإسـلامي لـشرحبيل بـن حسنة، يوجد بها عين تعرف بعين القسطل، وبسبب غزارة مياه العين أطلـق عليهـا اسـم عيـون صـفورية. كمـا يوجـد بالقرية بقايا قلعة صليبية. دانيال، وصف، ص98،99. ثيودريش، وصف، ص141. بورشارد، وصف، ص92. الحموي، معجم،ج3، ص414.

([8]) Rohricht, R, op. Cit., Doc. No. 80. pp. 18, 19.

([9]) **قرية بيثانى:** هي قرية العيزرية الواقعة في حدود بيت المقدس، وقد أقيمت القرية على أحدى الروابي الواقعة جنـوب شـرق المدينة المقدسة وأنشأت الملكة ميسلند ديرا في القرية عرف باسم دير بيثانى ، وصفها الحاج دانيال بأنها قرية صغيرة تقع في وادي خلف الجبال على نحو كيلو متر جنوب بيت المقدس. دانيال، وصف، ص58 بورشـارد، وصـف، ص124.الـدباغ ، بلادنا، ق2،ج8، ص142−146. البيشاوي، الممتلكات، ص223، هـامش1.

([10]) الصوري، تاريخ ،ج2، ص730.

القيامة أجرت الملكة ميسلند مشاورات مع رجال الدين في كنيسة القيامة من أجل الحصول على القرية على أن تقوم بمنحهم م قرية تقوع Tekoah([1]) بدلا منها، وقد وافق رجال الدين في كنيسة القيامة على عملية التبادل التي تمت في سنة532هـ/ 1138م([2]) وقامت الملكة بمنح دير بيثانى مدينة أريحا مع جميع توابعها وثرواتها([3]).

كما حصلت الكنائس والأديرة الدينية على إقطاعات نقدية من ذلك، ما خصصه الملك بلدوين الأول لكنيسة القيامة حيث منحها ألف مكيالٍ من القمح الذي تنتجه مدينة نابلس سنويا ([4]) كما أشارت جنفيف إلى أن الملك بلدوين الثاني قدم مبلغ مائتي بيزنت لكنيسة القيامة من عائدات إقطاعية نابلس([5]).

وفى سنة 530هـ/1136م قام البطريرك وليم الأول بمنح دير القرنطل القريب من مدينة أريحا عُشر الدخل السنوي الذي تدره مدينة أريحا والأراضي المحيطة بها([6])، وأشار وليم الصوري إلي أن دخل مدينة أريحا السنوي بلغ خمسة ألاف بيزنت، وعلى ذلك فإن العشر الذي مُنح لدير القرنطل كان خمسمائة قطعة ذهبية([7]).

كما لجأ رجال الدين اللاتين إلي شراء الكثير من القرى والأراضي والعقارات؛ ففي سنة 553هـ/1158م اشترى رجال الدين في كنيسة القيامة ثلاثة قرى من هيو أوف ابلين Hugh of Ibelin ([8]) بمبلغ سبع ألاف بيزنت([9]) كما اشتروا منه في عام 553هـ/1158م قريتان تقعان في محيط إقطاعية الرملة بمبلغ ثلاثة ألاف بيزنت([10]) وكذلك الأمر بالنسبة للفرق الدينية العسكرية حيث منحهم ملوك وأمراء بيت المقدس العديد من الإقطاعات والأراضي على ما يملكون من المدن والقلاع([11]).

([1]) **تقوع:** هي أحدى القرى القديمة، وتعرف باسم خربة تقوع وهي تقع في الجنوب الشرقي من بيت لحم وعلى بعد نحو 7 كيلو متر منها ، وهي ترتفع عن سطح البحر نحو 815متر يحدها من الشمال الغربي قرية أرطاس ومن الجنوب الغربي بيت أومر . الحموي، معجم،ج2، ص37. الدباغ، بلادنا، ق2،ج8، ص496.

([2]) الصوري، تاريخ،ج2، ص730. Genevieve, B. B., op. cit., Acte. No .11, pp.52 - 54

([3]) الصوري، تاريخ،ج2، ص731.

([4]) Genevieve, B. B., op. cit., Acte. No .26, pp. 86 – 88.

([5]) Ibid,، Acte. No .30, pp.92 – 93.

([6]) Ibid,، Acte. No .22, pp.78 – 80.

([7]) الصوري ، تاريخ،ج1 ، ص543.

([8]) **هيو أوف أبلين:** هو ابن بليان الكبير كنداسطبل يافا وشقيق كل من بلدوين سيد الرملة وبليان الأصغر وأصبح سيداً على الرملة بعد وفاة أخيه. اشترك في حصار عسقلان سنة548هـ/ 1153م ووقع أسيراً في المعركة التي جرت بين الملك بلدوين الثالث ونور الدين محمود بالقرب من مخاضة بيت الأحزان سنة 552هـ/1157م وبعد خروجه من السجن ذهب مع الملك بلدوين الثالث والكونت عموري لمقابلة الإمبراطور البيزنطي مانويل. الصوري، تاريخ،ج2، ص 809، 848، 895.

([9]) Genevieve, B. B, op. cit., Acte. No .41, pp. 113 -115.

([10]) Ibid,،Acte. No .51, pp.136-138.

([11]) عوض، التنظيمات، ص 83،84 . سلامة، الدراسات، ص 57. حسين، تاريخ، جماعة التيوتون، ص113–116.

هكذا حازت المؤسسات الكنسية والدينية في المملكة الصليبية على العديد من الإقطاعات والأملاك، سواء عن طريق المنح والهبات التي منحها لهم ملوك وأمراء المملكة، أو عن طريق شراء العديد من القرى والأملاك.

- الخدمات الحربية في الإقطاع الصليبي:

كانت الخدمة العسكرية داخل النظام الإقطاعي الصليبي إفرازاً طبيعياً للوضع الجغرافي والعسكري للكيان الصليبي في فلسطين، حيث كانت المملكة الصليبية في استنفار شبه دائم لمحاربة جيرانهم المسلمين، علاوة على احتياجها الدائم لخدمات الفرسان والجنود من أجل عملية التوسع والدفاع عن حدودها.

كان كبار السادة الإقطاعيين والنبلاء الذين حازوا إقطاعات في المملكة ملتزمون بتقديم الخدمة العسكرية للملك، والدفاع عن حدود المملكة ضد الأخطار التي تتعرض لها، ولم تكن الخدمة العسكرية في المملكة الصليبية محددة بفترة معينة([1]) وإنما تطلبت ظروف الإستيطان الصليبي في فلسطين أن تكون الخدمة العسكرية غير مشروطة في حين تم تحديد عدد الفرسان والجنود الذين يقدمهم الفصل للسيد الإقطاعي([2]).

كان الفصل يؤدي ما تقرر عليه من خدمة عسكرية، حيث يُجهز نفسه بالمعدات اللازمة للقتال، وهي الفرس والسلاح، ويوجد في قوانين بيت المقدس ما يشير إلى كيفية تجهيز الفارس؛ فيذكر حنا إبلين أنه إذا قام أحد السادة باستدعاء أحد أتباعه للخدمة العسكرية من الفرسان أو المشاة وكان الاستدعاء بصورة مُلحة، ولم يكن لدى الفصل سوى جواد واحد غير مجهز، فإنه يتعين عليه تجهيز جواد آخر إن كان في وسعه، وإن لم يستطع فإنه ينبغي عليه المثول أمام السيد الإقطاعي أو من ينوب عنه حتى يستطيع تجهيز جواد آخر لكي يلحق بالخدمة العسكرية([3]).

ومن الجدير بالذكر أن الإقطاعات النقدية تتساوى مع الإقطاعات العينية، من حيث ما يجب عليها أن تقدمه للسيد الإقطاعي من خدمة وولاء([4]) فعلى سبيل المثال فإن أفصال مقاطعة أرسوف الصليبية في عام660هـ/1261م كانوا عبارة عن ستة فرسان وواحد وعشرين من السرجندية Sergeants([5]) كان بينهم فصل واحد فقط يمتلك إقطاعاً من الأراضي الزراعية، وباقي الأفصال يمتلكون إقطاعات عينية أو نقدية من إنتاج الأراضي

([1]) رنسيمان، تاريخ،ج2، ص 476.

([2]) عاشور، الحركة الصليبية،ج1، ص 385.

([3]) Beugnot (ed.), op, cit., I , p. 357.

([4]) Ibid., P. 633.

([5]) **السيرجندي**: فارس خفيف يستخدم للهجوم ويعتبرهم سميل جنوداً وفرساناً وعلى ذلك فالسيرجندي هو الذي يحمل أسلحة خفيفة. سميل، الحروب، ص 97. البيشاوي، الممتلكات، ص 97، هامش2.

الزراعية، وكانت الأعباء والالتزامات الإقطاعية المستحقة على الإمارة عبارة عــن"ألفــين وأربعمائة وثمان وأربعين" بيزنت([1]) وذكر وليم الصوري أن كلاً من ولتر أوف سانت أومر ورينولد دي شايتون Renauld de Shatillon([2]) قدموا خدماتهم العسكرية للملك بلــدوين الثالث مقابل إقطاع نقدي([3]) وكان دخل إقطاع الفارس الذي يقدر بخمــسمائة بيزنـــت هـــي الإقطاعية التي يستحق عليها تقديم خدمة عسكرية قدرها فارس واحد([4]) وقد ذكر حنا إبلــين قائمة بالخدمات الحربية التي كانت واجبة على السادة الإقطاعيين في مملكة بيت المقدس كما هو موضح في الجدول التالي ([5]) .

يقدم بارون كونتيه يافا وعــسقلان والرملــة ورأس العين([6]) وإبلين مائة فــــــارس 0	**يقدم إقطاع ابلين 10 فوارس– تقدم عسقلان25 فارساً الرملة ورأس العين40 فارساً– تقدم يافا 25 فارساً**
يقدم إقطاع ديــر ســويت([7]))وإقطاعيــات بيــسان0 وقيسارية وبارون قلعة شقيف([8]) مائة فارس0	**تقـــدم قرية ديــر سويت، وقلعــة شقيف 60 فارساً تقدم قيسارية 25 فارساً تقدم بيسان 15 فارساً**
يقدم أمير الجليل مائة فــــــارس0	**تقـــــدم أراضـــــي الجليـــــل 40 فارســـــاً تقـــــدم أراضي إقليم شــرق الأردن60 فارســـا**
يقدم بارونات إقطاعات الكــرك، والشوبك، والخليل 60 فارســــــــاً	**يقـــــدم إقطــــاع الخليـــــل 20 فارســـــاً يقـــــدم إقطـــاع الكــرك والشوبك 40 فارســـاً**

([1]) براور، الاستيطان، ص 172، هــامش1 .

([2]) **رينو دي شـــايتون:** هو فارس فرنــسي خــدم فـــي جــيش بلــدوين الثالــث، تــزوج مــن كونــستانس أميــرة أنطاكيــة، وفيما بين555–572هــ/1160–1176م وقع أسيراً في يد المسلمين، وفي تلك الفترة توفيت زوجته كونستانس ففقد مكانتــه، وفي 573 هـــ/ 1177م تــزوج مــن اســتيفاني ابنــة فيليــب دي ميللــي فأصــبح صــاحب إقطاعيــة شــرق الأردن، خـــاض عـــدة معـــارك مـــع المـــسلمين وفـــي 1187م/583هـــ قتلــه صـــلاح الـــدين بعـــد معركـــة حطـــين. الـــصوري، تـــاريخ،ج2 ص 814، 869، 986، 1066. ابـــن شـــداد، ســـيرة، ص51. مجهـــول، ذيـــل، ص277. بلدوين، اضمحلال، ص268. جب، ظهور، ص283.

([3]) الصوري، تاريخ،ج2، ص 809.

([4]) براور، الإستيطان، ص451.

([5]) Beugnot (ed.), Liver des Assises de Jerusalem, I pp. 422-426.

([6]) **رأس العين (خربة رأس العين):** أسسها هيرود إحياءً لذكرى أبيه وسماها باسمه أنتيباتريس في سهل كفر سابا تقع عند منـــابع نهر العوجا للشمال الشرقي من يافا، وعلى بعد 17كم منها، وتقع بالقرب منها قلعة أفيق التـــي ورد ذكرهـــا فـــي الكتابـــات المصرية القديمة. جونز، مدن، ص 92. الدباغ، بلادنا، ق1،ج1 ص 448، 626

([7]) **دير سويت:** تقع شرق قرية عين جالوت، وقد اندثرت هذه القرية، ويقوم على أرضها الآن قرية دير أم مسعود التـــي تعـــرف باسم خربة دير (أم السعود) وهي تقع إلى الجنوب الغربي من قرية جبول وعلى بعد 14 كيلو منها، وتقع في الجنوب الشرقي من قرية بيلي. الدباغ، بلادنا، ق2،ج6، ص508،513.

([8]) **قلعة شـــقيف:** (بوفـــورت) تقـــع القلعـــة فـــي جنـــوب لبنـــان بـــين صـــور وصـــيدا، وتـــسيطر القلعـــة علـــى مجـــرى نهـــر الليطـــاني كمـــا أنهـــا تـــتحكم فـــي المنـــاطق الجنوبيـــة لهـــضبة البقـــاع الخـــصبة، شـــيدها الملـــك فولـــك أوف أنجـــو ســـنة 534هـــــ/1139م.كانـــت مركـــز لفرســـان الداويـــة منـــذ ســـنة1240م.بورشـــارد، وصـــف، ص 47. الحموي، معجم،ج3، ص356. الصوافي، القلاع، ص 79، 80.

يقدم إقطاع الكونت جوسلين أربعة وعشرين فارساً	**إقطاع القديس جورج "الصغير"[1] 10 فرسان وقلعة الملك[2] 4 فرسان و 10 فرسان من بعض المقاطعات الأخرى**
تقدم الأسقفيات الكنسية أربعة وثلاثين فارساً	**أسقفية اللد والرملة 10 أسقفية الناصرة 6 فرسان** **أسقفية تبنين 15 فارساً أسقفية مارون 3 فرسان**
تقدم مدن التاج الملكي مائتين وثلاث وثلاثون 233 فارساً	**مدينة بيت المقدس 41 مدينة عكا 80 فارساً** **مدينة صور 28 فارس مدينة نابلس 85 فارساً** **تقدم قلعة الداروم فارسين**
تقدم إقطاعية بيروت 21 فارساً	
675 فارساً إجمالي العدد الذي يقدمه البارونات الإقطاعيون في مملكة بيت المقدس	

نلاحظ من الجدول السابق أن الخدمات الحربية التي كان يقدمها السادة الإقطاعيون للملك كانت من أهم واجبات التبعية للملك[3].

وكذلك قامت الكنيسة اللاتينية بتقديم خدمات الفرسان؛ أما فيما يتعلق بالفرسان الذين كانت تقدمه مدن التاج مثل بيت المقدس ونابلس وعكا والداروم وصور فكانت خدماتهم تقع على عاتق النبلاء الذين يقيمون بهذه المدن أو يملكون بها عقارات[4] فمثلاً كانت نابلس تقدم خمسة وثمانين فارساً؛ يقدم منهم الفيسكونت عشرة فرسان في حين يقدم سيد إقطاعية نابلس خمسة عشرة فارساً، أما باقي الفرسان وعددهم خمسة وستون فارساً فكان يقدمهم النبلاء الذين يعيشون في مدينة نابلس، ويمتلكون فيها العقارات والأملاك، وقد بلغ عدد النبلاء الذين يعيشون في المدينة ثلاثين نبيلاً باستثناء الفيسكونت وسيد نابلس[5] في حين بلغ عدد النبلاء الذين كانوا يقيمون في المدينة بيت المقدس ويملكون عقارات بها عشرين نبيلاً قدموا واحداً وأربعين فارساً[6].

---

(1) **جورج الصغير**: إقطاع القديس جورج (الخضر – دير الأسد) مركز لإقطاعية صغيرة تحمل اسم القديس جورج، وهي تقع في إقليم الجليل يحدها من الشمال الشرقي قرية كسيرا، ومن الجنوب الغربي قرية مجد الكروم، ومن الجنوب قرية البعنة. الدباغ، بلادنا، ق2، ج 7، ص 394. البيشاوي، الممتلكات، ص 95، هامش 3.

(2) **قلعة الملك**: (معليا) بنيت القلعة على أراضي قرية معليا، وترتفع عن سطح البحر بحوالي 500م، وتبعد عن عكا حوالي 25كم إلى الشمال الشرقي منها، وتقع إلى الشمال الغربي من قلعة القرين، وتبعد عنها حوالي خمسة كيلومترات، وتبعد مقدار 15كم عن قلعة جدين، وكانت هذه القلاع الثلاث تشرف على الطريق القادم من شمال فلسطين إلى عكا. بنيت القلعة في عهد الملك فولك أوف أنجو سنة555هـ/1160م ومنحها الملك بلدوين الثالث إلى هنري دي ميللي أحد أمراء حيفا (وكان يتبع القلعة حتى ذلك الوقت ما لا يقل عن ستة وعشرون قرية في الجليل الأوسط والغربي وفي سنة565هـ/1170م حصل عليها جوسلين الثالث مع بعض القرى. بورشارد، وصف، ص 67.الصوافي، القلاع، ص 214، 215.

(3) Lamonte, Feudal Monarchy in the Latin P. 142.

(4) رنسيمان، تاريخ،ج2، ص 477، 478.

(5) Beugnot (ed.), op. cit., I, pp. 423 -425.

(6) I bid., I, pp. 423 -425 .

ولم يذكر حنا إبلين الخدمة التي كانت تقدمها بانياس، وقلعة صِبيب قبل استيلاء نـــور الدين زنكي عليهما في560هـ/1164م فعلى ما يبدو أنه كان يجهل مقدار تلك الخدمـــة، ولا تدخل ضمن حساباته؛ كذلك لم يذكر المائة فارس التي كانت تقدمهم طرابلس، وربما حـــذفها لأنها لم تكن تنضم إلى قوات المملكة ما لم توجه لها دعوة خاصة([1]).

ونظراً لأن الجيوش الإقطاعية الصليبية لم تتألف من الفرسان فقط؛ فقد أسهمت المـــدن والإقطاعات المختلفة في المملكة بتقديم خدمات السرجندية وبالرغم من عدم ارتبـــاط أفـــراد الطبقة البرجوازية بالالتزامات التي فرضها النظام الإقطاعي حيث لم يكن مفروضاً علـــيهم أداء واجب الخدمة العسكرية حيث عقدوا الاتفاقيات مع السادة الإقطاعيين على أساس إعفائهم منها، ولكنهم كانوا ملتزمين بتقديم خدمات السرجندية في حالة الطوارئ([2]).

الخدمات الحربية التي تقدمها المؤسسات الكنسية، والبرجوازيين إلى مملكة بيت المقدس([3]).

مدينة بيت المقدس 500 ســـرجندي	**جبل الزيتون 50 ســــــرجندياً**	**مدينة عسقلان 150 سرجندي**
بطريركية المقدس 500 ســـرجندي	**مقدم الاستبارية([4]) 50 سرجندياً**	**مدينة يافا 100 ســــــرجندي**
كنيسة القبر المقدس 500 سرجندي	**أسقفية طبرية 100 ســـرجندي**	**مدينة نابلس 300 سرجندي**
كنيسة جبل صهيون 150 سرجندي	**أسقفية الخليل 50 ســــــرجندياً**	**مدينة غزة 25 ســــــرجندياً**
أسقفية بيت لحم 200 ســــــرجندي	**أسقفية قيسارية 50 ســـرجندياً**	**مدينة حيفا 50 ســــــرجندياً**
أسقفية القديس جورج200 سرجندي	**دير جبل طابور 100 سرجندي**	**مدينة طبرية 200 سرجندي**
أسقفية دير سويت 50 ســــــرجندياً	**أسقفية صور 150 ســـرجندي**	**مدينة عكا 50 ســــــرجندياً**
دير القديسة مريم 150 ســـرجندي	**أسقفية عكا 150 ســــــرجندي**	**مدينة صور 100 سرجندي**
أسقفية الناصرة 150 ســــــرجندي	**مدينة قيسارية 50 ســـرجندياً**	**مدينة أرسوف 50 سرجندي**
البرجوازيون اللاتين 50 ســـرجندياً	**أسقفية سبسطية 100 سرجندياً**	**قلعة تورون 100 سرجندي**
مدينة الرملة ويبنه 150 سرجندي		
المجمـــــــــــــــــــــــــــــــــوع 5025 سرجنديا		

لم يقتصر دور السرجندية على المشاركة في خوض الحروب والمعارك ضـــد القـــوات الإسلامية، وإنما كان لهم دورهم المهم في حفظ الأمن الداخلي للملكة الصليبية وذلك بتسيير

([1]) سميل، الحروب، ص 96.

([2]) Chalandon, op. cit, 302.

([3]) Beugnot (ed.), live des Assises de Jerusalem, I, pp. 426, 427

([4]) **الاسبتارية:** هي هيئة رهبانية عسكرية محاربة، وتمتد جذورها في الأراضي المقدسة إلى ما قبل قيام الحملة الصليبية الأولـــى، وهناك من يشير إلى أن بعض أهالي أمالفي، قاموا بتأسيس مستشفى في بيت المقدس ســـنة 462هـــ/1070م علـــى شـــرف بطريرك القدس جون، وكانت هذه المستشفى قد أقيمت من أجل إيواء الحجاج اللاتين، وقد تطورت المستـــشفى مـــع مـــضي الوقت إلى مقر هيئة فرسان القديس يوحنـــا أو الإســـبتارية ويرجـــع تأســـيس هيئـــة فرســـان الإســـبتارية إلـــى جيـــرارد، وفي سنة507هـــ/1113م اعترف بابا روما بهيئة فرسان الإسبتارية، وكان فرسان الإسبتارية يتبعون مباشرة إلى بابا روما =

الدوريات الليلية، والحد من تصرفات المجرمين الذين يحاولون العبث بممتلكات العامة، وإشاعة الفوضى والاضطرابات فضلاً عن دورهم في تنظيم حركة الأسواق([1]).

وعلى ذلك نخلص إلى نتيجة مؤداها أن خدمات الفرسان السرجندية الحربية التي فرض أمر تقديمها على السادة الإقطاعيين في الإقطاعات التابعة لهم في مختلف المدن والقرى والمستوطنات على أساس العلاقات الإقطاعية؛ مقابل ما تحت أيديهم من إقطاعات عينية ونقدية؛ قد شكلت العمود الفقري لجيوش بيت المقدس الصليبية([2]).

ج- علاقة المقطع بالفلاح:

- سلطات صاحب الإقطاع

انتزاع الفرنجة الصليبيين الأراضي الزراعية، وغير الزراعية؛ من أصحابها الأصليين الذين فقدوا أملاكهم، وأصبحوا يعملون في الأراضي الزراعية المصادرة، كمستأجرين بموجب العرف الإقطاعي الصليبي الذي يقضي بانتقال القرية وأراضيها وسكانها إلى ملكية السيد الإقطاعي، ولم يَقم الفرنجة بتغيير شروط امتلاك الأراضي من قبل السادة الإقطاعيين([3]).

كان النظام الإداري للقرية بمثابة الوسيلة المثلى للسادة الإقطاعيين الصليبيين من أجل ضمان استمرارية العمل، فقد استفاد الفرنجة الصليبيون من النظام الإداري للقرى العربية قبل الاحتلال الصليبي وأضافوا عليه ما فرضته الظروف الجديدة، ونتيجة لعدم وجود السادة الإقطاعيين في القرى، كان لابد لهم من إيجاد وكلاء ينوبون عنهم في التعامل مع الفلاحين، وعادة ما كانوا يختارون أعيان أهل القرى للقيام بهذه المهمة، وكان يلقب بالريس Rays([4]) ولقد كان لكل قرية ريساً واحد غير أنه في بعض الأحيان كان يرأس القرية اثنان من الرؤساء يعينهم السيد الإقطاعي الصليبي لهذا المنصب، وذلك حسب عدد العائلات التي تقطن القرية([5]).

وبموجب القانون الإقطاعي كان ريس القرية يعتبر من صغار الأفصال الإقطاعيين، فكان يعتبر الممثل الحكومي الرسمي للقرية، وتقع على عاتقه مسئولية حفظ الأمن في القرية

= وقد حصلوا على كثير من المنح في فلسطين وأوروبا .الصوري، تاريخ،ج2، ص830،831 .الفيترى، تاريخ، ص 86، 87.

([1]) Lamonte, op. cit., p. 106.

([2]) البيشاوي، الممتلكات، ص 98.

([3]) البيشاوي، الأراضي الزراعية، ص 52.

([4]) الطحاوي، الاقتصاد، ص 192.

([5]) براور، الاستيطان، ص438.

وتحصيل الضرائب المفروضة على فلاحي القرية للسيد الإقطاعي([1]).

وفُرض على ريس القرية ومجلس الأعيان فيها أن يقرروا خضوعهم للسيد الإقطاعي الصليبي، وعندما تنتقل ملكية القرية إلى سيد إقطاعي آخر فإن ريس القرية ومجلس الأعيان بها يجب عليهم أن يقدموا الولاء لهذا السيد الإقطاعي الجديد([2]).

ونظراً للتميز الاجتماعي والإداري للريس كان لابد له من الحصول على نصيب أكبر من نصيب أي فلاح آخر من الأراضي الزراعية، بالإضافة إلى منزلٍ حجمه أوسع من باقي منازل القرية ملائم لواجباته الاجتماعية ففي سنة 580هـ/1184م استضاف ريس إحدى قرى عكا الرحالة ابن جبير ومن معه من أفراد القافلة في غرفة كبيرة في منزله([3]) كما امتلك معظم رؤساء القرى العديد من مزارع الزيتون والكروم مثلما حدث مع ريس قرية طيره Tura([4]) إحدى قرى إقطاعية صور الذي امتلك مع كبير أساقفة صور عدة مزارع من أشجار الزيتون والكروم بالإضافة إلى "0،1% " من الأراضي الصالحة للزراعة مما جعل الريس يمتلك غالباً ضعف ما كان يمتلكه أي فلاح آخر([5]) كما منح مقدم فرسان الداوية ريس إحدى القرى المدعو عبيد ملكية عدد من القرى لفلاحتها، وحماية الأمن بها([6]).

ولقد أوجد السيد الإقطاعي للقرية محكمة إقطاعية تابعة له، يقف أمامها الفلاحون مسلمون كانوا أم مسيحيون، ويمكن اعتبار المحاكم الإقطاعية بمثابة الوعاء القانوني الذي تمكن من خلاله السادة الإقطاعيين من حفظ الأمن والنظام في قراهم، والتي قامت بالفصل فيما ينشب من منازعات بين السيد الإقطاعي وفلاحيه، أو بين الفلاحين بعضهم البعض بصرف النظر عن ديانتهم([7]).

بالإضافة إلى الريس فقد مثل الكاتب والترجمان؛ باقي أضلاع المثلث الإداري الصليبي للقرى، ولقد استعان الصليبيون بالترجمان، وكثيراً ما كان الترجمان من طبقة الفرسان أو من البرجوازيين، ولقد صبغت مهنة المترجم بصبغة إقطاعية، وكان من مهماته الترجمة بين السيد الإقطاعي وفلاحي القرية؛ كذلك كان مسئولاً عن جمع نصيب السيد الإقطاعي من المحاصيل الزراعية

([1])براور، الاستيطان، ص438.

([2]) المرجع نفسه، ص 438، 439.

([3]) إبن جبير، الرحلة، ص 235.

([4]) الطيرة: تقع إلى الجنوب من حداثا، شمالي بنت جبيل بنحو 6كم. الطراونة، مملكة صفد، ص 99.

([5]) Smith The Feudal Nobility, P. 48 . علي، العلاقات، ص 176.

([6]) براور، الاستيطان، ص 448.

([7]) الطحاوي، الاقتصاد، ص 192.

والضرائب، والحفاظ على الأمن، وتنفيذ أوامر السيد الإقطاعي في القرى التابعة لـــه([1]).

كان الوضع الاجتماعي والاقتصادي للترجمان مميزا عن باقي الفلاحين؛ إذ كان ينبغي على كل فلاح في القرية التي يشرف عليها أن يدفع له عن كل كاريوكا Carruca([2]) مكيالاً واحداً مقداره(مود=190 لتر) من القمح أو الشعير عن كل كاريوكا من الأراضي الزراعيـة التي يمتلكها كل فلاح([3]) وكان يمكن للترجمان عند انتقاله لمباشرة أعماله مـن قريـة إلـى أخرى أن يطلب لنفسه ولحصانه إمداداً، وإذا ما فقد حصانه أثناء الخدمة كان علـى السيد الإقطاعي أن يدفع له خمسة عشرة بيزنت، أما إذا أراد السيد أن يصطحب الترجمان خـارج إقطاعه؛ فكان يجب عليه أن يتكفل بكامل نفقاتـه([4]) وكانـت نـسبة مـا يحـصل عليـه الترجمان من الإنتاج الموسمي لمحـصول القريـة تقـدر بـــ "6%"([5]) وكانـت وظيفـة الترجمان تورث وتباع مثل الإقطاع نفسه في المحكمة العليـا، وذلـك لقـاء مبلـغ مـالي يصل أحيانا إلى 250 بيزنت([6]).

كان الكاتب هو المساعد الثاني للريس، وإذا كان لكل قرية ريـسٌ واحـدٌ فـإن عـدد الكتبة الذين عملوا عنـد الـسيد الإقطـاعي كـان كبيـراً الأمـر الـذي أوجـد نـوعين من الكتبة([7]) وعمل العديد من السكان المحليـين فـي هـذه المهنـة فـي القـرى حيـث كان الكاتب مسئولاً عن جميع الإيرادات، كما كـان عليـه أن يجمـع الأشـخاص الـذي يعيشون في منطقته عند حدوث نزاع على الحدود، كمـا كـان عليـه أن يعـرف أسـماء وممتلكات جميع الفلاحين في القرية التي يعمل بها([8]).

وبخصوص الوضع الاقتصادي للكاتب وبالتطبيق على إقطاعية قيـسارية فقـد امتلـك الكاتب بها منزلاً وجرناً وكاريوكا من أراضي كفر لام Kafr Lam ([9]) وتمتع الكاتب فـي

([1]) Smith, op. cit., p. 53.

([2]) **كاريوكا:** هي وحدة لقياس الأرض، ولم تكن مساحتها متساوية فبعضها كان يعرف بالكاريوكا الرسمية وكانـت تـساوي 35 هكتاراً أي ما يعادل 350 دونماً. أما الكاريوكا الحرة فهي تعادل الفدان العربي الذي يساوي أربعة دونمات 4.000متر مربع، وكانت الكاريوكا الرسمية هي الوحدة التي يتم على أساسها تقدير الضرائب أما الكاريوكا الحرة فيبدو أنها كانت معفيـة مـن الضرائب. البيشاوي، الممتلكات، ص 468. براور، الاستيطان، ص 448.

([3]) براور، الاستيطان، ص 439، 440.

([4]) Smith, op. cit., P 55.

([5]) براور، الاستيطان، ص440.

([6]) المرجع نفسه، ص440.

([7]) Smith, op. cit., p 55.

([8]) الطحاوي، الاقتصاد، ص 195.

([9]) **كفر لام:** تقع إلى الجنوب من مدينة حيفا على بعد خمسة وعشرين كيلو منها؛ ذكرها الحموي باسم كفر لاب فقال بلد بـساحل الشام قريب من قيسارية بناه هشام ابن عبد الملك، ويرجح أن بني لام من طيء نزلوا هذه الجهات وخلدوا اسمهم في القريـة. الحموي، معجم،ج4، ص470. الدباغ، بلادنا، ق2،ج7، ص 603.

هذه القرية، وخمس عشرة قرية أخرى بإيجارات عينية متنوعة، وأيضاً على بواقي الحبوب التي تسقط من حمولة كل حمل يحمل الحبوب إلى الأجران([1]) أما إذا تجول الكاتب في أنحاء منطقة قيسارية على سبيل المثال فكان يتم تزويده بحصان، وبما يلزمه من مؤن، وإذا ما فقد حصانه أثناء عمله؛ كان على السيد الإقطاعي تعويضه عن ذلك([2]).

ولم تغفل مجموعة قوانين بيت المقدس التشريعات الخاصة بعلاقة السيد الإقطاعي بفلاحيه في الريف الفلسطيني، فإذا هرب أحد الفلاحين من الخدمة في أرض سيده كان ينبغي على سيده أن يستعيده؛ وأن يدفع مبلغاً مالياً يساوي 2 بيزنت لكل شخص ساعده في استعادة الفلاح([3]).

كذلك إذا ما تزوج أحد الفلاحين التابعين للسيد الإقطاعي من إحدى الفلاحات التي تتبع سيداً آخر من دون إذن سيده، كان على الآخر أن يمنح السيد الإقطاعي للزوجة، فلاحة أخرى في نفس السن عن زوجة فلاحه([4]) أما إذا مات الزوج وعادت الزوجة إلى سيدها الإقطاعي الأول، فينبغي على السيد الإقطاعي للفلاح أن يستعيد الفلاحة التي كان قد أرسلها للسيد الإقطاعي؛ من الإقطاعي الآخر مقابل زوجة فلاحة([5]).

وإذا تم طلب احد الفلاحين أو الفلاحات للمثول أمام المحكمة؛ كان يجب عليه أو عليها الذهاب في غضون ثمانية أيام؛ أما إذا لم يكن أحدهما في أرضه فيجب عليه أن يكون بها خلال 15 يوماً أما إذا لم يحضر خلال هذه الفترة كان على السيد الإقطاعي إحضاره بالقوة أو إحضار من يوجد في أرضه([6]).

- العلاقات المالية:

قام الصليبيون بفرض العديد من الضرائب العينية والنقدية على الفلاحين، والحرفيين في المدن والقرى الفلسطينية المحتلة، والخاضعة لسيطرة المملكة الصليبية.

فقد فرض الصليبيون على الفلاحين ضريبة تسمى Carragium، ويبدو أنها تحريف لضريبة الخراج الإسلامية التي فرضها المسلمون على ملاك الأراضي الزراعية والتي تتراوح ما بين ربع وثلث المحصول؛ الذي تنتجه الأرض في كل مره تتم فيها زراعتها([7]).

كما أن الفلاحين التزموا بسداد ضريبة عينية مماثلة على مزارع الكروم وأشجار الزيتون والفواكه، وتفاوتت تلك الضريبة ما بين ربع ونصف

([1]) Smith, op. cit., pp 56, 57.

([2]) Ibid., pp 56, 57.

([3]) Beugnot (ed.), op. cit., I, p. 404.

([4]) Ibid., p. 405.

([5]) Ibid., p. 405.

([6]) Ibid., p. 405.

([7]) smith, op. cit., p. 44. Benvenisti, op. cit., p 217. براور، الاستيطان، ص447.

لمحصول([1]) وكانت هذه الضريبة تزداد وترتفع أحيانا في صورة دفع مبالغ مالية أو عينيـة فمثلاً كان الملك الصليبي عموري، وفرسان التيوتون([2]) يتسلمون سنوياً مكيالاً مـن القمـح ومثله من الشعير عن كل كاريوكا من الأراضي الزراعية الخاضعة للنفوذ الملكي في القدس ونابلس([3]) وكان يتم جمع ضريبة الخراج بالشكل التالي.

كان السيد الإقطاعي أو من ينوب عنه يزور القرية عندما يتم جمـع المحـصول فـي الأرض المخصصة للحصاد، وكان يجري تقسيمها إلى أكوام حسب نصيب السيد الإقطـاعي والفلاحين؛ أما إذا كانت القرية تتبع أكثر من سيد واحد فإن أكوام الحبوب تقسم بين مـلاك هذه الإقطاعات والفلاحين([4]).

ومن الضرائب التي فرضت على الفلاحين في القرى ضريبة الإتاوة أو الجباية Xenia وهي الهبات والهدايا التي يقدمها الفلاحون للسادة الإقطاعيين في مناسبات الأعياد الدينيـة أو في المناسبات التي تتعلق بالتقويم الزراعي؛ مثل موسم الحصاد، وعيد رأس الـسنة، وعيـد الفصح، وبداية الصوم الكبير؛ حيث قدم الفلاحون خلالهـا الـدجاج، والبـيض، والجـبن، والأخشاب([5]) ففي إحدى القرى القريبة من مدينة صور فإن كل فلاح كان ملزمـاً أن يـدفع لسيده الإقطاعي ثلاث دجاجات، وثلاثة دنانير، وثلاثون بيضة، ورطل من الجـبن؛ ثـلاث مرات في السنة([6]) ولم تكن هـذه الـضريبة(ضـريبة الهـدايا Xenia) مقتـصرة علـى النبلاء والإقطاعيين فقط،؛ بل قام الفلاحون بتقديم هذه الضريبة لأبنـاء المـدن الإيطاليـة؛ ففي إحدى الوثائق التاريخية الخاصة بالبندقية تشير إلى هذه الهبات؛ بأنها التزامات وضرائب شخصية، كانت تدفع عن كل كاريوكا من الأراضي الزراعية، فقد فرضت على كل كاريوكا من الأراضي الزراعية التابعة للبنادقة، دجاجة، وعشر بيضات، ونصف رطل من الجـبن، واثني عشر بيزنت، لشراء حمولة من الخشب([7]) ومن الملاحظ أن ضريبة الإتاوة أو الجباية (Xenia) التي كان يفرضها السادة الإقطاعيون على كل فلاح؛ تختلف من قرية إلى أخرى.

([1]) ريشار، تكوين، ص 164. براور، الاستيطان، ص 448. الشاعر، أحوال، ص15.

([2]) **التيوتون:** تأسست الهيئة في أواخر القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي بعد أن تمكن صلاح الدين من إسقاط مملكـة بيت المقدس، كان فرسان التيوتون يرتدون عباءة بيضاء ذات صليب أسود يوضع على الكتف الأيسر وزودهـم الإمبراطـور فردريك الثاني بالنسر الإمبراطوري الأسود ليكون رمزاً لهم . تحولت هيئة التيوتون للعمل العسكري سـنة586هــ/1190م وحظيت بالموافقة البابوية سنة595هــ/1198م فـي عهـد البابـا أونـسنت الثالـث. الفيتـري، تـاريخ، ص 94، 95. عوض، التنظيمات، ص 45– 47. حسين، تاريخ جماعة، ص 58–100.

([3]) براور، الاستيطان، ص447.

([4]) المرجع نفسه، ص448.

([5]) Smith, op. cit., p. 44. Benvenisti, op, cit., p. 217.

([6]) علي، العلاقات، ص177.

([7]) براور، الاستيطان، ص 448.

كما قام الصليبيون بفرض ضرائب أخرى على الفلاحين، مثل ضريبة Mensuragium التي تم فرضها على استخدام الموازين، والمكاييل، والمقاييس، وكانت هذه الضريبة تشكل دخلاً كبيراً؛ فقد بلغت الضريبة المقررة على الموازين، والمكاييل في مدينة صور مبلغاً يقدر بحوالي "1900" بيزنت سنوياً بينما بلغت الضريبة المقررة على استخدام المكاييل المستخدمة في الحبوب وزيت الزيتون حوالي"310" بيزنت سنوياً([1]) ومما لاشك فيه أن هذه الضرائب وغيرها كانت تشكل عبئاً مالياً على كاهل السكان المحليين وأرباب الحرف المختلفة.

ومن بين الأعباء المالية التي تحملها الفلاحون ضريبة النقل، وهي التزام مالي مقابل نقل الحبوب والمحاصيل إلى الأجران أو مخازن الغلال، كما كانت هناك ضريبة على النحل والعسل، وضرائب تدفع على الماشية والأغنام، وفي المناطق التي بها غابات أو مراعي كان يتم دفع ضريبة عليها، وعلى الحطب الذي يتم جمعه لاستخدامه في الطهي والتدفئة([2]).

ومن الضرائب الأخرى التي فرضها الصليبون، الضريبة التي تم فرضها على الآلات الموسيقية مثل الأبواق، والدفوف، والطبول، والمزامير وغيرها، والتي كانت تقدر جبايتها السنوية بخمسمائة بيزنت([3]) بينما بلغت الضرائب التي تم فرضها على الجزارين وأعمال الذبح والسلخ حوالي أربعمائة بيزنت سنوياً([4]).

ومن الأعباء المالية التي عانى منها المسلمون، وغيرهم سواء من عاش منهم في الأحياء الخاصة بالمدن الإيطالية أو من عاش خارجها؛ كانوا مطالبين بدفع رسوم للمحاكم التي تقضي في المنازعات المختلفة التي قد تنشب بينهم وبين غيرهم أو نظير نشر العدالة في المدينة أو في الحي الإيطالي، كما أنهم كانوا ملزمين بدفع إيجارات عن كل منازلهم التي يقطنون فيها؛ من قَبلَ مجيء الصليبيين، وكذلك الحوانيت التي يمارسون فيها حرفهم المختلفة، وقام موظفو المحاكم البرجوازية، والمحاكم الوطنية في كل مدينة من المدن المحتلة التي خضعت للاحتلال الصليبي بتحصيل هذه الإيجارات في مواعيد محددة من كل عام([5]).

كما خضع الفلاحون لدفع ضريبة العشور مع أن بعض المراجع تشير إلى أن هذه الضريبة كان يدفعها الصليبيون فقط في المدن المختلفة؛ باستثناء فرق الرهبان من الداوية والإسبتارية والتيوتون وغيرهم، فيشير براور إلى أن ضريبة العشور كانت تدفع من ضريبة الخراج([6]).

([1]) براور، الاستيطان، ص490.

([2]) Smith, op. cit., p. 44. ريشار، تكوين، ص 164 براور، الاستيطان، ص 448.

([3]) براور، الاستيطان، ص490.

([4]) المرجع نفسه، ص490.

([5]) علي، العلاقات، ص172.

([6]) براور، الاستيطان، ص447.

ولقد قام السكان المحليون بدفع ضريبة العشور مجبرين، ففـــي مجلـــس نـــابلس الـــذي عقد في513هـ/23 يناير1120م بهدف اتخاذ الإجراءات الـضرورية لإصـــلاح الأحـــوال الخلقية والروحية المتدنية، التي وصلت إليها المملكة، تمت الموافقة على أن يتنازل البارونات عن كل هذه الضرائب التي كانوا يحصلونها، على أن تقوم كنيسة بيت المقـدس بتحـصيلها كما كانت هذه المبالغ تشكل جزءً من دخل ملك بيت المقدس والتي عرفت باســم الـضرائب الملكية، وكان ملك بيت المقدس يقوم بتحصيلها من رعاياه القاطنين في كـلٍ مـن مدينـة بيت المقدس ونابلس وعكا، وفي هذا المجلس تم التنازل عنها لكنيسة بيت المقـدس كنـوع من المساهمة في حركة الإصلاح([1]).

ولقد نشبت نزاعات عديدة بين رجال الدين والتنظيمات الدينية بشأن ضـريبة العـشور فعلى سبيل المثال ثارت الخلافات والمشاكل بين رجال الدين في كنيسة القيامة، ورجال الدين في كنيسة جبل طابور حول أعشار قرى سنجل([2]) وترمسعيا([3]) والدير([4]) مما دفع البطريرك وليم الأول([5]) إلى عقد اجتماع في بيت المقدس في 22 صفر540هـ/14 أغسطس 1145م من أجل إنهاء الخلافات بين الطرفين المتنازعين، وبعد سلسة من المـشاورات والمباحثـات تمكن البطريرك وليم الأول من إنهاء الخلاف وتقرر أن يحصل جبل طابور علـى نـصف ضرائب العشر التي يتم جبايتها من قرى سنجيل ترمسعيا والدير، بينما تحصل كنيسة القيامة على النصف الآخر من ضرائب العشر([6]).

وفي سنة571هـ/1175م أثيرت المسألة من جديد وتم الاتفاق على تنازل رجال الـدين اللاتين في دير جبل طابور عن حقوقهم في نصف الأعشار التي كانت تجبي من قرى سنجل

([1]) الصوري، تاريخ،ج1، ص 586، 587. عطية، مجلس نابلس، ص41، 42.

([2]) **سنجل:** كانت في العصر الصليبي تقع ضمن حدود إقطاعية نابلس، ترتفع عن سطح البحر 800متر، وتقع جنوب نابلس علـى بعد نحو21كم منها، كما تبعد عن رام الله 21كم. كانت سنجل في العصر الصليبي مركزاً لإقطاعية صـغيرة يحكمهـا سـيد إقطاعي من صغار النبلاء؛ تنسب قرية سنجل إلى ريموند الرابع كونت سانجيل، الذي خيم بقواته على أراضيها قبـل التوجـه صوب بيت المقدس. الحموي، معجم،ج3، ص 264. الدباغ، بلادنا، ق2،ج8، ص 279– 282 .

([3]) **ترمسعيا:** تقع إلى الشمال الشرقي من رام الله وعلى بعد 23 كيلو منها؛ كما تقع إلى الجنوب الـشرقي مـن نـابلس، وتبعـد عنها 21كم، وتقع شرقي قرية سنجل، وتبعد عنها 1كم، وترتفع عن سطح البحر بنحو 720متر، يحيط بالقريـة العديـد مـن الخرب منها خربة عموريه وخربة إستونا .الدباغ، بلادنا، ق2،ج8، ص 283 – 285.

([4]) **الدير:** (خربة رأس الدير– خربة دير الفقيا) وهي تقع إلى الشمال الشرقي من قرية سنجل وتحتوي الخربة علـى أنقـاد ديـر وكنيسة وجدران وصهريج. الدباغ، بلادنا، ق2،ج8، ص 282.

([5]) **وليم الأول:** بطريرك بيت المقدس ولد في فلمنكا وكانت مدينة مالينز موطنه الأصلي؛ حضر إلى الأراضي المقدسة من فلاندر وبدأ عمله في كنيسة القيامة منذ سنة511هـ/1117م. وتدرج في المناصب حتى أصبح رئيساً لكنيـسة القيامـة ثـم انتخـب بطريركاً لبيـت المقـدس 524هـــ /1130م. بعـد البطريـرك سـتفين، وتـوفي سـنة540هــ/ 1145م. الـصوري، تاريخ،ج2، ص 648، 756. البيشاوي، الممتلكات، ص143، هـامش 3 .

([6]) ينظر الملحق رقم (2)، ص300.

وترمسعيا، والدير إلى كنيسة القيامة؛ بشرط أن يحصلوا على ثلاث عربات محملة بالمحاصيل سنوياً مما تنتجه القرى الثلاث([1]).

كذلك نشب خلاف بين أسقف عكا وبين هيئة التيوتون حول ضريبة العشور، وادعى أسقف عكا أن مقدم هيئة فرسان التيوتون، وأعضاء هذه الهيئة يجب عليهم أن يفرضوا ضريبة العشور الكنسية على فلاحيهم؛ وتوصل الطرفان بعد طول خصام إلى حل مؤداه أن تلتزم هيئة فرسان التيوتون بدفع "15/1" من قيمة العشور الكنسية على كل الأراضي الزراعية التي بحوزتها؛ سواء كانت هذه الأراضي يستغلها أعضاء هيئة التيوتون بشكل مباشر وعلى نفقتهم الخاصة أو كانت تستغل بواسطة فلاحين آخرين([2]).

ومن بين الالتزامات المالية التي فرضها الصليبيون على المسلمين في مملكة بيت المقدس "ضريبة الرأس"، وهي الضريبة التي ذكرها ابن جبير عندما قال أن الفرنج قد فرضوا ضريبة للرأس على كل مسلم "دينار وخمسة قراريط" أي ما يعادل 2.9% من إنتاج الأرض التي يزرعها، وكانت هذه الضريبة تدفع في كل سنة مرة، ولم تكن قاصرة على رب الأسرة فحسب، وإنما امتدت لتشمل كل ابن من أبنائه بلغ سن الرشد، وهي سن الخامسة عشر سنة([3]).

ولقد كانت هذه الضريبة تشكل عبئاً مالياً ثقيلاً على كاهل الفلاحين؛ خاصة عندما يبلغ الأولاد سن الرشد، مع عدم وجود زيادة في مساحة الرقعة الزراعية التي يعمل بها الفلاح، ويتضح لنا مدى ثقل وطأة هذه الضريبة؛ في الأحوال التي كان يَرفع فيها الحكام الصليبيون قيمة ضريبة الرأس، كما حدث سنة551هـ/1156م عندما قام سيد إقطاع نابلس باين دي ميللي Bayan de Milly برفع نسبة تحصيل ضريبة الرأس إلى أربعة أضعاف ما كان يفرضه غيره، واتبع أبشع الوسائل من أجل تحصيلها، وتَحملَ الفلاحون تلك المظالم بصبرهم الذي يُضرب به المثل([4]).

كما خضع المسلمون كغيرهم من السكان المحليين من أبناء الديانات الأخرى لضريبة الدفاع والأزمات، التي كانت تفرض على السكان حينما تعزم المملكة على تجهيز حملات عسكرية، أو تشعر بأخطار خارجية أو داخلية قد تهدد وجودها ففي سنة562هـ/ 1167م تم جباية ضريبة مقدارها عشرة بالمائة على جميع أملاك الصليبيين في الأرض المقدسة، وتم التصديق على هذه الضريبة من قبل الملك عموري

([1]) Genevieve, B.B, op. cit., Act. No. 159, PP. 310, 311.

([2]) براور، الاستيطان، ص450،451.

([3]) ابن جبير، الرحلة، ص 234. الشاعر، أحوال، ص 18.

([4]) ابن طولون، القلائد،ج1، ص 67 .

الأول أثناء انعقاد جلسة المحكمة العليا في نابلس، وقد فرضت هــذه الــضريبة للمــساهمة في إعداد الحملات لمواجهة استعدادات نور الدين زنكي للتوجه إلى الديار المصريـــــة ([1]).

وفي عام579هـــ/1183م تم عقد اجتماع حضره كبار سادة الفرنج في بيـــت المقــدس تقرر فيه فرض ضريبة على جميع سكان المملكة؛ مهما كانت أصولهم أو ديـــانتهم بهــدف مواجهة تحركات صلاح الدين العسكرية، وقدرت هذه الضريبة بحوالي1% عن كـــل مائـــة دينار يمتلكها الفرنج وغيرهم، و2% على عائداته وبخاصة الأغنياء منهم، وفرض على كل منزل دينار ذهبي، وقد تم في هذا الأمر مراعاة ظروف الفقراء من الصليبيين؛ حيــث تــم جباية نصف دينار عن منازلهم أو حسب مقدرتهم المالية([2]).

يبدو أن تعدد الضرائب في السنوات الأخيرة من عمر المملكة الصليبية في بيت المقدس؛ يبين مدى الأزمة المالية الخانقة التي كان يعاني منها الكيان الصليبي؛ الأمر الذي دفعه لطلب المساعدة المالية العاجلة من الظهير الأوروبي([3]).

([1]) الصوري، تاريخ،ج2، ص 895.

([2]) المصدر نفسه،ج2، ص 1054– 1057 .

([3]) انظر، ص109– 113، من الدراسة.

الفصـــــــل الثانـــــــي

الاستيطاني الفرنجي لفلسطين والموقف الشعبي منه.

أ- سياسة الفرنجة الاستيطانية تجاه السكان الأصليين.

ب- **عناصر الاستيطان الفرنجي الصليبي.**

1- الأرض والدعـــم العسكري

2- تشجيع الهجـــرة النصرانية

3- الـــــــــــدعم المادي

ت- أهداف الاستيطان الفرنجي في فلسطين.

ث- المستوطنات الفرنجية الصليبية في فلسطين.

ج- المقاومة الشعبية ضد الاحتلال الفرنجي الصليبي0

أ- سياســـة الفرنجـــة الاستيطانيـــــة.

شكلت الأرض علـــى الـــدوام أحـــد أهـــداف الغـــزو الـــصليبي لفلـــسطين؛ بـــصفته مشروعاً إقطاعيـــاً اســـتيطانياً قوامـــه اســـتقدام المهـــاجرين الأوربيـــين وإحلالهـــم فـــي الأراضي الفلسطينية محل أصحابها الأصليين؛ فجاء علـــى لـــسان البابـــا أوربـــان الثـــاني في كليرمونت 488هـ/1095م ما نصه " أنقذوا تلك الأرض من ذلك الجـــنس المرعـــب، واحكموها بأنفسكم لأن هذه الأرض التي تفيض باللبن والعسل كما يقـــول الكتـــاب المقـــدس أعطاها الرب ملكاً لبني إسرائيل"([1]).

فقد كان الاستيلاء على الأرض في بلاد الشام عامة، وفلسطين خاصة الشرط الضروري المسبق لاستيطان الأنحاء المختلفة من بلاد الشام؛ لذلك فقد أحاطت العقيدة الصليبية الأرض بهالة من القداسة؛ كما رفعت هذه العقيدة مهمة تخليص الأرض المقدسة إلى مستوى الفريضة الدينية، فالبابا في كليرمونت دعا إلى حملة مقدسة هدفها الأول فلسطين اعتماداً على نصوص وردت في الإنجيل، لتخليص الأرض المقدسة من سيطرة المسلمين؛ هـــذه الأراضـــي التـــي وصفها الكتاب المقدس بأنها الأرض التي تفيض باللبن والعسل([2]) كما وصفها أوربان الثاني بأنها ميراث المسيح([3]) لذا طالب الجموع المحتشدة بقوله "يجب أن تدافعوا بالسلاح عن حرية أرض الآباء حقاً وعدلاً "([4]).

وعلى ذلك يمكن القول بأن الحركة الصليبية كانت فـــي جوهرهـــا حركـــة اســـتيطانية قام بها الغرب الأوروبي ضد الشرق الإسلامي، وقد أيـــد هـــذا القـــول بعـــض المـــؤرخين الغـــربيين أمثـــال جروســـيه Grousset الـــذي عـــدها حركـــة اســـتيطانية اســـتعمارية قـــدمت مـــن الغـــرب إلـــى الـــشرق بقولـــه: "إن الحـــروب الـــصليبية أدت إلـــى أول توسع استعماري للغرب المسيحي في الشرق العربي"([5]) بينمـــا عـــدها المـــؤرخ برنـــارد لـــويس Bernard Lewis بأنهـــا حركـــة اســـتعمارية هـــدفها التوســـع الاســـتعماري الغربي في الشرق([6]) في حين اعتبر تريفليان Trevelyan فـــي كتابـــه مختـــصر تـــاريخ إنجلترا "إن الحركة الصليبيـــة هي حركـــة اتساع خارجي قامت بها أوروبا المسيحيـــة ضد

([1]) رواية روبير الراهب عن مجمع كليرمونت، ترجمة قاسم عبده قاسم، نصوص ووثائق، ص 79.
والمقصود ببني إسرائيل هنا المسيحيين لا اليهود وذلك لأن المسيحية نزلت لهداية اليهود فقد قال تعالى في حق سيدنا عيـــسى "ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم" سورة آل عمران آية 49.

([2]) المصدر نفسه، وانظر كذلك رواية بلدريك الدوللي، ص87.

([3]) رواية جيويرت النوجنتي عن مجمع كليرمونت،ترجمة قاسم عبد قاسم، نصوص ووثائق، ص81.

([4]) المصدر نفسه، ص 82.

([5]) .Grousset, Sum of Hist., P. 182. نقلاً عن يوسف، العرب، ص 103.

([6]) .Lewis Arabs in Hist., P. 140. نقلاً عن يوسف،العرب، ص 104.

العرب"([1]) ويتحدث المؤرخ هنري وليم كارلز ديفز في كتابه أوروبا في العصور الوسطى عن الحروب الصليبية تحت عنوان الاستعمار الأوروبي قائلاً: " إن الشغل الشاغل للحكام اللاتين في الثمانين سنة التي أعقبت تأسيس المستعمرات الأوروبية في الأرض المقدسة هو توسيع حدود تلك المستعمرات وتدعيمها تحت تاج بيت المقدس"([2])

ويرى جوزيف نسيم أن الحركة الصليبية كانت تهدف منذ البداية إلى التوسع والاستعمار تحت قناع من الدعاية الدينية، وأن غرضها الحقيقي هو الاستيلاء على فلسطين بالقوة المسلحة، وتأسيس مستعمرات لاتينية لها، ثم العمل على تعزيز هذه المستعمرات، وتوسيع حدودها، والمحافظة عليها بشتى الطرق والوسائل؛ حتى تكون رأس جسر لأهل الغرب الأوروبي يستخدمونه لتفتيت وحدة العالم العربي وكسر شوكته ضماناً لبقاء نفوذهم في المنطقة"([3]) ويفيد يوشع براور في كتابه الاستيطان الصليبي أن استيطان الفرنجة في منطقة الشرق العربي كان "بمثابة أولى المحاولات التي تهدف إلى تأسيس مملكة استيطانية في هذه المنطقة"([4]) ويقر بلدوين مارشال أن السنوات التي أعقبت تأسيس الدويلات الثلاث في أنطاكية وطرابلس وبيت المقدس "كانت سنوات رخاء، واكتمل نضج تطورها كمستعمرات أوروبية غربية"([5]).

هكذا كانت الحركة الصليبية حركة استعمارية استيطانية تهدف إلى احتلال فلسطين واستيطانها وتهجير سكانها ليحل محلهم العنصر الفرنجي الصليبي؛ فقد جرى تصوير الحروب الصليبية على أنها عملية تطهير كبرى فقد حث البابا أوربان الثاني النصارى على السعي بأقصى الجهود إلى "تطهير المدينة المقدسة ومجد القبر المقدس"([6]) وإحلال العنصر المسيحي في الأرض المقدسة بدلاً من المسلمين فقد أشار جيوبرت إلى أن البابا قال: "لا يمكن أن يحدث هذا(التطهير) ما لم تحل المسيحية محل الوثنية"([7]) ويقدم فوشيه الشارتري مثالاً على الكيفية التي يجري بها هذا التطهير فأشار إلى سعي البابا لطرد المسلمين من فلسطين، وقد كتب أن البابا أوربان الثاني حث في كليرمونت الفرسان والمشاة المسيحيين إلى "أن يسارعوا لسحق هذا الجنس الخسيس من أراضينا"([8]).

فالحروب الصليبية كانت حرب إبادة، وأن الدعوة لإبادة المسلمين قد قال بها الباباوات

([1]) Trevelyan, A shortened Hist., P. 141. نقلاً عن يوسف، العرب، ص 104.

([2]) ديفز، أوروبا، ص 78، 196.

([3]) يوسف، الوحدة، ص 8.

([4]) براور، الاستيطان، ص 83.

([5]) بلدوين، الدويلات، ص190.

([6]) ماستناك، السلام، ص178.

([7]) رواية جيوبرت عن مجمع كليرمونت، ترجمة قاسم عبده، نصوص ووثائق، ص83.

([8]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص36.

كما قال بها القديس برنارد St Bernard([1]) عندما اعتبر" أن قتل الكافر ليس قتلاً لإنسان بل هو إبادة للشر، وأن قتل الوثني هو مجد مسيحي، ففي هذا القتل يجري تمجيد المسيح"([2]) وقد اتضحت رؤيته لاستيطان تلك الأراضي بضرورة استحواذ المسيحيين الكاثوليك عليها فالأرض المقدسة لا تكون مأهولة؛ إذا كانت غير مأهولة بشعب الرب، وهو الشعب الوحيد الجدير بالاهتمام، وعلى ذلك فقد دعا برنارد إلى طرد المسلمين من فلسطين وتفريغ الأرض المقدسة من سكانها([3])

وهكذا وبحلول أواخر القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي كانت الحركة الصليبية قد كفت عن أن تكون حركة من أجل تحرير الأرض المقدسة، وأصبحت بدلاً من ذلك "حركة لإبادة المسلمين"([4]) ولتحقيق ذلك اتبع الفرنج خلال احتلالهم لفلسطين سياسة تهدف إلى تفريغ الأرض من سكانها الأصليين سواء كان ذلك بالقتل أو التهجير أو الطرد، وتوطين المستوطنين القادمين من الغرب الأوروبي مكانهم([5]).

فالباحث المتأمل لواقع الحركة الصليبية يدرك من فوره أنها ذات طابع عنصري تعصبي ضد من هو غير نصراني كاثوليكي لذلك فلا عجب أن ارتبط بها طابع دموي لا ينكر أثره، وقد ظهر منذ بداية المشروع الصليبي أنه مشروع دموي تتكرر فيه المذابح والمجازر الجماعية التي ارتكبها الصليبيون ضد أعدائهم المسلمين، وخلال ذلك تم قتل عشرات الآلاف من السكان، وجاء ذلك وسط موجة عارمة من الكراهية والعداء والرغبة في القتل بكل من لا يدين بالمسيحية الكاثوليكية([6]) ومن أمثلة المذابح التي حدثت على مدى الطريق من أنطاكية([7]) إلى بيت المقدس مروراً بالبارة Albara([8])

([1]) **القديس برنارد:** وهو راعي دير كليرفو، وقد كلفه البابا يوجينوس الثالث للقيام بالدعوة للحملة الصليبية الثالثة وقام بالطواف في برجنديا واللورين والفلاندر وغيرها من مناطق الغرب الأوروبي، وقام بدور يشبه دور أوربان الثاني الذي دعا للحملة الصليبية الأولى، يعتبر مؤسساً لدار الرهبنة البنديكتيه في كليرفو، وقد وصف بأنه على قدر كبير من الذكاء والقدرة على الخطابة، الصوري، تاريخ،ج2، ص 758، 759. دويل، رحلة لويس، ص13، 14. زابوروف، الصليبيون، ص172، 173.

([2]) ماستناك، السلام، ص 176.

([3]) زابوروف، الصليبيون، ص 172،173.

([4]) ماستناك، السلام، ص172،173.

([5]) الصوافي، القلاع، ص57.

([6]) عوض، الحروب، ص42.

([7]) ابن القلانسي، ذيل، ص 135.مجهول، أعمال الفرنجة، ص 70، 106. توديبود، تاريخ الرحلة، ص184، 206. ريموندأجيل، تاريخ الفرنجة، ص 120. الشارتري، تاريخ الحملة، ص58.

([8]) ابن القلانسي، ذيل، ص134. توديبود، تاريخ الرحلة، ص257. ريموندأجيل، تاريخ الفرنجة، ص163. الشارتري، تاريخ الحملة، ص68.

البارة: بليدة وكوره من نواحي حلب وبها حصن وهي ذات بساتين وحقول وتقع على بعد 42 ميلاً جنوب شرق أنطاكية الحموي، معجم،ج1، ص320. توديبود، تاريخ الرحلة، ص 269، هامش 15.

ومعرة النعمان([1]) ووصلت إلى ذروتها في المذبحة المروعة التي اقترفها الصليبيون في بيت المقدس من492هـ/15-25 يوليو 1099م ففي أعقاب استيلاء الفرنجة الصليبيين على بيت المقدس قتلوا عشرات الآلاف من المسلمين([2]).

لقد ظلت آثار المجازر والمذابح الصليبية المروعة محفورة في ذاكرة الجماهير المسلمة؛ فمسلسل الأعمال الإرهابية التي قامت به القوات الفرنجية الغازية منذ دخولهم إنطاكية وحتى دخول بيت المقدس وارتكابهم المجازر البشعة الهادفة إلى ترويع السكان، وإرغامهم على الهروب؛ يشير بكل وضوح إلى سياسة التهجير القسري الذي اعتمدته القيادة الصليبية؛ فقد رافقت الحملة الصليبية الأولى عمليات تهجير وهجرة لعدد كبير من السكان؛ كما حدث تفريغ سكاني لبعض المناطق والمدن، وهرب سكان المناطق التي تعرضت للعدوان إلى مناطق أخرى أكثر أمناً؛ فتؤكد معظم المصادر التاريخية المتوفرة بشكل واضح أن موجات كبيرة من اللاجئين طردوا وهُجروا من مدنهم وقراهم من خلال ظاهرة "الجِفل" أثناء العمليات العسكرية للقوات الصليبية لاحتلال الأراضي المقدسة([3]) حتى كادت فلسطين أن تخلو من سكانها الأصليين الذين "تفرقوا في بلاد المسلمين"([4]) ويصور لنا المؤرخ فوشيه الشارتري ذلك بقوله: "كان المواطنون الشرقيون قد ولوا الأدبار لما سمعوا الشائعات بمقدمنا، ولم يبقَ إلا أولئك الذين فاقوا الهباب سواداً فتركناهم، وعاملناهم باحتقار"([5]) وقد انقسم المهاجرون إلى أربع مجموعات وذلك قياساً بظروف هجرتهم([6]).

المجموعة الأولى وهي تلك المجموعة المكونة من سكان المدن التي غادرها أهلها قبل وصول القوات الفرنجية الغازية كما هو الحال مع مدن الرملة([7]) ويافا([8]) وطبرية([9]) والخليل([10]) ورام الله([11]) سنة492هـ/1099م وأيله([12]) سنة510هـ/1116م وغيرها المدن والقرى الفلسطينية، فمدينة القدس كانت تكتظ بعشرات الآلاف من سكان الريف المجاور الذين لجأوا إليها هرباً من القوات الفرنجية الغازية يبتغون الحماية

([1]) ابن القلانسي، ذيل، ص36. ريموندأجيل، تاريخ الفرنجة، ص 169. توديبود، تاريخ الرحلة، ص 262.

([2]) انظر، ص39، من الدراسة.

([3]) ابن القلانسي، ذيل، ص136. ريشار، تكوين، ص185

([4]) ابن جبير، الرحلة، ص 238.

([5]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص109.

([6]) إيمانويل، اللاجئون، ص79.

([7]) مجهول، أعمال الفرنجة، ص114.

([8]) الصوري، تاريخ،ج1، ص423.

([9]) Albert. d, Aix, op. cit., pp. 517, 518. رنسيمان، تاريخ،ج1، ص451.

([10]) سايولف، وصف، ص42.

([11]) براور، الاستيطان، ص 283.

([12]) الشارتري، تاريخ الفرنجة، ص158.الصوري، تاريخ،ج1، ص566.

خلف أسوارها([1]) كما هرب سكان القرى الواقعة جنوب غرب البحر الميت أثناء حملة بلدوين الأول 494هـ/1100م ([2]).

أما المجموعة الثانية وهي تلك المجموعة المكونة من سكان المدن التي كانت قد استسلمت للصليبيين والتزم الفرنجة بمواثيقهم وعهودهم بشأن الحفاظ على حياة وأرواح السكان؛ مع حرية مغادرة مدنهم مثال ذلك أرسوف495هـ/1101م([3]) وعكا 498هـ/1104م([4]) وعسقلان548هـ/1153م([5]).

أما المجموعة الثالثة من المهاجرين وهي تلك المجموعة المكونة من سكان المدن التي استسلمت للصليبيين، ولم يلتزم فيها الفرنجة بعهودهم ومواثيقهم، وقاموا بارتكاب مذابح جماعية في حق سكانها، وتمكن خلالها عدد من السكان من الهروب؛ في حين حافظ الصليبيون على جزء من أهالي المدن بغية الحصول على مكاسب سياسية أو اقتصادية كما حدث في بيت المقدس([6]) وقيسارية([7]) وعكا([8]).

هكذا أدت العمليات العسكرية الصليبية الهادفة لاحتلال فلسطين إلى ارتكاب المذابح والمجازر الجماعية، وإلى هجرات متتالية لما أحدثته تلك المذابح من هول وفزع للكثيرين من سكان القرى والمدن مما أدى إلى ضياع الأرض؛ فضلاً عن ظهور مشكلة اللاجئين التي اكتظت بهم بعض المدن الإسلامية([9]).

وإلى جانب هذه المجموعات الثلاث من المهاجرين جراء العمليات العسكرية المرافقة لاحتلال فلسطين فإن هناك مجموعة رابعة من المهاجرين الذين هجروا أراضيهم نتيجة السياسة التعسفية لأمراء الإقطاعات الصليبية ومن أمثلة ذلك قرى إقطاعية نابلس، ولقد اعتبر سيفان إيمانويل([10]) أن الهجرة من منطقة نابلس ذات طابع مختلف عن باقي موجات النزوح والهجرة التي حدثت في فلسطين خاصة، وبلاد الشام عامة، ووجه هذا الاختلاف كما توضحه الأحداث التاريخية أن الأهالي في القرى والضياع النابلسية فضلوا البقاء تحت سلطة الاحتلال الفرنجي الصليبي

([1]) الصوري، تاريخ،ج1، ص403.

([2]) الشارتري، تاريخ، ص109. الصوري، تاريخ،ج1، ص 489.

([3]) الشارتري، تاريخ، ص 113. إبن القلانسي، ذيل، ص 139.الصوري، تاريخ،ج1، ص495.

([4]) الصوري، تاريخ،ج1، ص513.

([5]) الصوري، تاريخ،ج2، ص822. إبن القلانسي، ذيل، ص321.ابن الأثير، الكامل،ج9، ص392.

([6]) توديبود، تاريخ الرحلة، ص 318.

([7]) الشارتري، تاريخ، ص115. إبن القلانسي، ذيل، ص139.ابن الأثير، الكامل،ج9، ص43.

([8]) الشارتري، تاريخ، ص 131.إبن القلانسي، ذيل، ص144.ابن الأثير، الكامل،ج9، ص43.

([9]) إيمانويل، اللاجئون، ص80،81..

([10]) المرجع نفسه، ص81.

يقاومونهم علـــى أراضيهم المغتصبة، حتى يأتي اليوم الذي يتخلصون من هــذا الاحـــتلال الصليبي الجاثم على أرضهم([1]).

ولقد تعرض المسلمون في نابلس لتعسف بعض أصحاب الإقطاعيات مـــن الـــصليبيين الذين كانوا يزيدون من الالتزامات المالية التي يفرضونها عليهم، فقد ضاعف باليـــان ابلـــين الثاني([2]) صاحب إقطاع نابلس من قيمة ضريبة الرأس التي فرضها على الفلاحين في قرى إقطاعية نابلس إلى أربعة أضعاف قيمتها المقررة على الفلاحين في شـــتى أنحـــاء المملكـــة الصليبية([3]) ونتيجة لنشاطات آل قدامة وتحريضهم الفلاحين ضد الفرنجة؛ أشـــار صـــاحب إقطاع نابلس آنذاك بليان الثاني بقتل كبير عائلة آل قدامة الشيخ أحمد بن محمد بن قدامـــه([4]) وعلِم الشيخ أحمد بذلك عن طريق رجل كان يعمل كاتباً لصاحب الإقطاع فقرر الشيخ أحمـــد الهجرة إلى دمشق([5]) ففي رجب551هـــ/أغسطس 1156م هاجرت أولى المجموعات ســـراً من قرية جماعيل([6]) إلى دمشق، وتكونت هذه المجموعة من الشيخ أحمد وثلاثة آخرين مـــن أقربائه([7]) ويبدو أن هذه الهجرة قد أثرت في عقول وأذهان سكان الريـــف النابلـــسي ففـــي الأشهر التالية نرى أن سكان ثماني قرى في إقطاعية نابلس قد هاجروا إلى دمشق([8]) حيـــث أرسل الشيخ أحمد إلى أهله في قرية جماعيل يأمرهم بالهجرة إليه([9]).

وفى شوال/ نوفمبر من السنة نفسها هاجر من نابلس ما بين خمسة وثلاثين إلـــى أربعين

([1]) ألفراني، المقاومة، ص 266.

([2]) **ابلين الثاني**: أشار ابن طولون إلى أن صاحب إقطاع نابلس كان "باليان ابن بازان".ربما يقصد بـــذلك باليـــان الأول صـــاحب إقطاعية يبنا ويافا والمعروف باسم باليان الأول أما باليان الثاني فكان صاحب نابلس فـــي فتـــرة لاحقـــة بعـــد زواجـــه مـــن مريم كومنينا، ولا يعقل أن يكون قد تولى حكم نابلس في هذه الفترة551هـــ/1156م إذ أن صاحب نابلس فـــي تلـــك الفتـــرة كان فيليـــب دي ميللـــي الـــذي اســـتمر فـــي حكمهـــا حتـــى557هـــــ/1161م.الـــصوري، تـــاريخ،ج2، ص799، 996. البيشاوي، نابلس، ص 129، هـــامش 102.

([3])ابن طولون، القلائد،ج1، ص67، وذكر أبن جبير أن قيمة ضريبة الرأس كانت تبلغ دينار وقيـــراط مـــن الـــدينار الـــصوري، أبن جبير، الرحلة، ص234.

([4]) **الشيخ أحمد بن محمد إبن قدامه**: ينتمي إلى عائلة قدامة التي كانت تقيم في قرية جماعيل القريبة من مدينـــة نـــابلس، تلقـــى علومه الدينية في دمشق على يد الحنابلة من بني الشيرازي، وكانت هجرته إلى دمشق بسبب العلاقات التجارية والاجتماعيـــة القوية بين نابلس ودمشق، نزل بمسجد أبي صالح بظاهر الباب الشرقي لدمشق، توفي سنة558هـــ/1163م. اليـــافعي، مـــرآة الجنان،ج3، ص314. ابن طولون، القلائد،ج1، ص 65، 68. النعيمي، الدراسة،ج2، ص78.

([5]) ابن طولون، القلائد،ج1، ص68

([6]) **قرية جماعيل**: ذكرها الجغرافيون القدماء باسم جماعيل، وهي إحدى قرى نابلس الشهيرة التي تعرف اليوم باسم جماعين، وقد أشار إليها ياقوت الحموي وذكر بأنها من أعمال نابلس وتقع قرية جماعيل في الجنوب الغربي من مدينة نابلس وعلـــى بعـــد 16كم منها؛ وترتفع عن سطح البحرحوالي1696قدماً، وقد اشتهرت هذه القرية بمـــا ظهـــر فيهـــا مـــن علمـــاء وفـــضلاء. الحموي، معجم،ج2، ص159. الدباغ، بلادنا، ق2،ج2، ص465.

([7]) إبن طولون، القلائد،ج1، ص68.

([8]) إيمانويل، اللاجئون، ص83.

([9]) إبن طولون، القلائد،ج1،ص68.

من رجال ونساء وأطفال من قرى ياسوف([1]) والساوية([2]) ومـــردا([3]) وديـــر عريـــف([4]) وزيتا([5]) وغيرها([6]) وهذه المجموعة ليس من السهل أن تحاط هجرتها بالكتمان وخاصة أن بعض من نووا الهجرة كانوا يجوبون في القرى لاستنفار من يحب الهجرة من الأقربـــاء([7]) وفي سنة 552هـ/1157م لحقت بهم جماعة مهاجرة أخرى([8]) ثم توالت بعد ذلك أعداد قليلة من المهاجرين فيهم أناس من السواد وآخرون من قرى إقطاعية نابلس خاصـــة مـــن قـــرى جيت([9]) ودير عريف والفندق([10]) والساويه وياسوف([11]) وظلت الهجـــرات تتـــوالى حتـــى سنة569هـ/1174م([12]).

هكذا أدت السياسة التعسفية الصليبية في إقطاعية نابلس إلى هجرة المئات مـــن ســـكان قرى الإقطاعية([13]) كما أدت العمليات العسكرية الـــصليبية المتزامنـــة لاحـــتلال فلـــسطين، وارتكاب المذابح والمجازر الجماعية إلى هجرات متتالية؛ لما أحدثته تلك المذابح من هـــول

([1]) **قرية ياسوف:** وهي من قرى الجماعيليات تقع جنوب مدينة نابلس على مسافة 16كـم منهـا، وترتفـع عـن سـطح البحـر حوالي600متر، تشتهر بكثرة شجر الرمان، يحدها من الشرق قرية يتما ومن الغرب قرية مردا ومن الجنوب الـشرقي قريـة الساوية ومن الجنوب الغربي قرية إسكاكه، كانت تقوم على أنقاد قرية يشوب الرومانيـة. الحمـوي، معجـم،ج5، ص 425. البيشاوي، نابلس، ص57، هـامش 59.الدباغ، بلادنا، ق2،ج2، ص511.

([2]) **قرية الساوية:** وهي من قرى الجماعيليات تقع إلى الجنوب الشرقي من نابلس وعلى مسافة 18كم منها يحدها من الشرق قرية سلفيت ومن الشمال الشرقي قرية يتما ومن الشمال الغربي قرية ياسوف ومن الجنوب الغربي قرية اللبن الشرقية، وكان لهـذه القرية شأن عظيم زمن الحروب الصليبية فقد خرج منها مجموعة من العلماء والخطباء المشهورين الذين قاوموا الـصليبيين. الدباغ، بلادنا، ق2،ج2، ص516. البيشاوي، نابلس، ص 58، هـامش68.

([3]) **قرية مردا:** هي من قرى الجماعيليات تقع جنوب مدينة نابلس يحدها من الشمال قرية جماعيل ومن الـشرق قريـة ياسـوف ومن الجنوب الشرقي قرية إسكاكه ويحدها من الغرب قرية الدير وكانت القرية تعتبر من أهم مراكـز العلـم فـي فلـسطين ذكرها الحموي بأنها من أعمال نابلس. الحموي، معجم،ج5، ص104. الدباغ، بلادنا، ق2،ح2، ص290 – 492. البيشاوي، نابلس، ص57، هـامش66.

([4]) **قرية دير عريف:** وهي قرى الجماعيليات تقع جنوب غرب مدينة نابلس وعلى بعد 13كم منها يحدها من الجنوب قرية ياسوف ومن الجنوب الغربي قرية جماعيل ومن الشمال الشرقي قرية بورين. الدباغ، بلادنا، ق2، ج2، ص362. البيشاوي، المقاومة، ص389، هامش79.

([5]) **قرية زيتا:** وهي من قرى الجماعيليات تقع إلى الجنوب الغربي من نابلس وعلى بعد 18كم منها وتبعد عن قرية جماعيل نحـو كيلومتر واحد. الدباغ، بلادنا، ق2،ج2، ص523.

([6]) إبن طولون، القلائد،ج1، ص69، 71.

([7]) المصدر نفسه،ج1، ص69.

([8]) المصدر نفسه،ج1، ص72.

([9]) **قرية الجيت:** تقع في الجنوب الغربي من نابلس وعلى بعد 12كم منها، يحدها من الجنوب قرية كفر قدوم ومن الـشمال قريـة صرة. الحموي، معجم،ج2، ص196.الدباغ، بلادنا، ق2،ج2، ص 354، 355.

([10]) **قرية الفندق:** تقع في الجنوب الغربي من نابلس وعلى مسافة 17كم منها، كان في موقعهـا فـي العهـد الرومـاني محطـة للمسافرين على الطريق بين يافا ونابلس. الدباغ، بلادنا، ق2،ج2، ص370.

([11]) إبن طولون، القلائد،ج1، ص 73–76.

([12]) عباس، فصول، ص84.

([13]) إبن طولون، القلائد،ج1، ص8.

وفزع للكثيرين من سكان القرى والمدن مما أدى إلى ضياع الأرض فضلاً عن ظهور مشكلة اللاجئين الذين اكتظت بهم المدن الإسلامية([1]) حيث تقدم المصادر التاريخية إشارات مهمة للدلالة على تزايد الكثافة السكانية، في بعض المدن الإسلامية.

فقد أشار الإدريسي الذي زار دمشق في القرن7هـ/13م أنها احتوت على العديد من الضياع، وأن كل ضيعة احتوت على عدد يتراوح ما بين ألف إلى ألفين نسمة([2]) كما أدت الكثافة السكانية في دمشق إلى إنشاء مدينة الصالحية على يد المهاجرين المقادسة على سفح جبل قاسيون([3]) على مقربة من نهر يزيد([4]).

أما سكان جنوب فلسطين الذين طردوا وهُجْروا من أراضيهم، اتجه معظمهم إلى مصر، ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك هي عملية الطرد والتهجير القسري لسكان عسقلان الذين طردوا ورحلوا إلى مصر عقب استيلاء الصليبيين على المدينة 548هـ/1153م([5]).

لم تتوقف عمليات التهجير القصري بحق السكان المحليين إلى خارج فلسطين، ولكن كثيراً ما أقدم الصليبيون على تهجير سكان بعض القرى إلى قرى أخرى ففي إحدى الاجتماعات التي عقدت برئاسة الملك بلدوين الثاني في ربيع أول 522هـ/مايو أيار 1128م وحضره حشد كبير من الأمراء ورجال الدين في المملكة الصليبية تم منح قرية كفر مالك الواقعة في حدود إقطاعية نابلس مع الأراضي والضياع المحيطة بها لكنيسة القيامة([6]) وكان أحد أهم القرارات التي خرج بها هذا الاجتماع ومما يستدعي الانتباه في هذه المنحة أنه جرى تهجير أهالي قرية كفر مالك وترحيلهم إلى قرية بيت فوريك([7]) الواقعة شرقي مدينة نابلس وعلى بعد نحو تسعة كم منها([8]) ويبدو أن سكان قرية كفر مالك قد تعرضوا لضغوط اقتصادية ونفسية من أجل إجبارهم للنزوح عن قريتهم وواضح أن الصليبيين حاولوا

([1]) إيمانويل، اللاجئون، ص80، 81.

([2]) الإدريسي، نزهة،ج1، ص366.

([3]) **جبل قاسيون**: يقع شمالي مدينة دمشق، يتصل الجبل من جهة الغرب بسلسلة جبال لبنان، ومن الشمال والشرق يتصل بسلسلة جبال قلمون الممتدة إلى منطقة حمص، ولجبل قاسيون سفحان يفصل بينهما نهر يزيد فما كان على ضفة النهر الشمالية فهو السفح الأعلى. الحموي، معجم،ج2، ص495. إبن طولون، القلائد،ج1، ص 37، 43، 87.

([4]) الحموي، معجم،ج3، ص390.ابن بطوطة، الرحلة،ج1، ص114.القلقشندى، صبح،ج4، ص98.ابن طولون، القلائد،ج1، ص66.ونهر يزيد أمر بحفرة يزيد بن معاوية في لحف جبل قاسيون، وذلك بهدف إحياء الأراضي الزراعية على سفوح جبل قاسيون، ويستمد نهر يزيد مياهه من نهر بردى.الحموي، معجم،ج1، ص378.

([5]) إبن القلانسي، ذيل، ص 321. الصوري، تاريخ،ج2، ص822. براور، الاستيطان، ص107.

([6]) Genevieve, op.cit., Acte. 30 pp. 92, 93. ينظر الملحق رقم (1) ص297.

([7]) **بيت فوريك**: يقع إلى الجنوب الشرقي من نابلس وعلى بعد 9كم منها، يحدها من الشمال الشرقي قرية بيت دجن، ومن الشمال الغربي قرية سالم، ويحدها من الغرب قرية روجيت، ومن الجنوب الغربي يحدها قرية يانون، ويحدها من الجنوب الشرقي قرية عورتا. الدباغ، بلادنا، ق2،ج2، ص 292.

([8]) Genevieve, op. cit., Act. 30 pp. 92, 93 ينظر الملحق رقم (1) ص297.

تفريغ البلاد مـــن أصحابهـــا للسيطـــرة علـــى الأراضـــي الزراعية الخصبـــة.

فضلاً عن ذلك اتبعت القوات الصليبية سياسة تهدف إلى مصادرة عقارات وممتلكـــات السكان المنقولة، وغير المنقولة وفقاً " قانون الغزو" The Law of Conquest الذي أصبح منذ فترة باكرة جزءاً من تشريع المملكة الصليبية، ووفقا لقانون الغزو فإن القائـــد الـــصليبي الذي يرفع رايته فوق أي موضع أو قرية أو منزل أو فرن يصبح هذا الموضع ملكاً خالـــصاً له لا ينازعه فيه أحد([1]).

فقد استولى الفرنجة على العقارات والممتلكات التي كانت بالمـــدن التـــي احتلوهـــا وهجرها سكانها، وتم هذا الاستيلاء طبقا لما كان يعرف عند الفرنجة "بقانون الغزو" والـــذي وصفه لنا الشارتري بقوله: ".. وبعد هذه المذبحة العظيمة [مذبحة بيـــت المقـــدس] دخلـــوا [الفرنج] بيوت المواطنين يمتلكون ما وجدوا فيها، وقد رتبوا ذلك بحيث أن أول من يدخل بيتاً سواء كان بيت غني أو فقير فلن يعارضه بذلك أي إفرنجي، وله أن يسكن ويمتلك ذلك البيت أو القصر وكل ما فيه كما لو كان بيته حقاً، وهكذا تبادلوا القرار بحق الاســـتملاك، وبهـــذه الطريقة أصبح كثير من فقراء الفرنجة أغنياء"([2]).

وهذه الصورة ذاتها تكررت في مدن عكا وقيسارية؛ فإن القـــوات الفرنجيـــة الغازيـــة لم تتردد في أن تمارس أبشع صور التمثيل بجثث الضحايا لانتزاع الدنانير الذهبيـــة التـــي كان يخبؤها الأهالي بين ثنايا ملابسهم وفي داخل أحشائهم، وتم الاســـتيلاء علـــى كـــل مـــا في المدينة من بيـــوت وأراضٍ وعقـــارات وغيرهـــا([3]) وقـــد أقـــر بلـــدوين الأول مبـــدأ حق الإستملاك الذي كان الفرنجة قد اتفقوا عليه قبل احتلال المدينة، وأصـــدر مـــا عـــرف باسم قانون "السنة واليوم" والذي يعطي كل إفرنجي يضع يده علـــى منـــزل أو أرض لمـــدة سنة ويوم واحد؛ الحق في ملكيتها ملكاً مطلقاً؛ كما ينص على أن كل من غاب عن عقاراته، وممتلكاته أكثر من سنة ويوم يفقد حقه في ملكيتها([4]) ولعل بلدوين سعى مـــن وراء إقـــرار هذا القانون؛ تشجيع الصليبيين على الاستيطان فـــي الأراضـــي المحتلـــة، وإجبـــار الـــذين غادروا الأرض المقدسة عقب الاستيلاء على مدينة بيـــت المقـــدس بـــالعودة والاســـتقرار في المملكة الصليبية قبل انتهاء المدة القانونيـــة التـــي نـــص عليهـــا القـــانون، وإلا فـــإن أملاكه سوف تؤول للشخص الذي احتفظ بها في خلال ذلك الوقت([5]).

ليس هذا فحسب بل الأخطر من ذلك هو قيام الصليبيين بإنشاء مستعمرات استيطانيـــة،

([1]) ريموندأجيل، تاريخ الفرنجة، ص235. الشارتري، تاريخ الحملة، ص76.الصوري، تاريخ،ج1، ص437.

([2]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص76. الصوري، تاريخ،ج1، ص 437.

([3]) الشارترى، تاريخ الحملة، ص 115. إبن القلانسي، ذيل، ص139، 144.الصوري، تاريخ،ج1، ص496، 513.

([4]) الصوري، تاريخ،ج1، ص 472.

([5]) ماير، تاريخ،ج1، ص95.

وذلك عن طريق إحلال مستوطنين جدد من شتى أنحاء الغرب الأوروبي، حيث قاموا في هذه المستوطنات بتأسيس مجتمعات زراعية أوربية في الشرق، ولقد ساعدت هذه المستوطنات على جذب المهاجرين الأوروبيين للقدوم إلى فلسطين، والاستيطان فيها، وعمل هؤلاء المستوطنون الجدد على تعمير بعض القرى التي كان قد هجرها أهلها؛ أو أجبروا على إخلائها([1]).

وتعد فئة الفلاحين من أكثر الفئات الاجتماعية تضرراً نتيجة الغزو الفرنجي الاستيطاني لفلسطين، وتعدى ذلك إلى فئات أخرى في المجتمع الفلسطيني، وخاصة كبار الملاك الذين خلفوا وراءهم الأراضي الشاسعة التي استولى عليها المستوطنون الجدد([2]).

وكان من نتائج هذه السياسة الاستيطانية؛ أن أدت إلى حدوث خلل في البنية الاجتماعية، والسكانية، والاقتصادية للمجتمع الفلسطيني؛ فقد جرى سحقه بالقوة بوضع مجتمع آخر مكانه؛ بعاداته وتقاليده المختلفة تماماً عن عادات وتقاليد المجتمع المحلي الذي لم ينسجم أو يتفاعل معه؛ ضمن سياسة مدروسة وعن سابق إصرار([3]).

كما اتبع الصليبيون سياسة تهدف إلى تغيير هوية فلسطين وتحويلها عن الإسلام من خلال عملية التنصير للأرض، وطمس معالم التربة الإسلامية، ولقد جاء هذا الدور التنصيري من خلال القضاء على دور الأماكن الإسلامية؛ فيزودنا سايولف الذي زار فلسطين 496-497هـ/1102-1103م ببيان واضح عن سرعة قيام الصليبيين بتنصير القدس باعتماد برنامج شامل لتشييد الأبنية الدينية وتجديدها ويهمنا هنا وصفه المفصل لما يسميه جبل الهيكل أو منطقة الحرم القدسي الشريف، وما يلفت الانتباه في وصفه الصور المسيحية والإشارات الكثيرة من الكتاب المقدس التي تعزز قداسة المكان، ويُعْرّف سايولف موضع قبة الصخرة بأنه المكان الذي كان فيه هيكل الرب([4]).

إن في وصف فلسطين الذي أورده سايولف تعبيراً آخر عن الاعتقاد الشائع في أوروبا بأن فلسطين أرض ميراث مسيحي([5]) ولاشك في أن هذه المقولة هي بث دعائي للأفكار التي ذاعت في الغرب لتسويغ الحملة الصليبية، وإنشاء مملكة بيت المقدس الصليبية([6]) كما قام الصليبيون بتحويل مسجد قبة الصخرة إلى دير أطلقوا عليه اسم دير معبد السيد كما أضافوا إلى المبنى مذابح وأماكن للتعميد فضلاً عن النقوش اللاتينية البارزة على جدار

([1]) براور، الاستيطان، ص107.ريشار، تكوين، ص157،158.علي، العلاقات، ص 156.

([2]) شاكر، فلسطين، ص460.

([3]) المرجع نفسه، ص460.

([4]) سايولف، وصف، ص30.دانيال، وصف، ص57.

([5]) سايولف، ص24-44.

([6]) بني كوك، فلسطين، ص120.

المبنى([1]) واتخذ ملوك الفرنجة في القدس من المسجد الأقصى مقراً رسمياً لهم لعدم وجــود مقر ملكي، وبعد اكتمال بناء القصر الملكي شرقي برج داوود سنة512هـــ/1118م مــنح المسجد الأقصى لهيئة فرسان الداوية ليكون مقراً لهم، ولقد قسم الفرنجة المــسجد الأقــصى خلال فترة الاحتلال الفرنجي للقدس إلى ثلاثة أقسام الأول كنيسة والثــاني مــسكناً للداويــة والثالث مستودعاً للأسلحة؛ كما جعلوا من السراديب التي أسفل المسجد إسطبلاً لخيولهم؛ كما أضافوا إليه مباني جديدة فحين زار يوحنا فورزبورغ المكان ذكر أن الصليبيين قــد قــاموا بوضع "أساسات لكنيسة ضخمة جديدة لم يكتمل بناؤها"([2]).

كما أَحدَثَ الصليبيون العديد من التغييرات العمرانية في مدينة القدس سواء عن طريــق بناء الكنائس والأديرة والأبراج والأسوار أو عن طريق تغيير اســتخدامات بعــض الأبنيــة الدينية الإسلامية([3]) ولم يقتصر هذا الإجراء الصليبي على مدينة بيت المقدس بــل شــهدته معظم مدن فلسطين مثل سبسطية([4]) حيث حول فيها مشهد زكريا إلى كنيسة([5]) والخليل التي حول فيها المسجد الإبراهيمي إلى كنيسة عرفت باسم سانت إبراهام([6]) وعكا التــي حولــت "مساجدها كنائس"([7]).

إن هذه الإجراءات الصليبية تكشف عن أحد بواعث الحركة الصليبية، وهــو العمــل علــى تنصير أرض فلسطين.

عناصر الاستيطان الفرنجي الصليبي:

1- الأرض والدعـــــــم العسكـــــري0

تعتمد عملية الاستيطان على مجموعة من الركائز التي تسهم فــي نجاحهــا، وتجعلهــا حقيقة واقعة على الأرض، وتتمثل هذه الركائز في مجموعــة مــن القــوى؛ هــي القــوى العسكرية والقوى الاقتصادية والمالية، وتوفر عنصر السكان والأرض التــي يستوطن عليها المستعمرون، ولا شك أن هذه الركائز تحتاج إلى الدعم والمساندة من الظهير الأوروبــي([8]).

تحتل الأرض حيزا كبيرا في الصراع الإسلامي الفرنجي، وتعود أصول هذا الصراع

([1]) سايولف، وصف، ص30. دانيال، وصف، ص56. الأصفهاني، الفتح، ص92.

([2]) فورزبورغ، وصف، ص51. الأصفهاني، الفتح، ص89، النقر، التغيرات، ص7،11. الحيارى، القدس، ص178.

([3]) النقر، التغيرات، ص8-15. صالح، الحرم، ص161-162.

([4]) **سبسطية:** وهي تقع في الشمال الغربي لمدينة نابلس، تبعد عن القدس 42 ميلاً، يوجد بها قبر زكريا ويحيى عليهمــا الــسلام. يحدها من الشمال قرية برقة، ومن الشرق قرية طلوزة، ومن الجنوب قرية بيت إيبا. الهراوي، الإشــارات، ص30. دانيــال، وصف ، ص92. الدباغ، بلادنا، ق2،ج2، ص 397، 400.

([5]) الأصفهاني، الفتح، ص67. أبو شامه، الروضتين،ج3، ص203.

([6]) سايولف، وصف، ص42. دانيال، وصف، ص79. التطيلي، الرحلة، ص257. السيد، الخليل، ص106.

([7]) ابن جبير، الرحلة، ص235. ابن الأثير، الكامل،ج10، ص149.

([8]) البيشاوى، الاستيطان، ص1.

إلى ما قبل نشوء الحركة الصليبية؛ ثم أخذ يتبلور مع شدة التضارب بين الحضارتين، واقتناع كلٌ من طرفي الصراع الإسلامي و الفرنجي بأنه وحده صاحب الحق التاريخي في أرض فلسطين([1]) فقد كانت الحركة الصليبية في نشأتها وأهدافها مرتبطة بالأرض المقدسة والمنطقة العربية وبالأهداف الاستعمارية الاستيطانية([2]).

فقد كان تحول فلسطين إلى كيان صليبي هدفا يراود الحركة الصليبية، وقد جري التلميح إلى المخططات الصليبية في كليرمونت، ويمكن أن نتبين من قراءة نصوص الروايات التي أوردها المؤرخون حول خِطْبة البابا في كليرمونت أنه كان يدعوا إلى حملة مقدسة هدفها فلسطين اعتمادا على نصوص في الأناجيل المسيحية، وذلك بهدف إخضاع الكنيسة الشرقية لسلطة البابا في روما، وتخليص الأرض المقدسة من سيطرتهم، هذه الأرض التي وصفها أوربان الثاني بأنها ميراث المسيح حيث قال: " لذا..... فإنني بل إن الله وليس أنا يحثكم يا جنود المسيح أن تحضوا الرجال.... أن يسارعوا لسحق هذا الجنس الخسيس من أرضينا ويمد يد العون للسكان المسيحيين"([3]).

فقد كانت الحملة الصليبية انعطافا خطيرا في تاريخ الغرب الأوروبي، لذا كانت تلك الحملات الصليبية التي دارت على نطاق واسع سواء من حيث إطارها الزمني أو من حيث مجالها الجغرافي أو من حيث أعداد المشاركين فيها؛ أول حرب يخوضها الغرب تحت راية عقائدية([4]) إذ كانت الحملة الصليبية الأولي مشروعا كنسيا تسعي البابوية من خلاله إلى تحقيق الأهداف الكنسية المتمثلة في فرض سيطرتها على المسيحيين في الشرق، وإنهاء الشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية، وتوحيدهم تحت سيادة البابا([5]).

وكان الفرنج يهدفون إلى غزو الأراضي الإسلامية في الشرق، لأن الأرض ضرورية كأساس مادي للحكم، وقد تطلب الاستيطان الفرنجي الدائم في فلسطين الحصول على المزيد من الأراضي، ولضمان الاتصال مع الظهير الأوروبي كان على الفرنج أن يوطدوا سيطرتهم ونفوذهم على الساحل الفلسطيني والسوري([6]).

لم يقتصر إنشاء الكيان الصليبي فوق الأرض الفلسطينية خاصة، والشامية عامة على إقامة جيش صليبي قوامه الفرسان مزوداً بآلة القمع العسكرية، وبالأرض، والمواد التموينية في القلاع التي كانت تمثل هيكل المملكة الصليبية([7]) فبالإضافة إلى ذلك كان الكيان

([1]) الشارترى، تاريخ الحملة، ص36.
([2]) قاسم، نصوص، ص11.
([3]) الشارترى، تاريخ الحملة، ص36.
([4]) قاسم، نصوص، ص14.
([5]) المرجع نفسه، ص15
([6]) سميل، الحروب، ص26.
([7]) ريشار، تكوين، ص157.

الصليبي يلقي الدعم والمساندة العسكرية، والمادية من الغرب الأوروبي ليقوى على مواجهة التحديات التي كانت تواجهه، فالوجود الفرنجي الصليبي ذاته ولد ليعتمد على الغرب الأوروبي الذي كان بمثابة " الرحم الذي منه ولد المشروع الفرنجي الصليبي"([1]) وكلما زاد ضغط حركة الجهاد والمقاومة ضد الغزاة المستعمرين زاد ارتباط الفرنجة بالظهير الأوروبي طلبا للعون المادي والعسكري([2]).

فالحركة الصليبية قد شملت كل الغرب الأوروبي، حيث تحركت جيوش شتي من مختلف أنحاء أوروبا من فرنسا، وانجلترا، وألمانيا، والدانمرك، والسويد، والنرويج، وغيرها، فلم تكن الحركة الصليبية سبع حملات فحسب بل كانت "مداداً لا ينقطع، وسيلاً من البشر يتحرك على السفن وفي البر؛ مدار السنوات المائتين التي امتدتها الحروب، فقد تكون الحملات بدورها أكثر من مائتين أو ثلاثمائة حملة صغيرة وكبيرة لبضعة ملايين بعضهم حجاج وبعضهم محاربون وكثير منهم تجار ومغامرون([3]).

وهذا يعنى أن الحملات الصليبية السبع الشهيرات لا تعبر عن واقع الحال؛ إذ كانت الحملات الصليبية في حقيقة الأمر أكثر من مجرد هذه الموجات التي ترسو على شاطئ فلسطين، وإنما كانت بمثابة " تقاطر مستمر من الحجاج والمهاجرين"([4]) ذلك أنه وبسبب وجود المملكة الصليبية في محيط إسلامي معادي، والقلة العددية النسبية لمن استقر منهم في الشرق([5]) فضلاً عن طبيعة النظم السياسية، والتكوين الإقطاعي لممتلكاتهم، وعدم تجميع قواهم العسكرية لمواجهة المسلمين، نستطيع أن نلمس مدي حاجة المملكة الصليبية لوصول مساعدات عسكرية فاعلة من الغرب الأوروبي للإسهام في الدفاع عن كيان المملكة الصليبية([6]) فقد كانت المملكة الصليبية تعتمد اعتماداً كبيراً على ما يقدم لها من مساعدات عسكرية للدفاع عن حدود المملكة الصليبية، وتوسيع حدودها([7]).

ويقدم لنا ابن الأثير العديد من الأمثلة عن استعانة الصليبيين في الشام بالظهير الأوروبي وبمن يفد إليهم من الغرب الأوروبي للحج إلى بيت المقدس في تدعيم قوتهم العسكرية ففي حوادث سنة 496هـ/1102م يذكر ابن الأثير أن بلدوين الأول استعان بالفرنج الذين كانوا قد وصلوا من أوروبا لزيارة بيت المقدس لمحاربة القوات الفاطمية في عسقلان([8]).

([1]) عوض، عالم، ص201.
([2]) ألمسيري، تاريخ،ج2، ص132.
([3]) مصطفى، من الغزو، ص17.
([4]) براور، عالم، ص22.
([5]) تشير المصادر إلى أن عدد من تبقي من الصليبيين من الفرسان والمشاة ورجال الدين لا يتجاوز الثلاثة آلاف. الشارترى، تاريخ الحملة، ص112.الصوري، تاريخ،ج1، ص471. فنك، تأسيس، ص62.
([6]) توفيق، الدبلوماسية، ص78
([7]) الصوري، تاريخ،ج2، ص775.
([8]) ابن الأثير، الكامل،ج9، ص68.

وفى سنة539هـ/1144م تمكن عماد الدين زنكي([1]) من استرداد الرها([2]) وكان رد الفعل الأوروبي إزاء ذلك عنيفا بحكم المكانة الدينية التي تحتلها الرها في الروايات المسيحية الباكرة، وتولي القديس برنارد الدعوة لحملة صليبية جديدة بتوجيه من البابوية لاسترداد المدينة حتى خلت قرى كثيرة من سكانها، وهي التي عرفت باسم الحملة الصليبية الثانية([3])، وفي ذلك يقول ابن الأثير " سار ملك الألمان من بلاده في خلق وجمع عظيم من الفرنج عازماً على قصد بلاد الإسلام، وهو لا يشك في ملكها بأيسر قتال لكثرة جموعه، وتوفر أمواله، وعدده، فلما وصل إلى الشام قصد من به من الفرنج فخدموه، وامتثلوا أمره ونهيه فأمرهم بالمسير إلى دمشق ليحاصرها ويملكها"([4])، ويصور ابن القلانسي المد الأوروبي بقوله: "تواصلت الأخبار من ناحية القسطنطينية وبلاد الفرنج والروم وما والاها بظهور ملك الفرنج من بلادهم... في العَدد الذي لا يحصر والعُدد التي لا تحزر، لقصد بلاد الإسلام بعد أن نادوا في سائر بلادهم، ومعاقلهم بالنفير إليها، والإسراع نحوها، وتخليه بلادهم وأعمالهم خالية.... واستصحبوا من أموالهم وذخائرهم وعددهم الشيء الكثير الذي لا يحصي"([5]).

إن زلزال حطين وتوابعه قد أصاب الكيان الفرنجي الصليبي فيما يشبه المقتل، وقد تأكد من مجريات الأحداث أن الصليبيين في مملكة بيت المقدس، وبإمكانياتهم المحلية فشلوا في أول معركة حاسمة كبرى، وأنه لابد من الحلف الدفاعي الاستراتيجي مع الغرب الأوروبي من التدخل لإنقاذ بقايا الوجود الصليبي في بلاد الشام([6]).

وشهدت الفترة خلال الأعوام الواقعة ما بين 585-588هـ/1189-1192م تقدم فعاليات الحلف الدفاعي الاستراتيجي المتمثل في الغرب الأوروبي من أجل إنقاذ الكيان الصليبي الذي أوشك على الانهيار التام من جراء فعاليات حركة الجهاد والمقاومة الإسلامية حينذاك، وهو ما يعرف بالحملة الصليبية الثالثة؛ التي شارك فيها أكبر أباطرة وملوك أوربا.

فقدوم الحملة الصليبية الثالثة لم يكن من أجل إنقاذ الكيان الصليبي المتهاوي بل أيضاً من أجل استمرار الاستيطان الصليبي في فلسطين ودعمه عسكرياً ومالياً، وقد صور المؤرخون

([1]) **عماد الدين زنكي:** وهو عماد الدين زنكي ابن قسيم الدولة أق سنقر الملك، تولي حكم الموصل والجزيرة سنة521هـ/ 1127م بذل جهودا من أجل توحيد الجبهة الإسلامية في مواجهة الصليبيين فضم إليه العديد من المدن أهمها مدينة حلب وحمص وحماه؛ كان من أهم أعماله فتح أمارة الرها الصليبية سنة /539هـ/1144م. قتل أثناء حصاره لقلعة جعبر على يد أحد مماليكه سنة541هـ/1146م .ابن الأثير، الكامل،ج9، ص 242، 246، 252،331، 332، 339. ابن خلكان، وفيات،ج3 ، ص328. ابن العديم، زبده الحلب، ص301، 304، 325، 326.

([2]) ابن القلانسي، زيل، ص279. الصوري، تاريخ،ج2، ص739، 740.الجنزوري، إمارة الرها، ص307، 311.

([3]) دويل، رحلة لويس، ص13، 15، 17.الصوري، تاريخ،ج2، ص758، 759. ويندوفر، ورود التاريخ، ص164.

([4]) ابن الأثير، الكامل،ج9، ص353.

([5]) ابن القلانسي، ذيل، ص297.

([6]) عوض، العلاقات، ص222.

في سياق تحريضهم على الجهاد ضد هذه الإمدادات الصليبية المتتالية ودعوا الأمة إلى حشد طاقتها لمواجهتها؛ فقد صور القاضي الفاضل([1]) الجموع الصليبية التي كانت تتوافد من الغرب الأوروبي لمساندة الفرنجة في عكا، وعلى رغم من أن العبارة الفاضلية قد توحي بالمبالغة في التعبير والتصوير، لكن هذه المبالغة لا تغدو كذلك عندما نعلم أن أمم أوروبا حشدت ما أمكنها أن تحشده للاستيلاء على عكا، يقول القاضي الفاضل من كتاب إلى الخليفة العباسي في بغداد: "ومن خبر الفرنج أنهم الآن على عكا يمدهم البحر بمراكب أكثر عِدَّه من أمواجه، ويُخْرِج للمسلمين، أمَرَّ من أَجاجه، وقد تعاضدت ملوك الكُفر على أن ينهضوا إليهم من كل فرقة طائفة، ويرسلوا إليهم من كل سلاح شوكة، فإذا قتل المسلمون واحداً في البرّ بعث ألفا عوضه البحر، فالزَّرع أكثر من الحصَّاد، والثمرةُ أنمى من الجُدَّاد([2]).

وقال العماد في المعارك التي دارت حول عكا سنة585هـ "وجاءتهم في البحر مراكب أخلفت من عُدم، وبنت ما هُدم فُكمل بالمدد ما نقص من العدد"([3]) وقد عبر أبو شامة عن ذلك بقوله "اجتمعت كلمة الكفر من أقطار الأرض، وأطراف الدنيا، ومغرب الشمس ومزخر البحر ما تأخَّر منهم متأخِّر ولا ستبعد المسافة بينك وبينهم مستبعد، وخرجوا..... مهطعين إلى الداعي ساعين في إثر الساعي وهم من كل حدبٍ ينسلون ومن كل بر وبحر يقبلون"([4]).

وأرسل العماد الأصفهاني إلى ديوان العزيز ببغداد رسالة شرح فيها تدفق المعونات والإمدادات العسكرية من أوروبا، ووصف الأوضاع داخل عكا وخارجها فكتب "إنه لم يبقَ لهم مدينة ولا بلدة ولا جزيرة ولا خطة صغيرة ولا كبيرة إلا وجهَّزتْ مراكبها، وأنهضت كتائبها، وتحرَّك ساكنها، وبرز كامنها، ونفضت خزائنها، وانفضَّت معادنها، وحُملت ذخائرها، وبذلت أخيارها، وثار ثائرها، وسار سائرها، وطار طائرها، فثلث كنائن كنائسها واستخرجت دفائن نفائسها"([5]).

وكانت العبارة الفاضلية أكثر تدفقا وأقوى استثارة في الرسالة التي وجهها صلاح الدين إلى سلطان الموحدين أبي يعقوب المنصور([6]) يحثه فيها على مساعدة المسلمين في بلاد الشام

([1]) **القاضي الفاضل:** هو عبد الرحيم ابن القاضي الأشرف البيساني مجير الدين أبو علي العسقلاني الشهير بالقاضي الفاضل من وزراء صلاح الدين الأيوبي، وصاحب ديوان الإنشاء، ولد بعسقلان سنة 529هـ/1134م. عاش وتوفي بمصر سنة 596هـ.. وفيات،ج3، ص158– 162. أبو شامة، الروضتين،ج5، ص27. الذهبي، سير،ج21، ص338– 344.

([2]) أبو شامه،الروضتين،ج4، ص82.

([3]) الأصفهاني، الفتح، ص197.

([4]) أبو شامة، الروضتين،ج4 ، ص106.

([5]) الأصفهاني، الفتح، ص208. ينظر: أبو شامة، الروضتين،ج4، ص62.

([6]) **أبا يعقوب المنصور:**هو ابن أبي محمد عبد المؤمن أمير دولة الموحدين يكني أبا يوسف وأمه أم ولد بويع له بالأمر في حياة في حياة أبيه تولي قيادة دولة الموحدين بعد وفاة والده 580هـ/1184م. وعمره 32 سنة فملك المغرب والأندلس؛ وقد كتب إليه صلاح الدين يستنجدة على الفرنج فلما لم يخاطبه بأمير المؤمنين غضب من ذلك، ولم يجبه حكم لمدة 16 سنة وثمانية أشهر، وتوفي سنة 595هـ./1198م عن عمر يناهز 48 عاما.ابن كثير، البداية،ج13، ص21.

لمواجهة جموع الفرنجة فقد بين في هذه الرسالة" أن فرع الكفار بالشام أستــصرخ بأصــل الكفار من الغرب، فأجابوهم رجالاً وفرساناً وشيباً وشباباً وُزرافاتٍ ووحداناً وبــراً وبحــراً ومركباً وظهراً... وجلب الكفار إلى المحصورين بالشام كلَّ مجلوبٍ وملؤوا عليهم ثَغْــريهم من كلِّ مطلوب ما بين أقواتٍ وأطعمة وآلاتٍ وأسلحة.... إلى أن شــحنوا بلادهُــم رجــالاً مقاتلة، وذخائر للعاجلة من حربهم والآجلة؛ لا تشرقُ شارقةٌ إلا طلعت على العدو من البحر طالعة، تعوض من الرجال من قُتل وتخلِّف من الزاد ما أكل"([1]).

وأرسل العماد إلى الخليفة العباسي كتابا يستنهضه فيه، ويصف الحشود الضخمة التــي توالت من أوروبا للاستيلاء على عكا فكتب يقول: " وليس هذا العدو بواحــد فيــنجح فيــه التدبير، ويأتي عليه التدمير، وإنما هو كل من وراء البحر، وجميع من في ديار الكفر"([2]).

ولقد لعبت الدعاية الصليبية دوراً بارزاً في استثارة وتحريض الغرب الأوروبي لإرسال هذا الدعم العسكري الكبير للصليبيين في الشرق عقــب الاســتيلاء علــى بيــت المقــدس، فقد أشار ابن الأثير إلى هذه الدعاية الإعلامية بقوله: " ثم إن الرهبان والقسس، وخلقاً كثيراً من مشهوريهم، وفرسانهم لبسوا السواد وأظهروا الحزن على خروج بيــت المقــدس مــن أيديهم، وأخذهم البطرك الذي كان بالقــدس، ودخــل بهــم بــلاد الفــرنج يطوفهــا بهــم جميعا، ويستنجدون أهلها، ويستجيرون بهم، ويحثونهم على الأخذ بثار بيت المقدس، وصُورَ المسيح عليه السلام، وجعلوا صُورة رجل عربي، والعربي يضربه، وقــد جعلــوا الــدماء على صورة المسيح عليه السلام، وقالوا لهم هذا المسيح يضربه محمد نبي المــسلمين، وقــد جرحه، وقتله فعظم ذلك على الفرنج فحشروا وحشدوا حتى النساء"([3]) فقــد كــان للدعايــة والصور تأثيرها على الأوروبيين " فإنها أصل دينهم"([4]).

ويشير ابن الأثير إلى الأزمة التي عاشتها المملكة الصليبية عقب انتهاء الحملة الصليبية الثالثة واشتداد المقاومة الإسلامية؛ خاصة وأن جيوب المقاومة الإسلامية أصبحت قريبة من الكيان الصليبي الأمر الذي دفعهم إلى إرسال الوفود إلى الغرب الأوروبي لاطلاعهم علــى صورة الأوضاع العسكرية في فلسطين، ويطلبون منهم إرسال المساعدات العسكرية لنجدتهم فكتب في حوادث سنة593هـــ/1196م " فأرسلوا إلى ملوكهم الذين داخل البحر يشتكون أليهم ما يفعل بهم المسلمون، ويقولون إن لم تنجدونا وإلا أخذ المسلمون البلاد فأمدهم الفرنج بالعساكر الكثيرة"([5]).

([1]) أبو شامة، الروضتين،ج4، ص116،117.

([2]) الأصفهاني، الفتح، ص208. أبو شامة، الروضتين،ج4، ص82.

([3]) إبن الأثير، الكامل،ج10، ص183. ينظر: ابن شداد، النوادر، ص99،98.ابن خلدون، تاريخ،ج5، ص379.

([4]) إبن شداد، النوادر، ص99.

([5]) إبن الأثير، الكامل،ج10، ص246.

وحين دعا البابا أونسنت الثالث Innocent III([1]) لشن حملة صليبية جديدة على العالم الإسلامي عدت الخامسة؛ حاول أن يحشد لها كل طاقات أوروبا بقوله: " إن الأمل ليحـــدوني أن تكون المساعدة التي تقدم إلى الأراضي المقدسة الآن تفوق بكثير كل ما قـــدم لهـــا مـــن قبل"([2]) وفي سنة619هـــ/1222م قام ملـــك بيـــت المقـــدس جـــان دى بـــرين John De Birenne([3]) بزيارة إلى الغرب الأوروبي طلبا للمساعدة العسكرية بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة فزار روما وقابل البابا هنريوس الثالث Honorins III الذي حث بـــدوره ملـــوك الغرب الأوروبي على ضرورة تقديم المنح المالية والمساعدة العسكرية للمملكة الصليبية، ثم زار حنا دى برين كل من فرنسا وانجلترا واسبانيا طالبا مـــن ملوكهـــا وزعمائهـــا النجـــدة والمساعدة العسكرية([4]).

وبعد فشل الحملة الصليبية السابعة على دمياط ورحيل لويس إلى عكا عقد مجلسا مـــع بارونات فرنسا وكبار رجال الحملة، وجماعات فرسان الداويـــة والأســـبتارية والتيوتـــون، وبارونات مملكة بيت المقدس للتداول فيما يجب اتخاذه، وقد أجتمع هذا المجلس ثلاث مرات خلال ثلاثة أسابيع أيام الأحد من 19يونيو إلى 3 يوليو1250م قرر لويس على أثرها البقـــاء في مملكة بيت المقدس الـــصليبية، لإســـترجاع الأراضـــي التـــي حررهـــا المـــسلمون([5]). وفي648هـــ/أغسطس1250م أرسل من عكا رسالة إلى رعاياه يدعوهم فيها إلى توفير الدعم العسكري للمملكة الصليبية حيث قال في رسالته "وإنا لنهيب بكل مسيحي متحمس للحملة... وبكم انتم خاصة أن تعملوا على استرداد الأراضي المقدسة التي يجب اعتبارها ملكا خالصا لكم؛ لقد سبقناكم إلى خدمة الله، فتعالوا واتحدوا معنا "([6]).

وفي مجمع ليون الثاني الذي شارك فيه البابا جيرجـــوري العاشـــر([7]) Gergory IX وملوك أوروبا حول الإستراتيجية الصليبية الجديدة في الشرق، وفي الحقيقـــة بقيـــت هـــذه

([1]) **أونسنت الثالث:** تولي المنصب البابوي خلال الفترة588هـــ/1198م إلى613هـــ/1216م. أسمه في الأصـــل هـــو لوتـــاربو ولد عام555هـــ/1160م. درس اللاهوت في باريس، والقانون الكنسي في بولونيا صار كاردينالا في عام586هـــــ/1190م. تميز عهده بالصراع بين البابوية والإمبراطورية، وفي زمنه بلغـــت البابويـــة أقـــصي، قوتهـــا شـــن حملـــة صـــليبية ضـــد العناصر اللاليجنسية في جنوب فرنسا؛ ثم عاد إلى الحملة الصليبية الخامسة.عوض، العلاقات، ص262، هامش1.

([2]) عبد الحميد، قضايا، ص57.

([3]) **جان دى برين:** ملك بيت المقدس من سنة607-622هـــ 1210- 1225م تسلم تاج القدس عندما تزوج من ماري مـــونتفرات في سنة1210م. وفقده سنة 1225م.عندما تزوجت إيزابيلا من فردريك الثاني ولقد كان قائد عسكريا فهو الذي قـــاد الحملـــة ضد دمياط. بادربون، الاستيلاء على دمياط، ص375، هامش3.

([4]) عبد القوي، الانجليز، ص151، 152.

([5]) جوانفيل، حياة القديس، ص156- 163. يوسف، العدوان الصليبي على بلاد الشام، ص99،112.

([6]) يوسف، العدوان الصليبي على مصر، ملحق رقم(3)، ص313.

([7]) **البابا جيرجوري العاشر:**تولي الكرسي البابوي672هـــ/1273م. كان رئيس شمامسة ليبـــج؛ شارك مـــع إدوارد ابـــن الملـــك هنري الثالث في حملته إلى عكا سنة670هـــ/1271م. وقد تسلم مرسوم انتخابه بابا وهو في عكا. ريشنغر، ذيل، ص1851.

الإستراتيجية الجديدة مهيمنة منذ خمسينات القرن7هـ/13م ولقد نصت هذه الإستراتيجية على إقامة القلاع العسكرية الدائمة في الأراضي المقدسة، وتشجيع الحملات العسكرية الصغيرة التي لديها القدرة على الحركة السريعة، والتي كان في استطاعة الصليبيين إرسال الواحدة منها بعد الأخرى إلى الشرق الإسلامي، هذا الفكر الإستراتيجي الرئيسي الذي ظل قائما حتى نهاية النفوذ الصليبي في فلسطين([1]).

2- تشجيع الهجرة النصرانية0

لقد فقدت فلسطين الكثير من سكانها نتيجة الغزو الصليبي، وما ارتكبه الفرنجة من مجازر ومذابح ضد الأهالي([2]) ونتيجة عمليات الطرد والتهجير التي صَحِبَت الاستيلاء على المدن([3]) ومن ناحية أخرى فإن أعداد الفرنجة الصليبيين الذين بقوا في فلسطين بعد الحملة الصليبية الأولي كان قليلا حيث غادر معظمهم إلى بلادهم بعد أن حققوا هدفهم الرئيسي للحملة وهو الاستيلاء على بيت المقدس([4]).

وقد أشار وليم الصوري إلى قلة عدد سكان القدس في بداية الاحتلال الصليبي لها إذ يقول:"...فنادرا، ما كان هنالك مكان يستطيع المرء أن يرتاح به بأمان حتى داخل أسوار المدينة، وفي المنازل ذاتها حيث كان السكان قليلين ومبعثرين"([5]) وعندما صار بلدوين الأول ملكا على بيت المقدس سنة 494هـ/1100م لم يكن هنالك من القوة البشرية ما يكفي لتثبيت أركان المملكة؛ إذ كانت معظم الموانئ البحرية الهامة لا تزال بأيدي المسلمين؛ كما أن الأراضي التي أستولي عليها الصليبيون كانت لا تزال بحاجة إلى دعم، وقد أدرك فوشيه الشارتري هذه الحقيقة إذ قال" ملك بلدوين في بداية عهد بضعة مدن، وأُناس فقط"([6]) كما كرر القول نفسه في مكان آخر من كتابه" وقد بقت أراضي القدس خالية من السكان...ولم يتوفر فيها من الناس من يدافع عنها لو أن الشرقيين جرؤوا على مهاجمتنا"([7]) ويصف لنا وليم الصوري الأوضاع الديموغرافيه في القدس في بداية حكم الملك بلدوين الأول حيث يقول:"كانت المدينة المقدسة خالية تقريبا من السكان إذ لم يكن فيها من الناس ما يكفي للأعمال، والخدمات التي تحتاجها الدولة الجديدة، أهالي بلدنا قليلين جدا، ومعوزين لدرجة أنهم لم يستطيعوا شعل شارع واحد إلا بصعوبة"([8]).

([1]) سمت، ماهي، ص53.
([2]) ينظر ص39،46،48.من الدراسة.
([3]) ينظر ص48،49.من الدراسة.
([4]) الشارترى، تاريخ الحملة، ص79.الصوري، تاريخ،ج1، ص471.
([5]) الصوري، تاريخ،ج1، ص472.
([6]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص111.
([7]) المصدر نفسه، ص112.
([8]) الصوري، تاريخ،ج1، ص560.

ومن ذلك يبدو أن القيادة الصليبية لم تكن مهتمة بزيادة القوي البشرية الاستيطانية في الأراضي المحتلة بقدر اهتمامها بمتابعة إستراتيجية التوسع والاستيطان، وتوفير سبل الأمن والحماية للصليبيين من جهة، ومن جهة آخري ضرب المقاومة الإسلامية، وعدم إعطائها الفرصة لالتقاط أنفاسها، وإعادة ترتيب صفوفها، وقد أشار يعقوب الفيتري إلى ذلك، وذكر أنه بالرغم من أن عدداً كبيراً من الفرنجة قد غادروا الأراضي المقدسة بعد السيطرة على بيت المقدس؛ إلا أن كثيراً من الفرنجة رأوا أنه من المصلحة حماية ما تحقق لهم من انجازات عسكرية، وذلك بضرورة الاستمرار في عملية التوسع والاستيلاء على أراضٍ جديدة لتوفير الحماية لمدينة القدس وضواحيها من خطر المقاومة الإسلامية؛ لذلك وضع الصليبيون خططهم التوسعية في الجنوب والشمال لفرض الأمر الواقع للوجود الفرنجي الصليبي في الأرضي المقدسة، وخلق حقائق استيطانية جديدة في الأراضي المحتلة([1]).

ويبدو أنه وبسبب التناقص الكبير والمستمر في عدد المستوطنين الفرنجة في القدس فقد تنبه الأمير جودفري إلى حجم الخطورة التي قد تتعرض لها المدينة المقدسة سواء كان على الصعيد الأمني أو على الصعيد الاقتصادي، ومن أجل حماية إنجازات الفرنجة، والحد من تناقص أعداد المستوطنين، وتوطينهم في المناطق القريبة من القدس، ولكي يكونوا على أُهبة الاستعداد في مواجهة أي هجوم إسلامي قد تتعرض له المدينة المقدسة لجأ إلى منح كنيسة القيامة إحدى وعشرين قرية تقع في حدود مدينة القدس([2]).

وكان لأخبار النجاح الذي حققته الحملة الصليبية الأولي أثره في تشجيع عناصر أوروبية جديدة للقدوم إلى فلسطين رغبة منهم في تدعيم الوجود الصليبي في المملكة الصليبية من ناحية، وفي الحصول على المكاسب المادية من ناحية ثانية، لذلك بدأت جماعات الصليبيين تشق طريقها صوب الشرق من فرنسا وانجلترا وإيطاليا وغيرها من دول غرب أوروبا([3]) وتؤكد المصادر أن عدداً كبيراً من هؤلاء القادمين الجدد كانوا من النساء والأطفال وغير المقاتلين مما يجعل هذه الحركة هجرة أكثر من كونها حملة عسكرية([4]).

وحتى يعوض الفرنجة النقص في القوي البشرية فقد أتبع ملوك المملكة الصليبية سياسة تهدف إلى تشجيع الهجرة الأوروبية إلى فلسطين، وإحلالهم محل السكان الأصليين عن طريق

([1]) الفيتري، تاريخ، ص23– 27.

([2]) Genevieve, B.B., op, cit, Acte No. 26, PP. 86 – 88. ولقد عددت الوثيقة أسماء هذه القرى وهي: عين قينيا، وكفر عقب، وبوبيل، بيت لقيا، والرام، والبيرة، وكفر الذيل(الديك)، وعين سينيا، وقلنديه، وبيت سوريك، وهيلمل، وعطارة بيريت، بيتونيا، بيت فوتير، وعرنوطية، وصبحه(خربة صبحه)، وهوبين(دير الهوا)، باريميتا(خربة الميتا)، وبيت علام (أم الميس)، زنيو(زانوح)، وقرية عورينت

([3]) الشارترى، تاريخ الحملة ، ص111. زابوروف، الصليبيون، ص127.

([4]) قاسم، آثر الحروب، ص233.

إنشاء قرى زراعية؛ فقد كان بعض المتعهدين يفاوضون السادة الإقطاعيين من أجل إحضار مستوطنين جدد لتوطينهم في المستوطنات والقرى الصليبية([1]) وكذلك عن طريـق إصـدار مراسيم تشجيع وتسهيل هجرة المسيحيين الأوروبيين إلى فلسطين والاستيطان فيهـا، ومـن ضمن هذه المراسيم، المرسوم الذي أصدره الملك بلدوين الأول الذي يهدد فيـه كـل سـادة الأرض الغائبين بفقد ممتلكاتهم وعقاراتهم، وإذا لم يحضروا قبل نهاية العام سوف يفقدون كل أملاكهم الإقطاعية ومساكنهم([2]) ولقد جاء سن هذا القانون عقب مغادرة الكثير من الفرنجـة مدينة بيت المقدس، حيث أن بعضهم غادرها إلى المدن الساحلية التجارية التي تم الاسـتيلاء عليها مؤخرا، بينما ذهب البعض الآخر إلى الأرياف برفقة أسيادهم الإقطاعيين وعلى هذا لم يكن فقدان الشعور بالأمن هو وحده الذي دعا الفرنج إلى ترك مدينة القـدس وإنمـا كـان للظروف الاقتصادية آثرها الواضح في هذا الجانب([3]).

كما تم تشريع قانون لوراثة الإقطاع حيـث إن إقطاعـات المملكـة الـصليبية كانـت تبذل للمقطع وسلالته من الورثة المباشرين وغير المباشرين، وكان هـذا التـشريع يهـدف إلى استغلال الأرض وتوظيف الموارد المالية للمملكة كمـا شـجع هـذا التـشريع عمليـة هجرة الأوروبيين إلى المنـاطق الـصليبية والاسـتيطان فيهـا([4]) خاصـة وأن أوروبـا شهدت في القرن الحادي عـشر المـيلادي الـسادس الهجـري ازديـاداً سـكانياً تـسبب في حدوث اضطرابات اجتماعية سواء في الريف أو في المـدن، حيـث سـاهمت الزيـادة السكانية في المناطق الريفية بإمداد المدن بعدد كبير من السكان، واسـتمرت هـذه الهجـرة الداخلية من الريف إلى المدن طوال فترة الوجود الصليبي في فلسطين، والتي دامت ما يقرب من قرنيين، ولقد كانت الحروب الصليبية والهجرة الأوروبية صوب المملكة الصليبية وغيرها من الأمارات الصليبية في الشرق منفذا لتصريف الفائض والزيادة السكانيـة في أوروبا([5]).

ولكن يبدو أن هذه الإجراءات التي اتخذتها المملكة الصليبية لم تكن كافية من أجل زيادة بنيتها السكانية فقد أشارت المصادر إلى أن اجتياح المسلمين لأمارة الجليل الصليبية خـلال أحداث معركة الصنبرة507هـ/1113م([6]) أدى إلى كشف نقطة ضعف المملكـة الـصليبية المتمثلة في قلة عدد السكان في المملكة.

وقد أدرك الملك بلدوين الأول تلك الحقيقة حيث "أن المدينـة المقدسة كانت خالية تقريباً

([1]) ريشار، تكوين، ص158.

([2]) الصوري، تاريخ،ج1، ص472.

([3]) الحياري، القدس، ص179.

([4]) براور، الاستيطان، ص93.

([5]) قاسم، الخليفة، ص74،75. براور، الاستيطان، ص99،100.المسيري، الموسوعة،ج2، ص125.

([6]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص151و153.ابن القلانس، ذيل، ص184-186.الصوري، تاريخ،ج1، ص549,548.

من السكان حيث لم يكن هنالك عددٌ كاف لحماية المداخل إلى المدينة، والدفاع عن الأسوار والأبراج من خطر هجمات معادية مفاجئة"([1]) ولتصحيح هذا الخلل قام الملك بلدوين الأول بتشجيع العناصر المسيحية المستقرة في شرق الأردن بالهجرة إلى بيت المقدس بعد أن كان سكان القدس المسيحيين قد غادروها إلى الأرياف أو انتقلوا منها إلى المراكز التجارية الساحلية قبل استيلاء الصليبيين على المدينة، وحتى الذين بقوا بها فقد هجروها، وذلك لان الفرنجة شكوا في أنهم كانوا متواطئين مع المسلمين([2]) ولقد تم العثور على المصدر السكاني هذا خلال حملات الملك بلدوين الأول العسكرية على مناطق شرق الأردن في سنوات 495هـ/1100م([3]) و509هـ/1115م([4]) حيث تعرف على السكان المقيمين في هذه المناطق فأعتبرهم ملائمين لمشروعه، لذلك "أرسل الرسل إلى هؤلاء الناس ووعدهم بتحقيق شروط أفضل لهم، وحاز خلال فترة قصيرة من الزمن على الرضي بقدوم بعضهم مع زوجاتهم وأبنائهم وقطعانهم ومواشيهم وجميع مقتنياتهم"([5]) كما هاجر كثيرون ممن لم توجه لهم الدعوة للهجرة إلى المملكة([6]) وقد منحهم الملك بلدوين جزءاً كبيراً من مدينة بيت المقدس حيث أقاموا في شمال شرق المدينة فيما كان يعرف باسم الحي اليهودي سابقا([7]).

ولاحظ الملك بلدوين الثاني قلة عدد سكان مدينة بيت المقدس التي تقل فيها المؤن فعمل بناءً على طلب البطريرك على تزويد المدينة بشكل أوفر بالمواد التموينية. فأصدر في أوائل سنة514هـ/1120م قرارا بإعفاء سكان المدينة من الضرائب المفروضة على السلع التي كانوا يتاجرون فيها؛ كما سمح للتجار من الأرمن والسوريان والبيزنطيين وحتى المسلمين بالحضور إلى المدينة وجلب الحبوب دون فرض أي ضرائب عليهم([8]) كما ألغى بلدوين الثاني الضرائب المفروضة على المكاييل والموازيين، كل ذلك لينعش الحياة الاقتصادية في المدينة،ويكون في نفس الوقت قد حرص على إرضاء البطريرك الذي لعبت مصلحته المالية دورا كبيرا ولقد حقق بلدوين الثاني من وراء إصدار هذا القانون أمرين: الأول تزويد المدينة بالمواد التموينية المعفية من الضرائب، والثاني تشجيع الهجرة وزيادة سكان المدينة([9]).

ولقد استمرت عمليات الهجرة الجماعية إلى فلسطين من كافة الجنسيات الأوربية والتي

([1]) الصوري، تاريخ،ج1، ص560.

([2]) الصوري، تاريخ، ص42. براور، استيطان اللاتين، ص59،58. النقر، التغيرات، ص16.

([3]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص110،109. الصوري، تاريخ ،ج1، ص489.

([4]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص158. الصوري، تاريخ،ج1، ص509، 560.

([5]) الصوري، تاريخ،ج1، ص561.

([6]) الحياري، القدس، ص180.

([7]) الصوري، تاريخ،ج1، ص561. أرنول، وصف، ص106.

([8]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص189. الصوري، تاريخ،ج1، ص588.

([9]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص189. الصوري، تاريخ ،ج1، ص588.

تقدر بعشرات الآلاف تضم مقاتلين وتجاراً وحجاجاً وأصحاب مهن للاستيطان في فلسطين([1]) ففي سنة521هـ/1127م أرسل الملك بلدوين الثاني هيو دي بانيز Hugh De Payens([2]) إلى الغرب الأوروبي لحث الأوروبيين على التوجه إلى المملكة الصليبية للمشاركة في محاربة المسلمين والاستيطان في المملكة([3]) وقام القديس برنارد رئيس دير كليرفور بمساعدة هيو من أجل تحقيق غرضه بتشجيع العناصر الأوروبية بالهجرة إلى فلسطين حيث أخذ يدعو أهل الغرب للانضمام إلى جماعة فرسان الداوية، حيث أنتقل هيو من فرنسا إلى انجلترا، وجمع الهبات، وحشد الفرسان، واستمر هيو دي بانيز في جولته الأوروبية حتى سنة 524هـ/1129م واستطاع أن يضم عدداً كبيراً من الفرسان إلى جماعته([4]).

وبعد سقوط الرها539هـ/1144م([5]) وتنازل زوجة جوسلين([6]) عمّا تبقي من ممتلكات لها في إمارة الرها للبيزنطيين في مقابل الحصول على دخل سنوي لها ولأولادها وذلك بعد استشارة الملك بلدوين الثالث([7]) هاجر العديد من سكان إمارة الرها إلى المملكة الصليبية، وقد أشار الصوري إلى هذه الهجرة الجماعية إلى المملكة الصليبية بقوله:" وذهب مع [بلدوين الثالث] جميع الناس الذين كانوا يرغبون بالرحيل....وهكذا أسرع الملك بالرحيل مع هذا الحشد الضخم من الناس غير المقاتلين"([8]).

وكان من نتائج تلك الهجرات أنها فرضت آثارها السلبية على سكان المناطق المحتلة حيث جري تفريغ سكاني لبعض المناطق؛ نتيجة النزوح القصري للسكان إلى مناطق أكثر أمنا يسيطر عليها المسلمون، وهو الأمر الذي أدي إلى تغير في البناء الديموغرافي في كثير من المناطق التي يسيطر عليها الفرنج بحيث تحولت الأقلية إلى أكثرية([9]) وبعد أن كانت فلسطين إسلامية الطابع تحولت إلى مملكة لاتينية الطابع([10]).

([1]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص194. قاسم، آثر الحروب، ص233،228. البكر، الاستيطان، ص11.

([2]) **هيو دي بانيز:** وهو فارس من مقاطعة شمبانيا بشمال فرنسا جاء مع الصليبيين في الحملة الصليبية الأولى وأشترك معهم في حصار مدينة بيت المقدس.سلامة، دراسات، ص48، هامش4.

([3]) الصوري، تاريخ،ج1، ص576، 577. سلامة، دراسات، ص59.

([4]) سلامة، دراسات، ص64،63.

([5]) إبن القلانسي، ذيل، ص279.

([6]) تولت بيتاريس زوجة جوسلين الثاني الوصاية على ولدها جوسلين الثالث عقب أسر زوجها جوسلين الثاني في545هـ/ 15 آيار1150م الذي بقي في سجن حلب حتى وفاته. ويذكر أن المناطق التي تنازلت عنها بيتاريس للبيزنطيين هي إعزاز ومرعش وعين تاب، وحصن البارة، والرواندان، وبرج الرصاص، وتل خالد، ودلوك، وغيرها من المناطق ، ابن القلانسي، ص310. ابن الأثير، الكامل،ج9، ص370،369.

([7]) الصوري، تاريخ،ج2، ص800. الجنزوري، إمارة الرها، ص334.

([8]) الصوري، تاريخ،ج1، ص801، الجنزوري، إمارة الرها، ص334.

([9]) قاسم، آثر الحروب، ص225، 233، 235.

([10]) المرجع نفسه، ص227.

3- الدعـــــــــم المــــــــــادي

كانت المملكة الصليبية تعتمد في المقام الأول لتثبيت وجودها في فلسطين على القوة البشرية التي ترغب في الاستقرار، وغرس جذورها في المناطق التي أحتلها الفرنجة، وعلى الـدعم العسكري والمادي الذي تقدمة أوروبا للمملكة الصليبية، وقد أفاضــت المــصادر العربيــة بالحديث عن الدعم العسكري والمالي الذي كانت تقدمة دول أوروبا إلى صليبي الشرق([1]).

ففي سنة508هـ/1114م قدمت ملكة صقلية مساعدة مالية إلى المملكة الصليبية أنقـذت خزينتها من الإفلاس، وتمكنت المملكة من دفع رواتب الجند المرتزقة([2]).

ولقد أضطر الحكام إلى فرض الضرائب وجمع الإعانات والتبرعات من رعاياهم مـن أجل تقدم الدعم المالي للمملكة الصليبية في فلسطين ففي سنة562هـ/1166م قرر كل مـن الملك هنري الثاني Henry II(549-585هـ/1154-1189م)ملك انجلترا ولويس الـسابع Louise VII(532-576هـ/1137-1180م) ملك فرنسا ضريبة عامة علـى رعايـاهم لمساعدة مملكة بيت المقدس الصليبية([3]) وقد حدد المرسوم الذي أصدره الملك هنري الثاني، الملكيات الخاضعة للضريبة، وهي المنقولات والدخول والأموال، كما حدد معدل الـضريبة فكل أتباع الملك هنري الثاني يدفعون بنسان عن كل جنيه لمدة سنة واحدة (1166م) وبنـساً واحد عن كل جنيه لمدة أربع سنوات تالية، أما الأفراد الذين لم تبلغ أملاكهم وحده التثمـين (جنيها واحد) فيدفعون بنسا واحدا كضريبة منزل([4]) أي أنه تـم جبايـة ضـريبة بمعـدل 240/1([5]) وقد بلغت حصيلة هذه الضريبة حوالي 30 ألف جنيها([6]).

وفي منتصف عام585هـ/1184م توجه كلٌ من بطريرك بيـت المقـدس هرقـل Heracls([7]) ومقدمي الإسبتارية والداويـة إلى غرب أوروبا لحث حكامهـا علـى تقـديم المساعدة المالية والعسكرية للمملكة الصليبية بعد أن تدهورت الأحوال الأمنية فـي المملكـة بسبب الضغط الحربي لصلاح الدين على المملكة([8]) وقد وعـد الملكـان الفرنـسي فيليـب

([1]) ابن القلانسى، ذيل، ص297. الأصفهاني، الفتح، ص208. ابن الأثير، الكامل،ج10، ص120و184.

([2]) بالار، الحملات، ص117، 118.

([3]) عطية، دراسات، ملحق رقم(1)، ص303- 307. ويندوفر، ورود التاريخ، ص228.

([4]) عطية، دراسات، ملحق رقم(1)، ص303- 307 .سميث، ماهي، ص46.عبد القوي، الانجليز، ص100.

([5]) بالار، الحملات، ص193.

([6]) عطية، دراسات، ص296.

([7]) **البطريرك هرقل:** فرنسي الأصل من مواليد مقاطعة أيفرجن جنوبي فرنسا، حضر إلى بيت المقدس بعـد أن أصـبح قسيـسا، تولي منصب رئيس شمامسة بيت المقدس564-571هـ/1169-1175م. ثم تولي رئاسة أسقفية قيـسارية571هـــ/1175م. وبعد وفاة البطريرك عموري أوف نسل؛ أنتخب هرقل ليخلفه في منصب البطريرك سن576هـ/1180م. كانت له علاقـات عاطفيه غريبة ومثيره للدهشة مع زوجه احد تجار نابلس حيث قام بالتأثير عليها وجعلها تحضر إليه في بيت المقـدس عـدة مرات، وقد حدث أن ذهبت إليه وكثت هناك خمسة عشر يوما بعد وفاة زوجها. مجهول، ذيل، ص297،299.

([8]) الصوري، تاريخ،ج2، ص1075. ديسيتو، صورة التاريخ، ص196. ويندوفر، ورود التاريخ، ص311، 312.

أغسطس Philip Augustas(576-620هـ/1180-1223م) والانجليزي هنري الثاني بتقديم مساعدة مالية كبيرة للصليبيين في الأراضي المقدسة، وكانت المساعدة التي وعدا بها هي الأموال التي تشكل عائد ضريبة عامة؛ قررا فرضها في بلديهما معا وهي الضريبة التي تم فرضها581هـ/1185م وقد نص مرسوم هذه الضريبة على أن تجبى لمدة ثلاث سنوات على الدخل والمنقولات، وأيضا العشر على صدقات الذين يموتون أثناء السنوات العشر التي تلي الرابع والعشرين من يونيو1185م([1]) وقد وتراوحت حصيلتها في انجلترا خلال عام واحد فقط ما بين ثلاثين إلى أربعين ألف جنيه([2]).

وفي أثناء جولة رئيس أساقفة صور، والوفد المرافق معه([3]) إلى الغرب الأوروبي عقب سقوط بيت المقدس على يد صلاح الدين، وذلك لاطلاع البابوية، وملوك أوروبا على ما لحق بالمملكة الصليبية "من القتل والسبي وخراب الديار"([4]) وطلباً للدعم العسكري والمادي لإعادة إحياء المملكة الصليبية، وأشارت المصادر الإسلامية إلى هذه السفارة فيقول ابن خلدون: "وارتحل بطريرك من القدس، وهم معه يستصرخون أهل الملة النصرانية من وراء البحر للأخذ بثأر القدس، فخرجوا... من كل بلد حتى النساء اللواتي يجدن القوة على الحرب، ومن لم يستطيع الخروج استأجر مكانه، وبذلوا الأموال لهم "([5]).

وعلى أثر ذلك قام الملكان الفرنسي والانجليزي بفرض ضريبة اشتهرت باسم"عشر صلاح الدين" سنة584هـ/1188م والتي تعد بمثابة علامة لخطوة هامة في تاريخ الضريبة في العصر الحديث، كما تعد نموذجا للضرائب السابقة، وقد حدد المرسوم الذي أصدره الملكان قيمة الضريبة بعشر الدخل وعشر قيمة المنقولات لمدة عام واحد، ويستثني من دفع هذه الضريبة الذين يشاركون بأنفسهم في هذه الحملة([6]) وحدد المرسوم تقدير الثروة الشخصية لدافعي الضرائب، حيث يقدر الشخص قيمة دخله وممتلكاته بالقسم على ذلك، ولان هذا القسم كان مشكوكا فيه، فان المحلف في الابروشية هو الشخص المكلف بتقدير قيمة كل ما يمتلكه الفرد، وإذا لم يقدر القيمة الحقيقية لممتلكاته يكون قَسَمهُ باطلاً، ويتعرض لعقوبة الحرمان، وتقوم لجنة مكونة من أربعة أو ستة أشخاص بتقدير قيمة ممتلكاته ويقسمون على

([1]) عطية، دراسات، ملحق رقم(2)، ص311،308. عبد القوى، الانجليز، ص106. سميث، ماهي، ص46، 47.

([2]) عطية، دراسات، ص296.

([3]) توجهت السفارة في صيف583هـ/1187م إلى الغرب الأوروبي وكانت مكونة من رئيس أساقفة صور جوسياس ومعه رئيس أساقفة قيسارية ومجموعة من الرهبان وقائد هيئتي فرسان الداوية والإستبارية. ابن الأثير، الكامل،ج10، ص133.ابن خلدون، تاريخ،ج5، ص379.

([4]) إبن كثير، البداية،ج12، ص351.

([5]) إبن خلدون، تاريخ،ج5، ص379.

([6]) ينظر ملحق رقم(4)، ص302. عبد القوى، الانجليز، ص110،109.

صحة هذا التقدير، وكانت اللجنة التي تقدر قيمة الممتلكات هي نفسها التـي تقـوم بجبايـة الضريبة([1]) ولقد بلغ حصيلة عشر صلاح الدين في إنجليزا حوالي 130 ألف جنيه؛ تم جباية 70 ألف جنيه من رعايا الملك المسيحيين و60 ألف من اليهود([2])

أما على صعيد المملكة الصليبية فقد تم جباية ضريبتين من أجـل مواجهـة المقاومـة الإسلامية المتزايدة ضد المملكة، ففي عام562هـ/1166م أقر المجلس الصليبي المنعقد في نابلس برئاسة الملك عموري الأول فرض ضريبة مقـدارها10%علـى جميـع أمـلاك الصليبيين، وقد تم فرض هذه الضريبة استعدادا لحملته على مصر كجـزء مـن التـصدي لاستعدادات نور الدين زنكي للتوجه نحو الديار المصرية والأخطار التي كانت تهدد المملكة في حال نجاح مشروع نور الدين الوحدوي بضم مصر([3]) وفي فبرايـر587هـ/1183م اجتمع المجلس العام لمملكة بيت المقدس لدراسة الموقف الصليبي في المملكة بعـدما تمكـن صلاح الدين من تحقيق نجاحات كبيرة في إقليم الجزيرة([4]) تمهيدا لإخضاع الـزنكيين فـي الموصل([5]) وحلب([6]) حتى يتفـرغ للصليبيين تماماً بعد أن يحيط بأملاكهم من كل جانب([7]) ورأي ذلك المجلس الصليبي بعد أن تابع نجاحات صلاح الدين بقلق بالغ أن تكاليف الـدفاع المتزايدة عن المملكة تستنفذ كل مواردها لذلك تقرر فرض هذه الضريبة لتـوفير الأمـوال اللازمة للدفاع عن المملكة الصليبية([8]).

ويقرر المرسوم أن قرار فرض الضريبـة قد أصدر بموافقة الجميع، فجاء القرار الذي أصدره المجلس الصليبي المنعقد في بيت المقدس " بموافقة وإجماع عام من قبل جميع النبلاء

([1]) انظر ملحق رقم(4)، ص302.عبد القوى، الانجليز، ص110.

([2]) بالار، الحملات، ص194.

([3]) الصوري، تاريخ،ج2، ص895..كانت الحملة التي فرض عموري الأول الضريبة من أجل القيام بها على مصر هي الفرصـة الثالثة للتنافس بين الطرفين وكانت تلك الحملة في ربيع ثاني 562هـ/ يناير 1167م. إبن شداد، النوادر، ص25، 27. ابن الأثير، الكامل،ج10، ص12- 15.

([4]) **إقليم الجزيرة:** يقع بين دجلة والفرات ويشمل ديار مضر، وديار بكر، وهي أرض خصبة، واسعة الخيرات بها مدن، وحصون وقلاع كثيرة من مدنها، الرها، وحران، ونصيبين، وسنجار، ورأس العين، والرقة، والخابور، ومـاردين، وآمـد، والموصـل .الحموي، معجم،ج2، ص134.ابن العديم، زبده، ص388، 389.

([5]) **الموصـل:** وهي من المدن القديمة، وأسم الموصل عربي الاشتقاق، ومعناه الموقع الذي يصل محلا بالآخر وبلـده بـالأخرى، وبسورها عده أبواب، وتقابلها في الجانب الشرقي مدينة نينوى التاريخية، وصفها ابن جبير بقوله"هذه عتيقة ضـخمة حـصينة فخمـة قـد طالـت صـحبتها للـزمن فأخـذت أهبـة اسـتعدادها لحـوادث الفـتن".إبـن جبيـر، الرحلـة، ص196. الحموي، معجم،ج2، ص 223، 224

([6]) **حلـب:** يعود بناؤها إلى قبل أربعة آلاف سنة قبل الميلاد؛ ورد أسمها بالوثائق المصريـة، والأشورية باسـم حربو أو حلمـن وسميت في الفترة اليونانية باسم بيرويا، وهي مدينة عظيمة، واسعة وهي قصبة جند فنسرين، وصفها ابن جبير بقولـه " بلـد قدرها خطير، وذكرها في كل زمان يطير خطابها من الملوك كثير.. لها قلعة شهيرة الامتناع بائنة الارتفاع معدومـة الـشبه والنظير من القلاع، ابن جبير، الرحلة، ص196.الحموي، معجم،ج2، ص282، 283.ابن العديم، زبده، ص7- 12.

([7]) الصوري، تاريخ،ج2، ص1048. ابن شداد، النوادر، ص31- 42.ابن العديم، زبده، ص359- 403.

([8]) الصوري، تاريخ،ج2، ص1054.

المدنيين والكنسيين وبموافقة سكان مملكة القدس لمواجهة الضرورات الحالية الملحـــة"([1]). وأكد المرسوم المدى العام للضريبة، فالضريبة عامة، ويخضع لها كل سكان مملكـــة بيـــت المقدس الصليبية دون استثناء([2]).

كما حدد المرسوم أنواع الملكيات الخاضعة للضريبة فقد بدأ بتحديد الملكيات الخاضـــعة للضريبة والتي يملكها سكان المدن، وحدد المرسوم هذه الملكيات في الأموال، والمنقـــولات والدخول، والقروض([3]) كما حدد المرسوم معدل الضريبة فكل سكان المـــدن فـــي المملكـــة الصليبية يدفعون "دينارا واحدا عن كل مئة دينار" يملكونها أو ما يعادلها من المنقـــولات أو القروض المستحقة للدفع، وديناريين عن كل مائة دينار من الدخل(العائدات)([4]).

وقرر المرسوم التعامل مع الأفراد الذين لم تبلغ أملاكهم وحده التثمين، ففي هذه الحالـــة يدفع سكان المملكة دينارا واحدا كضريبة منزل أو مأوي، وإذا كان سكان المملكة الـــصليبية الذين لا يكون في مقدورهم دفع ضريبة المأوي(دينارا واحدا) يجبى مـــنهم نـــصف دينـــار أو حسب مقدرتهم المالية([5]) ولم يكن تحديد القدرة المالية يتم بواسطة الأفراد أو كما يتراءى لهم؛ لذلك نص المرسوم على أن يقوم الأربعة رجال المكلفون بجمع الضريبة في كل مدينـــة بتقدير ثروة دافع الضريبة " بإخلاص وصدق " أما إذا اعترض شخص على ما يحدده مقدرو وجامعو الضريبة من قيمة لثروته، وفرضت عليه ضرائب أكثر من دخله فعليه أن يحدد هو هذه القيمة ويقسم على صحة تقديره لثروته([6]) وحدد المرسوم أوجه الأنفاق للضريبة " ينبغي ألا ينفق المال المجموع ..... على الأمور العادية للمملكة بل فقط على الدفاع عن المنطقـــة، وبقدر ما يدوم هذا المال "([7]).

ويمكن القول أن انهيار المملكة وإعادة إحيائها عقب صلح الرملة([8]) تطلب أموالا طائلة من أجل إعادة بناء ما دمرته الحرب الـــصليبية الثالثـــة وخاصـــة بعـــد انتهـــاج صـــلاح الدين لسياسة تدمير المدن والقلاع والحصون، فمثلا بناء قلعة الأحزان كلف الـــصليبيين مـــا يزيد عن مائة ألف دينار([9]).

([1]) الصوري، تاريخ،ج2، ص1055.

([2]) المصدر نفسه،ج2، ص1055.

([3]) المصدر نفسه،ج2، ص1055.

([4]) المصدر نفسه،ج2، ص1055.

([5]) المصدر نفسه،ج2، ص1055.

([6]) المصدر نفسه،ج2، ص1055.

([7]) المصدر نفسه،ج2، ص1056.

([8]) الأصفهاني، الفتح، ص354،353. ابـــن شـــداد، النـــوادر، ص190– 192. أبـــو شـــامة، الروضـــتين،ج4، ص191،190. ابن واصل، مفرج،ج2، ص404.وعن صلح الرملة انظر شاهين، صلح الرملة، ص367– 393.

([9]) ابن شاهنشاه، مضمار، ص24، 25. أبو شامة، الروضتين،ج3، ص18.

وفي مؤتمر مجمع لاتيران المنعقد في20رجب612هـ/11نوفمبر1215م والذي حضره عدد كبير من الأساقفة، وسفراء مندوبين عن الرؤساء والملوك، دار النقاش الرئيسي في المؤتمر حول العمليات العسكرية من أجل استرداد الأرض المقدسة، وكيفية جمع المال([1]). وبدا البابا بنفسه، وقدم ثلاثين ألف جنيه علاوة على ثلاث آلاف مارك([2]) فضي كما فرض على كافة الكرادلة في الكنيسة أن يقدموا عُشْرَ دخلهم([3]) ومنذ ذلك الوقت أصبحت ضريبة العشور من أجل دعم المملكة الصليبية ماليا وعسكريا أمرا مقررا باستمرار أما باقي الطوائف الدينية فيتحملون 5% من دخلهم لمدة ثلاثة سنوات كما طالب البابا من الذين سوف لا يذهبون مع الحملة بكافة طبقاتهم أن يمدوا الصليبيين المتوجهين مع الحملة بالمصاريف الضرورية لمدة ثلاث سنوات([4]) وفي زيارة يوحنا برين إلى فرنسا سنة620هـ/1223م برفقة المندوب البابوي بيلاجوس أوصي الملك فيليب أغسطس بمنح يوحنا مبلغ أربعمائة ألف مارك لصالح مملكة بيت المقدس، كما أوصي بمثل ذلك المبلغ لكل من الاسبتارية والداوية([5]).

كانت الحملة الصليبية السابعة التي قام بها الملك لويس التاسع Louise IX ملك فرنسا قد قدرت تكاليفها بحوالي(570، 537،1) جنيها أو أكثر من دخله السنوي ستة مرات، أنفق منها أكثر من مليون جنيه في فلسطين بعد هزيمته في مصر([6]) ولقد ظل الملك لويس التاسع يرسل إعانات مالية منظمة للمملكة الصليبية تصل قيمتها إلى أربعمائة ألف جنيه سنويا([7]).

وفي سنة669هـ/1270م أقرض الملك لويس التاسع الأمير إدوارد Edward([8]) سبعون ألف جنيه لكي يسهل رحيل الحملة العسكرية إلى الشرق في الوقت الذي تم فيه جباية مئة ألف جنيه كضريبة منازل من مقاطعة بواتية لتمويل الحملة ودعم المملكة الصليبية([9]). نستخلص من ذلك إلى نتيجة مفادها أن فرنسا وانجلترا تحملت الدور الأكبر في دعم المملكة الصليبية مالياً مساهمةً منها في تدعيم وترسيخ الاستيطان الفرنجي الصليبي في فلسطين.

([1]) ويندوفر، ورود التاريخ،ج2، ص681، 682. فابري، جولات،ج4، ص1155.

([2]) **المارك:** كان المارك الفضي يساوى قيمة الجنيه الانجليزي، وكانت قيمته مرتفعة بالنسبة، للبيزنت حيث أن المارك الفضي يساوى40 بيزنت من العملات التي سكها الصليبيون في الشام Benvenisti, M.,op.cit.,P.428,N.66

([3]) ويندوفر، ورود التاريخ،ج2، ص683،682. ويذكر انه لأول مرة قرر البابا أونسنت الثالث في مجمع اللاتيران سنة1215م على رجال الدين ضريبة العشور لصالح الحروب الصليبية، فأضحت ضريبة العشور منذ زمن البابا جريجورى التاسع تألف جانبا كبيرا من موارد البابا المالية لدعم الحروب، والمملكة الصليبية، باركر، الحروب، ص147، 148.

([4]) ويندوفر، ورود التاريخ،ج2، ص683،682.

([5]) رنسيمان، تاريخ،ج3، ص310.

([6]) سميث، ما هي، ص46.

([7]) بالار، الحملات، ص241.

([8]) **الأمير إدوارد:** وهو الابن الأكبر للملك هنري الثالث قام بحملة عسكرية إلى الأراضي المقدسة سنة 1270- 1274م، وتولي حكم انجلترا بعد وفاة أبيه من 1272-1307م،. عبد القوي، الانجليز، ص218، 219.

([9]) بالار، الحملات، ص241.

ت- أهداف الاستيطان الفرنجي الصليبي:

منذ أن وطأت أقدام الفرنجة فلسطين كان هدفهم الأساسي هو السيطرة على الأرض([1]) وقاموا بتوزيع الأراضي التي استولوا عليها إلى إقطاعات، وذلك بتوزيعها على كبار الأمراء والفرسان حتى يثبتوا سيطرتهم على الأرض المحتلة وسكانها([2]) وحاولوا طمس معالم التراث الإسلامي لفلسطين وتغيير هوية المنطقة بتغيير واقعها السكاني، وذلك مـن خـلال فـرض سياسة الأمر الواقع بزرع المستوطنات الصليبية في أنحاء فلسطين، وطرد السكان الأصليين كما حدث في قرى القبيبه([3]) وكفر مالك وغيرها ([4]).

كما قام الفرنجة الصليبيون بجهود واسعة لحماية الأراضي التي سيطروا عليها وحمايـة المستوطنين الفرنج بإقامة سلسلة من القلاع والحصون والدفاعات في منـاطق إسـتراتيجية بهدف تمزيق المنطقة جغرافيا وسياسيا، ولمنع الاتصال بين أبناء الـشام ومـصر وإعاقـة الوحدة بينهم، وذلك من أجل تأمين وجودهم وسط المحيط الإسـلامي المعـادى، ولقـد أدت تلك السياسة إلى تغيير معالم الأرض وإفقادهـا هويتهـا الإسـلامية([5]) ولا شـك فـي أن الصليبيين أدركـوا أن القاعدة السائدة في عـصرهم هـي الـسيطرة علـى القـلاع مـن أجل السيطـرة علـى الأرض([6]).

ونظرا لأهمية القلاع والحصون فقد واصل الصليبيون تطبيق السياسة الأمنية القائلة أن الأقلية التي تسعي إلى حكم أغلبية معادية لها ليس أمامها من سبيل لضمان وجودها سوى أن تتمركز في أعداد صغيرة نسبيا، وفي أماكن حصينة سواء كانت مدنا أو قلاعاً، وعلى الرغم من ذلك فإن هذه الوسيلة لم تكن كافية لأحكام السيطرة الصليبية على الريف الفلسطيني، وانه لضمان الاتصال، وجعل الوجود الفرنجي الصليبي في فلسطين حقيقة ملموسة فإن الفرنجـة الصليبيين أقاموا شبكة من الطرق الرئيسية والثانوية في أنحاء المملكة، وأقـاموا الحـصون ونقاط المراقبة، وقد كان من السهل أن تتصل القلاع والحاميات العسكرية من الجبـل إلـى السهل عن طريق الإشارات بالنيران أو الإشارات الدخانية أو الحمام الزاجل، وهو أسـلوب تعلمه الصليبيون من المسلمين، وبهذه الوسائل كانت الأخبار تنتقل بسرعة من شرق المملكة

([1]) سميل، الحروب، ص27.

([2]) براور، الاستيطان، ص168، 169.

([3]) **القبيبة:** تم إنشاؤها على أراضي قرية بيت سوريك، وهي تقع على بعد سبعة أميال، وترتفع عن سطح البحر نحو 771متـر، وتحيط بالقرية عدد من الخرب، وذكر أن مدينة عمواس التي ورد ذكرها في العهد القديم قد أقيمت على أنقاض قرية القبيبـه وتوجد في فلسطين ثلاث قري تحمل أسم القبيبه؛ الأولي من أعمال الرملة، والثانية من أعمال الخليل، والثالثـة مـن أعمـال القدس. الدباغ، بلادنا، ق2،ج8، ص100،98. البيشاوي، الممتلكات، ص186، هامش5

([4]) انظر، ص95، من الدراسة.

([5]) عوض، الحروب، ص95.

([6]) المرجع نفسه، ص76. انظر خريطة رقم(4) ص308.

الصليبية إلى غربها حيث مدن عكا ويافا، "ولقد كانت المواقع الصليبية الحصينة بمثابة مؤسسات عسكرية ثابتة على حين كان الجيش هو العنصر المتحرك"([1]).

وإلى جانب سياسة التوسع الاستيطاني التي شغلت القادة الصليبيين فقد برزت قضايا آخري لا تقل أهمية عن الاستيطان، كان يأتي في مقدمتها سبل مواجهة نقص العنصر البشري الفرنجي، وما نتج عنه من شيوع الخوف واضطراب الأمن مع بداية الاستقرار الفرنجي الصليبي في فلسطين وهو الأمر الذي كان المؤرخ وليم الصوري قد حذر القادة الصليبيين من خطورته على المشروع الاستيطاني الصليبي، ويصف الصوري الوضع الأمني في الأراضي المحتلة بقوله " وكان أي واحد من المسيحيين يمشي على طول الطريق العام دون إتخاذ حذر مناسب حيث يكون عرضةً لان يقتله المسلمون أو يأسروه ويأخذوه عبدا لهم"([2]) وقال في موضع آخر"كانت المدن التي أصبحت تحت سيطرتنا قليلة، وكانت تقع وسط العدو بحيث لم يستطع المسيحيون الانتقال من واحده لآخري دون خطر كبير"([3]).

ولقد حرص الصليبيون على تشييد قلاعهم في مواقع ذات مميزات طبوغرافية متعددة على نحو يضمن لهم في النهاية تميز القلعة المشيدة الأمر الذي يدعو إلى التصور أن القلاع لم تشيد إلا بعد دراسة دقيقة للموقع الجغرافي الأكثر تميزاً وملاءمة لإقامة مثل تلك القلاع والحصون واحتياجات الصليبيين الحربية وإمكانياتهم وإمكانيات خصومهم، لذلك يمكن القول أن الدقة التي اختار بها الغزاة مواضع إقامة القلاع "توضح لنا كيف تفاعل المشروع الصليبي مع الواقع الجغرافي"([4]) فأوضح وليم الصوري أن القيادة الصليبية أدركت ضرورة استعمال القلاع الحربية، وذلك بعد دراسة وصفت بالطويلة من أجل وقف غارات المسلمين، فقد كانت القلاع بمثابة مستودعات لحشد الجنود من أجل أن يتحركوا في أسرع وقت لمواجهة الخطر المحدق بالمملكة، إذ أشار إلى أنه بإمكان القوات الصليبية أن تنجح بسهولة من داخل تلك القلاع والحصون أن تواجه في يسر، ومن داخل موقعها القريب غارات الأعداء، ومن بعد ذلك يمكن استخدام هذه القلاع والحصون من أجل شن الهجمات، بمعنى أن الصوري أدرك أهمية القلاع المشيدة في حالتي الدفاع والهجوم، ودورها في كسب مواقع جديدة تضم لحساب الغزاة الصليبيين، وتضعف من قدرات المسلمين العسكرية([5]).

ولقد أوضح الصوري أنه بالنسبة للمنطقة الجنوبية من المملكة أتجه الصليبيون إلى أقامة

([1]) براور، عالم، ص151. ويشير براور إلى أن نمط الاستيطان الصليبي يمثل إحدى ضرورات الأمن، إذ كان الأمن العسكري هو الباعث الموجه لحياة الصليبيين في فلسطين، والضمان الوحيد لاستمرارية وجودهم .براور، الاستيطان، ص340،341.

([2]) الصوري، تاريخ،ج1، ص471.

([3]) المصدر نفسه،ج1، ص471.

([4]) عوض، دراسات، ص8.

([5]) تاريخ،ج2، ص682، 684 .

القلاع الحصينة من أجل مواجهة الخطر المصري الـذي كـان " كـالتنين ذي الـرؤوس المتعددة "([1]) وهذا يعنى أن حامية عسقلان قد أثبتت فعاليتها وأدرك الـصليبيون ضـرورة القضاء عليها بحل حاسم وناجح، وذلك تجنبا لحرب استنزاف طويلة لا قبل لهم بها، وذلـك من خلال محاصرة عسقلان بطوق من القلاع منهـا قلعـة يبنـه 536-537هـ/1141-1142م([2]) وقلعة بيت جبرين532- 539هـ/1137- 1144م([3]) وقلعة الصافية 542-545هـ/1147- 1150م([4]) وقلعة غزه 544- 545هـ/1149- 1150م([5]).

ويذكر الصوري أن تشيد الصليبيين لقلعتي بيت جبرين ويبنه حقق لهم تقدما كبيرا فـي مواجهة الغارات التي تقوم بها حامية عسقلان الفاطمية، وأحبط الصليبيون بذلك مـشاريعهم الهجومية ضدهم وأوضح كذلك أن الصليبيين بعد أن عانوا من هجمات حامية عسقلان، وبعد أن كانوا هم أنفسهم في موقف دفاعي تحول بفضل أقامة تلك القلاع إلى الهجوم([6]).

ولعل ما أورده الصوري عن قلعة تل الصافية يبين حقيقة أهداف الصليبيين مـن وراء إقامة مثل هذه القلاع، فيقرر أنه تم اختيار الموقع على بعد ثمانية أميال من عسقلان، بحيث يكون قريبا من القلعتين السابقتين(يبنه، وبيت جبرين) اللتان شيدتا في مواجهـة عـسقلان، ويبدوا أن الصليبيين بإقامتهم لثالث قلعه في المنطقة، وخلال سنوات قليلة في مقابـل مدينـة عسقلان أرادوا بذلك تشييد خط دفاعي من القلاع الحصينة يؤدي في النهايـة إلـى فـرض السيادة الصليبية عليها([7]) ومن زاوية آخري أشار الصوري إلى مميزات الموضع المشيد فيه القلعة ذا أقيمت على جبل عال بالمقارنة بالأرض المجاورة والأكثر استواءً "وكانت النتيجـة أن بدأ الذين كانوا يقيمون في المنطقة المجاورة يضعون ثقة كبيرة في هذه القلعة إضافة إلى المعقلين الآخرين كما قامت حولها ضواحٍ كبيرة وكثيرة، وسكنت أعداد كبيرة مـن الأسـر هناك إضافة إلى مزارعي الحقول، وأصبحت المنطقة بأسرها أكثر أمنا لأن الموقـع كـان مشغولا، وتوفرت به وافر المؤن لها وللمنطقة المحيطة بها "([8]).

كما شيد الصليبيون عددا من القلاع الصليبية بهدف توسيع الحدود الـصليبية، وإحكـام السيطرة على المناطق التي تم احتلالها، وللدفاع عن حدود المملكة الصليبية([9]) وكذلك مـن

([1]) الصوري، تاريخ،ج2، ص682.

([2]) الصوري، تاريخ،ج2، ص728. عبد الهادي، عسقلان، ص205. عوض، دراسات، ص 79- 81.

([3]) المصدر نفسه،ج2، ص683. عبد الهادي، ص202،203. عوض. دراسات، ص77،78.

([4]) المصدر نفسه،ج2، ص729. عبد الهادي، عسقلان، ص205. عوض، دراسات، ص82،85.

([5]) الصوري، تاريخ،ج2، ص794.الفيتري، تاريخ، ص45، عطا الله، نيابة غزه، ص163- 165.

([6]) تاريخ،ج2، ص729.الفيتري، تاريخ، ص46.

([7]) الصوري، تاريخ،ج2، ص729.

([8]) المصدر نفسه،ج2، ص729.

([9]) الشارترى، تاريخ الحملة، ص158.الصوري، تاريخ،ج1، ص559.الفيتري، تاريخ، ص61.

أجل تفكيك المنطقة جغرافيا، وتمزيق وحدة المسلمين، ومنع أية أمكانية للتعاون المشترك بين الجماهير الإسلامية في مواجهة الأخطار المشتركة فعمل الصليبيون على التفريق بين مصر والشام على نحو خاص من أجل أن تبقي كيانات المنطقة تعاني من حالة التفكك والتشرذم، وتتعامل كل قوة مع الصليبيين بصورة منفردة ومنعزلة، على نحو يدعم احتلال الصليبيين للمنطقة، ويكشف أبو شامة عن هذا المخطط بقوله:"اقتضى رأي الفرنج أن يرعبوا المسلمين في كل ناحية خوفا من اجتماعهم على جهةٍ واحدة"([1])

كانت مملكة بيت المقدس جزءاً لا يتجزأ من رؤية التجزئة الصليبية للمنطقة العربية، وكانت عملية التجزئة والتشرذم شاملة، وذلك من أجل إشعار المسلمين بخطورة الضغط الاستعماري الصليبي للمنطقة([2]) ومن أجل تحقيق ذلك الهدف المنشود أقام الفرنجة الصليبيون عدة قلاع حصينة، ومن أمثلة ذلك قلعة الشوبك509هـ/1115م([3]) وقلعة الكرك([4]) سنة537هـ/1142م/([5]) ولتعزيز السيطرة الصليبية على منطقة شرق نهر الأردن الإستراتيجية المتمثلة في الأغوار([6]) وخاصة الجزء الجنوبي الذي يعرف باسم وادي عربه، قام الصليبيون ببناء سلسة من القلاع الصغيرة على امتداد الطريق الرئيسي العام، وقد امتدت سبع قلاع([7]) من الشمال إلى الجنوب، وذلك من أجل السيطرة على الطريق التجاري الذي يربط مصر بالشام، والذي يمتد من بلاد الشام مرورا بالسهول الغربية لنهر الأردن ثم شرقي البحر الميت وصولا إلى آيلة على رأس خليج العقبة، ويتفرع الطريق منها إما إلى الحجاز أو إلى مصر، وهو طريق تجاري وعسكري([8]) علاوة على أنه طريق الحج الرئيسي الذي يعرف باسم درب الحجاج([9]) وبهذه السلسة من القلاع قطعوا الطريق البرى الواصل بين مصر والشام والعراق والحجاز عبر شبه جزيرة سيناء([10]).

([1]) أبو شامة، الروضتين،ج3، ص18.

([2]) عوض، الحروب، ص25– 28.

([3]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص157، 158.الصوري، تاريخ،ج1، ص560،559.الفيترى، تاريخ، ص61.

([4]) **الكرك:** كلمة أرمية الأصل بنيت ما بين عامي860– 850 ق.م وهي تقع على تل مرتفع وحصين عرفت الكرك قديما باسم قير حارس، وذكره ابن جبير بأنه أعظم حصون النصارى وهو سرارة أرض فلسطين وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة ينتهي إلى أربعمائة قرية. ابن جبير، الرحلة، ص224. الحموي، معجم؛ج3، ص370.غوانمه، إمارة الكرك، ص47، 48.

([5]) الصوري، تاريخ،ج2، ص725.غوانمه، إمارة الكرك، ص66،63.بخيت، مملكة الكرك، ص5–7.

([6]) **الأغوار:** سمي بالأغوار لانخفاضه عن الأرض الواقعة إلى الغرب والشرق منه، والمتمثلة بجبال فلسطين الشرقية والغربية ومعظم أجزاءه تنخفض عن سطح البحر، ويمتد من بحيرة الحولة شمالا إلى آيلة عن البحر الأحمر جنوبا بطول(400كم)، ويسمي الجزء الممتد من الطرف الجنوبي للبحر الميت إلى آيلة، وادي عربة ويبلغ طوله(168كم) ويتراوح عرضه مابين(15–30كم) وتضم أراضي الغور بحيرات فلسطين الثلاث الحولة وطبريا والبحر الميت ويجري نهر الأردن في الجزء الشمالي منه.الحموي، معجم،ج1، ص148،147.الدباغ ، بلادنا، ق1،ج1، ص61و62.

([7]) **القلاع السبع:** هي قلعة الكرك، وقلعة الطفيلة التي تبعد عن قلعة الكرك جهة الجنوب 25 ميلا وقلعة الشوبك على بعد 22 ميلا جنوب قلعة الطفيلة، وقلعة هرمز التي تبعد عن الشوبك 25 ميلا ثم قلعة سيلا، وقلعة النبي موسي إلي تبعد عن العقبة60ميلا، بادربون، الاستيلاء على دمياط، ص63. براور، الاستيطان، ص342.

([8]) بادربون، الاستيلاء على دمياط، ص63. Benvenisti,op.cit.,P..317. باركر، تاريخ، ص46.

([9]) ابن الأثير، الكامل،ج1، ص143.غوانمة، التاريخ الحضاري، ص84، 85. براور، عالم، ص53.

([10]) المقريزي، الخطط،ج1، ص632.عاشور، شخصية الدولة، ص35. شاهين، قلعة جزيرة فرعون، ص500.

أما المنطقة الشمالية الشرقية وتحديداً المنطقة الممتدة بين سفوح جبل الشيخ([1]) شمالاً والبحر الميت جنوباً فقد أقام الصليبيون عددا من القلاع، وذلك من أجل السيطرة على الطريق الرئيسية، وخطوط التجارة الدولية بين داخل بلاد الشام وسواحله الجنوبية، ولقد شملت المنطقة على ثلاث ممرات طبيعية عبر نهر الأردن تربط بين سوريا والأردن(الحالي) من جهة، وفلسطين ولبنان من جهة أخرى([2]).

هكذا شيد الغزاة الصليبيون العديد من المستوطنات والقلاع حيث حوطت المملكة الصليبية نفسها بسلسلة من القلاع والحصون التي شيدت في مناطق إستراتيجية هامة بالقرب من المسالك والمنافذ والضروب المؤدية إلى قلب فلسطين، وقد امتاز بعضها بالطابع العسكري من أجل المساعدة في حماية الاستيطان الصليبي في فلسطين، أما البعض الآخر فكانت ذات طابع اقتصادي، وقد أسهمت تلك المستوطنات والقلاع في زيادة مساحة الرقعة الزراعية في فلسطين إلى جانب تنظيم الأراضي الزراعية تنظيماً يتفق وحاجة الغزاة من المحاصيل الزراعية([3]) وتحصيل الضرائب، ولقد عبر الصوري عن ذلك الهدف بقوله" ويمكن للقلعة في هذا المواقع حماية الحقول الواقعة دونها، وهي حقول كانت حراجية، كان على المملكة مهمة حمايتها جميعا من غارات العدو"([4]).

وأوضح الصوري الأهداف الصليبية من وراء الاستيطان الفرنجي في فلسطين فذكر الأهداف الصليبية من بناء قلعة الداروم بقوله " كان الملك قد بني هذا الحصن لكي يوسع حدوده، وكان.. باستطاعته أن يجمع بكل سهولة من هذا الموقع العائدات الكاملة المفروضة سنوياً، من سكان القرى المحيطة...كما كان يمكن أيضا فرض ضريبة ثابتة على المسافرين المارين على الطريق"([5]).

كما كانت تلك القلاع تعمل على وقف محاولات المسلمين للتسلل وإلحاق الخراب الاقتصادي بموارد أعدائهم الزراعية، لذلك وفرت هذه القلاع للسكان عنصر الأمن الذي كان يدفعهم لاستمرار التشبث بالأرض، وزراعتها طالما أن القيادات السياسية الصليبية قادرة على توفير الحماية لهم، في ظل قلاع حصينة في مواجهة المسلمين([6]) فقد كان

([1]) **جبل الشيخ** :عُرفَ الجبل بأكثر من اسم فأطلق عليه الكنعانيون اسم سيرون بمعني الذي يذوب، وذكره الأموريون باسم سنير بمعني النور، وذكره الأشوريون باسم سينيرون، كما عرف باسم جبل الثلج جبل سعير، وذكره الرحالة الأوروبيون باسم جبل حرمون أو جبل لبنان، ويمتد هذا الجبل بطول 32كم من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، ويبلغ ارتفاعه نحو 2018م. المقدسي، أحسن، ص140.دانيال، وصف، ص63.بورشارد، وصف، ص65.الدباغ، بلادنا، ق1،ج1، ص63، هامش2.

([2]) براور، الاستيطان، ص346. الحيارى، حصن بيت الأحزان، ص40.

([3]) البيشاوى، دراسة مقارنة، ص99.

([4]) الصوري، تاريخ،ج1، ص559.

([5]) المصدر نفسه،ج2، ص950.

([6]) عوض، التنظيمات، ص79.

عنصر القوة العسكرية هو الأساس الذي استندت إليه المملكة الصليبية في فلسطين، وكان أحد مظاهر التعبير عن تلك القوة وترجمتها، السيطرة على الأرض، وبناء القــلاع والحــصون عليها، وذلك إستجابه لدواعي الصراع مع المسلمين، وحفاظا على الأمن حيث كانت قــضية الأمن العسكري، كما يقول براور"هي الباعث الموجه لحياة الصليبيين في فلــسطين والــشام باعتبارها الضمان الوحيد لاستمرارية وجودهم"([1]) حيث أصبح شغل المملكة الصليبية فــي فلسطين أن توفر جهودها من أجل الحفاظ على أمن الصليبيين، وكان الاستيطان الــصليبي، وإقامة القلاع والحصون يمثل أحدي ضرورات الأمن لهذا فقد أنشأوا منظومة واســعة مــن القلاع والحصون التي انتشرت في جميع أنحاء فلــسطين بهــدف تثبيــت وجــودهم علــى الأرض الفلسطينية([2]).

وهكذا نلاحظ أن القلاع الصليبية قد تطورت وظيفتها تدريجيا فقد انتقلت مــن وظيفــة التوسع والاحتلال إلى وظيفة تامين الحدود، ونظراً للتفوق العددي للمسلمين كان على الفرنجة الصليبيين أن يظلوا أقلية في حالة حرب مستديمة، فقد أملــي علــيهم المنطــق والحــذر أن يتركزوا في مواقع محصنة، بحيث صارت هذه هي الصفة المميزة للمملكة الــصليبية فــي فلسطين([3]) ووصف القاضي الفاضل أساليب الفرنجة القتالية وحاجتهم لبناء القــلاع بقولــه "وأعلم أن الفرنج قد تسللوا لواذاً وتعللوا بالحصون احتجازا ولياذاً، وإنهم لا يقاتلون إلا فــي قري محصنة([4]) ويمكن استنتاج تكامل البعد الاستيطاني والبعــد العــسكري فــي القــلاع والمستوطنات الفرنجيــة بأن كل واحد منهما يخدم الآخر على النحــو التالــــــــــــي:

1- تشارك المستوطنات والقلاع في عملية البناء العسكــري الدفاعي وخصوصا فيما يتعلــق بتأمين الحدود الخارجية والمناطق الداخلية الحيوية.
2- تشكل المستوطنات والقلاع قواعد للقوات المسلحة ومركزاً لوثوبها خارج نفوذ المناطــق الصليبيــة لتحقيق المزيد مــن التوسع الإقليمي.
3- تعتبر المستوطنات والقلاع في واقع الأمر مستودع للقــوة البــشرية المدربــة عــسكرياً واللازمة للقوات المسلحة في حالات الحرب.
4- بعد ضم المناطق الجديدة تقوم المستوطنات والقلاع بملء الوجود المادي والسكاني لها.
5- أن هندسة بناء القلاع يكشف عن أغراض هي أقرب ما تكون إلى الطبيعــة العسكريــة البحتة، إذ كان يخطط لبناء القلاع في أماكن يسهل الدفاع عنها كرؤوس التلال والهضاب، وعلى مشارف الوديان ومفترقات الطرق، فكل قلعة صممت لتكون بمنزلة قلعة حــصينة

([1]) براور، الاستيطان، ص340.
([2]) بالار، الحملات، ص154.
([3]) براور، عالم الصليبين، ص96.
([4]) أبو شامة، الروضتين،ج3، ص71.

قادرة على الدفاع عن نفسها، وعن القلاع المجاورة أيضا فقد كانت كل قلعة أو مستعمرة صليبية تتخذ موقعها في المناطق لتخترق تماسكه وأمنه، وفي دفاعها عن أمنها تدخل حالة صراع مع المجتمع المحيط بها من أجل الاستيلاء على المزيد من الأرض.

6- تعويض نقص العنصر البشري الفرنجي؛ الذي كان من أكثر المشكلات تهديـداً للعمليـة الاستيطانية التي واجهت القيادة الصليبية في فلسطين، وبخاصة إذا ما أدركنـا أن بـسط النفوذ الفرنجي وتوسعة الاستيطاني كان بحاجة إلى قوة كافية لحفظ امن المملكة.

ث- المستوطنات الفرنجيـة الصليبيـة:

إن فكرة الاستيطان الصليبي في فلسطين قد بدأت مع استيلاء الصليبيين علـى بعـض المدن والأرياف الفلسطينية بمدة وجيزة، وقد جري تنفيذها على مختلف المستويات سواء من قبل ملوك المملكـة الصليبيـة والأمراء الإقطاعيين أو من قبل رجال الدين اللاتين وجماعات الفرسان الدينيـة أو الجاليات التجاريـة الإيطاليـة([1]).

ويرى بعض الباحثين أن تشييد المستوطنات، والقرى الزراعية في أماكن مختلفة مـن الأراضي الفلسطينية يعتبر استكمالا للمخطط الاستعماري الصليبي الذي يتمثل في مواجهـة نقص القوى البشرية في أعقاب نزوح الآلاف من السكان المحليين، وبخاصة الفلاحين سواء قبيل الغزو الصليبي أو أثنائه، فضلا عن ذلك فإن الحاجة الماسة للأيدي الزراعية قد أسهمت في لفت نظر ملوك الفرنجة إلى أهمية أنشاء القرى الزراعية من أجـل تـوفير المنتجـات الزراعية التي تعود بالفائدة الكبيرة على إيرادات الدولة المالية، وزيادة دخلها، فـضلا عـن تحقيق الأمن الغذائي للصليبيين في المناطق المحتلة([2]).

وحين زار ثيودريش فلسطين ذكر أن الصليبيين قد أنشأوا عددا مـن المـدن والقـرى الجديدة في أنحاء الأرض المقدسة([3]) وقد أورد بنفينستي قائمة بالمستوطنات البـشرية التـي أقامها الفرنجة بعد الاحتلال الفرنجي الصليبي لفلسطين ذاكـراً مساحتهـا وأعداد السكـان فيهـا؛ حيـث ذكـر أن مجموعهـا قد بلـغ حوالـي ثمانين مستوطنة([4]) في حـين ذكـر براور أن عدد المستوطنات الصليبية قد وصل إلى حوالي مائـة مستوطنـة، وشملت هـذه المستوطنات الصليبيـة مدنا، وقري وقلاعا وحصونا صغيرة([5]).

كان الصليبيون يحرصون على إقامة المستوطنات في المناطق التي كانت تشكل كثافـة سكانية عالية مثل منطقة قيسارية التي احتوت على ما يقرب من سبع وسبعين قرية، كما إمتد

([1]) البيشاوي، دراسة مقارنة، ص95.براور، الاستيطان، ص107.

([2]) Benvenisti, op. cit., p.218.ينظر خريطة رقم (3) ص 307.

([3]) ثيودريش، وصف، ص122، 224، 225.

([4]) Benvenisti, op. cit., p.223.

([5]) براور، الاستيطان، ص499.

الاستيطان الفرنجي في منطقة جبال القدس الممتدة من بيت لحـــم إلى القدس ورام اللـــه([1]).

فالنظام الإقطاعي الفرنجي أسهم أسهاما كبيراً فـــي زيـــادة الرقعـــة الاســـتيطانية فـــي فلسطين([2]) يتضح ذلك من خلال المنحة التي قدمها الأمير جودفري لرجال الدين في كنيـــسة القيامة، إذ قام بمنحهم إحدى وعشرين قرية تقع في محيط حدود مدينة القدس([3]) ولقد استغل رجال الدين هذه المنحة بإنشاء مجموعة من القرى الزراعية حول مدينة بيت المقدس([4]) ومن أهم المستوطنات والقرى التي أقامها الصليبيون في فلسطين؛ مستوطنة البيرة([5])0

إن اختيار قرية البيرة التي تقع على مقربة من مدينة القدس لإقامة مـــستوطنة صـــليبية على أراضيها جاء من أجل أن تشكل نقطة جذب للمهـــاجرين الجـــدد، والادعـــاء بـــصحة نواياهم في حماية مقدساتهم الدينية بعد تحريرها من أيدي المسلمين للتغطية علـــى أهـــدافهم في السيطرة على الأرض مـــن أصـــحابها الـــشرعيين([6]) وأطلـــق الفرنجـــة الـــصليبيون على مستوطنة البيـــرة اســـمMagna Mahumeria بمعنـــي منطقـــة التعبـــد الكبـــرى أو المستوطنة الدينية الكبرى([7]) وجاء اختيار رجال الـــدين للبيـــرة كـــأول موقـــع اســـتيطاني حضري ومنظم في الأراضي المقدسة لاعتبارات عديدة منها، موقعها الاســـتراتيجي حيـــث توسطت المستوطنـــة مدينـــة القدس من ناحيـــة، ومدينـــة نابلس والقرى المحيطة بها مـــن ناحيـــة آخري مما جعلها تشكل خطا دفاعيا عن بيت المقدس من الجهـــة الشماليـــة([8]).

ولقد قام الفرنجة الصليبيون بتهجير من بقي من سكان القرية الأصليين إلـــى منـــاطق آخري قبل الشروع بتأسيس المستوطنة، ومن المرجح أن عملية إنشاء المـــستوطنة قـــد تـــم بالتدرج؛ لان رجال الدين اللاتين قاموا بتوطين مجموعة من الأوروبيين الأحرار في البيرة، وزودهم بقطع من الأراضي حتى يقوموا بزراعتها مقابل دفع ضريبة العشور لرجال الدين، واقتسام المحاصيل الزراعية التي تنتجها أراضي قرية البيرة([9]) واكتمل بناء المستوطنة بعد خمسة عشر عاما من الشروع بتأسيسها وبالتحديد سنة 509هـ/1115م([10]).

([1]) البيشاوي ، دراسة مقارنة ، ص99.

([2]) براور، الاستيطان، ص429.

([3]) .Genevieve, op.cit., Acte No.26, pp 86 – 88

([4]) البيشاوي، الاستيطان، ص4.

([5]) **البيرة**: بلده قديمة تعود في تاريخها إلى الكنعانيين الذين أطلقوا عليها بيئروت أي الآبار ، وسميت في العصر الروماني بيرتـــا أي القلعة أو الحصن، وأطلق عليها الفرنجة اسم ماهوميريا، وذكرت في العديد من الكتب والمصادر القديمة، وهى تقع علـــى بعد 16كم شمال القدس، وترتفع عن سطح البحر بحوالي(884م) الدباغ، بلادنا، ق2،ج8، ص256. نيروز، رام الله، ص81.

([6]) سلامة، الاستيطان، ص164.

([7]) ثيودريش، وصف، ص124.الصوري، تاريخ ،ج2، ص625.البيشاوي، الاستيطان، ص4.

([8]) البيشاوي، الاستيطان، ص4. عوض، عالم، ص58.

([9]) .Genevieve, op. cit Acte no.117, pp.237 – 240

([10]) البيشاوي، الاستيطان، ص4.

إن قرية البيرة كانت بمثابة عملية استقرار أخذتها على عاتقها الكنيسة؛ بحيث كانت هي القرية الصليبية النموذجية التي إحتدى بها الصليبيون، وقد عبر عن ذلــك أحــد المــؤرخين قائلا:" أقام الصليبيون مستوطنات زراعية في بعض المناطق التي احتلوها، واجلــوا عنهــا سكانها من أهل البلاد، ومثال ذلك البيرة كأحدي المستوطنات التي تم تأسيسها بــالقرب مــن بيت المقدس في القرن الثاني عشر ميلادي، وهي التي أقامها جماعة من الرهبان كنمــوذج يحتدى به في بناء مستوطنات استيطانية على النحو نفسه في كل مكان"([1]).

ولقد أهتم رجال الدين اللاتين اهتماما كبيرا بقرية البيرة وأحاطوها بالأســوار وشــيدوا قلعة([2]) لحمايتها من الإخطار الخارجية التي قد تتعرض لها، وربما جري تحصينها وتقويتها لتكون خط الدفاع الأول عن القدس ضد أي هجوم قد تتعرض له منطقــة شمال فلسطين، كما شملت القرية على كنيسة مكرسة للقديسة مريم([3]) ومحكمــة عــرفت باســم المحكمــة البرجوازية Court do Burgesses لمعالجة القضايا المتعلقة بأفراد الطبقة البرجوازية([4]).

أما فيما يتعلق بفئات السكان التي استقرت في قرية البيرة فكان معظمهم من الأوروبيين الذين شاركوا في الحملات الفرنجية الصليبية، وعلى وجه التحديد من فرنسا وإيطاليا وأسبانيا بالإضافة إلى مستوطنين محليين من نابلس ويافا والقدس ففي سنة551هــ/1156م تم إحصاء نحو تسعون عائلة أوروبية تسكن في قرية البيرة أي ما يقارب من نحو350 نسمة([5])

ولا بد أن القرية قد شهدت زيادة في عدد المستوطنين خاصــة وأن عــسقلان قــد ســقطت في548هــ/1153م أي بعد ثلاث سنوات من تاريخ الوثيقة المذكورة الأمر الذي أدي إلــى تأمين حدود المملكة الصليبية بإسقاط عسقلان مما أدي إلى زيادة عدد المستوطنين فيها إلــى خمسين أسرة ليصل عدد سكانها إلى(500 نسمة)([6]) وأخذت قرية البيرة على عاتقها زراعة الكروم والبساتين، وتربية الماشية كما وجد بها بعض المستوطنين الــذين امتهنــوا بعــض الحرف كالحدادة والنجارة وأعمال البناء، وكان على المستوطنين دفع ضريبة العشور([7]).

بالإضافة إلى قرية البيرة التي أقيمت بالجهة الشمالية من القدس عــزم رجــال الــدين اللاتين على تأسيس قرية زراعية آخري على أراضي قرية بيت ســوريك علــى الطريــق الرئيس الذي يؤدي من السهل الساحلي إلى بيت المقدس([8]) وقد عُرفت القرية الزراعية التي

([1]) على، ملامح، ص50.

([2]) الصوري، تاريخ،ج2، ص625، البيشاوي، الممتلكات، ص283.

([3]) ثيودريش، وصف، ص124.

([4]) Genevieve, lok. Cit

([5]) عوض، عالم، وثيقة رقم(1)، ص239- 247. براور، الاستيطان، ص108.

([6]) براور، الاستيطان، ص108.على، العلاقات، ص157.

([7]) Genevieve, lok. Cit. عوض، عالم، وثيقة رقم(1) ، ص239- 247.على، العلاقات، ص157.

([8]) Benvenisti. op. cit.,p.224.

أسسها رجال الدين اللاتين على أراضي قرية بيت سوريك باسم مستوطنة القبيبة التي أطلق عليها الفرنجة اسم Parva Mahumeria أي منطقة التعبد الصغرى، وقد ذكرت بعض الوثائق المؤرخة في564هـ/1169م أن البيرة والقبيبة وبيت سوريك هي قرى تمّ بناؤها بواسطة الكنيسة، وسُكنت من قبل اللاتين، وكانت تخضع لسلطان الكنيسة القضائي([1]).

استوطن مجموعة من اللاتين في قرية القبيبة وربما جاء بعضهم من المناطق نفسها التي حضر منها سكان قرية البيرة([2]) ويشير تلاصق المباني في قرية القبيبة إلى أن عدد سكانها كان أقل من عدد سكان قرية البيرة، وكان يتمركز في أبراجها عدد من الجنود والفرسان الذين وقع على عاتقهم؛ مهمة مراقبة طريق الحجاج بشكل دقيق وبخاصة أن هذا الطريق كان قد شهد الكثير من العمليات العسكرية، ونصب الكمائن من قبل أفراد المقاومة الإسلامية ضد أفواج الحجاج، والمهاجرين القادمين من أوروبا([3]).

وواصل الفرنجة سياستهم الاستيطانية في القرى المجاورة من بيت المقدس على نحو شكل منها خطوطاً دفاعية عن مدينة القدس؛ فقد ذكرت بعض الوثائق المؤرخة في سنة555هـ/1160بأن رجال الدين اللاتين في كنيسة القيامة قد أقاموا مركزا استيطانيا فوق أرض قرية راماتيس Ramathes([4]).

وكان معظم سكان قرية راماتيس من المسيحيين السريان، وقد أمكن إحصاء أسماء ثمانية وعشرون شخصا كانوا يقيمون في الموقع قبل أنشاء القرية الجديدة، ولعل ذلك يشير بأن الاستيطان الصليبي لم يقتصر على المناطق غير المأهولة بالسكان([5]) إذ أسست هذه المستوطنة في منطقة مأهولة بالسكان.

وبذلك تعد مستوطنة راماتيس نموذجا واضحا على التعاون بين المسيحيين اللاتين والمسيحيين السريان فقد أشارت وثيقة تعود لسنة 555هـ/1160م إلى قيام نيقولا رئيس كنيسة القيامة بمنح بعض الكاريوكات وكروم العنب في قرية راماتيس الجديدة إلى ثلاثة من المستوطنين اللاتين إضافة إلى قطع من الأراضي لإقامة منازلهم عليها([6]) وليس من المستبعد أن يكون المسيحيون السريان قد حصلوا على حقوق مشابهة؛ من أجل تشجيعهم على الإسهام في تطوير وتشجيع الحركة الاستيطانية في الأراضي الفلسطينية، ويتضح من الوثيقة الطريقة التي اتبعها رجال الدين اللاتين في استقطاب المهاجرين الأوروبيين من أجل الإقامة في

([1]) Genevieve, op. cit. Actes. No.150,151, pp.292 – 301. البيشاوي، الممتلكات، ص288.

([2]) المرجع نفسه، ص6.

([3]) سلامة، الاستيطان، ص172.وعن المقاومة الشعبية للاستيطان الصليبي ينظر، ص130–150، من البحث.

([4]) Genevieve, op. ci.,Acte.No.126,pp.252 – 253. البيشاوي، الاستيطان، ص9.

([5]) البيشاوي، الممتلكات، ص190،291. سلامة، الاستيطان، ص173.

([6]) Genevieve, Lok. Cit.

القرى الزراعية الجديدة، وذلك عن طريق منحهم الأراضي الزراعية، والسماح لهم بإقامة منازلهم على جزء منها؛ بالإضافة إلى السماح لهم باستخدام المرافق التي تعود ملكيتها لكنيسة القيامة.

كما أوضحت الوثيقة أن المستوطنين كانوا يقومون بإنشاء بيوتهم بأنفسهم، ولكن بعد الحصول على إذن مسبق من رجال الكنيسة، وهذا يعني أن جزءاً من المنشآت في القرى الكنسية كان يقع على عاتق المستوطنين، والجزء الآخر يقع على عاتق رجال الدين، ويبدو أن المنازل التي قام المستوطنون بإنشائها كانت ملكاً وراثياً لهم؛ لذا فقد كان من حقهم تحويل ملكية منازلهم وأراضيهم إلى مستوطنين آخرين.

وأقام الفرنجة الصليبيون إلى جانب المستوطنات المجاورة للمدينة المقدسة مستوطنات أخرى في المناطق الشمالية من فلسطين فتشير المصادر إلى قرية الزيب([1]) الواقعة على بعد(14كم) شمال مدينة عكا والتي كانت في البداية حصناً صغيراً([2]) أطلق عليه الجغرافيون العرب اسم الزاب ذكره ابن جبير بقوله: "واجتزنا في طريقنا على حصن كبير يعرف بالزاب، وهي مطلة على قرى وعمائر متصلة"([3]) وذكرها ياقوت الحموي بقوله:"قرية كبيرة على ساحل بحر الروم عند عكا"([4]) في حين أطلق عليها الفرنج اسم أمبرت Casal Imbert وذلك نسبة إلى الفارس الفرنجي الذي احتلها 493هـ/1104م([5]).

ولقد كانت قرية الزيب من بين المستوطنات الأولى التي أنشأها الصليبيون في فلسطين، واستدل أحد المؤرخين على ذلك في أن قرية الزيب في تخطيطها وتنظيمها كانت تشبه إلى حد كبير التخطيط الذي اتبعه الفرنجة في قرية القبيبة، والبيرة وغيرها من المستوطنات التي أنشأها رجال الدين اللاتين حول مدينة القدس؛ مما يبين أن قرية الزيب كانت تعد في بداية الأمر من ممتلكات الكنيسة([6]).

وفي سنة541هـ/1146م دخلت قرية الزيب مرحلة من التنظيم والتطوير بعد أن أصبحت واحدة من القرى التابعة للتاج الملكي ففي هذه السنة تخلى رهبان كنيسة القديسة مريم عن أملاكهم في قرية الزيب، وذلك مقابل التنازل لهم عن بعض الأملاك في مقاطعة صور([7]) وحظيت قرية الزيب على درجة كبيرة من التطوير في عهد الملك بلدوين الثالث

([1]) **قرية الزيب:** وهي قرية كنعانية عرفت باسم أكزيب، عرفها الفرنج باسم أمبرت نسبة إلى الفارس الصليبي الذي استولى عليها سنة497هـ/1104م. تقع على مسافة 14كم شمال عكا، الحموي، معجم،ج3، ص162.بورشارد، وصف، ص40.

([2]) الدباغ، بلادنا، ق2،ج7، ص344.

([3]) إبن جبير، الرحلة، ص 236.

([4]) الحموي، معجم،ج3، ص162.

([5]) بورشارد، وصف، ص40. البيشاوي، الممتلكات، ص197.

([6]) Benvenisti, op. cit., p. 222.

([7]) البيشاوي، الممتلكات، ص197، 198. =

سنة548هـ/1153م مما جعل بعض المصادر والدراسات تنسب الفضل في تأسيسها له ([1]).

ومن أجل تطوير المنطقة استيطانياً، وتشجيع الفلاحين الأوروبيين على الاستيطان فيها قدّم لكل مستوطن منزلاً مستقلاً يقيم فيه مع أسرته، وقطعة من الأرض مقابل أن يدفعوا ربع إنتاج حقولهم من كروم العنب وثلث إنتاجهم من محصول الزيتون فضلاً عن إعفائهم من الضرائب على المواد الغذائية التي تفرض في أسواق عكا([2]).

ويبدو أن المستوطنة قد شهدت تطوراً ونمواً زراعياً وعمرانياً؛ كما يستدل من وصف الرحالة لها([3]) خاصة وأن القرية، وقعت في منطقة خصبه، وغنية على ساحل البحر، وقريبة من عكا، وقدر عدد العائلات فيها بأكثر من أربعين عائلة أي أن عدد سكانها كان ما بين(200–500 نسمة) تعود أصولهم إلى سكان المدن الإيطالية والفرنسية([4]) فقد أوردت بعض الوثائق أن أهالي مدينة مرسيليا الفرنسية حصلوا على ضيعة في منطقة عكا كانت تعرف باسم روماندت Romandet([5]) بالإضافة إلى بعض البيوت والمنازل مقابل ألف ومائتين وأحد عشر ديناراً ذهبياً([6])، ولم يقتصر العنصر السكاني في قرية الزيب على ايطاليا وفرنسا، ولكن استقر فيها كذلك مجموعات من الفلاحين والأوروبيين الذين ينتمون إلى جنسيات مختلفة للعمل في زراعة الأراضي وفلاحتها([7]).

والى جانب النصارى الغربيين أقام في قرية الزيب عدد من السريان اليعاقبة الذين تواجدوا بكثرة في منطقة عكا إلى درجة دفعت ميخائيل السرياني بطريرك أنطاكية إلى زيارة عكا عام 575هـ/1179م حيث استقبله الملك بلدوين الرابع فيها بحفاوة وتكريم([8]).

ومن المستوطنات الزراعية التي أنشأها الصليبيون في جنوب فلسطين، قرية بيت جبرين التي تقع على بعد 20كم من عسقلان حيث بداية سفوح التلال، وقريباً من السهل بحيث تتحكم في الطريق الواصل بين عسقلان والخليل([9]) ولقد شكل إنشاء قرية بيت جبرين تهديداً خطيراً

= يذكر أنه في سنة517هـ/1123م أقدم ليتارودس فيسكونت عكا على منح دير القديسة مريم في وادي جوسفات بعض الأملاك في قرية الزيب، وهي عبارة عن قطعة أرض أربع كاريوكات، وحقل الزيتون وحديقة ومنزل وقد رغب الملك. بلدوين الثاني باستعادة هذه الأملاك مستغلاً خلافه مع رهبان دير القديسة مريم حول بعض الأراضي الواقعة في منطقة تبنين وقرية بيت فيلا في مقاطعة صور لاستعادة أملاكه. البيشاوي، الممتلكات، ص196–198.

([1]) سلامة، الاستيطان، ص188.يذكر أنه في سنة546هـ/1151م تم تقسيم المملكة بين بلدوين الثالث وأمه ميسلند حيث كانت عكا من نصيب بلدوين الثالث، وكان لابد أن تلقى رعاية منه. الصوري، تاريخ،ج2، ص797.

([2]) Benvenisti, op. Cit.,p.222.

([3]) ابن جبير، الرحلة، ص236. بورشارد، وصف، ص40. الحموي، معجم،ج3، ص162. الإدريسي، نزهة،ج1، ص365.

([4]) سلامة، الاستيطان، ص190،189.

([5]) لم يتمكن البحث من التعرف على هذه القرية.

([6]) Rohricht, op. cit., No65,p.258.

([7]) Benvenisti, op. cit., p.222.

([8]) ميخائيل السوري، تاريخ، ص262.

([9]) الصوري، تاريخ،ج2، ص683. الفيتري، تاريخ، ص46.

على السكان المحليين من الفلاحين الذين يعملون في النشاط الزراعي([1]) كما عملت على تأمين حدود المملكة الصليبية الجنوبية ضد غارات حامية عسقلان([2]).

ويرى بعض الباحثين أنه في عام531هـ/1136م وهو العام الذي اسند فيه أمر الدفاع عن قلعة بيت جبرين إلى هيئة فرسان الاسبتارية لمدة خمسة عشر عاماً؛ قد وجدت فيه مستعمرة صليبية([3]) فقد كان توجه الاسبتارية منذ البداية يهدف إلى التقليل من الاعتماد على المزارعين المحليين والعمل على جذب عناصر أوروبية ذات أصول فلاحية وإحلالهم محلهم([4]) ويبدو أن هذه الخطة قد نجحت إلى حد كبير؛ فبعد أن كان عدد العائلات التي تقيم في قرية بيت جبرين لم يزد عددهم عن ست عائلات منذ قدوم الفرنجة إلى فلسطين نجد أن هذا العدد أخذ يتزايد منذ أن تسلم الاسبتارية أمور القرية حيث وصل عددها منذ تأسيسها إلى548هـ/1153م نحو اثنين وثلاثين عائلة أي ما بين 100-150 مستوطناً منهم ست عائلات من العائلات الصليبية التي كانت تعيش في فلسطين منذ أن خضعت للحكم الصليبي، أما باقي العائلات الأخرى فقد كانوا من المهاجرين الجدد الذين قدموا من أوروبا للاستيطان في فلسطين([5]) وقد حصل كل مستوطن على منزل وقطعة أرض زراعية تقدر بحوالي اثنين وستين هكتاراً([6]) لزراعتها مقابل دفع ضريبة سنوية تعادل عشر الفاكهة، وعشر المحصول الذي يزرعه بالإضافة إلى بعض الضرائب الأخرى، وكان للمستوطنين الحق في بيعها متى شاءوا على الرغم من أنهم كانوا يدفعون ضريبة الأرض وفقاً لنسبة معينة من الإنتاج، وليست محددة بمقدار مساحة الأرض([7]).

وهكذا يرى الباحث أن إقدام الفرنجة على تقديم امتيازات كبيرة من الأراضي لكل أسرة أوروبية أقامت في قرية بيت جبرين، بعد مصادرتها من أيدي أصحابها الشرعيين قد دفع العديد من الأسر الأوروبية إلى الاستيطان في القرية، بالإضافة إلى إسهامهم في تأسيس قرية جديدة بجانب القلاع، وإلى جانب العنصر الفرنجي فقد سَكنت عناصر سكانية أخرى في بيت جبرين؛ فالعنصر السرياني شارك بشكل ملحوظ في تكوين المجتمع الاستيطاني في القرية فيذكر مارتن اليعقوبي أن السريان اليعاقبة كانوا يحوزون قرى بأكملها حول بيت جبرين قبل الغزو الصليبي وفي أثنائه([8]).

([1]) علي، العلاقات، ص157.
([2]) الصوري، تاريخ،ج2، ص682.
([3]) المصدر نفسه. علي، العلاقات، ص158. سلامة، الاستيطان، ص179، 180.
([4]) سلامة، الاستيطان، ص181.
([5]) سميث، الإسبتارية، ص434. براور، الاستيطان، ص107.
([6]) الهكتار: أطلق عليه المسلمون قديماً اسم الجريب ويساوي عشرة آلاف متر مربع. علبة، القاموس، ص464.
([7]) براور، الاستيطان، ص 108.
([8]) Martin Abbe, Les Premiers Princes Croises et Les Syrians, P. 65

وتعتبر قرية الداروم من القرى الحدودية الزراعية التي أقامها الصليبيون في جنوب غرب فلسطين ففي سنة564هـ/1168م تم تشييد قلعة الداروم على مسافة 16كم إلى الجنوب الغربي من غزة، أنشأت فوق رقعة منبسطة من أرض السهل الساحلي الجنوبي ترتفع عن سطح البحر حوالي 25م لتكون قاعدة متقدمة على الطريق إلى مصر، ومسرحاً لعملياتهم العسكرية التي تنطلق ضد مصر ومنطقة جنوب فلسطين([1]).

وإلى جانب هذه القلعة أنشأ الفرنجة الصليبيون"مستعمرة صغيرة وبنوا قرية" تألف سكانها من المستوطنين الأوروبيين ذوي الأصول الفلاحية والمراتب الدنيا، وقد عمل مستوطني قرية الداروم في ممارسة النشاط الزراعي واستغلال الأراضي الزراعية الخصبة([2]) وإلى جانب الاهتمام بالتوسع الزراعي فقد شهدت هذه المنطقة حركة تجارية، يتضح ذلك من خلال ما أشار إليه الصوري من قيام قرية الداروم بفرض ضريبة على المسافرين والتجار الذين كانوا يمرون عبر أراضيها؛ كما كلف الملك الصليبي عموري الأول القائمين على مستوطنة الداروم بجمع الضريبة السنوية التي فرضها الصليبيون على مسلمي القرى المحيطة([3]).

وبلغ من اهتمام الملك عموري الأول بقرية الداروم انه جمع فيها عدداً من الأسر التي كانت تمارس العمل الزراعي، وكذلك عدداً من التجار؛ وأقام عدداً من المرافق([4]) ومن المحتمل أيضاً أنه عمل على تشجيع الصليبيين على الاستيطان في هذه القرية الحدودية فقام بمنح كل عائلة مساحة كبيرة من الأرض، وذلك بهدف زيادة الرقعة الزراعية في المنطقة، وتشجيعاً لهم على الاستيطان فيها، ولابد أنه قدم لهم إعفاءات ضريبية لإغرائهم على الاستيطان في هذه المستوطنة الحدودية.

ومن المستوطنات التي أقامها الصليبيون في جنوب فلسطين مستوطنة يبنه أو إبلين 532-539هـ/1137-1144م([5]).

على أية حال نجد أن تعدد جنسيات المستوطنين الفرنجة في قرى البيرة، والداروم، وبنت جبرين، والزيب، وغيرها من القرى الزراعية الاستيطانية يبين أن سكان تلك القرى باختلاف جنسياتهم ودولهم عكسوا التنوع الذي كانت علية المملكة الصليبية ذاتها، والتي احتوت خليطاً غير متجانس من السكان؛ جمعتهم رغبة واحدة هي إعلان العداء للمسلمين في فلسطين من خلال مصادرة أراضيهم وممتلكاتهم، من أجل إجبارهم على الهجرة واللجوء إلى

([1]) الصوري، تاريخ،ج2، ص949. الفيتري، تاريخ، ص44. الدباغ، بلادنا، ق1،ج1، ص290

([2]) الصوري، تاريخ،ج2، ص950،949.

([3]) المصدر نفسه،ج2، ص950.براور، الاستيطان، ص39.

([4]) المصدر نفسه،ج2، ص949.براور، الاستيطان، ص360.

([5]) الصوري، تاريخ،ج2، ص، ص728.

البلاد الإسلامية المجاورة، وفضلاً عن ذلك نجد أن الخلافات والنزاعات التقليدية التي سادت بين سكان الغرب الأوروبي قد انتقلت إلى المملكة الصليبية؛ كالعداء بين الألمان والإيطاليين، وبين الفرنسيين والانجليز وغيرهم([1])

ونلاحظ من خلال العناصر السكانية لهذه القرى الاستيطانية أن معظم المستوطنين فيها كانوا قد قدموا من البلاد الفرنسية التي أسهمت بشكل فاعل في الحروب الصليبية، وعدا عن ذلك فان الايطاليين كان وجودهم قد تركز بصورة أساسية في المدن الساحلية للحصول على مكاسب تجارية كبيرة تفوق تلك التي تحققت للفرنسيين في بقية الأراضي المقدسة([2]).

إن نجاح تجربة الفرنجة في توفير الأمن للمستوطنين، وتقليص حدة المقاومة الإسلامية لحامية عسقلان، وتقديم الامتيازات سواء فيما يتعلق بتوزيع الأراضي إلى المستوطنين بعد مصادرتها من أصحابها الشرعيين؛ أو فيما يتعلق بالإعفاءات الضريبية، قد نجح في تشجيع الحركة الاستيطانية وزيادتها، وقد علق الصوري على ذلك بقوله "كانت النتيجة أن بدأ الذين يقيمون في المنطقة المجاورة يضعون ثقة كبيرة في هذه القلعة إضافة إلى القلعتين الأخريين كما وقامت حولها ضواح كبيرة وكثيرة وسكنت أعداد كبيرة من الأسر هناك إضافة إلى مزارعي الحقول أيضاً وأصبحت المنطقة أكثر أمناً"([3]).

هكذا أسهم نظام الإقطاع الفرنجي في زيادة الرقعة الاستيطانية في فلسطين، وتعاونت المملكة مع الكنيسة في زيادة الحركة الاستيطانية حيث استغل رجال الدين المنح والهبات التي قدمت لهم لإقامة القرى الزراعية الفرنجية، وقد حصل كل مستوطن على240 فداناً من الأرض يبني على جزء منها، ويزرع الباقي، وبالمقابل توجب عليه دفع ضريبة سنوية، وكان المستوطنون أحرارٌ في مغادرة المستوطنة عندما يشاءون، لأنهم لم يحصلوا على الأرض وفقاً للشروط الإقطاعية في تمليك الأرض، بل باعتبارها ممتلكات وراثية يحق لهم بيعها أو رهنها أو التصرف فيها حسب إرادتهم حيث كانوا يدفعون الإيجار عنها([4]).

فالمتأمل في كتابات يعقوب الفيتري التاريخية في شتى الاتجاهات بصفة عامة، والاتجاه الاقتصادي والاجتماعي بصفة خاصة؛ يقف على حقيقة ما طرأ على الحركة الصليبية من تغيرات عند مطلع القرن الثالث عشر الميلادي، ويكشف القناع عن حقيقة الدوافع الصليبية من أجل السيطرة على الأرض، واستعمارها وتفريغها من أهلها الأصليين، واستغلال مواردها الطبيعية بإقامة المستوطنات والقلاع([5]).

([1]) فورزبورغ، وصف، ص73.

([2]) ابن جبير، الرحلة، ص235. سلامة، الاستيطان، ص257.

([3]) المصدر نفسه، ص730.

([4]) سميث، الإسبتاريه، ص433، 434.

([5]) السيد، الحركة، ص 54، 55.

ج- المقاومة الشعبية للاحتلال الفرنجي الصليبي:

اجتاحت القوات الفرنجية فلسطين عام492هـ/1099م ونجحوا في تأسيس مملكة صليبية في بيت المقدس، وذلك بسبب ضعف المقاومة الإسلامية التي واجهت الغزو الصليبي لانقسام الصف الإسلامي آنذاك، وعدم وجود قيادة موحدة، وهذا ما دفع فوشيه الشارتري للقول"لماذا خشيت كل هذه الأمم، وهذه المماليك من الهجوم على مملكة صغيرة، وشعب متواضع؟ لماذا لم يجمعوا من مصر ومن فارس ومن بلاد ما بين النهرين ومن سوريه مئة ضعف، ألف مقاتل، ليزحفوا بشجاعة علينا، ونحن أعداؤهم؟ لماذا لم يدمرونا ويلتهمونا مثل جراد يفوق الحصر عدده في الحقل الصغير فيمحون ذكرنا عن وجه الأرض"([1]) "

مارس الصليبيون سياسة استعمارية استيطانية تهدف إلى تفريغ الأرض الفلسطينية من سكانها سواء عن طريق المذابح والمجازر، أو عن طريق طرد السكان من بلادهم، وإنشاء العديد من المستوطنات الصليبية، وإحلال جماعات من الغرب الأوروبي محلهم للاستيلاء على مصادر الثروة والإنتاج، وسوف تتعرض هذه الجزئية لموقف الجماهير الإسلامية في مواجهة الحركة الاستعمارية الاستيطانية التي شنها الغرب الأوروبي على بلاد المشرق العربي، والتي اصطلح على تسميتها بالحروب الصليبية، وعلى الرغم من كل حالات الضعف، وأسباب الهزيمة التي لحقت بالأمة الإسلامية فإن المقاومة الإسلامية والشعبية التي تألفت من جماهير الأرض المقدسة وغيرهم من المجاهدين قد استخدموا مختلف أساليب المقاومة ضد الوجود الفرنجي الصليبي ومستوطناته وقلاعه في فلسطين المحتلة، وقد زودتنا المصادر بصور من هذه المقاومة، فعندما توالت أنباء قدوم القوات الفرنجية إلى فلسطين هجر عدد كبير من سكان المدن غير المحصنة مدنهم، ولجأوا إلى الإقامة في بلاد آمنة تحيط بمدنها الأسوار والقلاع التي قد تسمح لهم بالدفاع عن أنفسهم، ومقاومة العدوان الصليبي، فقد رابطت في مدينة بيت المقدس أعداد كبيرة من المجاهدين من سكان المدن والقرى المجاورة الذين لجئوا للمدينة للإسهام في مقاومة الخطر الصليبي الذي بات يتهددها([2]) فأشار ريموندأجيل إلى حدوث إشتباكات أولية بين طليعة الجيش الصليبي وأهالي المدينة المقدسة قتل وجرح على آثرها عدد من الصليبيين([3]).

وأثناء الحصار الصليبي لبيت المقدس تزعم حركة المقاومة الشعبية ضد القوات الفرنجية الغازية قاضي المدينة أبو القاسم مكي بن عبد السلام([4]) الذي لعب دوراً بارزاً في

([1]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص112.

([2]) ريموندأجيل، تاريخ الفرنجة، ص244. الصوري، تاريخ،ج1، ص416.

([3]) ريموندأجيل، تاريخ الفرنجة، ص235.

([4]) **مكي بن عبد السلام:** وهو مكي بن عبد السلام بن الحسين بن القاسم الأنصاري، مؤرخ ومن الحفاظ والرحالة وكان مجتهداً في طلب العلم، وسمع على كثير من العلماء في القدس ودمشق وبغداد ومكة؛ نبغ في علوم الفقه والدين، وكانت الفتاوى تأتيه=

القتال، وتحريض السكان على الجهاد في سبيل الله حتى أسر وقتل([1]) كما قـام المـسلمون بإفساد وطمر ما يقع حول مدينة القدس"من اليـنابيع والعيـون" لمنـع الفرنجـة المحتلـين من استخدامها والانتفاع بها، ونشر المـرض فـي المعـسكر الـصليبي، بالإضـافة إلـى تدمير صهاريج وأحواض مياه الأمطار، وقاموا بإخفاء كل ما يجدونه في الكهوف حتـى لا يستفيد منها الصليبيون([2]).

وسعى أفراد المقاومة الإسلامية إلى معرفة ما يدور داخل المعسكرات الـصليبية مـن أجل التعرف على أسرار خططهم العسكرية وبالتالي اكتشاف الخطط والأساليب والوسـائل القتالية لإحباطها وإفشال أهدافهم، وفي سبيل ذلك كانوا يرسـلون العيـون إلـى المعـسكر الفرنجي، ويشير المؤرخ بطرس توديبود بهذا الشأن إلى أن حامية مدينة القـدس الفاطميـة أرسلت بمسلم ليتجسس على عمليات بناء الفرنجة للأبراج، ولكن عندما شاهده السريان ابلغوا الفرنجة عنه فقاموا بإلقاء القبض عليه، ويبدو أن الأسير المسلم قد تعرض لأسلوب تحقيـق قاس اضطره إلى الاعتراف بالمهمة التي كلف بها" أرسلني المسلمون إلـى هنـا لأكتـشف ما هي مخترعاتكم" وبعد أن أدرك الصليبيون طبيعة المهمة التـي أوكلـت إليـه حـاكموه، وكان الحكم الصادر بحقه يقضي بوضعه في آله حربية تسمي المقذاف([3]) ورميه بواسـطتها داخل أسوار المدينة المقدسة([4]) وهذه الرواية تبين أن المسلمين كانوا يحرصون على مراقبة نشاطات الفرنجة وتحركاتهم؛ كما سعي الفرنجة من جانبهم إلى اختراق صفوف المسلمين فقد ذكر الشارترى أن الفرنجة نجحوا في تجنيد عدد من السكان المحليين للتجسس على المسلمين ومعرفة مواطن الضعف والقوة لدي الجانب الإسلامي([5]).

يبدو أن المقاومة، وعن طريق عيونها تمكنت من جمـع المعلومـات عـن القـدرات العسكرية للصليبيين، وعن آلات الحصار الجديدة التي يقومون بإعدادها، الأمر الذي دفعهـم إلى اتخاذ التدابير الدفاعية والعسكرية لمواجهة هذه الآلات فيشير توديبـود إلـى إجـراءات غريبة اتخذها أهالي المدينـة لتقويـة الدفاعات دون أن يحددها([6]) أما الصوري فقد أشـار

= من مصر وغيرها، ونسبته الرميلى إلى قرية أسمها الرميله من أرض فلسطين؛ قتل شهيدا في 12 شعبان 492هـ/1099م. السمعاني، الأنساب،ج3، ص93. الأعلام والتبيين، ص66. العليمي، الأنس الجليل،ج1، ص436.

([1]) العليمي، الأنس الجليل،ج1، ص436.

([2]) مجهول، أعمـال الفرنجـة، ص116. ريموندأجيل، تـاريخ الفرنجـة، ص237. توديبـود، تـاريخ الرحلـة، ص315. الصوري، تاريخ،ج1، ص415، 419.

([3]) **المقذاف:** وهو عبارة عن مثلث من الخشب متساوي الساقين ويـبطن بخـشب الـسنديان لتركيـب خنزيـره الـسهم فيـه. الطرسوسي، تبصره، ص167، 168.

([4]) توديبود، تاريخ الرحلة، ص317.

([5]) الشارترى، تاريخ الرحلة، ص108.

([6]) توديبود، تاريخ الرحلة، ص316. الشارترى، تاريخ الحملة، ص74.

إلى أن المسلمين" نقلوا على الفور جميع تفاصيل ما راقبوه.... وكافحوا في سبيل محاكاة أعمال المسيحيين"([1]).

وفي المعارك التي دارت حول عسقلان سنة 492هـ/1099م لعبت المقاومة النظامية والشعبية دورا بارزا فيها، وخاصة بعد سماعهم بأنباء المجازر والمذابح التي ارتكبها الصليبيون في بيت المقدس الأمر الذي حفزهم للاستماتة في محاربة الصليبيين واستشهد "من أهل عسقلان وأحداثها وثنائها([2]) وتجارها سوى أجنادها ألفان وسبعمائة نفس"([3]) ولم يفكَ الفرنجة الحصار عنها إلا بعد أن وعد أهالي عسقلان بدفع مبلغ من المال قدره أثني عشر ألف دينار، وفي رواية عشرين ألفاً"([4]).

ومن أساليب المقاومة التي استخدمتها المقاومة الإسلامية في المدن الفلسطينية، وغيرها من المدن الإسلامية التي تعرضت للحصار الفرنجي، قيام مجموعات منظمة باختراق الحصار والدخول منه لبعض نواحي المدينة التي لم يكن فيها حصار الفرنجة محكما للقيام بعمليات خلف خطوط الفرنجة عن طريق مهاجمة فرسانهم، وجنودهم الذين اعتادوا على التجول في المناطق الريفية المجاورة للمدينة بحثا عن الطعام، والأعلاف الضرورية لخيولهم ودوابهم، وكثيرا ما كانت هذه المجموعات العسكرية المتسللة خلف خطوط العدو تنجح في تحقيق أهدافها، وتقوم بعملياتها العسكرية ضد الفرنجة، والتي يسفر عنها قتل وجرح العديد من الفرسان الفرنجة وجنودهم، ومن كان يهرب فإن الحظ قد يحالفه بالنجاة من الوقوع في أسر المسلمين([5]).

كما نجح بعض السكان المسلمين في اختراق الحصار الفرنجي من خلال النواحي التي لم تكن محاصرة، وكانوا ينضمون إلى المدافعين عن المدينة ضد الفرنجة ومثل هذه الأعمال كانت تسهم في تعزيز صمود المدافعين عن المدينة ضد الفرنجة([6]) ولقد وصف الصوري مقاومة المسلمين للقوات الفرنجية الغازية أثناء محاولتهم لاقتحام مدينة القدس في13 يوليو بقوله:"هكذا كانت مهمة المدافعين شاقة بالقدر نفسه، وأكثر إرهاقا لدى محاولتهم وقف القوات المحاصرة فقد استمروا في إبداء ضروب من المقاومة الشجاعة ضد الجهود العنيفة والجبارة التي بذلها المهاجمون"([7]).

([1]) الصوري، تاريخ،ج1، ص420.

([2]) **ثنائها:** بمعني ساكنيها وقاطنيها يقال تنأ بالمكان أي أقام وقطن. إبن منظور، لسان،ج1، ص40.

([3]) ابن القلانسي، ذيل، ص137. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان،ج1، ص327.

([4]) ابن القلانسي، ذيل، ص137.ابن الأثير ، الكامل،ج9، ص21.

([5]) ريموندأجيل، تاريخ الفرنجة، ص283.الصوري، تاريخ،ج1، ص420.البيشاوي، المقاومة ص364.

([6]) الصوري، تاريخ،ج1، ص420.

([7]) المصدر نفسه،ج1، ص407، 408.

وعندما حاصر الصليبيون مدينة حيفا 493هـ/1100م استمات سكانها في الدفاع عنها، ويروى ألبرت ديكس أن المسلمين قاموا بتزويد اليهود من سكان مدينة حيفا بالسلاح من أجل الإسهام إلى جانبهم في الدفاع عن المدينة المحاصرة من البر والبحر([1]) وقد قاوم سكان مدينة حيفا مقاومة مستميتة، وأفشلوا أكثر من هجوم قام به الفرنجة من أجل اقتحام المدينة، ولما رأوا شدة الحصار، وأن سقوط المدينة أصبح أمرا لا محالة له، قاموا بقتل نسائهم وأطفالهم ليكن ذلك حافز أكبر في دفاعهم عن المدينة، وحتى لا يتم أسرهم وسبيهم، ومن ثم قتلهم فخرج سكان المدينة فقاتلوا حتى عن آخرهم فدخل الفرنج المدينة " فوجدوهم قد قتلوا أولادهم ونساءهم "([2]).

ومن صور المقاومة ما أبداه سكان مدينة عكا من مقاومة عند محاولة الفرنجة السيطرة عليها496هـ/1103م حيث نصبوا عليها المنجنيقات والأبراج فسارع السكان من كافة المدن الساحلية لنجدتها، وقاتلوا أشد قتال، ودمروا منجنيقاتهم، واحرقوا أبراجهم مما اضطر الفرنجة إلى فك الحصار، والارتداد إلى مدينة يافا بعد أن دمروا محاصيل وكروم وبساتين أهل المدينة([3]) وفي سنة 497هـ/1104م عاد الملك بلدوين الأول لمهاجمتها فاستولي عليها بعد أن عجز السكان عن الاستمرار في القتال ليأسهم من وصول أي نجده أو معونة لهم من الخلافة الفاطمية والعباسية([4]).

إن المقاومة الشعبية والإسلامية بأساليبها المتنوعة والمتباينة في مواجهة السياسات الصليبية الاستيطانية دفعت بأعداد كبيره من الفرنجة الصليبيين إلى مغادرة الأراضي المقدسة إلى الغرب الأوروبي، بعدما رأوا أن أفراد المقاومة الشعبية لم يتركوا لهم مجالا للهدوء أو الإحساس بالأمن والاستقرار في الأرض المقدسة، وقد عبر الصوري عن الوضع الأمني المتدهور في مدينة القدس بقوله " فنادرا ما كان هنالك مكان يستطيع المرء أن يرتاح فيه بأمان حتى داخل أسوار المدينة، وفي المنازل ذاتها... كما أن حالة الأسوار المخربة تركت المدينة معرضة للعدو.. فقد اقتحموا المدن.. وبطشوا بالكثيرين في عقر منازلهم" ويبدو أن هذه العمليات قد أحدثت رعباً بين المستوطنين الفرنجة مما دفع بعضهم للعودة إلى بلدانهم التي قدموا منها([5]).

وأشار الرحالة الأوروبيون الذين زاروا فلسطين في بداية الاستقرار الصليبي في فلسطين إلى المقاومة الشعبية ونصب الكمائن لضرب خطوط الاتصال التي تربط الفرنجة الصليبيين

([1]) Albert d,Aix, op. cit., pp.522,523.

([2]) ابن شداد، الأعلاق، ص177.

([3]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص130.الصوري، تاريخ،ج1، ص511.ابن الأثير، الكامل،ج9، ص72.

([4]) إبن القلانسي، ذيل، ص144.

([5]) الصوري، تاريخ،ج1، ص472.

في فلسطين بالظهير الأوروبي، وإنزال الخسائر الفادحة ضد العدو إذ يذكر سايولف الذي زار فلسطين495- 496هـ/1102-1103م أن الطريق من يافا إلى بيت المقدس، والذي كان على القادمين من الغرب الأوروبي أن يقطعوه في حوالي يومين، كان من الخطورة بمكان، بسبب أفراد المقاومة الشعبية والإسلامية الذين كانوا يتخذون من الكهوف والمغاور الجبلية؛ كمائن لمراقبة الطريق ليلا ونهارا حتى تسنح لهم الفرصة لمهاجمة مجموعات المهاجرين الجدد والمسافرين أو الهجوم على أولئك الذين يتخلفون وراء جماعتهم بسبب التعب والإرهاق، ولقد اعتمدت تلك العمليات على ما يشبه أسلوب(حرب العصابات) فقد اعتمدت المصادمات بين الجانبين على أسلوب الكر والفر والمباغتة لإنزال أكبر قدر من الخسائر في صفوف الصليبيين([1]) ونتيجة لإغارتهم المفاجئة والمتكررة فإنك ترى كثيراً من الجثث مبعثرة على طول الطريق بعد أن فرقتها الحيوانات المفترسة، ويمكن للبعض على حسب قول سايولف أن يندهش لان الجثث المسيحية ملقاة هناك غير مدفونة، ولكن يجب ألاّ يندهش المرء لأن الأرض نفسها غير صالحة لكونها ذات طبيعة صخرية وعره لا تصلح لأعمال الدفن، هذا فضلا عن أن عنف المقاومة الشعبية دفعت الصليبيين إلى تجنب دفن قتلاهم خوفا من أن يغتنم المسلمون الفرصة ويفتكون بهم([2]).

ويذكر الشارترى في حوادث سنة501هـ/1107م أن رجال المقاومة نصبوا الكمائن على سفوح الجبال الواقعة على طريق القدس يافا بهدف القضاء على جماعة من المستوطنين بعد أن وصلتهم معلومات تفيد بعزمهم الانتقال من يافا إلى القدس([3]) ويبدو أن سكان الأرض المحتلة أدركوا منذ البداية أبعاد سياسة الفرنجة الرامية إلى تفريغ الأرض المقدسة من أصحابها الشرعيين من خلال الاقتلاع والتهجير القسري الذي يتيح لهم سلب ثرواتها الزراعية، والتجارية، والصناعية، وجلب مهاجرين جدد إليها، ولكن على الرغم من ذلك فقد واجه الأهالي سياسة الفرنجة هذه بمقاومة عنيفة عبر الممرات، والطرق التي يسلكها المهاجرون، والمستوطنون الصليبيون، فواصلوا عملياتهم العسكرية ضد الاحتلال الفرنجي، ومستوطنيه، ومهاجريه الجدد؛ فيذكر دانيال الذي زار فلسطين فيما بين عامي499-500هـ/1106- 1107م صوراُ عديدة للمقاومة الفلسطينية في مناطق مختلفة من الأراضي المحتلة مستغلة الظواهر التضاريسية الطبيعية، فيذكر أنه وعلى التلال المكسوة بالأحراج قرب برك سليمان([4]) كان يكمن رجال المقاومة الإسلامية من أهل عسقلان، وغيرهم من

([1]) سايولف، رحلة، ص23. دانيال، وصف، ص48.

([2]) سايولف، رحلة، ص23.

([3]) الشارترى، تاريخ الحملة، ص142. صوري، تاريخ،ج1، ص524.

([4]) **برك سليمان:** تقع في وادي ضيق إلى الجنوب الغربي من بيت لحم، وعلى بعد نحو 4كم عنها بجانب الكيلو 13 على طريق القدس الخليل وهي ثلاث تقع على خط واحد يفصل الواحدة عن أختها 50متر بنيت لكي يجمع فيها الماء ويرسل في=

سكان المناطق المجاورة؛ بانتظار المسافرين والمهاجرين الجدد من بيت لحم إلى الخليل، فقد كانت الجبال جنوبي شرق بيت لحم تكتظ برجال المقاومة حتى كان على الراهب دانيال وصحبه السفر بحماية رجل من المسلمين له مكانه عالية " فبدون مساعدته لم يكن ليتسنى لنا عبور تلك الأماكن بسبب هجمات قطاع الطرق في الجبال "([1]) ويذكر أنه تمكن من زيارة المنطقة الصحراوية الواقعة قرب البحر الميت بالقرب من أحد الجداول المنحدرة جنوبي بيت لحم، ولكنه لم يتمكن من الاستمرار في رحلته من سيجور([2]) إلى سيدوم([3]) لتخوفه من اعتداءات المسلمين؛ أو التعرض لأي مكروه، وذلك بعد أن حذره المسيحيون السريان من المواصلة فأضطر للعودة إلى مدينة الخليل([4]).

كما شهدت منطقة الجليل مقاومة شعبية ونظامية عنيفة ضد الصليبيين والقادمين الجدد، فأشار دانيال إلى تعرض المسافرين على طريق بيت المقدس الأردن لعمليات المقاومة الإسلامية، وهي الطريق التي تمر فوق جبل الزيتون([5]) على الجانب الشرقي لمدينة القدس حيث " تتواصل هجمات قطاع الطرق في هذه الجبال الوعرة والممرات المخيفة فلم يكن باستطاعة أحد المسيحيين المرور من بيت المقدس إلى بحيرة طبرية دون حماية مسلحه([6]).

وشهدت المناطق حول بيسان مقاومة عنيفة؛ فيذكر أن المسلمين في منطقة بيسان كانوا يهاجمون المسافرين عند خوضهم المخاضات والجداول "حيث كان يقطن عدد كبير من المسلمين الأقوياء الذين يستغلون مخاضات الأنهار لمهاجمة المسافرين "([7]).

كما تعرض المسافرون على طريق جبل طابور الناصرة لهجمات المقاومة الشعبية"حيث الطريق متعب ضيق، وخطر لوجود المسلمين الخطرين، الذين تنتشر قراهم فوق الجبال، والسهول حيث أنهم يندفعون من بيوتهم ويذبحون المسافرين على

= قناة إلى القدس.الدباغ، بلادنا، ق2،ج8، ص449.

([1]) دانيال، وصف، ص77، 82.

([2]) **سيجور- بالماريا- صغر:** ورد ذكرها مع النبي لوط عليه السلام تقع في غور الصافي على شاطئ البحر الميت الجنوبي الشرقي بالقرب من مصب وادي الحسا في الموقع المعروف باسم الشيخ عيسي، لم يلحق بها الدمار لان أهلها لم يكونوا يعملون الفاحشة. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص151.فورزبورغ، وصف، ص99.الدباغ، بلادنا، ق1،ج1، ص108، 109.

([3]) **سيدوم:** وتعني إحراق، وهي المدينة الرئيسية الخامسة التي دمرت أيام سيدنا لوط لفساد أهلها؛ تقع جنوب غرب البحر الميت ذكرت دول لأول مرة في التوراة في وصف تخوم أرض كنعان، أختارها لوط مسكنا له، ولم يعرف حتى الآن موقع سيدوم ويعتقد بعض العلماء أنها تحت البحر الميت جنوبي منطقة اللسان. البكري، معجم،ج2، ص729. الحموي، معجم،ج3، ص200. الدباغ، بلادنا، ق1،ج1، ص180.

([4]) دانيال، وصف، ص81.

([5]) **جبل الزيتون:** أشتهر بهذا الاسم لكثرة أشجار الزيتون التي تغطي أجزائه، وهو يقع بالقرب من المدينة المقدسة وإلى الشرق منها، ويفصله عنها وادي شعفاط، وقد أطلق عليه الفرنجة اسم جبل الأنوار، ويعرف أيضا باسم جبل الطور، وذكره العرب باسم طور زيتا.الحموي، معجم،ج4، ص48.بورشارد، وصف، ص148، 149. الدباغ، بلادنا، ق1،ج8، ص16,15.

([6]) دانيال، وصف، ص62، 90.

([7]) المصدر نفسه، ص93.

تلك المرتفعات الفظيعة؛ أنه لمن الخطر أن تعبر تلك المنطقة دون حراسة جيدة "([1]).

ولقد عبر الصوري عن عنف المقاومة الشعبية والنظامية، وتدهور الأوضاع الأمنية في المملكة الصليبية بعدم قدرة المستوطنين الفرنجة وسكان المملكة على الانتقال من مدينة لآخري، وطالب سكان المملكة بضرورة أخذ الحيطة والحذر الشديد أثناء السير في الطرق العامة([2]).

وليس من شك أن هجمات المقاومة الإسلامية النظامية منها أو الشعبية كانت موجعه ومؤثرة، ويتجلي ذلك في الخسائر المادية والبشرية التي تكبدها المستوطنون الفرنجة مدنيين كانوا أو عسكريين، علما بأن الصليبيين كانوا يحرصون دائما على المحافظة على العنصر البشري، حيث كانوا يدركون أن تعويض العنصر البشري هو من أصعب القضايا والمشاكل التي واجهت قادتهم مع بداية فرض وجودهم في الأراضي المقدسة، ولقد عبر وليم الصوري عن ذلك بقوله ".. وقطن المسلمون الكفرة والذين كانوا من أقسى الأعداء لشعبنا في سائر المناطق المحيطة بممتلكات المسيحيين، وكان هؤلاء المسلمون أكثر خطورة لأنهم كانوا قريبين جدا، ولأنه لا يمكن لوباء أن يضر الإنسان بشكل فعال أكثر من العدو الجاثم على بابه "([3])

ومن أجل القضاء على جيوب المقاومة الإسلامية قاد الملك بلدوين الأول في نهاية سنة 494هـ/1100م جيشاً لغزو جنوب فلسطين، وتوجه أولا إلى الجهات الغربية من إقليم الخليل حيث بيت جبرين، وتل الصافية، ويبنه، وبعد أن اطمئن لغزوه في تلك الجهات القريبة من عسقلان؛ توجه بحملتة جهة الشرق، وأقدم على تدمير القرى التي مر بها مما أجبر أهلها من العرب إلى هجرها إلى الكهوف، والجبال بسبب الإرهاب الصليبي، ويفسر فوشيه الشارترى لنا بأن أحد أسباب قيام الملك بلدوين الأول بهده الحملة؛ هو استمرار المقاومة الشعبية المسلحة من قبل المسلمين للمقيمين حيث كان المسلمون ينصبون كمائنهم في المناطق الممتدة بين الرملة والقدس([4]).

كما يكشف لنا فوشيه من خلال روايته عن دور السريان في أنهم أعطوا الجيش الصليبي المعلومات اللازمة عن المسلمين لمعرفتهم المسبقة بالبلاد، وأهلها مما سهل المهمة على الجيش الصليبي فتتبعوا العرب في مخابئهم، وقتلوا منهم قرابة مائة رجل، وبناء على هذه المعلومات تقرر مواصلة الزحف نحو منطقة البحر الميت([5]).

([1]) دانيال، وصف، ص101.

([2]) الصوري، تاريخ،ج1، ص471.

([3]) المصدر نفسه،ج1، ص471.

([4]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص108. الصوري، تاريخ،ج1، ص487،d,Aix

([5]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص108. Albert d,Aix op. cit.,p.547. الصوري، تاريخ ،ج1، ص487.

واصل الملك بلدوين الأول هجومه على المناطق الواقعة غربي وجنوبي البحر الميت حيث أجتاز الجبال الواقعة غربي الخليل فبرية الخليل، وصولا إلى شاطئ البحر الميت من جهة الغرب حيث تقع قرية عين جدي ثم توجه إلى جنوبي البحر الميت بعد ذلك حيث قرية صغر غير أن الأهالي كانوا قد هجروها([1]) ومن هناك تحرك الجيش الصليبي بعد قليل من الراحة إلى مناطق شرقي الأردن نحو هضبة مؤاب، وتخللوا شعابها، وصعدوا تلالها، ولم يجدوا بها شيئا يسلب إذ كان أهالي القرى قد لجأوا إلى الكهوف بمتاعهم وماشيتهم للاحتماء بها، ثم توجه الجيش الصليبي إلى وادي موسى الغنى بثرواته الزراعية والرعوية، وخلال ثلاثة أيام تم نهب وسلب المنطقة([2]).

يتبين مما سبق أن الملك بلدوين الأول ومن خلال حملته على جنوب فلسطين، والتي استمرت نحو أربعين يوماً هدف ومن ورائها توسيع الاستيطان وحدود مملكته، وتأمين الوجود الصليبي في فلسطين بالقضاء على المقاومة الإسلامية والشعبية، ويبدو من خلال كتب الرحالة الذين زاروا فلسطين بعد هذه الحملة أنه فشل في القضاء على المقاومة؛ حيث استمرت المقاومة تضرب بكل قوه الصليبيين في كل مكان من فلسطين؛ كما أشار إلى ذلك كلُ من سايولف ودانيال.

وفي شوال 496هـ/يوليو 1103م وعند وادي فلاح([3]) حيث تكثر الأشجار مكونة ما يشبه الغابات استطاع أفراد المقاومة أن يكمنوا للملك بلدوين الأول ملك بيت المقدس، وقد أصيب الملك إصابة خطيرة كادت تودي بحياته([4]) ولعل هذه الحادثة توضح أن المجموعات المسلحة في فلسطين كانت توجه جهودها لمحاربة الجنود والفرسان الصليبيين، وليس لمحاربة الحجاج الغربيين الذين كانوا يفدون إلى فلسطين من أجل زيارة الأماكن المقدسة([5]).

ولقد أثار تدفق اللاجئين إلى المناطق والمدن الإسلامية في أعقاب الغزو الصليبي مشاعر الاستياء ضد القيادة الإسلامية، والتي عبر عنها الكثير من المؤرخين المعاصرين، وصوروها لنا في العبارات التالية "كانت الفرنج قد اتسعت بلادهم وكثرت أجنادهم، وعظمت هيبتهم، وزادت صولتهم، وامتدت إلى بلاد المسلمين أيديهم، وضعف أهلها عن كف عاديتهم، وتتابعت غزواتهم، وساموا المسلمين سوء العذاب، واستطار في البلاد شرر شرِّهم"([6])

([1]) الشارترى، تاريخ الحملة، ص109. Albert d, Aix, lok. cit.

([2]) الشارترى، تاريخ الحملة، ص109، 110. الصوري، تاريخ،ج1، ص487، 488.

([3]) **وادي فلاح:** واد صغير تمده مياه الأمطار المتساقطة على ناحية خربة الشلالة، وخربه الدامون؛ ينتهي في البحر عند ظاهر مدينة عتليت الشمالي ويطلق عليه اليهود وادي ناحال أورن Nahal Oren. الدباغ، بلادنا، ق2،ج7، ص463.

([4]) الصوري، تاريخ،ج1، ص511.

([5]) البيشاوي، المقاومة، ص372.

([6]) أبو شامه، الروضتين،ج1، ص156.

وقد دفع إستياء الجماهير المسلمة بعض القيادات الإسلامية للتحرك ومحاربة الصليبيين والتصدي لهم، ففي مطلع507هـ/1113م تحرك مودود[1] حاكم الموصل على رأس تحالف إسلامي[2] بناء على استنجاد طغتكين أمير دمشق الذي تعرضت أمارته لهجمات شديدة من قبل صليبي بيت المقدس، حيث أغار ملك القدس بلدوين الأول عدة مرات على البثينة[3] مما أدي إلى انقطاع الطرق، وقلة الأقوات وغلاء الأسعار فيها[4] لذا كانت فلسطين هدف الجهاد والمقاومة حيث تمركز الجيش الإسلامي المتحالف جنوب بحيرة طبرية إلى الشرق من نهر الأردن عند قرية الصنبره[5] في حين أقام الفرنج معسكرهم غربي جسر الصنبره، وأملوا أن يهاجموا المسلمين في الإقحوانه شرقي نهر الأردن[6] وفي 13 محرم/28يونيو كان اللقاء عند طبرية وانتهي بهزيمة الصليبيين بعد قتال شديد أعقبه سلسلة من الانتصارات ضدهم أسفرت عن مقتل العديد من الفرنجة، والتجأ الفرنجة إلى هضبة تقع إلى الغرب من طبرية[7].

وذكر ابن الأثير أن الفرنجة لم يتحركوا من هناك لمدة ستة وعشرين يوما[8] حيث أن مجموعة من المسلمين عبرت الجسر وقابلت الفرنجة غربي النهر، وفرضت حصارا على القوات الصليبية المتحصنة فوق هضبة طبرية[9] وفي الوقت الذي اجتاحت فيه القوات المتحالفة فلسطين؛ كانت المملكة الصليبية من أقصاها لأقصاها تتعرض للسلب والنهب لمدة شهرين على أيدي القوات الإسلامية المتحالفة، وبمساعدة الفلاحين داخل المناطق التي يحتلها الفرنج، ولكن المدن المسورة باستثناء نابلس صمدت أمام هذه الهجمات[10] حيث قام المسلمون بمساعدة القوى الإسلامية المتحالفة فكانوا مرشدين لهم لمختلف القلاع والحصون

---

[1] **مودود:** وهو صاحب الموصل اقطعه إياها السلطان محمود السلجوقي سنة 502هـ. كانت له عدة حروب مع الصليبيين أهمها قياده التحالف الإسلامي في شوال سنة503هـ/1109م ضد إمارة الرها، والتحاف الإسلامي سنة505هـ/1111م وذلك لشن الغارات ضد الواقع الصليبية شرقي الفرات والرها وكذلك قاد التحالف الإسلامي ضد الصليبيين507هـ/1113م حيث اجتاحت قواته بالاشتراك مع طغتكين فلسطين،اغتيل على يد أحد الباطنية في مسجد دمشق 507هـ.ابن القلانسي، ذيل، ص160، 187.ابن الأثير، الكامل،ج9، ص150.ابن خلكان، وفيات،ج1، ص242.خليل، الإمارات، ص221،226.

[2] تألف هذا الحلف من مودود أمير الموصل، وطغتكين أتابك دمشق، وتمريك أمير سنجار، وإياز ابن إيلغازي. ابن الأثير، الكامل،ج9، ص149.

[3] **البثينة:** وهي اسم ناحية من نواحي، دمشق وقيل هي قرية بين دمشق، وأذرعات. الحموي،ج1، ص338.

[4] إبن القلانسي، ذيل، ص183، 184.إبن الأثير، الكامل،ج9، ص149.

[5] الشارتري، تاريخ الحملة، ص151.الصوري، تاريخ،ج1، ص594.

[6] إبن القلانسي، ذيل، ص185.

[7] إبن القلانسي، ذيل، ص185.الشارتري، تاريخ الحملة، ص151، 152.الصوري، تاريخ،ج1، ص548. ابن الأثير، الكامل،ج9، ص149.بيضون، طبرية، ص5– 8.

[8] ابن الأثير، الكامل،ج9، ص149.

[9] ابن القلانسي، ذيل، ص185. ابن الأثير، الكامل،ج9، 149

[10] ابن القلانسي، ذيل، ص186. الشارتري، تاريخ الحملة، ص152. الصوري، تاريخ،ج1، ص549.

والضياع الفرنجية، فضلا عن الاشتراك معهم بقتال الفرنجة، ونقل المؤن التي ظفرت بهـا القوات المتحالفة من أنحاء المملكة إلى معسكر الجـيش الإسـلامي، ووصـف الـصوري الأوضاع الأمنية في المملكة على إثر اجتياحها من قبل القوات المتحالفـة بقولـه " حولـوا المملكة بأسرها إلى حالة كبيرة من الرعب"([1]).

وغالبا ما تعرضت المستوطنات الفرنجية وأريـاف مملكـة بيـت المقـدس لغـارات العسقلانيين عندما كان بلدوين وجيشه في الشمال بهدف ضرب الاقتصاد الصليبي، وإحداث اضطرابات سياسية ينشأ عنها اضطرابات أمنية قد تدفع بالمستوطنين إلى مغادرة فلسطين أو عدم تشجيع المهاجرين الجدد على القدوم إلى الأراضي المقدسة والإقامة فـي مـستوطناتها، فيذكر الشارترى أن المستوطن والفلاح الصليبي في عام 519هـ/1125م ولم يكـن لديـه فرصة لالتقاط أنفاسه، وانه كان يعيش في توتر وقلق دائم بسبب دقات طبول الحرب، لدرجة انه كان يعود إلى منزله محملا بالمؤن، والأغذية متسائلا عما إذا كان يستطيع العـودة إلـى حقله مرة أخرى؛ كما يذكر أن فلاحين كثيرين لقوا مصرعهم أو وقعوا في أسـر المقاومـة الإسلامية الشعبية النظامية الذين كانوا ينصبون الكمائن في كل مكان([2]).

وذكر ثيودريش الذي زار فلسطين فيما بين عامي567- 569هـــ/1171- 1173م أن معظم أراضي مدينة أريحا لم يتم زراعتها بسبب غارات المسلمين([3]) المتواصـلة لتـدمير الاقتصاد الصليبي الذي يعتمد في المقام الأول على الزراعة، وفـي إحـدى قـرى منطقـة عكا([4]) لعبت المقاومة الشعبية دوراً بارزاً في مقاومة الاحـتلال الـصليبي، سـواء كـان بعمليات نصب الكمائن واقتحام المستوطنات والقـرى الـصليبية للقيـام بعمليـات الـسلب والنهب والتدمير المتعمد للمزارع والحقول؛ أو بالتستر وإخفاء رجال المقاومـة الإسـلامية المتسللين عبر حدود المملكـة للقيـام بعمليـاتهم العـسكرية داخلهـا، ويبـدو أن سـكان القرية قد سببوا إزعاجاً كبيراً للمملكة بسبب مواقفهم المعادية؛ الأمر الذي دفـع بالـصليبيين لتجريد أكثر من حملة "لإبادتهم تماماً لكن دون نجاح" مما زاد من قوتهم وخطـرهم الأمـر الذي دفع الملك بلدوين الرابع لشن حملـة عـسكرية أخـرى ضـدهم اضـطروا علـى إثرها للنزوح مع أسرهم إلى دمشق، ومن تبقى منهم تم القضاء عليه([5]) ويـذكر الـصوري أن هؤلاء اللاجئين العكاويين قد انضموا إلـى المقاومـة الإسلاميـة فـي دمشق "وواصلوا

([1]) الصوري، تاريخ،ج1، ص549. ولمزيد وعن معركة الصنبره، انظر.فنك، تأسيس، ص91.البيشاوي، نابلس، ص79..

([2]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص223، 224.

([3]) ثيودريش، وصف، ص109.

([4]) يذكر الصوري هذه القرية باسم بكدس Bcdes وبالعامية بكال Bucael، الصوري، تاريخ،ج2، ص1008.ولم يـتم التعـرف على القرية من قبل الباحث.

([5]) الصوري، تاريخ،ج2، ص1008، 1009.

من دمشق عاداتهم القديمة، وشنوا هجمات كثيرة على منطقتنا [المملكة] وبشكل سري"([1]).

ويبدو أن رجال المقاومة الذين كانوا يقومون بعملياتهم العسكرية ضد الغزاة الفرنجة كانوا يتخفون بارتداء الزي الفرنجي حتى يتمكنوا من الوصول إلى قلب القرى، والمدن الصليبية؛ مما دفع قادة الفرنجة في مؤتمرهم المنعقد في نابلس513هـ/1120م على اتخاذ قرار ينص على أن أي رجل مسلم أو امرأة مسلمة يرتدي أو ترتدي ملابس الفرنجة يقدم أو تقدم للمحكمة([2]).

ومن أجل التخفيف من حدة المقاومة الإسلامية الشعبية والنظامية أقام الصليبيون سلسلة من القلاع في جميع أنحاء المملكة بهدف توطيد السيطرة الصليبية على المناطق المحتلة، ومن أجل جعلها مراكز للاستعمار([3]) فقد "كانت السيادة الفعالة على مقاطعة ما ترتكز على حيازة المدن المسورة، والقلاع المحصنة الموجودة فوق أراضيها، ويستطيع الغازي أن يسيطر على منطقة ما طالما أنه احتلها بجيشه؛ لكن سيطرته تنتهي بانسحاب قواته إذا لم يتخذ لنفسه مكاناً حصيناً، وكان الهدف الأول لكل غازٍ يرغب في إلحاق أرض بممتلكاته هو الاستيلاء على نقاطها الحصينة"([4]) وهذا ما فعله الصليبيون حينما احتلوا فلسطين، إذ اتبعوا خطة تهدف إلى إقامة خطوط دفاعية حول المناطق التي سيطروا عليها لتتعرض للمسلمين، وتتصدى لحركة المقاومة الإسلامية النظامية والشعبية([5]).

ومن جوانب المقاومة الشعبية غير المسلحة التي انتهجها الأهالي في بعض المدن والقرى، وما يشير عن رفضهم للوجود الفرنجي الصليبي، وسياسته المبنية على القمع والتهجير، وسفك الدماء؛ لجوؤهم إلى استخدام العامل الاقتصادي المتمثل بالامتناع عن زراعة أراضيهم، وبساتينهم بالمحاصيل الزراعية الضرورية حتى لا يستفيد الصليبيون منها في محاولة منهم لممارسة الضغط على القيادة الصليبية بإصدار أوامرها إلى قواتها العسكرية بتخفيف إجراءاتها القمعية ضد السكان المحليين الذين بقوا متمسكين بأرضهم وفي ذلك يقول الصوري"وعلاوة على ذلك رفضوا [سكان الأراضي المحتلة] زراعة الحقول حتى يعاني شعبنا من الجوع، وحقاً لقد فضلوا أن يتحملوا أنفسهم المجاعة على أن يزودوا المسيحيين بأي شيء ذلك لأنهم يعدونهم أعداء لهم"([6]) بل إن كثيراً من الفلاحين الذين قاموا بزراعة أراضيهم قاموا بتدمير وتخريب أراضيهم المزروعة، ولا شك أن أسلوب المقاومة هذا يشبه

([1]) الصوري، تاريخ،ج2، ص1009.

([2]) الصوري، تاريخ،ج1، ص586،587. عطية، مجلس نابلس، ص51.

([3]) سميل، تاريخ، ص58.

([4]) الصوافي، القلاع، ص217.

([5]) براور، الاستيطان، ص339، 340.

([6]) الصوري، تاريخ،ج1، ص471.

ما يعرف اليوم "بالعصيان المدني" الذي كانت لــه نتائجه السلبية على الاقتصاد الصليبي([1]).

لم يقف "العصيان المدني" عند حد امتناع الفلاحين عن زراعة أراضــيهم بالمحاصــيل الزراعية، ولكنه شمل في أوقات أخرى الامتناع عن دفع الضرائب لجباتها مــن الفرنجــة؛ ففي سنة551هــ/1156م كان باليان الثاني قد ارتكب أعمالاً وحشية بحــق ســكان القــرى الواقعة في إقطاعه في جنوب غرب نابلس من سجن واعتقال وتعذيب، وصلت إلى درجــة تقطيع الأرجل عندما رفضوا الرضوخ للنظام الضرائبي القاسي الذي فرضه عليهم، حيــث بلغت الضرائب المفروضة أربعة أضعاف مثيلتها في المناطق المجاورة([2]).

ولقد لعب آل قدامه سكان قرية جماعيل وفي مقدمتهم الفقيه أحمد بن قدامه دوراً بــارزاً في تأجيج المقاومة الشعبية، وتحريض سكان القرى المجاورة مثل قريــة مــرده والــساوية وياسوف وعوريف ضد الفرنجة إذ كان سكان هذه القرى يفدون إلى جماعيل لسماع خطبهم في أيام الجمعة، وكانت الاجتماعات التي تعقد في جماعيل بمثابة حلقات دراسية لأهل القرى المجاورة؛ هذا بالإضافة إلى أنهم كانو يشجعون الناس على مقاومة الفرنجة مــن خــلال تحريض الفلاحين على ترك العمل في الأراضي الزراعية، ولا شك أن هذه الدعوة قد لقــت استجابة من أهل القرى الذين كانوا يعانون من ظلم الإقطاعيين([3]).

ويروي لنا أسامه ابن منقذ الذي زار نابلس أثناء تبعيتها للحكم الصليبي؛ في عهد الملك فولك أوف لانجو أن فلاحي إقليم نابلس اعتادوا على مقاومة الفرنج منذ البداية فقــد كونــوا جماعات للمقاومة تهجم على القرى والضياع الفرنجية وتنهبها، أو تتصيد الصليبيين فــرادى في بعض المدن التي يحتالون في المبيت فيها ويقتلونهم، وقد شاهد أسامه بن منقذ محاكمــة بعض هؤلاء المسلمين في مدينة نابلس([4]).

كما قام أفراد المقاومــة الشعبيــة في مدن وقرى الأراضي المحتلة بإخفاء وتهريب الأسرى المسلمين فيذكر ابن منقــذ أن مــسلمي عكــا كــانوا إذا وصــل إلــيهم الأســير "أخفــوه وأوصلوه إلى بلاد الإسلام"([5]).

وشاركت المقاومة الإسلامية المنظمة والشعبية بعمليات تحرير الأراضي التي اغتصبها الفرنجة سواء كــان بتقديم المعلومات أو بالمشاركة الفاعلة، ولعل ما يؤيد ذلك مــا ذكــره المؤرخون عندما وصلت أنباء هزيمة الصليبيين في حطين إلى سكان مدينــة نــابلس فــر

([1]) سلامة، الاستيطان، ص205.

([2]) ابن طولون، القلائد،ج1، ص 67.

([3]) المصدر نفسه،ج1، ص 67، 68

([4]) المصدر نفسه، ص246. يذكر أن أحكام الفرنجة الصليبيين تتم عن طريق محاكمة المتهمين عن طريق المبارزة، والمحاكمــة عن طريق الماء. ينظر ابن منقذ، الاعتبار، ص245، 246.

([5]) ابن منقذ، الاعتبار، ص203.

الصليبيون منها، وقام المسلمون بمهاجمة الفرنجة، واقتحموا بيـوت الـصليبيين المهجـورة "وغنموا ما وجدوه من الذخائر والمتاع وأوقعوا بـضعفائهم، وضـايقوا الحـصون علـى الأقوياء"([1]) وتمكنوا من بسط سيطرتهم على المباني والمؤسسات الحكوميـة قبـل وصـول القوات الإسلامية إليها، وجاء هجوم سكان مدينة نابلس والزمام الريفي المحيط بهـا علـى الصليبيين تعبيراً عن رغبتهم في التخلص من السيطرة الصليبية التي استمرت ثمان وثمانين سنة عانوا خلالها كثيراً من الإرهاب والتعسف الصليبي([2]) وعلى ذلـك يمكـن القـول أن انتصار المسلمين في حطين كان له دورُ كبيرُ، ودافع قوي لثورة الأهالي في المناطق المحتلة على محتليهم من الفرنجة الصليبيين([3]).

ويمكن الاعتماد على اليوميات التي دونها ابن شداد فـي كتابـة النـوادر الـسلطانية، والذي واكب الجيش الصلاحي في المعارك التي دارت رحاهـا علـى أراضـي فلـسطين في الدور الذي لعبه أهالي فلسطين من أجل الدفاع عن بلدهم، ومقاومـة الـصليبيين أثنـاء محاولتهم السيطرة على عكا في الحملة الصليبية الثالثة([4]) حيث شارك في الدفاع عن البلـد الرجال والصبيان([5]) والنساء([6]).

ولقد أدت الحرب الصليبية الثالثة إلى عقد صلح الرملة([7]) وتقلـيص مـساحة المملكـة الصليبية لتشمل الشريط الساحلي الممتد من يافا إلى صور، ولكن نتيجة للـدعم العـسكري الأوروبي للمملكة الصليبية([8]) والتنافس والتنازع بين أبناء البيت الأيوبي([9]) أدى إلى عـدم ثبات الحدود ومناطق السيادة بين الطرفين الصليبي والإسلامي.

ولعبت المقاومة خلال العهدين الأيوبي والمملوكي دوراً بارزاً فـي مقاومـة جيـوب الاحتلال الغربي الصليبي، وقد عبر ابن واصل عـن جهـود المقاومـة المتواصـلة ضـد الصليبيين، واستمرارها في نصب الكمائن بقوله:"وكمنوا لهم تحت كل رابيـة"([10]) ويـذكر أرنول الذي زار فلسطين في حوالي618هـ/1220م تواصل المقاومة الفلسطينية في نـصب

([1]) الأصفهاني، الفتح، ص67.أبو شامه، الروضتين،ج3، ص203.

([2]) البيشاوي، نابلس، ص167.سميل، الحروب، ص55.

([3]) الفراني، المقاومة، ص282. علي، المقاومة، ص259.

([4]) إبن شداد، النوادر، ص74، 85، 95،120. الأصفهاني، ص209، 270.

([5]) إبن شداد، النوادر، ص74.

([6]) المصدر نفسه، ص131.

([7]) الأصفهاني، الفتح، ص353، 354. إبن شداد، النوادر، ص189– 192. بن الأثير، الكامل،ج10، ص218، 219.أبو شـامه، الروضتين،ج4، ص191،190.إبن واصل، مفرج،ج2، ص404.لمزيد ينظر شاهين، صلح الرملة، ص390.

([8]) ينظر ص102– 104 من الدراسة.

([9]) أبو شامه الروضتين،ج4، ص245.ابن خلكان، وفيات،ج420،3..

([10]) ابن واصل، مفرج،ج2، ص392.

الكمائن بين أرسوف ويافا بالقرب من نهر الفالق([1]) "فهناك سكن أناس بلا إيمان من أجل نهب الناس الذاهبين إلى يافا وقطع الطريق عليهم"([2]).

وعبرت المقاومة الشعبية عن رفضها لتخاذل قادة الأيوبيين في محاربة الصليبيين وإتباعهم سياسة المهادنة معهم، فقد أثارت اتفاقية يافا627هـ/1229م([3]) غضب الجماهير المسلمة ضد الكامل الأيوبي، ووفق نص المقريزي "اشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل... وعظم على أهل الإسلام هذا البلاء، واشتد الإنكار على الملك الكامل، وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار"([4]) وفي فلسطين تعرضت بيت المقدس لهجوم من جانب المسلمين المقيمين بحي المدينة التابع لهم، ويرجع سبب هذا الهجوم إلى وجود بعض القتلى من المسلمين عثر عليهم في آبار المدينة، فقام المسلمون على الفور بمهاجمة الصليبيين حيث نسبوا إليهم هذه الجريمة، وسارعت حامية المدينة الصليبية لطلب النجدة من عكا، وقد أحدثت هذه الغارة ما يقرب من خمسمائة قتيل، وقد أنكرت السلطات الأيوبية مسئوليتها عن هذا الحادث الذي ربما وقع نتيجة لتلك الحملة الإعلانية([5]) التي قام بها الناصر داوود([6]) ضد معاهدة يافا عن طريق الوعاظ والخطباء ومنهم سبط ابن الجوزي([7]) ويبدو من الخسائر الفادحة التي تعرض لها الصليبيون أنها لم تقتصر على مسلمي القدس وريفها بل شارك فيها العديد من مسلمي الخليل ونابلس([8]).

لم تكن المقاومة الشعبية ضد الاحتلال الفرنجي الصليبي قاصرة على الرجال فقط بل شاركتهم في تلك المقاومة المرأة التي تحملت معاناة الاحتلال فقد تعرضت النساء للقتل والأسر بعد اجتياح الصليبيين للمدن الإسلامية فعندما احتل الصليبيون مدينة قيسارية سنة499هـ/1101م ارتكبوا فيها مجزرة مروعة ضد سكانها ومارسوا كل أساليب الإرهاب "وأثار منظر الجثث التي لا تحصى والدمار، الرعب الشديد"([9]) وأبقوا على حياة النساء المسلمات اللاتي تحولن جميعاً إلى جاريات، وعملن بالأعمال الشاقة حيث كلفن بإدارة

([1]) **نهر الفالق:** وادٍ ضيق يصب في شمالي قرية "الحرم- سيدنا علي" ذكره الصليبيون باسم "Rochetaille" ويذكر أحياناً باسم نهر أرسوف؛ التي تقع خرائبها في شمالي "سيدنا علي". الدباغ، بلادنا، ق1،ج1، ص34.

([2]) أرنول، وصف، ص111.

([3]) نوفار،حروب، ص45-47.ابن واصل، مفرج،ج4، ص241-243. المقريزي، السلوك،ج1، ص353، 354.

([4]) المقريزي، السلوك،ج1، ص354.

([5]) عوض، العلاقات، ص296.

([6]) **الناصر داوود:** هو ابن المعظم عيسى تولى حكم دمشق625هـ/1227م خلفاً لوالده ولكنه سرعان ما تنازل عنها لعمه الأشرف موسى وعوض عنها بالكرك والبلقاء والأغوار ونابلس وأقام فيها إمارة عرفت باسم إمارة الكرك الأيوبية، لمزيد من التفاصيل انظر.ابن خلكان،وفيات،ج3، ص492،496.غوانمة، إمارة الكرك، ص231 وما بعدها.

([7]) ابن واصل، مفرج،ج4، ص246،245. المقريزي، السلوك،ج1، ص 356

([8]) رنسيمان، الحروب،ج3، ص341.

([9]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص115.الصوري، تاريخ،ج1، ص496.

الطواحين؛ أما من لم يستطعن العمل في الطواحين وغيرها فقد كان يتم المتاجـــرة فيهن([1]).

ولقد عبر ابن جبير عن سوء أحوال الجواري والعبيد المسلمين الذين كانوا تحت أيـــدي الصليبيين حين زار فلسطين([2]) بقوله:"ومن الفجائع التي يعانيها من حـــل بلادهـــم أســـرى المسلمين، يرسفون فـــي القيـــود، ويـــصرفون فـــي الخدمـــة الـــشاقة تـــصريف العبيـــد، والأسيرات المسلمات كذلك، وفي أسواقهم خلاخيل الحديد فتنفطر لهـــم الأفئـــدة ولا يغنـــي الإشفاق عنهم شيئاً([3]).

ومن صور مقاومة وتضحية المرأة مشاركتها في تحرير الأسرى المسلمين فقد ذكر ابن جبير أن بعض النساء المسلمات الثريات شاركن في تحرير الأسرى المغاربة الذين شـــاركوا في مقاومة الاحتلال الفرنجي الصليبي وتم أسرهم([4]).

وقدم لنا أسامه بن منقذ عند تناوله الحديث عن المرأة المسلمة في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية العديد من الصور ومظاهر البطولة الفردية لعدد من النساء فـــي ميـــادين القتال، وكذلك أوضاع الأسرى منهن([5]) فقد روي أن امرأة نابلسية قد تزوجـــت مـــن أحـــد الصليبيين ثم قامت بقتله، وكانت تحرض إبنها على مقاومة الصليبيين، فكان ابنها يحتال على الحجاج الصليبيين "ويتعاون هو وأمه على قتلهم"([6]).

كما شاركت النساء في عمليات تحرير المدن مـــن ذلـــك مـــا يـــروى فـــي حـــوادث سنة 663هـــ/1265م عنـــدما توجـــه الظـــاهر بيبـــرس لتحريـــر مدينـــة أرســـوف مـــن الاحتلال الصليبي، وخلال حصار الجيش الإسلامي للمدينـــة "كانـــت النـــساء الـــصالحات يسقين الماء في وسط القتال، ويعملن في جر المجـــانيق"([7]) كمـــا لعبـــت المـــرأة المـــسلمة دوراً هاماً في تحريض المسلمين على قتال الصليبيين ومقاومتهم؛ فقـــد أشـــار ســـبط بـــن الجوزي إلى أن نساء دمـــشق تبـــرعن بـــشعورهن للمـــشاركة فـــي جهـــاد الـــصليبيين، وعندما اجتمـــع سبط إبن الجوزي مـــع المعظم عيسى([8]) فـــي نابلس وعرض عليه الشعور

([1]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص115.

([2]) بدأت رحلة ابن جبير من غرناطة في شهر شوال 578هـ واستمرت إلى محرم 581هـ.عوض، الجغرافيون، ص284.

([3]) ابن جبير، الرحلة، ص238.

([4]) المصدر نفسه، ص238.

([5]) عوض، الجغرافيون، ص248.

([6]) ابن منقذ، الاعتبار، ص246.

([7]) المقريزي، السلوك،ج2، ص21.

المنجنيق: مفرد جمعة مجانيق، و مجانيق اسم أعجمي، وهي آلة حربية قديمة كانت تستعمل لأغراض الحصار، ترمي قذائف عرفها العرب، واستخدموها في حروبهم.الطرسوسي، تبصره، ص163،164.القلقشندي، صبح،ج2، ص152،153.

([8]) **المعظم عيسى:** هو شرف الدين عيسى ابن الملك العادل صاحب دمشق، ولد في القـــاهرة ســـنة 576هـــ. كانـــت مملكتـــه تمتد من حمص إلى العريش، وكان يدخل فيها بلاد الساحل، وبلاد الغور، والكرك، وأرض فلسطين، والقدس، وغيرها، توفي سنة 621هـ. ابن خلكان، وفيات،ج3، ص494، 495.الذهبي، سير،ج22، ص120-122.

فأخذها منـــه المعظـــم عيسى"وجعلها علـــى وجهـــه وجعل يبكي وكان يومـــاً عظيمـــاً"([1]).

ومن المشاكل الاجتماعية التي واجهت المرأة المسلمة في فلـــسطين ومنـــاطق اللجـــوء "ظاهرة الترمل "حيث وجدت في بلاد الشام أعداد كبيرة من النساء المترملات اللاتي فقـــدن أزواجهن في المعارك([2]) مما دفع نور الدين محمود للقيام بتزويج عدد من النساء اللاتي فقدن أزواجهن في الحروب([3]) وهذا دليل واضح على شيوع هذه الظاهرة، فلو كانت أعدادهم قليلة لما فكر نور الدين محمود بالتدخل.

هكذا شاركت كل فئات المجتمع الفلسطيني في مقاومة الاحـــتلال الفرنجـــي الـــصليبي لفلسطين، وشاركت المقاومة الشعبية الفلسطينية، المقاومة الإسلامية المنظمة فـــي حـــروب التحرير سواء عن طريق تقديم المعلومات عن تحركات الفرنجة وتحصيناتهم أو من خـــلال المشاركة الفاعلة في مقاومة الاحتلال وتحرير المدن.

ومما يؤخذ على مؤرخي المسلمين إطلاق كلمة "حراميه"([4]) أو "لصوص"([5]) علـــى أفـــراد المقاومة الشعبية وأفراد القوات الخاصة.

([1]) سبط إبن الجوزي، مرآة الزمان، ق2،ج8، ص545، 546. أبو شامه، الروضتين،ج5، ص107، 108.

([2]) عوض، السياسة الخارجية، ص260.

([3]) أبو شامه، الروضتين،ج2، ص205. خليل، نور الدين، ص117.

([4]) ابن منقذ، الاعتبار، ص200، 245.

([5]) ابن شداد، النوادر، ص118، 149، 151.

الفصـــــــل الثالث

البنيـــــة السكانيـــــة لفلسطين زمن الاحتلال الصليبي

ا- فئات السكان الدينية:

- **المسلمــون.**

-**المسيحيين** : اللاتين – الأرثوذكس- اليعاقبة- السريان.

- **اليهــــود:** الربانيون – القراؤون – السامرة.

ب- أقسام السكان من حيث نمط المعيشة: المدن- القرى- البدو.

ت- العوامل المؤثرة على البنية السكانية:

- الحروب.
- الكوارث الطبيعية.
- الأوبئة والمجاعات.

فئات السكان الدينيـــــــــة :

يتميز سطح فلسطين بتواجد أربع ظواهر تضاريسه، تتمثل في ســهل ســاحلي يــزداد أتساعا في اتجاه الجنوب، ثم هضبة متوسطة الارتفاع تعتبر إمتداداً لجبال لبنــان الــشرقية يعترضها سهل مرج بن عامر([1]) من الشرق إلى الغرب، ثــم مــنخفض غــور الأردن([2]) أما الظاهرة الرابعة والمؤثرة في هــذا المجــال فهــي صــحراء النقــب([3]) وهــي تمثــل القسم الصحراوي من فلسطين، وتحتل معظم القسم الجنوبي، وتشكل ما يقرب مــن نــصف مساحة فلسطين([4]).

إن توزيعات السكان ترتبط ارتباطا وثيقا بالتضاريس، ومظاهر السطح، وهكذا ففلسطين كانت تتناقض سكانيا في أجزائها الساحلية، والصحراوية، وكذلك تتنــاقض مــع المنــاطق المجاورة التي إمتازت بتواجد السهول الفيضية([5]) حيث ارتبطت فلسطين؛ كجزء من إقلــيم الهلال الخصيب بشبه الجزيرة العربية منذ القدم، ومن الطبيعي أن تتوالى الهجرات العربيــة من جزيرة العرب ذات البيئة الطاردة للسكان إلى فلسطين ذات البيئة الجاذبة للسكان([6]).

وتحدث المؤرخون الصليبيون والرحالة الذين زاروا الأرض المقدسة أثناء فترة الحروب الصليبية؛ إلى مدى تعدد أجناس السكان، وكان أول من تنبه إلى ذلك فوشيه الشارترى الذي صاحب احد جيوش الحملة الصليبية الأولى فذكر العرب، والأتراك، والأحباش، واليونــان، والسريان، وتحدث عن العناصر الأوروبية التي إستوطنت فلسطين من فرنــسيين وانجليــز وايطاليين وألمان وأسبان([7]).

ويشير الرحالة يوحنا فورزبورغ الذي زار فلــسطين فــي الفتــرة مــا بــين 555- 566هــ/1160- 1170م إلى العناصر المكونة للبنية السكانية في مملكة بيت المقدس فذكر الأرمن، والسريان، والأقباط، والمصريين، والموارنة، والجورجيين، والأتراك، والهنود؛ هذا

([1]) **مرج بن عامر:** سمى بهذا الاسم نسبة إلى بني عامر من قبيلة بني كلب الذين نزلوا في أوائل الفتح الإسلامي، يفصل مرج بن عامر جبال فلسطين الشمالية عن جبال نابلس، وجبال الكرمل، ويبلغ طوله من الشرق إلى الغرب نحو 20كم ومــن الــشمال إلى الجنوب نحو 19كم وعلى ذلك تقدر مساحته بنحو 351كم2، وهو بالنسبة لتركيبه وخصبه يعــد مــن أفــضل أراضــي فلسطين، وأشهر ممراته المجاورة ممر مجدو ووادي نهر المقطع ويصلانه بسهل الساحلي. الدباغ، بلادنا، ق1،ج1، ص50.

([2]) غلاب، سكان فلسطين، ص127.

([3]) **صحراء النقب:** النقب بمعنى الأرض الجافة، وهي على شكل مثلث رأسه خليج العقبة وقاعدته تمتد من وادي غزه والطــرف الجنوبي للبحر المميت، وهو الممر البرى الوحيد الذي يربط مصر والشام والجزيرة العربية الأمر الذي جعلها ممرا لطـــرق القوافل التجارية، وقد أنشأ فيها الأقباط عددا من المحطات التجارية التي تحولت إلى قري زراعية فــي العـــهد البيزنطــي. أبوالرب، تاريخ فلسطين، ص20، الدباغ، بلادنا، ق1،ج1، ص122.

([4]) الدباغ، بلادنا، ق1،ج1، ص122، 123.

([5]) عوض، التنظيمات، ص77، 78.

([6]) غلاب، سكان فلسطين، ص130.

([7]) الشارتري، تاريخ الحملة ، ص70، 77، 108، 218.

بالإضافة إلى العناصر الأوروبية التي استوطنت في مملكة بيت المقدس الصليبية عقب الاحتلال الصليبي لها من لآتين، وبرتغاليين، وألمان، وانجليز، وفرنسيين، وغيرها ([1]).

وتحدث بنيامين التطيلي الذي زار فلسطين 563هـ/1167م عن عناصر اليهود وذكر اللاتين، واليعاقبة، والسريان، والأرمن، واليونان، وغيرهم([2]) وذكر أن سكان بيت المقدس يتحدثون لغات مختلفة، ويعتنقون أديان متعددة، ومذاهب شتي فهم "خليط من كل أمة ولسان"([3]).

وتناول يعقوب الفيتري في إسهاب العناصر السكانية في بلاد الشام فذكر أن الأرض المقدسة، وبلاد الشام تضم عناصر عربية وآخرى تركية وكردية وعناصر من السريان واليونان، والأرمن، واليعاقبة، واليهود؛ فضلا عن العناصر الجديدة التي استوطنت فلسطين في عصر الحروب الصليبية من فرنسيين، وألمان، وانجليز، وايطاليين، وغيرهم من العناصر الأوروبية ([4]).

كما أن الرحالة بورشارد ذكر سنة 682هـ/1283م العديد من العناصر السكانية التي كونت البنية السكانية لفلسطين فذكر المسلمين، واللاتين، والسريان، واليونان، واليعاقبة، والأرمن والجورجيين، والفرس، والمصريين([5]).

هكذا شهدت فلسطين تنوعا سكانيا في بنيتها السكانية، وهذا التنوع السكاني كان يوازيه تنوع آخر في دياناتهم ومذاهبهم، وعندما غزا الصليبيون فلسطين استوطنتها عناصر مختلفة منهم مما زاد من تنوع البنية السكانية في فلسطين([6]).

كما كان للغزو، والاستيطان الصليبي آثره على البنية السكانية لفلسطين، ممّا جعل هذه "التركيبة السكانية الفسيفسائية" في حالة من السيولة وعدم الاستقرار إذ أن المذابح والمجازر التي ارتكبها الصليبيون ضد السكان المحليون، وعمليات الطرد والتهجير، وسياسة الاستيطان وإعادة التوطين، وتبادل السيادة على مناطق النفوذ أدت إلى تغيرات في البنية السكانية ([7]).

ولقد قدر بعض المؤرخين المحدثين سكان فلسطين في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي فيما بين أربعمائة ألف إلى خمسمائة ألف نسمة ([8]) يسكن منهم نحو عشرون

([1]) فورزبورغ، وصف، ص113.

([2]) التطيلي، ص239، 247، 268.

([3]) المصدر نفسه، ص247.

([4]) الفيتري، تاريخ، ص96، 97، 108، 118، 130.

([5]) بورشارد، وصف، ص17، 173.

([6]) قاسم، ماهية، ص195.

([7]) المرجع نفسه، ص195.

([8]) مصطفى، فلسطين، ص452.

ألفا في مدينة القدس حسب تقدير الرحالة ناصر خسرو حوالي441هـ/1050م([1]) وحوالي ضعف ذلك أو أكثر منه في الرملة التي هلك من سكانها في زلزال 459هـ/1068م ما يقدر بنحو خمسة وعشرين ألفا([2]).

هكذا تعددت عناصر البنية السكانية في فلسطين، وتأثرت بعدد من العوامل أدت إلى خلخلتها خلال فترة الحروب الصليبية، وسيتم في هذا الفصل التحدث عن عناصر البنية السكانية لفلسطين.

- المسلمون :

إن جانبا كبيرا من تاريخ فلسطين قبل الإسلام يتعلق بظاهرة الهجرات العربية المتتالية التي نزح فيها العرب إلي مناطق مختلفة من بلاد الشام؛ إما بطريق التغلغل السلمي أو بالقوة العسكرية، وعلى ذلك يستند ابن خلدون حين يقرر بان أول من ملك بلاد الشام هم العرب([3])؛ لذلك يشير محمد كرد على إلى أنه "لم تطل حياه عنصر في الشام كما طالت حياه العرب ... وهم الذين اندمج فيهم عامة الشعوب القديمة واستعربت فلم تعد تعرف غير العربية لسانا"([4]).

وبعد الفتح الإسلامي لفلسطين دخلت بعض القبائل الموجودة في الشام في الإسلام؛ كما حصل للخم وجذام وتعاونوا مع الفاتحين([5]) وشهدت فلسطين عدد من الهجرات، وكانت معظم القبائل التي استقرت في فلسطين من القبائل العربية التي قدمت إلى الشام مهاجرة من أجل الاستقرار والاستيطان ([6]).

وكانت معظم القبائل التي استقرت في فلسطين من القبائل العربية، وإن أكثرها عددا وأوسعها انتشاراً كانت القبائل اليمانية ولاسيما قبيلتي لخم وجذام، ويؤكد ذلك قول حسان بن مالك بن بجدل، واليها زمن يزيد بن معاوية لرواح بن زنباع الجذامي عندما استتابه عليها قوله "أقم أنت بفلسطين فإن جُل أهلها من قومك من لخم وجذام"([7]) ويذكر اليعقوبي(ت284هـ) أن سكان فلسطين "أخلاط من العرب والعجم، ومن لخم، وجذام، وعامله، وكنده، وقيس، وكنانة"([8]).

([1]) خسرو، سفر نامه، ص56.

([2]) أبن الأثير، الكامل،ج9، ص380.

([3]) أبن خلدون، تاريخ،ج2، ص21. وما بعدها.

([4]) على كرد، خطط،ج1، ص63.

([5]) الدوري، الأرض، ص26.

([6]) الدوري، الأرض، ص25، 27. أشتور، التاريخ الاقتصادي، ص22.

([7]) أبن عبد ربه، العقد الفريد،ج4، ص395.

([8]) اليعقوبي، البلدان، ص167.

وشهد النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي(الرابع الهجري) تحرك موجه بشرية خرجت من الجزيرة العربية زاحفة باتجاه العراق والشام، وكانت منها قبائل طئ اليمانية التي إستوطنت فلسطين([1]) وتمكنت من تأسيس أمارة طائية فيها تزعمها آل الجراح([2]) ومنها القبائل القيسية؛ كقبائل مالك والتي تحركت إلى منطقة حوران ([3]) ثم إلى شمال فلسطين وقبائل عقيل التي استقدمها الإخشيد إلى شمال الأردن وطبرية ([4]).

وشهدت بلاد الشام في أواسط القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي تدفق موجه بدوية جديدة على هيئة أفواج متلاحقة قادمة من وراء تركستان نحو الشمال والشرق، وقد عَرف المؤرخون هذه الجماعات بالغز أو التركمان أو السلاجقة، وسرعان ما نظم هؤلاء البداه الجدد أنفسهم على شكل دولة([5]) كانت فلسطين جزءاً منها([6]) وفي سنة479هـ/1086م أقطعت بيت المقدس للأمير ارتق بن اكسب التركماني، وظل يتولى هو وأتباعه من بعده حكمها حتى491هـ/1098م([7]).

ومن الملاحظ أن الأحداث الدموية التي صاحبت غزو الصليبيين لفلسطين تمَّ خلالها الفتك بالآلاف، وفر آلاف من المسلمين إلى المناطق الإسلامية المجاورة طلبا للأمن والحماية؛ خوفا على أنفسهم من المذابح المتوقعة، ومن أمثلة ذلك ما حدث في الرملة وطبرية ويافا وآيلة وغيرها من المدن([8]) حتى كادت فلسطين أن تخلوا من سكانها الأصليين الذين "تفرقوا في بلاد المسلمين"([9]).

ولكن شهد العقد الثاني من عمر المملكة الصليبية حدوث تحول ملحوظ في السياسة الصليبية التعسفية القائمة على إبادة السكان، وتفريغ الأرض سواء كان ذلك بارتكاب المجازر والمذابح أو بعمليات الطرد والتهجير القصري([10]) حيث حاول أفراد طبقة النبلاء منع عمليات النهب والسلب لأهالي المدن التي تم الاستيلاء عليها، وفضل هؤلاء النبلاء استلام

([1]) أبن القلانسي، ذيل، ص1، 2. الحيارى، الأمارة، ص44، 45. المعاضيدي، الحياة، ص52.

([2]) ذكر المؤرخون أنه في عام415هـ/1024م. عقد أمراء ثلاث قبائل في بلاد الشام هي طئ وكلب وكلاب حلفا هدف إلى تقسيم بلاد الشام إلى مناطق نفوذ بينهم، وكان توزيع هذه المناطق على الشكل التالي أن تكون فلسطين وما يرسمها لحسان بن الجراح، ودمشق وما ينسب إليها لسنان، وحلب ومعامعها لصالح . أبن العديم، زبده، ص126، 127.

([3]) **حوران:** هي كوره من أعمال دمشق من جهة القبلة، وهي ذات قري كثيرة ومزارع. الحموي، معجم،ج2، ص317.

([4]) مصطفى، فلسطين، ص466.

([5]) مصطفى، دخول، الترك، ص340، 385. أشتور، التاريخ الاقتصادي، ص271، 275.

([6]) أبن القلانسي، ذيل، ص98، 99. أبن الأثير، الكامل،ج8، ص390. رنسيمان، تاريخ،ج1، ص126، 127.

([7]) أبن العديم، زبده، ص220.

([8]) ينظر، ص91،92. من الدراسة .

([9]) أبن جبير، الرحلة، ص238.

([10]) مستناك، السلام، ص175. براور، عالم، ص67.

المدن بأسواقها التجارية العامرة دون أن يلحقها الدمار لا أن تكون مجرد خرائب خاوية على عروشها([1]) ففي 504هـ/1111م وافق الملك بلدوين الأول على خروج حامية صيدا لاستخدامهم في زراعة الأرض([2]) وحدث نفس الشيء عن استيلاء الفرنج على صور 518هـ/1124م حيث خرج منها من أراد الخروج، ومن رغب البقاء في المدينة أمكنه "لبقاء وأن تضمن منازلهم وممتلكاتهم"([3]).

ويرجع التغير في السياسة الصليبية اتجاه المسلمين إلى العوامل الاقتصادية، وإلى إدراك الغزاة الصليبيين لأهمية العنصر السكاني المسلم، واعتمادهم على المسلمين كطبقة عاملة في مجالات الزراعة والصناعة والبناء([4]) وهكذا حين خفت وطأة الصليبيين على المسلمين أخذ بعض الذين هاجروا يعودون "ممن استهواه حب الوطن" ودفعه الحنين إليه يعود إلى الأرض التي كان قد هجرها بعد أن اشترط عليه الصليبيون شروطا([5]) أهمها تأدية الضرائب، وتقديم الولاء والطاعة للفرنج([6]) ولكن المصادر التاريخية لا تمدنا بأي معلومات عن أعداد أولئك العائدين إلى أوطانهم([7]).

ولقد شكل المسلمون أغلبية في المناطق الريفية بمملكة بيت المقدس الصليبية؛ فشكل المسلمون معظم سكان ريف نابلس وقراها([8]) كما أن قرى منطقة عكا كان سكانها " كلهم من المسلمين"([9]) وذكر المؤرخ الصليبي ارنول Ernoul أنه حينما قام ملك أرمينيا ثوروس Thoros بزيارة مملكة بيت المقدس عام560هـ/1165م لفت نظره أن المسلمين كانوا يُقيمون في جميع قرى المملكة الصليبية([10]) كما لاحظ الرحالة المسلم أبن جبير عام580هـ/ 1184م هذه الظاهرة سجلها حينما مر بريف إمارة الجليل الصليبية فقال "طريقنا كله ضياع متصلة، وعمائر منتظمة، وسكانها كلها مسلمون.... ومساكنهم بأيديهم، وجميع أحوالهم متروكة لهم، وكل ما بأيدي الفرنج من المدن بساحل الشام على هذا السبيل، ورساتيقهم كلها

([1]) براور، الاستيطان، ص35. عطية،المسلمون، ص322.يشير الصوري إلى تذمر ورفض الفرنجة الذين ينتمون إلى الطبقة المتوسطة للمفاوضات التي يجريها النبلاء مع المسلمين من أجل استسلام مدينة صور سنة518هـ/1124م الصوري، تاريخ،ج2، ص626.

([2]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص148. أبن القلانسي، ذي، ص171. الصوري، تاريخ ،ج1، ص552.

([3]) الشارترى تاريخ الحملة، ص215. أبن القلانسي، ذيل، ص211. الصوري، تاريخ،ج2، ص626.

([4]) عطية، المسلمون، ص3.

([5]) أبن جبير، الرحلة، ص238.

([6]) على، العلاقات، ص51. ويذكر أبن القلانسي أن بلدوين الأول فرض على من تبقى من المسلمين في مدينة صيدا سنة504هـ/1110م ضريبة سنوية قدرها "نيفا وعشرين ألف دينار". أبن القلانسى، ذيل، ص171.

([7]) قاسم، ماهية، ص198.

([8]) الأصفهاني، الفتح، ص67. أبو شامة، الروضتين،ج3، ص203.

([9]) أبن منفذ، الاعتبار، ص203.

([10]) Ernoul, la chronjque, p. 28.

للمسلمين، وهي القرى والضياع"([1]) ورغم أن إشارة أبن جبير لم تحصِ إلا الوضع السكاني القائم في منطقة الجليل إلا أنها تترك انطباعا بغلبة السكان المسلمين على غيرهم داخل مملكة بيت المقدس بصفة عامة، وأما ملحوظة ثوروس التي نقلها لنا المؤرخ أرنول فتعد قوية في تعميق هذا الانطباع نظراً لأنها شملت مجمل الريف داخل المملكة الصليبية، وهذا ما أكده العماد الأصفهاني في رسالة أرسلها إلى سيف الإسلام([2]) لاطلاعه على صورة الأوضاع الأمنية والعسكرية في منطقة الشام؛ فبعد أن عدد المدن والبلاد التي اشتملها الفتح الصلاحي قال "..... ولكل واحده من المدن التي ذكرناها أعمال وقرى ومزارع وأماكن ومواضع؛ قد جلس المسلمون خلالها، واسترعوا ثمارها وغلالها"([3]).

ويمكن أن نستخلص أيضا من باقي رواية أرنول إحصاءه لأعداد المسلمين إذ يذكر أن ملك أرمينيا ثوروس عرض على الملك عموري الأول أثناء زيارته، أن يطرد الفلاحين المسلمين من مملكته، واستبدالهم بثلاثين ألفا من محاربي أرمينيا الجديرين بالثقة الذين يصطحبون أسرهم ليعمروا البلاد ويقوموا بمهمة الدفاع عنها، وإذا ما وضعنا في الحسبان أن ما كان يدور في خلد الملك ثوروس هو استبدال أعداد من المسلمين بأعداد آخري مماثلة من الأرمن فيعتقد أن أعداد المسلمين داخل مملكة بيت المقدس تجاوزت الثلاثين ألفا([4]).

قد يرى البعض أن المسلمين الخاضعين لسيطرة الصليبيين كانت أوضاعهم أحسن حالا من أولئك الذين خضعوا لحكم القوى السياسية الإسلامية في مناطق آخري من بلاد الشام، ومن الممكن لذلك الفريق الاحتجاج بما ورد لدى الرحالة ابن جبير([5]) إلا أنه ينبغي إلا نأخذ الأمور بظاهرها فان ما أورده أبن جبير بشأن إقطاعية صور قد لا ينطبق على الإقطاعيات الأخرى؛ على اعتبار الشروط الخاصة التي لزم قبولها عام 518هـ/1124م عندما تم الاتفاق على استسلام مدينة صور للغزاة الصليبيين([6]).

كما أن الفترة التي قضاها أبن جبير في رحلته لبلاد الشام في طريق عودته من رحلة

([1]) أبن جبير، الرحلة، ص234.

([2]) **سيف الإسلام:** هو طغتكين بن أيوب بن شاذي الملك العزيز سيف الإسلام ظهير الدين صاحب اليمن، أخو صلاح الدين، أرسله أخوه إلى اليمن578هـ/1182م. ليملكها ويقطع الفتن فيها، توفى في عام 593هـ/1196م. بمدينة المنصورة التي أنشأها ودامت ولايته لليمن ست عشره سنة.أبن خلكان، وفيات،ج2، ص523، 525. أبن واصل، مفرج،ج3، ص72.

([3]) الأصفهاني، الفتح، ص127. أبو شامة، الروضتين،ج3، ص204، 205.

([4]) Ernoul, lok, cit., p.29.

([5]) ذكر أبن جبير قوله "طريقنا كله ضياع متصلة ، وعمائر منتظمة، وسكانها كلها مسلمون وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه... ومساكنهم بأيديهم وجميع أموالهم متروكة لهم، وكل ما بأيدي الإفرنج من المدن وساحل الشام على هذا السبيل، رساتيقهم كلها للمسلمين وهي القرى والضياع، وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم لما يبصرون عليه إخوانهم من أهل الرساتيق المسلمين، وعمالهم لأنهم ضد أحوالهم من الترفيه والرفق". ابن جبير، الرحلة، ص234، 235.

([6]) كاهن، الشرق، ص216.

الحج فتره فصيره، وهي ليست كافية بأي حال من الأحوال للتعرف على أحوال المسلمين عامة تحت الحكم الصليبي([1]).

ويتضح من بعض النصوص التي أوردها ابن جبير مدى المعاناة التي كان يعاني منها السكان المسلمون تحت نير الاحتلال الصليبي، وأن حياتهم اتصفت "بالذلة والمسكنة، ومنها سماع ما يفجع الأفئدة "([2]) كما أن زيارة أبن جبير للأراضي الصليبية في طريق عودته وما لمسه من معاناة تركت انطباعاً سيئاً على نفسه لذلك أوصى "بالحذر من دخول بلادهم، والله تعالى المسؤول حين الإقامة"([3]).

وينبغي أن نفهم نص ابن جبير انطلاقا من موقفه السياسي والديني المؤيد للحرب المقدسة، وهو ما دفعه لاتهام غيره من المسلمين بالضعف والتقاعس([4]).

كما أشارت المصادر التاريخية إلى الوضع المتردي للمسلمين تحت الحكم الصليبي "وأنهم كانوا في ذل كبير من مساكنة الإفرنج"([5]) وذكر العماد الآثار النفسية والاجتماعية المترتبة على فتح المسلمين لعدد من المدن بأنهم" ذاقوا العزة بعد الذلة، وفاقوا الكثرة بعد القلّة"([6]) ثم كيف لنا أن نفسر المقاومة العنيفة من السكان المسلمين في القرى والمدن ضد الحكم الصليبي، وما أحدثوه من دمار وخراب للقطاع الزراعي، والإمتناع عن زراعة الأرض([7]) لا مراء في أن المسلمين الذين كانوا تحت الاحتلال الصليبي كانوا من أكثر العناصر إثارة لمخاوف الغزاة، حيث أشار الصوري إلى أن المسلمين كانوا يشكلون خطورة كبيرة على الصليبيين وحذر بني جلدته منهم" لأنه لا يمكن لوباء أن يضر الإنسان بشكل فعال أكثر من العدو الجاثم على بابه "([8]).

وأدت حروب التحرير التي خاضها المسلمون إلى استقرار عناصر سكانية جديدة في الأرض المحررة، فأثناء حكم الدولتين الأيوبية والمملوكية استقرت عناصر كردية وتركية جديدة في فلسطين، فأقطع صلاح الدين نابلس لحسام الدين لاجين([9]) سنة

([1]) سميل، الحروب، ص54. على، العلاقات، ص164.

([2]) أبن جبير، الرحلة، ص238.

([3]) المصدر نفسه، ص238.

([4]) كاهن، الشرق، ص216.

([5]) العليمي، الأنس،ج1، ص470.

([6]) الأصفهاني، الفتح، ص73.

([7]) الصوري، تاريخ،ج1، ص471.

([8]) المصدر نفسه،ج1، ص471.

([9]) **حسام الدين لاجين:** وهو ابن ست الشام أخت صلاح الدين الأيوبي، وكان شجاعا مقداما، وكان من أكبر أعوان صلاح الدين فتح مدينة نابلس في جماد الأولى 583هـ/يوليو1187م، اقطعه صلاح الدين نابلس وأعمالها ونواحيها وقلاعها، وعمل على تعميرها وإسكانها، وبقت في حوزته حتى وفاته في 19 رمضان587هـ/1184م.الأصفهاني، الفتح، ص333.أبو شامة، الروضتين،ج4، ص171. البنداري، سنا، ص302.

583هـ/1187م([1]) فأتبع سياسة داخلية تهدف إلى زيادة عدد السكان في إقطاعه بصورة ملحوظة؛ فعادت نابلس "بلده محشوة بسكانها كالرمان، وبقيت إلى آخر عهده، وعمرت بعدله وإحسانه ورفقة "([2]) كما اقطع صلاح الدين صارم الدين قيماز النجمي([3]) طبرية في نفس السنة فحرص صارم الدين على تعمير طبرية، وزيادة سكانها مما حدا بالأصفهاني والبنداري للقول "فعادت{طبرية} لعادته الجميلة آهلة بأهل اليمن والأيمان معتدلة المحاسن بالعدل والإحسان، وسُكنت مساكنها وعُمرت أماكنها"([4]) وفي588هـ/1192م وبعد توقيع صلح الرملة مع الصليبيين أقطع صلاح الدين علم الدين قيصر أعمال الخليل والداروم وعسقلان وغزه وما والاها([5]) فاتبع سياسة داخلية تهدف إلى تشجيع الفلاحين والمقطعين بالتشبث بأرضهم وعدم هجرها، وتشجيعهم على زراعة أراضيهم؛ فعمل على نقل الغلال من البلقاء ومصر ليعيد لإقطاعه "الزراعية والعمران"([6]) وأقطع الناصر صلاح الدين يوسف الثاني([7]) الأمير ركن الدين بيبرس نابلس وزراعين([8]) وجنين([9]) هكذا حرص الأمراء الأيوبيون على توزيع الإقطاعات على أتباعهم بهدف تعمير البلاد والدفاع عنها ([10]).

وواصل المماليك من بعدهم هذه السياسة بعد أن سيطروا على مقاليد الحكم في مصر والشام عقب معركة عين جالوت 658هـ/1260م فعندما فتح الظاهر بيبرس قيسارية 663هـ/1264م وزع الإقطاعات على أمرائه، فقام بإقطاع ستٍ وثلاثين قرية على واحد وستين مقطعا([11]).

([1]) الأصفهاني، الفتح، ص67.البنداري، سنا، ص302، 303. أبو شامة، الروضتين،ج3، ص203.

([2]) البنداري، سنا، ص303.

([3]) **صارم الدين قيماز النجمي:** كان من أكابر الدولة الصلاحية، وكان عند صلاح الدين بمنزله الأستاذ، وهو الذي تسلم القصر حين مات العاضد ، وقاد جيش صلاح الدين الذي حاصر كوكب بعد حطين، وعينه صلاح الدين أميرا عليها وعلى قلاع صفد وهونين وغيرها، توفي596هـ/1199م. الأصفهاني، الفتح، ص129، 130.أبو شامة، الروضتين،ج5، ص27.

([4]) البنداري، سنا، ص298.

([5]) الأصفهاني، الفتح، ص358. أبو شامة، الروضتين،ج4، ص195. العليمي، الأنس،ج2، ص393.

([6]) الأصفهاني ، الفتح ، ص358.

([7]) **الناصر صلاح الدين يوسف الثاني:** وهو ابن الملك العزيز ولد بقلعة حلب627هـ/1230م ولما توفي والده العزيز غياث الدين أبو المظفر سنة634هـ/1236م تولي الناصر صلاح الدين يوسف الثاني بلاد أبيه ثم عمل على أتساع رقعة أملاكه لتشمل الشام كلها. ابن خلكان، وفيات،ج4، ص10.

([8]) **زراعين:** تقوم القرية على بقعة يزرعيل الكنعانية، وزراعين كلمة سريانية بمعني مزارعون وفلاحون؛ ذكرتها المصادر الصليبية باسم "Le Petit Gerin" تميز عن جنين التي تبعد عنها 11كم. وأشار بورشارد إلى أن زراعين كانت احدي المدن العظيمة في إسرائيل ولكنها وقت زيارته في فترة674- 684هـ/1275- 1285م. تراجعت إلى قرية صغيرة لا تزيد بيوتها عن ثلاثين منزلاً. بورشارد، وصف، ص100. الدباغ، بلادنا، ق2،ج3، ص203.

([9]) الكتبي، فوات،ج1، ص236. أبو المحاسن، النجوم،ج7، ص89. البيشاوى، نابلس، ص167.

([10]) المقريزي، السلوك،ج1، ص485.

([11]) المصدر نفسه،ج2، ص23، 24.ومن الجدير ذكره أن تلك الإقطاعات التي أقطعها الظاهر بيبرس لأمرائه كانت إقطاعات =

وحرص السلاطين المسلمون على توطين وإسكان العناصر المسلمة في المناطق المحررة حيث أسكن المماليك قبائل كردية، وتركمانية في سواحل بلاد الشام التي استخلصوها من الفرنجة لكي يقوموا بحماية هذه السواحل، وحفظها في حال تعرضها لأية هجمات فرنجية جديدة، ففي666هـ/1268م رتب السلطان الظاهر بيبرس إقامة التركمان في المناطق الساحلية المحررة وقرر عليهم خيلا وعده([1]).

وفي المقابل عملت الدولتان الأيوبية والمملوكية على تشجيع المسلمين على الاستقرار، وعدم هجر أراضيهم المحاذية للصليبيين؛ حيث حرص السلاطين على إبقاء الملكيات الخاصة([2]) وعملوا جاهدين من أجل إعادة الأملاك التي تم تحريرها لملاكها من المسلمين ولقد أوردت المصادر التاريخية العديد من الأمثلة فيحدثنا الفقيه أبو طاهر الحموي فيقول: "كنت عند نور الدين في دار العدل بدمشق، وقد أخرج جريدة خراج الأملاك، فجعل ينظر فيها، فلما انتهي إلى ذكر خراج معرة النعمان قال: إني عزمت على انتزاع أملاك هذه المعرة من أيدي أهلها، فقد رفع إليّ الخبر من الثقاة أن جميع أهل المعرة يتقارضون الشهادة فيشهد أحدهم لصاحبه في دعوى ملك، ويشهد له: هذا في دعوى أخرى، وأن الملك الذي بأيديهم إنما حصل لهم بهذه الطريقة فقلت له: أيها الملك إن الله أوجب عليك العدل في رعيتك فانظر واكشف وتوقف في الأمور إذا رفعت إليك، فإن أهل المعرة خلق كثير، فكيف تستحل تواطُؤهم على شهادة الزور، وانتزاع الأملاك من أربابهم من مجرد هذا القول ؟ لا يجوز !! فأطرق نور الدين وقفاً طويلا ثم قال: أني أمسكها عليهم ثم أكشف عنها بعد ذلك والتفت إلى كاتبه قائلا: اكتب إلى الوالي بالمعرة لتمسك جميع الملك ريثما يتجمع البيانات في ذلك"([3]).

ومن الجدير بالذكر أن إعادة الممتلكات لأصحابها قد سبب لنور الدين خلافاً كبيراً مع بعض رجال الدين، كما أحدث خلافاً قديماً بين فقهاء المسلمين فطبقاً للمذاهب الثلاثة (الشافعي والمالكي والحنبلي) فإن أملاك المسلمين التي استولي عليها الكفار ترد حين استعادتها وتحريرها إلى ملاكها السابقين من المسلمين؛ أما بالنسبة للمذهب الحنفي فإن أملاك لمسلمين التي تم تحريرها يجب أن تكون ملكا للمسلمين تصرف غلتها في مصالحهم فلا يجوز إقطاع رقابها تمليكا لأنها صارت وقفا للمسلمين([4]) وبما أن نور الدين كان حنفي المذهب فإن فرضية وجود خلافات بين المحيطين به لا يمكن استبعادها، ورغم ذلك فقد

= تمليك، ولقد أورد المقريزي نص كتاب التمليك، واختلف هذا النوع عن الإقطاع العسكري والحربي المملوكي الذي كان أكثر انتشارا ويبدو أن هذا النمط كان متأثرا بالنظم الإقطاعية السلجوقية والأيوبية والفرنجية في فلسطين .

([1]) المقريزي، السلوك،ج2، ص49.

([2]) أشتور، التاريخ الاقتصادي، ص303.

([3]) ابن قاض شهبه، الكواكب، ص70، 71. ابن واصل، مفرج،ج4، ص214. ايمانويل، اللاجئون، ص88 ، 89.

([4]) ابن كثير، البداية،ج13، ص256،257. كاتبي، الخراج، ص335- 354، 363- 368.

تخطي آراءهم ونصائحهم بالاحتفاظ بالأملاك المحررة قائلا: "لا والله بل نردها عليهم إذا كنا نحن نأخذ أملاكهم، والفرنج يأخذون أملاكهم فأي فرق بيننا وبين الفرنج"([1]).

وقد اتبع صلاح الدين سياسة نور الدين محمود في هذا المجال فأعاد بعض الأراضي التي تم تحريرها في بيروت إلى ملاكها من أمراء البحتريين وكتب بذلك منشورا في عام 583هـ/1187م([2]).

وسار أمراء صلاح الدين على نهجه وسياسته فحين أقطع صلاح الدين نابلس وأعمالها وضياعها لحسام الدين لاجين وسيره لفتحها واستعادتها من الصليبين([3]) أَمْنَ سكانها "وأقام أهل البلد به وأقرهم على أملاكهم وأموالهم"([4]).

كما استعاد الداريون([5]) إقطاعهم بعد تحرير بلاد الخليل583هـ/1187م فقد جاء على لسان المقريزي قوله" فلما أعاد الله تعالي البلاد إلى الإسلام بعد إقامتها بأيدي الفرنج نحو مائة سنة لم يتبين إلى الآن([6]) كيف وضع الداريون أيديهم على القريتين فإنه لم يتأخر بتلك البلاد أحدٌ من الداريين إلى أن استردها المسلمون فنحتاج إلى{معرفة} كيف وضع من عاد منهم إلى البلاد يده بطريق شرعي أم لا "([7]) ويشير العليمي إلى أن الدارية تمكنوا من استعادة إقطاعهم بعد تحرير صلاح الدين للخليل([8]) وبعد أن حرر الظاهر بيبرس صفد 664هـ/1266م أعاد الأرض لأصحابها السابقين([9]).

ونخلص من ذلك القول بأن سلاطين المسلمين حرصوا على إعادة الأملاك والأراضي التي تم تحريرها إلى أصحابها بشرط إبرازهم لشهادات الملكية أو شهادة الشهود؛ فيروى ابن العديم أن هذه السياسة كانت تهدف لتشجيع المسلمين على الاستقرار في أراضيهم "ببقاء أهلها

([1]) ابن واصل، مفرج،ج4، ص214.

([2]) ينظر ملحق رقم (3)، ص301.

([3]) الأصفهاني، الفتح، ص67. البندراى، سنا، ص302، 303. أبو شامة، الروضتين،ج3، ص203.

([4]) ابن الأثير، الكامل،ج10، ص150.

([5]) **الداريون:** وهم أتباع تميم الداري صاحب رسول الله صلي الله عليه وسلم . وقد جاء في وثيقة تميم الداري وإخوانه التي كتبها لهم على بن أبي طالب بأمر الرسول صلى الله علية وسلم سنة9هـ/630م."بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أنطى محمد رسول الله لتميم الداري وإخوانه حبرون والمرطوم (قرية رامه الخليل) وبيت عينون وبيت إبراهيم (الخليل) وما فيهمن نطيه .... لهم ولأتباعهم.القلقشندى، صبح،ج13، ص126، 127. المقريزي، ضوء، ص35، 37. العليمي، الأنس،ج2، ص14. وقد جدد الكتاب في عهد أبو بكر، ولما تم فتح فلسطين في عهد عمر بن الخطاب اشترط الخليفة في كتاب أرسله إلى عمرو ابن العاص بفلسطين ألا يسلم الداريين إقطاعهم ألا إذا جلا أهل القرى المقطعة عنها وألا فهي لهم وأحق بها.القلقشندي، صبح،ج13، ص127، 128.

([6]) أي حين تدوين المقريزي لهذا النص في كتاب الضوء الساري في النصف الأول من القرن التاسع الهجري الخامس عشر م .

([7]) المقريزي، الضوء ، ص123 ، 124.

([8]) العليمي، الأنس،ج2، ص146.

([9]) ويشير ابن كثير إلي أن الظاهر بيبرس عقد مجلسا للفقهاء من سائر المذاهب وذلك لمناقشة موضوع الأراضي التي تم تحريرها سواء من الصليبيين أو من التتار. ابن كثير، البداية،ج13، ص257. أشتور، التاريخ، ص409.

فيها بسبب أملاكهم"([1]) مما يوفر أسباب الصمود على الأرض، وهــذا مــا أثبتتــه الوقــائع التاريخية، حيث آثرَ كثيرٌ من المسلمين البقاء في أراضيهم على الرغم مما تعرضوا له مــن قتل وتعذيب نتيجة العمليات العسكرية الصليبية، ورفضوا أن يفرطوا في الأرض، ومن ذلك ما تشير أليه بعض المصادر في عام604هــ/1212م من أن أهل بيسان وسائر الأعمال التي حولها لم يجفلوا ويهجروا أراضيهم عندما قصدهم الفرنج "وبــذلوا فــيهم الــسيف ونهبــوا البلاد... ما بين بيسان وبانياس وبثوا السرايا في القرى"([2]).

وبالنسبة لمذاهب أهل فلسطين المسلمين فقد كانت "مذاهبهم مستقيمة أهل جماعة وسنة، وأهل طبرية، ونصف نابلس وقدس([3]) وأكثر عمان([4]) شيعة"([5]) معنى ذلك أنه وجــد إلــى جانب أهل السنة من سكان فلسطين بعض السكان الذين اعتنقوا المذهب الشيعي، ويبدو مــن رواية المقدسي أن وجود الدولة الشيعية من بني بويــه والفــاطميين فــي القــرن الرابــع الهجري/العاشر الميلادي كان له أثرٌ في انتشار التشيع أو على الأقل وجوده في بعض المدن الفلسطينية([6]) فناصر خسرو لم يستطع زيارة قبر أبي هريرة المدفون في الجهة الجنوبية من طبرية؛ لأن أهل المدينة من الشيعة، وإذا ما زاره أحد فإنه يتعرض للأذى([7]) إلا أن أتبــاع المذهب الشيعي قد عادوا للاختفاء في أثناء خضوع فلسطين للحكم السلجوقي السني ([8]) ومن المرجح أن فئة قليلة من السكان المسلمين كانت تعتنــق المــذهب الــشيعي أثنــاء الحكــم الصليبي لفلسطين([9]).

هكذا نرى أن المسلمين شكلوا أغلبية سكانية داخل المملكة الصليبية حيث كانوا يشكلون ما نسبة 75– 80% من عدد السكان الإجمالي([10]) وقد سبق وأن ذكرنا الشواهد على ذلك.

([1]) ابن العديم، زبده الحلب، ص253.

([2]) ابن واصل، مفرج،ج3، ص255.

([3]) **قدس:** تقع على الحــدود اللبنانيــة الفلــسطينية، وهــي تــشرف علــى جنــوبي بحيــرة الحولــة ومــرج عيــون، تبعــد عن بحيرة ألحوله6كم وعن مدينة صفد 16كم. ترتفع عن سطح البحر450م. وهي تقوم على بلده قــادش الكنعانيــة ذكرهــا الرومان باســم قادس، وفي العهد الإسلامي كانت من أعمال الأردن، ذكرها المقدسي بقوله "مدينة صغيرة على ســفح جبــل كثير الخير رستقها جبل عامل... وهو بلد حار كثيــر الذمــة اليعقــوبي، البلــدان، ص165.المقدســي، أحــسن التقاســيم، ص141.الدباغ، بلادنا، ق2،ج6، ص226.

([4]) **عمان:** ورد اسمها في العهد القديم باسم ربه عمون التي سميت فيما بعد باسم فيلادلفيا، ويطلق عليها اليوم اسم عمان، وهي بلد في طرف الصحراء وكانت قصبة أرض البقاء، وذكرها المقدس بقوله "عمان على سيف الباديــــة بهــا قــرى ومــزارع". المقدسي، أحســن التقاسيم، ص149.الحموي، معجم،ج4، ص151.جونز، مدن، ص19.

([5]) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص153.

([6]). خسرو، سفرنامه، ص53. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص154

([7]) خسرو، سفرنامه، ص53.

([8]) Benvenisti, m., op. cit., P.10.

([9]) البيشاوي، الممتلكات، ص372.

([10]) Benvenisti, M.,. lok.cit., P.18.

- **النصـــــــــارى:**

انقسم النصارى إلى عدة طوائف، وهذا الانقسام هو امتداد لذلك النزاع الذي كـــان قــد حدث في أنحاء العالم المسيحي حول طبيعة المسيح عليه السلام([1]) وهل هو إلـــه أم بـــشر، وكان مجمع نيقية([2]) سنة 325م هو أول المجامع المسكونية المسيحية التي تتصدى لمناقـــشة هذا الموضوع، ومنذ ذلك الحين تفرق المسيحيون حول طبيعة المسيح.

وفي سنة451م دعا الإمبراطور البيزنطي مرقيانوس Mericianns 450-457م إلـــى ذلك المجمع الديني الذي عقد في خلقدونية([3]) لمناقشة المذهب الذي قـــال بـــه ديوســـقورس Dioscorus ثامن بطاركة الإسكندرية، وهو المذهب الذي يتلخص في أن للمـــسيح طبيعـــة واحدة هي الطبيعة اللاهوتية([4]) وحاول ذلك المجمع تبني وجهة نظر الإمبراطور البيزنطـــي في المصالحة بين مختلف المذاهب المسيحية، وقد ذهب المجمع إلى القول أن المـــسيح بعـــد تجسيده كان له طبيعتان لاهوتية وناسوتية، ومشيئتان، لاهوتية وناسوتية([5]) وقد نـــتج عـــن قرارات هذا المجمع انقسام الكنيسة إلـــى شـــطرين، الـــشطر الأول يـــضم كنيـــسة رومـــا والقسطنطينية اللتين اعتنقتا المعتقد القائل بأن للمسيح طبيعتين ومشيئتين وهـــم الملكانيـــة([6]) والشطر الثاني يضم كنيسة الإسكندرية ومن اتبع خطواتها مثل السريان والأرمن وغيـــرهم، وذهبوا إلى أن طبيعة المسيح وهي ذات طبيعة واحدة أي اتحاد اللاهوت والناســـوت بغيـــر اختلاط ولا تغيير، وتم نفي ديوسقورس بابا الإسكندرية على أثر ذلك، والذي قـــام بإرســـال تلميذه يعقوب إلى مصر لتثبيت أتباعه على معتقده، ومن هنا كان تسمية بعـــض المـــؤرخين للأرثوذكس المصريين (الأقباط) باليعاقبة([7]).

وفي سنة17هـــ/638م أصدر الإمبراطور هرقل Heraclius ما عُرف بمرسوم توضيح الإيمان، واتجـــه نحـــو تخفيف حـــدة الفوارق بين المذاهب وقد أقـــر عقيدة الإيمان

([1]) القلقشندي، صبح، ج13، ص278

([2]) **مجمع نيقيه:** انعقد هذا المجمع 325م وهو أول مجمع مسكوني، وقد حضر أريوس هذا المجمع، وصدر عـــن هـــذا المجمـــع قانون إيمان سمي باسمه نص على أن الابن يساوي للأب في الجوهر، وحكم أيضاً بتجريد أريـــوس مـــن ألقابـــه الكهنوتيـــة. الموسوعة الميسرة، ص1867.

([3]) **خلقدونية:** وهو الصقع الذي منه المصيصة وطرطوس، وفي خلقدونية كان المجمع المسكوني الرابع سنة 451م وذلك بمناسبة ما قرره ديوسقورس ثامن بطاركة الإسكندرية من أن المسيح ذو طبيعة واحدة وتبنى المجمع الصبغة الكاثوليكية لتعريف طبيعة المسيح.الحموي، معجم، ج2، ص384.قاسم، أهل الذمة، ص98,97.

([4]) القلقشندي، صبح،ج13، ص279.

([5]) القلقشندي، صبح،ج13، ص280،279. مبروك، نقد النصرانية، ص88.

([6]) **الملكانية:** (الملكية) تستخدم المصادر العربية كلا من اللفظين ولكن لفظ ملكية هو الأكثر شويعاً، وذكر القلقشندي أن أبناء هـــذه الطائفة ينسبون إلى ملكان الذي ظهر ببلاد الروم، وقيل مركان أحد قياصرة الروم كما ذكر أنهم يدينون بطاعة (البـــاب) الـــذي هو بطريرك روما. القلقشندي، صبح،ج13، ص279.

([7]) القلقشندي، صبح،ج13، ص281. قاسم، عصر سلاطين، ص255، مبروك، نقد النصرانية، ص88.

الخلقدوني وأضاف القول بالمشيئة، ولقد اتبع الموارنة هذا المذهب التوفيقي([1]).

ثم حدث خلاف بين الكنيستين (القسطنطينية وروما) حول إضافة كلمة إلى قانون الإيمان المسيحية وهي كلمة "الابن" التي أضافتها كنيسة روما إلى قانون الإيمان فيقولـون: "نـؤمن بالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب والابن"، وكان نتيجة لهذا أن اعترضت كنيسة القسطنطينية، واعترضت أيضا على بعض العادات التي وضعتها روما كضرورة بقاء الكهنة غير متزوجين، وظل النزاع قائما بين الكنيستين حتى سنة474هـ/1053م، وقد نتج عن هذا انقسام الخلقدونيين إلى شطرين، الأول كنيسة روما وسميت بالكنيسة الكاثوليكية أو اللاتينية، والثاني كنيسة القسطنطينية؛ التي سَمت نفسها الكنسية الأرثوذكسية الخلقدونية([2]).

وهكذا وجد في بلاد الشام العديد من الطوائف، والقوى المسيحية مثـل الأرثـوذكس اليونانيين، واليعاقبة، والسريان، والموارنة، والنساطره، وكان لكل طائفة بطريرك خاص بها تعمل تحت طاعته([3]) واستمر وجودهم في بلاد الشام حتى مقدم الصليبيين في أواخر القـرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي؛ حيث وفد إلى فلسطين، وغيرها من بلدان الـشرق الإسلامي عدد كبير من الأوروبيين الغربيين سواء بصحبه الحملة الصليبية أو بعـد نجـاح قادتها في احتلال مساحه كبيره من هذه المنطقة – كما أوضحنا ذلك مـسبقا- حيـث حقـق الفرنج بذلك الهدف الذي حددته البابوية، وهو الاستيلاء على الأرض المقدسة من المسلمين.

فقد جاء في خطاب البابا أوربان الثاني في كليرمونت "انطلقوا على طريـق الـضريح المقدس أنقذوا تلك الأرض من الجنس المرعب، واحكموها بأنفسكم"([4]) من هنـا كـان مـن الطبيعي أن يكون الفرنج هم سادة وحكام المجتمع الذي تضمه مملكة بيت المقدس، وغيرهـا من الإمارات الصليبية، وكان معظم هؤلاء الفرنج من فرنسا وايطاليا وانجلترا؛ كمـا أنهـم ينتمون إلى مدن ومقاطعات مختلفة([5]).

وتحدثت المصادر الصليبية والإسلامية عن تعدد الأجناس التي يتكون منهـا المجتمـع الفرنجي الصليبي فقد كانت الأرض المقدسة "تمتلئ بمختلف الأجناس من البشر على مختلف أممهم وألسنتهم([6]) كما أن عبارة المؤرخ الصليبي فوشيه الـشارتري تـشير إلـى بعـض الجنسيات الأوربية التي استوطنت في فلسطين "أولئك الذين كـانوا غـربيين أصـبحوا الآن شرقيين، ومن كان روميا أو إفرنجيا قد تحول في هذه البلاد إلى جليلي أو فلسطيني.... وقد

([1]) عوض، أضواء، ص190.

([2]) مبروك، نقد النصرانية، ص89.

([3]) ميخائيل السوري، تاريخ، ص93،94. براور، الاستيطان، ص268.

([4]) رواية روبير الراهب، ترجمة قاسم، نصوص، ص79.

([5]) فورزبورغ، وصف، ص75،113. مجهول، حجاج مجهولون، ص37. الفيتري، تاريخ، ص96،97.

([6]) الفيتري، تاريخ، ص96. أبو شامه، الروضتين،ج4، ص148.

نسينا الآن أماكن ولادتنا فهي غير معروفه لدى الكثيرين منا الآن، ولا يرد ذكرها"([1]) ويفهم من حديث الشارتري أن الصليبيين أصبحوا مواطنين من الدرجة الأولي في هذه البلاد، وليس من حق احد التشكيك في شرعية إقامتهم فيها.

تمثل المملكة الصليبية من الناحية الاجتماعية مجتمعاً مختلفاً عن المجتمعات الأوربية فكان المجتمع الصليبي في المملكة الصليبية؛ يشمل مجموعةً من الغزاة يختلفون في اللغة، والثقافة، والدين عن أبناء المناطق العربية التي خضعت للاحتلال الصليبي، وكان المجتمع الصليبي يمثل من ناحية البناء الطبقي أربع طبقات رئيسة؛ تألف منها المجتمع الصليبي، وهي طبقه الأمراء والفرسان، وطبقة رجال الدين، وطبقة البرجوازية والعامة.

فالطبقة الأولي وهي طبقة الارستقراطية الحاكمة من النبلاء والفرسان، فكانوا قلة في المملكة بحيث لا يتعدون بضعة آلاف، وشكلوا العمود الفقري لمملكة بيت المقدس، وقد لاحظ احد الباحثين أن تلك الطبقة كانت قليلة العدد ويتناقص عددها بفعل الحروب مع المسلمين، ومن ناحية أخرى ظلت هذه الطبقة محتفظة في المملكة الصليبية بخلاف الإمارات الأخر مثل أنطاكية، والرها حيث أنها لجأت إلى التزاوج من العناصر المحلية من المسيحيين الشرقيين([2]).

ويكشف لنا أسامه بن منقذ عما كانت تحظي به طبقة الفرسان في المجتمع الصليبي من مكانه، واحترام، وبيّنَ أن الفرسان الصليبيين كانوا يقومون بدور مميز لا في الدفاع عن المملكة، والإمارات الصليبية فحسب، وإنما في إدارة الدولة أيضا فهم أصحاب الرأي والمشورة فيها، وهم أصحاب القضاء، والحكم، ويؤكد أسامه هذه الحقيقة بما يرويه من وقائع منها؛ ما جري معه شخصيا عندما كان يعيش في بلاط البوريين في دمشق، حيث رفع شكوى إلى الملك فولك لأنجو ملك بيت المقدس على حاكم مدينة بانياس الصليبي، وكيف أن الملك الصليبي طلب من نحو ستة من الفرسان الصليبيين النظر في موضوع الشكوى، وبالفعل اجتمع هؤلاء وتشاوروا ثم اتفق رأيهم على الحكم الذي كان لصالح أسامه؛ الذي يعلق على هذه الواقعة بقوله: "أن الحكم الذي يصدره الفرسان الصليبيون هو حكم قطعي حتى أنه لا يحق لأيه شخصيه صليبيه بمن في ذلك الملك نفسه أن تنقض قرار محكمة الفرسان"([3]).

أما الطبقة الثانية فهي طبقة رجال الدين، والتي كان لها دورٌ بارزٌ في بناء المجتمع الصليبي في بلاد الشام، فبعد نجاح الصليبيين في إقامة مملكة بيت المقدس الصليبية في بلاد الشام استولوا على ما كان لرجال الدين

([1]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص218.

([2]) عاشور، الحركة الصليبية،ج1، ص393،394.

([3]) ابن منقذ، الاعتبار، ص189.

الأرثوذكسي([1]) وصاروا يمتلكون الهبات والضياع، وتزايدت أملاكهم يوما بعد يـــوم([2]) ولا شك في أن هذه الثروة الضخمة التي تمتعت بها الكنيسة والمؤسسات الدينية في بلاد الـــشام أثارت أحيانا حقد الأمراء والفرسان لاسيما وان ممتلكات المؤسسات الكنسية كانت معفاة من الضرائب، كما كان رجالها معفيين من الخدمة العسكرية؛ مما جعل النبلاء والفرسان يكنـــون كل الحقد على أفراد المؤسسة الدينية، وهكذا وجد تياران متصارعان دخل البناء الاجتماعي للمملكة الصليبية التيار الكنسي، والتيار العلماني خاصة أن التيار الأخير كان فيه الفرســـان الذين بذلوا دماءهم في ساحات الوغى دفاعا عن وجود الصليبيين([3]).

ولقد عظم شان المؤسسة الدينية الصليبية بظهور هيئات دينية صـــليبية لـــيس للمملكـــة سيطرة عليها بل مسؤولة أمام البابوية، ويتجلى ذلـــك فـــي هيئـــات الاســـبتارية والداويـــة والتيوتون([4]) وغيرها، ومن الملاحظ أن تلك الهيئات امتلكت الأراضي والهبات والمـــنح([5]) وصار لها القلاع والحصون المنيعة، ولعل من أكثر الأمثلة دلاله على ذلك ما رواه المؤرخ أرنول الذي رافق الملك ثوروس الذي زار مملكة بيت المقدس عام557هـــ/1166م حيـــث اندهش الملك الأرمني من كثرة أملاك الجماعات العسكرية في المملكة الصليبية، وقال للملك عموري الأول"عندما جئت إلى أرضك وسألت لمن تخص هذه القلاع قال البعض: هذه تخص الداوية، وقال آخرون: إنها تخص الاسبتارية، وهكذا لم استطع أن أجد أي قلعة أو مدينـــة أو بلدة تخصك أنت ما عدا ثلاث، وكل البقية كانت تخص الجماعات العسكرية"([6]).
وكانت الهيئات الدينية العسكرية مستقلة في قرارها السياسي عن قرار القيادة الصليبية علـــى نحو جعلها وبحق "دولة داخل دوله([7])".

أما الطبقة الثالثة فهي طبقة البرجوازية التي تكونت من عناصـــر حـــضرية أو ريفيـــة قادتها الظروف للتجمع داخل المدن([8]) وأصبح كل مهاجر جديد يفر إلى المملكة الصليبية من غير طبقة النبلاء، والفرسان يعتبر برجوازيا حرا، وهذا ما كان يميز وضـــعه الاجتمـــاعي ومستواه الاقتصادي([9]) وعلى ذلك شكلت طبقة البرجوازية حيزا كبيرا مـــن ســـكان المـــدن في المملكة الصليبية.

([1]) ميخائيل السوري، تاريخ، ص93،94.براور، الاستيطان، ص268.رنسيمان، تاريخ، ص437.عاشور،الحركة،ج1، ص205.

([2]) انظر ص69–74، من الدراسة. وللمزيد انظر البيشاوي، الممتلكات، ص96–148.

([3]) عاشور، الحركة،ج1، ص388،389.

([4]) الصوري، تاريخ،ج1، ص576–578،ج2، ص830–834.ثيودريش، وصف، ص78،88.الفيتري، تاريخ، ص86–95.

([5]) فورزبورغ، وصف، ص52. ثيودريش، وصف، ص105.

([6]) Ernoul, op. cit., pp. 27, 28.

([7]) عوض، التنظيمات، ص105.

([8]) كاهن، الشرق، ص200. براور، الاستيطان، ص99،100.

([9]) براور، الاستيطان، ص109.

ظهرت طبقة البرجوازية أول ما ظهرت في الوثائق في سنة504هـ/1010م وأخذت في التنامي إلى أن سمح لهم الملك بلدوين الثاني في أواخر حكمة بتنظيم أنفسهم من خلال المحاكم البرجوازية([1]).

وتعتبر أملاك الطبقة العامة الفرنجية أملاكا برجوازية، وكان يحظر على النبلاء ورجال الدين امتلاك مثل هذه الأملاك البرجوازية، وظلت هذه الأملاك امتيازاً وحكراً على طبقة البرجوازية، ومع التوسع في استخدام مثل هذا الحق أصبح البرجوازيون يمتلكون الممتلكات من الأراضي الزراعية والقرى([2]) وقد اصطلح على تسمية أقطاعات البرجوازية اسم Borgesies([3]) وتم التعامل معها في المحكمة العليا على أنها أجزاء من الاقطاعات العامة([4]) وعلى الرغم من أن ملاك معظم إقطاعات البرجوازيين قد دفعوا الإيجارات النقدية والعينية إلا أنه كان يمكنهم تأجير ممتلكاتهم من الباطن، كما كان من حق السيد الإقطاعي أن يكون له الأولوية في شراء هذه الاقطاعات، وكذلك حق تسجيل بيعة مما دعاة بعد ذلك إلى فرض ضريبة تسجيل على أل Borgesies وعرفت هذه الضريبة باسم tallea واستخدمت هذه الكلمة في الشرق اللاتيني لتعني الإيرادات التي كان يأخذها الملك عن ممتلكات البرجوازيين في الاقطاعات الملكية، واستخدمت أيضا كضريبة واجبة للكنيسة([5]).

ومع أن المدن الصليبية لم تتمتع بالاستقلال الذاتي فإن البرجوازيين لم يكونوا منظمين تماماً، وانبثقت شرائح مختلفة من بينهم، وهذه الشرائح رغم أنها لم تكن ذات نمط منظم فإنها وزعت أدوارها في الحياة الدينية بشكل عام، وكان الشكل المهم هو الدخول في جماعه تفكر بشكل مشابه فيما يتعلق بمصالحهم، وخاصة أن الامتيازات التي قدمت لهم كطبقة منفصلة أنما منحت لأفراد حسب أهميتهم([6]).

ولقد حدثت عملية حراك اجتماعي داخل الطبقة البرجوازية في المملكة الصليبية حيث نجد جيرالد أرنولد Gerald Arnold في مدينه الرملة يوصف بأنه برجوازي 572هـ/1167م ولكنه في العام575هـ/1169م يوصف بأنه فارس([7]) وقام باليان الثاني

([1]) الطحاوي، الاقتصاد، ص44. وعن المحاكم البرجوازية انظر ص من الدراسة.

([2]) براور، الاستيطان، ص101.

([3]) **Borgesies**: وهي الممتلكات التي يمتلكها البرجوازي، وأحيانا الفارس، ويسال عنها أمام المحكمة البرجوازية، وكان يمكن توريث هذا الإقطاع أو إعادته إلى السد الإقطاعي في حالة موت صاحبة بدون وريث، وأحيانا تم تحديد بيع Borgesies إلى البرجوازيين فقط أو على الأقل لا يتم بيعها لرجال الكنيسة أو الفرسان.

Smith, the Feudal nability,p.82.

([4]) Ibid.,p.82.

([5]) Ibid., p.83.

([6]) Brawer, crusader cities, p.194.

([7]) Brawer, The Burgesses, p. 160.

دي ابلين بترقية بعض أبناء الطبقة البرجوازية إلى طبقة الفرسان في العام583هـ/ 1187م ويبدو أن ذلك حدث عندما وكلت إليه مهمة الدفاع عن بيت المقدس إلا انه من المؤكد أن فرعا من أسرة Antiaume البرجوازية قد وصل إلى طبقة الفرسان في بداية القرن السابع/ الثالث عشر الميلادي([1]).

كذلك كان يحدث حراك اجتماعي داخل طبقة البرجوازية لا يؤدي إلى طبقة الفرسان مثل حالة جودفري أوف تورس Godfree of tors الذي ظهر في الوثائق سنة 557هـ/1161م كوكيل لأملاك البطريك، وكرئيس لمنزل البطريك، وعمل أيضا في الفترة من557-582هـ/1161-1186م كمحلف في المحكمة البرجوازية في القدس، وكان اسمه قد ارتبط عن قرب ببيت البطريك منذ سنة548هـ/1153م([2]).

وشكل سكان القوميونات الايطالية إحدى شرائح طبقة البرجوازية طالما أنهم لم يكونوا فرسانا أو نبلاء([3]) وثمة قائمة طويلة من المعاهدات، والاتفاقيات التي عقدت بين ملوك المملكة الصليبية وبين المدن الايطالية، وبموجب هذه المعاهدات تحدد الوضع الاجتماعي لأبناء القوميونات الايطالية، وقد حصل الايطاليون على هذه الامتيازات بسبب مشاركتهم في العمليات العسكرية لاحتلال بلاد الشام؛ فإذا كانت السنوات العشرين الأولى من تاريخ المملكة الصليبية في فلسطين، قد شهدت الخطوات الأولى للاستيطان الايطالي في المدن الشامية التي احتلها الصليبيون، وإذا كانت اتفاقية497هـ/1104م تعتبر بداية للاستيطان الجنوي في فلسطين، والتي نصّت على حصول الجنوية على حي في مدينة عكا بالإضافة إلى ثلث عائدات الميناء([4]) وإعفاء تام من الضرائب، وحصلوا كذلك بأثر رجعي على حي في كلٍ من مدينة القدس ويافا([5]) فإن البداية الحقيقة للاستيطان البندقي ترتبط أساسا باتفاقية 519هـ/1123م التي أبرمت بين قوميون البندقية، وبين الحكام الصليبيين، والتي وضعت الخطوط العريضة لهذا الاستيطان، فقد منح البنادقة بمقتضى هذه الاتفاقية حيا تجاريا بكامل مرافقة في مدنية صور، وفي كل مدن المملكة، وأي مدينة أخرى يتم الاستيلاء عليها بمساعدة البنادقة، وان تبقي لهم هذه الأملاك بشكل وراثي([6]).

كما منحت الاتفاقية البنادقة في بيت المقدس حيا كاملا بمرافقه من فرن وحمام وسوق وطاحونة بالإضافة إلى حرية استخدام الموازيين والمكاييل الخاصة، والتي استعملوها بحرية

([1]) Smith, op. cit., p. 11.

([2]) Brawer, The Burgesses, p. 160.

([3]) الطحاوي، الاقتصاد، ص114.

([4]) الصوري، تاريخ،ج1، ص502.

([5]) هايد، تاريخ التجارة،ج1، ص151.

([6]) الصوري، تاريخ،ج1، ص602.

مطلقة في معاملاتهم التجارية بالإضافة إلى إعفائهم من الضرائب([1]).

وكانت القوميونات الإيطالية في المملكة الصليبية تستند إلى قـــوة المـــدن الأم فكانـــت المدينة الأم ترسل أساطيلها، وسفن التجارة في أوقات السلم، وترسل السفن الحربية في أوقات الحرب، وبلغت الصراعات بين القوميونات ذروتها في منتصف القرن السابع لهجري/الثالث عشر الميلادي، حيث أصبحت مدينة عكا ساحة للقتـــال والمعـــارك الـــداميب بـــين أبنـــاء القوميونات الإيطالية المتناحرة حتى نهاية الوجود الصليبي فيها([2]).

أما الطبقة الرابعة فهي طبقة البولوني Pullani وهذه هي نتاج التزاوج بين الـــصليبيين الغربيين والمسيحيين الشرقيين من أهل البلاد([3]) ومع ذلك هناك وجهة نظر آخري أوردتهـــا المؤرخة م.ر.مورجان Morgan التي أظهرت في أطروحتها للدكتوراه من جامعة أكسفورد Oxford كليـــة اللغـــات تحـــت عنـــوان "ذيـــول تـــاريخ ولـــيم رئـــيس أســـاقفة صـــور حتى630هـــ/1232م" أشارت فيها إلى أن كلمة بولانوس Bullanus أو في الفرنسية بولان اشتقت من بولوس Pullus وهو صغير الحيوان، وأن البولونيين كانوا على الأقل مستعمرين من الجيل الثاني، ولم يكونوا على الإطلاق من دماء مختلطة([4]) ولقد تأثرت طبقة البولـــوني بالعادات والتقاليد الشرقية بحيث تعرضت "لظاهرة التمشرق" Oricntation([5]) وهى ظاهرة قد عبر عنها بصورة أولية المؤرخ الصليبي فوشيه الشارترى بقوله:" إن أولئك الذين كـــانوا غربيين أصبحوا الآن شرقيين"([6]).

وكان البولاني أكثر تمشرقا ليس من خلال امتلاك الأرض في الشرق فقط بل من خلال أنهم صاروا يجدون انه من الممكن القيام بعلاقات غير حربية مع المسلمين"من أجل العـــيش بسلام مع المسلمين"([7]) وأنهم لم يعد لديهم استعدادٌ لاستقبال أخوانهم القادمين مـــن الغـــرب، وذلك بسبب عدم تقارب وجهات النظر بين الصليبيين في الشرق؛ الذين نعموا في ظل حيـــاة السلم مع المسلمين، والمسيحيين القادمين من الغرب الذين يطمعون في توسيع دائرة ممتلكاتهم على حساب انقسام البيت الأيوبي نفسه بعد وفاة صلاح الدين،هذا إلى جانب أن المسيحيين في الشرق نظروا إلى القادمين الجدد على أنهم مغتصبين جاءوا ليسلبونهم حقوقهم وممتلكاتهم([8]).

([1]) الصوري، تاريخ،ح1، ص603.
([2]) صبره، العلاقات، ص199،186.
([3]) عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص394.
([4]) مجهول، ذيل، ملحق رقم (4)، ص239،242.
([5]) عوض، العلاقات، ص124.
([6]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص218.
([7]) الفيتري، تاريخ، ص105.
([8]) المصدر نفسه، ص106،107.

هكذا نرى أن المجتمع الصليبي في فلسطين قد تكون من عدة طبقات وأن كل طبقة تتكون من عدد من الشرائح الاجتماعية؛ حدد مكانة كل شريحة ما حصلت عليه من امتيازات وعلينا أن نميز عند دراسة المجتمع الصليبي في بلاد الشام بين عهدين أساسيين؛ مجتمع ما قبل حطين، ومجتمع ما بعد حطين، معنى هذا أن معركة حطين سنة 583هـ/1187م جاءت في قرابة منتصف المدة التي قضاها الصليبيون في فلسطين لتشكل علامة بين مرحلة بلغ فيها المجتمع الصليبي أوج قوته وسطوته، ومرحلة آخري عانى فيها المجتمع الصليبي آثار الكسرة والهزيمة التي حلت به في حطين، بكل ما تحمله الهزيمة من معاني اليأس والانحلال والفرقة والضعف.

كان المسيحيون الشرقيون بكافة طوائفهم يقيمون في مناطق عديدة من فلسطين، وتشكلت طبقة المسيحيين المحليين من السريان واليعاقبة، والأرمن والأقباط والنساطره([1]) وقد مثل هؤلاء الطبقة التي راهن المشروع الصليبي على إنقاذها من الاضطهاد المزعوم الذي روجت له الدعاية الصليبية المغرضة؛ فقد جاء في خطاب البابا أوربان الثاني في كليرمونت"عليكم أن تسارعوا لمد يد العون لإخوانكم القاطنين في الشرق الذين يحتاجون إلى مساعدتكم"([2]).

إلا أن الصليبيين بعد استقرارهم في بلاد الشام أظهروا احتقارا للمسيحيين الشرقيين في الغالب، واعتبروهم هراطقة ليسوا جديرين بالاحترام([3]) وقاموا بإقصاء كبار رجال الدين الأرثوذكس من مناصبهم، وعينوا بدلا منهم رجال الدين اللاتين مكانهم في كل من القدس وعكا والخليل والناصرة وقيسارية بحيث بلغت حملة التعيينات هذه ما يقرب من عشرين أسقفا ([4]) كما قام قاده وأمراء الصليبيين بمصادرة ممتلكات الجماعات المسيحية في فلسطين وغيرها من البلدان، ولجأ المسيحيون الشرقيون إلى تقديم الرشوة من أجل إعادة بعض الأملاك المصادرة لأصحابها، فعلى سبيل المثال قام أحد الفرسان الصليبيين بمصادرة أملاك طائفة اليعاقبة في أحدى القرى المحيطة بمدينة القدس([5]).

وبعد استقرار الصليبيين في فلسطين، وحاجتهم للعنصر البشري المنتج لم يلبثوا أن أظهروا المودة للمسيحيين الشرقيين فقاموا بإعادة رجال الدين الأرثوذكس إلى كنيسة القيامة، وسمحوا لهم بمباشرة طقوسهم الدينية([6]).

([1]) مجهول، حجاج مجهولون، ص36،37. الفيترى، تاريخ، ص108،126. بورشارد، وصف، ص173.

([2]) الشارترى، تاريخ الحملة، ص36.

([3]) الفيترى، تاريخ، ص109،115،118. كاهن، الشرق، ص215.

([4]) ميخائيل السوري، تاريخ، ص93،94.

([5]) Genevieve, B.B.,op.cit.,Acte.no.36,PP.103 – 105. براور، الاستيطان، ص268. وعن السياسة الصليبية اتجاه المسلمين الشرقيين أنظر. عاشور الحركة،ج1، ص205، رنسيمان، تاريخ،ج1، ص437.

([6]) دانيال، وصف، ص110.

وعلى ضوء ذلك يمكن القول: أنه ما إن انتهي الصليبيون من تأسيس مملكتهم في الأرض المقدسة؛ حتى كانت العلاقة بين الجانبيين، ودية ومبنية على الثقة، والاحترام وإعطاء كل طائفة حريتها في تأدية طقوسها، وشعائرها الدينية([1]) وتشير المصادر والدراسات إلى أن عناصر المسيحيين الشرقيين قد اشتركوا بشكل ملحوظ في تكوين المجتمع المسيحي، حيث عاشوا في العديد من مدن وقرى فلسطين المحتلة مثل القدس، وبيت لحم، ورام الله، وغزة، والناصرة، وطبرية، والبيرة، واللد، والرملة، والخليل، وبيت جبرين وغيرها، بالإضافة إلى القرى الواقعة في منطقة شرق الأردن([2])

فذكر فوشيه الشارترى وجود السريان جنبا إلى جنب مع العرب، وحدد وجودهم في المناطق الجنوبية لفلسطين حيث جبال الخليل المواجهة لعسقلان، وهذا الموقع يتطابق مع موقع قرية بيت جبرين والقرى المجاورة([3]) كما أشار إلى وجود السريان، والأرثوذكس (الإغريق) في بيت لحم، ومنطقة صِغر الواقعة على الطرف الجنوبي للبحر الميت، ومناطق شرق الأردن، حيث أشار إليهم أثناء حملة بلدوين الأول على مناطق غربي وشرقي البحر الميت سنة494هـ/1100م([4]) ويؤكد مارتن اليعقوبي، أن السريان اليعاقبة كانوا يحوزون على قرى بأكملها حول بيت جبرين قبل الاحتلال الصليبي وأثنائه([5]).

وذكر دانيال الروسي أن السريان يمثلون نصف سكان إحدى القرى الكبيرة بالقرب من مدينة الخليل([6]) ويعتقد أن هذه القرية هي بيت الكرمة([7]) التي تنطبق عليها مواصفات الموضع الذي وصفه الرحالة.

أما ألبرت ديكس فيشير إلى وجود تجمعات سكانية سريانية بالقرب من البحر الميت وذلك أثناء روايته لأحداث انضمام أحد رهبانهم ويدعى ثيودور Theodore إلى الملك بلدوين الأول خلال حملته عام501هـ/1107م من أجل الإغارة على مناطق شرق الأردن عند وادي موسى، ونقل من بها من سريان إلى المملكة([8]) والواضح من الرواية أن هؤلاء كانوا يشكلون الدفعة الأولى من السريان الذين نقلهم الملك بلدوين الأول لإسكانهم في

([1]) سلامة، الاستيطان، ص258.

([2]) براور، الاستيطان، ص272.

([3]) الشارترى، تاريخ الحملة، ص208.

([4]) المصدر نفسه، ص70، 108.

([5]) Martin Abbe, Les premiers princes croises, P. 65

([6]) دانيال، وصف، ص82.

([7]) **قرية بيت الكرمة:** ذكر الرحالة مارينو سانوتو الذي زار الأرض المقدسة في النصف الأول من القرن الرابع عشر أن بيت هكاريم (بيت الكرمة) تقع بوضوح على جبل الفريديس الذي يبعد حوالي أربعة أميال إلى الجنوب الشرقي من بيت لحم وعرف جبل الفريديس جبل الفرنج، بورشارد، وصف، ص158. الدباغ، بلادنا، ق2،ج8، ص448

([8]) Albert, d, Aix op. cit., P. 644

المملكة لحل مشكلة النقص السكاني؛ لذا ففي عام509هـ/1115م قام بتنظيم عملية هجـرة جماعية لمجموعات من السريان القاطنين في مناطق شرق الأردن للاستقرار في المملكة الصليبية وآعداً إياهم بتقديم الامتيازات([1]) كما أشار ألبرت ديكس إلى وجود السريان في طبرية حيث تحدث عن تلك الطائفة حينما أشار إلى استيلاء الصليبيين على المدينة حينما خرجوا لاستقبال تانكرد([2]).

ويشير لودولف750هـ/1350م أثناء رحلته من يافا إلى القدس، بأنه قد مر بمدينة الرملة التي لم يمكث بها طويلاً لكونها كانت مهدمة وقتذاك، ويشير بأن الغالبية العظمى من أهلها كانوا يعتنقون الديانة المسيحية على المذهب الأرثوذكسي اليوناني([3]) كما ذكر أن المسيحيين الأرثوذكس يقيمون في مناطق ومدن الجليل مثل طبرية والناصرة وجبل الطور([4]).

وذكر فيلكس فابري أثناء زيارته لبيت لحم أن القسم الأكبر من سكان بيت لحم كان من المسيحيين الشرقيين([5]) في حين ذكر أن مدينة اللد كانت مسكونة من قبل المسيحيين الأرثوذكس والمسلمين([6]) وأشار الرحالة إلى أن جميع سكان قرية بيزك (بيت بزان)([7]) من النصارى الذي يعتنون بزراعة أشجار الكرمة، ويصنعون النبيذ الممتاز من المحصول الذي تدره أشجار الكرمة المزروعة في أراضيهم فضلاً عن تعهدهم لأشجار الكرمة في القرى المجاورة لقريتهم([8]) كما سكن المسيحيون الأرثوذكس قرية الداروم وقد وصفهم الرحالة المجهول بأنهم "يصنعون خمرة جيدة جداً" ([9]).

وظل العنصر المسيحي الشرقي يشار إليه في الوثائق الصليبية طوال فترة الوجود الصليبي في فلسطين، ففي ربيع الأول 545هـ/يوليو1150م أشارت إحدى الوثائق إلى وجود مجموعات كبيرة من المسيحيين السريان كانوا يقيمون في قرى راماتيس وبيت لقيا([10])

([1]) الصوري، تاريخ،ج1، ص560. براور، استيطان اللاتين، ص61. النقر، التغييرات، ص4.

([2]) Albert, d, Aix, op. cit., P.514.

([3]) لودولف، وصف الأرض، ص318.

([4]) المصدر نفسه، ص380.

([5]) فابري، جولات،ج2، ص712. وذكر لودولف بأن بيت لحم مسكونة فقط من قبل المسيحيين. لودولف، وصف، ص347.

([6]) المصدر نفسه،ج1، ص368.

([7]) **بيزك:** (بيت بزان) بالرجوع إلى المصادر الجغرافية فإننا لم نجد قرية في حدود بيت لحم تحمل اسم قرية بيزك، ومن المرجح أن تكون هي قرية بيت بزان الواقعة في الجنوب الشرقي من بيت لحم. البيشاوي، الممتلكات، ص406، هامش 2.

([8]) بورشارد، وصف، ص156. فابري، جولات،ج3، ص987

([9]) مجهول، وصف، ص40.

([10]) **قرية بيت لقيا:**عرفت القرية أيام الحكم الروماني لفلسطين باسم كفر لقيا kefar leqtaya من أعمال القدس، وذكرها الفرنج باسم betligge وهي تقع غرب رام الله بانحراف قليل، وترتفع القرية عن سطح البحر نحو480م. وتحيط بها العديد من القرى، ويحدها من الشمال الشرقي قرية عور التحتا، ومن الجنوب الشرقي قرية بيت عنان، وتحتوي القرية على عدد من الخرب والآثار. الدباغ، بلادنا، ق2،ج8، ص378-382.

وعطاره([1]) وقلندية([2]) وبيت سوريك([3]) قبل منح هذه القرى لكنيسة القيامة، ولقد قدرت الوثيقة عددهم بحوالي سبعين شخصاً([4]).

وفي محرم547هـ/أبريل 1152م أشارت إحدى الوثائق الصادرة في ذلك التاريخ إلى وجود السريان في قرية راماتيس حيث ذكرت أن معظم سكان راماتيس من المسيحيين السريان، وقد تم إحصاء ما يقرب من ثمانية وعشرين شخصاً كانوا يقيمون في القرية قبل إنشاء قرية راماتيس الزراعية([5]) كما ذكرت إحدى الوثائق556هـ/1161م([6]) إن السريان كانوا يقطنون قرية بيت جالا([7]) وقرية بيت صور([8]) التي كانت قد اقتطعت من إقطاعية الخليل في وثيقة صدرت558هـ/1163م([9]).

وأشارت إحدى الوثائق الصادرة سنة566هـ/1171م([10]) إلى طائفة اليعاقبة وذكرت وجودهم في قرية ترقوميا([11]) هكذا شكل النصارى الشرقيون جزءاً من البنية السكانية لفلسطين قبل وخلال فترة الدراسة، حدث خلالها احتكاك اجتماعي مع الفرنجة الصليبيين.

([1]) **قرية عطاره:** تقع شمال رام الله، وترتفع عن سطح البحر بنحو 799م ويحدها من الشمال الشرقي قرية منجل، ويحيط بالقرية بعض الخرب مثل خربة المغسل الواقعة في الشمال الشرقي من القرية، وخربة طرفين الواقعة جنوب القرية، وتوجد عدد من القرى تحمل اسم عطاره، منها قرية عطاره من أعمال جنين، وعطاره اسم لبلدة كنعانية أطلقت على أكثر من منطقة منها قرية عطاره التي كانت تقوم على موقع تل النصبة إلى الشمال من القدس بتسعة أميال، وعطاره قرية في الغور النابلسي كانت تقوم على تل المزار، وهي كذلك بلدة في شرق الأردن. الدباغ، بلادنا، ق2،ج8، ص306،305.

([2]) **قرية قلندية:** تقع القرية على بعد 11كم للشمال من مدينة القدس، يحدها من الجنوب الغربي قرية ألرام، وقلندية موقع اثري يحتوي على عدد من الآثار الدباغ، بلادنا، ق2،ج8، ص72،74.

([3]) **قرية بيت سوريك:** تقع على بعد 6كم شمال غرب مدينة القدس؛ يحدها من الشرق قرية النبي صمويل، ومن الجنوبي الشرقي قرية أم أليس، ومن الغرب قرية القديس أيوب، ومن الشمال قرية القبيب، وتشرف القرية على طريق المواصلات بين السهل الساحلي، وبين المقدس. الدباغ، بلادنا، ق2،ج8، ص106. البيشاوي، الممتلكات، ص165، هامش2.

([4]) Genevieve, B.B., op. cit., Act. No. 43, PP. 119-121

([5]) I bid., Acte. No. 36, PP. 103-105

([6]) Rohricht, R. Regesta, Vol. 1, Doc. No. 253

([7]) **بيت جالا:** تقع إلى الشمال الغربي من بيت لحم، وتبعد عنها مسافة 2كم، وترتفع عن سطح البحر حوالي 825م وكلمة جالا تحريف للكلمة جالا السريانية بمعنى كومة حجارة أو هي تحريف للكلمة جيلوه بمعنى فرح وسُرَ، ومعظم سكانها من الروم الأرثوذكس. الدباغ، بلادنا، ق2،ج8، ص458، 459.

([8]) **بيت صور:**(خربة بيت صور): تقع شمال غرب قرية حلحول على طريق الخليل– القدس، ذكرها الحموي بأنها "قرية بيت المقدس قرب الخليل على جانب الطريق"عرفت في العصر الصليبي باسمها الروماني Path sura. بورشارد، وصف،ص165.الحموي المشترك وضعا، ص286. الدباغ، بلادنا، ق2،ج5، 166.

([9]) Rohricht, R., op.cit., Doc. No. 353.

([10]) I bid., Doc. No. 488..

([11]) **قرية ترقوميا:** تقع في الشمال الغربي من مدينة الخليل، وتبعد عنها نحو 12كم، ويحدها من الشمال قرية بيت نسيب، ويحدها من الشمال الشرقي قرية حلحول، ومن الجنوبي الشرقي مدينة الخليل؛ وكانت تقوم على موقع قرية ترقوميا، قرية "يفتاح" الكنعانية، وفي العهد الروماني عرفت باسم ترقومياس ومن أعمال مقاطعة بيت جبرين، ولعل ترقوميا تحريف للكلمة Tetracmia بمعنى أرض القرى الأربع. الدباغ، بلادنا، ق2،ج5، ص245.

وتكشف لنا المصادر التاريخية عن دور المسيحيين الشرقيين، ومـوقفهم مـن الغـزو الصليبي من حيث الترحيب بهم، وتزويدهم بالمعلومات اللازمة عـن المـسلمين لمعـرفتهم بالبلاد وأهلها؛ ففي أثناء رواية الصوري عن حصار الصليبيين للقدس وفشل الهجـوم الأول عليها لقلة آلات الحصار، أشار إلى دورٌ للنصارى المحليين في تزويدهم بالمعلومـات عـن أماكن وجود الأخشاب لصنع آلات الحصار([1]) كما كان لهم دوراً في كشف عيون المسلمين الذين كانوا يتجسسون على المعسكر الصليبي المحاصر للقـدس للتعـرف علـى معـداتهم وأسرارهم الحربية فلما "رأي السريان واليونانيين هذا المسلم أشاروا للصليبيين إليه قـائلين: "... بحق المسيح هذا مسلم خسيس"([2]) كما لاقى الصليبيون استقبالاً حافلاً عنـدما توجهـوا للاستيلاء على مدينتي بيت لحم([3]) وطبرية([4]).

ويكشف لنا فوشيه الشارتري عن دور السريان في أنهـم زودوا الجـيش الـصليبي بالمعلومات اللازمة عن المسلمين، وذلك في سياق حديثه عن حملة الملك بلدوين الأول على جنوب فلسطين494هـ/1100م مما سهل المهمة على الجيش الصليبي الذي تتبع المـسلمين في مخابئهم، وقتلوا منهم قرابة مائة رجل، وبناءً على هذه المعلومات تقرر مواصلة الزحف نحو منطقة البحر الميت وما ورائه من بلاد العرب([5]).

يتبين من النصوص التاريخية السابقة أن المسيحيين الشرقيين رحبوا بقدوم ووصول جيوش الحملة الصليبية الأولى، لكن الصليبيين لم يعتبروهم في وضع متكافئ ومتـساوٍ مـع السكان اللاتين بل اعتبروهم هراطقة، كما أن الصليبيين لم يستطيعوا كسب ود المـسيحيين الشرقيين، وجعلهم حليفاً لهم ضد المسلمين باستثناء الموارنة، حيث قاموا كما ذكرنا بإقصاء رجال الدين الأرثوذكس من مناصبهم، وإحلال رجال الدين اللاتين محلهم، وخاصة بطريرك بيت المقدس؛ بالإضافة إلى مصادرة بعض أملاكهم، وحملهم على أن يؤدوا ضريبة العشور للكنيسة اللاتينية بجانب الضرائب الأخرى([6]) ففي إحدى الوثائق الصادرة 546هـــ/1151م قام عموري رئيس كنيسة القيامة بمنح جيمس Games السرياني وأبناء أخيـه أنطونيـوس antoneus. قطعاً من الأراضي الزراعية مزروعة بأشجار الكرمة من أراضي قرية قلندية وذلك من أجل استغلالها، وفي مقابل هذه المنحة تقرر أن يدفع نصف الثمار والمحاصيل التي

([1]) الصوري، تاريخ،ج1، ص418

([2]) توديبود، تاريخ الرحلة، ص317.

([3]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص70. الصوري، تاريخ،ج1، ص108.

([4]) Albert d, Aix, op.cit. P. 514. رنسيمان، تاريخ ،ج1، ص451

([5]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص108.

([6]) كاهن، الشرق، ص99، 100. براور، الاستيطان، ص265. سميل، تاريخ، ص52. وعن موقف الموارنة انظـر الـصوري، تاريخ،ج2، ص1028.عوض، أضواء، ص188-212.

تنتجها الأراضي التي حصلوا عليها، بالإضافة إلى الضرائب الأخرى مثل ضريبة العشور والضرائب التي تدفع ثلاث مرات سنوياً([1]).

وتحدثت الوثائق والمصادر التاريخية عن الخلافات بين رجال الدين اللاتين والنصارى الأرثوذكس فقد أشارت إحدى الوثائق إلى أنه بعد استيلاء الصليبيين على فلسطين قام أحد الفرسان الصليبيين ويدعى جوفيه Gautier بمصادرة أملاك طائفة اليعاقبة وأراضيهم، غير أنه في532هـ/1137م أطلق سراحه من الأسر فطالب بأملاكه أمام المحكمة، إلا أن المحكمة حكمت باحتفاظ اليعاقبة بالأراضي المتنازع عليها؛ على أن يؤدوا لجوفيه ثلاثمائة دينار على سبيل التعويض([2]) غير أن استرداد اليعاقبة لأملاكهم لم يكن بموجب حكم قضائي بل جاء نتيجة تدخل الملكة ميسلند ابنة الأميرة الأرمينية مورفيا([3]) Morfia ([4]).

كما أشارت إحدى الوثائق الصادرة في محرم 547هـ/ابريل 1152م إلى الخلافات بين رجال الدين اللاتين في كنيسة القيامة، والمسيحيين السريان حول ملكية بعض الأراضي، والضياع، والمنازل الواقعة في قرية بيت سوريك، وقلنديه، والتي كانت من أملاك المسيحيين السريان، ولكن رجال الدين اللاتين طالبوا بضم هذه القرى والأملاك إلى ممتلكاتهم على اعتبار أنها ضمن المنحة المقدمة لهم من الأمير جودفري، وقد وقفت الملكة ميسلند إلى جانب رجال الدين في كنيسة القيامة، وحسمت الخلافات لصالحهم، وأكدت على حقوقهم في الأراضي، والضياع والمنازل المتنازع عليها([5]) على الرغم من أن المسيحيين الشرقيين كانوا يدفعون الضرائب المقررة، ويمكن أن نستخلص من الوثيقة عدة أمور منها:

- امتلاك المسيحيين السريان للأراضي في فلسطين قبل قدوم الصليبيين، ثم أصبحوا بمثابة مستأجرين لها.
- قيام الصليبيين بمصادرة الأراضي من سكانها الأصليين، ومنحها لرجال الدين اللاتين بهدف استيطانها.
- يبدو من الوثيقة أن المسيحيين السريان قد تمردوا على سلطة رجال الدين اللاتين في كنيسة القيامة أثناء حكم الملكة ميسلند ولم يدفعوا إيجار الأراضي التي يقومون بزراعتها وذلك لأنهم يعتبرونها ملكاً خاصاً لهم.
- كان المسيحيون الشرقيون من سريان وأرمن ويعاقبه يسكنون في القرى المحيطة بالقدس

([1]) Genevieve, B.B., op. cit., Acte. No. 69. PP. 166-167. البيشاوي، الممتلكات، ص302

([2]) رنسيمان، تاريخ،ج2، ص374. براور، الاستيطان، ص268

([3]) الصوري، تاريخ،ج1، ص574. براور، الاستيطان، ص269.

([4]) **مورفيا:** هي ابنة جبرائيل الأرمني حاكم ملطية. تزوجها الملك بلدوين الثاني عندما كان كونتاً في إمارة الرها، وقد أنجبت له أربعة بنات منهم ميسلند وآليس. الصوري، تاريخ،ج1، ص574.

([5]) Genevieve, B.B., op. cit., Act. No. 36, PP. 103-105.

مثل بيت سوريك وقلنديه وغيرها من القـــــــــــــــــــــــــــــــــرى.

على أن السياسة الخارجية للمملكة عكست نتائجها على الطوائف المــسيحية الأخــرى؛ فشهدت بعض الفترات تحسن العلاقات مع بعض الطوائف، وتعتبر الملكة ميسلند مسؤولة عن تحسن العلاقات مع الكنيستين اليعقوبية والأرمينية([1]) ففي عهدها تم إعادة بعــض الأمـــلاك لليعاقبة كما مر الإشارة إلى ذلك، وفي535هــ/1140م شهد جاشليق الأرمن مجمعاً للكنيسة اللاتينية عقد في بيت المقدس([2]) وفي عام545هــ/1150م تم إقامة حي للسكان الأرمن فـــي القسم الجنوبي الغربي من القدس بالقرب من كنيسة القديس يعقوب([3]) وكان أساقفة اليعاقبــة والأرمن في بيت المقدس بمثابة أساقفة مساعدين للبطريرك اللاتيني، وكان الملك الــصليبي يقوم بالتصديق على تعيين البطريرك اليعقوبي([4]).

وخلال الفترة التي شهدت علاقات ودية بين بيزنطة والمملكة الصليبية قام الإمبراطــور البيزنطي سنة565هــ/1169م بإصلاح وترميم وزخرفة كنيسة المهد في بيت لحم، والعديــد من الأديرة الأرثوذكسية في عهد الملك عموري الأول([5]).

وهكذا يمكن أن نصل إلى نتيجة مفادها أن المسيحيين الشرقيين قد وقفوا موقفاً حياديـــاً من الصراع الإسلامي الصليبي، لذلك فبعد تحرير الأراضي الإسلامية علـــى يـــد صـــلاح الدين عام583هــ/1187م ظل المسيحيون الشرقيون يقطنون جنباً إلى جنب مع المــسلمين في معظم أرجاء الأراضي المقدسة، وبذلك فإن الخريطة السكانية لم تتغير كثيراً في فلسطين بعد استعادتها من أيدي الصليبيين إلا فيمـــا يخـــص العنـــصر الفرنجـــي، وهنـــاك العديـــد من الإشارات التاريخية التي تؤيد صحة ما ذهبنا إليه "فحين حـــرر حـــسام الـــدين لاجـــين نابلس عمل على استمالة النصارى فيها، وبعد أن فرض عليهم الجزية "أجراهم على ما لهـــم من العمارة والبنيان"([6]).

وبعد أن حرر صلاح الدين بيت المقدس سمح للنصارى الشرقيين بالإقامة في القدس بعد أن التزموا بأن يؤدوا الجزية([7]) "وأقام بمدينة القدس، وأعمالهـــا مـــنهم ألـــوف"([8]) وتـــسلم المسيحيون الشرقيون رئاسة كافة الكنائس في المدن المحررة([9]).

([1]) رنسيمان، تاريخ،ج2، ص374. براور، الاستيطان، ص275.

([2]) الصوري، تاريخ،ج2، ص721. ميخائيل السوري، تاريخ، ص165.

([3]) بالار، الحملات، ص262. الحياري، القدس، ص181.

([4]) براور، الاستيطان، ص 276276

([5]) فوقاس، رحلة، ص390، 396. براور، الاستيطان، ص269

([6]) أبو شامه، الروضتين،ج3، ص203

([7]) الأصفهاني، الفتح، ص89. ابن الأثير، الكامل،ج1، ص158

([8]) أبو شامه، الروضتين،ج3، ص259

([9]) أبو شامه، الروضتين،ج4، ص191. ويندوفر، ورود التاريخ، ص330.

- **اليهـــــــود.**

لقد عَرف تاريخ اليهود الطويل انقسامهم إلى فرق عدة دينية؛ تدعي كل منها أنها الطريقة الأمثل والأكثر اقتراباً من أصول الدين اليهودي، وتركز الاختلاف بين تلك الفرق بصفة أساسية حول الاعتراف بأسفار التوراة، والتلمود([1]) أو إنكار هذه الأصول، وكان المشهور من هذه الفرق في فلسطين زمن الحروب الصليبية ثلاث طوائف هي الربانيون والقراءون والسامرة([2]).

<u>فالربانيون</u>: مشتقة من كلمة ربانيهم بمعنى الإمام أو الحبر أو الفقيه وقد عربت هذه الكلمة إلى"رباني"وسمي أبناء هذه الفرقة ربانيين إشارة إلى أتباعهم من تفاسير علماء اليهود وفقهائهم في المشناه([3]) والتلمود وتقيدوا بذلك حتى صار هذا الاسم سمة عامة لهم([4]) ووردت الربانيون في القرآن الكريم في قوله تعالى "إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما إستحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء"([5]) والربانيون هم جمهور اليهود، وأكثر من غيرهم عدداً([6]) فقد كان رئيس اليهود المشرف على طوائفهم الثلاث؛ في بداية عصر المماليك من الربانيين كما تدلل على ذلك إحدى وثائق العصر المملوكي الصادر في عام684هـ/1285م([7]).

واستخدم اليهود الربانيون الحساب في معرفة تقويمهم، وتواريخهم وأعيادهم، وقد أباحوا تأويل نصوص التوراة، وبشروح لغوامض التوراة كتبها أحبارهم، كما أنهم انفردوا بتلك التفريعات المنسوبة إلى موسى عليه السلام، ولم يعتقدوا بسابق القدر([8]).

أما فرقة <u>القراءون</u>: الذين أشتق اسمهم من الكلمة العبرية التي تعني قرأ، وذلك لأنهم لا يؤمنون بغير التوراة المكتوبة التي يمكن قراءتها([9]) فهم يعتمدون على حرفية النص، كما

([1]) **التلمود:** مصدرها العبري "لمد" ومنها "تلميد" بمعنى تلميذ في العربية لأنه يعلم الفقه والدين وتفسير التوراة، وهو جزءان "المشناه" و"الجمار" والذي هو شروح المشناه، ويضم التلمود بحوث أحبار اليهود التي كتبوها على مر السنين، وهو يتألف من ثلاثة وستين سفراً، وهناك تلمودان أورشليمي، وبابلي. قاسم، أهل الذمة، ص103، هامش4.

([2]) عن مذاهب الفرق اليهودية انظر القلقشندي، صبح،ج13، ص260، 273. ظاظا، الفكر الديني، ص243–322.

([3]) **المشناه:** وهو كتاب عبري بمثابة التفسير للتوراة، ويعتقد الربانيون أنه سنة عن موسى أوصى الله بها إليه أثناء الأيام الأربعين التي قضاها في طور سيناء، وأمره ألا يكتبها، وأن يبلغها شفوياً؛ لذلك فإنها تعرف باسم التوراة الشفوية، والمشناه تعني "الثاني" أي الكتاب الثاني بعد التوراة، وظلت المشناه تتداول شفوياً حتى عصر يهودا الناسي الذي جمعها ودونها من النسيان أو التحريف، وهي ست أسفار. قاسم، أهل الذمة، ص103، هامش2.

([4]) قاسم، أهل الذمة، ص102.

([5]) سورة المائدة، آية 44.

([6]) القلقشندي، صبح،ج11، ص381.

([7]) ابن عبد الظاهر، تشريف، ص216–220. القلقشندي، صبح،ج11،378– 385

([8]) القلقشندي، صبح،ج13، ص260، 261. عزرا حداد، رحلة التطيلي، ص378.

([9]) قاسم، أهل الذمة، ص104 ، 105.

أنهم لا يأخذون بالتسهيلات الواردة في التلمود، ولا يقولون بتأويل نصوص التوراة بل يتمسكون بظاهر نصوصها، كما يعتقدون بسابق القدر، ويعتمدون على الأهلة في تقويمهم، وحساب أعيادهم، ومواسمهم مما اوجد فروقاً في هذه الناحية بينهم وبين الربانيين([1]).

ويرجع بعض الباحثين أصل هذه الفرقة إلى عنان بن داود(ت184هـ/800م)([2]) واعتبر مؤرخو العصر المملوكي أن كلاً من الربانيين والقرائين بمثابة الفرق اليهودية الواحدة على الرغم من تفهمهم لحقيقة الخلافات بين الجانبين([3]).

أما الفرقة الثالثة من اليهود فهي فرقة السامرة ويرجع نشأة هذه الفرقة في فلسطين إلى ما بعد تدمير مملكة إسرائيل على يد ملك آشور "تغلت فلاسر" سنة 738 ق.م الذي أجلى اليهود عن فلسطين إلى نواحي شمال إيران الحالية، وأحل محلهم بعض القبائل في سكنى عاصمة المملكة، وهي مدينة السامرة القديمة التي بنيت على أنقاضها مدينة نابلس، ويعتمد أصحاب هذا الرأي في نشأة السامرة على بعض نصوص الكتاب المقدس الذي يحكي هذه الحادثة، وهم يعتبرون السامرة أجانب وغرباء ومتعاونين مع أعداء اليهود، وأنهم وثنيون مشركون، وأطلقوا عليهم اسم" شومرونيم" أي السامريين، لكن السامريين حرفوها إلى"شونيم" أي المحافظين بدعوى أنهم أصحاب الدين الموسوي الأصلي([4]). ويذهب البعض إلى أن نشأة السامرة ترجع إلى أيام السبي البابلي سنة 586ق.م لأنهم بنو هيكلهم فوق جبل جرزيم([5]) القريب من نابلس في هذا التاريخ([6]).

والسامرة لا يعترفون بغير أسفار موسى الخمسة؛ مما دفع بعض المصادر العربية إلى القول بأن لهم توراة تخصهم غير التوراة التي بأيدي القرائين والربانيين؛ كما أنهم يتفقون مع القرائين في الأخذ بحرفية نصوص التوراة، ويعتمدون على رؤية الأهلة، وأنكروا نبوة كل من أتى بعد موسى عليه السلام باستثناء هارون ويوشع([7]).

وكان زعيم الطائفة اليهودية له حق الإشراف على شؤون الطوائف الثلاث، وكان يختار من بين الربانيين، وكان عليه تنظيم علاقة اليهود بالدولة، كما كان من حقه

([1]) القلقشندي، صبح،ج13، ص260، 261.عزرا حداد، رحلة التطيلي، ص378.

([2]) عزرا حداد، رحلة التطيلي، ص377.

([3]) القلقشندي، صبح،ج13، ص260

([4]) عزرا حداد، رحلة التطيلي، ص370، 371، 373

([5]) **جبل جرزيم:** يقع جنوب غرب نابلس وبينه وبين جبل عيبال وادٍ ضيق، ويرتفع عن سطح البحر880م. وقد ذكر في التوراة باسم كريزم كما ذكر باسم جبل الطور ويعرف باسم الجبل القبلي، وهو جبل مقدس عند السامريين، وتتركز كثير من الينابيع المائية في هذا الجبل حيث تتفجر عند منحدراته الشمالية 22 عيناً منها عين رأس العين، وعين بيت الماء. الهراوي، الإشارات، ص30. الدباغ، بلادنا، ق2،ج2، ص24،23.رئيسة، نابلس، ص31،30.

([6]) ظاظا، الفكر الديني، ص247، 248.

([7]) القلقشندي، صبح،ج13، ص271، 272.عزرا حداد، رحلة التطيلي، ص375، 376.

تنظيم شئونهم الدينية، واختيار واحد من كل فرقة يهودية لتنظيم شؤون فرقته كما تشير الوثائق المملوكية بذلك([1]).

تحدثت المصادر التاريخية، والجغرافية عن وجود اليهود في فلسطين فذكروا طائفة السامرة، وحددوا أماكن تواجدها في عدد من المناطق فذكر الإصطخري نابلس باسمهم فقال"ونابلس مدينة السامرة"([2]) وألمح كل من المسعودي، والمقدسي إلى وجودهم فذكر المسعودي أنهم موجودون ببلاد فلسطين والأردن، وفي قرى متفرقة كقرية عارا([3]) بين الرملة، وطبرية([4]) أما المقدسي فذكر أن السامرة في "فلسطين إلى طبرية"([5]).

وبحلول منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وقبل الغزو الصليبي بجيلين تقريباً كانت رام الله تعد من مراكز اليهود الهامة([6]) وهي المدينة التي كانت عاصمة للمنطقة الجنوبية من فلسطين تحت الحكم الفاطمي في مصر، وشهدت مدينة رام الله نزاعاً دائماً بين طائفتي القرائين والربانيين([7]) وكانت للجماعات اليهودية تلك علاقات وثيقة مع الجماعات اليهودية الأخرى في القاهرة ودمشق وحلب وبغداد وحوالي ثلاثين منطقة أخرى تواجد فيها اليهود في بلاد الشام في ذلك الوقت([8]).

أما الجماعات اليهودية في مناطق بيت المقدس، وفي السهل الساحلي فقد عاشوا في أحياء مستقلة ضمن مجتمع المدينة المسلم، وفي منطقة الجليل عاشوا في قرى ضمت أخلاطاً من السكان؛ إلا أن هذا لا يعني أنهم لم يكونوا يختلطون، ويتعاملون مع الآخرين من أبناء المجتمع المسلم([9]).

ومن الحقائق المتعلقة بالجماعات اليهودية في بلاد الشام قبل قدوم الحملة الصليبية الأولى، أنهم لم يكونوا يعيشون في كيانات سياسية مستقلة حيث عاشوا في الدولة الإسلامية باعتبارهم أقلية دينية يتمتعون بالحريات الدينية، والاقتصادية التي كفلها لهم الإسلام([10]).

([1]) ابن عبد الظاهر، تشريف، ص216-221. القلقشندي، صبح،ج11، ص378، 385. ويبدو أنه قد أصبح لكل من السامرة والقرائين رئيس مستقل في فترة متأخرة من عصر السلاطين المماليك للمزيد انظر القلقشندي، صبح،ج11، ص386.

([2]) الإصطخري، الممالك، ص58.

([3]) **قرية عارا:** تقع إلى الجنوب من حيفا عند قضاء جنين، ويحدها من الشمال الشرقي قرية كفر قرع، وتقع في جوار قرية عارا عدة خرب منها تل الأساور التي تقع إلى الشمال الغربي من قرية عارا، ووادي عارا الذي حمل اسم القرية، يصل مرج بن عامر بالسهل الساحلي. الدباغ، بلادنا، ق2،ج8، ص638، 639.

([4]) المسعودي، مروج الذهب،ج1، ص171.

([5]) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص153.

([6]) براور، الاستيطان، ص79، 282.

([7]) المرجع نفسه، ص282.

([8]) المرجع نفسه، ص282.

([9]) المرجع نفسه، ص282.

([10]) قاسم، رؤية ، ص42. شاهين، أوضاع اليهود، ص12.

ولقد تأثر اليهود في أواخر العصر السلجوقي نتيجة الحروب والمنازعات التي انتشرت في بلاد الشام سواء كانت بين السلاجقة أنفسهم أو التي كانت بين السلاجقة من جهة والدولة الفاطمية من جهة أخرى، وكذلك مشاركة القبائل العربية في هذا الصراع([1]) الأمر الذي أدى إلى انتقال قيادة الجماعة اليهودية من مدينة رام الله إلى مدينة صيدا؛ ثم استقرت أخيراً في مدينة دمشق، وخضعت هذه القيادة للسيادة السلجوقية([2]).

وفي أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي بدأت التجمعات اليهودية في بلاد الشام تقل وتنحصر في مراكز محددة حيث يحددها أحد الباحثين بعشر تجمعات موزعة على المدن الساحلية الكبرى، وفي الرملة وطبرية والقدس([3]) ويبدو أن ذلك راجع لأنباء المذابح والمجازر المرتكبة في الغرب ضد اليهود، وقرب وصول الصليبيين إلى بلاد الشام([4]) هذا بالإضافة إلى الخطابات والتحذيرات التي وصلتهم من إخوانهم سواء في الغرب الأوربي أو في الشرق الإسلامي تحذرهم من الصليبيين؛ ففي أعقاب وصول الصليبيين إلى الساحل اللبناني عام493هـ/1099م وصل خطاب من مدينة رفح([5]) بصحبة أحد سكانها من اليهود يطلب من إخوانه اليهود في مدينة القدس أن يهربوا إلى مدينة عسقلان خوفاً من الخطر الصليبي([6]) وهو ما يفسر لنا أسباب الهجرة الجماعية التي قامت بها الجاليات اليهودية من بعض المدن الهامة مثل رام الله ويافا هرباً من الخطر الصليبي القادم من الغرب الأوروبي([7]) وتوجه كثير منهم إلى حلب([8]) ودمشق حيث وجدت حارة باسمهم في مدينة دمشق ذكرها ابن عساكر ضمن عرضه لخطط المدينة([9]) حتى قدر عدد اليهود من جميع الطوائف فيها بحوالي عشرين ألف يهودي([10]) كما هاجر عدد من اليهود إلى مصر حيث ذكر التطيلي

([1]) المعاضيدي، الحياة السياسية، ص11.

([2]) التطيلي، الرحلة، ص273.براور، الاستيطان، ص81.

([3]) بالار، الحملات، ص165

([4]) بالار، الحملات، ص165.براور، الاستيطان، ص283.عوض، عالم، ص198، 199.

([5]) **رفح**: مدينة عربية من مدن قضاء قطاع غزة تبعد عن ساحل البحر نحو 5.5 كم، وقد نشأت رفح منذ زمن بعيد، وقد عرفها المصريون القدماء "روبيهوي" و"رابح" وعرفها الأشوريون "رفيحو" وفي العصر الروماني عرفت باسم "رافيا"، وسماها العرب باسم رفح، ولقد ارتبط اسم رفح بكثير من المواقع الحربية الحاسمة في التاريخ السياسي القديم للمنطقة، وفي العهد المسيحي كانت رفح مركز لأسقفية.الحموي، معجم،ج3، ص54. الدباغ، بلادنا، ق2،ج1، ص300– 303.

([6]) براور، الاستيطان، ص283.

([7]) المرجع نفسه، ص283.

([8]) التطيلي، الرحلة،280،281. حيث ذكر في رحلته أن عدد اليهود فيها بلغ ألف وخمسمائة يهودي.

([9]) ابن عساكر، تاريخ دمشق،ج2، ص287.

([10]) Petachia, P.399. نقلا عن عوض، الرحالة، ص276. وذكر التطيلي عددهم أثناء زيارته لدمشق بحوالي(3600) يهودي التطيلي، الرحلة، ص273.

وجود كنيسان لليهـود فـي القاهـرة إحداهما "ليهـود فلسطين ويسمى كنيس الشاميين"([1]).

هكذا نرى أن كثيراً من اليهود قد هجروا فلسطين إلى مصر، والمدن الشامية الداخليـة قبل أو بعد الاحتلال الصليبي للأرض المقدسة.

اتخذ اليهود من الغـزو الـصليبي موقفـاً معارضـاً للوجـود الـصليبي فـي بـلاد الشام([2]) وهذا لا يعني أنهم كانوا رجال مقاومة شعبية أو انضموا إلـى الجـيش الإسـلامي المقاوم للغزو الصليبي كما يصورهم الـبعض([3]) وبنـاء علـى مـا لاقـاه اليهـود مـن اضطهادات، ومذابح فإنهم قرروا التحـزب إلـى جانـب الـسكان المـسلمين، ومقاومـة الصليبيين الذين قتلوا إخوانهم في أوربـا([4]) علـى الـرغم مـن أن أيـاً مـن المـصادر العربية المعاصرة أو حتى اللاحقة؛ أو المصادر الفرنجية المباشرة لـم تـذكر شـيئاً عـن مشاركة اليهود إلى جانب المقاومة الشعبية في بلاد الشام باستثناء إشـارة ألبـرت ديكـس عن دور اليهود في مقاومة الصليبين في حيفا([5]).

فبعد نجاح الصليبيين باقتحام مدينة القدس ارتكبوا فيهـا مجـزرة مروعـة([6]) وقـام الصليبيون بقتل "خلق كثير وجُمع اليهود في الكنيسة، وأحرقوها عليهم"([7]) أما من نجا مـنهم تم بيعهم كعبيد؛ ثم قام اليهود في مصر بافتداء أعداد كبيرة منهم بالمال في عسقلان([8]).

وتصدى سكان مدينة حيفا المسلمون واليهود للحصار الـذي فرضـه الفرنجـة علـى المدينة 493هـ/1100م ويشير المؤرخ الفرنجي ألبرت ديكس إلـى أن المـسلمين قـاموا بتزويد اليهود من سكان مدينة حيفا بالسلاح، والعتاد من أجل الإسهام إلى جـانبهم بالـدفاع عن المدينة التي كانت محصنة بالأسوار والأبراج الأمر الذي سيـساعدهم علـى المقاومـة والتصدي للقوات الفرنجية المحاصرة للمدينة من البـر والبحـر([9]) ولـيس مـن شـك أن تردي الحالة النفسية لدى اليهود، وخوفهم من أن يحل بهم ما حل بإخوانهم فـي بيت المقدس والجليل؛ قد أسهم في تحفيزهم على الطلب من المسلمين المشاركة في الدفاع عن المدينة([10]).

([1]) التطيلي، الرحلة، ص348.

([2]) شاهين، أوضاع اليهود، ص15.

([3]) براور، الاستيطان، ص284، 285. براور، عالم الصليبيين، ص87

([4]) شاهين، أوضاع اليهود، ص15

([5]) Albert d, Aix, op.cit., PP. 520-523.

([6]) ريموندأجيل، تاريخ الفرنجة، ص247. توديبـود، تـاريخ الرحلـة، ص318، 319.الـشارتري، تـاريخ الحملـة، ص75. الصوري، تاريخ،ج1،435– 437.

([7]) ابن القلانسي، ذيل، ص137.الحريري، الإعلام، ص66. زابوروف، الصليبيون، ص123.سميث، الحملـة، 199. بـراور ، الاستيطان، ص282.

([8]) سميث، الحملة، ص198 براور، الاستيطان، ص285.بالار، الحملات، ص91.

([9]) Albert d , Aix, Loc cit. البيشاوي، حيفا، ص2

([10]) البيشاوي، حيفا، ص2، 3. رنسيمان ، تاريخ،ج1، ص451.

ولقد تنوعت أوضاع اليهود، وأدوارهم في بلاد الشام بعد احتلال الصليبيين لها حسب الإقطاعية التي أقاموا فيها؛ فقد كانت أكبر الجماعات اليهودية في مملكة بيت المقدس تقيم في مدينة عسقلان، وصور، وعكا؛ نظراً لأن تلك الجماعات خاصة المقيمة في عسقلان وصور لم تتعرض للإبادة والقتل على يد الصليبيين؛ كما هو الحال في المدن الأخرى، وخاصة بيت المقدس، وظلت الجالية اليهودية في عسقلان تحت الحكم الصليبي حتى تخريبها زمن صلاح الدين587هـ/1191م خلال أحداث الحملة الصليبية الثالثة([1]).

أما في بيت المقدس فقد تم منع اليهود من الإقامة فيها([2]) غير أنه في العقد الثاني من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي سمح الملك بلدوين الأول لليهود بالإقامة فيها، وسمح لهم أن يؤدوا اليمين على التوراة في حال دخولهم المحكمة([3]).

وعلى الرغم من أن المملكة الصليبية لم تشهد مذابح جماعية ضد اليهود خلال الفترة التي أعقبت تأسيس مملكة بيت المقدس([4]) فإن أعداد اليهود ظلت في مستويات أقل من الفترة التي سبقت احتلال فلسطين، وغيرها من البلدان المجاورة، وقد أكد براور استحالة معرفة أعداد اليهود في بلاد الشام إبان السيطرة الصليبية؛ لأن بعضهم كانوا ورثة مباشرين للسكان الأصليين؛ كما رأى أنه من المستحيل معرفة عدد السكان الجدد في المنطقة([5]).

وبشكل عام يمكن رصد أعداد اليهود التي أوردها الرحالة بنيامين في مدن المملكة الصليبية حيث تجاوزت(3298) إذا ما أخذنا بعين الاعتبار ما لم يورده من أعداد لليهود في بعض المدن([6]) ويبين الجدول التالي أعداد اليهود في مدن مملكة بيت المقدس الصليبية حسب ما أوردها التطيلي في رحلته خلال الفترة559-570هـ/1163-1174م.

المدينة	عدد اليهود	الصفحة	المدينة	عدد اليهود	الصفحة
بيروت	50	235	**عكا**	200	239
صيدا	20	235	**قيسارية**	400	242
صور	400	237	**اللد**	1	442
نابلس	1000	244	**بيت المقدس**	200	248
يافا	1	261	**بيت لحم**	11	256
عسقلان	540	262	**بيت جبرين**	3	258

([1]) براور، الاستيطان، ص289.

([2]) الصوري، تاريخ،ج1، ص561. براور، استيطان اللاتين، ص59. براور، عالم الصليبيين، ص88.

([3]) رنسيمان، تاريخ،ج2، ص164. شاهين، أوضاع اليهود، ص18، 19.

([4]) شاهين، أوضاع اليهود، ص19.

([5]) براور، عالم الصليبيين، ص86.

([6]) التطيلي، الرحلة، ص266.

الرملـــة	300	261	زيرين "زراعين"	1	263
طبريـــة	100	265	جوش "الجش"([1])	20	266
علمه ([2])	50	267	بيت نوبا "النبي"([3])	2	260
العـــدد الجمالي "**3298**" يهودي.					

ومن الجدول السابق يمكن قراءة بعض الملاحظات أهمها:

– تركز أعداد كبيرة من اليهود في مملكة بيت المقدس الصليبية في مدن عسقلان وصور وعكا، والسبب كما ذكرنا عدم تعرض تلك المدن للمذابح وعمليات الإبادة من قبل الصليبيين.

– مبالغة بنيامين بأعداد اليهود المقيمين في القدس حيث ذكر أن عددهم مائتي يهودي في حين أن بتاحيا الراتسبوتي والذي جاء بعد بنيــامين بعــشر ســنوات تقريبــاً أي مــا بــين عامي 570–583هــ/1174– 1187م ذكر أن مدينة القدس تحتوي علــى يهــودي واحــدٍ فقط([4]) كما أن براور نفى أن يكون عدد اليهود في مدينة القدس قد بلغ مائتي يهوديٍّ أثنــاء زيارة بنيامين لها 559–570هــ/1163–1174م وحدد العدد بأنه أربع عائلات فقط معتمداً على بعض النسخ المخطوطة للرحلة، وعلى اعتبار أن الصليبيين كانوا قــد منعــوا اليهــود والمسلمين في الفترة التي سبقت زيارة بنيامين من العودة والاستقرار في المدينة المقدسة([5]).

– مما يلفت الانتباه أيضاً أن بنيامين أثناء زيارتــه لطبريــة ذكــر أن أعــداد اليهــود فيها بلغ مائة يهودي فقط في حين ذكر بتاحيا أثناء زيارته لطبرية بأن أعدادهم قد تجاوزت الثلاثمائة يهودي([6]) وربما يعود ذلك لوقوع طبرية على خطوط التجارة الدولية.

– إن كثيراً من المدن المحتلة التي زارها بنيامين قد تواجد فيها عددٌ مــن اليهــود ولــم يتجاوز في بعض الأحيان الثلاثــة أفراد كمدن اللد، وبين جبرين، وبيت نوبا، ويافا، وزيرين

([1]) **الجش:** تقع في الشمال الغربي من صفد، وتبعد عنها حوالي 13كم ذكرها المقدسي بقوله" الجش قرية، وهي قرية من القــصبة" وذكرها الأصفهاني فقال "ثم سار [صلاح الدين].. على طريق جبل عامله ونزل ضحوة بضيعة يقال لها الجش وهــي عــامرة محتوية على سكانها كأنها العش".المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 142.الأصفهاني، الفتح، ص359. الحموي، معجم،ج2، 465. الدباغ، بلادنا، ق2،ج6، ص204، 205.

([2]) **علمه (علما):** تقع في شمال صفد وعلى بعد 12 كيلو منها، ترتفــع عــن ســطح البحــر 850متــر، وهنــاك عــدة قــرى تحمل هذا الاسم منها قرية علما الواقعة في منطقة حوران، وقرية علما فــي جبــل عامــل مــن أعمــال صــور. الــدباغ، بلادنا، ق2،ج6، ص217، 219.

([3]) **بيت نوبا:** وهي إحدى قرى قضاء رام الله، تقع في الجهة الشمالية الشرقية من قرية يالو ترتفع عن سطح البحــر 250متــر، كانت بيت نوبا في العهد الروماني من أعمال اللد، وفي سنة528هــ/ 1133م. شيد فيها الملك فولك لأنجو قلعة حصينة لتــأمين طريق القدس يافا.الحموي، معجم،ج1، ص523.الصوري، تاريخ،ج2، ص662. الدباغ، بلادنا، ق2،ج4، ص521–523.

([4]) Petachia, P. 389 ، نقلاً عن عوض، الرحالة، ص276.

([5]) عوض، الرحالة، ص161.

([6]) Petachia, P. 389، نقلاً عن عوض، الرحالة، ص276.

(زراعين) ويبدو أن وجود اليهود فيها كان لدوافع اقتصادية بحثه، وكان كلهـــم يحترفـــون الصباغة([1]) بمعنى أن إقامتهم في تلك المناطق لم تكن إلا لأنهم كانوا صـــباغين محتـــرفين، وأن حرفتهم تلك كانت بمثابة رخصة لهم للإقامة في تلك المدن، لأنه من الواضح أن اليهود قد احتكروا تلك الصنعة دون غيرهم؛ كما عمل بعضهم في صناعة الزجاج([2]).

– ذكر التطيلي أثناء زيارته للأرض المقدسة أنه مر على بعض مدن فلسطين فلم يجـد فيها يهودياً واحداً، وذلك مثل مدن حيفا، سبسطية والخليل وبيسان ويبنه([3]) وغيرها.

– يلاحظ كذلك أن أعداد اليهود في فلسطين كان ضئيلاً جداً في ظل الحكم الصليبي إذ لا تتعدى أعدادهم "3298" في خمسة وثلاثين"35" تجمعاً سكانياً؛ إذا ما حذفنا التجمعات السكانية التي مر عليها بنيامين في مناطق ما يعرف اليوم باسم لبنان والساحل السوري.

– أن هناك ألفاً من يهود نابلس، ومائتين من يهود قيسارية، وثلاثمائة من يهود عسقلان رفض بنيامين أن يعتبرهم يهوداً، وهم من طائفة السامريين.

– يرى مترجم الرحلة عزرا حداد أن العُرف جرى أن يحصي البـــاحثون والمؤرخـــون اليهود وعددهم بالبيت أو بالأسرة لا بعدد الأفراد، فلا يحصى في هذا الحال إلا رب الأسرة فقط([4]) معنى ذلك أن عدد اليهود حتى ولو لم يكونوا موجودين إلا في المدن الواردة آنفاً أكثر بكثير من رقم "3298"0

بعد فتح صلاح الدين للقدس583هـ/1187م سمح لليهود بالهجرة والسكن فيها وأظهر من التسامح والعفو معهم ما جعل المؤرخين يذكرونه بالثناء والتقدير([5]) ويبـــدو أن صلاح الدين قام بذلك على أمل أنهم سوف" يكونون حلفاء حقيقيين" له في حالة قـــدوم حملة صليبية جديدة([6]).

ويذكر دافيد بن جوريون([7]) أن صلاح الدين أصدر نداء لجميع اليهود الهـــاربين مـــن الصليبيين بالعودة إلى بيت المقدس، والمدن المحررة الأخرى مما دفع بالعديد مـــن اليهـــود للهجرة والسكن في مدينة القدس([8]) مما أدى إلى إنعاش الجالية اليهودية في مدينة القدس([9]).

([1]) التطيلي، الرحلة، ص242، 260، 261.

([2]) المصدر نفسه، ص238.

([3]) المصدر نفسه، ص240، 243، 256، 259، 261.

([4]) التطيلي، الرحلة، ص25.

([5]) براور، الاستيطان، ص295. القوطي، صلاح الدين، ص41. قاسم، بعض مظاهر، ص374.

([6]) بلدوين، اضمحلال، ص281.

([7]) **دافيد بن جوريون:** وهو يهودي من أصل بولندي، هاجر إلى فلسطين 1906، عمل سكرتيراً للهستدروت مـــن 1921–1935م ثم تولى إدارة الوكالة اليهودية فيما بين 1935–1948م. ويعتبر من أبرز قادة الحركة الصهيونية وأبرز شخصية فـــي الكيـــان الصهيوني بعد إقامته، وهو أول رئيس وزراء إسرائيلي. توفي سنة 1973، النقيب، آباء الحركة الصهيونية، ص150–152.

([8]) براور، الاستيطان، ص296. شاهين، أوضاع اليهود، ص24. القوطي، صلاح الدين، ص42. مصطفى، من الغزو، ص30.

([9]) براور، الاستيطان، ص296.

ولم تقتصر سياسة التسامح اتجاه اليهود على عهد صلاح الدين بل واصل خلفاؤه من السلاطين السياسة نفسها التي اتبعها صلاح الدين الأيوبي([1]) ونتيجة لهذه العودة استعاد اليهود نشاطهم التجاري القديم؛ لاسيما وأن الدولة الأيوبية لم تضع أي قيود عليهم بل سمحت لهم بحرية العمل والعبادة([2]) معنى ذلك أن اليهود في ظل الحكم الإسلامي للبلاد المحررة كانوا يتمتعون بوضع أهل الذمة([3]) الذي منحهم إياه الشرع الإسلامي، كما أن اليهود لم يشكلوا خطراً على الطابع الإسلامي للمدينة العربية الإسلامية "وعاشوا بسلام مع جيرانهم فيما خلا حوادث قليلة أثير فيها غضب المسلمين ضد اليهود"([4]).

وهكذا بدأ اليهود تدريجياً في إعادة تشكيل مجتمع خاص بهم في مدينة القدس، ويقول براور أن ثلاث فئات من اليهود استقرت في القدس بعد تحريرها العسقلانيون الذين انتقلوا إليها بعد أن خرب صلاح الدين أسوارها في587هـ/1191م، ويهود المغرب الذين فروا إلى الشرق حوالي عام595هـ/1198م ويهود فرنسا الذين ضموا حوالي ثلاثمائة عائلة وهاجروا على دفعتين ما بين606- 608هـ/1209-1211م([5]) كما تدفقت أعداد كبيرة من اليهود في السبعينات والثمانينات من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي واستقرت جماعات منهم في الجليل، وفي المدن الساحلية([6]).

وعندما سُلمت القدس إلى فريدريك الثاني627هـ/ 1229م استؤنف العمل بالتشريعات المعادية لليهود، والتي كانت سائدة في فترة الصليبيين؛ فمنع اليهود من السكن في المدينة مرة أخرى "ولكن بعد بعض المفاوضات سمح لعائلة يهودية واحدة بالسكن في القدس لتكون دارها محطة للحجاج اليهود الذين يسمح لهم بزيارة المدينة"([7]).

ولكن يبدو أن اليهود عادوا للإقامة مرة ثانية في مدينة القدس بعد تحريرها على يد الناصر داوود سنة637هـ/1239م حيث تشير المصادر الإسلامية إلى حارة اليهود داخل أسوار المدينة([8]).

أما في المناطق التي ظلت خاضعة للسيطرة الصليبية فقد كانت عكا تمثل المدينة الرئيسية لاستقرار الجالية اليهودية حيث عاشت فيها جالية يهودية كبيرة يترأسها حبر من طائفة الربانيين وقد استقروا في حي مونتميزارد Montmusard الذي أُنشيء عقب انحصار

([1]) القوطي، صلاح الدين، ص42. براور، الاستيطان، ص300، 301. مصطفى، من الغزو، ص31.

([2]) شاهين، أوضاع اليهود، ص24. القوطي، صلاح الدين، ص42.

([3]) ابن عبد الظاهر، تشريف، ص218-220. القلقشندي، صبح،ج13، ص378-383.

([4]) لتل، القدس، ص223.

([5]) براور، الاستيطان، ص296، 300.

([6]) بالار، الحملات، ص167.

([7]) لتل، القدس، ص193.

([8]) العليمي، الأنس،ج2، ص105.

حدود المملكة الصليبية إثر معارك التحرير التي خاضها صلاح الدين([1]).

ويذكر أحد الباحثين المحدثين أنه خلال عصر الدولة الأيوبية هاجر ما يقرب من خمسة عشر ألف يهودي([2]) من القوقاز([3]) وبلاد الروم، واستوطنوا بلاد الشام واستقر منهم نحو تسعة آلاف في فلسطين؛ كما يشير إلى انتقال أسر يهودية من حلب إلى فلسطين([4]).

وفي عهد المماليك تدفقت أعداد كبيرة من يهود أوروبا الوسطى والقوقاز على سوريا وفلسطين، وبلغ عددهم اثني عشر ألفاً استوطن منهم ثمانية آلاف في فلسطين، كما هاجرت أسر عديدة من يهود العراق إلى فلسطين عندما غزا التتار العراق، وقضى على الخلافة العباسية([5]) معنى ذلك أن الأفكار الدعائية المرتبطة بالتوراة، وشروحها "وبالموشحات الدينية اليهودية" كان لها تأثيرها في الهجرات اليهودية إلى فلسطين([6]) خاصة في الوقت الذي تعرضت فيه الجماعات اليهودية في أوروبا للمذابح والاضطهاد([7])

هكذا ساهم اليهود في تكوين البنية السكانية لفلسطين، ولكنهم شكلوا أقلية دينية في المجتمع الصليبي والإسلامي على حد سواء، وعُومل اليهود كأهل ذمة، في المقابل فرض عليهم الصليبيون بعض القيود كعدم دخول مدينة القدس إلا بتصريح([8]) دخول كما كان للأفكار الدينية اليهودية، والاضطهاد الأوروبي لليهود أثرهما في هجرة أعداد كثيرة منهم إلى فلسطين.

([1]) براور، الاستيطان، ص209.

([2]) معظم هؤلاء اليهود ينتسبون إلى الخزر أو الشرق كما تسميهم المصادر العربية القديمة، والخزر يمثلون تحالفاً من الأقوام البدوية الرحل، قدموا من شرق أواسط آسيا خلال القرن السابع الميلادي وسيطروا على أراضي القوقاز، واستطاع الخزر تكوين كيان سياسي لهم استمر ثلاثة قرون من الزمان إلى أن قضى عليهم الروس سنة 965م، فانتشرت قبائل الخزر في جميع أنحاء روسيا وبلدان أوربا الشرقية، ويرجع اعتناق الخزر لليهودية إلى حوالي 740م. ومع اعتناق الخزر لليهودية انتشر نوع جديد من اليهود غير الساميين لا ينتمون إلى سلالة بني إسرائيل، ومعظم الذين دخلوا سوريا وفلسطين في العصر الإسلامي كانوا من اليهود الإشكناز السلالة الخزرية القوقازية، عثمان، اليهود،ج2، ص133-135. الشريفي، أورشليم، ص203.

([3]) **القوقاز:** هي البلاد الواقعة بين البحر الأسود وبحر قزوين (الخزر) من جهتي الغرب والشرق، وبين نهري ترك وكوبان شمالاً، ونهري كورا وريفيون جنوباً؛ أي أنها تشمل جبال القوقاز وسفوحها الشمالية والجنوبية، وهي الحد الفاصل بين آسيا وأوربا. عثمان، تاريخ اليهود،ج2، ص133.

([4]) الشريفي، أورشليم، ص204.

([5]) المرجع نفسه، ص204.

([6]) براور، الاستيطان، ص296. وعن الأفكار اليهودية الداعية للهجرة اليهودية إلى فلسطين، ومنهم موسى بن ميمون، ومير روثنبرج.انظر براور، الاستيطان، ص296-303.

([7]) عوض، عالم، ص7-35. براور، الاستيطان، ص301.

([8]) ثيودريش، وصف، ص125.

أقسام السكان من حيث نمط المعيشة

- المــــــدن

تأثرت المدينة العربية الإســلامية فــي شــكلها وتخطيطهــا بــالمؤثرات الإغريقيــة والرومانية القديمة من حيث تخطيط الشوارع والأسوار التي تمثل أهــم جوانــب التخطــيط للمدن بالإضافة إلى المرافق والمنشآت الأخرى، كما تــأثرت المدينــة العربيــة الإســلامية في تخطيطها بمؤثرات العقيدة من حيث وسطية المسجد الجامع فيها، وميــادين اســتعراض الجند، والمقابر؛ كما روعي في تخطيط المدينــة الإســلامية أيــضاً وجــود التحــصينات والقلاع والأسوار ([1]).

ومع نمو المدينة وتحولها إلى مراكز حضارية وعمرانية زاد الاهتمام باتساع شوارعها الرئيسة، واعتبرت الشوارع الرئيسية في المدن الإسلامية الأصل الذي تتفرع منه وتصب فيه جميع الشوارع الفرعية، والسكك والأزقة الجانبية التي كان اتساعها أقل من اتساع الــشارع الأعظم، وتأثرت الشوارع في المدن الإسلامية بعامل المناخ، وخاصة الشوارع التي تتميــز بنشاط تجاري خاص، والتي غطت لحمايتها من العوامل الجوية([2]).

ولاشك أن المدينة اختلفت كلياً عن البادية من حيث طرق وأساليب الإنتاج، وقد فطــن ابن خلدون إلى ذلك فذكر أن من سكان المدن"من ينتحل في معاشه الصنائع، ومنهم من ينتحل التجارة، وتكون مكاسبهم أنمى وأرفه من أهل البدو لأن أحوالهم زائدة على الــضروري"([3]) فإذا كان من طبيعة الناس عموماً التطلع "إلى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة"([4]) فــإن ذلــك ينطبق بالأحرى على سكان المدن "لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والإقبــال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها"([5]) فضلاً عن وجود علاقات منفعة بيــنهم([6]) ممــا يوفر الفرص لخلق مجتمع طبقي.

معنى ذلك أن نشاط سكان الحواضر لم يكن موجهاً نحــو تلبيــة الحاجــات البــسيطة الضرورية المعدة للاستهلاك فقط؛ بل وجه نحو اقتصاد التبادل وتوفير الفائض عن طريــق الزيادة في الإنتاج الذي هو وليد تقسيم العمل، ومن ثم خلق فرص التنافس، وهو ما يــؤدي بدوره إلى التفاوت بين الأفراد الذين يصنفون حسب ثروتهم داخل المجتمع الحضري، بعكس البوادي التي يتقلص فيها التفاوت الاجتماعي بسبب سيادة الملكية الاجتماعية في الغالب الأعم

([1]) ابن خلدون، تاريخ،ج1، ص347. عثمان، المدينة الإسلامية، ص153، 178.

([2]) عثمان، المدينة الإسلامية، ص172،171،165.

([3]) ابن خلدون، تاريخ،ج1، ص130.

([4]) المصدر نفسه،ج1، ص37.

([5]) المصدر نفسه،ج1، ص132.

([6]) المصدر نفسه،ج1، ص129

فمن خصوصيات التنظيم الاجتماعي في المدينة الحلول الجزئي لعلاقات العمل والملكة والتبادل؛ محل علاقات القرابة التي تشكل حجر الزاوية في التنظيم الاجتماعي بالبادية؛ ففي الحواضر لا يجتمع الناس بمقتضى أرحامهم، بل بموجب المكانة التي يحتلونها في تقسيم العمل، ونصيب الثروة التي يملكونها، وتلعب العلاقات التجارية دوراً هاماً في انحلال علاقات العصبية وظهور الطبقات في المدن([1]).

وإذا ما تأملنا رسماً تخطيطياً للمدينة العربية الإسلامية التي استولى عليها الصليبيون في فلسطين نجدها متطابقة تماماً في الشكل مع المدينة العربية التي كانت موجودة قبل الاحتلال الصليبي([2]) ولقد ظهرت الاستمرارية الحضارية للمدينة الإسلامية في المدن التي استولى عليها الصليبيون في فلسطين مثل مدينة القدس وعكا وعسقلان وغيرها من المدن الفلسطينية، وكانت هذه المدن تحتوي على الشوارع والكنائس والمساجد والأسواق والبوابات، والقلاع والى غير ذلك من وسائل التحصينات والدفاع([3]).

ومن دراسة الحفائر الأثرية التي أجريت في مواقع المدن القديمة في فلسطين، والتي ترجع إلى الفترة الصليبية يمكننا أن نقرر حقيقتين هامتين([4]) الأولى: إن مساجد المدينة الفلسطينية الإسلامية التي احتلها الصليبيون بقيت على حالها خلال الفترة الباكرة من الوجود الصليبي عام 493-515هـ/1099-1111م. والثانية: أنه بالرغم من أن الصليبيين استقروا في البداية داخل أسوار المدن القديمة فإنهم بمرور الوقت، وتحت ضغط النمو السكاني وتزايد أعداد المهاجرين الأوربيين للاستيطان في فلسطين اضطر الصليبيون إلى توسيع أسوار المدينة، وإضافة مناطق، وأحياء سكانية جديدة إليها لمواجهة هذه الزيادة السكانية.

معنى ذلك أن القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي شهد توسعاً وامتداداً للمدينة العربية التي احتلها الصليبيون ولاسيما عندما انحصر الكيان الصليبي في شريط ساحلي ضيق على البحر بعد أن فقدوا المناطق الداخلية على أثر حروب التحرر التي خاضها صلاح الدين وتوقيع اتفاقية الرملة([5]) فقد بقيت المدن الساحلية الأماكن الوحيدة لاستقبال أعداد المهاجرين الصليبيين في المناطق، وقد لوحظ هذا التوسع والامتداد في مدينة يافا، حيث أضيفت إلى المدينة القديمة مدينة جديدة أخرى مسورة، كما أضيف إلى مدينة عكا حي جديد عُرف باسم مونتميزارد، وقد تطور هذا الحي واتسع حتى عرف باسم منطقة الساحات، وجاء

([1]) جغلول، الإشكاليات، ص105.

([2]) Brawer, Crusader cities, P. 186.

([3]) Benvenisti, M. op. cit., P. 29 . عثمان، المدينة الإسلامية، ص153-178.

([4]) Brawer, op.cit., PP. 181-185.

([5]) الأصفهاني، الفتح، ص353، 354. ابن شداد، النوادر، ص191-192. ابن الأثير، الكامل،ج10، ص218. شاهين، هدنة الرملة، ص382-392.

هذا التوسع في مدينة عكا نتيجة لتزايد أعداد المهاجرين الصليبيين الوافدين إلى المدينـــة([1]).

بالإضافة إلى اتساع المدن، وامتدادها في الفترة الصليبية، فإن الــصليبيين قــد أســسوا مراكز عمرانية بجوار القلاع التي شيدوها، وتعتبر مدينة عتليت([2]) نموذجاً لهــذه المراكــز الجديدة التي شيدها الصليبيون، فقد كشفت الحفائر الأثرية أن هذه المدينة قد كانت صــغيرة المساحة نسبياً تبلغ مساحتها(9.000م^2)كذلك كشفت الحفائر الأثرية عن كنيسة المدينة ومكان السوق، وإسطبلات، وحظيرة للماشية، وفي صفد التي زودت قلعتها عام 563هــــ/1168م بحامية عسكرية، وجهاز إداري، ووصل عدد المستوطنين من السكان الصليبيين حول القلعة إلى حوالي ألف وخمسمائة(1500) نسمة وهكذا نمت مدن صغيرة حول القلاع([3]).

وإذا كانت المدن العربية الإسلامية التي احتلها الصليبيون قد احتفظت بشكلها وتخطيطها طوال فترة الوجود الصليبي في فلسطين، فإن إقامة إضافات جديدة أضافها الصليبيون إلـــى بنية المدينة جاءت تلبية للظروف السياسية، والعسكرية، والاقتصادية، والسكانية التي واجهها الصليبيون في فترة استيطانهم لفلسطين؛ فعندما تم احتلال مدينة القدس قام الصليبيون بإضافة الأسوار، والتحصينات في الزاوية الشمالية الشرقية، وتم تشييد عدد من الأبراج، والمباني([4]).

ومن الإضافات الجديدة التي أضافها الصليبيون إلى بنية المدينة العمل علـــى تنــصير وكثلكة المدينة العربية الإسلامية، وذلك بتحويل المساجد إلى كنائس؛ فقــد تحــول المــسجد الأقصى في مدينة القدس إلى كنسية أطلق عليها اسم معبد سليمان، وأطلق على قبة الصخرة اسم معبد السيد المسيح([5]) وفي عسقلان تحول الجامع الأخضر إلى كنيسة للقديس بــولس([6]) وتحول المسجد الإبراهيمي في الخليل إلى كنيسة أطلق عليها اسم سانت إبراهام([7]).

وقد أشار ابن جبير إلى دور الصليبيين في تغيير هوية المنطقة وتحويلها عن الإســلام من خلال كثلكة المناطق المحتلة؛ فبعد أن أشار إلى سقوط مدينة عكا في يد الصليبيين ذكــر السياسة التنصيرية للمدينة فقال "فعادت مساجدها كنائس وصوامعها مضـــارب للنواقيس"([8]).

([1]) Brawer, Crusader Cities, PP. 181, 182.

([2])**عتليت:** تقع قلعة عتليت على الساحل الفلسطيني على بعد 16كم جنوبي حيفا(20كم) شمال قيسارية، عرفهــا الكنعــانيين باســم عتليت حيث كانت ميناء لهم وفي العهد الروماني عرفت باسم بكوبون بولس بمعنى مدينة الرعاة، وذكرتها المصادر الإســلامية باسم عتليت والحصن الأحمر وأطلقت عليها بعض المصادر الأوروبية قلعة الحاج، شيدت القلعة عام615هــ/1218م. على يد فرسان التيوتون بورشارد، وصف، ص161. الحموي، معجم،ج4، ص85.الصوافي، القلاع، ص184-190.

([3]) Brawer, Crusader Cities, PP. 181-183

([4]) النقر، التغيرات، ص9. الحيارى، القدس، ص171. براور، استيطان اللاتين، ص62.

([5]) سايولف، وصف، ص30، 32. دانيال، وصف، ص56، 57. فورزبورغ، وصف، ص47، 52.

([6]) الصوري، تاريخ،ج2، ص235.

([7]) حول السياسة الصليبية اتجاه المسجد الإبراهيمي، ينظر السيد، الخليل، ص283 وما بعدها.

([8]) ابن جبير، الرحلة، ص 235 .

ومن التغييرات التي ادخلها الصليبيون في بنية المدينة العربية المحتلة التغييرات الاجتماعية، والسكانية التي أثرت في التنظيم الاجتماعي للمدينة ومؤسساتها، وحياتها اليومية واحتفالاتها وأعيادها([1]) فقد تم إفراغ مدينة القدس من جميع سكانها، وقتل الفرنجة المسلمين واليهود، في حين كان المسلمون قد أرغموا النصارى على ترك المدينة قبل الحصار الصليبي للمدينة([2]) واستولى الفرنجة على بيوت، وأملاك المواطنين الفارين طبقاً لقانون الغزو([3]).

وقد احتوت مدينة القدس على أربع أحياء([4]) وهي حي البطريرك، وهو الحي الذي استوطن فيه الأوربيون اللاتين بدلاً من المسيحيين الشرقيين الذين أخلوه قبل الاستيلاء على المدينة([5]) وحي السريان الذي استوطن فيه النصارى المحليون الذين استقدمهم الملك بلدوين الأول510هـ/1116م من مناطق شرق الأردن([6]) حيث استوطنوا في الحي اليهودي سابقاً([7]) وحي الأرمن الذي تكون نتيجة لزيادة عدد الأرمن بالقدس([8]) والحي الألماني حيث وصف فورزبورغ بدايات تكوين ذلك الحي، وكيف بدأ بإقامة كنيسة، وفندق للألمان إلى الشرق من جبل الزيتون([9]) بالإضافة إلى شارع الأسبان([10]).

ومنع المسلمون واليهود من دخول المدينة المقدسة؛ حيث صدر مرسوم لإبعادهم نهائياً من القدس، وذلك لأن وجودهم سوف يدنس قداسة المكان([11]) أما إذا وجدنا فيما بعد مسلماً أو يهودياً فيها فإنه عادة ما يكون من الحجاج أو أنهم أناس حصلوا على تصريح خاص للإقامة([12]) لأغراض تجارية، كما نص المرسوم الذي أصدره الملك بلدوين الثاني لتنشيط الحركة التجارية في القدس([13]) وكانت مدينة القدس تحتوي على ثمان وعشرين كنيسة بالإضافة إلى ست وعشرين كنيسة أخرى في المناطق المجاورة في القدس([14]).

وكانت الأحياء الإيطالية ضمن الإضافات الجديدة إلى بنية المدينة العربية الإسلامية

([1]) الحيارى، القدس، ص178.

([2]) الصوري، تاريخ،ج1، ص560.

([3]) ريموندأجيل، تاريخ الفرنجة، ص235.الشارتري، تاريخ الحملة، ص76.الصوري، تاريخ،ج1، ص437.

([4]) ينظر الخريطة، رقم (6)، ص309.

([5]) الصوري، تاريخ،ج1، ص471،470.

([6]) المصدر نفسه،ج1، ص561.

([7]) أرنول، وصف، ص106.براور، استيطان اللاتين، ص61، 62.

([8]) ذكر الأصفهاني أنه بعد أن تم فتح القدس طلب مظفر الدين كوجك من صلاح الدين، إطلاق سراح زهاء ألف من أرمن الرها، كما أطلق سراح خمسمائة ذكر صاحب البيرة أنهم من بلده. الأصفهاني، الفتح، ص85.أبو شامه، الروضتين،ج3، ص220

([9]) فورزبورغ، وصف، ص75.النقر، التغيرات، ص10.الحيارى، القدس، ص181.

([10]) براور، استيطان اللاتين، ص65.

([11]) الصوري، تاريخ،ج1، ص561.

([12]) ثيودريش، وصف، ص125.

([13]) الصوري، تاريخ،ج1، ص588، 589.

([14]) نيروز، كشف، ص39.

فكان الحي الإيطالي يشتمل على شارع، ومكان للسوق أو الفندق، وكنيسة وحمـــام وفـــرن، ومنازل سكنية بالإضافة إلى حصن وقلعة، ولجأ الإيطاليون إلى بناء كنـــائس جديـــدة فـــي أحيائهم، ويمكن القول أن الأحياء الإيطالية كانت بمثابة مدينة داخل مدينة([1]).

وفي ضوء هذه المتغيرات فـــي المـــدن العربيـــة الإســـلامية التـــي حـــدثت نتيجـــة الاحتلال الصليبي لها يمكن القول بأن الاختلافات الطبيعية الرئيسية بـــين المـــدن العربيـــة الإسلامية، والمدن العربية التي احتلالها الـــصليبيون قـــد تطـــورت بـــصورة جليـــة فـــي القرنين(6–7هـ/12–13م) وكانت هذه الاختلافات نتيجة طبيعية للمؤسسات الصليبية الهامة، فقد كان لوجود القوميونات الإيطالية، ومؤسسات التنظيمات الدينية أثر كبير في التأثير على بنية المدينة؛ إذ كانت الأحياء الإيطالية بمثابة مدن داخل المدينة لها أسوارها وتحـــصيناتها، وقد وجد في مدينة عكا في منتصف القرن(7هـ/13م) ستة أحياء من هذا النمط، وهي حـــي البنادقة، وحي الجنوية، وحي البيازنة، وحي الداوية، وحي الاستبارية، وحي البروفنساليين([2]) ومن الواضح أن هذه التغيرات كانت متميزة، وواضحة في المدن الساحلية؛ فمدينة عكا كانت تحتوي على سبعة عشر هيئة قضائية منفصلة للنظر في الجرائم([3]) واشتملت المدينة كـــذلك على أربعين كنيسة([4]).

معنى ذلك أن الصليبيين لم يشيدوا مدناً جديدة في المناطق الفلـــسطينية طـــوال فتـــرة احتلالهم لفلسطين، والتي استمرت ما يقرب من قرنين؛ بل أضافوا إضافات جديدة، وذلك لأن المدن العربية التي استولى عليها الصليبيون قامت بتلبية احتياجاتهم السكانية، والاقتـــصادية والإدارية، والدينية، والعسكرية.

وكانت المدينة هي المركز الإداري والاقتصادي للمستوطنين الصليبيين، وقد تبلـــورت أهميتها؛ في كونها مكانا لتجمع أكبر عدد منهم، وأدت المدينة دوراً هاماً في الحفـــاظ علـــى مصالح هؤلاء المحتلين، وتوفير الأمن والحماية لهم، وكان سيد المدينة هو صاحب الـــسلطة العليا فيها، وكانت حامية المدينة تتمركز في القلعة التي كانت تبنى في الغالـــب قريبـــاً مـــن البوابة الرئيسة للمدينة كما كانت تضم موظفي الجمرك الذين يقومـــون بتحـــصيل الرســـوم الجمركية على الواردات إلى المدينة([5]).

إن المعلومات السكانيـــة المتعلقـــة بالمدن العربية التي احتلها الصليبيون يكتنفها الشك والغموض؛ فقد أوردت بعض الدراسات التاريخية أن عدد السكان في المدن الرئيسية، وهي

([1]) الصوري، تاريخ،ج1، ص602. الطحاوي، الاقتصاد، ص102. Brawer, Crusader Cities, P. 187.

([2]) لودولف، وصف، ص303، 304. Brawer, Crusader cities, P. 187. انظر خريطة رقم (5) ص 309 .

([3]) فابري، جولات،ج4، ص1180.

([4]) براور، الاستيطان، ص449.

([5]) براور، عالم، ص99. براور، الاستيطان، ص180.

القدس وعكا وصور كانت تصل إلى ثلاثين ألف نسمة في كل مدينة؛ في حين اختلفت الكثافة السكانية من مدينة إلى أخرى فكانت الكثافة السكانية في مدينة القدس(35نسمة) لكل دونم، وفي عكا وصور كانت الكثافة السكانية(50 نسمة) لكل دونم.

وقد لوحظ أن الكثافة السكانية في المدن الساحلية أعلى من المدن الداخلية([1])، وذلك يرجع إلى استقرار الجاليات الإيطالية في المدن الساحلية حيث تتركز مصالحهم التجارية، وثمة معلومات سكانية ترجح أن عدد سكان المملكة الصليبية من أهالي البلاد الأصليين كان يبلغ حوالي نصف مليون نسمة، وأن نسبة السكان المسلمين كانت تصل من 75-80% من عدد السكان الإجمالي([2]) ويمكننا معرفة عدد السكان الصليبيين في كل مدينة من مدن المملكة الصليبية من خلال الجدول التالي([3]):

المدينة	المساحة بالدونم	عدد السكان	الكثافة السكانية	عدد أفراد الحامية
القدس	722 دونماً	30.000 نسمة	42 نسمة للدونم	500
عكا	600 دونماً	30.000 نسمة	50 نسمة للدونم	500
قيسارية	120 دونماً	4.800 نسمة	40 نسمة للدونم	50
أرسوف	90 دونماً	3.600 نسمة	40 نسمة للدونم	50
بانياس	75 دونماً	2.625 نسمة	35 نسمة للدونم	-
عتليت	90 دونماً	3.600 نسمة	40 نسمة للدونم	-
صيدا	140 دونماً	5.600 نسمة	40 نسمة للدونم	-
صور	-	30.000 نسمة	-	100
طبرية	120 دونماً	4.500 نسمة	35 نسمة للدونم	200
يافا	-	5.000 نسمة	- نسمة للدونم	100
حيفا	-	3.500 نسمة	-	50
عسقلان	200 دونماً	10.000 نسمة	20 نسمة للدونم	150
رام الله/اللد	-	3.000 نسمة	-	50

نستنتج من الإحصائية السابقة أن عدد السكان الصليبيين في مملكة بت المقدس كان يصل إلى حوالي مائة وعشرين ألف نسمة، وذلك خلال الفترة الزاهرة للمملكة الصليبية قبل معركة حطين سنة583هـ/1187م ويؤكد براور هذا العدد، ويضيف أنه كان يستوطن في الإمارات الصليبية الشمالية عدد مماثل، وبذلك بلغ عدد السكان الصليبيين في الشرق الإسلامي حوالي ربع مليون نسمة([4]).

([1]) Benvenisti, M. op. cit., P. 26.

([2]) Ibid., P. 18.

([3]) Ibid., P. 27.

([4]) براور، عالم، ص95.

كانت مدينة القدس العاصمة السياسية والدينية للمملكة الصليبية، بها مقر الملك الصليبي ويجلس على رأس كنيستها البطريرك اللاتيني، وقد ذكر المؤرخ أرنول أن القدس كان لها أربع بوابات رئيسية تقع في الجهات الأصلية الأربعة باب داوود([1]) في جهة الغرب، والباب الذهبي([2]) في جهة الشرق، وباب صهيون([3]) في جهة الجنوب وباب القديس ستيفن (بوابة دمشق) في الشمال([4]).

وذكر الرحالة أن كل شوارع المدينة كانت تقريباً مرصوفة بحجارة كبيرة على الأرض، وكانت هذه الشوارع مسقوفة إما بالعقود الحجرية التي يتخللها فتحات لإدخال الضوء أو بسقائف القماش، وكانت هذه الأسقف تحمي السوق، والباعة من حرارة الشمس والأمطار([5]).

وأشار الرحالة فورزبورغ إلى أسواق مدينة القدس، ووصفها بأنها عبارة عن شوارع متسعة الجوانب، ومتعددة يتوفر فيها شتى صنوف وأنواع البضائع، وذكر أن شارع السوق الثلاثي يواجه كنيسة القيامة([6]) فكان سوق المدينة الرئيسي عبارة عن ثلاثة أقسام متوازية، وكانت هذه الأقسام تضم عدة أسواق متنوعة([7]).

فأما منطقة السوق الأولى في القدس فهي سوق وسط المدينة، وكانت تضم ثلاثة أقسام وهي سوق العشابين، وهو عبارة عن طريق مسقوف تباع فيه الأعشاب الطبية، والبهارات والتوابل، والفواكه، وسوق السمك الذي يقع عند نهاية سوق العشابين، وسوق الطيور والبيض والجبن وغيرها من المنتجات المحلية؛ الذي يقع خلف سوق السمك على جهة اليسار، وتنتشر على جانبي شارع سوق العشابين محلات للصاغة المحليين في الجهة اليمنى ومحلات الصاغة اللاتين في الجهة اليسرى([8]) وقد كانت سوق الصاغة عبارة عن حوانيت للتجار

([1]) **باب داود** = باب الخليل = باب المحراب = باب يافا = باب لد = باب السمكة = باب التجار = باب الحجاج: وهو يقع في السور الغربي لمدينة القدس مقابل برج داود، ويعتبر من أشهر البوابات وأكبرها حجماً بعد بوابة العمود، وقد اشتهرت هذه البوابة في عصر الحروب الصليبية باسم بوابه يافا لأنه الحجاج المسيحيين الذين كانوا يحضرون لزيارة المدينة كانوا يعبرون من هذه البوابة. بورشارد، وصف، ص144، 145. العليمي، الأنس،ج2، ص111.

([2]) **الباب الذهبي** = باب الرحمة = باب التوبة: تقع هذه البوابة في وسط السور الشرقي الخارجي لبيت المقدس ولهذه البوابة طريق مزدوج، الجنوبي يسمى بوابة الرحمة والشمالي يسمى بوابة التوبة ويطلق المسلمون على هذه البوابة اسم البوابة الذهبية، وهم يعتقدون أن هذه البوابة ستفتح يوم القيامة وأن المسلمون سوف يمرون على الصراط إلى الجنة عبر وادي قدرون شرقي هذه البوابة. بورشارد، وصف، ص147. العليمي، الأنس،ج2، ص68.

([3]) **باب صهيون**= باب حارة اليهود= باب التيه: تقع هذه البوابة في الجهة الجنوبية من المدينة. العليمي، الأنس،ج2، ص111.

([4]) أرنول، وصف، ص91.

([5]) خسرو، سفرنامه، ص56. ثيودريش، وصف، ص59. ويذكر لودولف أن "شوارع المدينة (عكا) مغطاة بأقمشة حريرية ووسائل أخرى جميلة لتمنع أشعة الشمس وتبقيها نائية. لودولف، وصف، ص304.

([6]) فورزبورغ، وصف، ص83.

([7]) العليمي، الأنس،ج2، ص103.

([8]) أرنول، وصف، ص92، 103.

تمتد علـــى جانبي الشارع الذي يبدأ مـــن باب السلسلـــة([1]) إلى دار القرآن السلاميـــة([2]).

والقسم الثاني من سوق وسط المدينة يسمى بسوق الطباخين، الذي يقع شـــرق شـــارع العشابين، وكان الحجاج يغسلون فيه رؤوســـهم لكـــي يـــذهبوا بعـــد ذلـــك إلـــى كنيـــسة القيامة([3]) ويذكر أن الملكة ميسلند أم الملك بلدوين الثالث قامـــت ببنـــاء ســـوق الطبـــاخين في عام 547هـــ/1152م وذلك بواسطة طائفة من البنائين المسلمين الذين كانوا يسكنون في منطقة البيرة([4]).

أما القسم الثالث من سوق وسط المدينة؛ فهو سوق القماش، وكان هذا السوق يقـــع فـــي الشارع المسقوف الذي يقع بعد شارع الطبيخ، ويبيع السريان فـــي هـــذا الـــسوق الأمتعـــة، ويصنعون الشموع([5]) وكان سوق القماش يقع بجوار حارة مارزبان من الغرب([6]).

أما منطقة السوق الثانية في القدس فتقع في ساحة واسعة مفتوحة إلى الشرف من بـــرج داوود بالقرب من بوابة الخليل، وكانت هذه المنطقة تشمل على سوق الحبوب والغـــلال([7]). ولعل مدينة القدس كانت تستورد القمح من عمان التـــي يـــصفها المقدســـي بأنهـــا مـــورد الحبوب([8])، وكانت تضم منطقة السوق هذه سوقاً لبيع لحم الخنزير([9]).

أما منطقة السوق الثالثة في مدينة القدس فكانت تقع بالقرب من المسجد الأقصى حيـــث جرى فيه بيع الأغنام والماشية، ومن المحتمل أن الجزارين قد استقروا في هذا المكان لكـــي يستطيعوا تصريف مخلفات عمليات الذبـــح والسلـــخ إلـــى المصـــرف الطبيعي لمدينـــــة القـــدس وهـــو وادي جوسفات([10]).

وقد ارتبطت الأعياد المسيحية والاحتفالات الدينية لدى المسحيين في مدينة القدس بوجود

([1]) **باب السلسلة**: يقع بجوار باب السكينة، وهما متحدان، ومنهما يخرج إلى الشارع الأعظم المعروف بشارع داوود، وهما عمـــدة أبواب السجد الأقصى وغالب دخول الناس إلى المسجد الأقصى منهما، وهما ينتهيان إلى معظم أســـواق المدينـــة وشـــوارعها، ويعرف باب السلسلة قديما بسم باب داود. العليمي، الأنس،ج2، ص72.

([2]) العليمي، الأنس،ج2، ص106. وتقع دار القرآن السلامية اتجاه دار الحديث أوقفها سراج الـــدين ألـــسلامي ســـنة 761هـــــ. العليمي، الأنس،ج2، ص94.

([3]) أرنول، وصف، ص95. فابري، جولات،ج3، ص899. وقد ذكره صاحب الأنس الجليل باسم سوق العطـــارين الـــذي أوقفـــه صلاح الدين على المدرسة الصلاحية. العليمي، الأنس،ج2، ص103.

([4]) Benvenisti, M. op. cit., P. 55.

([5]) أرنول، وصف، ص95،100، 101. وقد ذكره صاحب الأنس الجليل باسم سوق القماش، وذكر أن صلاح الدين أوقفـــه مـــع سوق الطباخين على مصالح المسجد الأقصى. العليمي، الأنس،ج2، ص107.

([6]) العليمي، الأنس،ج2، ص107.

([7]) أرنول، وصف، ص190.

([8]) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص149.

([9]) براور، عالم، ص167.

([10]) أرنول، وصف، ص96. فابري، جولات،ج3، ص912. براور، عالم، ص167.

الأسواق السنوية التي تخصصت في بيع السلع المستخدمة في المناسبات، ومن ذلك وجود شارع خصص لبيع سعف النخيل، وقد وجد هذا السوق في مدينة بيت المقدس في فترة باكرة من الوجود الصليبي خاصة في عهد الملك بلدوين الأول، ويقع هذا السوق في شارع السعف في الشمال الشرقي من كنيسة القيامة([1]) كما وجد بالقرب من شارع السعف؛ شوارع أخرى تخصصت في بيع الشموع للحجاج التي كانوا يستخدمونها أثناء تأدية الصلاة داخل كنيسة القيامة([2]).

كما حرص الحجاج أيضاً على شراء كثير من المزامير التي كانت تصنع في مدينة القدس، وكان لهذه المزامير شارع خاص لبيعها بالقرب من خان الزيت([3]) في الطريق المؤدي إلى كنيسة القيامة؛ حيث كان هناك الكثير من المحلات لبيع تلك المزامير([4]). وتشير المصادر إلى أحد الأسواق الموسمية الهامة، والتي كانت تعقد سنوياً في وقت عيد الفصح؛ أثناء فصل الربيع، وذلك عند مقدم الحجاج المسيحيين إلى مدينة القدس، وقد حدد موقع السوق؛ بأنه أمام الباب الرئيسي لكنيسة القيامة حيث يوجد فناء كبير تباع فيه الحلي، والمسابح والصور الخاصة بالقديسين، والتحف الشرقية التي كان يحرص الكثيرون من أبناء الغرب الأوربي على اقتنائها([5]).

بالإضافة إلى مدينة القدس الصليبية فإن ثمة مدناً صليبية أخرى شهدت نشاطاً عمرانياً وتجارياً مثل عكا؛ لاسيما وأنها أصبحت عاصمة المملكة الصليبية بعد استرداد المسلمين للقدس583هـ/1187م وأصبحت بذلك المركز السياسي والديني والاقتصادي للصليبيين، فيصف ياقوت الحموي مدينة عكا بأنها"هي من أحسن بلاد الساحل في أيامنا هذه وأعمرها"([6]) وتدلل عبارات ياقوت بأن العمران الذي تحدث عنه الإدريسي سنة 560هـ/1162م حين وصفها بأنها" كبيرة واسعة الأرجاء كثيرة الضياع"([7]) قد زاد في عهد الحموي فعندما زارها، وجدها أكثر عمراناً وحسناً، ويشهد بذلك ابن جبير الذي زارها عام 589هـ/1184م فوصفها بأنها "قاعدة مدن الإفرنج بالشام، ومحط الجواري المنشآت في البحر كالأعلام؛ مرفأ كل سفينة.... وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الأنام، سككها، وشوارعها تغص بالزحام وتضيق فيها مواطئ الأقدام"([8]).

([1]) أرنول، وصف، ص92. يوسف، أسواق، ص74.

([2]) علي، العلاقات، ص89.

([3]) **خان الزيت**: يقع في خط وادي الطواحين الذي يعرف بالشارع العظيم، الممتد قبله بشام. العليمي، الأنس،ج2، ص107.

([4]) علي، العلاقات، ص 90.

([5]) ثيودريش، وصف، ص77، 78. علي، العلاقات، ص89.

([6]) الحموي، معجم،ج4، ص143.

([7]) الإدريسي، نزهة، ص365.

([8]) ابن جبير، الرحلة ، ص235.

فقد كانت عكا من أهم موانئ المملكة الصليبية، ينزل فيها أعداد كبيــرة مــن التجــار والحجاج، وكان الميناء الفسيح الآمن يأوي عدداً من السفن المخصصة لنقل البضائع والحجاج فذكر الرحالة ثيودريش أنه أحصى ثمان سفن في ميناء عكا أثناء رحلته بالإضافة إلى سفينة الباص التي جاء على متنها([1]) وكانت تتدفق إليها البضائع من آسيا وأوربا وأفريقيا([2]).

وتعتبر أسواق مدينة عكا الصليبية من أهم أسواق المناطق الصليبية، وأشهرها من حيث الرواج التجاري، وتنوع السلع، والبضائع التي كانت تحتويها هذه الأسواق، وارتبطت التجارة في مدينة عكا بالتجار الإيطاليين، وغيرهم من التجار الأوربيين([3]) بالإضافة إلــى التجــار المسلمين الذين كانوا يرتادون الأسواق الصليبية؛ من ذلك ما ذكره ابن جبير من قيام تاجران من تجار دمشق المياسير بممارسة نشاطهما التجاري مع الصليبيين، واللــذين كــان لهمــا وكالات ومكاتب تجارية في مدينة عكا الصليبية، وكان يُعرف أحدهما بنصر الدين بن قــدام والآخر يعرف بأبي الدر ياقوت، وكانت قوافلهما التجارية تغدو وتروح بين دمشق، وعكا في حرية تامة، وقد اكتسب هذان التاجران ثقة حكام دمشق، وبيت المقدس، وفي ذلك يقول ابــن جبير "وتجارتهما كلها بهذا الساحل الإفرنجي، ولا ذكر فيه لسواهما.. وقدرهما عند أمــراء المسلمين والإفرنجيين خطير"([4]).

وكانت مدينة عكا تضم ستة أسواق مستقلة في إداراتها عن السلطة الملكيــة، وتــشمل أسواق البنادقة، وأسواق الجنوية، وأسواق البيازنة، وأسواق البروفنساليين الذي كان يــشرف عليها المارسيليون، وأسواق هيئات الداوية، والإستبارية([5]).

ومما لاشك أن العوامل الاقتصادية والاجتماعية لم تكن هي العوامــل الوحيــدة التــي ساهمت في تشكيل بنية مدينة عكا الصليبية؛ بيد أن المظــاهر الاقتــصادية، والامتيــازات السياسية كان لهما أهميتهما الكبرى في تشكيل المدينة([6]) ولقد ازدهرت الأسواق الستة السابقة على حساب الأسواق الصليبية الملكية في عكا، ويؤكد براور هذه الحقيقة فــي ضــوء مــا أوضحته الوثائق التجاريــة في القــرن الثالث عشــر الميلادي([7]) وإن كان هذا لا يقلل من شأن الأسواق الملكيــة فــي المدينــة([8]).

([1]) ثيودريش، وصف، ص123.

([2]) فيتليوس، وصف، ص383. وعن العمليات التجارية والاستثمارات الإيطالية انظر براور، الاستيطان، ص476-481. كاهن، الشرق، ص169- 181.

([3]) الطحاوي، الاقتصاد، ص 92- 94. صبره، العلاقات، ص224.

([4]) ابن جبير، الرحلة، ص 238.

([5]) براور، الاستيطان، ص492.

([6]) الصوري، تاريخ،ج1، ص602- 604.

([7]) براور، الاستيطان، ص492.

([8])ابن جبير، الرحلة، ص235.

كما شهدت مدينة الرملة العديد من الأسواق فقد ذكر العليمي أن الرملة بها "أربعة أسواق متصلة من أبوابها إلى وسط المدينة"([1]) وقد شهدت أسواقها رواجاً تجاريا؛، فعنـــدما زارهـــا فيلكس فابري وصفها بأنها "مدينة مكتظة السكان.. فيها سبل العيش ميسرة لكثرة التجارة"([2]) وثمة مدن صليبية أخرى اشتهرت بأسواقها خاصة المدن الساحلية([3]).

وفي جميع المدن الكبرى كان يوجد شارع أو منطقة مخصصة للصرافين بالقرب مـــن الأسواق؛ حيث كانت الصيرفة مرتبطة بالمدن([4]) ومارس الصيارفة الشوام، واللاتـــين هـــذه المهنة؛ ففي عكا تواجد الصيارفة على طول الشارع الرئيسي في المدينة([5]) أما فـــي مدينـــة القدس فتركزت أعمال الصيرفة بالقرب من سوق وسط المدينة؛ حيث أشار الصوري إلى أن موائد الصرافين تقع عند الطرف الجنوبي الشرقي لحي البطريرك([6]) بالإضافة إلى مكـــانين آخرين بالقرب من المستشفى هما خان الصرف، وخان الزيت([7]).

وحرصت المملكة على ربط المدن، والقـــرى فـــي المملكـــة الـــصليبية بـــشبكة مـــن الطرق([8]) لخدمة الأغراض الاقتصادية، والعسكرية والدينية من هذه الطرق:

- طريق يافا القدس الذي يمر عبر الرملة، والذي ذكره سايولف وذكر أنـــه طريـــق جبلـــي يستغرق قطعه يومين([9]).
- طريق القدس طبرية وهو الطريق الذي يمر عبر مدن البيرة ونابلس وبيـــسان وطبريـــة ومنها إلى دمشق، وهو الطريق الذي سلكه دانيال برفقة الملك بلدوين الأول أثناء حملتـــه على دمشق500هــ/1106م([10]) وهو الطريق الذي أشار إليه ابن جبير([11]).
- طريق عكا القدس "طريق البحر" وهـــو الطريق الذي يمر عبر مدن قيساريـــة واللد ([12]).
- طريق عكا القدس" الطريق العلوي" وهو الطريق الذي يمر عبر مدن الناصـــرة وجنـــين وسبسطية ونابلس([13]) وثمة طريق يربط بين عكا والناصرة يمر بصفورية([14]).

([1]) العليمي، الأنس،ج2، ص128.
([2]) فابري، جولات،ج1، ص377.
([3]) يوسف، الأسواق، ص86−90. الدويكات، طبرية، ص284، 285. التغيرات، بيسان، ص229.
([4]) براور، عالم، ص168.
([5]) Smith, The Feudal, P. 80.
([6]) الصوري، تاريخ،ج1، ص171.
([7]) الطحاوي، الاقتصاد، ص170.
([8]) ينظر خريطة رقم (7)، ص310.
([9]) سايولف، وصف، ص23، ويبلغ امتدادا هذا الطريق(67كم). عوض، الجغرافيون، ص59.
([10]) المصدر نفسه، ص90−93
([11]) ابن جبير، الرحلة، ص240
([12]) ثيودريش، وصف، ص142.
([13]) المصدر نفسه، ص142.
([14]) دانيال، وصف، ص98،101.

– طريق القدس الكـــرك ويمر عبر مناطق بيت لحـــم– الخليـــل– صغر فشرق الأردن([1]). ونظراً لأهمية الطرق فقد حرص الحكام الصليبيون على صيانتها، وحمايتهـــا([2]) وشـــهدت فترات السلم بين المسلمين، والصليبيين عبور العديد من القوافل التجارية الآتية مـــن مـــصر ودمشق إلى المناطق الصليبية أو المناطق الإسلامية، وكانت هذه القوافل تـــستخدم الطـــرق التجارية في المناطق الصليبية مقابل دفع رسوم العبور([3]).

وبعد عمليات التحرير للأراضي المحتلة سواء في العهد الأيوبي أو المملـــوكي عمـــل السلاطين على إعادة أسلمة المدن المحتلة، وذلك بإجراء تغييرات أساسية في بنيـــة المدينـــة الإسلامية التي تم تحريرها، وشملت هذه التغييرات خطين الأول؛ تغيير وظيفي في بعـــض المباني القائمة لكي تخدم أغراضاً جديدة، والثاني إنشاء مباني جديدة لتلبية حاجات الـــسكان الدينية والاجتماعية، ويكشف لنا ابن الأثير عن الأثر الإيجابي لهذه السياسة الإسلامية بقولـــه "فعادت الأبنية إلى حالها القديم.. فعاد الإسلام هناك غضاً طرياً"([4]).

ويمكن أن نلمس الإجراءات الإسلامية في إعادة أسلمة المدن المحررة بصورة واضحة في مدينة القدس التي تم فتحها في يوم الجمعة27 رجب 583هـــ/2 أكتـــوبر 1187م حيـــث اتخذ صلاح الدين الإجراءات لتطهير المسجد الأقـــصى، وقبـــة الـــصخرة، وذلـــك بإزالـــة الإنشاءات والإضافات العمرانية والزخارف التي أحدثها الصليبيون([5]) كما أقام صلاح الدين المؤسسات الدينية العديدة، وذلك بتغيير وظائف بعض المباني الصليبية، فكنيسة القديسة حنة عند باب الأسباط([6]) حُولت إلى مدرسه للشافعية، وسميت بالمدرسة الصلاحية([7]) وحولت دار البطريرك المتاخمة لكنيسة القيامة إلى خانقاه للصوفية([8]) وجرى تحويل الكنيسة المجـــاورة لدار الاسبتار إلى بيمارستان، وخصصت له مبالغ مالية للإنفاق عليه، وأحضرت له العقاقير الطبية النادرة([9]) وحولت دار الاسبتار عام613هـــ/1206م إلـــى زاويـــة ســـميت بزاويـــة

([1]) Benvenisti, M., op. cit., PP. 311, 312. يسير الطريق من القدس إلى الخليل ماراً بقرى حلحول وبيت صور – تقـــوع ثم يستمر إلى سفوح التل المقام عليه قلعة الكرمل إلى وادي الحسى فبلدة صغر وهذا هو الريق الرئيـــسي الـــذي يـــربط بيـــت المقدس بشرق الأردن.

([2]) فوقاس، الرحلة، ص 833.

([3]) ابن جبير، الرحلة، ص 244، 234.

([4]) ابن الأثير، الكامل،ج10، ص158.

([5]) الأصفهاني، الفتح، ص89–94. ابن الأثير، الكامل،ج10، ص158. أبو شامه، الروضتين،ج3، ص246، 247.

([6]) **باب الأسباط** = باب الوادي= باب الضأن، ويقع هذا الباب في السور الشرقي للمدينة، وقد سميت باســـم بوابـــة الـــضأن لان الأضاحي التي تتقدم في المعبد تساق عبر هذه البوابة أما تسميته ببوابة الوادي لان الطريق الذي يمر عبرها يؤدى إلـــى وادي جوسفات وكانت تسمى كذلك ببوابة عين التنين. بورشارد، وصف، ص146.العليمي، الأنس،ج2، ص111.

([7]) الأصفهاني، الفتح، ص358. أبو شامه، الروضتين،ج3، ص358. العليمي، الأنس، ج2، ص88.

([8]) الأصفهاني، الفتح، ص358. أبو شامه، الروضتين،ج3، ص358. العليمي، الأنس، ج2، ص99.

([9]) الأصفهاني، الفتح، ص358. أبو شامه، الروضتين،ج4، ص194.

الدركاة([1]) وتم تقوية دفاعات وأسوار القدس لتصمد أمام الحصار والهجوم في المستقبل([2]) وأنشئت حارتان جديدتان هما حارة اليهود([3]) وحارة المغاربة([4]) ولسد العجز في إيرادات القدس حول صلاح الدين ثلث إيرادات نابلس إليها([5]).

كما شهدت مدينة الخليل إجراءات مماثلة حيث حرص المسلمون على القضاء للمظاهر الصليبية التي ضيفت على الحرم الإبراهيمي بعد استعادته، وتم استبدال المظاهر المسيحية بإجراءات تعيد المبنى إلى جامع، ولابد أن يكون هذا قد تم خلال فترة قصيرة بعد فتح صلاح الدين للخليل، غير أن أهم التغييرات المبكرة؛ تتمثل في نقل منبر المسجد الحسيني من القاهرة لينصب في الحرم الإبراهيمي في عام587هـ/1191م([6]) وأمدتنا المصادر الإسلامية بقائمة طويلة من المباني، والإنشاءات الدينية، والتعليمية والصحية والإسكانية التي أقامها السلاطين الأيوبيين والمماليك والتي كانت تهدف إلى إعادة الصبغة الإسلامية للمدينة العربية المحررة([7]).

وكان لنظام الأوقاف([8]) الفضل الكبير فيما أصابه المجتمع الفلسطيني في تلك الفترة من رقي اجتماعي وثقافي، وفيما يوفر للمواطن العادي من رعاية اجتماعية وفكرية ودينية، ولا ريب في أن دراسة الحياة الاجتماعية في فلسطين الإسلامية بصفة عامة، وفي العصر الأيوبي والمملوكي بصفة خاصة؛ في ضوء حجج الوقف قد أوضحت جوانب مشرقة كثيرة من تاريخ التربية والتعليم في فلسطين الإسلامية، وأجلى ما حققته الشريعة الإسلامية والمنشآت الدينية والاجتماعية والخيرية من تكافل اجتماعي وازدهار ثقافي ورعاية لجميع فئات أهل فلسطين.

هكذا نرى أن المدينة العربية الإسلامية التي احتلها الصليبيون قد احتفظت بشكلها وتخطيطها طوال فترة الوجود الصليبي، وإذا ما كانوا قد أحدثوا بعض الإضافات الجديدة فقد جاءت هذه الإضافات تلبية للظروف الجديدة، كما قام الصليبيون بإحداث تغيير جذري في بنية المدينة العربية الإدارية والسكانية والدينية بغية تنصير الأرض الفلسطينية، ولقد شهدت مناطق المملكة العديد من الأسواق نتيجة لتعدد القوى السياسية في المملكة الصليبية، ووجدت

([1]) العليمي، الأنس،ج2، ص 98، 99.

([2]) الأصفهاني، الفتح ، ص358. أبو شامه، الروضتين،ج4، ص194.

([3]) **حارة اليهود:** تقع إلى الغرب من حارة المغاربة، ويفصل بينهما حارة الشرف.العليمي، الأنس،ج2، ص105.

([4]) الحياري، القدس، ص193.

([5]) الأصفهاني، الفتح، ص 358. أبو شامه، الروضتين،ج4، ص204،

([6]) السيد ،الخليل، ص372، 373.

([7]) العليمي، الأنس،ج2، ص76-111،141-144.

([8]) الأصفهاني، الفتح، ص 344،115،358.المقريزي، السلوك،ج1، ص556،526،ج2، ص14 العليمي، الأنس،ج2، ص76-111 ، 141، 144.

أسواقاً للمدن الإيطالية بالإضافة إلى الأسواق الملكية، وتنافست هذه الأسواق فيما بينها مما خلف نشاطاً تجارياً في المدن الصليبية، وحين تم تحرير أجزاء من الأراضي الإسلامية عمل السلاطين المسلمين من أجل إعادة الصبغة العربية الإسلامية إلى المدينة المحتلة، وذلك بتأهيل "رِباع أماكنها، وإسكان مواطنيها، وتوطين مساكنها وتطهيرها من أدناس أدنى الناس وتعميرها بالعدة والعدد"([1]) وقد أدت هذه الإجراءات إلى زيادة أعداد السكان في المدن الفلسطينية المحررة فبلغ- على سبيل المثال- سكان مدينة القدس في القرن7هـ/13م حوالي أربعين ألف نسمة([2]).

- القـــــــرى.

تمثل فلسطين([3])الجزء الجنوبي الغربي لبلاد الشام، وتنقسم تضاريسها إلى أربعة صفوف من الغرب إلى الشرق؛ أولهما السهل الساحلي، وثانيهما سلسلة الجبال الغربية، وثالثهما الأغوار، ورابعها سيف البداية "سلسلة الجبال الشرقية"([4]) ويلاحظ أن كل قسم من أقسام فلسطين الطبيعية يتميز بمزروعات تلائم مناخه؛ حيث اشتهرت فلسطين بخصوبة تربتها([5]).

ويتحدث المقدسي ثم ناصر خسرو عن ازدهار ونمو الريف، حين يصفان "الضياع الجليلية" و"النفيسة" حول الرملة والداروم، وكروم التفاح والشجر في الجليل، وقرى الفراديس الأربع قرب القدس، وعمارات سلوان([6]) وعن الخيرات المتدفقة، والنعم في قيسارية وأرسوف والجليل([7]).

كما أن كثيراً من قرى فلسطين؛ حسبما يذكر المقدسي قد نما حتى أصبح يتفوق في عمرانه على أكثر مدن الجزيرة الفراتية، ولكن تلك القرى النامية ظلت تقع في مرحلة وسط بين المدينة والقرية، وقد عدد منها المقدسي لد، وإكفار سابا([8]) وعاقر([9]) وغيرها"([10]) وفي

([1]) الأصفهاني، الفتح، ص340.

([2]) غوانمة، نيابة القدس، ص115.

([3]) تبلغ مساحة فلسطين حوالي "27.009كم²" .الدباغ، بلادنا، ق1،ج1، ص21.

([4]) المقدسي، أحسن ، ص160.

([5]) بورشارد، وصف، ص167.

([6]) **قرية سلوان:** وهي قرية مجاورة لسور القدس من الجهة الجنوبية، ولا تبعد عنة سوى أمتار وربما أتى لفظ سلوان من الكلمة الآرامية سيلون التي تعن الشوك والعليق، وتقع على مقربة منها عيون شهيرة تسمى عيون سلوان، منها عين أم الدرج، وعين اللوزة، وبركة سلوان.المقدسي، أحسن، ص147.خسرو، سفرنامه، ص57. الحموي، معجم،ج3، ص241.

([7]) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص148،147،142،141. خسرو، سفرنامه، ص70،57،55،54.

([8]) **قرية إكفار سابا:** تقع في الشمال الشرقي من يافا.المقدسي، أحسن، ص151. الدباغ، بلادنا، ق2،ج4، ص625.

([9]) **قرية عاقر:** تقع جنوب غرب الرملة، وتبعد عنها حوالي(9كم.)أقيمت قرية عاقر على بقعة مدينة عقرون الرومانية التي كانت تقوم على أطلال خربة المقنع الواقعة على مسافة كيلو ونصف من عاقر. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص151. الدباغ، بلادنا، ق2،ج4، ص598.

([10]) المقدسي، أحسن، ص151،150.

منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي كانت حيفا قد عادت للنمـــو، فحـــين زارها ناصر خسرو سنة438هــ/1046م كانت قرية بها نخيل وأشجار "وعمال يـــصنعون السفن المسماة بالجواري"([1]).

وتحدث بورشارد عن خصوبة تربة فلسطين، وعن أنواع الحبوب والخضروات والفواكه والأعشاب الطبية التي كانت تزرع في الأراضي المقدسة([2]).

وكان أول ما عني به الصليبيون بعد الاستيلاء على بيت المقدس، هو تنظـيم الأمـــور الخاصة بحكم البلاد التي بأيديهم، فاجتمع قادتهم بعد أسبوع واحد في المدينة المقدسة، وكان من أهم القرارات التي توصلوا إليها؛ السعي إلى ضم المزيد من ريف الأراضـــي المقدســـة والعمل على حمايتها([3]) تدعيماً للموقف العسكري والاقتصادي.

ولقد أحدث الاحتلال الصليبي لفلسطين خللاً في الممتلكات الزراعية لسكان فلسطين حيث انتزع الفرنجة الصليبون الأراضي من أصحابها الشرعيين، نتيجة لهروب ملاك الأراضـــي المسلمين، واغتصاب الأمراء الصليبيين للأراضي الزراعية من الفلاحين المسلمين([4]).

وبدأ الصليبيون أولى خطواتهم من أجل السيطرة على الريـــف عـــن طريـــق تـــشجيع الفرسان ورجال الدين على إنشاء القرى الزراعية؛ بقصد زيـــادة إيـــرادات إقطاعـــاتهم([5]) فكانت أولى المنح الخاصة بالقرى تلك التي منحها جودفري إلى كنيسة القيامـــة فـــي بيـــت المقدس، وهي عبارة عن إحدى وعشرين قرية تقع في حدود مدينة بيت المقـــدس هجرهـــا سكانها المسلمون([6]).

وبالإضافة إلى القرى العربية التي وجدها الصليبيون مهجورة أو مفرغة مـــن معظـــم سكانها؛ أقاموا العديد من القرى الريفية، والزراعية اللازمة للعملية الاستيطانية، وغالباً مـــا كان يتم تشييد معظم هذه القرى على أنقاض القرى المهجورة والقديمة([7]).

ونتيجة لهذه الجهود الاستيطانية فقد مثلت القرية Casalia وحدة سكانية فـــي الريـــف، وكانت كل قرية عبارة عن تكتلات متميزة من المنازل الريفية تختلف عن بعضها الـــبعض من حيث الحجم والمسافة([8]) ويمكن القول أن القرية Casalia كانت هي الشكل الأول إبـــان الفترة المبكرة من الغزو الصليبي، ونتيجة لنشاط عملية الاستيطان الصليبي فـــي الريف فإن

([1]) خسرو، سفرنامه، ص53.

([2]) بورشارد، وصف، ص167– 171.

([3]) ريموندأجيل، تاريخ الفرنجة، ص257.

([4]) الطحاوي، الاقتصاد، ص188.

([5]) Benvenisti, M. op. cit., P. 129. براور، الاستيطان، ص107.

([6]) Genevieve, B.B., Op. cit., Act No. 26, PP. 86-88.

([7]) Benvenisti, M., Op., cit., P. 129

([8]) براور، الاستيطان، ص437،436. Smith, Op. cit., P.42.

وجود عدة قرى متجاورة جرى تسميتها باسـم Villa([1]).

والحقيقة أن التمييز بين البلدة الصغيرة والقرية أمر صعب في كثير من الأحيان، وذلك لأن بعض القرى نمت حتى أصبحت مدناً صغيرة، فمثلاً استخدمت كلمة villa بالنسبة لقرية القبيبة، واستخدمت كذلك كلمة villa بالنسبة لمدينة غزة([2]) ويمكن تفسير ذلك بأن قرية القبيبة لابد وأنها كانت تحتوي على عدة قرى صغيرة ومجاورة.

وخلال القرنين6-7هـ/12-13م وصل عدد القرى في المملكة الصليبية إلى حوالي ألف ومائتا قرية([3]) فكانت منطقة القدس يبلغ عدد قراها مائة وأربع قرى، أما قرى نابلس فكان عدد قراها تسعون قرية، وشغلت قرى بيت المقدس مساحة ألفين كم^2 أما قرى نابلس فشغلت مساحة ألف وخمسمائة كم2 فمعدل مساحة القرية في القدس كان(24.000) دونم أما في نابلس فكان(16.000) دونم([4]).

وكان المسلمون يشكلون أغلبية سكان قرى مملكة بيت المقدس، فعندما مر ابن جبير أثناء رحلته بمنطقة الجليل في طريقه إلى مدينة عكا لاحظ أن سكان القرى الجليلية أكثرهم مسلمون، وأشار إلى ذلك بقوله "وطريقنا كله ضياع متصلة، وعمائر منتظمة؛ سكانها كلها مسلمون"([5]) كما لاحظ العماد الأصفهاني عند فتح صلاح الدين لمدن المملكة الصليبية في عام583هـ/1187م أن غالبية سكان قرى المدن المحررة هم من المسلمين، وذلك في رسالة أرسلها إلى الملك العزيز سيف الإسلام صاحب اليمن فبعد أن عدد المناطق التي تم تحريرها قال: "ولكل واحدة من البلاد التي ذكرناها أعمال، وقرى، ومزارع، وأماكن، ومواضع قد جلس المسلمون خلالها، واسترعوا ثمارها وغلالها"([6]).

بالإضافة إلى المسلمين كان النصارى الشرقيون من يعاقبه وسريان وغيرهم يعيشون في بعض القرى، ويعملون في فلاحتها([7]) كما استوطن في القرى العديد من الفلاحين الصليبيين الذين جرت معاملتهم اجتماعياً وقانونياً على أساس كونهم برجوازيين([8]).

وبالنسبة لعدد سكان القرى الصليبية، فمن الصعب تحديد عدد السكان بشكل كامل، ويرجع ذلك إلى اختلاف عدد السكان من قرية إلى أخرى، ومن إقليم إلى آخر؛ فعلى سبيل

([1]) Benvenisti, M., Op., cit., P. 218.

([2]) Ibid., P. 218.

([3]) براور، الاستيطان، ص425. Benvenisti, M., Op., cit., P. 214.

([4]) Benvenisti, M., Lok., cit.

([5]) ابن جبير، الرحلة، ص234.

([6]) الأصفهاني، الفتح، ص127.

([7]) ينظر الفصل الثالث من الدراسة. ص 150- 158.

([8]) براور، الاستيطان، ص107. وللمزيد ينظر الفصل الثاني، ص .

المثال كان متوسط سكان القرية حول مدينة صفد في شمال الجليل أربعون ساكناً([1]) في حين كان متوسط عدد سكان القرى حول مدينة صور حوالي عشرون أسرة([2]) وقد كتب أحد الموظفين البنادقة إلى وطنه الأم البندقية يقول:"من المعلوم أن منطقة عسقلان كانت تضم 72 قرية وأن أصغر هذه القرى كانت تضم حوالي 200 نسمة بالإضافة إلى أن القرية الأصغر كانت تضم عشرين أسرة "([3]) ويذكر براور أن القرى الزراعية الفرنجية كان يصل عدد سكانها أحياناً إلى ما يقرب من مائة وخمسين أسرة أي ما يعادل حوالي خمسمائة نسمة([4]).

وكان جميع سكان القرى يعملون في الحقول الزراعية التابعة للسادة الإقطاعيين ملاك القرى والأراضي([5]) وتم إجبار الفلاحين الذين اعتبروا كمستأجرين للأرض؛ أن يدفعوا للسيد الإقطاعي أجرة الأرض المستغلة بما يعادل ثلث أو ربع الغلة بالإضافة إلى الضرائب الأخرى([6]) وتبرز مجموعة القوانين والأحكام والقواعد الناظمة لأوضاع مملكة بيت المقدس الصليبية والمعروفة باسم "أسيز" Assiser de terus حالة الظلم والقهر التي كان يعاني منها الفلاح في المجتمع الفرنجي؛ فهي تخضع "العبيد والفلاحين والأسرى لقانون البيع والشراء"([7]).

قام الصليبيون بتقسيم الأرض إلى وحدات عرفت باسم الكاريوكا Carruca التي انقسمت إلى أكثر من نوع أولهما الكاريوكا الرسمية، وهي القياس المعتمد من قبل السلطات الصليبية، وكانت تستعمل على أنها وحدة إدارية تخدم الأغراض الضرائبية التي تفرضها الحكومة الفرنجية، وهي تساوي خمسة وثلاثين هكتاراً أي ما يعادل ثلاثمائة وخمسين دونماً([8]) وثانيهما الكاريوكا غير الرسمية، وهي التي يمكن لزوج من الثيران حراثتها في يوم واحد، وهي تساوي الفدان العربي من حيث المساحة، والذي يساوي أربع دونمات، إلا أن الفدان كوحدة محلية ليس له نفس المساحة في كل مكان، ففي المناطق الجبلية كالقدس ونابلس قدر بـ "734م^2" ولكنه في السهول بلغ نحو ضعف المساحة فقدر بحوالي "1468م^2"([9]).

ولم تكن جميع أراضي الريف الفلسطيني صالحة للزراعة، وقد أطلق الصليبيون على

([1]) رنسيمان، تاريخ،ج2، ص476.

([2]) براور، الاستيطان، ص448.

([3]) المرجع نفسه، ص449.

([4]) المرجع نفسه، ص107.

([5]) ثيودريش، وصف، ص125.

([6]) ريشارد، تكوين، ص164. براور، عالم، ص114.

([7]) عاشور، تاريخ، العلاقات، ص333.

([8]) براور، الاستيطان، ص443،441. البيشاوي، الممتلكات، ص469.

([9]) براور، الاستيطان، ص442. البيشاوي، الممتلكات، ص468، 469.

أراضي البور أو المشاع اسم جاستينا Gastina([1]) واستعمل هذا المصطلح في أوربا للدلالة على الأراضي غير المحروثة، والغابات والمراعي([2]) وأشار بعض المؤرخين إلى أن لفظة جاستينا اللاتينية الأصل تماثل اللفظة العربية خربة التي احتلت مكانة بارزة في بلاد الشام وفلسطين، وخاصة فيما يتعلق بالمنطقة التي وجدت بها([3]).

وشمل الريف الفلسطيني نوعين من الجاستينا تلك المستقلة عن القرى، وربما كانت أراضيها قد تركت لفترة طويلة من الزمن دون أن يعمل السكان على زراعتها، وفي العصر الفرنجي أصبحت الجاستينات المستقلة عن القرى أراضي زراعية نظمت في كاريوكات رسمية من أجل الأغراض الأميرية، بحيث أصبحت الجاستينا مثل الأراضي المزروعة في القرية، وأحياناً تكون على شكل وحدات إدارية مستقلة مثلها في ذلك مثل القرى([4]) أما تلك التي تحتفظ تبعيتها للقرى، فقد جرى زراعتها والإفادة منها، وقد شغلت الجاستينا التابعة للقرية حياة الفلاحين، وقدمت لهم خدمات هامة إذ استغلت كأراضي للمراعي([5]).

وكان أحد أسباب تكوين الأراضي البور هو هجرة سكانها إلى مناطق أخرى أكثر اتساعاً، وليس من شك في أن السبب الحربي لعب دوراً كبيراً في تكوين الأراضي البور، وبشكل خاص في المناطق الحدودية، وذلك بسبب العمليات الحربية الإسلامية([6]).

كان الفلاحون يتبعون دورة زراعية تعتمد على نظام الحقلين، فكان الفلاح يقوم بتقسيم أرضه الزراعية إلى قسمين يزرع القسم الأول، ويتعهد الثاني بالحرث الجيد لكي تصل الشمس إلى باطنه ثم يزرعه بعد ذلك، ويريح القسم الأول الذي تمت زراعته أولاً([7]) وكانت هذه الطريقة تعرف باسم التبوير أي زراعتها حولاً وتركها حولاً آخر([8]) كما خضعت زراعة الأرض لبعض القوانين فمثلاً الأرض التي تم حراثتها من أجل زراعة الذرة لمدة سنة يجب زراعتها بمحاصيل أخرى في السنة القادمة([9]) ويقدم براور الجدول التالي كإشارة أولية للنظام الزراعي الذي اتبعه الصليبيون([10]).

([1]) براور، الاستيطان، ص445. Smith, Op. cit., P. 44.

([2]) Smith, Lok. Cit., P 43. . الطحاوي، الاقتصاد، ص199.

([3]) Benvenisti, M., Op. cit., P. 216. براور، الاستيطان، ص445.

([4]) براور، الاستيطان، ص445. البيشاوي، الممتلكات، ص472، 473.

([5]) براور، الاستيطان، ص445. البيشاوي، الممتلكات، ص472، 473.

([6]) البيشاوي، الممتلكات، ص473.

([7]) النويري، نهاية الأرب،ج8، ص256.

([8]) أبو الكاس، النشاط الاقتصادي، ص56.

([9]) النويري، نهاية الأرب،ج8، ص256.

([10]) براور، الاستيطان، ص444.

السنة	الفصـــــل	الحقـــــل الأول	الحقـــــل الثانـــــي
السنة الأولى	الشتاء+ الربيع	محاصيل شتوية	نباتات بقوليه / محروث بدون زراعة
	الصيف	محروث بدون زراعة	محروث بدون زراعة/ محاصيل صيفية
السنة الثانية	الشتاء+ الربيع	نباتات بقوليه محروث بدون زراعة	محاصيل شتوية
	الصيف	محروث بدون زراعة محاصيل صيفية	محروث بدون زراعة

ولضمان سير العملية الزراعية كان الريس ومساعدوه([1]) يناقشون الأمـــور الزراعيـــة مـــع الفلاحين، حيث يتم تحديد الأراضي التي سيتم زراعتها، والأخرى التي ستترك محروثة بدون زراعة([2]) وكان السيد الإقطاعي هو الذي يمد الفلاحين بالبذور اللازمة للزراعة، وفي مقابل ذلك كان يقدم له الفلاحون دجاجة واحدة عن كل كاريوكا([3]).

أما عن دخل القرية فإن المعلومات المتوفرة لا تمكننا من تقدير دقيق لدخل القرية مـــن الزراعة، ولكن من خلال العديد من الحالات يبدو أن متوسط دخـــل القريـــة مـــن الإنتـــاج الزراعي كان يتراوح ما بين ثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف بيزنت([4]) ومن الطبيعي أن تكون هناك بعض القرى التي حققت دخلاً أكبر من هذا، إما بسبب قربها من المراكز الحـــضارية، أو بسبب كبر مساحة القرية وتوفر المياه فيها، فعلى سبيل المثال فإن إنتاج قرية الـــدامور([5]) قدر بمبلغ اثني عشر ألف بيزنت، كما أن إنتـــاج قريـــة كفـــر قانـــا([6]) فـــي الجليـــل بلـــغ أربع وعشرين ألف بيزنت، وفي بعض قرى بيت المقدس تم تقدير دخل القرية بحوالي خمسة آلاف بيزنت([7]).

وقد وجدت قرى ومدن خضعت بحكم أوضاعها لإدارة الطرفين (الإسلامي والصليبي) معاً فتمت إدارتها ومناصفة دخلها بينهما بالتساوي فقد ذكر ابن العديم في519هـــــ/1125م قوله"ووقعت الهدنة بين البرسقي والفرنج على أن يناصفهم في جبل السماق([8]) وغيره ممـــا

([1]) تم التحدث عن الجهاز الإداري للقرية المكون من الريس والكاتب والترجمان في الفصل الأول، ص 79- 82.

([2]) Smith, Op. cit., P. 14.

([3]) الطحاوي، الاقتصادي، ص201.

([4]) براور، الإستيطان، ص541.

([5]) **الدامور= الدامون:** وهي تقع إلى الجنوب الشرقي عكا، وهي تقوم على أنقاض قرية Damura الكنعانية بمعنى العجيب، وقـــد تكون الدامون مشتقة من كلمة temarta بمعنى شجرة النخيل. الدباغ، بلادنا، ق2،ج7، ص373.

([6]) **كفر قانا = كفر كنا:** وهي تقع في الشمال الشرقي من الناصرة، على بعد 6كم. ويعتقد أن قرية عين قاسين الكنعانية هي كفـــر كنا الحالية، ويعتقد بعض الباحثين أن قرية كفر كنا الحالية تقوم في بقعة قانا الجليل وقدر ورد ذكرها العهد الجديد.الهـــراوي، الإشارات، ص28.سايولف، وصف، ص45.بورشارد، وصف، ص86. الدباغ، بلادنا، ق2،ج7، ص94، 96.

([7]) براور، الاستيطان، ص541ظو علي، العلاقات، ص174.

([8]) **جبل السماق:** وهو جبل عظيـــم مـــن أعمـــال حلب الغربيـــة يشتمل على مـــدن كثيـــرة وقـــلاع عامتهـــا من الإسماعيليـــة.=

كان بأيدي الفرنج([1]) أو بنظام الاقتسام بالمثالثة كما ذكر ذلك ابن القلانسي في حوادث 502هـ/1108م بقوله "وفيها ترددت رسل الملك بلدوين إلى ظهير الدين في التماس المهادنة، والموادعة فاستقر الأمر بينهما على أن يكون السواد، وجبل عوف([2]) أثلاثاً ثلث للأتراك وللإفرنج الثلثان؛ فانعقد الأمر على هذه القضية"([3]) ويقوم على ذلك هيئة إدارية تمثل الطرفين، وتعمل حسب قوانين، وشروط متفق عليها مسبقاً، وقد عرفت هذه البلاد باسم "بلاد المناصفات".

وبلاد المنصفات هي بلاد حدودية، وقد كانت أمورها مضطربة بسبب تعرضها لمشاكل الصراع الإسلامي الفرنجي([4]) وقد نصت المواد الواردة في المعاهدة بإعطاء بلاد المناصفات طابع المنطقة المحايدة([5]) فقد نصت بنود تلك الاتفاقيات على عدم السماح لأيٍ من طرفي الصراع وإتباعهما باستعمال تلك البلاد للعبور منها لمهاجمة بلاد الطرف الآخر، ومن هذا النوع من المواد، تلك المادة التي جاءت في معاهدة بيبرس مع بيت الاسبتار في 4رمضان 565هـ/مايو 1267م وجاء فيها "وعلى أن لا يدخل أحدٌ من القاطنين في بلد المناصفات من الفلاحين والعرب والتركمان وغيرهم إلى بلاد الفرنج والنصارى كافَّةً لإغارة ولا أذيَّةٍ بعلم الملك الظاهر، وبلاد معاهديه ولا يدخل أحد بلاد المسلمين لإغارة ولا أذيَّةٍ بعلم بيت الاسبتار"([6]).

وتخضع بلاد المناصفات لإدارة إسلامية إفرنجية مشتركة، فيعين لحكم هذه البلاد نائبان أحداهما يمثل السلطان، والآخر يمثل الأمير الفرنجي الذي عقد المعاهدة الخاصة بذلك النظام وكان ينص في المعاهدة على أن "لا ينفردُ أحدٌ منهم بشيءٍ إلا باتفاقٍ.. من الجهتين"([7]) وكان يعمل تحت إمرة كل نائب منهما جهاز إداري يعمل تحت إمرته، ويشمل الجهاز الإداري للنائب على موظفين من أصحاب الاختصاصات المختلفة، فمنهم من كانت مهمته اقتصادية تتعلق بجمع الرسوم والضرائب، ومنهم من كانت مهامه تتعلق بشؤون الأمن والمحاكمات وتنفيذها وغير ذلك([8]).

= الحمـوي، معجم،ج2، ص102.

([1]) ابن العديم، زبدة، ص296. أبو شامه، الروضتين،ج4، ص190، لمزيد انظر ابن القلانسي، ذيل، ص174.

([2]) **جبل عوف:** وهو جبل بالقرب من عجلون كان ينزله قوم من بني عوف وفي عهد صلاح الدين تم بناء قلعة عليه. القلقشندي، صبح،ج4، ص89.

([3]) ابن القلانسي، ذيل، ص164، 171،

([4]) الصوري، تاريخ،ج2، ص844.

([5]) توفيق، الدبلوماسية الإسلامية، ص221.

([6]) القلقشندي،ج14، ص42.

([7]) المصدر نفسه،ح14، ص51

([8]) المصدر نفسه،ج14، ص50،51.

ومن الجدير ذكره في هذا المجال أن مواد المعاهدات المتعلقة ببلاد المناصفات كانت تنص على سلامة وأمن ممثلي كلٍ من الطرفين كما تهتم بتنسيق التعامل فيما بينهما([1]).

ومن الإداريين الذين يعملون تحت إمرة النائب في بلاد المناصفات كان "المشد" وغلامه، و"الشاهد" وغلامه، و"الكاتب" وغلامه كما تشير بعض المواد الخاصة بنظام المناصفات إلى وجود عشرة أنفار رجاله في خدمة المشد، وتكون لهم بيوت خاصة يسكنون فيها، وفقاً للعادة المتبعة في ذلك([2]).

كما نصت بنود المعاهدات على حماية الفلاحين، فلقد حرص كل من الجانبين الإسلامي والفرنجي على فلاحيه، وعلى سلامتهم وتوفير الأمن لهم، فنصت المعاهدة التي عقدت بين بيبرس وبيت الإسبتار على "أن يكون فلاَّحو بيت الاسبتار رائحينَ وغادِينَ ومتصرِّفين في بيْعِهم وشِرائهم مطمئِنِّين لا يتعدَّى احدٌ عليهم وكذلك جميعُ فلاَّحى بلاد الإسماعيلية لا يتعدَّى احدٌ عليهم وان يكونوا آمنين مطمئنِّين في جميع بلاد الاسبتارية.. "([3])

وتولى اتفاقية عكا682هـ/1283م اهتماماً خاصاً للفلاح باعتباره مصدر الإنتاج الوحيد في النظام الإقطاعي إلى جانب التجارة، فهو يوفر للأسياد الإقطاعيين من ناتج عمله؛ أسباب العيش الرغيد، بينما يخضع هو نفسه مسلماً كان أو نصرانياً لأبشع أساليب القهر والاستغلال؛ لذا أكدت هدنة عكا على ضمان ارتباط الفلاح في بلاد الجهتين ارتباطاً وثيقاً بأرضه؛ بصفته فلاحاً قرارياً، ولم تسمح له بمغادرتها إلا نادراً، حيث كان ينتقل مع الأرض بانتقالها من سيد إلى آخر دون أن يكون له حق المشاركة في هذا القرار، وشددت هدنة عكا على توافق السلطان قلاوون، وأسياد عكا على وضع حد لمحاولات هروب الفلاحين إلى بلاد كل منهما، واضعة آلية لضمان ذلك فقد جاء في المعاهدة ما نصه "على أن ينادي في البلاد الإسلامية والبلاد الفرنجية الدَّاخِلَة في هذه الهدنة أنه من كان من فلاَّحي بلاد المسلمين يعودُ إلى بلاد المسلمين مُسلماً كان أو نصرانياً، وكذلك من كان من فلاَّحي بلاد الفرنج مسلماً كان أو نصرانياً معروفاً قرارياً من الجهتين، ومن لم يعد بعد المناداة يُطرد من الجِهتين"([4]) ويذكر أشتور أنه في بداية العصر المملوكي ظهر موظفون، واجبهم القبض على الأقنان الهاربين وإعادتهم إلى أسيادهم([5]).

وأمام حالات الحرب التي وقعت بين الطرفين، اضطر فلاَّحو بلاد المناصفات لهجرها وفي حالات أخرى، ربما لجأوا إلى تركها عندما تشتد شوكة الفرنج ويهددون بالإغارة على

([1])القلقشندي، صبح،ج14، ص50،51.

([2]) ابن عبد الظاهر، تشريف، ص82، 83. المقريزي، السلوك،ج2، ص140، هامش1.

([3]) القلقشندي، صبح،ج14، ص38.

([4]) القلقشندي، صبح،ج14، ص73. المقريزي، السلوك،ج2، ص17، هامش1.

([5]) أشتور، التاريخ، ص408.

أملاك المسلمين، لذلك حرص الطرفان الإسلامي والصليبي على أن تتضمن المعاهدات بنوداً تنص على عدم مخالفة أحد من الطرفين لعودة هؤلاء الفلاحين إلى أراضيهم فقد جاء في إحدى مواد الهدنة الموقعة بين الظاهر بيبرس، وبيت الاسبتار من "أن الملك الظاهر لا يتقدَّمُ بمنع أحدٍ من الفلاَّحين المعروفين بسُكْنى بلاد المناصفات من الرُّجوع إليها والسَّكَنِ فيها إذا اختاروا العوْدَ، وكذلك بيتُ الاسبتار لا يمنعون أحداً من الفلاَّحين المعروفين بسُكْنى بلاد المناصفات من الرُّجوع إليها والسَّكن فيها إذا اختاروا العود"([1]).

كما وردت مواد خاصة باستعمال المراعي، وتأمين رعي الماشية الخاصة بالجانبين، في مراعي بلاد المناصفات دون أن تفرض عليها رسوم كما لا يتعرض لها أحد بسوء([2]).

وفيما يتعلق بالضرائب على اختلاف أنواعها فقد كانت مناصفة بين السلطان، والمسؤول الفرنجي في بلاد المناصفات، وامتدت هذه الرسوم لتشمل شتى أنواع المواد، والمرافق الاقتصادية المعروفة آنذاك؛ سواء أكانت في الأراضي الزراعية بما فيها البساتين ومصائد الأسماك والملاحات والمحاصيل الصيفية والشتوية والطواحين والثروة الحيوانية من دواب وأبقار وأغنام، أو ما يفرض من رسوم على ما يمر بالبلاد وموانيها من سلع تجارية([3]) وكان ما يتم جمعه من الجباية من بلاد المناصفات تجمع كلها في مكان واحد ثم يقسم بين الجهتين المتعاقدتين([4]).

ومما يستفاد من نصوص هدنة عكا682هـ/1283م أن الوضع السكاني على ساحل الشام والداخل الفلسطيني حيث نشأت الكيانات الفرنجية؛ كان أكثر كثافة سكانية وأغنى مورداً مما كانت عليه في الفترات اللاحقة فهدنة عكا تبين اتساع مملكة عكا لتشمل ثلاثاً وسبعين مقاطعة مكتظة بالسكان العاملين في الزراعة([5]).

ونلاحظ كذلك من خلال نصوص معاهدة عكا أن فلاحي بلاد المناصفات الخاضعة للحكم الإسلامي قد هجروا أراضيهم، واتجهوا إلى المناطق الخاضعة لحكم الفرنج([6]) وذلك لحسن معاملة الفرنج للفلاحين المستقرين في أراضيهم حيث كانوا يتركون لهم الأرض يزرعونها؛ نظير أن يدفعوا نصف إنتاجها وبعض الضرائب الأخرى([7]) ويعود السبب في ذلك إلى حاجة الصليبيين للأيدي العاملة

([1]) القلقشندي، صبح،ج14، ص36.

([2]) المصدر نفسه،ج14، ص36.

([3]) المصدر نفسه،ج14، ص37،36.

([4]) جوني، دمشق، ص109.

([5]) القلقشندي، صبح،ج14، ص63. المقريزي، السلوك،ج2، ص167، هامش1.

([6]) القلقشندي، صبح،ج14، ص73.

([7]) ابن جبير، الرحلة، ص234،235. علي، العلاقات، ص50.

المسلمة في المجال الزراعي بسبب قلة الموارد الصليبية البشرية([1]).

وينبغي أن نلاحظ أن أحوال الفلاحين المسلمين في المناطق الصليبية لم تكن كلها على هذا المستوى كما ذكرنا ذلك سابقاً؛ بيد أن هذا لا يعني من ناحية أخرى أن أحوالهم كانت أفضل في ظل النظام الإقطاعي العسكري في المناطق الإسلامية؛ فيشير أبو شامه في حوادث سنة545هـ/1150م أن الفرنج عاثوا فساداً في نواحي حوران فعزم نور الدين على الخروج لقتالهم "وهو مع ذلك كافٍ أيدي أصحابه عن العبث، والإفساد في الضياع، وأمر بإحسان الرأي في الفلاحين، والتخفيف عنهم"([2]) هذا النص يكشف عن أن الفلاحين كانوا تحت عبء ثقيل؛ بدليل أن نور الدين طلب من الأمراء أن يخففوا عنهم، ويحسنوا الرأي فيهم، وفي تقديرنا أن مثل هذا الأمر لا يصدر عن نور الدين إلا إذا كان هناك ما يستوجب إصداره.

وفي عام 588هـ/1192م أقطع صلاح الدين نابلس وقراها لسيف الدين المشطوب([3]) فجار نوابه على أهلها وظلموا وزادوا الرسوم المفروضة عليهم مما أدى إلى تذمر أهل نابلس وضيقهم؛ فلما قدم صلاح الدين لزيارة نابلس؛ تقدم إليه أهلها بشكايتهم في سيف الدين، فأمر صلاح الدين برفع الظلم عنهم، وأزال الضرائب الجائرة التي فرضها نواب المشطوب([4]).

ولقد بذل السلاطين والأمراء جهوداً كبيرة من أجل تعمير القرى، وتشجيع الزراعة حيث تم توزيع التقاوي على الفلاحين([5]) كما نقل "الغلات من البلقاء لتقوية الفلاحين وإعانة المقطعين" في مناطق القدس والخليل([6]) ونقلت الغلات "من مصر إلى أعمال عسقلان ليعاد إليها الزراعة والعمران"([7]) وذلك عن طريق إعادة توزيع الأراضي والقرى المحررة على المقطعين فحين حرر الظاهر بيبرس أرسوف من الفرنج سنة 663هـ/1264م كشف بلاد قيسارية، ووزع الإقطاعات على أمرائه، وكتب القاضي شمس الدين ابن خلكان مرسوم التملك بهذه الإقطاعات، ويبدو أن الظاهر بيبرس كافأ أمراءه بمنحهم هذه القرى في فلسطين، من أجل تعميرها وحمايتها، وكانت من حق هذه الإقطاعات الانتقال إلى الورثة بعد الموت، ويختلف هذا النوع من الإقطاع عن الإقطاع العسكري والحربي

([1]) قاسم، ماهية، ص209.

([2]) أبو شامه، الروضتين،ج2، ص240،239.

([3]) **سيف الدين المشطوب:** كان من أصحاب أسد الدين شيركوه، حضر معه الوقعات الثلاث بمصر، ثم صار من كبار أمراء صلاح الدين، وهو الذي كان نائباً على عكا عندما أخذها الفرنج فأسروه في جملة من أسروه، فافتدى نفسه بخمسين ألف دينار، وجاء إلى السلطان صلاح الدين، وهو بالقدس فولاة نابلس، وتوفي في سنة 588هـ. الأصفهاني، الفتح، ص344. أبو شامه، الروضتين،ج4، ص204. ابن خلكان، وفيات،ج1، 183، 184.

([4]) الأصفهاني، الفتح، ص 359. أبو شامه، الروضتين،ج4، ص199. ابن واصل، مفرج،ج2، ص381.

([5]) المقريزي، السلوك،ج1، ص527.

([6]) الأصفهاني، الفتح، ص358.

([7]) المصدر نفسه، ص358.

المملوكي الذي كان أكثر انتشاراً([1]) كما تم إعادة بعض القرى بعد تحرير صفد لأصـحابها السابقين، وأعيدت زراعة هذه القرى([2]) وذلك من أجل تحفيـز المـسلمين علـى الـصمود والمقاومة وعدم ترك أراضيهم، ومشاركتهم الفاعلة في مقاومة الاحتلال الصليبي.

- البـــــدو.

تعد دراسة النظام القبلي في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية من المواضيع الـشائكة التي لا يمكن للدارس سبر أغوارها دون الاصطدام بمجموعة من العوائق، وفـي مقـدمتها شحة المادة التاريخية الخاصة بالمجتمعات البدوية فإذا استثنينا كتابات ابن خلدون التي تعتبر حجر الزاوية في الموضوع؛ فإن المصادر الأخرى لم تهتم في الغالب الأعم سوى بالحواضر والمدن الكبرى؛ عدا بعض الإشارات التي جاءت في سياق عرضهم للمواضيع.

تمدنا المصادر بالعديد من النصوص حول القبيلة، ومرتبتها ضمن الـشرائح المكونـة للنظام الاجتماعي العام أو للهرم القبلي فقد ورد ذكر القبيلة في القرآن الكريم، قـال تعـالى "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا.."([3]) ومن المفهوم القرآني استمد مؤرخو الحضارة العربية مفهوم القبيلة؛ فجعلوها في المرتبة الثانيـة ضـمن المجموعات البشرية؛ فالماوردي والقلقشندي جعل الشعب في قمة المراتـب، ومنـه تتفـرع القبائل التي سميت كذلك " لتقابل الأنساب فيها"، وبعد القبيلة تأتي العمـارة فـالبطن فالفخـذ فالفصيلة فالعشيرة([4])0

وينقسم البدو إلى قسمين وفقاً للحرفة السائدة؛ فالذين احترفوا الرعي منهم تميزت حياتهم بالترحال والسعي وراء الكلأ وسكنى الخيام، والإبقاء على أسلوب حياتهم الخـاص، ومـن عمل منهم بالزراعة عرف الاستقرار، وارتبط بالأرض([5]) فكثيـراً مـن القبائـل تحولـت إلى زراع في مجتمعات قروية ملكاً لهم، ويتضح ذلك في أخبار ثورة المبرقـع اليمـاني([6]) سنة 227هـ /842م في فلسطين والأردن فقد كان المبرقع اليماني من قبيلة لخم، وادعي أنه السفياني، وكان أتباعه حسب رواية الطبري" قوم من فلاحي تلك الناحية وأهل قرى، وأنهـم

([1]) المقريزي، السلوك،ج2، ص23، 24.

([2]) أشتور، التاريخ، ص409.

([3]) سورة الحجرات، آية 13.

([4]) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص232. القلقشندي، صبح،ج1، ص361،360.

([5]) ابن خلدون، تاريخ،ج1، ص 130،129.

([6]) **المبرقع**: هو أبي حرب تميم الخمي يلقب بالمبرقع اليمـاني كـان مـن أهـل الغـور الفلـسطيني، ادعـى أنـه الـسفياني المنتظر، وقد انتشرت حركته بين القبائل العربية في فلسطين، وقـد اتبعـه الكثيـر مـن الفلاحـين الـذين يعملـون فـي الزراعـة، فكـان مركـزه الرحلـة، وبـدأت حركتـه فـي عهـد المعتـصم واسـتمرت حتـى عهـد الواثـق حيـث تـم أسـره سـنة 228هـ.اليعقـوبي، تـاريخ،ج2، ص480.الطبـري، تـاريخ،ج9، ص116-118. ابن الأثير، الكامل،ج6، ص69.

في حدود مائة ألف"([1])، ويذكر في رواية أخرى أنه لما حل موعد الحراثة انصرفوا إلى القرى إذ أن بعضهم كانوا "حراثين" وبعضهم من "أرباب الأراضين"([2]) ويذكر اليعقوبي أن أتباع المبرقع كانوا من العرب، ويحدد قبائلهم بأنهم من لخم وجذام وعاملة وبلقين([3]).

فالعرب المسلمون في فلسطين تعود أصولهم إلى تلك القبائل العربية التي هاجرت إلى جنوب بلاد الشام قبل الفتح الإسلامي وبعده ففي الجنوب صارت المنازل لقبائل كلب اليمانية مع منازل العرب اليمانيين السابقين للإسلام هناك، بينما تكاثرت في شمال الشام قبائل من أصل قيسي كان أشهرها كلاب([4]) ومن القبائل العربية التي استقرت في فلسطين" لخم وجذام وعاملة وكنده وقيس وكنانة"([5]).

واستقرت أوضاع القبائل العربية خلال القرنين الأول والثاني تقريباً على هذا الحال؛ حتى انقضاء فترة طويلة من العصر العباسي ففي القرن الثالث للهجرة كان من بين نشاطات القرامطة في شبه جزيرة العرب، وبلاد الشام قدوم موجة جديدة من المهاجرين حملت إلى فلسطين قبائل طيء اليمانية بزعامة آل الجراح، وكذلك قبائل بني هلال وسليم وفزاره، وحملت إلى الشمال قبائل عقيل وكلاب([6]) ولقد عاصر ابن حوقل(ت367هـ/977م) حركة هذه القبائل، وشهد بعض ما أحدثته من تغيرات في هجرتها، وروى أنه قبل قدوم المهاجرين الجدد كان معظم بدو الجزيرة، والشام الأعلى شبه متحضرين، وكانوا يمتلكون قليلاً من الجِمال، وارتبطوا بالحياة الريفية أكثر من ارتباطهم بحياة الترحال، فكان من نتائج قدوم المهاجرين الجدد إرغام القبائل القديمة على الأخذ النهائي بالحياة الريفية المستقرة([7]).

ولم تقتصر نتائج الهجرة الجديدة على ذلك؛ بل تعدت على ما هو أهم فقد استطاعت القبائل الثلاث الرئيسة من إنشاء ثلاث دول، واحدة في الرملة لطيء، وثانية في دمشق لكلب، وثالثة لكلاب في حلب([8]) وخاض الحلف الثلاثي معارك ضد جيوش الخلافة الفاطمية، ولكن الحلف فشل سنة419هـ/1028م لتفرق القوى البدوية، وتمزقها الداخلي، وعدم أهليتها لتقبل التنظيم الحضري، وهكذا استطاع النظام الفاطمي أن يفرض نفسه في الجنوب عقب معركة الإقحوانه بالقرب من طبرية([9]).

([1]) الطبري، تاريخ،ج9، ص116، 118.

([2]) المصدر نفسه،ج9، ص117 .

([3]) اليعقوبي، تاريخ،ج2، ص480.

([4]) مصطفى، دخول الترك، ص305.

([5]) اليعقوبي، البلدان، ص167.

([6]) القلقشندي، صبح،ج1، ص396،395.

([7]) ابن حوقل، صورة الأرض، ص209.

([8]) ابن العديم، زبده، ص126، 127. لمزيد انظر المعاضيدي، الحياة، ص52-78 .

([9]) ابن القلانسي، ذيل، ص73، 74. ابن العديم، زبدة، ص127-131. مصطفى، دخول الترك، ص315.

وفي حوالي أواسط القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي وصلت بلاد الشام وفلسطين موجة بدوية جديدة من الشمال الشرقي، وهؤلاء البدو من الأتراك الغز، وسرعان ما نظم هؤلاء البداة الجدد أنفسهم على شكل دولة مستقرة وجلبوا الفلاحين إلى الرملة وما حولها([1]) وعشية الحملة الصليبية الأولى كان أمراء قبيلة بني ربيعة إحدى فروع قبيلة بني طيء هم سادة رام الله التي كانت عاصمة لفلسطين في العهد الفاطمي واعترف الحكام الفاطميون بسيادة هذه القبيلة([2]).

كان البدو قد أثبتوا حتى قبل أن يأتي الصليبيون إلى المنطقة أنهم أُولوا بأس يأبون الخضوع إلى حاكم غريب غير شيخ القبيلة، ويعتمدون في حياتهم على ما يوفره لهم اقتصاد المغازي من موارد حربية، وهو ما عبر عنه ابن خلدون بقوله: "فتكون أرزاقهم في ظلال رماحهم"([3]) وعندما غزا الصليبيون بلاد الشام استمرت تلك الروح تشكلهم لفترة من الزمن أبرزوا فيها مقاومة لهذه السلطة الجديدة المحتلة؛ فاضطر الحكام الصليبيون إلى تجريد الحملات لكسر شوكتهم، وتأمين الطرق منهم، ولم يتمكن الصليبيون بالحد من مقاومة شيوخ العرب إلا بعقد الاتفاقيات معهم تارة([4]) والضرب بيد من حديد، وتجريد الحملات العسكرية لإخضاعهم([5]) والحد من مقاومتهم([6]) تارة أخرى حتى أجبروا أخيراً على الخضوع والاستسلام، حيث بسط الصليبيون سيطرتهم على كل القبائل البدوية التي عبرت حدود المملكة الصليبية، والتزمت هذه القبائل بدفع رسوم مالية مقابل حرية استخدام المراعي وترحالهم داخل حدود المملكة الصليبية([7]) فذكرت المصادر أن قبيلة ثعلبة وجرم، وهم بطن من طيء، ومنازلهم في جنوب فلسطين كانوا "يداً مع الفرنج على المسلمين"([8]).

وذكر ابن الأثير أن فضل ابن ربيعة كان آباؤه أصحاب بيت المقدس والبلقاء" وكان الفضل تارة مع الفرنج، وتارة مع خلفاء مصر"([9]).

كما ذكر المقريزي في حوادث سنة 577هـ/1182م أن تجاراً من مصر من عرب الشرقية؛ من قبيلة جذام وثعلبة في البحيرة، كانوا يحملون الغلال إلى بلاد الفرنج بالشام([10]).

([1]) ابن القلانسي، ذيل، ص112،99،98. ابن الأثير،ج8، ص390. ولمزيد انظر مصطفى، دخول الترك، ص305–386.

([2]) براور، الاستيطان، ص71.

([3]) ابن خلدون، تاريخ،ج1، ص158.

([4]) Albert d,Aix, op. cit., PP. 503, 516. فنك، تأسيس، ص 68.

([5]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص108–110. الصوري، تاريخ ،ج1، ص487–559.

([6]) سايولف، وصف، ص23. دانيال، وصف، ص81،77،48.

([7]) براور، الاستيطان، ص71. Kendar, Op. cit., P. 165.

([8]) القلقشندي، صبح،ج1، ص174، 175. القلقشندي، نهاية، ص183، 195. المقريزي، رسائل، ص125، 126.

([9]) ابن الأثير، الكامل،ج9، ص115. ابن خلدون، تاريخ،ج6، ص9.

([10]) المقريزي، السلوك،ج1، ص185.

وحين قرر ريتشارد إعادة بناء عسقلان أثناء حوادث الحملة الصليبية الثالثة بعد هدم صلاح الدين لها، شارك البدو في إعادة البناء فقد ذكر المؤرخ المجهول أنه قد تم إقامة ثلاث وخمسين برجاً "وقد سميت خمسة من هذه الأبراج بأسماء بناتها" وكان أحد الأبراج يسمى ببرج البدو "نسبة إلى بناته الذين كانوا من هذه الجماعة"([1]) كما أن البدو المقيمون في المملكة الصليبية قدموا خدمات جليلة للصليبيين سواء فيما يتعلق بحركة الجيوش الإسلامية([2]) أو بحركة القوافل التجارية([3]).

وتشير الوثائق الصليبية إلى علاقة البدو بالصليبيين؛ ففي وثيقة دُونت في21 جمادى الأولى 532 هـ/5 فبراير 1138م قام الملك فولك لانجو بمنح قرية تقوع، وما اشتملت عليه من سكان فلاحين وبدو لرهبان كنيسة القيامة([4]).

وفي27 ذي القعدة 555هـ/29 نوفمبر1161م قام الملك بلدوين الثالث بمنح مقدم طائفة الاستبارية خمسين خيمة من البدو([5]) كما ورد في وثيقة لعام573هـ/1177م قيام عموري فيسكونت نابلس ببيع كل خيم البدو الرحل التي يمتلكها إلى روجر Roger مقدم الإسبتارية وكان هؤلاء البدو من بني قراجا الذين تألفت قبيلتهم من عدد من العشائر تنقسم بدورها إلى مائة وثلاث خيام، وفي نفس العام باع عموري لطائفة الاسبتارية أيضاً ثلاثمائة من خيام البدو، وبتاريخ 3رجب 574هـ/27 نوفمبر 1178م صادق الملك بلدوين الرابع على بيع عموري لخيام البدو([6]).

وفي10 ذي الحجة 576هـ/28 ابريل 1181م قام الملك بلدوين الرابع بمنح طائفة الاسبتارية مائة خيمة من البدو في منطقة كوكب([7]) بالجليل إلى منطقة نفوذهم الجديدة شريطة ألا تكون هذه العائلات من اللاتي تنتمي من قَبل لملك بيت المقدس([8]).

ومن الجدير بالذكر أن آراء المؤرخين الحديثين قد تفاوتت حول تفسير لفظة عبيد Slaves التي وردت في الوثائق، فمنهم من اعتقد أنهم ملك مكتسب للملك الصليبي، وله

([1]) مجهول، الحملة الصليبية، ج2، ص139، 140.

([2]) مجهول، ذيل، ص434.

([3]) ابن القلانسي، ذيل، ص183.مجهول، ذيل، ص435، 436. أبو شامه، الروضتين،ج4، ص178، 179.

([4]) Rohricht, R., Regesta, Doc. No, 174, 309, 393.

([5]) Paoli, S., Cods Dipl., Tome I, P. 65. Delaville Le Roulx, Vol. I, Doc. No. 296, P. 216.

([6]) I bid., Doc. No. 296, 532, 550, PP. 364-372.

([7]) **قرية كوكب:** نقع في الشمال من بيسان وهي تقوم على بقعة مدينة يرموث الكنعانية، أقام الرمان عندها قرية عرفت باسم أغربينا وفي العهد الفرنجي أنشأ عليها قلعة حصينة عرفت باسم بلفوار Belvoir . وصفها الحموي بقوله " قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية حصينة رصينة تشرف على الأردن" وهي تسيطر على الطريق القادمة من دمشق باتجاه فلسطين. بورشارد، وصف ، ص95. الحموي، معجم،ج4 ، ص494. الدباغ، بلادنا، ق2،ج6، ص520،519.

([8]) Paoli, S., Lok., Cit., Vol. I, Doc. No. 592, P 395. ، براور، الاستيطان، ص72.

مطلق الحربة في أن يتعامل معهم بيعاً وشراء بصفتهم عبيداً([1]) ومنهم من رأى أنهم كـانوا من رعايا الملك الصليبي، فكان على من يعمل بـالرعي أن يـدفع الـضريبة إليـه مقابـل استغلال المراعي، وفقاً لقانون قام بسنه الصليبيون، وهم بذلك يخـضعون لـسلطة الملـك الصليبي مباشرة([2]).

ويرى الباحث أنه من الصعب قبول تصنيف البدو كعبيد؛ إذ كـان بـالأحرى لهـم أن يختاروا الرحيل إلى بلاد إسلامية أخرى مجاورة كي ينعموا فيها ما يفتقدون من حريـة، ولا ينبغي الأخذ بوصف الوثائق لهم بالعبيد على أنه أمر مسلم به، وعلى هذا يمكن تفسير ما كان يقوم به الملك الصليبي بنقل ملكيتهم بالمنح أو بالبيع والشراء، بأنه بمثابة نقل للعقـار الـذي يشغله هؤلاء البدو من مراعي وخيم؛ أما وصف البدو بالرعايا فهو تصنيف غير دقيق لأنـه ينطبق على المسيحيين الشرقيين، أما أكثر التصنيفات مطابقة للواقع فهو ما أشار إليه الرأي القائل بأنهم كانوا أنصاف أحرار([3]) حيث أنهم لم يحظوا بحقوق المواطنة كاملة، وإنما ارتبط القسط الذي حظوا به من حرية بمدى خضوعهم للملك الصليبي.

وتأثر السكان البدو في المملكة الصليبية ثقافياً واجتماعياً بالصليبيين، وأن مظاهر هـذا التأثير أخذت تتوارث من جيل إلى جيل آخر، وقد أكد الأصفهاني على مدى تأثير الصليبيين الثقافي على البدو قائلاً "وتربى أولادهم في حكم الإفرنج فألفوا ما ألفوه، وخافوا منهم علـى ظهور حبهم لنا فأخفوه"([4]).

وشارك البدو الذين استقروا خارج حدود المملكة الصليبية في مقاومة الاحتلال الصليبي؛ فكان لقبيلة طيء كغيرها من القبائل دور في الحياة السياسية لبلاد الشام خلال القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي؛ فقد كانت تشترك مـع جيـوش أصـحاب دمـشق مـن آل طغتكين([5]) وآل زنكي، والأيوبيين، والمماليك في حروبهم ضد الصليبيين خاصة في منطقتي حوران والبلقاء مواطن آل ربيعة من طيء([6]) وكان اشتراك آل ربيعة في هذه الحروب إما على شكل متطوعة أو باعتبارهم قوات مساندة للجيش، فقد وقف مُرة بن ربيعة إلى جانب آل طغتكين أصحاب دمشق في حروبهم مع الصليبيين([7]).

ومما يؤكد اشتراك البدو والعرب في معارك التحرير ومقاومة الصليبيين أثناء الحملـة

([1]) العارف، قبائل، ص80، 81.

([2]) براور، الاستيطان، ص 171.

([3]) Kedar. B. op. cit. P.167

([4]) الأصفهاني، البرق،ج5، ص153.

([5]) ابن القلانسي، ذيل، ص185. الصوري، تاريخ،ج2، ص703.

([6]) ابن منقذ، الاعتبار، ص 158. ابن الأثير، الكامل،ج5، ص115.

([7]) ابن القلانسي، ذيل، ص225.

الصليبية الثالثة تحدث ابن شداد تحت عنوان "ذكر واقعة جرت للعرب مـع العـدو" قـائلاً "خرج العدو للإحتشاش من طرف النهر.. فأكمن السلطان لهم جماعة من العرب" وهجموا على الفرقة الصليبية على حين غرة "وقتلوا منهم خلقاً عظيماً وأسروا جماعة.. فخلع عليهم وأحسن إليهم"([1]).

وشارك البدو في العمليات الاستشهادية ضد الصليبيين، وذلك أثناء الحرب الصليبية الثالثة التي دارت رحاها في فلسطين ففي سنة 23رمضان 587هـ/1191م قامت قوة من العرب بالتسلل داخل المعسكر الصليبي أمام عكا وقامت بخطف عدد من الصليبيين وأسرهم([2]) كما شارك البدو في العديد من الكمائن العسكرية التي خطط لها صلاح الدين بهدف قطع خطوط التموين والإمداد عن الصليبين. لتجويع العدو وإضعافه([3]).

وواصل البدو في المناطق المحررة شن غاراتهم على الصليبيين فبعد توقيع معاهدة يافا 627هـ/1229م ومغادرة الإمبراطور فردريك عكا تعرضت القدس لهجوم من قبل البدو المسلمين فتصدى له الصليبيون وأفشلوه([4]).

وامتلك رجال البلاد ومشايخها وعربانها الإقطاعات، ففي سنة666هـ/1265م وزع الظاهر بيبرس الإقطاعات على رجال الكرك، وعربانها فبلغت ثلاثمائة منشور وقع عليها في الكرك([5]) دفعة واحدة، وحين نزل على غزة وأثناء إقامته فيها" نظر السلطان في أمر التركمان، وخلع على أمرائهم، وعلى أمراء العربان من العائد([6]) وجرم وثعلبة([7]) معنى ذلك أن السلاطين المسلمين سواء كانوا من الأيوبيين أو المماليك اتبعوا سياسة تهدف إلى استقطاب قبائل العرب وضمان تحالفهم معهم.

وفي عهد الدولة الأيوبية زاد شأن آل ربيعة ارتفاعاً، ففي سلطنة العادل أخو صلاح الدين منح إمرة عرب([8]) الشام لحديثه بن مانع بن فضل

([1]) ابن شداد، النوادر، ص73، 74. الأصفهاني، الفتح، ص189. أبو شامه ، الروضتين، ج4، ص94.

([2]) ابن شداد، النوادر، ص150، 151.

([3]) ابن شداد، النوادر، ص 67، 68، 169. الأصفهاني، الفتح، ص226.

([4]) نوفار، حروب فردريك، ص50.

([5]) المقريزي، السلوك،ج1، ص556.

([6]) **العائد:** وهم بطن من جذام من القحاطنية؛ مساكنهم فيما بين بلبيس من الديار المصرية إلى عقبة آيلة إلى الكرك من ناحية فلسطين.القلقشندي، نهاية، ص304.

([7]) المقريزي، السلوك،ج1، ص55.

([8]) **إمرة العرب:** كانت إمرة العرب حتى سلطنة العادل الأيوبي الأولى على دمشق وحلب أمره قبلية ليس لها ارتباط محدد بالسلطة في دمشق أو القاهرة مع أننا نجد إشارات من زمن الفاطميين تدل على أن مراسم الإمرة على الرملة قد أرسلت إلى أمراء آل الجراح.ابن القلانسي، ذيل، ص22، وأمره عرب الشام وظيفة وجدت من أيام حكم الدولة البيزنطية، وآنذاك حمل هذه الرتبة أمراء غسان، ويبدو أن هذا المنصب ضعف شأنه أيام الأمويين وبعث مجدداً بعد استيلاء صالح ابن مرداس على حلب، وظل بين المرداسيين حتى ضعف شأن قبيلة كلاب وارتفع شأن قبيلة ربيعة. زعرور، الحياة الاجتماعية، ص256.

بن ربيعة([1]) و قد قام تنافس بين قبائل ربيعة حول الإمرة،، ولهذا أقدم الكامل بن العادل على جعلها نصفين؛ نصف احتفظ به مانع بن حديثه، ونصف آخر منح لزعيم جديد هو غنام بن غنام([2]) وانحصرت إمرة العرب منذ حكم الظاهر بيبرس في آل فضل بن ربيعة حيث تولى إمرة العرب عيسى بن مهنا([3]).

ومع أن البدو قدموا خدمات لا تنكر في الحروب ضد الصليبيين سواء كان ذلك عن طريق التجسس، والغارات الخاطفة على معسكرات العدو، أو بنصب الكمائن للجيوش واستدراجها إليها، إلا أنهم لم يكونوا طرفاً في النزاع، فقد كانوا في الأغلب متقلبين في مواقفهم بين المسلمين والفرنج، لأن في ذلك خدمة أكبر لصالحهم([4]) وذلك لأنه إذا كان الصراع القبلي قد غُلف دائماً بغلاف العصبية، فإنه لم يكن في العمق سوى صراع من أجل موارد الخيرات بشهادة ابن خلدون نفسه، فسكان البادية منهمكون غالباً في تحصيل الضروري من العيش" واجتماعُهم وتعاونهُمْ في حاجاتِهم ومَعاشِهِمْ وعُمرانهم من القوت والكِنِّ والدَّفاءَةِ إنما هو بالمقدار الذي يحفظُ الحياة"([5]) لذلك فهم يتنازعون دوماً على مناطق الرزق، ولا يجدون حرجاً في الاعتداء على الأموال، والممتلكات "فمن امتدت عينه إلى متاع أخيه امتدت يده إلى أخذه"([6]) ومن ذلك ما يؤكده ابن الأثير في حوادث سنة614هـ/ 1217م أثناء غزو الفرنج لمصر في أحداث الحملة الصليبية الخامسة حيث يقول "اجتمعت العرب على اختلاف قبائلها ونهبوا البلاد المجاورة لدمياط وقطعوا الطريق، وأفسدوا وبالغوا في الإفساد فكانوا أشد على المسلمين من الإفرنج"([7]).

وسكن البدو في بيوت من الشعر واعتمدوا على حياة التنقل، وعلى العموم يمكن القول أن الأنشطة الاقتصادية التي مارسها البدو تنوعت، لتشمل النشاط الرعوي فضلاً عن النشاط الحربي الذي مكنهم من الحصول على الأسلاب والغنائم([8]).

وغني عن القول أن الاقتصاد القبلي اعتمد أيضاً على تربية الماشية في المناطق التي يتوفر فيها الماء والكلأ في المناطق الجبلية والأودية([9]).

([1]) القلقشندي، صبح،ج4، ص213.

([2]) الحيارى، الإمارة، ص63، 64.

([3]) ابن خلدون، تاريخ،ج6، ص11.القلقشندي، صبح،ج4، ص213.

([4]) ابن الأثير، الكامل،ج9، ص115.

([5]) ابن خلدون، تاريخ،ج1، ص129.

([6]) المصدر السابق، ص136.

([7]) ابن الأثير، الكامل،ج10، ص377.

([8]) بورشارد، وصف، ص174.

([9]) المصدر نفسه، ص54، 55.

العوامل المؤثرة على البنية السكانية:

- الحـــــــــروب:

عانى سكان فلسطين من الحروب التي شهدتها المنطقة في عصر الحروب الصليبية مما أثر تأثيراً بالغ السوء على النمو السكاني فيها؛ حيث أدت العمليــات العــسكرية الــصليبية لاحتلال فلسطين، وقيامها بارتكاب المذابح والمجازر([1]) إلى تفريــغ المــدن مــن ســكانها وتهجيريهم من مدنهم وقراهم([2]) "وتفرقوا في بلاد المسلمين"([3]).

كما عانى الفلاحون من الظروف الصعبة التي شهدتها فلسطين خلال عصر الحــروب الصليبية بسبب امتداد المعارك الحربية بين المسلمين، والصليبيين إلــى المنــاطق الريفيــة، ولجأوا إلى المدن الأكثر أمناً التي لم تتضرر من جراء الصراع الإسلامي الصليبي([4]).

وقد أدت الحــروب بــين المــسلمين والــصليبيين إلــى أزمــات اقتــصادية بــسبب كثرة العمليات الحربية؛ فضلاً عن إتلاف المحاصيل الزراعيــة، وعــدم قــدرة الفلاحــين على زراعة أراضيهم أثناء تلك الحروب؛ فــضلاً عــن تعطيــل التجــارة، وكثيــراً مــا كــان العامــل الاقتــصادي يــدفع المــسلمين والفــرنج لعقــد هدنــة أو صــلح ليــتمكن الطرفان من اســتئناف نــشاطهم التجــاري والزراعــي، ومــن ذلــك مــا يرويــه بــن القلانسي في حوادث سنة 507 هـــ مــن أن الأميــر ظهيــر الــدين أتابــك دمــشق قــام بالاتصال بملك بيت المقدس بلدوين الأول" لتعمير الأعمال بعد الإخراب، وتأمين السوابل من شر المفسدين والخراب، فاستقرت هذه الحال بينهما .. وأمنت المسالك والأعمــال، وصــحة الأحوال، وتوفر الاستغلال"([5]).

وتشير المصادر إلى خصوبة سهل عسقلان، والذي لم يزرع خلال مدة الحــرب التــي استمرت ما يقرب من خمسين عاماً([6]) وعلى الرغم من استيلاء القوات الفرنجية على مدينة عسقلان548هـــ/1152م فقد واصل قادة الفرنجة سياسة التوسع الاستيطاني، وبنــاء القــرى الزراعية الجديدة التي تهدف إلى تعويض الخسائر الاقتصادية الجسيمة، وبخاصة في المناطق القريبة من عسقلان، حيث بلغ عدد قراها نحو اثنتين وسبعين قرية([7]) ويبدو أن سكان قــرى

([1]) ريموندأجيل، تاريخ الفرنج، ص247. الشارتري، تاريخ الحملــة، ص75، 115. الــصوري، تــاريخ، ج1، ص436، 437، 497.ابن الأثير، الكامل،ج9، ص19، 43.

([2]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص70، 130، الصوري، تاريخ،ج1، ص400، 495، 513، 566،ج2، ص822. ابن القلانــسي، ذيل، ص321. قاسم، بعض مظاهر، ص376.

([3]) ابن جبير، الرحلة، ص238.

([4]) ابن القلانسي، ذيل، ص185، 186، 309، 313. الصوري، تاريخ ،ج1، ص403، 416، 423،ج2، ص999.

([5]) ابن القلانسي، ذيل، ص190.

([6]) الصوري، تاريخ،ج2، ص825.

([7]) براور، الاستيطان، ص 449.

تلك النواحي كانوا قد هجروها بسب أخطار الحروب التي حالت دون تمكنهم من زراعة أراضيهم بالمحاصيل الزراعية، ولأنها كانت تتعرض بين الفينة والأخرى لأخطار الحرق والتدمير([1]).

فالحروب كانت تتسبب في هجرات داخلية أو خارجية، وتؤدي إلى تفريغ مناطق معينة من سكانها، وتكديسهم في مناطق أخرى، ومن الأمثلة على ذلك ما حدث في مصر والشام عقب قيام دولة المماليك فقد دفعت الحروب الكثيرة والمتعددة، وما نتج عنها من تخريب لاقتصاد المناطق التي دارت المعارك على أراضيها بالكثيرين للهجرة إلى مصر؛ التي زاد عدد سكانها زيادة ملحوظة([2]) ويروي أحد الرحالة القادمين من أسبانيا إلى القدس في عام 663هـ/1267م أن سكان المدينة المقدسة هربوا في كل الاتجاهات؛ عندما اقترب منها المغول، ولم يعودوا إليها مما أوصل عدد سكانها بعد سبع سنوات إلى ألفين نسمة فقط([3]).

وتشير المصادر أكثر من مرة إلى مغادرة الفلاحين لقراهم، والهروب منها، وتشير إلى تدمير الأرياف والقرى، ووقوع الناس ضحية المجاعة([4]) لتناقص الإنتاج الزراعي حيث باتت بلاد الشام مسرحاً للمنازعات، والصراعات العسكرية التي كان لها نتائجها السلبية والخطيرة على الحياة الاجتماعية في بلاد الشام، إذ أن الحروب والصراعات لم تتوقف بين الصليبيين والمسلمين طيلة قرنين من الزمن، وكانت هذه الصراعات والحروب مصدر اضطراب أمني وخلل اجتماعي خطير([5]) فهي إن لم تؤدِ إلى تناقص في السكان؛ فإنها تؤدي على الأقل إلى توقف النمو السكاني، ووقوعه في الأزمات المتصلة فيذكر بادربون وغيره أن من نتائج بناء حصن عتليت أن الفلاحين القاطنين ما بين القدس وعكا" أرغموا على مغادرة المناطق الزراعية"([6]).

وكانت إحدى النتائج الهامة للحروب الصليبية هي تلك السياسة التي اقتضت تدمير المدن والقلاع، وهي السياسة التي بدأها صلاح الدين، واتبعها من بعده سلاطين الأيوبيين والمماليك، حيث أدركوا أن هذه القلاع والحصون كانت ركيزة لأمن المملكة الصليبية، فضلاً عن تدعيمها لقدرة الصليبيين على حكم المناطق المحتلة([7]) فحين زار لودولف فلسطين عقب

([1]) الصوري، تاريخ،ج2، ص808.قاسم، بعض مظاهر، ص384.

([2]) المقريزي، السلوك،ج1، ص544. قاسم، أثر الحروب، ص250،249. ناصر ، الحياة الاقتصادية، ص76.

([3]) نقلا عن أشتور، التاريخ الاقتصادي، ص379.

([4]) ابن شداد، النوادر، ص107. مجهول، الحرب،ج1، ص 164-168. الأصفهاني، الفتح، ص260-261. أبو شامه، الروضتين،ج5، ص273، 274.

([5]) قاسم، ماهية، ص201. قاسم، بعض مظاهر، ص385.

([6]) بادربون، الاستيلاء على دمياط، ص34، 35. ويندوفر،ج2، ص732.

([7]) انظر الفصل الرابع من الدراسة، ص277- 282.

انتهاء عصر الحروب الصليبية ذكر أن جميع المدن والقرى والقلاع القائمة على ساحل البحر ولعمق(4أميال=10كم) تم تدميرها([1]) بينما عادت الحياة لتزدهر في المناطق الداخلية البعيدة عن خطوط الحرب، وهكذا كلما كانت المنطقة منطقــة حــرب، كــان التــدهور الــسكاني والاجتماعي واضحا، والعكس صحيح تماماً؛ إذ أن المناطق التي شهدت نوعاً مــن الهــدوء عادت لتزدهر([2]) فقد بلغ عدد قرى إقليم نابلس في العصر المملوكي حوالي ثلاثمائة قرية([3]) بعد أن كان تشمل في العصر الصليبي على تسعين قرية([4]).

- الكوارث الطبيعيــــــــة.

مثلت بلاد الشام منذ القدم مركزاً لانتشار الهزات الأرضية حيث تقع بلاد الشام ضــمن نطاق الأخدود الإفريقي العظيم الذي عد من نقاط تمركز نشاط الــزلازل علــى المــستوى العالمي، حيث امتد الانكسار الأخدودي من شرق أفريقيا إلى الحبشة والبحر الأحمر ثم خليج العقبة والبحر الميت؛ ثم إلى انكسار أخدود نهر الأردن فمناطق سوريا([5]).

ولقد شهدت بلاد الشام، وقوع العديد من الزلازل خلال القرنين(6-7هــــ/12-13م) ، وتركت تلك الزلازل أثرها في إلحاق الضرر في المناطق الإســلامية والــصليبية، فتــشير المصادر إلى عدد من الزلازل التي حدثت في بداية تكوين المملكة الصليبية منهــا زلــزال سنة 499هــ/1105م([6])، ولكنه يبدو أن هذا الزلزال لم يترك أي آثار تدميرية.

وفي6ربيع أول 508هــ/10 أغسطس1114م([7]) وقــع زلزال مدمر أثر فــي المناطق الصليبية، وقد صادف وقوع الزلزال الاحتفال بعيــد القــديس لــورنسSt- Laurance([8]) ونظراً لكثرة أعداد الصليبيين الوافدين من الغــرب الأوربــي علــى المنطقــة للمــشاركة في الاحتفال؛ فمن المحتمل تزايد أعداد القتلى بين صــفوف الــصليبيين مــن جــراء ذلــك الزلزال، ويشير الشارتري إلى أنه أثناء وقوع هذا الزلازل حدثت هزة مدمرة فــي منــاطق شمال الشام، حيث أنها دمرت مدناً عديدة سواء كان تدميراً كلياً أو جزئياً، وأن كثيــراً مــن الناس دفنوا تحت الأنقاض([9]).

([1]) لودولف، وصف، ص314

([2]) الصوري، تاريخ،ج2، ص730، 825. أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص170، 171.

([3]) ابن شاهين، زبدة، ص46.

([4]) Benvenisti, M., op. cit., p 214.

([5]) عوض، الزلزال، ص 61.

([6]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص140.

([7]) المصدر نفسه، ص154.

([8]) **القديس لورنس:** نسجت العديد من الروايات حول ذلك القديس، ويعتقد المسيحيون أنه اشتهر في روما بعد أربعة أيام من وفاة القديس كتيوس الثاني في عام 258م، وتم دفنه في مقبرة على الطريق المؤدي إلى تيفولي حيث تقع كنيسة القــديس لــورنس الحالية، عوض، الزلزال، ص75، هامش39.

([9]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص154، 155.

وفي سنة 533هـ/1138-1139م حدثت عدة هزات أرضية في بلاد الشام خلال شهري صفر وشوال، واشتد أثر ذلك الزلزال خلال شهر صفر لتبلغ عدد الهزات، والتوابع ما بين ثمانين إلى مائة زلزلة([1]) مع ملاحظة أن الرقم لا يمكن التثبت منه لقلة الإشارات المصدرية عنه، وربما سادته روح المبالغة، ومع ذلك من الممكن تصور حدوث توابع متعددة للزلزال المذكور، وكان أثر الزلزال قد اشتد في شمال بلاد الشام، وخاصة في مدينة حلب التي تهدم الكثير من منازلها، وغادر السكان منازلهم مذعورين فراراً من الموت المحدق بهم([2])، ويعد هذا الزلزال من الدرجة السابعة أو الثامنة وفق مقياس ريختر Richter([3]) لقياس الزلازل([4]) ولم تشر المصادر الصليبية لتلك الزلازل وأثرها على المناطق الصليبية، ويبدو ن هذا الصمت يعكس انعدام الخسائر أو قلتها في الجانب الصليبي.

وفي10 شعبان 551هـ/1156م حدث زلزال مروع؛ وامتدت توابع هذا الزلزال حتى يوم22 شوال/8 ديسمبر وبلغ عدد الهزات الأرضية خلال الثلاث أشهر أربعاً وثلاثين هزة أرضية باستثناء العدد الذي خرج عن الإحصاء([5]) وأصاب الزلزال الناس بالهلع والذعر الشديدين حتى" روعت الناس وأزعجتهم"، وأنها كانت من العنف بحيث فاقت ما حدث من قبل، وعبر عن ذلك ابن القلانسي بقوله:" ما عُرف مثل ذلك في السنين الماضية والأعصر الخالية"([6]) وتركزت الخسائر الناجمة من تلك الزلازل في مدن شمال الشام مثل حلب وحماه وشيزر وغيرها([7]).

أما الزلازل التي وقعت في عام552هـ/1157م والتي امتدت لحوالي سبعة أشهر ابتداء من شهر صفر حتى ذي القعدة، فقد بلغ عدد الهزات الأرضية خلالها إحدى وثلاثين هزة أرضية([8])، وكان حجم التخريب والدمار من جراء تلك الهزات مضاعفاً عما حدث في العام الذي سبقه، ومن الملاحظ أن المصادر الصليبية لم تكشف النقاب عن أضرار تلك الهزات الزلزالية في المناطق الخاضعة لسيطرة الصليبيين على الرغم من مجاورة أملاكهم لأملاك المسلمين، ومن ثم تأثير مناطقهم بتلك الزلازل أمر منطقي، في حين ألقت المصادر التاريخية

([1]) ابن القلانسي، ذيل، ص 268، ابن العديم، زبدة، ص319.

([2]) ابن القلانسي، ذيل، ص268.

([3]) **مقياس ريختر:** وهو مقياس لدرجة قوة الزلازل يبدأ من واحد حتى اثني عشر، وضعه العالم ريختر وسمي باسمه. عوض، الزلازل، ص56، 58.

([4]) عوض، الزلازل، ص65.

([5]) ابن القلانسي، ذيل، ص334، 336.

([6]) المصدر نفسه، ص 335.

([7]) المصدر نفسه، ص 335، 336.

([8]) ابن القلانسي، ذيل، ص337– 347. ابن الأثير، الكامل،ج9، ص413. ابن العديم، زبدة، ص338. أبو شامه، الروضتين،ج1، ص305.خليل، نور الدين ، ص18.

الإسلامية الضوء عن الآثار الناجمة عن تلك الهزات في المناطق الـصليبية، ووفقـاً لتلـك المصادر فإن أغلب أهل طرابلس قد هلكوا ونصف أهل أنطاكية([1]) وكذلك فإن مدينتي صيدا وبيروت تم تخريبهما([2]) يضاف إلى ذلك مدن صور ويافا([3]).

وفي12 شوال 565هـ/29 نوفمبر1170م وقعت عدة هزات أرضـية عنيفـة" عمـت البلاد.. وأثرها كان بالشام"([4]) ويذكر الصوري أنه" لم تنجُ أي بقعة ضمن المنطقة بأسـرها دون أن تصاب بخسارة في الممتلكات؛ أو بكارثة عائلية فقد امتلأ كل مكان بدلائل الحـزن وجنائز الموتى([5]) ووفقاً لما يذكر الصوري فإن مدينة طرابلس دمـرت بـصورة كاملـة، وتحولت إلى أطلال، وأصبحت المدينة على حد تعبير الصوري" قبراً مشتركاً للسكان"([6]) وقد أشار التطيلي أثناء زيارته لطرابلس إلى الآثار المدمرة لهذا الزلزال حيث ذكر أن الزلـزال أحدث فيها تدميراً كبيراً، وأدى إلى هلاك عدد كبير من اليهود([7]) وذكر أن عدد الذين قتلـوا في هذا الزلزال من سكان فلسطين بلغ عشرين ألفاً([8]) ولكن الصوري المعاصر لوقوع هذا الزلزال أشار إلى أن فلسطين كانت بمنأى عن التأثير بذلك الزلزال([9]) في حين أن مدينـة صور أصيبت بخسائر مادية فقط، ولم تصب بأي خسائر بشرية([10]).

وهكذا نرى أن زلزال سنة565هـ/1170م أحدث آثاراً تدميرية على البنية الـسكانية، والمعمارية سواء في المناطق الإسلامية أو الصليبية؛ بيد أن آثاره في المناطق الصليبية فاق آثاره في المناطق الإسلامية([11]).

وفي شهر شعبان 597هـ/مايو 1201م حدثت زلزلة عنيفة، وتأثرت المناطق الساحلية تأثيراً شديداً من ذلك أن مدن طرابلس وصور وعكـا اسـتولى عليهـا الخـراب([12]) كمـا ضرب الزلزال المدن الداخلية في فلسطين حيث "هدمت مدينة نابلس فلم يبـقَ فيهـا جـدار قائم إلا حارة السمرة" ويقال: أنه قتل بها، وبقراها حوالي ثلاثـون ألفـاً تحـت الـردم([13])

([1]) ابن قاضي شهبه، الكواكب، ص151.

([2]) المصدر نفسه، ص152.

([3]) المصدر نفسه، ص151.

([4]) ابن الأثير، الكامل،ج10، ص24.

([5]) الصوري، تاريخ،ج2، ص947.

([6]) المصدر نفسه،ج2، ص947.

([7]) التطيلي، الرحلة، ص 233،232.

([8]) المصدر نفسه، ص233.

([9]) الصوري، تاريخ،ج2، ص948.

([10]) المصدر نفسه،ج2، ص947.

([11]) الصوري، تاريخ،ج2، ص947، 948. ابن الأثير، الكامل،ج10، ص24.

([12]) ابن الأثير، الكامل،ج10، ص275، 276. أبو شامه، الروضتين،ج5، ص32. أبو المحاسن، النجوم،ج6، ص157.

([13]) ابن الجوزي، مرآة،ج8، ص477، 478. أبو شامه، الروضتين،ج5، ص31، 32. ابن كثير، البداية،ج13، ص29.

وقدر عدد القتلى في جميع المناطق الإسلامية التي، وقع فيها هذا الزلزال بحوالي" ألف ألف ومائة ألف إنسان قتيلاً تحتها"([1]).

وفي عام598هـ/1202م ضرب الزلزال مرة أخرى بلاد الشام، وهدم ما تبقى من مدينة نابلس([2]) وامتدت آثاره التدميرية إلى المناطق الصليبية الساحلية فيذكر فيلكس فابري أن الدمار لحق" بمدينة عكا مع جميع قصورها وأبنيتها الأخرى"([3]) وحل المصير نفسه بالعديد من المدن الأخرى؛ مثل صور وطرابلس([4]) وفي أعقاب هذا الزلزال حدث طاعون حاد، وانتشر سريعاً خلال صيف ذلك العام، وفتك بأرواح ثلث أولئك الذين نجوا من الموت تحت الأنقاض([5]) وذلك كنتيجة طبيعية لعدم قدرة الصليبيين على دفن جثث الموتى بسرعة.

وفي ذي القعدة 608هـ/1212م وقع زلزال شديد في بلاد الشام كان مركزه خليج العقبة، وترك هذا الزلزال آثاراً تدميرية في كل من آيلة والكرك والشوبك([6]).

وفي صفر692هـ/1293م حدثت زلزلة عظيمة كان مركزها البحر الميت، وقد امتد تأثيرها على معظم مدن فلسطين مثل غزة وقاقون والكرك([7]).

هكذا مثلت بلاد الشام خلال عصر الحروب الصليبية، وعلى مدى القرنين (6-7هـ/ 12-13م) منطقة لتركيز النشاط الزلزالي المدمر، وألحقت الزلازل أضراراً جسيمة بالبنية السكانية، ولاشك أن الأرقام المرتفعة للخسائر البشرية التي أوردتها المصادر التاريخية تعكس بصورة أو بأخرى حجم تلك الخسائر البشرية، ويمكن القول: أن مدن حماه وطرابلس وإنطاكية وحلب ونابلس كانت من أكثر المدن الإسلامية، والصليبية وضوحاً في فقدانها لأعداد كبيرة من السكان؛ جراء تلك الهزات الأرضية المدمرة.

- الأوبئة والمجاعات.

نكبت فلسطين بغارات مدمرة من جانب أسراب الجراد، كان لها تأثيرها على الجوانب السياسية والاجتماعية، وشهدت السنوات الأولى من تأسيس المملكة الصليبية كثافة في إغارات أسراب الجراد على فلسطين، وهكذا اجتمع عليهم خطران خطر المسلمين الذين أخذوا على عاتقهم تحرير أراضيهم المغتصبة، والأخطار البيئية المتمثلة في أسراب الجراد.

([1]) ابن الجوزي، مرآة،ج8، ص478. أبو شامة، الروضتين،ج5، ص32. ابن كثير، البداية،ج13، ص29.

([2]) أبو شامه، الروضتين، ج5، ص45.

([3]) فابري، جولات،ج4، ص1155.

([4]) عوض، الزلازل، ص 118.

([5]) المرجع نفسه، ص 117.

([6]) أبو شامه، الروضتين،ج5، ص119. ابن كثير، البداية،ج13، ص63، 64.

([7]) أبو المحاسن، النجوم،ج8، ص31.

كان أول إغارة لأسراب الجـــراد تتعرض لها فلسطين بعد الاحتلال الصليبي مـــا حدث سنة509هـــ/1114م حيث قامت أسراب من الجراد قادمة من شبه الجزيرة العربية باجتياح أراضي القدس في عهد الملك بلدوين الأول خلال شهري أبريل ومايو، ونتج عنهـــا تـــدمير المحصولات الزراعية تدميراً شاملاً([1]).

وبعد ثلاثة أعوام وبالتحديد في شهر مايو عام512هـــ/1117م عاودت الأسراب الهجوم مرة أخرى على مملكة بيت المقدس، ولكن بصورة أكبر مـــن ســـابقتها، ويقـــر الـــشارتري المعاصر لهذه الهجمات؛ بأنها كانت خارجة عن الإحصاء([2]) وهاجمـــت أســـراب الجـــراد المحاصيل الزراعية، والأشجار بأنواعها المختلفة، ووصفت نظراً لكثافتها بأنها كانت أشـــبه بالجيش الجرار المنظم([3]) وذكر الشارتري أن نوعين من الجراد هاجم المملكـــة الأول هـــو الطائر والثاني هو الزاحف([4]).

ويلاحظ أن إغارات أسراب الجراد سواء في المرة الأولى أو الثانية لم ينتج عنهـــا مـــا يمكن وصفه بالمجاعة؛ فلم يرد في نصوص المصادر التاريخية المعاصرة شيء عن هـــذا ؛ مما يعكس أن الآثار الناجمة عن ذلك لم تصل إلى الحدود الخطيرة التي كان من شـــأنها أن تهدد الصليبيين في" أمنهم الغذائي"([5]).

توالت هجمات الجراد على مملكة بيت المقدس الصليبية بعد وقـــف دام قرابـــة ثـــلاث سنوات ليستمر بعد ذلك أربع سنوات إذ أنها تجـــددت عـــام514هـــــ/1120م واســـتمرت حتى518هـــ/1124م ولقد ألقى الضوء على أحداث هذه الهجمة المؤرخ وليم الـــصوري([6]) حيث ذكر أن أسراب الجراد انقـــضت علـــى أمـــلاك الـــصليبيين، وزاد عليهـــا هجمـــات الفئران، واستمر ذلك طول أربعة أعوام، وأدت إلـــى هـــلاك المحاصـــيل بـــصورة كاملـــة "حتى بدا وكأن العالم بأسره سيفتقر إلـــى الخبـــز"([7]) ولاشـــك فـــي أن إغـــارات أســـراب الجراد، والنقص الحاد في مخزون الحبوب؛ قد جعـــل ولـــيم الـــصوري يقـــرر صـــراحة التهديد بخطر المجاعة الذي كان على وشك الوقوع، ويذكر ميخائيل الـــسوري أن المجاعـــة فعلاً قد حلت بالقدس، ويشير إلى دور هيئة فرسان الداويـــة فـــي تقـــديم مـــا لـــديها مـــن مخزون الغلة لمساعدة العامة([8]) ويشير الصوري في سياق ذكره لأحد أسباب عقـــد مجلـــس

([1]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص154.

([2]) المصدر نفسه، ص160.

([3]) المصدر نفسه، ص160.

([4]) المصدر نفسه، ص160.

([5]) عوض، عالم، ص190.

([6]) الصوري، تاريخ،ج1، ص586، 587.

([7]) المصدر نفسه،ج1، ص586.

([8]) ميخائيل السوري، تاريخ، ص122.

نابلس في يوم 19 شوال 513هـ/23يناير1120م أنه جاء" بعد ما أنهكتهم...المجاعة، والهجمات التي شنها العدو"([1]) ولعل هذا ما دفع الملك بلدوين الثاني إلى تقديم امتياز لسكان بيت المقدس، فأمر بإعفائهم من الضرائب التي كانت تُطلب من السكان الذين يقومون باستيراد السلع المختلفة، وتم منح عناصر المسيحيين الشرقيين، وحتى عناصر المسلمين امتياز حرية نقل الحبوب إلى داخل مدينة بيت المقدس بلا ضرائب، وتم إلغاء الضريبة على الأوزان والمكاييل([2]) أي أن الملك بلدوين اتجه إلى تحرير التجارة من أي ضرائب أو رسوم تعوق تدفق السلع إلى المملكة الصليبية، وذلك لمواجهة النقص الحاد في مخزون الحبوب لديها.

مهما يكن من أمر لم تكن إغارات أسراب الجراد لتتوقف خلال تلك المرحلة لأمد بعيد فبعد ثلاث سنوات فقط عادت مرة أخرى وبصورة أشد ضراوة، وذلك عام521هـ/ 1127م حيث أصابت مدن فلسطين وقراها، ووصفت وقتذاك بأنها " أعداد هائلة" "لا تعدُّ ولا تحصى" ومما يعكس ضخامة حجم أسرابه أنها التهمت مؤخرة ثور، وسبعة أكباش، و أحدثت هذه الإغارات دماراً واسعاً في مدينة عكا([3]) وتميزت هذه الإغارات عن إغارات الأعوام السابقة بأنها أدت إلى انتشار الوباء في المنطقة([4]) ومن المحتمل أنها خلفت عدداً من القتلى.

وفي عام547هـ/1152م أغارت أسراب الجراد على بلاد الجزيرة والموصل والشام، وتشير هذه الرواية إلى اتساع النطاق الجغرافي الذي هاجمته أسراب الجراد، وإلى جانب هذا الاتساع الجغرافي أشار الأصفهاني إلى اتساع إغارات الجراد زمنياً بحيث استمرت سبع سنوات([5]) ولا ريب في أن تلك الفترة الزمنية تعد أطول مدة حدثت فيها بالمقارنة بالإغارات السابقة، ويبدو أن هذه الإغارات لم تكن ذات تأثير شامل على فلسطين، إذ أن الأجزاء الجنوبية من فلسطين لم تصب بها([6]).

ومن المرجح أن الظروف القاسية التي مرت بها مملكة بيت المقدس الصليبية كانت من العوامل المهمة التي دفعها نحو مواصلة البحث عن فائض الحبوب الذي وجد في عسقلان التي تمكن الصليبيون من احتلالها في عام548هـ/1153م ويقر وليم الصوري صراحة أن ما وجده الصليبيون فيها من الحبوب قد أعانهم على مواجهة نقص الحبوب الذي أصيبوا به

([1]) الصوري، تاريخ،ج2، 587. وعن مجلس نابلس نظر، عطية، مجلس نابلس، ص37-55

([2]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص189. الصوري، تاريخ،ج1، ص588.

([3]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص 242.

([4]) المصدر نفسه، ص 242.

([5]) الأصفهاني، البستان الجامع، ص356.

([6]) عوض، الزلازل، ص203.

في أعقاب إغارات أسراب الجراد، مع عدم إغفال الأهداف السياسية والعسكرية الأخرى([1]).

ولقد كان ثالوث القحط والمجاعة والوباء دائم التردد على بلاد الشام، ففي سنة517 هـ/1123م "حمل إلى عسقلان [من مصر] ثلاثة وعشرون ألفاً وستمائة وواحد وثلاثون إردباً من الغلال"([2])مما يدل على وشك وقوع القحط بلا شك، ويبدو أن هذا النقص الغذائي، وافق اشتداد إغارات الجراد على المملكة والتي أشرنا إليها مسبقاً.

وفي574هـ/1178م" انقطعت الأمطار كلياً في سائر بلاد الشام والجزيرة..([3])" مما أدى إلى قلة المحاصيل الزراعية، وقلة مياه الشرب، وأدى ذلك إلى نزوح الفلاحين من قراهم حتى فرغت قرى كثيرة من فلسطين وسوريا من سكانها([4]) وارتفعت الأسعار، وأكل الناس الميتة، ونتج عن ذلك حدوث وباء أدى إلى قتل الكثير من الناس "وكان الناس لا يلحقون يدفنون الموتى"([5]).

وفي عام581هـ/1185م وفي الوقت الذي كانت تعاني فيه المملكة الصليبية من أزمة سياسية داخلية([6]) شهدت المملكة قحطاً قاسياً؛ دعا على أثره ريموند صاحب طرابلس، ووصي العرش لعقد اجتماع لمناقشة الأوضاع العسكرية والاقتصادية التي تمر بها المملكة، وخطب بالحضور قائلاً: "أي نصيحة يمكن أن تقدموا إليّ بشان انحباس المطر وتأخر نمو القمح، وأخشى أن يلاحظ المسلمون ما نعاني منه في هذا الموسم الجاف، والصعب، ويتعرفوا على هذا الوضع السيئ فما رأيكم أيها السادة؟"([7]) وانتهى الاجتماع بالموافقة على عقد هدنة مع صلاح الدين لمدة أربع سنوات([8]) معنى ذلك أن المملكة كانت تعاني من ظروف اقتصادية صعبة بسبب قلة الغلات والمحاصيل لانعدام الأمطار مما دفعها إلى عقد صلح مع صلاح الدين مع عدم إهمال الجوانب السياسية والعسكرية والأخرى.

وأفاضت المصادر بذكر المجاعة التي حدثت في منطقة عكا، أثناء الحرب الصليبية الثالثة حيث استشرت المجاعة واستفحلت حتى بلغ ثمن غرارة القمح مائة قطعة ذهبية([9]).

([1]) الصوري، تاريخ،ج2، ص809-825.

([2]) المقريزي، اتعاظ،ج2، ص211.

([3]) ابن الأثير، الكامل،ج10، ص92. أبو شامه، الروضتين،ج3، ص12.

([4]) ميخائيل السوري، تاريخ، ص248، 254.

([5]) ابن الأثير، الكامل،ج10، ص92.

([6]) الصوري، تاريخ،ج2، ص1059، 1060، 1096، 1076. بلدوين، اضمحلال، ص263 – 266.

([7]) مجهول، ذيل، ص262.

([8]) المصدر نفسه، ص262.

([9]) مجهول، الحرب،ج1، ص165. الأصفهاني، الفتح، ص261. وذكر ابن شداد أن سعر الغرارة في إنطاكية بلغ ستة وتسعون ديناراً صورياً. ابن شداد، النوادر، ص107. في حين ذكر المؤرخ الجهول في ذيله أن سعر المكيال الواحد من القمح بلغ ثلاثين بيزنت، ومكيال الطحين بستين وأن البيضة بيعت بأحد عشر دينار. مجهول، ذيل، ص370.

وزادت فظاعة المجاعة يوماً بعد يوم" بسبب انعدام ضـــروريات الحيـــاة "([1]) ونتيجـــة لسقـــوط الأمطار، وتعفن جثث القتلى تفشت الأمـــراض الخطيرة([2]) "وقد قدر عدد المـــوتى في كل يوم بألف ميت"([3]) وأدت هذه المجاعة التي انتشرت بين الصليبيين إلى ترك العديـد منهم معسكرهم، وتوجهوا إلى المعسكر الإسلامي معلنين اعتناقهم للإسلام([4]).

وحين ضربت المجاعة مصر596-597هـ/1200-1201م ووصلت حتى أُكلت الجيف والناس، وصلت آثارها إلى فلسطين([5]) وزاد من الأمر ســـوءا الزلـــزال الـــذي وقـــع فـــي عام597هـ/1201م والذي أشرنا إليه.

ومن سلسلة المجاعات والأوبئة التي حلـــت بفلـــسطين مـــا أشـــارت إليـــه المـــصادر في حوادث سنة672هـ/1277م من حـــدوث وبـــاء فـــي الرملـــة والقـــدس هلـــك علـــى إثره الكثير من الناس([6]).

وكان في حال تضاؤل المحاصيل الزراعية، وتخريـــب الأراضـــي الزراعيـــة بـــسبب الحروب، وكوارث الزلزال والجراد والقحط، وعدم قدرة الفلاحين والمالكين دفع ما علـــيهم من رسوم لأسيادهم، يتم إعفاؤهم منها، ففي سنة559هـ/1163م أجر رئيس دير الرهبان في جبل طابور لمدة خمس وعشرين سنة لأخوين يحملان اسم بطرس كافة الأملاك التي يملكها الدير في مدينة طرابلس وكونتيتها، وكان على المستأجرين أن يدفعا تسعمائة بيزنـــت نقـــداً، وأجرة سنوية مقدراها مائة بيزنت، ولكن كان من المتعين إعفاؤهم من الأجرة في أي فتـــرة بقوم فيها المسلمون بتخريب المحاصيل([7]).

كما أن الحكومات في مثل هذه الظروف تقوم بتوزيع الحبوب والتقاوي على الفلاحـــين وعامة الناس لدفعهم إلى عدم ترك أراضيهم والنزوح منها([8]).

هكذا أدت الكوارث الطبيعية والعوامل المناخية والحروب إلى هدر الكثير من الجهـــود وأزهقت الكثير من القوى البشرية، مع أنها كانت تؤثر في الناس تأثيرات متباينة في شدتها، ومثلت كذلك عاملاً طارداً للسكان بهجر المناطق الريفية، وإفراغ المدن، ونقص الأراضـــي الزراعية، والتذبذب في الخط البياني السكاني، وعدم نموه.

([1]) مجهول، الحرب،ج1، ص166.

([2]) مجهول، الحرب،ج1، ص167. الأصفهاني، الفتح، ص260.

([3]) مجهول، الحرب،ج1، ص168.

([4]) مجهول، الحرب،ج1، ص172. الأصفهاني، الفتح، ص261.

([5]) ابن الأثير، الكامل،ج10، ص 275.؟ أبو شامه، الروضتين،ج5، ص31، 32.

([6]) المقريزي، السلوك،ج2، ص87.

([7]) سميل، الحروب، ص103.

([8]) أبو شامه، الروضتين،ج5، ص31.

الفصـــــــل الرابع

مظاهر الحياة الاجتماعية في المجتمع الفلسطيني في زمن الحروب الصليبية.

أ- العادات والتقاليد.

ب- وسائل التسلية .

ت- النظام القضائي.

ث- التعليم في ظل الحكم الفرنجي الصليبي.

ج- الآثار الاجتماعية للحروب الصليبية:

- **تدميـــــــر المـــــدن.**
- **الانحلال الخلقي وانتشار الرذيلـــة**
- **الفشل في إدارة المجتمع على أساس مدني والتسلط الداخلي**

أ- العادات والتقاليـــــــــد:

تختلف العادات والتقاليد من مكان إلى آخر حسب تنوع البلدان([1]) فإذا كانــت الأقليــة الصليبية الحاكمة قد استطاعت الاحتفاظ بنفوذها السياسي لمدة تقرب من قرنين، فإنهــا لــم تستطع الاحتفاظ بعاداتها وتقاليدها، ونظمها السياسية بدون تغيير، وإنما اضطرت بحكم قلتها العددية في بلاد يعتبر مناخها، وأسلوب حياتها غريباً عليهم، أن تفقد كثيــراً مــن صــفاتها الأصلية، وتكتسب عادات وصفات جديدة متأثرة بنظم الشرق وعاداته([2]).

فالعناصر الإسلامية في فلسطين لم تجد ما يدفعها إلى الاندماج في شــرائح المجتمــع الصليبي، فأخلاق وطبائع الفرنج، وتخلفهم حضارياً لم تكن كلها إلا حواجز أخــرى تمنــع اختلاط المسلمين بهم في مجالات غير العمل، ويعبر عن وجهة النظر الإسلامية تلك أســامه ابن منقذ الذي رفض بشدة أن يضع ابنه تحت رعاية إفرنجي أراد أن يصطحبه إلى غــرب أوربا ليعلمه قواعد الفروسية، وفن القتال، وفضل أسامه أن يقع ابنه في الأسر على الــذهاب إلى بلاد الفرنج "فإن ابني لو أسر ما بلغ به الأسر أكثر من رواحه إلى بلاد الفرنج"([3]) هكذا عبر لنا أسامه بن منقذ بجلاء عن الفوارق الحضارية بين المسلمين، وبين الفرنجة الصليبيين الأمر الذي أوضحه أيضاً في مواضع كثيرة من كتابه، والذي يظهر حقيقة طبــائع وأخــلاق الفرنج، هو ما لمسه المسلمون الذين عايشوا الفرنج في فلسطين، الأمر الذي دفعهم إلى عدم الامتزاج بفئات المجتمع الفرنجي([4]).

ولم يقف تأثر المجتمع الصليبي بالحضارة العربية الإسلامية عند المظاهر المادية، وإنما امتد إلى طبائع الصليبيين، فيوضح أسامه أن المجتمع الصليبي في عصره كان ينقــسم إلــى فئتين الأولى تتألف من الصليبيين القدامى الذين جاءوا في الحملة الصليبية الأولــى أو فــي أعقابها مباشرة، واستقروا في بلاد الشام، وتأثروا بحضارتها، والثانية تتألف من الــصليبيين الجدد الذين جاءوا بعد ذلك بسنوات طويلة، ويوضح أسامه أن هنــاك فروقــاً مهمــة بــين الصليبيين القدامى، والجدد من حيث الفكر والسلوك، فالقــدامى يتــسم فكــرهم بالاعتــدال، وسلوكهم بالمرونة؛ في حين أن فكر الجدد يتميز بالتطرف، وسلوكهم بالقسوة والحماقة، وهذا يعود كما يقول أسامه إلى تأثر القدامى بحضارة الشرق وتقاليده وطباعه؛ في حين أن الجــدد جاءوا يحملون معهم بربرية الغرب وهمجيته، وفي هذا المعنى يقول ابن منقذ: "ومن الإفرنج قوم قد تبلدوا، وعاشروا المسلمين فهم أصلح من القربيي العهد ببلادهم"([5]).

([1]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص228.

([2]) رنسيمان، تاريخ،ج2، ص468.

([3]) ابن منقذ، الاعتبار، ص240.

([4]) عطية، المسلمون، ص21.

([5]) ابن منقذ، الاعتبار، ص246.

ويرى بعض الباحثين أن الخلافات بين البلديين([1]) والوافدين الجدد قد برزت منذ الحملة الصليبية الثانية 542-544هـ/ 1147-1149م ذلك أن الصليبيين البلديين نظروا إلى الصليبيين الجدد كعناصر دخيلة تهدد مصالحهم، وتشككوا في نواياهم، خاصة حينما وجدوا بينهم من أرادوا الاستقرار في الشرق، وتأسيس إمارات خاصة بهم، الأمر الذي تعارض مع مصالح الفرنجة البلديين؛ مما أدى إلى وجود الخلافات بينهم([2]) وترسخت الخلافات بين البلديين والقادمين الجدد مع جي لوزجنان([3]) حيث تم تشكيل حزبين من الوافدين الجدد والبلديين، وأخذ كل حزب يعمل على تثبيت أقدامه وسياسته، وتمثلت صورة الكراهية بين الوافدين الأوربيين الجدد، والبلدين في الأنشودة التي أنشدها الوافدون الجدد في القدس حين تم تعيين غي لوزجنان ملكاً على المملكة الصليبية والتي تقول: "على الرغم من البلديين لدينا ملك من الوافدين" وتُصور هذه الأنشودة انقسام المملكة الصليبية على نفسها([4]).

على أية حال تعرض الصليبيون في فلسطين لظاهرة "التمشرق"([5]) وهي الظاهرة التي عبر عنها الشارتري بقول "إن أولئك الذين كانوا غربيين أصبحوا الآن شرقيين"([6]) إلى آخر النص المشهور، وتناولت المصادر تلك الظاهرة الهامة، التي تبدلت فيها خصائص الصليبيين في الشام، وتحول ميولهم، وأسلوب حياتهم، ودخولهم في علاقات سلمية مع المسلمين، فالصوري ألقى باللائمة على عناصر البلدين، وقرر أن من أسباب ضعف الصليبيين فيما قبل حطين أن "أهالي الشرق" لم يعتادوا الحرب والقتال([7]).

وكان يعقوب الفيتري أكثر نقمة على عناصر البلديين، وحملهم مسؤولية الكوارث التي لحقت بالصليبيين على أيدي المسلمين، وأشار إلى أنهم يعقدون المعاهدات مع المسلمين، وهم سعداء لكونهم في سلام مع أعداء المسيح، وهم سريعي الشجار والتصارع مع بعضهم البعض، ويشعلون الحرب في صفوفهم، وهم يستدعون الأعداء من أجل مناصرتهم ضد المسيحيين، ولا يشعرون بالعار لتبديد قواهم وأموالهم التي ينبغي عليهم استعمالها ضد

([1]) المقصود بهم هم الصليبيون اللذين استقروا وولدوا في فلسطين منذ فترة مبكرة من الوجود الصليبي.

([2]) توفيق، الدبلوماسية، ص90، 91.

([3]) **جي لوزجنان:** وهو ابن هيو من مقاطعة بواتية تزوج سنة 576هـ/1180م من سبيلاً ابنة الملك عموري، وشقيقه الملك بلدوين الرابع. أرملة وليم مونتفرات؛ أقطعه الملك مدينتي عسقلان ويافا عقب زواجه من سبيلا، تولى الوصايا على المملكة وبعد أن اشتد المرض على الملك بلدوين الرابع إلا أنه خلع منها بقرار من المحكمة العليا سنة 579هـ/1183م وفي سنة 582هـ/1187م تم تعيينه ملكاً على بيت المقدس بعد وفاة الملك الطفل، أسره المسلمون في معركة حطين ثم أطلق سراحه بعد فترة وذهب إلى مدينة صور، ثم أقطعه الملك ريتشارد جزيرة قبرص. الصوري،ج2، ص1016، 1059، 1068، 1069. الفيتري، تاريخ، ص151،148. مجهول، الحرب،ج2، ص177.

([4]) مجهول، ذيل، ص300.

([5]) عوض، العلاقات، ص124.

([6]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص218.

([7]) الصوري، تاريخ، ص980،999.

أعدائهم([1]) وعبر الفيتري عن الروح التي سيطرت على الحركة الصليبية خلال القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي بطغيان العامل التجاري فوق العامل الديني حيث يرى أن الأرض المقدسة امتلأت بالوافدين الذين انغمسوا في حياة الترف والمجون وتحولوا إلى لاعبي قمار، وأثروا ثراءً فاحشاً([2]).

وفطن ابن خلدون لهذا التحول الذي يحدث في الدولة بعد حصول الملك فيقول: "فإذا حصل الملك أقصروا عن المتاعب التي كانوا يتكلفونها في طلبه، وآثروا الراحة والسكون والدعة، ورجعوا إلى تحصيل ثمرات الملك من المباني والمساكن والملابس فيبنون القصور، ويغرسون الرياض، ويستأثرون بأحوال الدنيا، ويؤثرون الراحة على المتاعب، ويتأنقون في أحوال الملابس والمطاعم والأبنية والفرش ما استطاعوا"([3]).

عاش الصليبيون في الشرق حياة أقرب إلى الرفاهية على الرغم من استمرار الحروب بينهم وبين المسلمين، فلبسوا الملابس الفاخرة، وتشبهوا بالمسلمين، واهتموا بأدوات الزينة والجواهر الثمينة، واستعمال مختلف أنواع الأثاث الفخمة، وكانت المرأة الصليبية تهتم بزينتها وبارتداء الملابس الحريرية والتحلي بالجواهر، وبمختلف أدوات الزينة([4]) وأورد لنا المؤرخون أخبار باسك دي ريفيري زوجة أحد التجار في نابلس، والتي بلغ من سحرها وحسنها وزينتها التي فاقت الأميرات، أن وقع في غرامها البطريرك هرقل([5]).

واهتم الصليبيون في الشرق بشراء الملابس الثمينة التي تَضفي الفخامة والأبهة عليهم، رغم أن ما اتخذوه من الملابس قد اتخذ إلى حدٍ ما الطابع الشرقي([6]) إذ أن الملابس الشرقية كانت تمتاز بأنها فضفاضة زاهية الألوان موشاة بالحرائر والتطريزات([7]) فالفرنجة الصليبيون استفادوا من المنسوجات الراقية التي عرفها الشرق الإسلامي، فالمنسوجات التي لم تكن متوفرة في أوروبا سوى في بيوت الملوك والأمراء، كانت في المملكة الصليبية، والإمارات الأخرى في متناول الناس جميعاً حتى محدودي الدخل منهم([8]).

وترك لنا ابن جبير أثناء زيارته لمدينة صور، صورة حية لحياة المرأة الإفرنجية، وما توصلت إلى اقتباسه من وسائل التجميل ومظاهر الترف في الملبس فقال "ومن مشاهدة زخارف الدنيا المحدث بها زفاف عروس.. وهي في أبهى زيّ وأفخر لباس تسحب أذيال

([1]) الفيتري، تاريخ، ص105.

([2]) المصدر نفسه، ص135.

([3]) ابن خلدون، تاريخ،ج1، ص177.

([4]) الفيتري، تاريخ، ص99، 105. رنسيمان، تاريخ،ج2، ص509.

([5]) مجهول، ذيل، ص297،298. رنسيمان، تاريخ،ج2، ص509، 510.

([6]) رنسيمان، تاريخ،ج2، ص509.

([7]) النقاش، العلاقات، ص147.

([8]) براور، عالم، ص112.

الحرير سحباً على الهيئة المعهودة من لباسهم، وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفت بشبكة ذهب منسوجة.. وورائها أكفائها ونظراؤها من النصرانيات يتهادين في أنفس الملابس، ويرفلن([1]) في أرفل الحلي"([2]) ويبدو من تحليل هذا المشهد أن تقليد الزفاف كانت استمرارا لما هو سائد في أوربا؛ حقيقة انه من الواضح أن العرس الذي شهده ابن جبير في صور كان عرسا لقوم من الأثرياء على نحو ما يبدو من وصفة للعرس، ولكن يبدو أيضا أن طراز الملابس كان تقليدا للنمط الأوربي.

كذلك تأثرت بعض العناصر الصليبية بسلوك المسلمين الاجتماعي حتى أن منهم من فرض على نسائه أن يرتدين الخمار على وجوههم، ومنعوهن من الخروج إلى الأسواق سافرات، ولم يكن يسمح لهن بالخروج إلا في الأمور الضرورية، وقد وصفهم الفيتري بأنهم غيورون على زوجاتهم، ويراقبونهم على نحو صارم، وأنهم نادراً ما يسمحون لزوجاتهم بالذهاب إلى الكنيسة مرة كل عام، وإن وجد من الأزواج من وافق على خروج زوجته إلى الحمام ثلاث مرات في الأسبوع من خلال مراقبة شديدة([3]) وكانت المرأة الصليبية تضع الحجاب لا على سبيل الوقار والحشمة، بل لوقاية المساحيق التي تغطي وجهها([4]).

وكان الفارس الصليبي يرتدي برنساً من الحرير، ويضع العمامة على رأسه أوقات السلم، كما كان يرتدي فوق درعه سترة من الكتان للوقاية من حرارة الشمس عند الخروج إلى القتال، ويجعل على خوذته كوفية مثل التي يضعها الفارس العربي([5]) ويبدو التأثر بالعادات الإسلامية واضحاً في تصرف الملك هنري دي شمبانيا اتجاه صلاح الدين، حيث أرسل إليه يستعطفه، ويطلب منه خلعه وقال له: "أنت تعلم أن لبس القباء([6]) والشربوش ([7]) عندنا عيب، وأنا ألبسها منك محبة لك، فأنفذ إليه {لصلاح الدين} خلعه سنيه منها القباء والشربوش فلبسهما في عكا"([8]).

ومنع الصليبيون غير الفرنجة من ارتداء الملابس الأوربية الطراز فقد أصدر مجلس نابلس الذي عقد في 514هـ/23 يناير1120م قراراً حرم فيه على المسلمين من الرجال والنساء أن يرتدي أي منهما زياً إفرنجياً وإلا تحول إلى العبودية والرق([9]).

([1]) **يرفلن:** الرفل هو جر الذيل ورقده بالرجل. ابن منظور، لسان،ج11، ص191.

([2]) ابن جبير، الرحلة، ص237.

([3]) الفيتري، تاريخ، ص106.

([4]) رنسيمان، تاريخ،ج2، ص509.

([5]) المرجع نفسه،ج2، ص509.

([6]) **القباء:** هو نوع من الرداء يصل طوله إلى منتصف عضلة الساق. ابن منظور، لسان،ج5، ص72.

([7]) **الشربوش:** هو لباس للرأس كان له المكانة الأولى إذ يُعد بصفة خاصة الطابع المميز لطبقة الأمراء. ماير، الملابس، ص51.

([8]) ابن الأثير، الكامل،ج10، ص214.

([9]) عطية، مجلس نابلس، ص51.

أما البدو فكانوا يرتدون قمصان طويلة، فوقها عباءة واسعة، وغطوا رؤوسهم بقطعة من القماش([1]) وهي أشبه ما تكون بالعمائم، ومن العادات التي شاعت في المجتمع الصليبي أن الفرنجة كانوا مكشوفي الرؤوس، وكانوا الوحيدين من بين جميع الأجناس والشعوب التي استوطنت في الأراضي المحتلة الذين يحلقون لحاهم([2]).

وتأثر الصليبيون بالمسلمين في عاداتهم الخاصة بالاستحمام في الحمامات العامة التي كانت من العادات السائدة بين المسلمين؛ فالحمامات تعتبر من أهم المؤسسات الاجتماعية في الإسلام، وكانت ظاهرة تعدد الحمامات في العصور الإسلامية واضحة، فللحمام في العمارة الإسلامية مكانة خاصة، وعادة الاستحمام من العادات الهامة في المجتمع الإسلامي؛ لأنها مظهر من مظاهر الطهارة، والنظافة التي يحض عليها الإسلام، وروعي في تخطيط تلك الحمامات أن تحتوي على ثلاث قاعات أو بيوت، فالبيت الأول مبرد مرطب يخلع فيه المرء ملابسه، والثاني مسخن مرخٍّ(بيت الحرارة) والبيت الثالث مسخّن مجفّف([3]) والمقصود بهذا التقسيم التدرج في درجة الحرارة حتى لا يتعرض الشخص للمرض، من انتقاله فجأة من الجو البارد إلى الحار وبالعكس.

وكان في كل حمام موظفون يقومون على خدمة المستحمين، وتنظيف الحمام، ويستعملون البخور في اليوم مرتين كي تبقى رائحتها ذكية؛ كما يراعى عدم دخول المرضى هذه الحمامات كالمجذوم والأبرص، وكان على كل مستحم أن يغطي عورته بمئزر خاص([4])

ووجدت في المدن الفلسطينية حمامات كثيرة قبل استيلاء الصليبيين عليها، فقد أشار المقدسي إلى أن مدينة طبرية كان بها ثمان حمامات([5]) ووصف مدينة الرمة بأنها "ذات فنادق رشيقة، وحمامات أنيقة"([6]) وعدد الإدريسي الذي زار مدينة طبرية أثناء فترة الحروب الصليبية أربع حمامات في مدينة طبرية فذكر من بينها حمام الدماقر، وحمام اللؤلؤ، وحمام المنجدة([7]) كما وجد في مدينة القدس العديد من الحمامات منها حمام العين، وحمام الشفا، وحمام علاء الدين، وحمام البطريرك الكائن في حارة النصارى، وحمام السوق الكائن في سوق العطارين([8]).

واستمرت عادة الذهاب إلى الحمامات العامة والاستحمام بها أثناء الاحتلال الصليبي

([1]) بورشارد، وصف، ص174.

([2]) مجهول، وصف، ص36. ابن شداد، النوادر، ص198.

([3]) ابن الأخوة، معالم القربة، ص166.

([4]) المصدر نفسه، ص167.

([5]) المقدسي، أحسن، ص171.

([6]) المصدر نفسه، ص143.

([7]) الإدريسي، نزهة، ص251.

([8]) غوانمة، تاريخ نيابة، ص138،137.

وبعده، إذ صار من عادة الرجال والنساء الفرنجيات التردد على تلك الحمامـــات([1]) وكانـــت ممارستهم تثير الدهشة والاشمئزاز، إذ كانوا ينكرون شد المئزر على وسط الرجل أو المرأة داخل الحمام، ولم يكونوا يزيلوا شعر العانة، لذلك استغرب أحدهم من مسلم أزال شعر عانته فطلب إلى الحلاق أن يزيل له شعر عانته، وأحضر زوجته عند الحلاق كي يزيل لها شـــعر عانتها، وبعد أن أنهى عمله شكره، ووهب له حق خدمته([2]).

ومن العادات التي كانت سائدة بين الصليبيين في الأراضي المحتلة اخـــتلاط الرجـــال والنساء دون أن يكون لديهم أي إحساس بالغيرة نحو بناتهم وزوجاتهم، ولا شـــك أن هـــذه العادة تتنافى مع العادات والتقاليد الإسلامية، ولهذا فقـــد اســـتنكرها المـــسلمون، ووصـــف لنا الرحالة ابن جبير الذي زار فلسطين وبـــلاد الـــشام 580هــــ/1184م عـــادة اخـــتلاط الرجال والنساء بين الصليبيين أثناء حضوره إحدى حفلات الزفاف الـــصليبية فـــي مدينـــة صور، إذ وقف الرجال والنساء في صفين عند باب العـــروس وأخـــذت الآلات الموســـيقية تعزف في حضرة العروس؛ حتى خرجت من بيت أبيهـــا بـــين رجلـــين أحـــدهما يمـــسكها من اليمين، والآخر من الشمال، وأشار ابن جبير إلـــى أن مختلـــف النـــصارى والمـــسلمين كانوا يشاهدون حفلة الزفاف، ولا ينكرون ذلك بل على العكس كانوا ينظرون إلـــى النـــساء المشاركات في الحفلة، وقد استنكر ابن جبير بدوره اختلاط الرجال بالنساء واســـتعاذ بـــالله من ذلك([3]) وليس من المستغرب في الوقت ذاته أن تكون بعض العادات والتقاليـــد الـــسائدة بين الفرنجة؛ قد انعكست آثارها أيضاً على سكان الأراضي المقدسة بخاصـــة قيـــام بعـــض نساء المسلمين بتقليد نساء الفرنجة في لباسهن، وحفلات الزواج المختلطة.

وتحدث أسامه بن منقذ الذي زار مختلف المدن، والبلاد الخاضعة للحكم الصليبي عـــن الاختلاط بين الرجال والنساء، ووصفهم بأنهم لم يكن لـــديهم "غيـــرة ولا نخـــوة"([4]) إذ أن الرجل منهم يكون سائراً هو وزوجته في الشارع فيلقاه رجل آخر "يأخـــذ المـــرأة ويعتـــزل بها، ويتحدث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحـــديث فـــإذا طولـــت عليـــه خلاها مع المتحدث ومضى"([5]).

ويحدثنا أسامه كذلك عن قصة جرت وقائعها في مدينة نابلس توضح عدم الغيرة عنـــد الصليبيين، وتعكس جانباً من حياتهم الاجتماعية تدور هذه الحداثة حول أحد تجار النبيذ فـــي مدينة نابلس الذي رجع إلى بيته فوجد رجلاً مع امرأته في الفراش فقال له" أي شيء أدخلك

([1]) الفيتري، تاريخ، ص106. براور، عالم، ص112.

([2]) ابن منقذ، الاعتبار، ص243.

([3]) ابن جبير، الرحلة، ص237.

([4]) ابن منقذ، الاعتبار، ص243

([5]) المصدر نفسه، ص242.

إلى عند امرأتي فقال: كنت تعبان دخلت أستريح قال: فكيف دخلت إلى فراشي قال: وجــدت فراشاً مفروشاً نمت فيه، قال: والمرأة نائمة معك؛ قال: الفراش لها ما كنت أقدر أمنعها مــن فراشها قال: وحق ديني إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت"([1]) ولا شك أن هذه القــصة تثير الدهشة والاستغراب عند سماعها؛ لأنها تتنافى مع التعاليم الإسلامية، والأخلاق الشرقية التي تتمسك بالفضيلة والشرف، وقد علق أسامه بن منقذ على موقف تاجر النبيذ بقوله: "فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته"([2]).

وأخذ الفرنجة الصليبيون على المسلمين عاداتهم في الاحتفال بالأعياد، وحفلات اللهــو، وقد استعانوا بجوقات الطرب، وما صاحبها من آلات موسيقية مثــل الأرغــن، والمزمــار، والعود، والقيثارة، والربابة إلى غير ذلك، واستعانوا بالمغنيات في أفراحهم([3]) كما أحضروا الندابات في أحزانهم، ومآتمهم([4]).

كما تأثر الصليبيون في فلسطين بالعادات المتعلقة بالأطعمة؛ فذكر المقدسي أن ســكان نابلس وبيت المقدس يخبزون الأرغفة على الحصى في الأفران التي توقد بروث الحيوانات، كما أنهم كانوا يطبخون العدس والبيسارة "ويقلون الفول المنبوت بالزيت ويسلقونه، ويباع مع الزيتون، ويملحون الترمس ويكثرون من أكله ويصنعون من الخروب ناطفاً يسمونه القبَّيط، ويسمون ما يتخذون من السكر ناطفاً، ويصنعون زلابية في الشتاء من العجين غير مشكلة"([5]) ولعل هذا القول يوضح أسلوب الحياة المعيشية لسكان فلسطين قبل استيلاء الصليبيين عليها، ومن المرجح أن هذا النمط المعيشي، ظل سائداً في فلــسطين أثنــاء خــضوعها للــسيطرة الصليبية، ولابد أن الصليبيين الذين استقروا في الأراضي المحتلة قد تــأثروا بــبعض هــذه العادات، ويذكر باحث محدث أن مواقد النار كانت شائعة في منازل العامــة فــي المملكــة الصليبية، وقد خدم هذا الموقد عائلة واحدة؛ استفادت منه، وطبخت طعامها عليه؛ كما استخدم الصليبيون الملاعق، والقلايات، ومناخل الطحين، والمغارف، وكلابات اللحوم، وأوعية لحفظ البهارات والتوابل، وجميع أنواع المخللات، ومطاحن صغيرة للفلفل، وغيرها مــن الأوانــي اللازمة للطهي، وصنع الطعام([6]).

وبوجه عام يمكن القول: أن الفرنجة الصليبيين أحبوا الطعام العربي، فألفوه وأقبلوا عليه لذلك نجدهم يقبلون على التوابل والمشهيات، ومختلف أنواع التوابل والبهارات في موائــدهم

([1]) ا ابن منقذ، الاعتبار، ص243.

([2]) المصدر نفسه، ص243.

([3]) النقاش، العلاقات، ص148.

([4]) المرجع نفسه، ص148.

([5]) المقدسي، أحسن، ص157، 158.

([6]) Benvenisti, M., Op, cit., PP. 374, 375

الغذائية([1]) كما عرف الفرنجة صناعة المخللات التي كانــت تقــدم مــع وجبــات الــدجاج والسمك والأطعمة الأخرى([2]) وأخذوا عن السكان المحليين استخدام زيــت الزيتــون فــي طهي الطعام بدلاً من استخدام الزبد ودهن الخنزير([3]) حيــث كــان إنتــاج الزيتــون فــي المناطق المحتلة وفيراً([4]) ولا يقل شأنهم من ذلــك فــي المــشروبات، فاصــطنعوا منهــا المعطرة والمثلجة والمحلاة([5]).

واستخدم الفرنج النساء المسلمات في العمل في منازلهم فيخبرنا الشارتري بأن الفــرنج عندما استولوا على مدينة قيسارية في عام 499هـ/1101م قد أبقوا علــى حيــاة النــساء المسلمات لإدارة الطواحين([6]) والعمل في بيوت الصليبيين كطباخات وخدم، ويحدثنا أســامه ابن منقذ عن صديق له دُعي إلى مائدة أحد الفرسان من إفرنج أنطاكية، قدامى العهد بــبلاد الشام، ولما رأى الفرنجي صديق أسامه متوقفاً عن تناول الطعام طمأنه قــائلاً "كــل طيــب النفس؛ فأنا ما آكل من طعام الإفرنج، ولي طباخات مصريات ما آكل إلا من طبــيخهن، ولا يدخل داري لحم خنزير"([7]).

واتبع الصليبيون في بناء بيوتهم وقصور الملوك والأمراء الطراز العربي فــي البنــاء المتلائم مع ظروف البلاد وأجوائها، واتخذ الصليبيون لبيوتهم وقصورهم من الأثاث ما يتفق مع الروح الشرقية، واستعملوا الزجاج على نوافذهم والفسيفساء على أرضيات الحجر([8]).

أما بخصوص اللغات التي تكلم بها سكان المملكة الصليبية فهي متباينة تبــاين الفئــات السكانية التي عاشت على تلك الأرض، وألمح فوشيه إلى ذلك بقوله: "ويلجــأ النــاس إلــى استعمال التعابير والبيان من لغات شتى في التحادث فيما بينهم؛ فأصبحت الكلمات من اللغات المختلفة ملكية مشتركة تعرفها كل أمة"([9]) وهذا الأمر يبين أن معرفة الفرنجــة الــصليبيين باللغة العربية كانت حاجة تتطلبها ظروف الحياة الجديدة في الأراضي المحتلة.

على أن اللغة العربية كانت هي اللغة الأكثر انتشاراً بين سكان المملكة الــصليبية بحكــم أن الأغلبية الساحقة من السكان كانت من العرب المسلمين وهؤلاء تحدثوا باللغة العربيــة([10]).

([1]) براور، الاستيطان، ص617.

([2]) بورشارد، وصف، ص169.

([3]) براور، الاستيطان، ص618.

([4]) دانيال، وصف، ص92.

([5]) براور، الاستيطان، ص618.

([6]) الشارتري، تاريخ، ص115.

([7]) ابن منقذ، الاعتبار، ص246.

([8]) براور، عالم، ص108، 109. النقاش، العلاقات، ص146. قاسم، بعض مظاهر، ص392.

([9]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص218.

([10]) رنسيمان، تاريخ،ج2، ص472. كاهن، الشرق، ص218.

وإلى جانب اللغة العربية وجدت اللغة العبرانية والسريانية، وهذه اللغات كانت منتشرة بين أهل الذمة من العرب([1]) إلا أنهما أخذتا في التراجع حتى اختفتا نهائياً في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي([2]) وكان من مظاهر تأثرهم تعلم الكثير من نبلائهم وساستهم وتجارهم اللغة العربية وتحدثوا بها، بل أن فئة منهم شغفت بدراسة الأدب العربي والتاريخ مثال رينالد سيد صيدا Reynold Garnier حيث ذكر ابن واصل بأنه كان يتصف بالمكر والدهاء، وأنه من كبار الفرنج وعقلائهم، و كان عارفاً بالعربية وعنده إطلاع على شيء من التواريخ([3])، وكذلك ريموند الثالث Raymond III([4]) كونت طرابلس وطبرية الذي أتقن العربية وتكلم الفصحى وكتبها، ودرس حياة المسلمين وأساليبهم وانكب على المطالعة([5]).

أما بالنسبة للمستوطنين الصليبيين فكانت لغاتهم مختلفة، وبما أن معظم سكان المملكة ينتمون للأصل الفرنسي فقد سادت بينهم لغة شمال فرنسا "Langue el oil"([6]) ويذكر أحد الباحثين أن عدد الطبقة العليا من المتحدثين بالفرنسية في مملكة بيت المقدس زمن فولك لانجو بلغ نحو(2.500–3.000) شخص من بينهم النساء والأطفال، بينما كان هناك ألف شخص(1.000) يعملون كحراس لبيت المقدس، وكان رقباء الشرطة والبالغ عددهم من (10.000– 15.000) شخص بينهم النساء والأطفال يتحدثون بالفرنسية بالإضافة إلى (2.000) شخص أو أكثر من الإيطاليين إلى جانب بعض السكان المحليين([7]).

وكانت اللغة الألمانية قليلة الانتشار والاستعمال لتضاؤل دور الألمان في المجتمع الصليبي في بلاد الشام([8]) وكذلك انتشرت اللغة اللاتينية وكثر استخدامها في القدس، وعكا وكانت هي اللغة المستخدمة في الكنائس وفي تدوين المدونات التاريخية والقانونية([9]).

ويعلق كاهن على ذلك المزيج من اللغة بقوله: إن اللغة التي بقيت مستخدمة بين السكان المحليين هي اللغة العربية، وأن اللغة الفرنسية واللاتينية لم تترك "تأثيراً كبيراً

([1]) الفيتري، تاريخ، ص110، 118. ابن عماد الحنبلي، شذرات،ج1، ص93.

([2]) ماير، تاريخ، ص131.

([3]) ابن واصل، مفرج،ج2، ص282.

([4]) **ريموند الثالث:** وهو كونت طرابلس، وهو ابن ريموند الثاني من زوجته هودرينا ابنة الملك بلدوين الثاني، وكان ريموند الثالث ابن خال الملكين عموري وبلدوين حيث كانت سيسيليا جدته من ناحية والده، أختا للملك فولك لانجو والد الملكين المذكورين، تزوج من إشيفا أرملة ولتر صاحب طبرية، أصبح ريموند الثالث وصياً على الملك بلدوين الرابع بقرار من المحكمة العليا حتى يبلغ الملك بلدوين الخامس السن القانونية. الصوري، تاريخ،ج2، ص976، 977، 1069. مجهول، ذيل، ص260،258.

([5]) الدويكات، إقطاعية طبرية، ص310.

([6]) رنسيمان، تاريخ،ج2، ص470.

([7]) Kerr, D. The Crusade , P.135 . نقلاً عن سرور، الأوضاع الداخلية، ص153، هـ21.

([8]) الفيتري، تاريخ، ص94، 95.

([9]) كاهن، الشرق، ص218.

على السكان المحليين"([1]).

هكذا تعرضت عادات الفرنجة الصليبيين عقب الاستيطان الصليبي في فلسطين للتعديل الذي جاء نتيجة الحياة اليومية والسلمية التي ارتضاها الجانبان خلال فترة الحروب الصليبية.

و تتخذ الأعياد الدينية مظهراً اجتماعياً يكشف عن خطوط عامة في الحياة الاجتماعية، ويرى الباحث أن الاحتفالات بالأعياد الدينية؛ مثل الفطر وعيد الأضحى؛ لم يكن يختلف كثيراً عن الاحتفالات في باقي بلاد الشام ومصر، وربما كان هذا راجعاً إلى حقيقة أن مصر وبلاد الشام كانت على اتصال دائم طوال تاريخهما الطويل، ومنذ الفتح كانت العناصر الثقافية في حال من الامتزاج والتفاعل بسبب عمليات النزوح السكاني المستمر بين البلدين.

أول هذه الأعياد عيد بداية السنة الهجرية الذي تمثلت مظاهر الاحتفال به في خروج موكب السلطان؛ أو نائبة، وفي هذا الاحتفال توزع الأطعمة والحلوى، ويتم سك عملات خاصة بهذه المناسبة في بعض الأحيان([2]).

أما يوم عاشوراء فهو يوم ذو مغزى خاص ومناسبة حزينة بالنسبة للشيعة الذين تواجدوا في بعض المدن([3]) وفي العصر الفاطمي كان نائب الخليفة يمد "سماط الحزن" وهي مائدة تتكون من طعام مثل العدس، والملوحات، والفطير، والمخللات، والعسل، وعند الظهر يدخل الناس لتناول الطعام، وبعد الفراغ منه يبدأون في النواح حتى صلاة العصر، وفي هذا اليوم أيضاً تعطل الأسواق وتغلق الحوانيت في البلاد حتى صلاة العصر، وحين دانت بلاد المناطق المحررة لحكم الأيوبيين؛ الذين واصلوا سياسة إعادة المذهب السني في الشام ومصر تحول يوم عاشوراء في المناطق السنية إلى مناسبة سارة ينفق فيها الناس أموالاً كثيرة لإدخال السرور على أهلهم وعيالهم، وفي هذا اليوم كانت تصنع الحلوى، وتكتحل النساء، وتستخدمن الأواني الجديدة، ويذهب الجميع إلي الحمامات([4]) وقد استمر الاحتفال بيوم عاشوراء في المناطق الشيعية باعتباره مناسبة حزن.

وثمة عيد آخر للشيعة هو "عيد الغدير"([5]) الذي يبدأ الاحتفال به في 18ذي الحجة سنوياً، ويتم إحياء الليلة الأولى من هذا العيد بالصلاة، وفي صبيحة العيد يصلي الشيعة ركعتين، ويرتدون الملابس الجديدة، ويتصدقون ويكثرون من عمل الخير ثم ينحرون عدداً كبيراً من الذبائح([6]).

([1]) كاهن، الشرق، ص218.

([2]) المقريزي، الخطط،ج2، ص348.

([3]) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص153.

([4]) المقريزي، الخطط،ح2، ص348،349.

([5]) **عيد الغدير**: يذكر أن النبي عليه السلام لما رجع من حجة الوداع نزل بغدير خم في سنة8 ذي الحجة 10هـ. وآخى بين الصحابة ولم يؤاخِ بين عليٍّ فرأى منه انكساراً فقال:" أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي والتفت إلى أصحابه وقال:من كنت مولاه فغلي مولاة اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه".القلقشندي، صبح،ج2، ص445.

([6]) القلقشندي، صبح،ج2، ص445.المقريزي، الخطط،ج2، ص116-121.

وكانت أهم احتفالات المسلمين وأعيادهم تتركز حول شهر رمضان وإحياء لياليــه ثــم الاحتفال بعيد الفطر في نهاية شهر رمضان، ويأتي بعد ذلك الاحتفال بعيد الأضحى المبارك ويبدأ الاحتفال بشهر رمضان باستطلاع هلال الشهر الجديد، وقد شهد الرحالة ابن بطوطــة الاحتفال بهذه المناسبة ووصفه وصفاً دقيقاً فقال " وعادتهم أن يجتمع فقهاء المدينة ووجهائها بعد العصر من اليوم 29 لشعبان بدار القاضي، ويقف على الباب نقيب المتعممين، وهــو ذو شارة وهيئة حسنة فإذا أتى احد الفقهاء أو احد الوجوه تلقاه ذلك النقيب، ومشى بين يديه ..... فإذا تكاملوا هناك ركبوا جميعاً وتبعهم جميع من بالمدينة من الرجال والنــساء والــصبيان، وينتهون إلى موضع مرتفع خارج المدينة، وهو مرتقب الهلال عندهم ...... فيرقبون الهلال ثم يعودون إلى المدينة بعد صلاة المغرب، وبين أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس ويوقــد أهل الحوانيت بحوانيتهم الشمع، ويصل الناس مع القاضي إلى داره ثم ينــصرفون "([1]) ولا شك في أن الصورة التي ترسمها كلمات ابن بطوطة لاحتفال الناس برؤيــة هــلال شــهر رمضان كانت تتكرر في جميع أنحاء البلاد، وإذا كانت ثمة اختلافات طفيفة فان الشكل العام للاحتفال كان واحداً.

وفي أثناء الشهر كانت الشموع الضخمة التي عرفت باسم "الشموع الموكبيــة" والتــي قد تصل الواحدة منها إلى قنطار وزناً تجر على عجلات، ويحــيط بهــا الأولاد ويطوفــون بها في شوارع المدينة وطرقاتها، وهم في الطريق إلــى صــلاة التــراويح، وكــذلك كــان الأطفال يحملون فوانيسهم الصغيرة، وهم يهزجون بأغنياتهم ويدقون أبــواب المنــازل فــي منطقتهم ليعطيهم الناس الحلوى([2]) والى جانب ذلك كانت موائد الناس ساعة الإفطار تحفــل بوفرة الأطعمة، والحلوى([3]).

وفي نهاية شهر رمضان يتم الاستعداد لاستقبال عيد الفطر المبارك إذ يــوزع الملــوك الأيوبيون وكبار المسؤولين الكسوة والهدايا على أفراد المجتمع الخاصة والعامــة، ويحتفــل بإفطار أخر يوم من شهر رمضان المبارك بإقامة الموائد التي يدعى إليها عامــة المجتمــع احتفالاً بانقضاء شهر رمضان، واستعداداً للاحتفال بعيد الفطر([4])

ولم يكن الاحتفال بالعيدين يختلف كثيراً عنه في أيامنا الحالية ففي أول أيام عيد الفطــر يخرج الناس لصلاة العيد، وبعدها يتوجهون لزيارة القبور، وفي نهار العيد تعم مظاهر الفرح ويجد الأطفال في نهارهم كثيراً من وسائل التسلية والمرح، أما عيد الأضحى، فيبدأ بالصلاة

([1]) ابــن بطوطــة، نزهــة، ص19.كــان ابــن بطوطــة قــد شــهد مظــاهر هــذا الاحتفــال فــي مدينــة أبيــار إحــدى مناطق المحلة الكبرى بمصر

([2]) المقريزي، الخطط،ج2، ص584. رمضان، المجتمع، ص245.

([3]) ابن جبير، الرحلة، ص97.

([4]) ابن واصل، مفرج،ج4، ص228.

وذبح الأضحية، ويفرق الناس الصدقات ثم يبدأ تزاورهم واحتفالهم بالعيد([1]).

ولفت انتباه ابن جبير تعظيم أهل الشام للحجاج، وخروج الناس لتلقي قوافل الحجيج مع الكرم الكبير الذي اتسم به أهل الشام في المدن والأرياف فهم كانوا يكرمون الغرباء([2]).

كذلك كانت هناك عدة احتفالات ذات طابع اجتماعي، منها ما يتصل بالأسرة : مثل الزواج، والإنجاب، والختان، ودخول الأطفال إلى مكاتب الدراسة، والموت....وما إلى ذلك.

وكانت سن الزواج للبنت تتراوح بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين، وفي مجتمع لم يكن يسمح بالاختلاط كانت "الخاطبة" تلعب دوراً حيوياً في إتمام الزيجات، نظراً لمعرفتها ببنات العائلات، وفي بعض الأحيان يقع الرجل ضحية لخداع الخاطبة التي سعت لزواجه([3]).

وعادةً ما كانت نساء أسرة المستقبل تكثرن من التردد على منزل الفتاة المرشحة للزواج، بقصد التعرف عليها، واكتشاف محاسنها، واختبار مهاراتها في إدارة شؤون المنزل، ثم يذهبن معها إلى الحمام لرؤية جسمها وشعرها وشم رائحة فمها وعرقها وتحت إبطها. وتنتهي مهمة النساء بنقل انطباعاتهن إلى الراغب في الزواج وعميد العائلة([4]).

وتتم الخطوبة بتشكيل مجموعة من الرجال، على رأسهم عميد أسرة الخاطب، يتوجهون لخطبة البنت من أهلها، ومعهم بعض معارف أسرة البنت، وتتم قراءة الفاتحة بعد الاتفاق على المهر أما عند القران، فكان يتم في مسجد القرية أو المسجد الجامع في المدينة. وبعد عقد القران ينتقل الجميع إلى منزل العروس حيث يقام حفل يتناسب مع المستوى الاقتصادي للعائلة، وفي كل الأحوال، كانت أكواب الشراب الحلو، والحلوى توزع على المدعوين الذين يستمتعون بالموسيقى والغناء([5]).

وكان على أسرة العروس أن تجهز أثاث منزل الزوجية([6]) الذي ينقل في موكب بهيج تصحبه الموسيقى ويتقدمه الراقصون بالسيوف والعصي، وتسبق ليلة الزفاف ليلة عرفت "بليلة النقش" أي نقش قدمي العروس ويديها بالحناء ويتم إحياء هذه الليلة أيضاً بالموسيقى والغناء، وفي ليلة الزفاف يستكمل العريس زينته في منزل احد أصدقائه، ثم يتوجه إلى منزله يتهادى بين شابين من رفاقه، ومع أنغام الموسيقى، وعلى ضوء المصابيح الضخمة، يتقدم المنشدون الموكب حتى منزل العروس التي يأخذ زوجها يدها، ويدخلان إلى غرفتهما([7]).

([1]) ابن بطوطة، نزهة، ص52،124.المقريزي، الخطط،ج2، ص225-229.

([2]) ابن جبير، الرحلة، ص223.

([3]) قاسم، بعض مظاهر، ص387.

([4]) رمضان، المجتمع، ص249-251.

([5]) المرجع نفسه، ص249-251.

([6]) ابن بطوطة، رحلة، ص38.

([7]) إبراهيم، الحياة، ص185-188.

وفي صبيحة يوم الزفاف يتوجه الزوج إلى الحمام العام برفقة عدد من أصدقائه، وعلى مدى عدة أيام يكون ضيف الشرف على موائد أصدقائه فيما عرف في مصطلح ذلك الزمان باسم (الصباحيات) وبعد أسبوعين من الزواج يقيم أهل الزوجة وليمة فاخرة بكل أطايب الطعام([1]).

أما في الريف، فان مظاهر الاحتفال كانت تتواضع عنها في المدينة كما كان على الخاطب أن يقدم المهر إلى صهره قبل عقد القران، وبعد عقد القران كان أهل القرية يسارعون بتقديم الألطاف (النقوط) إلى العروسين أو إلى والديهما، وفي أثناء موكب العروس في دروب القرية يلقي عليهما الناس الزهور ومن المهم أن نشير إلى أن القرويين من المسلمين والمسيحيين في بلاد الشام كانوا يتضامنون في هذه المناسبات، ويحاول كل طرف أن يقدم خدماته للطرف الآخر في هذه المناسبة([2]).

وبالنسبة للبدو كان الزواج وسيلة لراحة الرجل، ويقول احد الباحثين أن ثراء البدوي في بلاد الشام آنذاك، كان يحسب بعدد زوجاته وبناته اللاتي كن يتولين رعي الغنم والجمال، وجمع الأحطاب، وزراعة الأرض أحيانا، فضلاً عن الأعمال المنزلية ونسج ملابس العائلة([3]).

كانت المناسبة التي تلي الزواج في الأهمية، استقبال مولود في الأسرة، وكانت مهمة التوليد قاصرة على النساء([4]) وتقوم بها القابلة فإذا كان المولود ذكراً صلت القابلة على النبي، وإذا كانت بنتاً ترضت على فاطمة الزهراء، ثم يتناول الطفل بعد ذلك احد أقربائه المشهود لهم بالتدين والتقوى لكي يؤذن في أذنه الآذان الشرعي، ويعقب ذلك اختيار اسم المولود، وإذا كان ذكراً تضاعف فرح أهله به([5]).

وتتلقى أم المولود طوال أسبوع هدايا كثيرة من أصناف الحلوى والسكر، وفي اليوم السابع يقام احتفال كبير، وغالباً ما يكون المطربون يقدمون أغنياتهم للرجال في مكان خاص بهم، على حين تقوم المغنيات والراقصات بتقديم فنونهن في المكان المخصص للنساء، وقد جرت العادة على تقديم الألطاف (النقوط) لوالدي الطفل، وهي متنوعة ما بين الملابس والحلي الذهبية والمأكولات. وبعد نهاية مدة النفاس تتوجه الأم إلى الحمام بصحبة عدد من النساء المقربات حيث تغتسل وترتدي الملابس المعينة الخاصة بهذه المناسبة([6]).

وفي اليوم السابع أيضا يتم ختان الطفل في بعض الأحيان، ولكن بعض الناس كانوا

([1]) قاسم، بعض مظاهر، ص388.

([2]) المرجع نفسه، ص388.

([3])المرجع نفسه، ص388.

([4]) رمضان، المجتمع، ص271. زعرور الحياة، ، ص276،277..

([5]) قاسم، بعض مظاهر، ص388،389.

([6]) رمضان، المجتمع، ص250.

يؤجلون الختان إلى سن الخامسة تقريباً، ويدعى إلى الحفل الأصدقاء والأقارب الذين تمد لهم مائدة خاصة، وتتم زفة الطفل على حصان صغير الحجم سريع الحركة (بـرذون) ويرتـدي الطفل ثياباً جميلة، ووراءه على نفس الدابة شخص هو العريف، ويطوف الموكب، الذي يضم بعض الصوفية، والذي يتناسب حجمه مع مقتضى الحال إلى شوارع الحي في المدينـة، أو دروب القرية، وفي النهاية يعودون إلى منزل الطفل حيث يقوم احد المنشدين بإنشاد قـصة المولد النبوي، وعندئذ يتم ختان الطفل، ويقدم المدعوون نقوطهم من السمن والأرز والطيور والغلال والأغنام حسب قدرة المدعوين، ومكانة أهل الطفل في المجتمع، وكان من الواجـب على أهل الطفل رد الهدايا في المناسبات المماثلة([1]).

أما المآتم والأحزان، فيبدو أن كثرة الحروب والمنازعات التي عانت منها بـلاد الـشام في عصر الحروب الصليبية، والذي دام قرابة قرنين من الزمـان، جعلـت الحـزن علـى الموتى في نفوس الناس أمراً عابراً، وقد وصف لنـا ابـن جبيـر تراتيـب أهـل دمـشق في جنازاتهم فقال: "ولأهل دمشق وغيرها من هذه الـبلاد فـي جنـائزهم رتبـة عجيبـة، وذلـك أنهـم يمـشون أمـام الجنـازة بقـراء يقـرأون القـرآن بأصـوات شـجية، وتلاحين مبكية....وجنائزهم في الجامع قبالة المقصورة .... فإذا انتهوا إلـى بابـه قطعـوا القراءة ودخلوا إلى موضع الصلاة عليها... وربمـا اجتمعـوا للعـزاء بـالبلاط الغربـي من الصحن ... ويجلسون أمامهم ربعات من القرآن يقرؤونها، ونقبـاء الجنـائز يرفعـون أصواتهم بالنداء لكل واصل للعزاء من محتشمي البلدة وأعيانهم..." ([2]) ويتم العزاء بعد الدفن في منزل عميد الأسرة، ويستمر ثلاثة أيام، وفـي اليـوم الـسابع وفـي اليـوم الأربعـين يتم إحياء ذكرى الميت بقراءة القرآن وتوزيع الصدقات([3]).

أما في الريف فكانت روح التضامن أكثر وضوحاً، ففي الليالي الثلاث الأولـى عقـب الوفاة يجتمع الرجال في مسجد القرية يكررون كلمة التوحيد وهم يعدون حبات مسبحة كبيرة تظم خمسمائة حبة فإذا اكتملت بدأوا في قراءة القرآن؛ كذلك كانت مآتم النصارى تتشابه في شكلها الاجتماعي مع مآتم المسلمين على الرغم من اختلاف طقوسها بحكم اخـتلاف الـدين وفي القرى كان النواح على الميت أمرا ضرورياً، ولكنه كان قاصراً على النساء لان بكـاء الرجل كان مسبة وعاراً في تقدير أهل الشام([4]).

ولـم يرض ابن جبير بعض ما شاهده مـن عادات أهل الشام، ذلك أنهم كانوا "يمشون

([1]) رمضان، المجتمع، ص250.

([2]) ابن جبير، رحلة، ص229.

([3]) قاسم، بعض مظاهر، ص389.

([4]) رمضان، المجتمع، ص211.

وأيديهم إلى خلف قابضين بالواحدة على الأخرى، ويركعون للسلام على تلك الحالة المشبهة بأحوال العناة{الأسرى} مهانة واستكانة كأنهم قد سيموا تعنيفاً، وأوثقوا تكتيفاً"([1]).

وكانوا يحبون المصافحة ويستعملونها ليس فقط أثناء تلقي بعضهم بعضاً بل إثر الصلوات، وكان الوجهاء متعنتون في آرائهم كل منهم" قد زين له سوء عمله فرآه حسناً"([2]).

وتعددت أعياد النصارى فذكرت المصادر أن لهم سبعة أعياد كبار، وسبعة أعياد صغار([3]) وأول هذه الأعياد الكبار عيد البشارة، وذلك في ذكرى البشارة التي ساقها جبريل عليه السلام إلى مريم العذراء بمولد المسيح عليه السلام ([4]).

والعيد الثاني هو عيد الزيتونة أو الشعانين أو السعف، ويحتفل به في ذكرى دخول المسيح عليه السلام إلى القدس حيث نشر على طريقة سعف النخل وهو يسبق عيد الفصح([5]) وكانت احتفالات أحد الشعانين تجري في القرن الثاني عشر على النحو التالي؛ قبل شروق الشمس كان جميع رجال الدين في كنائس القدس ورؤساء الأديرة في جبل صهيون وجبل الزيتون (الطور) وفي كنيسة القديسة مريم في وادي الجوزفات(وادي قدرون) والبطريرك يتوجهون إلى العيزرية([6]) وكان أمين خزانة كنيسة القيامة يحمل الصليب المقدس، وفي الوقت نفسه يتجمع سكان القدس والحجاج وبعض رجال الدين في ساحة هيكل الرب (قبة الصخرة) وهم يحملون سعف النخل وأغصان الزيتون، ويبارك أحد المطارنة هناك سعف النخيل وأغصان الزيتون، ثم يعود الموكب من الساحة وخلال باب الأسباط (باب يهوشافاط) إلى الوادي الذي يحمل الاسم ذاته ويلتقون هناك بموكب رجال الدين القادم من العيزرية ثم يتبع الجميع البطريرك وهو يحمل الصليب المقدس، ويصعد الجبل إلى الباب الذهبي (باب الرحمة) الذي كان يفتح كل سنة خصيصا لهذه المناسبة، ثم يتجمع الجميع ثانية في الساحة المقدسة(ساحة الحرم القدسي) وبعد أن يطاف بالصليب في هيكل سليمان(المسجد الأقصى) ينتهي الموكب بإقامة الصلوات في ساحة هيكل الرب ([7]).

أما العيد الثالث فهو عيد الفصح وهو العيد الكبير عندهم يفطرون فيه، ويحتفلون فيه بذكرى قيام المسيح من قبره(حسب اعتقادهم) واجتماعه مع حواريه وتناوله الطعام

([1]) ابن جبير، رحلة، ص230.

([2]) المصر نفسه، ص230،231.

([3]) المقريزي، الخطط،ج1، ص732.

([4]) المصدر نفسه،ج1، ص 733

([5]) سايولف، وصف، ص31. المقريزي، الخطط،ج1، ص733.

([6]) **العيزرية = بيثاني:** ذكرها العهد القديم باسم عنيا وهي تقع في الجنوب الشرقي من جبل الزيتون على بعد نحو 2كم من شرقي القدس، وذكر دانيال أنه يوجد في بيثاني الحجرة التي مرض ومات فيها القديس العازر، كما ذكر أن قبر القديس العازر لا يزال قائماً في القرية، ووصفها بأنها تقع في وادي خلف أحد الجبال وهي قريبه ريفية صغيرة، وفي العصر الصليبي قامت الملكة ميسلند بإنشاء دير في القرية عرف باسم دير بيثاني.دانيال، وصف، ص58. الدباغ ، بلادنا، ق2،ج8، ص142،143.

([7]) براور، الاستيطان، ص213.

معهم([1]) ويعتبر عيد الفصح من أعياد الكنيسة المهمة في المملكة الصليبية إذ كان يتم الاحتفال بهذا العيد من خلال مهرجان، وموكب عظيم يقوده البطريرك، وكان الشطر الرئيسي من هذا الاحتفال يتمثل في زيارة كنيسة الضريح المقدس([2]).

وقد حدثنا ابن شيخ الربوة عن مظاهر الاحتفال بهذا العيد في مدينة حماة الشامية فيقول:" وفي هذا العيد تبطل أهل حماة مدة ستة أيام أولها يوم الخميس الكبير، وهو خميس العهد، وآخرها يوم الثلاث سادس الفصح، وتنتقش فيه النساء، وتلبس فيه الكساوي الفاخرة، ويسبغون فيه البيض، ويعملون الأقراص والكعك، المسلمون أكثر من النصارى.....ويركبون في المراكب بالمغاني، ويرقصون في المراكب النساء والرجال على الشطوط حتى تتهتك الخلائق، ويمضي لهم ستة أيام لا يرى في الوجود مثلها([3]).

والعيد الرابع هو عيد خميس الأربعين أو الصعود، وهو يتصل بالتراث المسيحي الذي يقول إن المسيح صعد إلى السماء بعد أربعين يوما من قيامه، وذلك بعد أن أكمل ثلاثا وثلاثين سنة وثلاثة أشهر([4]) وكان يتم الاحتفال به من خلال موكب بهيج يشق طريقه إلى جبل الزيتون، وبعد تأدية الصلوات في كنيسته، كان الموكب يشق طريقه إلى كنيسة الصعود حيث كانت بصمات وآثار أقدام المسيح واضحة وماثلة للعيان هناك([5]) .

والعيد الخامس هو عيد الخميس أو عيد العنصره، ويعتقد المسيحيون انه في هذا اليوم حلت روح القدس في حواري المسيح بعد أن تجلى لهم روح القدس في شبه ألسنة من نار وتفرقت عليهم ألسنة الناس فتكلموا بجميع اللغات، وذهب كل منهم إلى البلد التي يعرف لغتها للدعوة إلً دين المسيح([6]).

أما العيد السادس فهو عيد الميلاد، وكان النصارى يوقدون فيه المصابيح في الكنائس ويزينونها ويقول المقريزي انه شاهد احتفالات الميلاد التي كانت "موسما جميلا" تباع فيه الشموع المصبوغة بالألوان الرائعة، ويشتريها الناس جميعا، ويزدهر سوق الشماعين في هذا العيد لهذا السبب، وقد بالغ الناس في الإنفاق في هذا العيد([7]).

والعيد السابع من أعياد النصارى الكبار هو عيد الغطاس الذي كان النصارى يحتفلون به في ذكرى تعميد المسيح عليه السلام على يد يوحنا المعمدان(النبي يحيى عليه السلام)

([1])القلقشندي، صبح،ج2، ص454. المقريزي، الخطط،ج1، ص733،734.

([2]) دانيال، وصف، ص112..Albert, d,Aix, op.cit.,pp.460,539 براور، الاستيطان، ص216،217.

([3]) ابن شيخ الربوة، ص280.

([4]) القلقشندي، صبح،ج2، ص454. المقريزي، الخطط،ج1، ص734.

([5]) براور، الاستيطان، ص217.

([6]) دانيال، وصف، ص217.القلقشندي، صبح،ج2، ص455. المقريزي، الخطط،ج1، ص734.

([7]) المقريزي، الخطط،ج1، ص734،735.

في مياه نهر الأردن، وفي هذا العيد كان النصارى يغمسون أولادهم في المياه على الرغم من شدة البرد اعتقادا منهم أن ذلك يقيهم شر المرض طوال السنة([1]).

أما أعياد المسيحيين الصغار فكانت سبعة أيضا وهي عيد الختان، وعيد الأربعين، وخميس العهد، وسبت النور، واحد الحدود ،والتجلي، وعيد الصليب([2]).

ويعتبر عيد سبت النور(النار المقدسة) من الأعياد المسيحية الشهيرة في مدينة بيت المقدس ويحتفل به قبل عيد الفصح بيوم واحد وقد نقل لنا الرحالة الروسي دانيال وصفا حيا لمظاهر الاحتفال بهذا العيد الذي حضره أعداد هائلة من المسيحيين والحجاج ورجال الدين بالإضافة إلى الملك بلدوين الأول([3]).

ومن الجدير بالذكر انه كان للنصارى أعياد أخرى غير تلك الأعياد؛ فقد أحصى القلقشندي من هذه الأعياد والمواسم المسيحية مائة وثمانية وسبعين عيدا وموسما موزعة على شهور السنة([4]).

وقام الفرنجة الصليبيون إلى جانب إحياء المناسبات الدينية والتي كانت مجالا لجذب آلاف الحجاج للقدوم للمملكة الصليبية للمشاركة فيها بإحياء المناسبات التاريخية والوطنية كالاحتفال بذكرى استيلاء الفرنجة على بيت المقدس، وتأسيس المملكة الصليبية فيها([5]) وفي أعقاب ذلك بثلاثة أيام كان يتم إحياء ذكرى وفاة الأمير جودفري بصفته قائدا للحملة الصليبية التي استولت على المدينة المقدسة، وفي هذه المناسبة من كل عام كان الفرنجة الصليبيون يقيمون الحفلات ويرددون الأغاني والأناشيد الوطنية تمجيدا ببطولات أسلافهم، وما تحققت على أيديهم من انتصارات كبيرة([6]).

أما الأعياد اليهودية الشرعية فهي خمسة أعياد أولها "عيد رأس السنة "واسمه العبري روش هشاناه وهو عيد يقدمون فيه الأضاحي في ذكرى افتداء إسحاق، ويعتبر هذا العيد أيضا عيد عتق وحرية عند اليهود لأنه يرتبط بخلاصهم من فرعون، وقد سماه المقريزي عيد البشارة([7]) وثمة اختلافات بين طريقة كل من الربانين والقرائين في الاحتفال بهذا العيد رصدتها مصادر تلك الفترة إذ كان الربانيون ينفخون الأبواق في معابدهم أثناء الصلاة، اعتمادا على تفسيرهم لبعض النصوص المقدسة المتعلقة بهذا الاحتفال، في حين اكتفى

([1]) المقريزي، الخطط،ج1، ص734،735.

([2]) القلقشندي، صبح،ج2، ص455،456. المقريزي، الخطط،ج1، ص732.

([3]) دانيال، وصف، ص108-111. ثيودريش، وصف، ص68،69.

([4]) القلقشندي، صبح،ج2، ص458-463.

([5]) فورزبورغ، وصف، ص71،72.

([6]) المصدر نفسه، ص71-73. الحياري، القدس، ص178.

([7]) المقريزي، الخطط، ج3، ص719.

القراؤون بالصلاة والتهليل حمدا وشكرا لله لأنه يوم عتق رقاب بالنسبة لهم([1]).

والعيد الثاني هو عيد صوماريا أو (الكبور) وهو يوم الغفران عندهم وعقوبة من لا يصوم هذا اليوم أن يقتل([2]).

أما عيد المظلة أوعيد الظل فكان الاحتفال به يستمر سبعة أيام يعيدون في أولها، واليوم الثامن هو عيد الاعتكاف عند الربانيين، وفي هذا العيد يحتفل اليهود بذكرى الغمام الذي أظلهم الله به في التيه، فيجلسون تحت سعف النخيل الأخضر، وأغصان الزيتون وغيرها من الأشجار دائمة الخضرة([3]).

أما العيد الرابع هو عيد الفطير الذي سمي كذلك بعيد الفصح وهو أيضا يتصل بذكريات خروجهم من مصر، ويحل موعده في الخامس عشر من شهر نيسان اليهودي، وقد اختلفت الفرق اليهودية حول مدة الاحتفال به فهي سبعة أيام عند القرائين، وثمانية أيام عند الربانين، وستة فقط عند السامرة ([4]).

أما العيد الخامس فهو عيد الأسابيع أو عيد العنصر أو الخطاب الذي يحتفلون فيه بذكرى الوصايا العشر التي أَنزلها الله على نبيه موسى عليه السلام، وكان اليهود يصنعون الفطائر، لكي يأكلونها في هذا العيد في ذكرى المن الذي أَنزله الله عليهم في التيه ([5]).

ومن أشهر الأعياد التي استحدثها اليهود من واقع تاريخهم عيد الفوز البوريم وعيد الحنكة أو الحانوكة. أما عيد الفوز فيأتي في ذكرى انتصار اليهود على الوزير الفارسي هامان ويبدأ هذا العيد بصيام يبدأ من الثالث عشر من آذار حتى الخامس عشر منه، ثم يقيم اليهود مهرجانا صاخبا يحرقون فيه تمثالا من الورق المملوء بالنخالة رمزا لهامان، ويبدو أن هذا العيد كان يرتبط بمظاهر اللهو والخلاعة في عصر المماليك لدرجة جعلت المؤرخين المسلمين يطلقون عليه اسم عيد المساخر أو عيد المسخرة، وكان اليهود يتبادلون الهدايا والهبات في هذا العيد([6]).

أما عيد الحانوكة أو الحنكة فكان الاحتفال به يتم على مدى ثمانية أيام، وذلك في ذكرى انتصار اليهود على أنطيوخوس ابيغانس الذي حاول إرغام اليهود على عبادة الأصنام، ولكنهم استعادوا هيكلهم وطهروه من الأصنام، والكلمة العبرية حانوكة تعني التنظيف لان اليهود نظفوا الهيكل من تماثيل آلهة اليونانيين، وفي عصر المماليك كان اليهود يوقدون

([1]) القلقشندي، صبح،ج2، ص463. المقريزي، الخطط،ج3، ص719.

([2]) ظاظا، الفكر، ص202،203.

([3]) القلقشندي، صبح،ج2، ص463. المقريزي، الخطط،ج3، ص719.

([4]) القلقشندي، صبح،ج2، ص464. المقريزي، الخطط،ج3، ص721.

([5]) القلقشندي، صبح،ج2، ص465،464. المقريزي، الخطط،ج3، ص722.

([6]) القلقشندي، صبح،ج2، ص466.

المصابيح على أبواب دورهم، وفقاً لعد تصاعدي ففي الليلة الأولى يوقدون قنديلاً واحداً وفي الليلة الثانية قنديلين.... وهكذا حتى تتم ثمانية قناديل في اليوم الثامن، ولم يكن القراؤون يعترفون بهذا العيد على الإطلاق، كما أن السامرة لم يهتموا به([1]).

ب- وسائل التسلية:

لا شك أن الترفيه أمر ضروري للإنسان، مهما كان موقعه في الحياة، حاكماً أو محكوماً، خاصة أن الترفيه باختلاف وسائله يشكل جانباً مهماً من جوانب حياة الإنسان، حتى يمكن اعتباره الوجه الآخر للعمل، كما أنه لا يمكن أن نعتبر كل ترفيه لهواً أو مجوناً أو مضيعة للوقت كما يتصور البعض، فللترفيه جوانب إيجابية متعددة، خاصة وسائل الترفيه التي تتصل بالفنون الرياضية والفروسية، وكما قيل: لا تخلو تسلية من فائدة كذلك قيل أن شعباً لا يعرف كيف يلعب لا يعرف كيف ينتج([2]).

ولكل شعب من الشعوب وسائل الترفيه الخاص به التي يقبل عليها في أوقات الفراغ والتي كثيراً ما تتلاءم مع عادات أهله، وتتواءم مع أخلاق أمته، ورغم اختلاف وسائل الترفيه من حيث الشكل، والمضمون، وتبعاً للزمان والمكان؛ فإنها تتفق من حيث الغرض منها ألا وهو ترويض العقول والأبدان.

أما عن فترة الدراسة فإن وسائل الترفيه التي كانت تمارس فيها، تعتبر امتداداً لتلك التي كانت قائمة أثناء الدولة الفاطمية، والعباسية، وإن لم تكن بنفس الدرجة والمستوى، وقد يكون ذلك مرجعه إلى تلك الصراعات، والحروب الكثيرة بين المسلمين والصليبيين؛ فذكر ابن خلدون أن من طبيعة الملك الترف "وذلك أن الأمة إذا تغلبت وملكت ما بأيدي أهل الملك قبلها كثر رياشها ونعمتها فتكثر عوائدهم، ويتجاوزون ضرورات العيش، وخشونته إلى نوافله ورقته وزينته"([3]) وذهب للقول: بأهمية الرياضة لجميع الشرائح الاجتماعية([4]).

كانت الفروسية من إحدى الرياضات التي مارسها المجتمع الإسلامي والمسيحي في فلسطين قبل وأثناء فترة الدراسة، وقد ساعد على ذلك النشأة العسكرية للفرسان في ذلك الجو الحربي؛ فإذا كان بعض الأمراء والفرسان قد أهملوا بعض الرياضات فإن الفروسية بالذات ظلت طوال العصور الوسطى الرياضة المميزة من بين الرياضات العديدة التي شهدتها فلسطين، فيذكر لودولف بأن نبلاء وبارونات وفرسان المملكة الصليبية كانوا يمارسون العديد من الرياضات فكانوا "يدربون أنفسهم ويشغلونها بالمبارزات، وبالصيد، وبالمنازلات، وبكل

([1]) القلقشندي، صبح،ج2، ص 466,465.

([2]) نصار، وسائل، ص7.

([3]) ابن خلدون، تاريخ،ج1، ص177.

([4]) المصدر نفسه،ج1، ص544.

نوع من أنواع العروض العسكرية([1]) فكانت الأراضي الفارغة حول المدن تستخدم كمكـــان لاستعراض الخيل والخيالة حيث حرص الصليبيون على عقد العديد من المعارك والمبارزات الوهمية، والتي غالباً ما كانت ترتبط بالأعياد، وكان الفارس يحوز على الخيـــل، والأســـلحة والدروع المملوكة للخاسر([2]).

وشاركت المرأة في هذه العروض التي كانت من أكثر العروض تـــشويقاً، وإثـــارة فـــي العصور الوسطى([3]) فقد أشارت المصادر الإسلامية إلى وجود النساء الفوارس في المجتمع الصليبي فيقول الأصفهاني "وفي الفرنج نساء فوارس... وكن في زي الرجال، ويبرزن فـــي حومة القتال"([4]) فالرواية تشير إلي مشاركة المرأة الصليبية في القتال ضد المسلمين، والدفاع عن المملكة الصليبية؛ ووصف ابن الأثير الإمدادات العسكرية القادمة من الغرب الأوروبـــي بقوله: "فحشروا وحشدوا حتى النساء فإنهم كان معهم على عكا عدد من النـــساء يبـــارزون الأقران"([5]) وأشارت المصادر إلى أسر وقتل عدة منهن في المعارك مع المسلمين([6]).

وشاهد أسامه بن منقذ أثناء زيارته لمدينة طبرية في أحد أعيادهم؛ مـــسابقة لرياضـــة العدو في إحدى ميادين المدينة حيث سابقوا بـــين عجـــوزين كبيـــرتين تـــم إيقافهمـــا فـــي رأس الميدان، ووضعوا في الطرف الآخر خنزيراً طـــرح علـــى صـــخرة وســـابقوا بـــين العجوزين، وخلف كل منهما عدد من الخيالة، وهن يقمن ويقعـــن، والحـــضور يـــضحكون حتى سبقت إحداهن الأخرى فأخذت ذلك الخنزير([7]) ونلاحظ من الرواية السابقة أن ألعابهم كانت فيها شيء من الخشونة.

ومن الألعاب الرياضية التي عرفها المسلمون في ذلك الوقت، والتي ارتبطت بالفروسية وتأثر بها الصليبيون لعبة "الصوالجة والكرة"، والتي تعرف في الوقت الحاضر باسم البولـــو Polo ومضمون هذه اللعبة ميدان واسع لجري الفرسان مقسم بخطوط بيضاء، ويحمل كـــل فارس في المباراة عصا معكوفة النهاية، مع وجود الكرة في وسط الملعب، ويقف الفـــريقين المتباريين بشكل صفين متقابلين في نهاية حدود الملعب، ويحاول كل فريـــق معتمـــداً علـــى سرعته وكفاءة أعضائه نقل الكرة بضربها بالعصي المعكوفة ممتطياً جواده، باتجاه مربعـــه لتحقيق الفوز على الفريق الآخر([8]).

([1]) لودولف، وصف، ص304، 305.

([2]) براور، عالم، ص114.

([3]) المرجع نفسه، ص114.

([4]) الأصفهاني، الفتح، ص213. أبو شامه، الروضتين،ج4، ص63.

([5]) ابن الأثير، الكامل،ج10، ص183.

([6]) ابن شداد، النوادر، ص128،29. ابن الأثير، الكامل،ج10، ص187.

([7]) ابن منقذ، الاعتبار، ص 244، 245.

([8]) القلقشندي، صبح،ج4، ص48. إبراهيم، الحياة، ص96.

ومن الطبيعي أن مثل هذه اللعبة مارسها الأمراء والفرسان من أجل ترويض أجسامهم وخيولهم، وقد فسر نور الدين هذه الرياضة تفسيراً فروسياً في جوابه على اعتراض أحد أصدقائه الزهاد عندما كتب إليه يقول: "ما كنت أظن انك تلهو وتلعب وتعذّبُ الخيل لغير فائدة دينية فكان جوابه بخط يده "ما يحملني على اللعب بالكرة واللهو البطرُ إنما نحن في ثغر والعدو قريبٌ منا، فبينما نحن جلوس إذ يقع صوت [الحرب] فنركب في الطلب، ولا يمكننا أيضاً ملازمة الجهاد ليلاً ونهاراً، وشتاءً وصيفاً، إذ لا بدّ من الراحة للجند، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جَماماً([1]) لا قُدرة لها على إدمان السير في الطلب، ولا معرفة لها بسرعة الانعطاف في الكرِّ والفرّ في المعركة، فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب، فيذهب جَمَامها، وتتعوَّد سُرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب"([2]).

فكان نور الدين مولعاً بضرب الكرة "وربما دخل الظلام فلعب بها بالشموع"([3]) وكان كما يصفه ابن الأثير "من أحسن الناس لعباً بالكرة، وأقدرهم عليها لم ير جوكانة([4]) يعلو رأسه وكان ربما ضرب الكرة فيجري الفرس، ويتناولها بيده من الهواء ويرميها إلى آخر الميدان"([5]) وشغف سلاطين وأمراء الأيوبيين والمماليك بلعبة الكرة بدرجة كبيرة حتى إننا نجد مظاهر كثيرة من حياتهم تدل على الاهتمام بها؛ فكان صلاح الدين وأبناؤه يهتمون بممارسة هذه اللعبة فذكر ابن جبير أثناء زيارته لدمشق بأنه كان يقع غرب مدينة دمشق ميدانان "يخرج السلطان إليهما، ويلعب بالصوالجة ويسابق الخيل فيهما.. وفي كل ليلة يخرج أبناء السلطان إليهما للرماية والمسابقة واللعب بالصوالجة"([6]).

ومن مظاهر اهتمام سلاطين المماليك بهذه اللعبة أيضاً حرصهم على إنشاء الميادين كميدان الظاهري الذي شيده السلطان الظاهر بيبرس بطرف أراضي اللوق([7]) ومازال يلعب فيه بالكرة هو من أتى بعده من سلاطين المماليك حتى سنة 714هـ/1314م حيث قام السلطان الناصر محمد بن قلاوون بهدمه بسبب بعد النيل عنه([8]).

([1]) **الجُمام**: الراحة، وجم الفرس يجُم جما، وجماماً ترك فلم يركب. الرازي، مختار،ج1، ص47.

([2]) ابن الأثير، الباهر، ص164، 165. أبو شامه ، الروضتين،ج1، ص98، 99. الذهبي، سير،ج20، ص535. الدارس،ج1، ص469.

([3]) أبو شامه، الروضتين،ج2، ص25.

([4]) **الجوكانة**: كلمة فارسية معناها المحجن أو العصا أو الصولجان الذي تضرب به الكرة في اللعبة التي كانت تعرف باسم (الكرة والصولجة) وكان الجوكان عصا مدهونة طولها نحواً من أربعة أذرع، وبرأسها خشبة مخروطة معكوفة تزيد عن نصف ذراع. القلقشندي، صبح،ج5، ص430. ابن واصل، مفرج،ج1، ص267، هامش1.

([5]) ابن الأثير، الباهر، ص168، 169. أبو شامه، الروضتين،ج1، ص103.

([6]) ابن جبير، الرحلة، ص255.

([7]) **اللوق**: هو خط قديم متسع ينتهي إلى الميدان المعد لركوب السلطان عند وفاء النيل وقد عمر بالأبنية وسكنه رعاع الناس وأوباشهم.القلقشندي، صبح،ج3، ص408.

([8]) المقريزي، الخطط،ج3، ص27.

ويبدو أن هذه الرياضة المعروفة باسم Polo حالياً كانت وما تزال حتى وقتنا الحاضر لعبة لا يمارسها سوى الملوك والأمراء والفرسان وعلية القوم، كما يبدو أيضاً أنهـا لعبـة لهـا خطورتها على لاعبيها بحيث تتطلب مهارات معينة([1]) ولاشك أن هذه اللعبة قد لاقت قبـولاً لدى الصليبيين.

وكانت رياضة الصيد من بين الرياضات التي انتشرت في المجتمع الإسلامي والصليبي على حد سواء حيث كانت من بين مهارات الفروسية؛ فهي ليست إلا سوى محاولة من بـين المحاولات العديدة لتركيز القدرة على الرمي، وحمايتها من التبدد والنسيان، ويروي لنا أسامه ابن منقذ في مذكراته العديد من رحلات الصيد التي قام بها الملوك والأمراء المسلمون حيث عدوها من تراثهم الأصيل الذي تمسكوا به لكونهم يقضون فيها أوقات فراغهم بعـد طـول الإنهاك والعمل([2]).

ومارس الصليبيون رياضة الصيد حيث أقيمت في أوقات وأماكن مختلفـة؛ مـسابقات الصيد الملكية([3]) والتي كان يحضرها أعداد كبيرة من الناس للتمتع بمشاهدتها.

وأدت رحلات الصيد وما يكتنفها من أخطار رغم ما بها من متعة إلى إصـابة بعـض ملوك مملكة بيت المقدس بإصابات خطيرة، ووفاته على أثرها؛ ففي سنة 537هـ/1142م وأثناء قيام الملك فولك لانجو برحلة للصيد في المناطق القريبة من عكا رأى أرنباً فساق خلفه وساق معه خواصه من الأمراء والفرسان فتعثر جواده أثناء مطاردة الأرنب؛ فسقط مغـشياً عليه، وتوفي بعد ثلاثة أيام من إصابته([4]).

وتعددت مواضع الصيد في فلسطين فمن المنـاطق التـي ارتادهـا الملـوك والأمـراء الصليبيون تلك المناطق القريبة من بحيرة الحولة حيث يتواجد الطير والحيوان، وكانت تدور هناك مسابقات الصيد الملكية([5]) وكذلك منطقة الغابات والحقول التي كانت تحـيط بمدينـة أرسوف حيث غطت مساحتها ما يقرب من اثني عشر ميلاً شمالاً([6]) ففي 663هـ/1265م ركب السلطان بيبرس من العوجاء([7]) بعد ركوب الأطلاب([8]) للتصيد في غابـة أرسـوف،

([1]) نصار، وسائل، ص254، 255.

([2]) ابن منقذ ، الاعتبار، ص288، 315.

([3]) بورشارد، وصف، ص64.

([4]) الصوري، تاريخ،ج2، ص731، 732. ويندوفر، ورود، ص159.

([5]) بورشارد، وصف، ص64.

([6]) رستون، مقاتلون، ص307.

([7]) **العوجاء**: نهر بين أرسوف والرملة في أرض فلسطين من السواحل. الحموي، معجم،ج4، ص167.

([8]) **الأطلاب**: وهي وحدات عسكرية صغيرة تبلغ أربعمائة يرأسها أمراء يعملون في وظائف البلاط أو الدولة، وكان للسلطان نفسه أطلاب من الفرسان في عدد صغير، ويبدو أن هذا اللفظ ظهر أيام صلاح الدين الأيوبي، والطلب في لغة الغز هو أميـر لـه لواء وبوق ومائتا فارس إلى مائة إلى سبعين. الأصفهاني، الفتح، ص54، هامش1.

ورسم للأمراء بأن من أراد منهم الصيد فليحضر" فإن الغابة كثيرة السباع"([1]) ونجد الاتصال الاجتماعي بين الجانبين الإسلامي والصليبي في صورة رحلات الصيد إذ أن المسلمين والصليبيين شغفوا به، ولتذليل الصعوبات التي لحقت بممارسة تلك الهواية؛ عقدت بين الطرفين اتفاقيات لحماية الصيادين من خطر الأعمال العدائية([2]) وتم الاتفاق على تنظيم عمليات الصيد، وأحياناً كان الجانبان يجتمعان من أجل المشاركة معاً في عمليات الصيد([3]) وكان الصيد يتم عن طريق استعمال البزاة والصقور والشواهين، والكلاب، والفهود([4]).

وكانت لعبة النرد([5]) من وسائل الترفيه التي انتشرت في فترة الدراسة، وهي لعبة فارسية الأصل([6]) وهي المعروفة اليوم باسم لعبة الطاولة، وهذه اللعبة كان يمارسها العامة والخاصة في ذلك العصر فكان الأمراء ورجال الأدب والشعراء يهوون لعبة النرد([7]).

وتعرف تلك اللعبة بنرد شير نسبة إلى أردشير بن بابك أول ملوك الفرس الذي وضعها([8]) ولاشك أن المسلمين قد أخذوها عن غيرهم من الشعوب التي احتكوا بها بعد الإسلام، وهي تعتبر من الألعاب الهادئة لأنها كانت تجري والقوم جلوس، بعضهم إلى جانب بعض؛ إذ أن العربي كان يشعر بما في ذلك من غرابة عن طباعه ومألوف عاداته([9]).

وتعتمد لعبة النرد على الحظ، ويستعمل فيها ثلاثون حجراً، وفصان على رقعة رسم عليها أربعة وعشرون بيتاً([10]).

وأقبل على لعبة النرد كثيرٌ من الحكام والأمراء والأدباء فقد وصف جحظه([11]) بأنه كان "مقدماً في لعبة النرد"([12]) وقد اشترط صاحب سفرنامه بأن يكون ندماء الملك ممن يجيدون النرد والشطرنج إلى جانب حنكتهم السياسية والإدارية وثقافتهم الدينية والأدبية([13]).

وشاعت لعبة النرد في المجتمع الصليبي في عصر الحروب الصليبية، وأقبل عليها

([1]) المقريزي، السلوك، ج2، ص18.

([2]) حتى، تاريخ العرب، ص733.

([3]) النقاش، العلاقات، ص149.

([4]) ابن منقذ، الاعتبار، ص303.

([5]) **النرد:** اسم أعجمي معرب ابن منظور، لسان،ج3، ص421.

([6]) ابن خلكان، وفيات،ج4، ص357. القرش، طبقات الحنيفية،ج1، ص445. ابن عماد الحنبلي، شذرات،ج1، 340.

([7]) نصار، وسائل، 309.

([8]) ابن خلكان، وفيات،ج4، ص357، القرش، طبقات الحنفية،ج1، ص445. ابن عماد الحنبلي، شذرات،ج1، ص340.

([9]) نصار، وسائل، ص310.

([10]) اليعقوبي، تاريخ،ج1، ص89. ابن خلكان، وفيات،ج4، ص357. القرش، طبقات الحنيفية،ج1، ص445.

([11]) **جحظه:** وهو أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى البرمكي، كان ذا فنون ونوادر وأدب توفي سنة 326هـ. حين كان عمره ثلاثين عاماً. الذهب، سير،ج15، ص222.

([12]) الذهبي، سير،ج5، ص221.

([13]) خسرو، سفرنامه،ج1، ص126.

العامة والخاصة، فقد كان لها إغراء كبير إلى جانب لعبة الشطرنج، فقد وصف ريموند بواتية([1]) أمير إنطاكية 531-544هـ/1136-1149م بأنه "كان مغرماً بشكل مفرط بالعاب النرد.. وألعاب الحظ"([2]) ووصف الملك بلدوين الثالث بأنه انغمس في أعمال الحظ والنرد([3]) وقد تعرض هيو كونت يافا لمحاولة اغتيال أثناء لعبه للنرد في إحدى شوارع مدينة القدس([4]).

وإلى جانب لعبة النرد انتشرت كذلك لعبة الشطرنج، وهي من الألعاب الهادئة التي وضعها حكماء الهند؛ فعندما افتخر الفرس بوضعهم للنرد ناظرهم أهل الهند بوضع الشطرنج، وما فيه من التدبير([5]) حيث رسموا لها رقعة مربعه تتألف من ثماني خانات طولاً وعرضاً ورسموا عليها أربعة وستين مربعاً بالتساوي كما جعلوا فيها ثماني قطع ومثلها من البيادق، وطليت بلونين من طرفيها، واجلسوا الملك والوزير في القلب، وأوقفوا فيلين على الميمنة والميسرة، وجعلوا بجانب الفيلين حصانين من الجانبين كما جعلوا الرختين في الزاويتين، وصفوا أمامهم صفا من العساكر، وعلى هذا يستعد الجانبان للمبارزة([6]).

وقد بلغ من انتشار لعبة الشطرنج، وكلف الناس بها إلى الحد الذي جعل بعض الأشخاص ينسبون إليه مثل أبو بكر الصولي([7]) الشطرنج الذي وصف بأنه "أوحد وقته في لعب الشطرنج"([8]) كما صنفت في هذه اللعبة وقواعدها العديد من المؤلفات والرسائل([9]).

وعرف الصليبيون لعبة الشطرنج فلعبوها، ولكن لعبة النرد كانت التسلية الأكثر شيوعاً، وكان الواحد منهم يقامر بثروته وحياته([10]).

ت- النظـــــام القضائـــــي:

كان لابد لتنظيم المجتمع الإقطاعي الصليبي في فلسطين من نظام قضائي يمكن الاحتكام

([1]) **ريموند بواتية:** وهو الابن الأصغر لوليم التاسع؛ حضرا سراً إلى إنطاكية بمساعدة الاستبارية حيث تزوج من كونستانس دون علم والدتها أليس التي عاشت بقية حياتها في اللاذقية، وكان وصوله إلى إنطاكية في رجب 530هـ/ابريل 1136م. الصوري، تاريخ،ج2، ص679-681. عطية ، إمارة إنطاكية، ص145، هامش213.

([2]) الصوري، تاريخ،ج2، ص682.

([3]) المصدر نفسه،ج2، ص735.

([4]) المصدر نفسه،ج2، ص677.

([5]) اليعقوبي، تاريخ،ج1، ص90، 92. ابن خلكان، وفيات،ج4، ص357.

([6]) اليعقوبي، تاريخ،ج1، ص90، 92. ابن خلكان، وفيات،ج4، ص357.

([7]) **أبو بكر الصولي:** هو أبو بكر محمد بن يحيى المعروف بالصولي الشطرنجي كان أوحد الأدباء الفضلاء، وروي عن أبي داود السجستاني، ونادم الخليفة الراضي والمقتدر والمكتفي، من تصانيفه كتاب أخبار القرامطة وكتاب الأنواع.ابن خلكان، وفيات،ج4، ص356.

([8]) ابن خلكان، وفيات،ج4، ص357.

([9]) من ذلك كتاب الشطرنج لأبي عبد الله أحمد الجيهاني وكتاب الشطرنج للرازي، وكذاك كتاب الشطرنج للصولي. ابن النديم، الفهرست،ج1، ص221،198.

([10]) براور، عالم، ص115.

إليه ويصبح بمثابة الغطاء الشرعي والقانوني لجميع الممارسات الإقطاعية التي تحدث بين الأفصال والسادة الإقطاعيين، وكذلك ما بين الأفصال والسادة الإقطاعيين من جهة والملوك والأمراء من جهة ثانية؛ لذلك أوجد الصليبيون نظاماً قضائياً يتكون من عدة محاكم، وذلك لكي يستطيع تغطية كافة أنواع المنازعات التي تنشب بين جميع طوائف المجتمع الصليبي، وهكذا تدرجت المحاكم بدء من المحكمة العليا، ثم محاكم البرجوازيين، والمحاكم الإقطاعية الصغيرة التي أقامها السادة الإقطاعيون في إقطاعهم إلى أن وصلت إلى المحاكم المحلية، وهي تلك المحاكم التي كانت تختص بمشاكل السكان المحليين الذين لم يحق لهم عرض منازعاتهم على المحاكم الصليبية.

إن المحاكم الإقطاعية الصليبية فرضت وجودها منذ العام الأول للاستقرار الصليبي في بلاد الشام حيث يذكر حنا إبلين أن جودفري البويوني قام بتأسيس محكمتين علمانيتين أولهما المحكمة العليا حيث كان جودفري هو قاضيها ورئيسها، والمحكمة الثانية هي المحكمة البرجوازية، وكان يرأسها نيابة عنه رجل يدعى الفيسكونت Viscount وكان من طبقة الفرسان أو من طبقة البرجوازيين، وكان الجميع يقسمون القسم الخاص بقضاة المحكمة البرجوازية، ويحكمون بمقتضى التشريعات الموجودة في كتاب المحكمة البرجوازية([1]).
هكذا تقرر أن يكون جودفري وباروناتة وكل الفرسان بمملكة بيت المقدس تابعين للمحكمة العليا، بينما يكون الباقون مما لا يندرجون تحت تبعية المحكمة العليا تابعين للمحكمة البرجوازية.

وتعد المحكمة العليا أكبر الهيئات القضائية في المملكة؛ تختص بفحص الالتماسات الخاصة بإعادة النظر في القضايا، وكان يحتفظ بالمحكمة العليا باللوائح، والقانونيين المدون بها كافة الأحكام القضائية؛ وفي حالة ما إذا كانت هناك حالات لا تجد لها حلولاً مباشرة فإنها كانت تستشير المحاكم الأخرى من أجل البت فيها، وبعد صدور الأحكام كان يتم حفظها في صناديق خاصة بعد تنظيمها وترتيبها([2]).

وكان ينبغي أن يكون الملك بوصفه رئيساً للمحكمة العليا، والرجال الذين سيتم تعيينهم قضاة في المحكمة الملكية على علم كامل بالتشريعات والاستخدامات القانونية الخاصة بمملكة بيت المقدس، وكذلك كان يجب أن تتصف أحكامها بالخضوع المطلق للعدالة والقوانين([3]).

هكذا كانت المحكمة العليا تمثل قمة السلم القضائي في المجتمع الصليبي، وكان الملك يجتمع فيها بكبار السادة الإقطاعيين في المملكة، وإذا غاب الملك عن جلسات المملكة ينوب

([1]) Beugnot (ed.), Assises de Jerusalem, Tome I, P.23.

([2]) I bid., Tome II, P. 250.

([3]) I bid., Tome I, PP. 27, 32.

عنه وكيلــه الذي عــرف بلقب شرشال Seneschal([1])

وبخلاف القضاة الفرسان الذين تم اختيارهم لهيئة المحكمة بواسطة الملك فقــد جــرى تمثيل الكنيسة والفرق الدينية العسكرية كالاستبارية والداوية في هيئة المحكمة العليا، وكــان يبرر مشاركتهم في أعمال المحكمة العليا كونهم يمثلون الدعامة العسكرية الأساسية للملكــة الصليبية، وملكيتهم لبعض الإقطاعات([2]) ومن أجل الحفاظ على التوازن الاجتماعي الذي كان من أهم مهام ملوك المملكة الصليبية في بيت المقدس؛ تم تمثيل القوميونات الإيطاليــة فــي المحكمة العليا؛ حيث وجد بها قضاة من الجنوية والبنادقة والبيازنة، وجــاء انــضمام أبنــاء القوميونات إلى المحكمة العليا بعد منتصف القرن السابع الهجري/الثالث عــشر المــيلادي، وذلك لوجود عرف جديد يقضي بتقديم قسم الولاء لسيدهم الإقطاعي الأعلى، أو لأنهم قدموا هذا القسم استناداً إلى المشاركة في تلك المحكمة الإقطاعية بشكل أساسي([3]).

ومن بين المسائل التي يمكن التقاضي بشأنها أمام المحكمة العليا مــا يتعلــق بالقــضايا الجنائية والمدنية إذ أن القانون الإقطاعي اعتبر جرائم القتل والاغتيال والاغتصاب والــسلب والخيانة العظمي جرائم خرق للقانون الإقطاعي، فكان الملك والمحكمة العليا يفصلان في هذه الجرائم([4]) ومن أمثلة ذلك ما قامت به المحكمة العليا من دور هام في الصراع الذي نــشب بين الملك فولك لانجو وهيو حاكم يافا سنة 529هــ/1134م وذلك باتخاذها القرارات اللازمة لتسوية الخلاف، فعندما انعقدت المحكمة العليا، وقف ولتر حاكم قيسارية أمام جميع النــبلاء واتهم هيو حاكم يافا بالخيانة العظمى والتآمر على قتل الملك فولك، وأنكر هيو تلك التهمــة الموجهة إليه وأكد بأنها مؤامرة، وانه واثق من براءته، وأنه على استعداد للخــضوع لحكــم المحكمة بخصوص الاتهامات الموجهة إليه([5]) وتداول أعضاء المحكمة العليا القــضية فيمــا بينهم ثم قرروا ما جرى به العرف الصليبي في مثل تك الحالة بإقامة مبارزه بين كل من هيو وولتر حاكم قيسارية، ولكن في اليوم المحدد لتلك المبارزة تغيب هيو عن الحضور "فأدانتــه المحكمة ومجلس النبلاء غيابياً وجرمته بالتهمة الموجهة إليه، وذلك بسبب تمرده المتــصلب ورفضه تلبية الدعوة"([6]) وتم في النهاية الاتفاق على نفي هيو لمدة ثلاث سنوات، وأن تــسدد كل ديونه من دخل مدينة يافا على أن يسمح له، ولمن كان معه بالعودة إلــى المملكــة بعــد

([1]) **الشرشال:** كان يلي الحاكم الصليبي في السلطة، وكان يترأس المحكمة العليا في أثناء غياب الملك باستثناء القــضايا الجنائيــة، والقضايا المتعلقة بالإقطاعات، وكان ينوب عن الملك في قيادة الجيش الملكي، ومن مهامه الإدارية الإشــراف علــى الإدارة المالية للمملكة، والإشراف على القلاع والحصون وإمدادها بالمؤن. براور، الاستيطان، ص152. سلامة، عكا، ص127.

([2]) براور، الاستيطان، ص143، 144. رنسيمان، تاريخ،ج2، ص503.

([3]) عاشور، الحركة،ج1، ص386. براور، الاستيطان، ص144.

([4]) Beugnot (ed.), op. cit., Tome I, P. 128 . رنسيمان، تاريخ،ج2، ص482.

([5]) الصوري، تاريخ،ج2، ص675.

([6]) المصدر نفسه،ج2، ص675.

انقضاء تلك المدة([1]) ومن المرجح أن العقوبة جاءت مخففة لهيو حاكم يافا لأنه طبقاً للنظـام القضائي في مملكة بيت المقدس الصليبية كانت عقوبة العصيان، والتمرد هي حرمان الفصل وورثته من إقطاعه مدى الحياة([2]).

كما كانت المحكمة العليا تنظر في القضايا الخاصة بالأراضي الإقطاعيـة، والميـراث والوصايا، والالتزامات الإقطاعية، وكانت تنظر أيضا في القضايا المتعلقة بتحويـل ملكيـة الإقطاعات سواء كان ذلك التحويل بالبيع أو الإيجار، حيث كان تأجير الإقطاعات يـتم مـن خلال المحكمة العليا([3]).

وكان من أهم اختصاصات المحكمة القيام والإشراف على معظم الأعمال التجارية، ولقد استمدت المحكمة العليا هذا الحق لكونها مكاناً لاجتماع الملك مع أفصاله([4]).

كما أن فرض الضرائب الاستثنائية وهـي الـضرائب الغيـر إقطاعيـة كانـت مـن اختصاصات المحكمة العليا والملك الصليبي باعتباره السيد الإقطاعي الأعلى، ولقد تم فرض ضريبتين غير إقطاعيتين من أجل مواجهة خطر المقاومة الإسلامية المتزايدة ضد المملكـة الصليبية؛ ففي عام 562هـ/1166م دعا الملك عموري الأول إلى عقد اجتماع للمحكمة العليا في مدينة نابلس وقررت المحكمة العليا في هذه الجلسة فرض ضريبة مقدارها 10% علـى جميع الأملاك المنقولة للصليبيين، وذلك لتمويل نفقات الحملة العسكرية على مصر للتصدي لاستعدادات نور الدين للتوجه نحو مصر، وإفشال مشروعه الوحدوي([5]).

أما الضريبة الثانية فترجع إلى عام 579هـ/1183م. وهي تلك الضريبة التي قـضت بهـا جلسة المحكمة العليا في بيت المقدس، والتي فرضت على كل الأمـلاك الثابتـة والمنقولـة الخاصة بسكان المملكة الصليبية، وكانت السمة الاستثنائية لهذه الضريبة تستلزم موافقة دافعي الضرائب أو الذين كانوا يمثلون مجتمع المملكة الصليبية في المحكمة العليا([6]).

أما الأمور السياسية التي تتضمن العلاقات الدولية الخارجية، والمعاهدات، وقرار إعلان الحرب، وعقد معاهدات السلام فعلى الرغم من أنها من صـلاحيات الملـك باعتبـاره رأس الدولة وقائد عام الجيوش، فإن مثل هذه القرارات كانت تصدر بعد مداولة قانونية مع مراعاة الأخذ بنصيحة المحكمة العليا([7]).

([1]) الصوري، تاريخ،ج2، ص676.ولمزيد انظر ماير، تاريخ، ص124-126.

([2]) سرور، الأوضاع، ص139.

([3]) Beugnot (ed.), Lok. Cit. براور، الاستيطان، ص148.

([4]) براور، الاستيطان، ص148.

([5]) الصوري، تاريخ،ج2، ص895.

([6]) المصدر نفسه،ج2، ص1054- 1056.

([7]) براور، عالم، ص99.

ومن أمثلة ذلك قيام المحكمة العليا بمناقشة معاهدة التحالف مع المسلمين عندما طلب أنر حاكم دمشق المساعدة من مملكة بيت المقدس ضد عماد الدين زنكي عام 534هـ/1139م وفي ذاك يقول الصوري "استدعى الملك جميع نبلاء المملكة.. ووضع أمامهم بحذر جميع شروط وتفاصيل الاتفاقية التي عرضها المندوبون، وطلب أن يدلوا بآرائهم بخصوص الإجابة؛ فتدارسوا لفترة طويلة من الزمن، وتقرر أخيراً بعد دراسة متروية، وتبادل حذر للآراء حول جميع التفاصيل أن تقدم المساعدة إلى أنر والدمشقيين"([1]).

وفي سنة 583هـ/1187م تم عقد اجتماع للمحكمة العليا في مدينة عكا برئاسة الملك جي لوزجنان من أجل التداول والتشاور في الخطة العسكرية التي يجب على المملكة إتباعها لمواجهة قوات صلاح الدين التي بدأت تهدد باجتياح منطقة الجليل([2]).

ونظراً لأن المحكمة العليا كانت تقوم بالفصل في منازعات البارونات والأمراء لما فيه مصلحة المملكة الصليبية؛ فقد تحول دورها من دور تشريعي قضائي إلى دور سياسي حيث تم توظيف تشريعاتها ودورها القضائي في خدمة سياسة المملكة الصليبية، ولهذا يمكننا الأخذ بقول براور بأن المحكمة العليا تحولت تدريجياً من مجرد مجلس استشاري لتصبح العامل السياسي الحاكم في المملكة الصليبية([3]).

ويرى باركر أن فكرة المساواة بين الملك والنبلاء التي سادت في المملكة الصليبية آنذاك قد أدت بمرور الوقت إلى هذا التغيير([4]) فإذا كان الملك قد حاز مملكته على أنها إقطاع شأنه في ذلك شأن النبلاء؛ فإن ما يسري على الإقطاع من قوانين التنازل يجري أيضاً على المملكة، وهذه القوانين قضت بوراثة الإقطاع([5]) وفي هذا الشأن لم يفرق الصليبيون بين الذكور والإناث؛ غير أن فكرة المملكة على أنها إقطاع انطوت على نتيجة من أخطر النتائج، ذلك أن المملكة يصح أن تنتقل شأنها في ذلك شأن سائر الإقطاعات من وريثتها إلى زوجها([6]) حيث كان غياب القانون الذي يحرم على المرأة تولي العرش في المملكة متفقاً مع عدم وجود ورثة من الذكور، وهو الأمر الذي أدى إلى انتقال العرش لأسرة جديدة، ومن أمثلة ذلك أن بلدوين الثاني الذي لم ينجب سوى أربع إناث بعث إلى فرنسا سنة 512هـ/1127م لاختيار أحد الأمراء المعروفين بشجاعتهم ومقدرتهم ليتولى الحكم من بعده في مملكة بيت المقدس، فرشح لويس السادس ملك فرنسا لتلك المهمة فولك أوف لانجو([7]).

([1]) الصوري، تاريخ،ج2، ص706.
([2]) مجهول، ذيل، ص288– 292.
([3]) براور، عالم، ص99.
([4]) باركر، الحروب، ص55.
([5]) المرجع نفسه، ص55.
([6]) المرجع نفسه. ص55.
([7]) الصوري، تاريخ ،ج2، ص643، 644، 655.

وحضر الأمير فولك إلى المملكة في 524هـ/ربيع 1129م وتزوج من ميسلند ابنة الملك بلدوين الثاني الكبرى، وأقطعه الملك مدينتي صور وعكا، وهكذا أصبح فولك لانجو بحكم زواجه من وريثة بلدوين الثاني، هو ملك بيت المقدس المقبل([1]) وعندما توفي الملك بلدوين الثاني في 526هـ/أغسطس1131م خلفه فولك لانجو في حكم مملكة بيت المقدس([2]).

وقامت المحكمة العليا أثناء القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي بدور هام في شؤون الوراثة الملكية والصراع القائم حولها([3]) فكان من حق أعضاء المحكمة العليا انتخاب الملك أو تعيين الوصي على الحكم، ومن أمثلة ذلك دعوة الملك بلدوين الرابع المحكمة العليا للانعقاد في 579هـ/20 نوفمبر1183م للمصادقة على تعيين ابن أخت الملك بلدوين الخامس([4]) شريكاً له في حكم المملكة، ووريثه للمملكة، وبما أن هذا الوريث كان لا يزال طفلاً لم يتجاوز الخامسة من عمره؛ فقد وافقت المحكمة على وضعه تحت وصاية ريموند الثالث أمير طرابلس([5]).

كما صار لأعضاء المحكمة الحق في أن يوافقوا رسمياً على كل من يلي الحكم من الوراثة([6]) ومن أمثلة ذلك أن المحكمة العليا اختارت بلدوين دي بورغ أمير الرها ليتولى عرش مملكة بيت المقدس باسم بلدوين الثاني، بعد وفاة ملكها وابن عمه بلدوين الأول على الرغم من أن الأمير يوستاس شقيق بلدوين الأول كان مازال على قيد الحياة([7]).

وقامت المحكمة العليا بإجبار الملك عموري الأول لكي يطلق زوجته في عام 558هـ/1162م. قبل الاعتراف به وريثاً شرعياً لأخيه بلدوين الثالث([8]).

هكذا كانت المحكمة العليا تلعب دوراً بارزاً في حسم القضايا المتعلقة بورثة العرش، وكانت تتصرف باعتبارها سلطة تشريعية رسمية تفوق الصفة الاستشارية، ومع ذلك استطاع الملك بلدوين الرابع في عام 572هـ/1176م أن يتجاهل اعتراضات البارونات في المحكمة العليا وأن يوافق على زواج أخته ووريثته الشرعية سبيلا

([1]) الصوري، تاريخ ،ج2، ص634، 656.

([2]) المصدر نفسه،ج2، ص652.

([3]) براور، عالم، ص99، 100

([4]) **بلدوين الخامس:** وهو ابن وليم مونتفرات من زوجته سبيلا ابنة الملك عموري الأول وأخت الملك بلدوين الرابع الذي عينه ملكاً لبيت المقدس، وهو في سن الخامسة من عمره بعد اشتداد المرض عليه، وتم تعيين ريموند الثالث أمير طرابلس وصياً عليه، ولكنه توفي بعد عدة شهور من تنصيبه ملكاً. الصوري، تاريخ،ج2، ص1068، 1069.

([5]) الصوري، تاريخ،ج2، ص1068، 1069.مجهول، ذيل، ص 258، 260.

([6]) باركر، تاريخ، ص55.

([7]) الصوري، تاريخ،ج1، ص571، 572.

([8]) الصوري، تاريخ،ج2، ص878، 883. مجهول، ذيل، ص258، 259. كان الملك عموري الأول متزوج من اغنيس ابنة جوسلين الثاني كونت الرها حيث كان الملك بلدوين الثاني (والد الملكة ميسلند وزوجة الملك فولك ووالده الملك بلدوين الثالث وعموري الأول) وجوسلين الأول جد اغنيس ابنة جوسلين الثاني أبناء خالات . الصوري، تاريخ،ج2، ص884.

Sibylla([1]) من وليم مونتفرات William Montferrat([2]) الذي توفي في العام التالي وترك أرملته حاملاً في طفل، وقد وافق بلدوين الرابع على زواج أخته مرة أخرى في عام 576هـ/1180م من جي لوزجنان([3])، ويمكن أن تعتبر مداولات البارونات في زواج الأميرات الملكيات ناتج عن واجبهم كإتباع للملك عليهم أن يقدموا النصيحة له، ومثل هذا الإجراء كان مألوفاً في كافة المحاكم الإقطاعية؛ حيث كان الأتباع يناقشون الشؤون العائلية لسيدهم الأعلى، لأن الزواج داخل العائلة الملكية ينطوي على أمر أكثر من كونه موضوعاً شخصياً؛ فقد تؤدي حالات الزواج إلى تحالف سياسي أو يكون لها آثارٌ اقتصادية وعسكرية([4]).

كانت اجتماعات المحكمة العليا يحضرها صنفان من النبلاء؛ هما كبار السادة الذين يحكمون البارونات والإقطاعيات، والأفصال المباشرين للدومين الملكي، سواء كانوا من صغار الأفصال أو من كبار الأفصال، أو كانوا من أصحاب الإقطاعات النقدية الذين تسلموا إقطاعاتهم منه بشكل مباشر، فكان عدد أعضائها أربعين نبيلاً، وكان الملك وثلاثة من كبار السادة الإقطاعيين الأعضاء في المحكمة العليا يشكلون نصاباً قانونياً لعقد جلسة المحكمة غير أن أي جلسة من الجلسات الحاسمة كانت تتطلب بالضرورة حضور عدد مناسب من الأعضاء ذوي الخبرة القانونية، وكانت قرارات المحكمة لا تخضع لعدد الأصوات بل تخضع للتقييم؛ إذ أنه لم يؤخذ برأي صغار الأفصال([5]).

وبموجب قوانين بيت المقدس كان التابع محمياً في تملكه لإقطاعه ضد المصادرة العسكرية للملك، وأوضحت قوانين بيت المقدس أن التابع يمكن أن يحرم من إقطاعه فقط بموجب قرار من المحكمة العليا([6]) ومن أمثلة ذلك ما جرى من نزاع بين فردريك الثاني إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة 608- 647 هـ/1211- 1250م وملك بيت المقدس 622- 647هـ/1250- 1225م وحنا إبلين سيد بيروت، إذ أن الإمبراطور جَرّدَ حنا إبلين

([1]) **سبيلا:** وهي ابنة الملك عموري الأول وأخت الملك بلدوين الرابع تزوجت من ليم مونتفرات، ولكنه توفي في العام التالي تاركاً أرملته حاملاً بطفل أصبح فيما بعد ملكاً لبيت المقدس باسم بلدوين الخامس، ثم تزوجت من غي لوزجنان 576هـ/1180م. وتم تتويجها ملكة لبيت المقدس 582هـ/1186م. وذلك بمساعدة خالها جوسلين الثالث. الصوري، تاريخ،ج2، ص988، 106. مجهول، ذيل، ص272، 273.

([2]) **وليم مونتفرات:** يلقب بالسيف الطويل، وهو ابن وليم الأكبر، كان والده خال الملك لويس ملك فرنسا في حين كانت والدته أخت كونراد إمبراطور ألمانيا، تم حضوره إلى المملكة بناء على طلب من الملك بلدوين الرابع، وتزوج من سبيلا أخت الملك بلدوين الرابع وتم منحه إقطاعيتي يافا وعسقلان، وتوفي بعد ستة شهور من زواجه. الصوري، تاريخ،ج2، ص988، 989.

([3]) المصدر نفسه، ص 988، 989، 1016.

([4]) براور، الاستيطان، ص146.

([5]) المرجع نفسه، ص142.

([6]) نوفار، حروب، ص41.

من إقطاعه دون أن تجري محاكمته، وأيد حنا إبلين سائر بارونات مملكة قبرص وبيت المقدس نظراً لأنه بمقتضى قانون من أهم قوانين المملكة لا يجوز تجريد رجل حر من إقطاعه إلا بعد أن يصدر أسوياؤه في المحكمة العليا الحكم ضده([1]).

وأدت حركة العصيان التي قادها حنا إبلين ضد فردريك الثاني إلى قيام هيئة جديدة حلت محل المحكمة العليا، واطلعت هذه الهيئة بوظائفها لمدة تقرب من اثني عشر عاماً، وقد عُرفت هذه الهيئة باسم قوميون عكا، وهو عبارة عن تنظيم اجتمع فيه ممثلون لكافة السكان في مملكة بيت المقدس، واختار أعضاء هذا القوميون القديس أندرو St. Andrew ليكون حامياً لهم، وكي يضمن لنفسه تأييداً شعبياً قوياً، فإن قوميون عكا فتح أبوابه أمام الفرسان والنبلاء والبرجوازيين، وتعاهد الجميع على أن يتعاونوا للدفاع عن أنفسهم([2]).

غير أن هذه التجربة لم يقدر لها البقاء طويلاً، فبعد اختفاء خطر الهوهنشتاوفن حل القوميون، واستعادت المحكمة العليا مركزها السابق([3]) غير أن هذا الحدث ترك آثاراً ملموسة على إجراءات المحكمة العليا، وذلك بإدخال الشهادة المدونة في أية قضية، واعتبارها ملزمة وشرعية، وتدوينها في السجل الرسمي لمداولات المحكمة، وقراراتها، وقد عُرف هذا السجل باسم "ذاكرة المحكمة"، والراجح أن هذه المحاولة قد جرت في أثناء إقامة الملك لويس التاسع في المملكة، وتم إقرارها في مؤتمر عام ضم المحكمة العليا والمحكمة البرجوازية في حوالي 648هـ/1250م ومع أن اقتراح الإصلاح هذا قد فشل إلا أن إجراءات المداولات العامة في حد ذاتها كانت لافتة للنظر، ومع أن المحكمتين العليا والبرجوازية لم تجتمعا بعد ذلك، إلا أن جلسات المحكمة العليا تغيرت بطريقة فردية([4]).

وكانت للسادة الإقطاعيين محاكمهم الإقطاعية من أجل البحث في المسائل الخاصة بالأفصال([5]) فكانت المحكمة الإقطاعية في الإمارة الصليبية مؤسسة قضائية وإدارية عليا، فكانت هذه المحكمة تنظر في كل الأمور المهمة في الإقطاعية، وكل مشكلات الحياة اليومية للسكان الفرنجة من الفرسان([6]) وقد جرت المحاكم الإقطاعية على ما اشتهرت به المحكمة العليا من قانون وإجراءات غير أنها كانت مستقلة عن المحكمة العليا([7]) فكانت بمثابة مجلس استشاري للسيد الإقطاعي.

([1]) نوفار، حروب، ص2−5 . براور، الاستيطان، ص 143. رنسيمان، تاريخ،ج3، ص323. العريني، نمو طبقة، ص59.

([2]) نوفار، حروب، ص145. رنسيمان، تاريخ،ج3، ص346. براور، الاستيطان، ص143.

([3]) براور، الاستيطان، ص143.

([4]) المرجع نفسه، ص143.

([5]) Smith, The Feudal, P.39

([6]) براور، الاستيطان، ص177

([7]) باركر، الحروب، ص63

فمن اختصاصات المحكمة الإقطاعية مناقشة المسائل المتعلقة بزواج إحدى بنات السيد الإقطاعي أو أقاربه، وتنظر كذلك في المنح، والصفقات التجارية الكبرى؛ كما كانت تنظر في الدعاوى القضائية التي يرفعها أحد أبناء الفصل الإقطاعي المتوفى أو أحد أقاربه المباشرين بشأن وراثة إقطاع هذا الفصل، وكان السيد الإقطاعي يقلد الإقطاع لهذا الابن في حضور أعضاء المحكمة، إذ كانت المحكمة الإقطاعية بمثابة مكتب لتسجيل عمليات نقل الأملاك الإقطاعية داخل حدود الإمارة الإقطاعية، وكانت كل أنماط التنازل عن الملكية للغير سواء بالبيع أو بالرهن أو بالتقسيم أو بالتبادل تتم في المحكمة الإقطاعية([1]).

وكانت الأحكام القضائية التي تصدرها المحكمة الإقطاعية في الإمارة الصليبية بخصوص القضايا المدنية والجنائية نهائياً ولا يمكن استئنافها أمام أية محكمة أخرى في المملكة([2]) إلا في حالة القضية الخاصة باتهام الفصل لسيدة بأنه ارتكب فعلاً غير شرعي أو أنه خرق قانون العلاقات الإقطاعية؛ ففي هذه الحالة كان يحق للفصل رفع اتهامه لسيده أمام المحكمة العليا، وذلك وفقاً لقانون التبعية الإقطاعية الذي سنه الملك عموري الأول([3]) وثمة حالة واحدة فقط يستطيع الفصل خلالها استئناف الحكم، وهي إذا وجه اتهام مباشر ضد قضاة المحكمة يفيد تحيزهم لصالح خصمه عن عمد([4]) ولقد بلغ عدد المحاكم الإقطاعية في المملكة الصليبية نحو اثنين وعشرين محكمة([5]).

بالإضافة إلى المحكمة الإقطاعية، والمحكمة العليا التي اختصتا بالتشريع والسياسة العليا للمملكة الصليبية، وفض المنازعات والمخالفات بين النبلاء بعضهم البعض، وجدت محاكم أخرى في مملكة بيت المقدس تعددت اختصاصاتها، وتنوع نشاطها، ومن هذه المحاكم المحكمة البرجوازية Cours de Bourgeois وهي خاصة بالصليبيين غير النبلاء على أن يكونوا من الأحرار([6]) ومع ملاحظة أن المحكمة البرجوازية لم تأتِ نتيجة لتطور الطبقة البرجوازية، إلا أنه يمكن اعتبارها جهازاً يختص بالحاجات الخاصة بالبرجوازيين، وتعبيراً عن ظهورهم السياسي المستقل([7]).

وهكذا يمكن القول بأن المحكمة البرجوازية قد وجدت في كل مكان داخل المملكة الصليبية، وجِدَ به كثافة سكانية إفرنجية، وذلك من أجل تلبية حاجات أَتباعها، كما أرست

([1]) براور، الاستيطان، ص174، 175، 177.

([2]) براور، الاستيطان، ص176. باركر، الحروب، ص63.

([3]) براور، الاستيطان، ص176.

([4]) المرجع نفس، ص176ه.

([5]) Beugnot (ed.) op. cit., Tome I, PP. 419-421

([6]) رنسيمان، تاريخ،ج2، ص483.

([7]) براور، الاستيطان، ص182.

المحكمة البرجوازية سلطات قضائية، تامة لإقرار العدالة على كل السكان البرجوازيين فـــي كل الأمور الخاصة بحيازة الملكية البرجوازية([1]).

ويتحدث حنا إبلين عن دور جودفري في تأسيس المحكمة البرجوازية في بيت المقـــدس جنباً إلى جنب مع المحكمة العليا([2]) غير أن براور يذكر أن مصطلح المحكمة البرجوازيـــة ظهر لأول مرة في وثيقة يرجع تاريخها إلى عام 544هـــ/1149م في مدينة القدس وتبعهـــا في إنطاكية في عام 562هـــ/1166م ثم في قيسارية في عام 563هـــ/1167م([3]).

وقد تعددت المحاكم البرجوازية في المملكة الصليبية حيث أحصى حنا إبلـــين ســـبع وثلاثين محكمة برجوازية في المدن التي اســـتقرت فيهـــا البرجوازيـــة الفرنجيـــة([4]) فـــي حين ذكرت بعض الوثائق المعاصرة أن عدد المحاكم البرجوازية في المدن الصليبية يـــصل إلى ما يزيد عن اثنين وأربعين محكمة([5]) وإن دل ذلـــك علـــى شـــيء فإنمـــا يـــدل علـــى كثافة استقرار أفراد الطبقة البرجوازية في مملكـــة بيـــت المقـــدس الـــصليبية، كمـــا يـــدل على نجاحهم في تنظيم أنفسهم كقوة سياسية مؤثرة تستطيع إدارة شؤونها القضائية بنفـــسها، حيث مارست هذه المحاكم نشاطها القضائي في المدن الصليبية المختلفـــة، وقامـــت بتنظـــيم الحياة الاقتصادية والاجتماعية في هذه المدن.

كان يرأس المحكمة البرجوازية الفيكونت Vicount([6]) وكان لابد أن يكون مـــن بـــين الفرسان أتباع الملك، وكان يساعده هيئة قضائية مؤلفة من اثني عشر عضواً أو محلفاً مـــن البرجوازيين ذوي المكانة الاجتماعية الراقية، لذا لم يتقاض أعضاء المحكمة أية مرتبات، كما كان لابد للمحكمة من وجود كاتب([7]) يتولى حفظ قضاياها ووثائقها، كذلك كان لابد من وجود شخص يسمى بالمحتسب([8]) حيث كان يقسم الجميـــع القســـم الخاص بالتعيين، والذي كـــان

([1]) Smith, The Feudal, P.85.

([2]) Beugnot (ed.) op. cit., Tome I, P. 23.

([3]) Prawer, Social , P. 158.

([4]) Beugnot (ed.), Lok. Cit., PP. 419 – 421.

([5]) براور، الاستيطان، ص178.

([6]) **الفيكونت:** كان الفيكونت بمثابة الحاكم للمدينة، وكان يرأس الشرطة المحلية وكان يمثل السيد الإقطاعي فـــي كـــل تعاملاتـــه وعلاقاته مع سكان المدينة من غير النبلاء، فكان الفيكونت يمثل قمة السلطة التنفيذية للمحكمة البرجوازية فهـــو رئـــيس هـــذه المحكمة، وقد كانت له سلطة الإشراف على الحركة التجارية في الأسواق والإشراف كما كان مسئولاً عن حفظ الأمـــن فـــي المدينة وتحصيل الضرائب. Beugnot (ed.), op., cit., Tome II, PP. 239, 240. يوسف، الأسواق، ص 173، 174.

([7]) **الكاتب:** كانت وظيفة الكاتب من الوظائف الإدارية الهامة في المملكة الصليبية وكان الكاتب يـــؤدي وظـــائف ماليـــة وإداريـــة هامة في الأسواق وفي الموانئ حيث يسجل الصفقات التجارية وأسماء التجار كما يسجل نـــسبة الرســـوم المفروضـــة علـــى سلع الصادرات، وعلى المبيعات في الأسواق، وكـــان الكاتـــب يحـــصل الرســـوم المفروضـــة علـــى أصـــحاب الحوانيـــت التجارية. يوسف، الأسواق، ص180.

([8]) **المحتسب:** منصب المحتسب هذا عربي إسلامي، وجده الفرنج في فلسطين فعملوا به، وفي بعض الأحيان كان يعرف باسم =

يتضمن فقرات خاصة باحترام قوانين المحكمة وحقوق الملك، ومراعاة الضمير في إقرار العدالة، وعدم إفشاء أسرار المحكمة، وكان يساعد الجميع رجال مسلحون تحت أمر وطلب الفيكونت باستمرار ([1]).

وبالنسبة لإجراءات التقاضي في المحكمة البرجوازية نرى أنها كانت تختلف كثيراً عن إجراءات التقاضي أمام المحكمة العليا، كما أن محلفي المحكمة البرجوازية كان لهم الحق في إبداء الرأي والمشورة لأي شخص يطلبها منهم، كما تم تمثيل المدعين والمهتمين في المحكمة بمحامين كانوا يقدمون أدلتهم كممثلين عن جميع الأطراف إذا لم يستطيعوا المرافعة عن أنفسهم، وحين كان رئيس المحكمة البرجوازية يطلب من المحلفين قراراً بالحكم كانوا ينسحبون للتشاور، ثم يعودون أخيراً لإعلان الحكم، وبعد ذلك يقوم رئيس المحكمة بإقرار الحكم النهائي للمحلفين([2]).

وكانت المحكمة البرجوازية تنعقد ثلاثة أيام في الأسبوع؛ هي أيام الاثنين والأربعاء والجمعة، باستثناء أيام الأعياد الدينية، وكانت أوقات الاجتماعات تتم من شروق الشمس حتى غروبها([3]).

كان من اختصاصات المحكمة البرجوازية النظر في كل ما يجري بين أهل المدن من المعاملات والعهود([4]) وامتد سلطانها لتشمل النظر في القضايا الجنائية المتعلقة بأهل المدن من البرجوازية، وكذلك تبليغ قوانين وأوامر الحكومة إلى الأفراد، وهي القوانين الخاصة بأمور الحرب، وحظر التجول وتحديد أسعار السلع والبضائع في الأسواق([5]).

كما كان من اختصاصات المحكمة البرجوازية كذلك النظر في القضايا المتعلقة بالمواريث والممتلكات التي تنتقل من شخص إلى آخر عن طريق الميراث، والإشراف على عملية تقسيم المواريث الحشرية، والتنظيمات الخاصة بالزواج، والإشراف على نقل الإقطاعات([6]).

وكانت المحكمة البرجوازية أيضاً بمثابة مكتب لتسجيل العقارات والممتلكات، ولهذا

= كبير السرجندارية، وكان المحتسب نائباً للفيكونت، ورئيس شرطة المدينة الذي كان منوطاً به مهمة حفظ الأمن في المدينة بوجه عام، والأسواق بوجه خاص، فكان من مهامه مراقبة الطرقات والأسواق، والموازين والمكاييل، ومراقبة أسعار السلع والبضائع المتداولة في السوق، وتوفير الأمن لأهل المدينة وحماية ممتلكاتهم وكان المحتسب يتقاضى مرتب شهري اثنا عشر بيزنت. Beugnot (ed.), op. cit., pp. 238, 243-244.يوسف، الأسواق، ص 175−177 براور، الاستيطان، ص179

([1]) Beugnot (ed.), op. cit., Tome II, pp. 238-244 . رنسيمان، تاريخ،ج2، ص483. باركر، الحروب، ص59.

([2]) Smith, op, Cit., p. 86

([3]) رنسيمان، تاريخ، ج2، ص484. براور، الاستيطان، ص 180.

([4]) Beugnot (ed.), op. cit., Tome I, PP. 419 – 421.

([5]) Prawer, Social Classes, P. 158. ، براور، عالم، ص103

([6]) براور، الاستيطان، ص180.

السبب كان لديها سجل خاص بها منذ عام 647هـ/1250م كما كانت تتقاضى أتعاباً مقابل القيام بعمليات التسجيل، والتوثيق ففي القرن السابع الهجري /الثالث عشر الميلادي كانت المحكمة البرجوازية في عكا وصور تتقاضى مبلغاً يقدر بمارك واحد من البائع، وثلاث بيزنتات من المشتري([1]) وبالإضافة إلى هذه الاختصاصات فقد كانت المحكمة البرجوازية بمثابة محكمة استئناف لمحكمة السوق ومحكمة السلسلة ذات الطابع التجاري([2]).

وحددت قوانين المحكمة الذين بإمكانهم التعامل بالبيع والشراء داخل المملكة البرجوازية فكان لجميع الرجال فوق سن خمس عشرة سنة، ولجميع النساء عند زواجهن، ولجميع الأشخاص ذوي الإرادة الحرة ولهم الحق في عمليات البيع والشراء([3]) وحددت القوانين كذلك الأشخاص الذين كان لا يحق لهم التعامل قانونياً داخل المحكمة البرجوازية منهم الأولاد والبناء فيما تحت السن القانونية، والأشخاص الذين أودعوا السجون لارتكابهم جرائم جنائية أو مدنية، والأشخاص الذين لا يدينون بالمذهب الكاثوليكي، إذ أن هؤلاء المذكورين لا يتفق وضعهم مع القوانين والعادات السائدة في عملية البيع والشراء الخاصة بالمواريث([4]).

وفي عهد الملك عموري الأول تم إنشاء محكمة السوق أو الفندق Cour de la Fonde حيث تقرر أن يتم إنشاء هذه المحكمة في كل مدينة من مدن المملكة الصليبية، والتي بلغ عددها ثلاثاً وثلاثين مدينة تنعقد فيها الأسواق([5]).

وقبل تأسيس محكمة السوق كانت هناك محكمة شامية وطنية([6]) يرأسها موظف سمي الريس، وبإنشاء محكمة السوق أو الفندق اندمجت المحاكم المحلية فيها، فانتقلت صلاحيات المحاكم الوطنية في المدن إلى محاكم السوق أو الفندق في حين ظلت تواصل المحاكم الوطنية عملها في القرى، واقتصر هذا التطوير على المدن فقط([7]).

([1]) Smith, op. cit., P. 86. ومن الجدير ذكره أن تعيين كاتب خاص للمحكمة البرجوازية في عكا يرجع إلى منتصف القرن7هـ/13 م. حيث تقرر هذا أثناء انعقاد المحاكمة العليا والمحاكم البرجوازية في فبراير عام 1251م ومنذ ذلك الوقت أصبح للمحكمة البرجوازية سجلات رسمية يدون فيها مذكرات القضايا التجارية وغيرها، غير أن هذه الإصلاحات الإدارية لم تنفذ إلا بحلول 666هـ/1269م. Smith, Lok. Cit., p. 8

([2]) يوسف، الأسواق، ص172.

([3]) Beugnot (ed) Op. cit. Tome II P. 254.

([4]) Ibid., P 255.

([5]) رنسيمان، تاريخ، ص484. باركر، تاريخ، ص63، 64. بلدوين، الدويلات، ص205،206.

([6]) خضع السكان الوطنيون من السوريين في السنوات الأولى لقيام مملكة بيت المقدس فيما كان لهم من محاكم وقوانين، وهذه المحاكم تألفت من محلفين وطنيين برئاسة قاضي وطني معروف باسم الريس الذي يقابل الفيكونت، وتنظر هذه المحاكم في القضايا الصغرى التي لا تنطوي من الناحية الجنائية على القتل، والقضايا التي تتجاوز قيمة ما ينظر فيه من الناحية المدنية قطعة فضية (مارك) ولم تكن لهذه المحاكم إلا أهمية ضئيلة فلم تلبث أن اندمجت في محاكم المدن، ولم تبق إلا في القرى. باركر، تاريخ، ص 64، هامش2.

([7]) براور، عالم، ص103.

ومن المرجح أن هذا التطوير القانوني والإداري جاء تلبية للحاجات المحلية التي فرضتها حركة النشاط التجاري التي شهدتها المدن الصليبية إبان فترة الاستقرار الاقتصادي والسياسي للمملكة الصليبية في عهد الملك عموري الأول.

كانت محكمة الفندق أو السوق تتألف من رئيس المحكمة المعروف باسم البايل Al-Bailla وستة أعضاء أو محلفين أربعة من الشوام واثنين من الفرنجة([1]) لذلك كان جميع أفراد الإقطاع يمثلون أمام هذه المحكمة، حيث كانت كل طائفة تبرهن على صدق شهادتها عن طريق القسم، فكان المسلمون يقسمون على القرآن؛ بينما يقسم المسيحيون على الإنجيل ويقسم اليهود على التوراة([2]).

وكانت محكمة السوق تصدر الأحكام التي تراها عادلة فيما يسند إليها من قضايا، وذلك في ضوء قوانين المدنية([3]) والعرف المحلي وتقاليد أهلها([4]) ويمكن استئناف الأحكام التي تصدرها محكمة السوق أمام المحكمة البرجوازية([5]) ووجد في المحكمة عدد من المحامين تم تكليفهم للدفاع عن التجار، والترافع نيابة عنهم أمام أعضاء المحكمة، وكذلك تنفيذ حجج المدعين والرد على تساؤلاتهم([6]).

ومن اختصاصات محكمة السوق أو الفندق النظر في القضايا التي تقوم بين التجار الشوام والتجار الصليبيين، تلك القضايا المتعلقة بالأمور التجارية البسيطة مثل مشاكل الديون، والاتفاقيات التي يقوم بخرقها أحد التجار؛ كما كانت تتولى تسجيل عقود البيع بعد إثبات صحتها، وكانت أيضاً بمثابة إدارة لجباية ضرائب السوق؛ فكان لديها سجل تدون فيه الصفقات التجارية([7]).

وارتبط بمحكمة السوق الملكي في عكا موظفون آخرون ساهموا في إنجاز المهام المنوطة بها، ومن هؤلاء الموظفين الحراس"رجال الشرطة" المسؤولين عن حفظ الأمن في الأسواق، والكاتب "المسجل" والكيالون، والقياسون، ودلالو المزاد العلني الذين كانوا يديرون عمليات البيع والشراء من خلال الحلقة، والمزاد العلني، فقد ذكرت مجموعة القوانين البرجوازية أن أسواق عكا في الفترة الصليبية عرفت مروج المزاد العلني([8]) وقد أشار ابن جبير أثناء رحلته إلى فلسطين إلى موظفي الفندق في عكا، وذكر صاحب ديوان

([1]) Benvenisti, op. cit., P. 29 . Beugnot (ed.) op. cit , Tome I, 245. براور، الاستيطان، ص186، 187.

([2]) رنسيمان، تاريخ، ج2، ص484، 485.

([3]) Beugnot (d.) Lok cit.

([4]) النقاش، العلاقات، ص 159

([5]) رنسيمان، تاريخ،ج2، ص485

([6]) Beugnot (d.) Lok cit.

([7]) Smith, Op. cit. P. 97.

([8]) Ibid., PP. 94, 95

التجار([1]) باعتباره رئيس الديوان بالإضافة إلى كتاب يقومون بتسجيل البضائع الواردة إلى عكا بطريق البحر([2]).

هكذا قامت محكمة السوق أو الفندق بإدارة جميع الأعمال التجارية في الأسواق مما خلق ازدهاراً ورواجاً في هذه الأسواق خلال فترة الاستقرار السياسي للمملكة الصليبية، وإذا كانت محكمة الفندق أو السوق قد قامت بإدارة الأسواق الصليبية الملكية فإن ثمة أسواق أخرى كانت منفصلة في إداراتها عن محكمة السوق مثل سوق اللحم، وسوق الجلود المدبوغة في عكا([3]) ومن المحتمل أن هذه الأسواق المستقلة في إداراتها كانت ملكاً لأفراد أو جماعات مثل الداوية أو الاسبتارية أو ملكاً للتجار الإيطاليين(البنادقة- الجنوية- البيازنة) أو ملكاً للتجار البروفنساليين، وخاصة تجار مرسيليا، فقد حصل هؤلاء جميعاً على امتيازات عديدة منها حق امتلاك أسواق لهم في المدن الصليبية ذات الشهرة التجارية مثل عكا وصور وطرابلس، وكان هؤلاء التجار يمارسون نشاطهم التجاري داخل أسواقهم الموجودة في الأحياء الخاصة بهم في هذه المدن، ويستخدمون معاييرهم الخاصة بهم، وذلك طبقاً لما أقرته بعض المعاهدات([4]) التي وقعت بين المدن الإيطالية وخاصة البنادقة، وبين الحكام الصليبيين في فترة باكرة من الوجود الصليبي.

فكانت الأحياء الإيطالية يوجد بها محاكم يرأس كل منها القنصل([5]) وكانت هذه المحاكم لا تنظر في القضايا الجنائية كالقتل والتزوير والسرقة([6])، وإنما كانت تفصل في المنازعات التي تنشب بين سكان الأحياء بمن فيهم سكان الأحياء من غير الإيطاليين([7]).

ومن المعروف أن فترة الوجود الصليبي في المنطقة العربية قد شهدت نشاطاً تجارياً وبحرياً متزايداً، ولعبت الأساطيل التجارية الإيطالية دوراً رائداً في هذا المجال، وتدفقت السفن التجارية من أوربا إلى الموانئ الصليبية في بلاد الشام، وقد اقتضت هذه الظروف

([1]) **ديوان التجار:** كان يقصد به محكمة الفندق أو السوق أو محكمة السلسلة أو الميناء أو بوابات المدينة، وأسواق التجار الأوربيين من الإيطاليين.

([2]) ابن جبير، الرحلة، ص235.

([3]) Smith, op. cit., P. 96

([4]) عن بنود المعاهدات التي وقعت بين البنادقة والحكام الصليبيين في عام 517هـ/1123م. انظر الصوري، تاريخ،ج1، ص602- 604. صبره، العلاقات، ص 26، 27.

([5]) **القنصل:** وهو ممثل حكومة بلاده في الحي الإيطالي، وكان القنصل يختار من بين اثني عشر تاجراً من التجار المقيمين في البلاد التي كانوا يشكلون وفقاً لذلك مجلساً لمساعدة القنصل في أداء وظيفته، ويعتبر منصب القنصل وليد فترة الحرب الصليبية الذي تطلب أن يكون لكل جالية ممثل خاص يعمل على رعاية شئونها، وعين إلى جانب القنصل موظف آخر يحمل لقب نائب القنصل بالإضافة إلى ثلاثة مساعدين للقنصل اثنان منهم يعملان كمستشارين والثالث يعمل موثقاً شرعياً، وكانوا يحضرون مع القنصل من البندقية رأساً، ويصدر قرار تعيينهم مع نفس القرار الذي يعين به القنصل. صبره، العلاقات، ص 225 – 227.

([6]) باركر، تاريخ، ص64. صبره، العلاقات، ص 227.

([7]) براور، الاستيطان، ص 595. صبره، العلاقات، ص 227 – 229 .

الجديدة قيام مؤسسة قضائية ذات طابع تجاري في هذه الموانى بجانب محكمة الفندق أو السوق، وقد عرفت هذه المؤسسة باسم محكمة السلسلة أو الميناء Cour de la Chaine([1]). ويرجع تأسيس محكمة السلسلة أو الميناء في فلسطين إلى فترة حكم الملك عموري الأول 558-570هـ/1162-1174م([2])، وإن كان المؤرخ رايلي سميث يبدي تحفظاً إزاء هذا التاريخ الخاص بإنشاء محكمة السلسلة فيرى أن تأسيس محكمة السلسلة، والفندق يرجع إلى وقت مبكر من القرن الثاني عشر الميلادي قبل فترة حكم الملك عموري الأول([3]).

وعرفت محكمة السلسلة في ميناء عكا باسم محكمة البحر، وكانت هذه المحكمة مسؤولة عن الفصل في القضايا-المتعلقة بالقانون البحري- التي تنشب بين التجار الأجانب والمحليين وهي القضايا الخاصة بالنقل والملاحين أو غرق السفن والقروض التجارية، والمنازعات التي تنشب بين البحارة وقادتهم، وفي حالة القضية التي يتجاوز قيمة ما ينظر فيه من الناحية المدنية قطعة فضية واحدة (مارك) فإن هذه القضية كانت تنظر أمام المحكمة البرجوازية وذلك للفصل فيها([4]) حيث كانت المحكمة البرجوازية بمثابة محكمة استئناف لهذا النوع من المحاكم، وكانت محكمة السلسلة مسؤولة أيضاً عن تشغيل الميناء، وصيانته بواسطة عدد من الموظفين كما ذكر بنيامين التطيلي أثناء زيارته لميناء صور([5]).

ومما يذكر أن محكمة السلسلة أو الميناء كان يرأسها موظف يعرف باسم "فيكونت الميناء" وكان أعضاؤها الستة يتم اختيارهم من بين وجهاء التجار والبحارة([6]).

وإذا كانت محكمة الفندق ومحكمة السلسلة قد أسند إليهما مهمة إدارة الأسواق والموانئ في المدن الصليبية، فإن إدارة الحياة الاقتصادية في القرية قد أسندت إلى ريس القرية أو المختار حيث كان بمثابة الفيكونت بالنسبة لهم([7]) فقد أبقى الصليبيون على نظام إدارة القرى في المناطق العربية المحتلة، فكان لكل قرية مجلس من الأعيان والشيوخ برئاسة ريس القرية، وكان هذا المجلس بمثابة محكمة القرية([8]).

كان ريس القرية يعين من قبل السيد الإقطاعي، لذلك كان من الموظفين ذوي الأهمية

([1]) يوسف، الأسواق، ص187. ولقد أخذت هذه المحكمة البحرية اسمها من العادة المنتشرة في الشرق بغلق مدخل كل ميناء بحري بسلسلة حديدية ممتدة بين برجين، وكانت هذه السلسلة تستعمل في إغلاق الموانئ في العصور الوسطى أثناء الليل أو وقف الحظر. ابن جبير، الرحلة، ص 236، 237. التطيلي، الرحلة ، ص 238.

([2]) Smith. Op. cit., PP. 91, 92. بلدوين، الدويلات، ص206.

([3]) I bid., P. 92

([4]) I bid., PP. 91, 92 .براور، عالم، ص 103

([5]) التطيلي، الرحلة، ص 238. ابن جبير، الرحلة، ص 235.

([6]) براور، الاستيطان، ص 189. رنسيمان، تاريخ،ج2، ص485.

([7]) Beugnot (ed.), op. cit., Tome I, PP. 25 – 26 . ابن جبير، الرحلة، ص 235. كما يذكر ابن طولون في سياق حديثه عن هجرة آل قدامة إلى دمشق ريس قرية جبعيت. ابن طولون، القلائد،ج1، ص70.

([8]) براور، الاستيطان، ص 438.

الكبيرة نظراً للمهام الكثيرة التي كانت ملقاة علـــى عاتقـــه؛ فهـــو بمثابـــة الوســـيط بـــين السيد الإقطاعي، وأهل القرية، وكان مسؤولاً عن حفـــظ الأمـــن فـــي القريـــة وتحـــصيل الضرائب الحكومية([1]).

كما كان ريس القرية يشارك في سن التشريعات والقوانين، ومن أهم هذه القوانين التـــي شارك بها قانون نقل الملكية من شخص إلى آخر من أهالي القرية([2]) حيث كان ريس القرية يعتبر من صغار الأفصال الإقطاعيين، ورغم أن قدرات الريس كانـــت مـــشابهة لقـــدرات الفيكونت في المحكمة البرجوازية إلا أنه لم يكن يلعب دوراً في قرارات المحلفـــين "مجلـــس الأعيان"، ولهذا ورغم الأصل العربي الإسلامي للريس، ولاختصاصاته، إلا أنه لم يكن يشبه القاضي الإسلامي الذي كان مسؤولاً مسؤولية تامة عن عملية الحكم([3]).

هكذا أسهم القانون العرفي، والمؤسسات القضائية في المملكة الصليبية في السيطرة على الحياة الاجتماعية والاقتصادية وتنظيمها، واستطاعت هذه المؤسسات إدارة شؤون المملكـــة، وحماية الحقوق العامة فيها؛ مما ساعد على ازدهار الحركـــة الاقتـــصادية؛ خـــلال الفتـــرة المستقرة للمملكة الصليبية.

وتوفر بنود الهدن المعقودة بين الصليبيين، والمسلمين للمؤرخ معلومـــات مفيـــدة عـــن الوضع القضائي بين المسلمين والصليبيين في مناطق المناصفات، حيث حرص الطرفين على وضع مواد في المعاهدات المعقودة بينهما تتعلق بشؤون الأمـــن، والنظـــر فـــي الـــدعاوى والمحاكمات، وتنفيذ الأحكام سواء أكان ذلك في القضايا الجنائية أو المدنية، فقد نصت هدنة عكا 682هـ/1283م على أن يلتزم الطرفان الإسلامي، والفرنجي بملاحقة الجنـــاة، ومـــن وصفتهم الاتفاقية "بحرامية البحر"والقبض عليهم، وتقديمهم للمحاكمة، والعمل علـــى إرســـاء الأمن، والاستقرار في بلادهما، وملاحقة جميع المجرمين، واللصوص، والمفسدين([4]).

وكان المبدأ الأساسي في هذه التنظيمات القانونية في بلاد المناصفات أن تطبق أحكـــام الشريعة الإسلامية إن كان الشخص مسلماً، ويطبق قانون الفرنج إن كان الشخص نـــصرانياً فقد نصت إحدى مواد الهدنة المعقودة بين الظاهر بيبرس وبيت الاسبتار فـــي 4 رمـــضان 665هـ/ مايو 1267م "على أن يحكم فيه بشريعة الإسلام إن كان مسلماً، وإن كان نصرانياً يحكم فيه بمقتدى دولة حصن الأكراد"([5]).

([1]) براور، الاستيطان، ص 438. ويذكر ابن جبير أن ريس القرية التي نزلها في عكا " كان مقدم من قبل الفرنج على مـــن فيهـــا من عمارها من المسلمين". ابن جبير، الرحلة، ص 235.

([2]) براور، الاستيطان، ص 438.

([3]) Smith, op. cit., P. 96. كاهن، الشرق، ص 202.

([4]) القلقشندى، صبح،ج14، ص 72.

([5]) المصدر نفسه،ج14، ص 36.

وبالنسبة للنظر في الدعاوى الخاصة بالسرقات، وما يغتصب من أشياء، وجرائم القتل، نصت بنود المعاهدات التي عقدت بين الطرفين الإسلامي والفرنجي أنه متى اغتصب مال أو بضاعة أو قتل قتيل من الجانبين لأي سبب كان رد المال إلى أصحابه إن كان موجوداً أو قيمته إن كان مفقوداً، ويعوض عن القتيل بنظيره من جنسه، وفي حال خُفي أمر القتيل أو المال حددت مهلة أربعين يوماً للكشف عنه، فإن ظهر المال، وتحقق من أمر القتيل أعيد المال بعينه، وعوض عن القتيل بنظيره، وإن لم ينصف المدعي يحق لهذا الأخير خلال أربعين يوماً إحالة أمره إلى الحكام من الجهتين في القضية العالقة([1]).

أما الأحكام التي كانت تصدر على الجناة المسلمين؛ فقد روعي فيها أن تكون صادرة وفق الشريعة الإسلامية، على أن يعطى لممثل المسؤول الفرنجي الحق في حضور تنفيذها؛ فقد جاء في إحدى مواد اتفاقية بيبرس مع جماعة الاسبتار ما نصه "على أن أي مسلم تصدر منه أذية يحكم فيه بما يقتضيه الشرع الشريف في تأديبه يعتمد ذلك فيه نائبنا من شنق يجب عليه، أو قطع أو أذى بحكم الشرع الشريف.. بحيث إلاّ يعمل ذلك، لا بحضور نائب من جهة بيت الاسبتار"([2]).

ث- المؤسسات التعليميـــة والاجتماعيـــة.

عندما آلت فلسطين وغيرها من البلدان الإسلامية للحكم الصليبي تأثرت الحياة العلمية والثقافية فيها تأثيراً كبيراً إذ أن الصليبيين قتلوا عدداً كبيراً من العلماء والفقهاء والزهاد عند احتلالهم لبيت المقدس([3]) هذا بالإضافة إلى ما ارتكبوه من مجازر في مختلف المدن التي اجتاحوها([4]) ومن المرجح أن عدداً كبيراً من علماء فلسطين قد غادروها عند اقتراب الصليبيين منها، فضلاً عمن غادرها بعد استيلاء الصليبيين عليها.

ولاشك أن مذبحة المسجد الأقصى التي ارتكبها الصليبيون في بيت المقدس، قد أدت إلى القضاء على مظاهر الحياة العلمية، والحركة الفكرية في هذه المدينة، وكان متوقعاً أن تضمحل وتتراجع النشاطات الفكرية في باقي المدن الفلسطينية في ظل العدوان الصليبي عليها، وقيام الصليبيين بتطبيق وممارسة سياسة الطرد والقمع، والإرهاب ضد المسلمين([5]).

ولم يتردد الصليبيون في مهاجمة أماكن العبادة الإسلاميـة، وتدمير مساجد المسلمين أو

([1]) القلقشندي، صبح،ج14، ص41، 46، 69.

([2]) المصدر نفسه،ج14، ص51.

([3]) ابن الأثير، الكامل،ج9، ص19، ابن خلدون، تاريخ،ج5، ص216. وذكر يوسف غوانمة في كتابه " دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين في العصر الإسلامي" ص181 أن الفرنجة قتلوا عشرة آلاف عالم وفقيه عند دخولهم بيت المقدس، ولم يجد الباحث في المصادر التي رجع إليها وخاصة كتابي ابن القلانسي وابن الأثير ما يشير إليه.

([4]) رنسيمان، تاريخ،ج2، ص16، 17. ولمزيد ينظر الفصل الأول من الدراسة ، ص39؛46- 49.

([5]) حول هذه السياسة ينظر الفصل الثاني من الدراسة، ص89- 96.

تحويلها إلى كنائس في أوقات الصراع العسكري([1]) فعندما سقط المسجد الأقصى في أيـدي الصليبيين 493هـ/1099م عملوا على تحويل قبة الصخرة إلى كنيسة أطلقوا عليها اسم معبد السيد وأضافوا عليه مذابح، وأماكن للتعبد، وكتبوا نقوشاً لاتينية على الجـدران، وزودوهـا بالصور والتماثيل([2]) وجعلوا المسجد الأقصى مسكناً لملكهم ولفرسان الداوية([3]) وفـي عكـا أيضاً قام الصليبيون بتحويل مسجدها إلى كنيسة([4]) أما في عسقلان فقد حول مسجدها إلـى كنيسة باسم القديس بولس، وضمت هذه الكنيسة إلى أسقفية بيت لحم([5]) وفي الخليل تحـول المسجد الجامع بالحرم الإبراهيمي إلى كنيسة([6]).

كما قام الصليبيون ببناء كنيسة كبيرة في مدينة اللد تدعى "كنيسة القـديس جـورج"([7]) وأخرى في مدينة طبرية تدعى كنيسة "القديس بطرس"([8]) وهدف الصليبيون من وراء سياسة تحويل المساجد إلى كنائس، القضاء على الثقافة الدينية لدى المسلمين، وكل مظـاهر الحيـاة العلمية فيها([9]).

وفي ظل تطبيق سياسة الاضطهاد الثقافي، والحضاري ضد الإسلام والمـسلمين؛ قـام الصليبيون بتغيير أسماء أبواب بيت المقدس، وشوارعها، وبعض الأماكن فيها، وأطلق عليها أسماء صليبية جديدة([10]).

وكانت إحدى النتائج المترتبة على احتلال فلسطين، وممارسة أساليب القمع والإرهـاب ضد المسلمين؛ بروز ظاهرة هجرة الفلسطينيين إلى خارج فلـسطين، ولـم يكـن العلمـاء والزعماء بأحسن حالاً من العامة؛ فقد كان على رأس المهاجرين أسرة بنـي قدامـه التـي اشتهرت بالعلم والمعرفة، وكانت تقيم في قرية جماعيل([11]).

حيث نشأت في قرية جماعيل حركة دينية تحدّت الاحتلال الصليبي، وحمل لواءهـا علمـاء الحنابلة وفي طليعتهم آل قدامة، ويبدو أن جدّ هذه الأسرة قدامه، أو ابنه محمد التقى بأبـي

([1]) ابن منقذ، الاعتبار، ص 242. العليمي، الأنس،ج1، ص 449. كاهن، الشرق، ص 113، 215. براور، الاسـتيطان، ص95. محمود، المقاومة، ص 238.

([2]) سايولف، وصف، ص30، 31. فورزبورغ، وصف، ص 45- 47. الأصفهاني، الفتح، ص 92. أبـو شـامه، الروضـتين، ج3، ص 256. الإدريسي، نزهة،ج1، ص310.

([3]) فورزبورغ، وصف، ص51، 52. التطيلي، الرحلة، ص 249.

([4]) ابن الأثير، الكامل،ج10، ص 149.

([5]) الصوري، تاريخ،ج2، ص 822، 823.

([6]) السيد، الخليل، ص329.

([7]) دانيال، وصف، ص 47.

([8]) المصدر نفسه، ص96.

([9]) المدني، الحياة العلمية، ص 79.

([10]) النقر، التغيرات، ص8-10.

([11]) ابن طولون، القلائد،ج1، ص66- 68.

الفرج عبد الواحد الشيرازي الذي نشر مذهب الحنابلـــة في فلسطين قبل الاحتلال الـــصليبي لها([1]) وكان عمر بن قدامه، وابنه أحمد، ثم حفيده محمد أبو عمر([2]) خطباء قرية جماعيل في عهد الاحتلال الصليبي، وقد عاشوا مع فلاحي الريف في إقطاع أمراء الفرنجة.

تمثلت مقاومة آل قدامه للصليبيين في المزيد من التمـــسك بالـــدين والتقـــوى، وكـــان أبناء القرى المجاورة يجتمعون إليهم في خطبة الجمعة([3]) وكانت الاجتماعات التـــي تعقـــد في جماعيل بمثابة حلقات دراسية لأهـــل القـــرى المجـــاورة، يـــتم فيهـــا قـــراءة القـــرآن وحفظ الحديث، والتفقه في الأمور الدينية([4]) هذا بالإضـــافة إلـــى أنهـــم كـــانوا يـــشجعون الناس على مقاومة الصليبيين، والفلاحين على تـــرك العمـــل فـــي أراضـــي الـــصليبيين، والانصراف إلى أمور الدين([5]).

ولاشك أن تحريض آل قدامه للفلاحين على ترك العمل في أراضي الفرنج كان يلقـــى استجابة من أهل القرى الذين كانوا يعانون الكثير من ظلم الإقطاعيين الصليبيين([6]) وحـــين تنبه الصليبون لنشاطات آل قدامه، وتحريضهم الفلاحين ضدهم، عزموا على قتل كبير عائلة آل قدامه، الشيخ أحمد بن قدامه، وعلم الشيخ بذلك عن طريق رجل كان يعمل كاتباً لصاحب إقطاع نابلس؛ فقرر الهرب هو وأبناؤه إلى دمشق سنة 551هـــ/1156م([7]) واستقروا أولاً في مسجد أبي صالح؛ ثم ارتادوا مكاناً آخر في سفح جبل قاسيون دعي بالصالحية([8]).

وتتابعت بعد ذلك هجرة آل قدامه، وغيرهم من القرى الأخرى([9]) وبالإضـــافة إلـــى آل قدامه انتقل من نابلس جماعة كثيرون من أقربائهم وأنسابهم دعوا بالمقادسة؛ منهم آل عبـــد الهادي، وبنو سرور، وبنو عبد الواحد، وأسرة راجح وأسرة المرداوي([10]).

وفي الصالحية تطورت نهضة علمية استمرت عدة قرون، وكان منطلق هذه النهضة العلمية مدرسة بناها أبو عمر، ودار نشاطها في المقام الأول على الفقه الحنفي والحديث([11]).

([1]) العسلي، الحياة الفكرية، ص460. مصطفى، آل قدامه، ص 10.

([2]) **محمد أبو عمر:** هو محمد بن احمد بن قدامه، ولد سنة 528هـــ/1133م. بقرية جماعيل؛ سمع بدمشق عن أباه وأبا المكارم بن هلال وغيرهما، ومن مآثره التي ساهمت في ازدهار الحياة العلمية في دمشق؛ المدرسة العمرية التي بناهـــا وأشـــرف عليهـــا وهي مدرسة متخصصة في الفقه الحنبلي، توفي سنة 607هـــ/1210م. أبو شامه، الروضتين،ج5، ص 109، 110.

([3]) ابن طولون، القلائد،ج1، ص68.

([4]) المصدر نفسه. مصطفى، آل قدامه ، ص12.

([5]) مصطفى، آل قدامه، ص12.

([6]) ابن طولون، القلائد،ج1، ص 67.

([7]) المصدر نفسه،ج1، ص 68– 70.

([8]) أبو شامه، الروضتين،ج5، ص 110. ابن طولون، القلائد،ج1، ص 64، 66.

([9]) ابن طولون، القلائد،ج1، ص70– 76.

([10]) العسلي، الحياة الفكرية، ص460.

([11]) ابن كثير، البداية،ج13، ص60. النعيمي، الدارس،ج2، ص 78. المدني، الحياة العلمية، ص86.

هكذا شهدت فلسطين في ظل الاحتلال الصليبي، فقر ثقافي كبير، وذلك ليس بغريب، إذ ليس من المتوقع أن يسهم شعب كان يعاني من ظلمات الجهل والتخلف في إشادة نهضة علمية؛ لشعب صاحب حضارة عظيمة؛ هي الحضارة الإسلامية، ولم يسعَ الصليبيون أثناء إقامتهم في الشرق إلى تقليل الفارق الكبير في المستوى العلمي بينهم وبين المسلمين؛ لذلك لم يهتموا بإنشاء المدارس، ولا بتشجيع الحياة العلمية، وليس هذا فحسب بل إن السياسة الصليبية عملت على تعطيل ما تبقى من مظاهر الحياة العلمية في فلسطين، وذلك بتحويلها المساجد إلى كنائس، وخنقت الحريات الدينية للمسلمين، وعطلت شعائرهم الدينية([1]).

ويرى العسلي أن المجتمع الصليبي بما ساده من نظرة تعصبية منعته من الانصهار في الشرق، والتعايش معه، قد جعلته ينطوي على نفسه إلى أن تحجر وتصلبت عروقه، وبالتالي فشل في إيجاد نخبة من المفكرين، والمجددين، وقد تجلى ذلك الفشل في عدم تأسيس المدارس في المملكة الصليبية؛ مما نجم عن ذلك تخلف فكري؛ فحرم المجتمع من ثمرات التفاعل مع الحضارات الأخرى، وكان ذلك الفشل من أهم أسباب زواله، ويبدو أن التعليم في الدولة الصليبية ظل مقتصراً على التعاليم الدينية التي ظلت محصورة داخل الكنائس([2]).

وكان استرداد صلاح الدين الأيوبي للقدس، ومعظم فلسطين بعد معركة حطين 583هـ/1187م إيذاناً باستئناف الحركة العلمية في فلسطين بعد حوالي تسعين عاماً من بدء الاحتلال الصليبي، فقد انتهجت الدولة الأيوبية والمملوكية سياسة التعريب، ومحو آثار الاحتلال الصليبي، وصبغ المدن المحررة بالصبغة الإسلامية([3]) "فعاد الإسلام هناك غضاً طرياً"([4]) مما أدى إلى إعادة بعث وحياء الحياة العلمية في فلسطين.

كما كان لدعم السلاطين والأمراء أثر بالغ في ازدهار الحركة العلمية، وساعدت على ذلك القوة الاقتصادية التي تمتعت بها الدولة الأيوبية والمملوكية، وفي ظل هذا الدعم لمؤسسات العلم زاد عدد العلماء والطلبة، وازدهرت الحياة العلمية، والثقافية في فلسطين([5]).

ومهما يكن من أمر فإن اهتمام الملوك والسلاطين بالعلماء، وموقفهم الإيجابي منهم ينبع من إدراكهم لدورهم الاجتماعي كونهم القوة الاجتماعية التي تمتلك القدرات الفكرية والعلمية في توجيه المجتمع للوقوف في وجه العدوان الصليبي لبلاد الشام([6]).

فقد قدم العلماء من بين صفوفهم عناصر الإدارة للسلطة الأيوبية، ومن بعدها للسلطة

([1]) كاهن، الشرق، ص 215.

([2]) العسلي، الدراسات، ص 126، 127.

([3]) الأصفهاني، الفتح، ص 126.

([4]) ابن الأثير، الكامل،ج10، ص 158.

([5]) الأصفهاني، الفتح، ص358. ابن واصل، مفرج،ج4، ص 141، 210– 215،ج5 ، ص 185.

([6]) إبراهيم، الحياة الاجتماعية، ص 34، 35.

المملوكية، وكان كبار الإداريين من كتاب، وقضاة، ووزراء، أصحاب نفوذ وتأثير وسلطان واسع، فعندما يعود الباحث إلى ما كتبه العماد الأصفهاني عن عصر صلاح الدين يخرج بانطباع أن العماد كان هو الآمر والناهي في دولة صلاح الدين؛ وإنما بترتيب ثانٍ لأن القاضي الفاضل كان هو رجل الدولة الأول أيام صلاح الدين([1]) ويدلل هذا على أن وحدة الاختصاص والعقلية والمفاهيم قد جمعت بين أركان الإدارة المدنية في الدولتين الأيوبية والمملوكية، وبين أرباب الوظائف الدينية، وهكذا ملك العلماء في هذين العصرين إمكانات سلطوية هائلة التأثير، وحاسمة في كثير من الأحيان([2]).

ومن مظاهر اهتمام الملوك والسلاطين بالحياة العلمية في فلسطين إنشاء المؤسسات الدينية والتعليمية المتمثلة بالمساجد، والخوانق، والربط، والزوايا، والمدارس، بوصفها أماكن المعرفة؛ للثقافة والفكر، فاهتمام الملوك والسلاطين بالمساجد والجوامع نابع من إدراكهم بأهمية آثارها الاجتماعية حيث كانت المساجد بمثابة منابر للتعبئة الاجتماعية في الدعوة للجهاد في سبيل الله فضلاً عن دورها الفكري والثقافي([3]).

وشهدت فلسطين إبان العهد الأيوبي والمملوكي اهتماماً واسعاً بالمدارس إ تنافس الملوك والسلاطين والأمراء في بناء المدارس، وتعددت انتماءاتها المذهبية وبلغ عددها تسعة مدارس أثناء فترة الدراسة وهي:

- المدرسة الصلاحية.

وهي من أقدم المدارس التي أقيمت في بيت المقدس بعد تحريره من الفرنج؛ فيذكر الأصفهاني أن صلاح بعد أن رتب أمور المدينة "فاوض جلساءه من العلماء الأبرار والأتقياء الأخيار في مدرسة للفقهاء الشافعية ورباط للصلحاء الصوفية، فعين للمدرسة الكنيسة المعروفة بصندحنة عند باب الأسباط، وعين دار البطريرك، وهي بقرب "كنيسة قمامة للرباط، ووقف عليهما وقفاً"([4]) ويذكر ابن واصل أن كنيسة صند حنة صارت في الإسلام دار علم، وكان يدرس بها العالم الفقيه نصر بن إبراهيم المقدسي، قبيل الاحتلال الفرنجي للقدس، وبعد الاحتلال الصليبي للقدس أعادوها كنيسة كما كانت قبل الإسلام، ولما فتح صلاح الدين القدس أعادها مدرسة([5]) ومن خلال ما أورده الأصفهاني نرى أن المدرسة أسست في 583هـ/1187م أما كتاب الوقفية فكان بتاريخ 588هـ/1192م([6]) وهذا ما

([1]) الأصفهاني، الفتح، ص 72، 87، 96، 200، 273.

([2]) زعرور، الحياة الاجتماعية ، ص 124، 125.

([3]) المدني، الحياة العلمية، ص 165 – 169.

([4]) الأصفهاني، الفتح، ص95. أبو شامه، الروضتين،ج3، ص258. العليمي، الأنس،ج2، ص88.

([5]) ابن واصل، مفرج،ج2، ص470.

([6]) العليمي، الأنس،ج2، ص 88.

ذكره العماد في حوادث سنة 588هـ([1]) وكانت هذه المدرسة من أجل المدارس في بيت المقدس، ولا يتولى المشيخة فيها إلا من شهد له بالعلم والفضل، ويتم ذلك بمرسوم سلطاني من القاهرة، وكان لشيخ الصلاحية تقديره، واحترامه الخاص لدى الملوك والسلاطين([2]).

- **المدرسة الخنثنية.**

وهي مدرسة وزاوية كانت تقع خارج السور الجنوبي للمسجد الأقصى، وقفها الملك الناصر صلاح الدين على رجل من أهل الصلاح وهو الشيخ العابد المجاهد جلال الدين محمد بن أحمد بن محمد الشاشي، وقد أوقفها علية سنة 587هـ/1191م وكان لها دور في مجال التدريس([3])

- **المدرسة الميمونية.**

كانت تقع قرب باب الساهرة([4]) ببيت المقدس تنسب إلى الأمير فارس الدين أبي سعيد ميمون بن عبد الله القصري؛ كان خازنداراً ([5]) الملك الناصر صلاح الدين، ومن كبار أمرائه ومستشاريه المقربين، وتاريخ وقفها 593هـ/1196م وابتدأت هذه المدرسة زاوية ثم أصبحت مدرسة للشافعية، واستمرت تؤدي مهمتها في الحركة الفكرية حتى القرن التاسع الهجري([6]).

- **المدرسة البدرية.**

تقع إلى الغرب من الحرم، وتنسب إلى واقفها بدر الدين محمد بن أبي القاسم الهكاري، وهو أحد فرسان المسلمين، ومن كبار المجاهدين في الحروب الصليبية استشهد سنة 614هـ/1217م وتاريخ وقفها سنة 619هـ/1213م([7]) على فقهاء الشافعية.

- **المدرسة الأفضلية.**

كانت تقع في حي المغاربة بجوار الحرم القدسي من جهة الغرب وتنسب إلى مؤسسها الملك الأفضل المتوفى سنة 622هـ/1225م وكان الملك الأفضل قد أنشأ هذه المدرسة ووقفها سنة 589هـ/1193م على فقهاء المالكية، الذين قدموا إلى بيت المقدس وأقاموا فيها،

([1]) الأصفهاني، الفتح، ص358.

([2]) العليمي، الأنس،ج2، ص 88، 177-182. غوانمة، تاريخ نيابة، ص167.

([3]) العليمي، الأنس،ج2، ص 77.

([4]) **بوابة الساهرة = بوابة الزاوية:** تقع عند الزاوية الشمالية لمدينة القدس ولذلك أطلق عليها بوابة الزاوية، وقد أقيمت هذه البوابة منذ عهد يرجع إلى ما قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام. بورشارد، وصف، ص 130.

([5]) **خازندار:** وهي لقب الذي يتولى خزانة السلطان وخازندار كلمة مكونة من لفظين أحدهما عربي، وهو الخزانة أي ما يخزن فيه المال، والثاني فارسي وهي دار ومعناها ممسك فحذفت الألف والهاء من خزانة استثقالا فصارت خازندار بمعنى ممسك الخزانة. القلقشندي، صبح،ج5، ص435.

([6]) العليمي، الأنس،ج2، ص100.

([7]) أبو شامه، الروضتين،ج5، ص164. ابن كثير، البداية،ج13، ص80. العليمي، الأنس،ج2، ص98.

وكان أكثرهم من أهل المغرب، وقد اهتم العلماء في هذه المدرسة بتدريس المذهب المالكي([1]).

- **المدرسة المعظمية.**

تقع في الجهة الشمالية من الحرم، وقد بناها الملك المعظم عيسى صاحب دمشق سنة 614هـ/1217م وأوقفها على الفقهاء الحنفية([2]).

- **المدرسة الأمجدية.**

تنسب إلى الملك الأمجد حسن شقيق الملك المعظم وقد أوقفت هذه المدرسة على فقهاء الحنفية([3]).

- **المدرسة النحوية.**

أسسها المعظم عيسى في الحرم الشريف في بيت المقدس وتدعى أيضاً بالقبة النحوية أسسها سنة 604هـ/1207م ووقف عليها أوقافاً عديدة، وقد خصصها لتدريس اللغة العربية من أدب ونحو، ومن الكتب التي درست فيها كتاب "سيبويه" وكتاب الإيضاح وكتاب إصلاح المنطق وغيرها من الكتب([4]).

- **المدرسة الناصرية أو الغزالية.**

سميت بالناصرية نسبة إلى الشيخ نصر المقدسي أما الغزالية فنسبة إلى أبي حامد الغزالي؛ أعاد إنشائها الملك المعظم عيسى من جديد، وجعلها مدرسة وزاوية لقراءة القرآن والاشتغال بالنحو، ووقف عليها كتباً كثيرة ليرجع إليها الطلبة وقت الحاجة([5]).

- **المدرسة العمادية.**

أنشأها عماد الدين عبد الحافظ بن بدران النابلسي الحنبلي(ت 698هـ/1298م) وهي أول مدرسة أنشئت في نابلس في العصر المملوكي([6]).

يتضح مما سبق غلبة مدارس الفقه الشافعي على غيرها من المدارس، وتركز النشاط العلمي على مدينة القدس؛ كما اتضح بروز الاهتمام بتدريس علمي الحديث والفقه، وكان النشاط في القراءات والتفسير والتصوف واللغة والأدب أقل بكثير.

ومن المؤسسات الدينية التي نالت اهتماماً خاصاً لدى السلاطين في العصر الأيوبي والمملوكي بيوت المتصوفة؛ حيث اشتدّ تيار التصوف في بلاد الشام منذ العصر الأيوبي،

([1]) أبو شامه، الروضتين،ج5، ص220. العليمي، الأنس،ج2، ص97.

([2]) العليمي، الأنس،ج2، ص89.

([3]) ابن واصل، مفرج،ج4، ص211.

([4]) ابن واصل، مفرج،ج4، ص211. المدني، الحياة العلمية، ص179.

([5]) العليمي، الأنس،ج2، ص76، 77.

([6]) ابن عماد الحنبلي، شذرات،ج3، ص442.

وبلغ أقصى انتشاره في العصر المملوكي، وانقطع المتصوفة والزهاد للعبادة في بيوتٍ خاصة أقيمت لهم في أمهات المدن الشامية([1]) وكان لهذه المؤسسات دور ديني، واجتماعي ومن أهم هذه المؤسسات الخانقاه الصلاحية.

فبعد تحرير القدس من الاحتلال الصليبي 583هـ/1187م أنشا صلاح الدين مدرسة للفقهاء الشافعية ورباطاً للصلحاء الصوفية، وعين دار البطريرك القريبة من كنيسة القيامة للرباط، ووقف عليها أوقافاً عديدة([2]) وتاريخ وقفها الخامس من رمضان 585هـ/1189م([3]) ومن الملاحظ أن كتاب الوقفية مزج بين الرباط والخانقاه؛ فوظيفة الرباط تحولت مع الزمن إلى بيت للصوفية، بينما كان معداً للمرابطة من الرجال للدفاع والجهاد في الثغور الإسلامية المختلفة([4]).

وكانت مشيخة الخانقاه الصلاحية من الوظائف السنية المهمة؛ إذ كان شيخها من أرباب الوظائف الدينية، وكان يعين بمرسوم من السلطان([5]) وأول من تولى مشيخة الخانقاه الصلاحية من العلماء المتصوفة غانم بن علي بن حسين الأنصاري المقدسي؛ من بني غانم وهي عائلة عربية حجازية سكنت بيت المقدس بعد سنة 583هـ، واستقروا في حي خاص بجوار الحرم في الجهة الشمالية الغربية، وعرف هذا الحي باسمهم([6]).

ومن المؤسسات الدينية والتعليمية التي اهتم السلاطين والأمراء بإنشائها، ولعبت دوراً في الحياة الاجتماعية الأربطة والزوايا؛ فبلغت عدد الزوايا التي أنشئت خلال فترة الدراسة ست زوايا([7]) وخمس أربطة([8]).

ومن الجدير بالذكر أن عدداً من الخوانق والأربطة خصصت للنساء، حيث ذكر المقريزي في خططه أن بعض الخوانق والأربطة خصصت للنساء الأرامل والمطلقات([9]).

([1]) ابن جبير، الرحلة، ص221. ولمزيد انظر عوض، الحركة الصوفية، ص71-105.

([2]) الأصفهاني، الفتح، ص95، 358. أبو شامه، الروضتين،ج3، ص258.ابن واصل، مفرج،ج2، ص408. العليمي، الأنس،ج2، ص98،99.

([3]) العليمي، الأنس،ج2، ص99.

([4]) المقريزي، الحفظ،ج3، ص600، 601.

([5]) القلقشندي، صبح،ج12، ص105، 106.

([6]) العليمي، الأنس،ج2، ص240، 241. غوانمه، تاريخ نيابة، ص178.

([7]) وجد في فلسطين خلال فترة الدراسة ست زوايا أربعة منهم في القدس وهي الزاوية الجراحية، وزاوية الشيخ بدر الدين، وزاوية الهنود، وزاوية الدركاة، وواحدة في الخليل وهي زاوية الشيخ على ألبكا، وأخرى في نابلس وهي زاوية الشيخ عبد الله بن غانم النابلسي. ابن كثير، البداية،ج13، ص 271،267. العليمي، الأنس،ج2، ص98-101،241، 242،245.

([8]) منها ربطان في القدس وهما رباط علاء الدين البصير والرباط المنصوري، وثلاث أربطة في مدينة الخليل، وهي الرباط المنصوري والرباط الطواشي، والرباط الملكي؛ علماً بأن الرباطين الأخيرين لم يذكر العليمي عنهما أي معلومات. العليمي، الأنس،ج2، ص91، 157، 142.

([9]) المقريزي، الخطط،ج3، ص596، 597، 602، 603.

- **البيمارستانات.**

أنشئت البيمارستانات([1]) في الدولة الإسلامية منذ العصر الأموي([2])، وهي من مفاخر الحضارة العربية الإسلامية، وزاد الاهتمام بها في العصر العباسي، ولكن الأيوبيين والمماليك استكثروا من بناء البيمارستانات، وقاية لأهل البلاد من الأوبئة، والأمراض التي مافتئت تضرب المنطقة الفينة بعد الأخرى.

ووجد في فلسطين منذ العصر الفاطمي بيمارستانٌ في مدينة القدس، فحين زار ناصر خسرو القدس 438هـ/1047م وصفه بأنه "مستشفى عظيم، عليه أوقاف طائلة، ويصرف لمرضاه العديدين العلاج والدواء، وبه أطباء يأخذون مرتباتهم من الوقف المقررة لهذه المستشفى"([3]) ولقد ظل هذا البيمارستان يؤدي خدماته الطبية، والاجتماعية حتى احتلال الصليبيين للقدس.

وفي العقد الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي بادر الأمالفيون أبناء مدينة أمالفي Amalfi([4]) الإيطالية الشهيرة بنشاطها التجاري إلى اختيار مدينة بيت المقدس لكي يقيموا فيها مستشفاً لهم عرف باسم مستشفى القديس يوحنا St- John حيث أدركوا ما كان يتحمله الحجاج من مشاق بالغة في سبيل الوصول إلى أماكن الحج في الأراضي المقدسة؛ لذا فقد اتفق تجار أمالفي مع الفاطميين على تأسيس المستشفى([5]) واستمرت المستشفى تقوم بعملها الخيري من أجل رعاية المرضى والفقراء والجرحى من الحجاج المسيحيين القادمين إلى فلسطين، وكان يتولى قيادة رئاسة المستشفى عند احتلال الصليبيين لفلسطين شخص يدعى جيرارد Gerard([6]).

وبعد الاحتلال الصليبي لبيت المقدس تزايد عمل ونشاط المستشفى بشكل كبير، وتعليل ذلك أن المستشفى قد استقبلت العديد من الجنود الصليبيين الجرحى، وعولجوا بعناية([7]).

([1]) **البيمارستان:** كلمة فارسية مكونة من مقطعين بيمار بمعنى مريض أو ضعيف أو مصاب، وستان بمعنى دار ويقال أن أبقراط هو أول من أقام البيمارستانات، فقد خصص موضعاً للمرضى في بستان له، وكان يخدمهم ويقوم بمداواتهم، وثمة من يذكر أن البيمارستانات الأولى أقامها الأطباء النسطوريون في مدينة جنديسابور بعد هربهم من اضطهاد الرومان الشرقيين، ويرى البعض أن البيمارستانات كانت ملحقة بالمعابد التي تمثل آلة الطب الإغريقي قبل الإسلام. صالحيه، الطب، ص400.

([2]) اليعقوبي، تاريخ،ج2، ص29. القلقشندي، صبح،ج1، ص491.

([3]) خسرو، سفرنامه، ص57.

([4]) **أمالفي:** وهي مدينة إيطالية تقع في مقاطعة سالرنو Salerno إلى الجنوب الغربي منها، وعلى بعد سبعة عشر ميلاً على الساحل الشمالي من خليج سالرنو حيث كانت أمالفي مستعمرة بيزنطية، وحصلت على استقلالها في وقت مبكر من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وخضعت بعد ذلك لسيطرة النورمان، ودخلت في علاقات تجارية هامة مع الدولة الفاطمية. الصوري، تاريخ،ج2، ص830. عوض، التنظيمات، ص63.

([5]) الصوري، تاريخ،ج2، ص 831– 833. عوض، التنظيمات، ص32.

([6]) الصوري، تاريخ،ج2، ص834.

([7]) عوض، التنظيمات، ص 34.

وقد ساعد على تقدم وتطور المستشفى أن القيادة الصليبية في المملكة عملت على دعمها فبعد انتخاب جودفري حاكماً لمملكة بيت المقدس قام بزيارة مستشفى القديس يوحنـــا، وأقـــر لهيئة الاستبارية بعض الأملاك التي أوقفها لحساب المستشفى([1]).

ويلاحظ أن السياسة نفسها التي اتبعها جودفري قد سار عليها خلفه الملـــك بلـــدوين الأول فيذكر ألبرت ديكس أنه بعد انتصار الملك بلدوين على المصريين في معركة الرملـــة عام 495هـ/1101م قدم عشر الغنائم لهيئة الاستبارية([2]) ومن المحتمـــل أن البيمارســـتان الإسلامي الذي أنشئ في العصر الفاطمي، قد تم منحه وضمه إلى مستشفى القـــديس يوحنـــا ولقد زار عدد من الحجاج الأوربيين تلك المستشفى أثناء الاحتلال الصليبي للقدس وزودونـــا بمعلومات عن نزلائها ونشاطاتها الطبية.

ففيما بين555- 565هـ/1160- 1170م زار يوحنا فورزبورغ المستشفى، وذكر أنها تقع في الجهة الجنوبية المقابلة لكنيسة القيامة، وأنها احتوت على عدد من الحجرات، احتوت بدورها عدداً كبيراً ومتزايداً من المرضى من الجنسين([3]) وقدر عدد المرضى المتواجدين في المستشفى بألفي شخص تقوم المستشفى بعلاجهم([4]) ولم يوضح ذلك الرحالة ما إذا كان هـــذا العدد يرتبط بالذين يترددون على المستشفى أم الذين يقيمون بها بغرض العـــلاج؟، ويـــرى الباحث أن أعداد المرضى، والجرحى بالمستشفى كان عرضة للزيـــادة والنقـــصان، وفـــق مقتضيات الصراع الإسلامي الصليبي، وتردد أعداد من الجرحى من الفرسان الصليبيين على المستشفى للعلاج، ففي سنة 573هـ/1177م تمكن مستشفى القديس يوحنـــا مـــن اســـتقبال سبعمائة وخمسين جريحاً بعد معركة تل الصافية التي دارت بين صـــلاح الـــدين الأيـــوبي والفرنج([5]) وذكر يوحنا أن عدد من يشفى من المرضى يومياً، ويغـــادر المستـــشفى يقـــدر بخمسين شخصاً([6]).

ومن ناحية أخرى تناول فورزبورغ تلك الصدقات التـــي توزعهـــا المستـــشفى علـــى المرضى والفقراء، وفي هذا الشأن فإنه لم يفته أن يقارن بين حجم الصدقات التي تخرجهـــا هيئة الاسبتارية، والهيئات الأخرى المعاصرة لها وخاصة هيئة الداوية، فقد أشـــار إلـــى أن الأخيرة لا تنفق إلا عشر ما تخرجه هيئة الاسبتارية من أموال في أعمال الخير والبر([7]).

([1]) عوض، التنظيمات، ص 34.

([2]) Albert d, Aix, op. cit. pp. 550 – 553.

([3]) فورزبورغ، وصف، ص78.

([4]) المصدر نفسه، ص78.

([5]) غوانمه، تاريخ نيابة، ص 133.

([6]) فورزبورغ، وصف، ص78.

([7]) المصدر نفسه، ص52، 78.

وقد أشار إلى تلك المستشفى بنيامين التطيلي558- 565هـــ/1163- 1170م أثنـــاء زيارته للقدس، وذكرها على اعتبار أنها مستشفيان لا واحدة، وأشار إلى أنهما يتسعان لإيواء أربعمائة من فرسان الاسبتارية المرضى الذين يتم تجهيزهم بكل ما يحتاجونه فـــي الحيـــاة وبعد الممات([1]).

أما ثيودريش الذي زار فلسطين 566- 568هـ/1171-1173م فحظيــت المســـتشفى بمرافقها بإعجابه؛ من حيث مبانيها، وحجارتها، والأسرة المزودة بها، والمستلزمات الأخرى التي يحتاجها المرضى في علاجهم([2]) وذكر أن المستشفى تتمتع بثراء كبير، وتقوم بالإنفاق على الفقراء والمحتاجين([3]) وأشار إلى أنه كان عاجزاً عن تقدير عدد المرضى الذين كـــانوا يعالجون فيها، وقدر عدد الأسرة في المستشفى بأنها أكثر من ألف سرير([4]).

وحين فتح صلاح الدين مدينة القدس سنة 583هـ/1187م جعل الكنيسة المجاورة لدار الاسبتار بيمارستانا، وهيأ فيه العقاقير، والأدوية، وأوقف عليه الأوقـــاف العديـــدة([5]) وبقـــي هذا البيمارستان يؤدي دوره في العصر الأيوبي والمملوكي، ويؤكد ذلـــك مـــا أشـــار إليـــه الرحالة الألماني لودولف الذي عاش في فلسطين مدة خمس سنوات 737- 742هـ/ 1136- 1341م فذكر أن البيمارستان الصلاحي يقع بالقرب من كنيسة القيامة، وأنه بيمارستان عظيم يتسع لألف مريض([6]).

وجرت العادة في العصر المملوكي أن يدفع من يدخله من الحجاج الأوربيـــون بنـــسين بندقيين بدل معالجتهم في المستشفى، بحيث يدفع هذا المبلغ مرة واحدة بغض النظر عن المدة التي يبقاها المريض في المستشفى؛ سواء أكانت يوماً واحداً؛ أو سنة([7]).

وبالإضافة إلى مستشفى يوحنا كان في القدس مستـــشفى للألمـــان تـــم تأسيـــسها قبـــل عام 583هـــ/1187م حيث وردت أول إشارة عنهما في صورة مرســـومين بـــابويين مـــن قبل البابا كلستين الثاني([8]) وكان الدافع لتشييد المستشفى الألمـــاني، يرجـــع إلـــى رعايـــة الألمان الذين واجهوا مشكلة اللغـــة، حيـــث ســـادت اللاتينيـــة، والفرنـــسية القديمـــة فـــي المدينـــة المقدســـة([9]) ويقع المستشفى الألماني في الجنوب الشرقي من القدس على مقربـــة

([1]) التطيلي، الرحلة، ص 248، 249.

([2]) ثيودريش، وصف، ص78.

([3]) المصدر نفسه، ص78.

([4]) المصدر نفسه، ص78.

([5]) الأصفهاني، الفتح ، ص358،95.

([6]) لودولف، وصف، ص360.

([7]) المصدر نفسه، ص360.

([8]) حسين، تاريخ، ص62.

([9]) فورزبورغ، وصف، ص74،75. الفيتري، تاريخ، ص94.

من منطقة الداوية حيث كان أحد الشوارع الجانبيـــة قد أطلق عليـــه اسم شارع الألمان([1]).

وفي المعارك التي دارت حول عكا سنة 586هـ/1190م لعب المستشفى دوراً بـــارزاً في معالجة المرضى والمصابين([2]) وعقب الاستيلاء على عكا 587هـــ/1191م حـرص الألمان على الحصول على موقع ثابت في المدينة لإقامة المستشفى عليه([3]).

كما قام الصليبيون في مدينة القـدس بإنـشاء بيمارسـتان خـاص لعـلاج ورعايـة المجذومين، وكان الهدف من إقامة هذا البيمارستان هو تأكيد عزلهم عن المجتمع، فقد كـان مرض الجذام مرضاً معدياً لا علاج له([4]) وكانت مستشفى المجذومين تابعة لهيئة القـديس لازاروسSt Lazarus وتقع عند الحائط الشمالي قريباً من الممر الجانبي الـصغير الـذي جعلوه يحمل اسمهم([5]) وسرعان ما تطور شأنهم فصار لبيت المجذومين كنيـسة، وجماعـة الرهبان الخاصة حوالي عام 537هـ/1142م([6]) وعند أواسط القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي "فإننا سمعنا عن أخوة بيت المقدس المجذومين" وفي عام 552هـ/1157م تم انتخاب مقدم لهذه الهيئة، وفتحت لها فروعٌ في مدن طبرية، وعسقلان وعكـا، وقيساريـة، وبيروت([7]) وكذلك أقام فرسان الاسبتارية بيمارستاناً في مدينـة نـابلس لعـلاج المرضـى المصابين بمرض الجذام وقد استمر هذا البيمارستان في تأدية عمله في خدمـة المـصابين بمرض الجذام حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي([8]).

وعندما فتح صلاح(الدين عكا 583هـ/1187م([9]) أوقف دار الاسبتار علـى الفقـراء والفقهاء وجعل دار الأسقف بيمارستانا([10]) وذلك لخدمة سكان المدينـة، وتقـديم الرعايـة الصحية لهم.

وفي سنة 680هـ/1281م أنشأ السلطان المنصور قلاوون في مدينة الخليل بيمارستانا وأوقف عليها الأوقاف العديدة([11]) وكان يختص بمعالجة الفقراء، وقد زاره الرحالة فـيلكس فابري سنة 889هـ/1484م وذكر أن فيه مطبخاً ومخبزاً لإطعام الفقراء والحجاج([12]).

([1]) أرنول، وصف، ص96.

([2]) حسين، تاريخ، ص94، 95.

([3]) المرجع نفسه، ص100.

([4]) براور، عالم، ص148.

([5]) فيتليوس، وصف، ص474. أرنول، وصف، ص99.

([6]) براور، الاستيطان، ص334.

([7]) المرجع نفسه، ص334.

([8]) البيشاوي، نابلس، ص210. رئيسة، نابلس، ص150.

([9]) الأصفهاني، الفتح، ص63، 64. ابن الأثير، الكامل،ج10، ص149، 150. أبو شامه، الروضتين،ج3، ص198-202.

([10]) الأصفهاني، الفتح، ص115.

([11]) العليمي، الأنس،ج2، ص142. غوانمه، تاريخ، نيابة، ص136.

([12]) فابري، جولات،ج4، ص1222، 1223.

ووجد في البيمارستان سجلان يدون فيهما أسماء المرضى، والنفقات التـــي يحتاجونهـــا من أدوية وأغذية، وكان الأطباء يبكرون إلى البيمارستان، ويتفقدون المرضـــى، ويـــأمرون بإعداد ما يحتاجونه من علاج، وهذه المعلومات كانت تسجل في لـــوح خـــاص يثبـــت فـــي سرير كل مريض([1]).

وكان البيمارستان ينقسم إلى عدة أقسام؛ فهناك قسم خاص للنساء، والآخـــر للجرحـــى، وثالث للحميات، ورابع للرمد، وخصص قسم في بعضها للأمراض العقلية([2]) وكان يخصص لكل مريض سرير مستقل لنومه([3]) ويشرف على علاج المرضـــى فـــي كـــل بيمارســـتان عدد كبير من الأطباء؛ بلغ في أحداها في العصر الأيوبي ستين طبيبـــاً([4]) كـــذلك خـــصص لكل بيمارستان عدد من الصيادلة لإعداد الأدوية المركبة، وتوزيعها على المرضـــى، وفقـــاً لما يراه الأطباء([5]) وكان العلاج متاح في البيمارســـتان لكـــل طوائـــف الـــشعب أميـــرهم ومأمورهم، غنيهم وفقيرهم([6]).

هكذا لعبت المؤسسات الطبية سواء في المناطق الصليبية أو المناطق المحررة دوراً في تقديم خدماتهم لسكان فلسطين، وتوفير الخدمات الصحية لهم.

أما فيما يخص نوعية الأطباء، ومدى كفاءتهم في فلسطين، فقد كان هناك نوعـــان مـــن الأطباء؛ الأطباء المحليين وكانوا من السريان والمسلمين، واليهـــود ســـواء فـــي المنـــاطق الصليبية، أم المناطق المسلمة؛ بالإضافة إلى ذلك وجد أطباء من اللاتين قدموا مع الصليبيين من الغرب الأوربي، وهؤلاء كانوا من جنسيات مختلطة([7]).

واستخدم الفرنج أطباء من المسلمين وفضلوهم على أطباء اللاتين؛ الأمر الـــذي أثـــار استياء وليم الصوري؛ فوجه لومه إلى النبلاء الفرنج الذين لجأوا إلـــى الأطبـــاء المـــسلمين والسريان، واليهود، ووبخهم وليم على ثقتهم في كفاءة هؤلاء الأطباء " لأن أمراءنا الشرقيين كانوا يحتقرون بسبب نفوذ نسائهم أدوية، ومعالجات أطبائنا اللاتين، ولا يـــصدقون ســـوى الأطباء اليهود، والسامريين، والسريان، والمسلمين، فلقد وضعوا أنفسهم بطريقة طائشة للغاية تحت رعاية عناية أطباء كهؤلاء"([8]).

وكدليل عملي علـــى أفضليـــة الأطباء الشاميين المحليين علـــى الأطباء اللاتين نجد أن

---

(1) ابن جبير، الرحلة، ص220.

(2) فورزبورغ، وصف، ص87. ابن جبير، الرحلة، ص220. ابن عبد الظاهر، تشريف، ص226، 230.

(3) ابن عبد الظاهر، تشريف، ص127.

(4) التطيلي، الرحلة، ص298.

(5) التطيلي، الرحلة، ص298. ابن جبير، الرحلة، ص220. ابن عبد الظاهر، ص127.

(6) ابن عبد الظاهر، تشريف، ص292.

(7) الصوري، تاريخ،ج2، ص786.

(8) المصدر نفسه،ج2، ص786.

الملوك الصليبيين أنفسهم حرصوا على اتخاذ أطباء لهم من العناصـــر المحليـــة؛ فالملـــك عموري الأول كان طبيبه الخاص من الأطباء المحليين، وهو أبو سلميان داود بن فانه وابنه أبو سعيد وكانا من نصارى بيت المقدس([1]).

ويخبرنا أسامه بن منقذ عن صاحب حصن المنيطرة الفرنجي([2]) الذي كتب إلى عم أســـامه سلطان بني منقذ صاحب شيزر([3]) يطلب منه إنفاذ طبيب "يداوي مرضي من أصحابه"([4]).

ومن ناحية أخرى ترد بعض إشارات تعكس تخلف أساليب العـــلاج لـــدى الـــصليبيين تجاه بعض الحالات المرضية من ذلك ما ذكره أسامه بن منقذ من أن دملاً بسيطاً في ســـاق أحد الفرسان الصليبيين جعلهم يستدعون له طبيباً عربياً من أجل فـــتح وإخـــراج مـــا بـــه من صديد([5]) كما أن إصابة قدم أحد الفرسان جعلهم يبتـــرون لـــه تلـــك الـــساق المـــصابة دون القدرة على علاجها([6]).

ومن الضروري القول بأن طب الصليبيين لم يكن متخلفاً؛ فإن وجدت حـــالات عجـــز الأطباء اللاتين عن علاجها، فقد وجدت حالات أخرى تمكنوا بنجاح من علاجها على نحـــو اعترفت به المصادر العربية، وأورد أمرها أسامه بن منقذ نفسه، من ذلك أن مريضاً مصاباً بالغدد الخنزيرية المتقيحة؛ قام بعلاجه طبيب إفرنجي وشفي([7]) وكذلك ذكر حالـــة الفـــارس برنارد الذي أصيب في ساقه، وفتحت في أربعة عشر موضعاً، وكانت جراحه كلما تم إغلاق إحداها فتحت في مواضع أخرى، وقد أتى إليه طبيب إفرنجـــي، وقـــام بتطهيـــر الجـــروح، وعالجها تماماً([8]).

ولقد أفاد الصليبيون في مجالات الطب، من وجود عناصر المسيحيين الشرقيين في إقامة مراكز لدراسة الطب؛ من ذلك ما يشير إليه البعض من أنه وجد في طرابلس مركـــزٌ للعلـــم والطب؛ وعمل به العلماء من النصارى المحليين وكذلك المسلمين ممن ذاعت شهرتهم فـــي مجال الطب، وقد ارتفع شأن ذلك المعهد حيث قصده الطلاب من عدة بلدان، وأصبـــح مـــن أكبـــر معاهـــد الطب فـــي الإمارات الصليبيـــة بصفـــة عامـــة([9]).

كما أفاد الصليبيون من علوم المسلمين الطبية، ولا أدل على ذلك من أنهـــم عملوا على

([1]) ابن أبي أصيبعه، عيون،ج1، ص587، 588.

([2]) **المنيطرة:** حصن بالشام قريب من طرابلس. الحموي، معجم، ج5، ص217.

([3]) **شيزر:** وهي مدينة قديمة ورد اسمها في ألواح العمارنة باسم زنزار، وعرفت شيزر عنـــد اليونـــانيين باســـم زنـــزارا، أمـــا البيزنطيون فعرفوها باسم سيزر، وشيزر قلعة تقع غربي حماة إلى الجهة الشمالية في شمال سوريا على مسافة يوم من حماة، ويمر وسطها نهر العاص. الحموي، معجم،ج3، ص383. جونز، مدن، ص 38.

([4]) ابن منقذ، الاعتبار، ص240.

([5]) المصدر نفسه، ص240.

([6]) المصدر نفسه، ص 240، 241.

([7]) المصدر نفسه، ص241.

([8]) المصدر نفسه، ص241.

([9]) عوض، دراسات، ص132.

ترجمة كتاب علي بن عباس([1]) المعروف باسم "كامل الصناعة الطبية"([2]) مرتين الأولى على يد قسطنطين الإفريقي Constantinus Africanus في دير ونت كاسينو Mont Casino في إيطاليا في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي([3]) أما الترجمة الثانية فقد تمت في بلاد الشام، وبالتحديد في إنطاكية عام521هـ/1127م على يد استيفن الأنطاكي Stephenus Antiochenus في عهد بوهيمند الثاني Bohemond II([4]) أمير إنطاكية([5]) وفي عام 646هـ/1247م تم ترجمة كتاب "سر الأسرار في طب العيون" حيث تمت ترجمته في إنطاكية([6]).

أما ما تصوره البعض من أن الحياة في الشرق الفرنجي ليست إلا حياة عقلية خاصة بمستعمرة إفرنجية([7]) وأن الحملات الصليبية، والإمارات المسيحية لم تكن ناقلة للمعارف الإسلامية في العصور الوسطى في أوربا "وأن النشاط الفكري للمستعمرات الفرنجية كان معدوماً تقريباً.. لأن الأرض المقدسة كانت جبهة قتال لا مركز استعارة ثقافية"([8]) فهو غير صحيح، وينبغي علينا ألا نأخذ تلك النصوص دون نقد؛ إذ أن الصليبيين عملوا على الإفادة من مؤلفات المسلمين الطبية على نحو يوضح أن الجانب العلمي لم يكن مفتقداً لديهم بصورة كاملة، ولا أدل على ذلك من تلك الأمثلة التي ضربناها سابقاً، ولا نغفل كذلك أن بلاد الشام خلال عصر حروب الصليبية مثلت أحد معابر الحضارة الإسلامية إلى أوربا.

ج- الآثار الاجتماعية للحروب الصليبية.

- تدمير المدن.

كانت إحدى الآثار السلبية للحروب الصليبية تدمير المدن فقد كانت الحملات العسكرية بين الجانبين الإسلامي والصليبي سبباً في خراب مناطق كثيرة، وكانت كارثة على البنية السكانية؛ فكان من إحدى نتائج الحملة الصليبية الثالثة؛ هي تلك السياسة التي اقتضت تدمير المدن والحصون أو ما يمكن تسميته: "الإزالة والمساواة بالأرض"([9]).

([1]) **علي بن عباس المجوسي:** وهو من أحد كبار أطباء المسلمين، وهو في الأساس من الأهواز بأرض فارس توفي سنة 326هـ/994م. وعرف عند الأوربيين باسم هالي عباس، وألف كتابه الشهير كامل الصناعة الطبية للملك عضد الدولة بن ركن الدولة البويهي. ابن أبي أصيبعه، عيون،ج1، ص461،460.

([2]) المصدر نفسه،ج1، ص461،460.

([3]) عوض، العلاقات، ص375.

([4]) **بوهيمند الثاني:** وهو ابن بوهمند الأول ووريثه ، ووالدته كونستانس ابنة فيليب ملك فرنسا ولد سنة 502هـ/1109م. وتزوج من أليس ابنة الملك بلدوين الثاني، قتل في إحدى معاركه سنة 524هـ/1130م. دون أن يترك وريثاً للعرش بل ترك طفلة لم تبلغ الثالثة من عمرها. الصوري، تاريخ،ج1، ص528،ج2، ص 638، 639، 648.

([5]) عوض، دراسات، ص 136- 138 .

([6]) عوض، العلاقات، ص 376.

([7]) رنسيمان، تاريخ،ج3، ص822.

([8]) مستناك، السلام، ص227.

([9]) براور، عالم، ص65.

وهي السياسة التي ابتدأها صلاح الدين، واتبعها من بعده سلاطين المماليك.

فقد أدرك المسلمون أن هذه الحصون كانت ركيزة لأمن المملكة، ووسيلة لتدعيم قدرة الصليبيين على حكم المناطق المختلفة؛ حيث كانت السيطرة الصليبية تمتد حتى نقطة الإمداد المباشرة المتمركزة داخل التحصينات الصليبية، فإذا حدث وإن دمرت هذه الاستحكامات والركائز لم تعد هناك وسيلة لإعادة الحكم الصليبي سوى عن طريق الاحتلال الشامل الأمر الذي كان يعني إنفاقاً مالياً ضخماً، وإمداداً هائلاً من القوة البشرية([1]) فمثلاً قدرت تكاليف الحملة الصليبية السابعة التي قام بها الملك لويس التاسع ملك فرنسا بحوالي(1.537.570) جنيهاً أو أكثر من دخلِه السنوي بست مرات، ومن المحتمل أن هذا الرقم أقل بكثير من الواقع، إذ أنه أنفق أكثر من مليون جنيه في فلسطين لإعادة تحصين بعض المدن([2]) حيث كلفت هذه التحصينات الملك الفرنسي نفقات باهظة، وأشار جوانفيل إلى المبالغ التي أنفقت على تحصين مدينة يافا، فأشار إلى أن القاصد الرسولي قد تطوع ببناء احد الأبواب، وجانب من السور على حسابه، وأن ذلك كلفه ثلاثين ألف جنيه، وهذا دليل على مدى ضخامة المبالغ المالية التي أنفقها لويس في تحصين المدن([3]).

وبالتالي بدأ صلاح الدين سياسة التدمير المنظم للقلاع الصليبية، وتحصينات المدن التي وقعت في يديه؛ فبعد أن حلت الهزيمة بجيش صلاح الدين في أرسوف([4]) توجه ريتشارد نحو يافا وأخذها دون مقاومة، إذ لم يكن بها أحد من المسلمين "ليدافعوا عنها على حد قول ابن الأثير، وشرع في إعادة بناء استحكاماتها([5]) أما صلاح الدين فتوجه إلى الرملة، وعقد فيها مجلس حربه في17 شعبان587هـ/1191م واستشارهم فيما يفعل؛ فأشار عليه الأمير علم الدين سليمان بن جندر([6]) بإخلاء عسقلان، ومن ثم تخريبها([7]) لأن هدف العدو بعد عكا ويافا هو عسقلان ومن ثم القدس، ولأن يافا التي نزل عليها ريتشارد تتوسط القدس وعسقلان، ولا سبيل لحفظ المدينتين معاً([8]) وقد

([1]) براور، عالم، ص65.

([2]) سميث، ماهي، ص46.

([3]) جوانفيل، القديس لويس، ص240. يوسف، العدوان الصليبي على بلاد الشام، ص298.

([4]) ابن شداد، النوادر، ص14– 144 . الأصفهاني، الفتح، ص317– 321. مجهول الحرب،ج2، ص72– 93 . أبو شامه، الروضتين،ج4، ص161. حسين، الجيش، ص472– 476 . الغامدي، صلاح الدين، ص269، 270.

([5]) ابن الأثير، الكامل،ج1، ص208. مجهول، الحرب،ج2، ص101، 106. ابن خلكان، وفيات،ج7، ص 197.

([6]) **علم الدين سليمان بن جندر:** كان من كبار أمراء حلب والدولة الصلاحية، عمل في خدمة صلاح الدين، وهو شيخ الدولة وكبيرها، وهو الذي أشار على صلاح الدين بتخريب عسقلان لتوفير العناية والاهتمام بالقدس. أبو شامه، الروضتين،ج4، ص171. ابن كثير،ج13، ص363.

([7]) الأصفهاني، الفتح، ص321. ابن الأثير، الكامل،ج10، ص208. أبو شامه، الروضتين،ج4، ص162.

([8]) الأصفهاني، الفتح، ص321. ابن شداد، النوادر، ص145. ابن خلكان ، وفيات،ج7، ص197. أبو شامه، الروضتين،ج4، ص162 ، 165. ابن واصل، مفرج،ج2، ص369.

أعلن الأمراء الداعون إلى تخريب عسقلان أن الدفاع عن المدينة يتطلب، وجود حامية كبيرة فيها تعدادها ما بين ثلاثين([1]) إلى عشرين ألف مقاتل([2]) وقالوا لصلاح الدين: "قد رأيت ما كان منا بالأمس، وإذا جاء الفرنج إلى عسقلان، ووقفنا في وجوههم لصدهم عنها؛ فهم يقاتلوننا لننزاح عنها، وينزلون عليها، فإذا كان ذلك عدنا إلى مثل ما كنا عليه على عكا، ويعظم الأمر علينا؛ لأن العدو قد قوي بأخذ عكا، وما فيها من الأسلحة وغيرها، ونحن قد ضعفنا بما خرج عن أيدينا، ولم تصل المدة حتى نستجدي غيرها"([3]).

فاعترض صلاح الدين على هذا الرأي، وطلب من أمرائه الدخول إلى عسقلان، وتنظيم الدفاع عنها؛ فامتنعوا بل إنهم ردوا عليه بخشونة غير مألوفة؛ كما يظهر من رواية العماد وابن الأثير إذ قالوا:" إن أردت حفظها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار، وإلا فما يدخلها منا أحد لئلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا"([4]) ولاشك أن هذا التفكير الذي سيطر على بعض أمراء صلاح الدين يدل على مدى الفزع من قوة الصليبيين، ومن ثم يعكس الوضع النفسي المتردي الذي صاروا يعيشون فيه.

ولم يستطيع صلاح الدين إقناع الأمراء بضرورة إبقاء عسقلان، وعدم تدميرها، ولذلك حزن كثيراً، وبات ليلته مهموماً، وقال: "والله لأن أفقد أولادي بأسرهم أحب إلي من أن أهدم حجراً واحداً"([5]) واضطر أخيراً إلى الانصياع لقرار أمرائه، ووافق على تخريبها([6]) ولاشك أن هذا الرأي كان حكيماً رغم أن صلاح الدين حسب رأي ابن الأثير كان من المعارضين لتخريب المدينة([7]) وقد أدّى تدمير المدينة إلى تهجير سكانها، ولجوئهم إلى البلدان المجاورة، حيث تفرقوا بين مصر والشام، وهذا ما حدث مع مدينتي الرملة، واللد([8])
بعد تدميرهما حيث تم تهجير سكانها، ونقلهم "إلى المواقع العامرة"([9]).

ولقد اشترطت اتفاقية الصلح الموقعة بين صلاح الدين، وريتشارد تدمير عدد من التحصينات الصليبية كما هو الحال بالنسبة لعسقلان([10]) التي أعاد ريتشارد بناءها وتحصينها([11]) فعندما مر عليها ابن بطوطة 725هـ/1325م. وصفها بأنها

([1]) أبو شامه، الروضتين،ج4، ص165.

([2]) الأصفهاني، الفتح، ص231.

([3]) ابن الأثير، الكامل،ج10، ص208، 209.

([4]) الأصفهاني، الفتح، ص322. ابن الأثير، الكامل،ج10، ص209.

([5]) ابن شداد، النوادر، ص146. أبو شامه ، الروضتين،ج4، ص163. ابن خلكان، وفيات،ج7، ص197.

([6]) الأصفهاني، الفتح، ص321. ابن الأثير، الكامل،ج10، ص209. أبو شامه، الروضتين،ج4، ص165.

([7]) ابن الأثير، الكامل،ج10، ص209.

([8]) ابن شداد، النوادر، ص146. ابن خلكان ، وفيات،ج7، ص198. أبو المحاسن، النجوم،ج6، ص43.

([9]) ابن شداد، النوادر، ص190، 192.

([10]) المصدر نفسه، ص190، 192.

([11]) في 6 يناير 1192 عقد الصليبيون مجلساً للتشاور في بيت نوبة، واتفق المجتمعون على عدم مواصلة الزحف إلى القدس =

خراب([1])، ولكن يبدو أن عسقلان عادت فازدهرت من جديد؛ فحين زارها لودولف ذكر أنها"مليئة بالسكان"([2]) وفي محرم 616هـ/1219م هدمت أسوار، وتحصينات مدينة القدس، حتى لا يستفيد منها الصليبيون في حال الاستيلاء عليها([3]) وقد أدى هذا القرار إلى استياء عام لدى سكان المدينة حيث "وقع في البلد ضجة عظيمة، وخرج النساء المخدرات، والبنات، والشيوخ، وغيرهم إلى الحرم والأقصى، وقطعوا شعورهم، ومزقوا ثيابهم"([4]) فقد افتقد سكان المدينة الإحساس بالأمن والحماية، فالأمن والاطمئنان هما من مستلزمات الحياة الأساسية في مدن العصور الوسطى، ولم يكن من الممكن توفيرهما إلا ببناء التحصينات، وإقامة الحاميات العسكرية، في هذه المدن، وتزويدها بآلات الدفاع والأسلحة، وقد حرمت القدس من هذا كله فأسوار المدينة سويت بالأرض، ومعظم القوات المقاتلة سحبت منها إلى أماكن أخرى، والأسلحة والآلات المخزونة فيها نقلت إلى دمشق([5]) وأمام هذا الوضع الأمني المتردي للمدينة هاجرها الكثير من سكانها([6]) متوجهين في مختلف الاتجاهات، فذهب بعضهم إلى الكرك، وبعضهم إلى مصر، وبعضهم إلى دمشق([7]) وهكذا وبعد أن كان البلد مزدحماً بالسكان وفيها "خلق لا يحصون فلم يبق فيه إلا القليل من الناس"([8]) وتعرضت البيوت المهجورة في المدينة المقدسة للنهب والسلب([9]) وأصبحت القدس بعد عام 616هـ/1219م ولمدة تزيد على قرن من الزمان مجرد قرية صغيرة فقد ظلت القدس بلا استحكامات حتى سنة 717هـ/1317م([10]).

وسار سلاطين المماليك على السياسة نفسها حيث لجأوا إلى هدم وتدمير المدن والحصون الساحلية التي استولوا عليها؛ حتى لا يعود الصليبيون إليها فيرمموها، ويتحصنوا بها من جديد، ومن أمثلة ذلك تدمير مدن قيسارية([11]) وأرسوف([12]) وعكا([13]) وقد كان

= القدس والارتداد نحو الساحل لإعادة إعمار عسقلان، وذلك بهدف قطع الإمدادات بين مصر وفلسطين، ولقد أقام ريتشارد بإعادة بناء عسقلان وتحصينها حيث أقام فيها ثلاث وخمسون برجاً. مجهول، الحرب،ج2، ص 130،129، 139.

([1]) ابن بطوطة، تحفة، ص33.

([2]) لودولف، وصف، ص317.

([3]) ابن الأثير، الكامل،ج10، ص378. أبو شامه، الروضتين،ج5، ص197، 198. ابن واصل، مفرج،ج4، ص32.

([4]) أبو شامه، الروضتين،ج5، ص175. أبو المحاسن، النجوم،ج6، ص217.

([5]) ابن واصل، مفرج،ج4، ص32. المقريزي، السلوك،ج1، ص321.

([6]) أبو شامه، الروضتين،ج5، ص197، 198.

([7]) أبو شامة، الروضتين،ج5، ص175. أبو المحاسن، النجوم،ج6، ص217.

([8]) ابن واصل، مفرج،ج4، ص32. المقريزي، السلوك،ج1، ص321.

([9]) أبو شامه، الروضتين،ج5، ص175.

([10]) الحيارى، القدس، ص191.

([11]) ابن عبد الظاهر، الروض، ص230، 231. ابن كثير، البداية،ج13، ص248.

([12]) ابن عبد الظاهر، الروض، ص243.

([13]) ابن عبد الظاهر، تشريف، ص292. ابن كثير، البداية،ج13، ص325. لودولف، وصف، ص313.

التدمير يشمل المدينة والريف المحيط بها؛ فحين حاول السلطان الظاهر بيبرس فتح عتليت([1]) 663هـ/1265م أمر العساكر بالإغارة على البلد؛ فأغاروا عليها ودمروها، ودمروا ما حولها من عمائر، وقطعوا الأشجار والكروم([2]) وذكر الرحالة لودولف أن جميع المدن والقرى، والقلاع الواقعة شمال أرسوف على ساحل البحر المتوسط، ولعمق أربعة أميال تم تدميرها، وقد غدت معزولة تماماً، ومهجورة([3]).

هكذا أدت حروب التحرير إلى التأثير على البنية السكانية لفلسطين حيث أدت هذه الحروب إلى هجرة السكان، ومن ثم تراجع العديد من المدن إلى قرى؛ فمدينة الناصرة التي استعادها الظاهر بيبرس660هـ/1263م قد تراجعت كثيراً نتيجة لما أصابها من خراب، حين استردادها من الفرنجة، إلا أنها أخذت تنتعش، وتستعيد شيئاً مما كانت عليه حتى عادت قرية كبيرة عامرة؛ فقد ذكرها الحموي بأنها قرية بينها وبين طبرية ثلاثة عشر ميلاً"([4]) ووصفها لودولف الذي زار فلسطين فيما بين 737-742هـ/1336-1341م بأنها كانت فيما مضى مدينة كبيرة، وهي " ليست مسورة بيوتها قائمة بشكل أحدها بعيد عن الآخر، ومع ذلك فهي ملية بالسكان"([5]).

وعندما زحف المغول على بلاد الشام كانت طبرية من البلدان التي سقطت بقبضتهم وأصاب المدينة ما أصابها من القتل والتدمير، وكان ذلك الغزو مسؤولاً عن خلخلة الوضع السكاني فيها، والإجهاز على اقتصادها، وعانت طبرية في ظل العدو المغولي المدمر ما عانته بقية المناطق الإسلامية([6]) ولما تم للظاهر بيبرس الاستيلاء على صفد 664هـ/1266م أمر بإعادة تعمير طبرية، وجمع لها من يسكنها([7]) وأشار إليها البغدادي بالبليدة([8]) بعد أن كانت توصف بالمدينة الجليلية فهذا أبو الفداء يقول: "كانت طبرية قديماً، قاعدة الأردن، وهي خراب فتحها صلاح الدين من الفرنج فخربت"([9]) ويقول شيخ الربوة: "طبرية كانت قصبة الأردن، وهي مدينة مستطيلة على

([1]) **عتليت:** عرفت في العصر الكنعاني عتليت، وفي العصر اليوناني والروماني ذكرت باسم Bucolon Polis، وذكرتها المصادر الإسلامية باسم عتليت، والحصن الأحمر، وأطلقت عليها المصادر الصليبية اسم عتليت أو قلعة الحاج، وتقع على بعد 16كم جنوبي حيفا، وعشرين كم شمال قيسارية. بورشارد، وصف، ص 161. الحموي، معجم،ج4، ص85. مولر، القلاع، ص92. الدباغ، بلادنا، ق2،ج7، ص595.

([2]) ابن عبد الظاهر، الروض، ص234، 235.

([3]) لودولف، وصف، ص314، 315.

([4]) الحموي، معجم،ج5، ص251.

([5]) لودولف، وصف، ص378.

([6]) ابن شداد، الأعلاق، ص134، 135. المقريزي، السلوك،ج1، ص511- 513. أبو المحاسن، النجوم،ج7، ص70، 71.

([7]) ابن شداد، الأعلاق، ص135.

([8]) البغدادي، مراصد،ج2، ص878.

([9]) أبو الفداء، تقويم، ص243،242.

بحيرتها"([1]) ومر بها ابن بطوطة في 725هـ/1325م فذكر أنها كانت فيما مضى مدينة كبيرة ضخمة ولم يبق منها إلا رسوم تنبئ عن ضخامتها وعظم شأنها"([2]).

ويذكر القاضي العثماني في تعريفه لها:"أما طبرية فهي من المدن القديمة العظيمة الشأن أنه كان بها ثلاثمائة حمام، وهي مستطيلة على شاطئ البحيرة المنسوبة إليها"([3]) وبالنظر إلى هذه الإشارات التي تعرضت لذكر طبرية في العهد المملوكي؛ يبدو أنها قد تراجعت كثيراً، وفقدت الكثير من أهميتها بسبب ما أصابها من تدمير وخراب.

وهذا ما حدث لمدينة قيسارية التي تراجعت من مدينة إلى قرية؛ فوصفها الحموي بقوله "وكانت قديماً من أعيان أمهات المدن، واسعة الرقعة كثيرة الخير والأهل، وأما الآن فليست كذلك، وهي بالقرى أشبه منها بالمدن"([4]) وعندما استعادها بيبرس 663هـ/1265م دمرها، ودمر قلعتها إلى أن سويتا بالأرض([5]) وذكرها أبو الفداء بأنها كانت خراباً في عهده([6]). هكذا أدت الحروب الصليبية إلى تدمير العديد من المدن كجزء من سياسة إسلامية هدفت إلى عدم تمكين الصليبيين من إعادة السيطرة عليها مرة أخرى؛ كما أدت الحروب إلى تراجع العديد من المدن إلى قرى وتخريب العديد من القرى الزراعية.

- الانحلال الخلقي وانتشار الرذيلة.

عاني المجتمع الفلسطيني كثيراً من مظاهر التدهور الاجتماعي على صعيد النظام القيمي والأخلاقي، فانتشر الشذوذ الجنسي، وتفشت الرذيلة، والفاحشة في المجتمع بشكل واسع، وهي من أخطر الأمراض الاجتماعية على الإطلاق، ذلك أنه إذ لم يكن من أسباب الانهيار الاجتماعي فهو على أقل تقدير من مظاهر هذا الانهيار.

فعندما أطلق البابا أوربان الثاني الدعوة للحروب الصليبية في كليرمونت فإنه لم يتوقع مشاركة المرأة في هذه الحملة؛ فالمؤرخون الذين سجلوا خطبة البابا يذكروا أنه منع النساء من المشاركة في الحروب الصليبية([7]) فقد قال البابا في خطاب له في بولونيا "يجب أن تعلموا أيضاً أنه إذا ذهب أي رجل منكم إلى هناك.. يجب أن تراعوا أن الشباب المتزوجين لا يجب أن يندفعوا في رحلة طويلة كهذه دون موافقة زوجاتهم"([8]) بل إن البابا

([1]) شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص211.

([2]) ابن بطوطة، تحفة، ص37.

([3]) Lewis, "in Arabic Account", P. 484.

([4]) الحموي، معجم،ج4، ص421.

([5]) ابن عبد الظاهر، الروض، ص231،230.

([6]) أبو الفداء، تقويم، ص249.

([7]) برونديج، الدعارة، ص172.

([8]) عن خطاب البابا أوربان إلى أتباعه في بولونيا في 15 سبتمبر 1096م. انظر قاسم، الحملة الصليبية، ص90، 91.

نفسه حذر الرجال المتزوجين من أن تدفعه إغراءات زوجته إلى التخلي عن الذهاب إلى الأرض المقدسة فقال "لا تدعوا.. سحر زوجاتكم الأخاذ يقعد بكم عن الذهاب"([1]).

يبدو من خلال النصوص أن البابوية من البداية قد أرادت أن تكون الحملات الصليبية حملات رجال فقط([2]) إلا أن الواقع جاء مخالفاً لذلك؛ فلم تقتصر الحروب الصليبية على الرجال فقط، ولم يقبع كل النساء في بيوتهن؛ فقد صحبت الجيوش المشاركة في الحرب الصليبية الأولى؛ نساء من أنواع عديدة فكان هناك نساء متزوجات يرافقن أزواجهن، وراهبات وعاهرات، ونساء ذات وضع مبهم([3]) من هذا لم تعد أخلاق الأسرة المسيحية في مأمن من إغواءات الغياب الطويل، وأخطار الرحلة الطويلة([4]).

وكان وجود النساء ضمن جيوش الحملات الصليبية أحد أسباب انتشار الفساد الذي كثيراً ما كان يسود بين الجنود الصليبيين، فتشير المصادر الصليبية صراحة إلى انغماس الفرنج في ارتكاب الفاحشة مع الساقطات من النساء الفرنجيات([5]) وقد أبدى الشارتري ارتياحه لأن الفرنج خلال حصار إنطاكية؛ قاموا بإغلاق كل المواخير التي أقيمت في المعسكر الصليبي وقاموا بطرد النساء من المعسكر الصليبي حتى لا يستسلم الجند لرغباتهم الجنسية عشية المعركة([6]) ويذكر الشارتري وديكس أن النسوة توجهن إلى القرى المجاورة للإقامة فيها([7])

وقرر قادة الصليبيين عقوبات رادعة على كل من يخالف قواعد السلوك الجنسي وللتأكيد على ذلك أصدر القادة مرسوماً صارماً نص على فرض "الحظر على الزنا وجميع أنوع الفسوق تحت طائلة عقوبة الموت"([8]) والجلد بالسياط لكل من يضبط متلبساً بارتكاب الجرائم المتعلقة بالزنا([9]).

وبالرغم من العقوبات التي أقرها قادة الصليبيين ضد مرتكبي الفواحش من رجالهم، فإن الفرنج بقوا على سلوكهم وخطاياهم، ويروي لنا ألبرت ديكس عن رجل وامرأة ضبطا يمارسان الخطيئة فاقتيدا عاريين، وطيف بهما أمام الجيش الصليبي كله وأيديهما إلى

([1]) رواية بلدريك الدوللي عن مجمع كليرمونت ترجمة قاسم، الحملة الصليبية، ص88.

([2]) برونديج، الدعارة، ص172.

([3]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص49، 55. Albert d, Aix op. cit., PP. 281 , 288, 319.

([4]) برونديج، الدعارة، ص173.

([5]) مجهول، أعمال، ص81. Albert d, Aix, op. cit., PP. 27

([6]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص55. يرجع مؤرخو الحملة الصليبية الأولى متاعب الفرنج عند إنطاكية إلى فسوقهم وخطاياهم، كما يشير المؤلف المجهول، بينما يشير ريموندأجيل صراحة إلى ممارسة الفرنج للزنا. مجهول، أعمال ، ص56. ريموند أجيل، تاريخ الفرنجة، ص 89.

([7]) الشارتري، تاريخ الحملة، ص55. Albert d Aix, op. cit., P. 365.

([8]) الصوري، تاريخ،ج1، ص295.

([9]) Albert d, Aix, op. cit., P. 379

ظهورهما، وسيطا بالعصي حتى يرتدع كل من يشهد مدى معاناتهم، ويرجع عن ارتكاب الفواحش([1]) حيث يعزو المؤرخون الكوارث التي حلت بصليبي الحملة الأولى إلى عدالة الرب الذي أسخطه التحلل من الأخلاق([2]) ولكن ما إن دخل الصليبيون إنطاكية؛ ارتدوا عن السلوك القويم "وأمعنوا في نسيان الرب مانح كل هذه النعم فأفرطوا في الأكل بنهم شديد، واهتموا بالراقصات"([3]).

وكان للحملات الصليبية الأخرى نصيبها من أعمال الفسوق والفواحش التي ارتكبها المشاركون في هذه الحملات، ففي الحملة الصليبية الثالثة، وبعد أن دخل الصليبيون مدينة عكا، وحين استعدوا للتوجه جنوباً إلى أرسوف تكاسل كثير منهم عن مواصلة المسير، وقد انكبوا في نهم على شرب الخمر، والانغماس في الملذات، ومصاحبة النساء الساقطات، وتفشي الدنس والفجور داخل المدينة التي كانت حافلة "بشتى صنوف اللهو والمتعة"([4]) ولم يخرج الفرنج من المدينة إلا بعد أن أجبرهم الملك على ذلك؛ فخرجوا متكاسلين متكدرين خاصة وأن الملك ريتشارد أصدر تعليماته بعدم مصاحبة النساء للجيش باستثناء الغسالات منهن([5]).

وبعد أن حقق الفرنج انتصاراتهم في معركة أرسوف بقى في يافا مدة طويلة ينعم فيها بالراحة، ولاحظ أمبروز والمؤرخ المجهول الفواحش التي ارتكبها الفرنج يوماً بعد يوم في المدينة، حيث وصل إلى يافا حشد من الساقطات، من النساء الفرنج من عكا، وانغمس الفرنج في الفسوق والفجور "وراجت تجارة الزنا والبغاء" كما سارع عدد كبير من الجند بالمسير إلى عكا طلباً لمزيد من المتع، ولم يرجع هؤلاء إلى يافا رغم إيفاد ريتشارد للملك غي لوزجنان لإرجاعهم([6]) ولم يكن ذلك مستغرباً لأن مهنة الدعارة كانت نشطة للغاية، حتى إن العاهرة التي كانت ترافق الجندي في المعسكر الصليبي تحيى حياة أفضل من ساقي الملك الفرنسي نفسه([7]).

ولم يكن صليبو الحملة الصليبية الخامسة بأفضل حالاً فقد أتى الكثيرون منهم بأعمال الفسوق والخطايا، وقد تتبع يعقوب الفيتري أحوال الفرنج بمختلف عناصرهم برؤية نقدية

([1]) Albert d, Aix, op. cit., P. 379.

([2]) برونديج، الدعارة، ص175.

([3]) ريموندأجيل، تاريخ الفرنجة، ص120.

([4]) مجهول، الحرب،ج2، ص58، 163.

([5]) المصدر نفسه، ص58.

([6]) أمبروز، صليبية،ج2، ص429،430. مجهول، الحرب،ج2، ص101، 102.

([7]) عطية، دراسات، ص29.

دقيقة([1]) فيخبرنا بان الفسوق والفحشاء قد تفشيا بين صفوف إفرنج الحملة الصليبية الخامسة، ويثني على جهود بعض رجال الدين في سبيل إغلاق المواخير التي أنشئت في المعسكر الصليبي بالقرب من دمياط بعد أن تقرر إبعاد العاهرات، ومن يعاقرون الخمر، ويرتادون الحانات، وأيضاً الذين اعتادوا على التراخي منهم، ويمضون وقتهم في لعب النرد؛ الأمر الذي من شأنه أن يفسد الحملة كلها([2]).

ويصور لنا بادربورن مؤرخ الحملة نفسها؛ حالة الفساد والفسوق التي أمسى عليهما الصليبيون بعد استيلائهم على مدينة دمياط أبلغ تصوير فقال: "ما من أحد يمكنه أن يصف فساد جيشنا بعدما أعطانا الرب دمياط.. فقد بات الناس كسالى مخنثين تدنسوا بأعمال المهاجع والسكر والفسق والزنا والسرقة"([3]).

هكذا تقدم لنا الجيوش الصليبية، والتي تكون منها المجتمع الصليبي في فلسطين، في كثير من الأحيان نموذجاً للأخلاق الفرنجية، ومن المرجح أن كثرة المعارك الحربية مع الدولة الإسلامية؛ قد أدت إلى سقوط العديد من القتلى من الجند على نحو أوجد لديهم مشكلة الترمل، وقد أقر المؤرخون الصليبيون أنفسهم بتواجد ظاهرة الزانيات والمومسات في مجتمعهم التي اشتهرت بهم مدينة كبيرة مثل عكا، فقد ذكر الفيتري أن مدينة عكا كانت تعج ببيوت الدعارة، ولأن المومسات يدفعن أعلى الإيجارات فلهذا فإنه ليس المدنيون فحسب بل ورجال الدين يقومون بتأجير منازلهم في جميع أنحاء مدينة عكا للمومسات([4]).

ويشير فوقاس إلى ازدحام مدينة عكا بالسكان وإلى أنها تحتوي ألواناً من الفساد، والتحلل الخلقي الناجم عن تدفق أعداد متزايدة من الغرباء، وإن ذلك صاحبه انتشار العديد من الأمراض، والأوبئة مما أدى إلى تعدد صور الردى بها([5]) وربما كان هذا النص الذي قدمه لنا ذلك الرحالة يوضح ويفسر النص المقتضب الذي قدمه لنا ابن جبير في رحلته، وذكر أنها "تستعر كفراً وطغياناً، وتفور خنازير وصلباناً زفرة قذرة مملوءة كلها رجساً وعذره"([6]).

هكذا فإن الرحالة المسيحي والمسلم اتفقا على حقيقة تفشي التحلل الخلقي، والرذيلة في مدينة عكا، ومرجع ذلك بالطبع يعود إلى كثرة عدد الأجانب، والغرباء، وتدفقهم على المدينة،

([1]) الفيتري، تاريخ، ص135.

([2]) انظر خطاب يعقوب الفيتري إلى البابا هونوريوس الثالث في الفترة ما بين أغسطس 1218م. سبتمبر 1219م، السيد، الحركة الصليبية، وثيقة رقم (1)، ص 178– 182.

([3]) بادربون، الاستيلاء، ص83.

([4]) الفيتري، تاريخ، ص135، 136.

([5]) فوقاس، الرحلة، ص383.

([6]) ابن جبير، الرحلة، ص235.

وكذلك وجود عدد كبير من الفاسقات اللاتي اشتهرت مراكزهن في المدينة، ومن المنطقي تزايد أعدادهن من خلال التفسخ الأخلاقي الذي يواكب المجتمعات المحاربة التي تموت فيها الرجال، وتبقى النساء أرامل بعد وفاة أزواجهن؛ على نحو يفتح الطريق أمام الرذيلة([1]) ويصدق ذلك القول بالطبع على المجتمع الصليبي الذي انتشرت بيوت الدعارة في معظم مدنه، وخاصة مدن يافا([2]) والقدس([3]) وعكا التي كانت تحفل "بشتى صنوف اللهو والمتعة من خمر متعفنة، وكواعب أتراب ساحرات"([4]) والتي اشتهر بها الحي الأحمر([5]) فيذكر الأصفهاني أن صلاح الدين عندما دخل مدينة عكا كبس جنده " ليلة سوق الخمارات والعواهر، وسبوا عدة من المستحسنات الفواجر"([6]) ويقدم المؤرخ المجهول الذي رافق الملك ريتشارد في حملته إلى عكا، وصفاً دقيقاً لمجالس الطرب، والشراب التي تدار فيه الكؤوس بالخمر، وما يصاحبها من لهو ومجون، وانغماس الناس فيه، ووصف الراقصات، وما يتزينّ به من حلي، وما يرتدين من ملابس خليعة تظهر مفاتنها ومحاسنها " لتبرز من أجسادهم ما يثير شهوة الناظرين"([7]) وذكر كيف أن الفرنسيين انغمسوا في الملذات، وغرقوا في الحانات وبيوت الدعارة واستسلموا للشهوة ومسامرة الراقصات، وإقامة الولائم مع بائعات الهوى([8]).

ومع ذلك تنبغي ملاحظة أن كثيراً من العاهرات، والبغايا في المجتمع الصليبي لم تكن ترجع إلى نتائج الحرب مع الدولة الإسلامية فقط، بل كانت مجموعات منهن تأتي من أوربا إلى المملكة الصليبية في بيت المقدس بقصد الترفيه، وقد رسم العماد الأصفهاني صورة مثيرة لهؤلاء النسوة، فوصف حسنهن، وتوقد الغريزة فيهن، وكيف أنهم كن يبذلن أجسادهن للجند، معتبرين ذلك عبادة يتقربن بها لله فيقول: "وصلت في مراكب ثلاثمائة امرأة إفرنجية مستحسنة متحلية بشبابها وحسنها متزينة؛ قد اجتمعن من الجزائر، وانتدبن للجزائر، واغتربن لإسعاف الغرباء، وتأهبن لإسعاد الأشقياء.. فوصلن وقد سبلن أنفسهن، وقدمن للتبذل أصونهن وأنفسهن، وذكرن أنهن قصدن بخروجهن تسبيل فروجهن، وأنهن لا يتمتعن من العزبان، ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان([9]).

وقد كان العماد الأصفهاني أميناً على التاريخ عندما ذكر أن عدداً من الجند المسلم قد

([1]) الفيتري، تاريخ، ص135، 136.

([2]) أمبروز، صليبية،ج2، ص430.

([3]) فابري، جولات،ج4، ص1142.

([4]) مجهول، الحرب،ج2، ص58.

([5]) عوض، العلاقات، ص133.

([6]) الأصفهاني، الفتح، ص211.

([7]) مجهول، الحرب،ج2، ص153، 154.

([8]) المصدر نفسه،ج2، ص153، 154.

([9]) الأصفهاني، الفتح، ص212، 213. أبو شامة، الروضتين،ج4، ص63.

أغرته أولئك النسوة فمال إليهن وفي ذلك يقول "وأبق من عسكرنا مـــن المماليــك الأغبيـــاء والمدابير([1]) الجهلاء جماعة جذبهم الهوى، واتبعوا من غوى؛ فمنهم من رضي اللذة بالذلـــة، ومنهم من ندم على الزّلة فتحيل في النقلة([2]).

وأشارت المصادر الغربية إلى هذا الدور الذي كانت تقوم بـــه المـــرأة الـــصليبية فـــي معسكرات الجند بيد أنها انتقدته، وتذمرت منه بسبب الفساد الذي كانت تشيعه هؤلاء النـــسوة في صفوف المقاتلين الصليبيين؛ فقد ألصقت هذه المصادر بهن صفة سوء الأخلاق، وحملتهم مسؤولية انعدام العفة والاتزان والإيمان([3]) ولم يكن فجور المرأة الصليبية مقـــصوراً علـــى معسكرات الجند، فقد كن ينتدبن أماكن بعيدة عن هذه المعسكرات ويضربن فيها قبـــابهن([4]) وخيامهن، ويقصدن طلاب الهوى، وقد صور العماد هؤلاء النسوة قائلا: "وتفردن بما ضربته من الخيم والقباب، وانضمت إليهن أترابهن من الحسان والشواب([5]) وفتحن أبواب المـــلاذ، وسبلن ما بين الأفخاذ ... ونفقن سوق الفسوق"([6]).

وتضمن مرسوم مجلس نابلس514هـ/1120م بعض القرارات التي تحد من انغمـــاس الإفرنج في الرذيلة؛ فقد جاء في القرار الخامس بأنه إذا ضاجع إفرنجي زوجة إفرنجي آخر، واعترف بذلك فإنه ينفى خارج البلاد بأمر قضائي، وتقتل الزانية، إلا إذا صفح عنها زوجها، فيكون لزاماً عليهما مغادرة البلاد إلى غرب أوربا"([7])

ونلاحظ أن مسألة صفح الزوج عن زوجته أو حتى التغاضي عن الأمر كله كانت أمراً معتاداً يحدث بين الفرنج حتى بعد صدور قرارات مؤتمر نابلس، وقد فسر أسامه بـــن منقـــذ حدوث هذه الظاهرة لافتقار الفرنج للغيرة على العرض، ويضرب مثالاً على ذلك بروايتـــه عن الفرنجي الذي عاد إلى منزله ليجد زوجته في فراشه مع إفرنجي آخر يمارسان الفاحشة فلم يتعد رد فعل الزوج سوى أنه استفسر من الرجل عن سبب دخوله منزله، ونومـــه فـــي فراشه، ولامه على مضاجعة الأخير لزوجته، وأنذره بأنه لو كرر ذلك الأمـــر سيخاصـــمه "فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته"([8]).

أما القرار السادس فيقضي بأنه "إذا راودت الشكوك فرنجياً حول ارتكاب رجل دين من

([1]) **المدابير:** جمع المدابر وهو الذي قمر في المسير مرة بعد مرة فيعود للتقمر. ابن منظور، لسان،ج4، ص270، 271.

([2]) الأصفهاني، الفتح، ص213. أبو شامه، الروضتين،ج4، ص63.

([3]) مجهول، الحرب،ج2، ص85، 163. أمبروز، صليبية،ج2، ص430،429.

([4]) **القبـــاب:** مفـــرد قبـــة وهـــي بيـــت صـــغير مـــستدير، وهـــو مـــن بيـــوت العـــرب، وقيـــل هـــي البنـــاء مـــن الأدم. ابن منظور، لسان،ج1، ص659.

([5]) **الشواب:** أي الفتيات والنساء اللاتي يعجبن الرجال. ابن منظور، لسان،ج15، ص138.

([6]) الأصفهاني، الفتح، ص212.

([7]) عطية، مجلس نابلس، ص 47.

([8]) ابن منقذ، الاعتبار، ص243.

الفرنج الفاحشة مع زوجته، فعلى الزوج أن يمنع رجل الدين من التـردد علـى منزلـه أو التحدث مع زوجته، وإذا ما اكتشف الزوج أنهما لا يزالا يلتقيان، وضبطهما بعد ذلك يرتكبان الفاحشة؛ فليعرض قضيته على عدالة الكنيسة، وان لم تنصفه يعرض الأمـر لاحقـاً علـى محكمة علمانية"([1]).

ويلاحظ هنا أن رجال الدين واللاتين لم يكونوا بمنأى عن ارتكاب المعاصي؛ فقد كـان البطريرك هرقل على علاقة غرامية مثيرة مع باسـك دي ريفيـري Basqus de Riveri زوجة إفرنجي صاحب حانوت في نابلس التي هام بها البطريرك حباً، وجعلها تأتيـه إلـى بيت المقدس أكثر من مرة، ومكثت عنده أكثر من خمسة عشر يوماً فـي إحـدى زياراتهـا له، وبعد موت زوجها استقدمها البطريرك إلى بيت المقدس، واشترى لهـا بيتـاً، وجعلهـا تقيم بالقرب منه([2]).

ومن القرار السابع للمجلس ندرك أن المجتمع الإفرنجي لم يخلُ من القوادين من الرجال والنساء الذين يسهلون أمر قيام علاقات غير شرعية بين الرجال، والنساء من اللاتين، وكانوا يديرون بيوت الدعارة التي انتشرت في المدن الصليبية، فيقضي القرار السابع "بأن يخـضع للمحاكمة كل قواد أو قوادة يقوم بإغواء زوجة أحد الأشخاص وجعلها تمارس خطيئة الزنـا، وتحاكم كذلك الزانية"([3]).

وإلى جانب ارتكاب الفاحشة مع زوجات الآخرين، والاعتداء على حرمة بيت رجل آخر وانتشار بيوت الدعارة، واجه مجلس نابلس مشكلة الشذوذ الجنسي بين الصليبيين، وممارسة اللواط؛ لذا فإن مجلس نابلس أصدر أربع قرارات لمعالجة هذه المشكلة([4]).

كما قرر مجلس نابلس عقوبات رادعـة ضد الرجال اللاتين؛ إذا مـا سعوا إلى إقامـة علاقات جنسية غير شرعية مع النساء المسلمات؛ فأصدر المجلس خمس قرارات لمعالجـة هذه المشكلة منها.

– إذا ثبت أن أحداً ضاجع امرأة مسلمة برغبتها الشخصية يعاقب الاثنان معاً، وذلـك بـأن يخصى الرجل، ويجدع أنف المرأة([5]).

– كذلك تقرر انه إذا أرغمت امرأة مسلمة بأن تمارس الجنس مع رجل مسلم، يـتم تطبيـق عقوبة الزنا على كلٍ منهما، أما إذا تعرضت للاغتصاب فهي في هذه الحالة غير مذنبة، ويتم إخصاء الرجل([6]).

([1]) عطية ، مجلس نابلس، ص47.

([2]) مجهول، ذيل، ص297،298.

([3]) عطية، مجلس نابلس، ص47.

([4]) المرجع نفسه، ص47.

([5]) برونديج، الدعارة، ص 179. عطية، مجلس نابلس، ص 50.

([6]) برونديج، الدعارة، ص 180. عطية، مجلس نابلس، ص 50.

– أما إذا ضاجعت امرأة فرنجية رجلاً مسلماً بإراداتها فيقع عليهما معاً جزاء الزنا؛ أما إذا تعرضت للاغتصاب فلا تعد هي مذنبة، ويخصى المسلم([1]).

هكذا نجد أن القرارات الخمس الأخيرة تحرم على الفرنج رجالاً ونساءً إقامة علاقات جنسية مع المسلمين من الرجال والنساء وذلك لمخالفة السكان المحليين للفرنج في العقيدة فلم يكن العنصر هو المانع وإنما العقيدة([2]).

كما عاني المجتمع الإسلامي في فترة الحروب الصليبية، وما تلاها كثيراً من مظاهر التدهور الاجتماعي على صعيد النظام القيمي والأخلاقي؛ حيث كانت الدعارة من المهن التي حظيت برعاية الدولة المملوكية؛ خاصة في عصرها الثاني، فكانت الدولة تفرض عليها ضريبة عرفت بضريبة "ضمان المغاني"([3]) وكانت هذه الضريبة تدر دخلاً كبيراً على الخزينة السلطانية؛ فمثلاً في 699هـ/1300م تم إعادة إدارة الخمارة بدار ابن جراده، ويقصد بها حانة الخمر والفواحش "وضمنت في كل يوم بألف درهم"([4]).

وكان على كل من ترغب في احتراف الدعارة أن تذهب إلى ضامنة المغاني، ويقول المقريزي في ذلك "فأما ضمان الأغاني فكان بلاءً عظيماً، وهو عبارة عن أخذ مال من النساء البغايا؛ فلو خرجت أجل امرأة في مصر تريد البغاء حتى نزلت اسمها عند الضامنة، وقامت بما يلزمها؛ ما قدر أكبر أهل مصر على منعها من الفاحشة"([5]).

والغريب في الأمر أن "ضامنة المغاني" كانت بمثابة النقيب لمن يحترفن الدعارة، ولكنها كانت مسؤولة أيضاً عن حرف نسائية أخرى مختلفة بل، ومتناقضة مع هذه الحرفة، إذ كانت مسؤولة كذلك عن المغنيات، والواعظات، والقارئات، والندابات فضلاً عن مسؤوليتها عن بنات الليل([6]).

ويبدو أن محترفات الدعارة في عصر المماليك قد تميزن بملابس خاصة بهن؛ ففي سياق حديثه عن سوق الشماعين ذكر المقريزي أن حوانيت هذا السوق كانت تظل مفتوحة طوال الليل "وكان يجلس به بالليل بغايا يقال لهن زعيرات الشماعين لهن سيماً يعرفن بها، وزي يتميزن به، وهو لبس الملاءات"([7]).

([1]) برونديج، الدعارة، ص 179. عطية، مجلس نابلس، ص 50.

([2]) برونديج، الدعارة، ص 179.

([3]) المقريزي، السلوك،ج4، ص362،ج5 ، ص230. أبو المحاسن، النجوم،ج11، ص238.

([4]) المقريزي، السلوك،ج2، ص360. ويذكر المقريزي في خططه أن بيوت الفواحش والبغايا كانت تضمن من قبل الولاء والمقدمين، وكان تحت رعاية الضامن عدة صبيان وعليهم جند مستقطعين . المقريزي، الخطط،ج1، ص257. أبو المحاسن، النجوم،ج9، ص38.

([5]) المقريزي، الخطط،ج1، ص306.

([6]) أبو المحاسن، النجوم،ج10، ص119. ابن الصيرفي، نزهة،ج1، ص210.

([7]) المقريزي، الخطط،ج2، ص584.

ويبدو كذلك ومن خلال الإجراءات التي اتخذها بعض سلاطين المماليك لمنع انتشار الرذيلة والبغاء؛ بأن هذه الظاهرة كانت منتشرة في معظم أقاليم الدولة المملوكية([1]) كما كانت هناك أماكن خاصة بالبغاء في المدن والريف إذ يذكر المقريزي أن الأرمن قد اتخذوا من المنطقة التي عرفت باسمهم، وكراً لبيع الخمور والدعارة "حتى إن المرأة إذا تركت أهلها أو زوجها؛ أو الجارية إذا تركت مواليها أو الشاب إذا ترك أباه، ودخل عند الأرمن.. لا يقدر أن يأخذه منهم ولو كان من كان"([2]).

وبطبيعة الحال أدى ذلك التساهل من جانب الحكومة مع هؤلاء البغايا إلى التجاهر بالزنا وشرب الخمر، حتى إنه كما يذكر ابن الصيرفي كان ببلاد الريف حارات مخصصة للدعارة "ومن اجتاز بها غلطاً ألزم أن يزني بخاطئة فإن لم يفعل فدا نفسه بشيء"([3]).

كما انتشر الشذوذ الجنسي، وممارسة اللواط بشكل، واسع حيث وصف المؤرخون عهد السلطان الظاهر برقوق بانتشار ظاهرة اللواط "حتى تشبه البغايا لبوارهن بالغلمان، لينفق سوق فسقهن"([4]).

هكذا كان انحراف الأخلاق، وانتشار أمراضه الاجتماعية من أهم النتائج والمؤثرات السلبية للحروب الصليبية؛ حيث انتشرت بيوت الدعارة في معظم مدن المملكة الصليبية وخاصة في عكا، ووجدت سوقاً رائجاً لها، كما انتشرت مجالس الموسيقى، والشراب، والغناء في الدول الأيوبية، والمملوكية، وحظيت الدعارة برعاية الدولة، وفرضت عليها ضريبة عرفت باسم ضريبة ضمان المغاني.

- **الفشل في إدارة المجتمع على أساس مدني والتسلط الداخلي.**

مثل الإقطاع في فلسطين المحررة قاعدة لنظام سياسي واقتصادي، واجتماعي تمتد جذوره إلى أيام السلاجقة، ثم من جاء بعدهم من الزنكيين والأيوبيين([5]) فكان السلاجقة هم أول من استبدل العطاء النقدي للجنود بالإقطاع، وتروي المصادر التاريخية أن الوزير

([1]) عن ذلك انظر الإجراءات التي اتخذها الظاهر بيبرس سنة 666هـ، حيث أنه أمر بإراقة الخمور وإبطال الفساد، ومنع النساء والخواطئ من التعرض للبغاء، وحبست النساء حتى يتزوجن، وحط المال المقرر على البغايا من الديوان "وكتب إلى جميع البلاد بمثل ذلك. المقريزي، الخطط،ج1، ص305. وانظر السلوك،ج2، ص38. وانظر كذلك الإجراءات التي اتخذها الناصر محمد قلاوون حيث قام سنة 720هـ بإبطال بيوت الفواحش، وأبعد أرباب الملاهي، وأغلق الحانات، وكتب السلطان لسائر نواب الشام بإبطال ضمان الخمارات، واستتابة أهل الفواحش " فعمل ذلك في سائر مدن البلاد الشامية وضياعها. المقريزي، السلوك،ج3، ص30.

([2]) المقريزي، الخطط،ج2، ص395.

([3]) ابن الصيرفي، نزهة،ج1، ص168،ج3، ص144.

([4]) المقريزي، السلوك،ج5، ص231. أبو المحاسن، النجوم،ج11، ص239. وعن الشذوذ الجنسي وممارسة اللواط انظر زعرور، الحياة الاجتماعية، ص 202– 216.

([5]) القلقشندي، صبح،ج4، ص51. أبو المحاسن، النجوم،ج5، ص270.

السلجوقي نظام الملك كان أول من أقطع الإقطاعات([1]) ولم تكن هذه الإقطاعات تعني حق امتلاكها، وإنما كانت تعني ناتجها فقط([2]).

ولقد كانت فترة الدولة الزنكية بمثابة الفترة الانتقالية في تطور التنظيم الإقطاعي العسكري باعتباره الوسيلة الفعالة لتعبئة الجيوش، حيث تم ربط الإقطاع بالخدمة العسكرية، والولاء الشخصي؛ فذكر المقريزي في حوادث 569هـ/1173م أن نور الدين أرسل يطلب من صلاح الدين الحساب" عن جميع ما أخذه من قصور الخلفاء، وحصل له من الارتفاع" فعرض على رسول نور الدين "الأخباز وعرفه مبالغ إقطاعاتهم وجاميكاتهم([3]) ورواتب نفقاتهم"([4]) وفي عهد نور الدين أصبحت هذه الإقطاعات وراثية؛ كما كانت هناك سجلات تبين عدد الرجال، والعتاد الذي كان على كل أمير صاحب إقطاع أن يقدمهم لجيش نور الدين([5]).

وسار صلاح الدين وخلفاؤه بالتنظيم الإقطاعي العسكري خطوة أخرى في سبيل جعله أكثر قدرة على موائمة التطورات العسكرية؛ لمواجهة ضرورات الحروب الصليبية، حيث كانت جيوشه قائمة على أسس إقطاعية جمعت بين الإقطاع الشخصي، والإقطاع الوراثي([6]).

غير أن أهم التطورات في التنظيم الإقطاعي زمن صلاح الدين الأيوبي؛ تمثلت في أن خيوط العلاقة الإقطاعية تجمعت في شخص السلطان الذي كان هو السيد الإقطاعي لجميع الأمراء الإقطاعيين([7]) ولم يكن ذلك التنظيم الإقطاعي من النمط الذي يقوى نفوذ الأمراء الإقطاعيين على حساب السلطة المركزية، وإنما على العكس كان وسيلة فعالة لإحكام سيطرة السلطان على الأمراء التابعين له تحت وطأة العزل والحرمان من الإقطاع([8]) ولم يتحول الفلاحون إلى أرقاء كما حدث في العصور اللاحقة([9]).

وهكذا وخلال العصر الأيوبي الذي استمر أكثر من قرن ونصف من الزمان، جرت على النظام الإقطاعي العسكري عدة تطورات هامة؛ أوصلته إلى شكله النهائي في عهد سلاطين المماليك؛ فكان أهم تطور حدث في النظام الإقطاعي العسكري زمن المماليك هو

([1]) الطوسي، سياسة نامه، ص139.أشتور، التاريخ، ص276. طرخان، الإقطاع الإسلامي، ص75.

([2]) الدوري، مقدمة، ص95.

([3]) **الجامكيه:** الجمع جوامك وجاميكات، وهي الرواتب عامة.القلقشندي، صبح،ج3، ص524.

([4]) المقريزي، السلوك،ج1، ص161.

([5]) أبو شامه، الروضتين،ج1، ص104.

([6]) المقريزي، الخطط،ج1، ص 279. الدوري، مقدمة، ص102.أشتور، التاريخ، ص302، 303.

([7]) قاسم، ماهية، ص188.

([8]) ومن ذلك ما رواه المقريزي بقوله " ارتجع العادل عن إقطاعه بمصر وهو سبعمائة ألف دينار في كل سنة، فجهز إليها الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، وأنعم على تقي الدين بالفيوم وأعمالها مع القايات، ويوش وأبقى عليه مدينة حماة، وجميع أعمالها". المقريزي، السلوك،ج1، ص194.

([9]) أشتور، التاريخ ، ص303

تحوله إلى إقطاع شخصي غير وراثي([1]) ومنذ عصر السلطان ناصر محمد بن قلاوون خضع النظام الإقطاعي المملوكي لعدة تغييرات جوهرية، إذ صار الإقطاع يتوزع بين عدة مناطق بعد أن كان يتركز في ناحية واحدة([2]) كما كان الإقطاع يتغير بتغيير وظيفة صاحبه([3]) وكان الهدف هو الحد من قدرة الأمراء على تكوين أي نفوذ في مناطق إقطاعاتهم، والثورة على الدولة، والتأكيد على أنها إقطاعات خدمية، وبديل عن الراتب([4]) وهذا التغيير الذي حدث في النظام الإقطاعي المملوكي حدث بعد خروج الصليبيين من بلاد الشام والمنطقة العربية، وبعد هزيمتهم في عكا وهو ما يعني أن النظام الإقطاعي الذي قامت عليه الدولة العسكرية التي أفرزتها الضرورة التاريخية في مواجهة الصليبيين قد بدأ مرحلة التدهور، وعلى الرغم من نجاح الدولة العسكرية في دورها التاريخي، والقضاء على الكيان الصليبي إلا أن هذه الدولة فشلت في مواجهة متطلبات الإدارة المدنية([5]).

ومن مساوئ نظام الإقطاع، وتوزع الإقطاعات عدم اكتراث المقطع بالحفاظ على البلاد المقطعة له، وخاصة أنها لمدة محدودة، مما أدى إلى خراب عدد كبير من الإقطاعات([6]).

ويشير المقريزي إلى أن الأقباط هم أول من شجع السلطنة على توزيع الإقطاعات لإضعاف جيش مصر، وزيادة كلفة الجند([7]) لأن عملية جمع الضرائب كانت تتطلب من المقطع تعيين موظفين في إقطاعه لجمع الضرائب مما يزيد من الأعباء المالية، ويضعف الالتزام العسكري، لعدم قدرة المقطع على القيام بها، مما ألجأ الكثير من الأجناد للنزوح عن إقطاعاتهم([8]) لذلك شهدت المراحل الأخيرة من عصر سلاطين المماليك؛ صوراً عنيفة من الاستبداد، والتسلط فقابلها مقاومة متصاعدة من الناس، وتدهور البناء الاقتصادي للدولة المملوكية؛ مما دفع إلى حدوث مزيد من الخلل السياسي.

وكان الفلاحون يعانون من الظلم الذي أوجده النظام الإقطاعي العسكري أو الحربي المملوكي، فلم يكن للفلاح الحق في مغادرة الأرض التي يعمل فيها إلا بعد مرور ثلاث سنوات، وإن حدث وغادرها يُعاد إليها بالقوة، يقول السبكي "ومن قبائح ديوان الجيش إلزامهم

([1]) المقريزي، الخطط،ج1، ص255، 259. الدوري، مقدمة، ص103.

([2]) المقريزي، الخطط،ج1، ص259.

([3]) كان يعتمد العائد الذي يتناوله المقطع على الرتبة العسكرية، ومدى علاقة المقطع بالسلطان، ولذلك لا يتساوى أمراء الفئة الواحدة في إقطاعاتهم، فتتراوح عوائد إقطاعات أمراء المئة ما بين مائتي ألف إلى ثمانين ألف دينار، وأمراء الطبلخانات من ثلاثين ألف إلى ثلاثة وعشرين ألف دينار، وأمراء العشرات من تسعة آلاف إلى ثمانية آلاف دينار. القلقشندي، صبح،ج4، ص51، 52. المقريزي، الخطط،ج1، ص260.

([4]) الدوري، مقدمة، ص104.

([5]) قاسم، ماهية، ص191.

([6]) أشتور، التاريخ، ص372.

([7]) المقريزي، الخطط،ج1، ص259.

([8]) ناصر، الحياة الاقتصادية، ص123.

الفلاحين في الإقطاعات بالفلاحة.... وقد جرت عادة الشام بأن من نزح من دون ثلاث سنين يلزم ويعاد إلى القرية قهراً، ويلزم بشد الفلاحة"([1]).

وتعرض الفلاح لعبودية جديدة؛ فلا يمكنه تغيير وضعه أو ظرفه إذا صار قناً "ويسمى الفلاح المقيم بالبلد فلاحاً قرارياً فيصير عبداً قناً لمن اقطع تلك الناحية، إلا أنه لا يرجو قط أن يباع، ولا أن يعتق؛ بل هو قن ما بقي، ومن ولد له كذلك"([2]).

وتطالعنا المصادر المملوكية عن أحوال المجتمع الريفي في فلسطين الذي جعل الفلاحين شبه أقنان في أراضي المقطعين يعانون كافة مظاهر السخرة، والاستغلال والاضطهاد سواء من المماليك أو من الأمراء العرب وغيرهم يقول المقريزي في أحداث سنة 824هـ/1421م "ثم مر السلطان الظاهر المظفر في طريقه بمدينة القدس فرفع إليه أن من عادة نائبها أن يجبي من فلاحي الضياع نحو أربعة آلاف دينار.. ونادى بإبطال هذه المغارم"([3]).

وفي عام702هـ/1302م قام الأمير سيف الدين بكتمر الحاجب([4]) بكشف البلاد الصفدية وبعد أن حرر كشفه أنشد زين الدين عمر بن حلاوات الصفدي([5]) مُوقع صفد قائلاً([6])

يا قاصداً صفد فعد عن بلده	من جور بكتمر الأمير خراب
لا شافع تغني شفاعته ولا	جانٍ له مما جناه متاب
حشر وميزان ونشر صحائف	وجرائد معروضة وحساب
وبها زبانية تبث على الورى	وسلاسل ومقارع وعقاب

وتنبه ابن خلدون بدوره إلى بعض ما كان يعانيه الفلاحون، فتنبأ أن إكثار الضرائب على الرعايا والعاملين بالزراعة والفلاحة، ومختلف أفراد الشعب، سيقود إلى الانهيار العام، ودمار المجتمع، وزوال النظام الحاكم، فقد أذهبت كثرة الضرائب التي باتت بحكم العادة المفروضة تزداد كل يوم بضرائب جديدة أذهبت غبطة الرعايا في الاعتمار([7]) وأدت هذه الضرائب إلى إرهاق الفلاحين، ويصف المقريزي الحالة في عصره بقوله:" فتعدوا إلى

([1]) السبكي، معيد النعم، ص34.

([2]) المقريزي، الخطط ،ج1، ص148.

([3]) المقريزي، السلوك،ج7، ص41.

([4]) **سيف الدين بكتمر الحاجب:** كان أولاً أمير ثم قدم إلى دمشق وتولى بها شد الدواوين ثم تولى الحجوبيه، توجه إلى صفد كاشفاً أيام سنقر شاه سنة 702هـ/1302م. ثم تولى نيابة غزة سنة 710هـ/1310م. ثم اعتقل فترة من الوقت وتولى نيابة صفد سنة 716هـ لمدة عشر أشهر. الصفدي، الوافي،ج10، ص110، 121. ابن حجر، الدرر،ج2، ص18.

([5]) **زين الدين عمر بن حلاوات الصفدي:** كان من أبناء التجار تعلق منذ صباه بصناعة الإنشاء وتدرب إلى أن صار كاتباً بصفد كان على معرفة بالتنجيم، ويجيد الموسيقى والرسم على القماش، وتولى كتابة السر بطرابلس سنة 719هـ/ 1319م. واستمر بها حتى وفاته 736هـ.. الصفدي، الوافي،ج22، ص262. ابن حجر، الدرر،ج4، ص178.

([6]) الصفدي، الوافي،ج10، ص121.

([7]) ابن خلدون، تاريخ،ج1، ص 294، 295.

الأراضي الجارية في إقطاعات الأمراء.... وزادوا في مقادير الأجور.... فجعلوا الزيادة دينهم كل عام؛ حتى بلغ الفدان لهذا العهد نحواً من عشرة أمثاله.... لا جرم أنه لما تضاعفت أجرة الفدان من الطين...وعظمت نكاية ألولاة، والعمال، واشتدت وطأتهم على أهل الفلح... وكثرت المغارم على عمل الجسور وغيرها... فخربت بما ذكرنا معظم القرى، وتعطلت أكثر الأراضي من الزراعيات، ونقصت الغلات... لموت أكثر الفلاحين، وتشريدهم في البلاد"([1]).

وقد تلجأ الدولة إلى فرض أضعاف من الضرائب على المزارعين، والضياع وصغار التجار، وربط ابن خلدون بين قلة المجابي في المرحلة الأخيرة من عمر الدولة، وحاجة الحاكم إلى الزيادة في الضرائب، والمكوس لتحقيق التوازن، ومستلزمات الملك من أبهة وترف، وأنفاق على الجند([2]) وقد أدى ذلك إلى نزوح الفلاحين، وجلائهم عن أوطانهم "فقلت مجابي البلاد، ومتحصلها لقلة ما يزرع بها، ولخلوا أهلها، ورحيلهم بشدة الوطأة من الولادة عليهم، وعلى من بقي منهم....فاقتضى الحال من أجل ذلك؛ ثورة أهل الريف، وانتشار الزعار وقطاع الطرق"([3]) حيث مارس المقطعين أساليب تغطية لجمع الضرائب([4]).

وكان الفلاحون أيضاً معرضين لاغتصاب الدولة لحيواناتهم، ولجوء النظام الحاكم إلى ما يسميه ابن خلدون التجارة السلطانية، حيث لجأت السلطات إلى فرض الأسعار التي تريدها بيعاً وشراءً؛ فتغتصب ما تريد اغتصابه بثمن متدني أو بلا ثمن فالسلطان " لا يجد من ينافسه في شرائه فيبخس على بائعه"([5]) فكان هم السلطات الحاكمة الحصول على المال بسرعة، وبدون حساب للنتائج، وفي بعض الأحيان كان عمال الدولة يكلفون التجار والفلاحين بشراء بعض السلع المخزونة؛ أو المستوردة، بصرف النظر عن اعتبارات أحوال الأسواق، أو مكان رواج وبيع السلعة، وكانوا "لا يرضون في أثمنها إلا القيم وأزيد"([6]).

هكذا دخل نظام الإقطاع العسكري الذي قامت على أساسه الدولة المملوكية مرحلة التدهور بعد القضاء على الكيان الصليبي، ورغم التغييرات التي اتخذها السلطان الناصر محمد قلاوون لمواجهة الحياة المدنية، والظروف الجديدة، إلا أن الدولة المملوكية فشلت في مواجهة متطلبات الإدارة المدنية، وأدى التسلط الداخلي، وكثرة الضرائب التي أثقلت كاهل الفلاحين، والناس إلى قيام الثورات المتكررة، ونزوح الفلاحين عن أراضيهم، مما أدى إلى تدهور البناء الاقتصادي، وخلخلة النظام السياسي للدولة المملوكية".

([1]) المقريزي، إغاثة، ص45– 47 .

([2]) ابن خلدون، تاريخ،ج1، ص 296،295.

([3]) المقريزي، إغاثة، ص44، 45.

([4]) يروي المقريزي في أحداث سنة 807 ما نصه "وفيه (رمضان) فرض نائب القدس على الناس مالاً فأبو عليه فتركهم حتى اجتمعوا بالمسجد، وغلق الأبواب وألزمهم بالمال فاستغاثوا عليه فلبس السلاح وقاتلهم. المقريزي، السلوك،ج6، ص125.

([5]) ابن خلدون، تاريخ،ج1، ص 296، 297.

([6]) المصدر نفسه،ج1، ص297.

الخاتمـــــــــــة

من خلال هذه الدراسة خلص الباحث إلي عدد من النتائج الهامة منها.

- أثبتت الدراسة أن الصراع الصليبي الإسلامي ارتبط بالأرض حيث شهدت فلسطين إقامة العديد من المستوطنات الصليبية، وذلك على حساب سكان البلاد الأصليين، ولا ريب في أن حركة الاستيطان تكشف لنا عن الطابع الاستعماري للحركة الصليبية ذاتها.

- خلصت الدراسة إلى أن ملوك الفرنجة كانوا على قناعة تامة أنه لا استقرار ولا استيطان في الأراضي المقدسة دون توفير الحد الأدنى من الأمن والحماية للمهاجرين الجدد من الغرب الأوربي، وهذا يعني توفير أموال طائلة تمكّن الدولة من بناء القلاع والحصون في المواقع الإستراتيجية؛ كما أن بناء القلاع جاء ضمن إستراتيجية الأمر الواقع الذي حاول الفرنج ترجمتها في فلسطين بغرض توسيع رقعة الأرض التابعة للقلعة، إضافة إلى تحقيق هدف طبوغرافي يرمي إلى محاولة إلغاء الطابع الإسلامي لفلسطين، والعمل على كثلكتها.

- أوضحت الفصول السابقة كيف أن المملكة الصليبية مثلت صيغة أوروبية على ارض الشرق، وظلت تعتمد على الدعم الأوربي ماديا ومعنويا بصورة كشفت عن أنَّ الوجود الصليبي ذاته، وكذلك مؤسساته الدينية والحربية لم تكن تستطيع القيام والاستمرار دون الدعم الأوربي غير المحدود، وظلت المملكة الصليبية بمثابة عالة علي الغرب الأوربي، ولم تستطع الاعتماد على نفسها؛ بل شكلت الموارد القادمة من الغرب الأوربي عنصرا أساسيا مكن الغزاة من التأسيس والاستمرار على حساب المسلمين

- توصلت الدراسة إلى أن المملكة الصليبية عانت من مشكلة نقص العنصر البشري، وظلت هذه المشكلة المزمنة تلاحقها منذ تاريخ تأسيسها على ارض فلسطين حتى تدميرها، لذلك عمد الغزاة إلى استقدام العناصر السكانية من النصارى المحليين خاصة من منطقة شرق الأردن من خلال تقديم مغريات، وحوافز اقتصادية لعناصر المسيحيين الشرقيين.

- أوضحت الدراسة إن التنوع السكاني في فلسطين كان بمثابة تعبير عن تاريخ هذه المنطقة الممتد في أغوار الزمن، كما كان في الوقت نفسه سببا في سيوله التركيبة السكانية على نحو يجعل من دراستها وفق إطار واحد أمر بالغ الصعوبة، وقد زادت ظروف الحروب الصليبية من درجة هذه السيولة بسبب ما نتج عنها من عمليات الهجرة والتهجير، وتحول الأغلبية إلى أقلية في بعض المناطق، ودخول عناصر جديدة في البنية السكانية؛ حيث توالت أعداد المهاجرين من أوربا لتسبب خللاً دائماً، وسيولة في التركيب السكاني لفلسطين

- ومن النتائج التي توصلت إليها الدراسة لجوء رجال الدين اللاتين إلى تهجير بعض السكان الأصليين من قراهم؛ بعد قيام ملوك الصليبيين بمنحهم بعض القرى المكتظة بالسكان

المحليين، ويبدو أن عملية تهجير السكان من قراهم كانت ضمن السياسة الاستيطانية التي انتهجتها المملكة الصليبية في الأراضي المقدسة، تلك السياسة الهادفة إلى توطين مستوطنين أوربيين بدلا من سكان البلاد الأصليين، وقد أشارت احدي الوثائق إلى انه جرى تهجير سكان قرية كفر مالك المسلمين إلى قرية بيت فوريك.

– توصلت الدراسة إلى أن الغزو الصليبي لفلسطين، ورغم ما اتسم به هذا الغزو في مراحله المبكرة من عنف، واتجاه الصليبيين إلى إبادة المسلمين من سكان المناطق المحتلة مندفعين بالروح الصليبية العدائية التي بثتها فيهم البابوية، الأمر الذي أدى إلى هجرة الكثير من سكان هذه المناطق لمدنهم وقراهم مؤقتاً من بطش الصليبيين؛ إلا أنه وبسبب تغيير إستراتيجية الحرب لدى الصليبيين، ومع إدراكهم لأهمية العنصر البشري الإسلامي؛ عاش في المملكة الصليبية في فلسطين عدد كبير من المسلمين، وخاصة في الأقاليم الريفية، وقد عاش هؤلاء المسلمون جنبا إلى جنب مع المسيحيين الشرقيين كطبقة أدنى محكومة تسودها الطبقة الأعلى من اللاتين، وفرض الصليبيون على المسلمين الذين عاشوا تحت حكمهم التزامات مالية وعينية وخدمات شكلت عبئا ثقيلاً عليهم، ورغم التعايش اليومي بين الطرفين في مدن وريف المملكة الصليبية إلا أن المسلمين لم يختلطوا ولم يمتزجوا بلاتين من فئات المجتمع الصليبي لوجود حواجز نفسية وحضارية، وتشريعية من جانب الصليبيين.

– أبرزت الدراسة تسليط الأضواء على عنصر البدو اللذين مثلوا محوراً مهماً في قضية الصراع الإسلامي الصليبي حيث ظهر هذا العنصر طرفاً له ملامحه المميزة؛ بين إعلان الولاء والخضوع للصليبيين، والانضمام إلى إخوانهم المسلمين في مصر والشام، والواضح أن القوى الصليبية والإسلامية بذلت جهداً متفاوتاً في إخضاع واستقطاب القبائل البدوية، ومن ثم لم تحسم قضية موقف البدو من الصراع الإسلامي الصليبي إلا بسقوط المملكة الصليبية.

– أكدت الدراسة على زاوية جديرة بالاهتمام في صورة التباين بين الأجيال الصليبية؛ بين جيل التأسيس؛ ثم الأجيال التالية وصولا إلى عام 570هـ/1174م وهو عام وفاة الملك عموري الأول، وواقع الأمر أن تلك الفجوة بين الأجيال الصليبية ساهم فيها إلى حد بعيد أمر "التمشرق"؛ على الرغم من تمسكهم ببعض مظاهر تؤكد انتسابهم لثقافة، وحضارة المجتمعات الغربية التي وفدوا منها.

لقد كانت تأثيرات الحروب الصليبية من الناحية الاجتماعية واضحة في فلسطين أكثر منه في أي منطقة أخرى في العالم الإسلامي إذ أن البنية السكانية وعلاقات القوى الاجتماعية والنظام القيمي والأخلاقي قد اهتزت كثيرا نتيجة للاستيطان الصليبي الذي عاش فوق تراب هذه الأرض حوالي قرنين من الزمن.

ملاحق البحث

الملحق الأول: منح قرية كفر مالك لرجال الدين اللاتين في كنيسة القيامة.

الملحق الثاني: الخلاف بين رجال الدين في كنيسة القيامة ورجال الدين في كنيسة جبل طابور حول أعشار قرية سنجل Sinjil بيت المقدس الثلاثاء 14أغسطس1145م.

الملحق الثالث: منشور صلاح الدين الأيوبي لجمال الدين بن حجي بن كرامة.

الملحق الرابع: مرسوم ضريبة عام1188م"عشر صلاح الدين"الذي أصدره هنري الثاني ملك انجلترا في أواخر يناير1188م أواسط ذي القعدة584هـ.

الملحق الأول

منح قرية كفر مالك لرجال الدين اللاتين في كنيسة القيامة([1])

30

1129, mars[1]. — Acre, palais royal

Baudouin II cède au chapitre du Saint-Sépulcre de Jérusalem le casal de Kafr Mālik, au territoire de Naplouse, avec tous ses vilains et dépendances, sauf ceux que Romain du Puy[2] avait transféré au casal de Bayt Fūrīk, contre l'abandon d'un revenu de 200 besants qu'il tirait de Naplouse.

A. Original perdu.
X. N° 30.
Y. N° 30, f° 38rv.
Z. N° 30, f° 40r-41r.
a. ROZIÈRE, n° 44, p. 81-83, d'après *Z.* — *b.* BEUGNOT, *Lois*, t. II, n° 10, p. 488-489, d'après *Z'.* — *c.* MIGNE, *P.L.*, t. 155, col. 1133-1134, d'après *b.*
ANALYSES : WAUTERS, *Table chronologique*, t. II, p. 143. — RÖHRICHT, n° 121.

In nomine sanctę et individuę Trinitatis, Patris et Filii et Spiritus Sancti, Amen[a]. Ego Balduinus, Dei gratia rex Jherusalem Latinorum secundus, dignę ratus maculas fidelium animarum orationum devotione et elemosinarum largitione posse aboleri, pro anima predecessoris mei

1. L'indiction 4 est fausse, il faut corriger en 7. La datation de 1129 a été établie par R. HIESTAND, *Chronologisches zur Geschichte des Königreiches Jerusalem um 1130*, dans *Deutsches Archiv für Erforschung des Mittelalters*, 26, 1970, p. 223.
2. Seigneur de Transjordanie.

bonę memorię regis Balduini et reginę uxoris[b] meę parentumque meorum, dono sanctę ęcclesię Dominici Sepulcri et Willelmo priori cęterisque canonicis inibi regulari tramite Deo militantibus, tam presentibus quam futuris, casale quoddam in territorio Neapolis nomine *Cafermelich*[c], cum omnibus terris, villanis et pertinentiis suis, exceptis illis ejusdem casalis villanis quos Romanus de Podio transmutaverat ad casale *Bethafort*[d]. Ita quidem [illegible] sanctissimi Dominici Sepulcri et predicti canonici ipsum casale habeant et possideant jure perpetuo, sine omni calumpnia heredum meorum et successorum vel quorumlibet hominum. Ipsi vero canonici ob istius casalis donum CC bizancios, quos habebant in redditu Neapolis, mihi quietos clamaverunt. Si quis vero, nequitię commotus stimulis, temerario ausu hoc meum legale donum ullo modo impugnare aut cassare temptaverit, a Deo, nisi resipuerit, anathematis sententia percussus, nostrę regię potestati reus subjaceat, nichilominus hoc meo dono firmo et stabili semper consistente. Ad hujus itaque mei doni corroborationem Pagano, meo cancellario, scribi et plumbeo regali sigillo confirmari precepi, presente domno Stephano, venerabili Jherosolimorum patriarcha, et coram aliis testibus quorum nomina subscripta leguntur : Milissenda[e] filia regis, hoc laudat et consentit ; Willelmus, Nazarenus archiepiscopus ; Balduinus, Sebastinus episcopus ; Anselmus[f], Bethleemita episcopus ; Gelduinus, Vallis Josaphat abbas ; Arnaldus, prior Montis Syon ; Johannes, camerarius ; Bernardus Vaccarius ; Hugo, Joppensis dominus ; Ansellus de Bria ; Henfredus de Torone ; Gualterius, Cesarec dominus ; Guitterius, sororius[g] regis ; Roardus ; Sado, marescalcus ; Paganus, pincerna ; Romanus de Podio ; Goffridus Tortus ; Balduinus Sancti Abrahe ; Hulricus, Neapolis[h] vicecomes, et plures alii. Factum est et datum in palatio[i] regis aput Acchon[j], anno dominicę Incarnationis M°C°XX°VIII°, indictione IIIIa, mense marcio.

a *manque dans Y.* — b usoris *Z.* — c *Cafermelis Y.* — d *Betefort Y.* — e Millisenda *Z.* — f Ansellus *Z.* — g sororis *Z.* — h Niapolis *Z.* — i palacium *Y.* — j Achon *Z.*

([1]) Rohricht,op.cit.,Doc.No.127,p.30. Genevieve, B.B., op. cit., Acte 30,pp.92,93.

ترجمة الملحق الأول

منح قرية كفر مالك لرجال الدين اللاتين في كنيسة القيامة

القصر الملكي في عكا مارس 1129م

باسم الثلاثي الفرد المقدس الأب والابن وروح القدس

إنني بلدوين الملك الثاني على اللاتين في بيت المقدس بفضل الله مدركاً أنه يمكن محو خطايا النفوس المؤمنة بالدعوات والتصديق، ومن اجل الذكرى العطرة لروح سلفي الملك بلـــدوين وزوجته الملكة، وهما والديّ فإنني أمنح للكنيسة المقدسة؛ كنيسة القيامـــة، ولـــوليم رئيـــسها ولرجال الدين الآخرين بها؛ الذين يكرسون أنفسهم في خدمة الرب سواء فـــي الحاضـــر أو المستقبل؛ أمنحهم القرية الموجودة في حدود نابلس، واسمها كفر مالك Casel Melich مـــع كل الأراضي والضياع والزمام المحيط بها؛ باستثناء تلك المنازل المقامة في القرية ذاتهـــا، وهي التي ضمها رومانوس دي بوديو Romanus de podio إلـــى قريـــة بـــت فوريـــك Bethforic وكذلك أعني بمنحي بأن كنيسة القيامة المقدسة ورجال الدين المذكورين يملكون القرية ذاتها، وتصبح بحوزتهم حقاً مستمراً دون أي اعتراض من ورثتي وخلفائي أو من أي إنسان. وقد طلب أولئك الكهنة أنفسهم لي إلـــ 200بيزنت التي كانوا يمتلكونها من الضرائب ومكوس نابلس. أما إذا حاول أي شخص بتحريض؛ سواء أن يهاجم شرعية هذه المنحة بأي وسيلة، أو أن يحاول منعها يكون بعيداً في رأيه عن الرب ما لم يعد إلى رشده، ويخضع إلى سلطان مملكتنا، ولا يعد لهذا شيئاً يحول دون سريان هذه المنحة ثابتة إلى الأبد، وقد أوصيت مستشاري باجان Baganus بكتابة هذه المنحة وتوثيقها في السجل الملكي؛ بحضور الـــسيد ستيفن Steven بطريرك بيت المقدس المبارك، وميلسند ابنة الملك، ووليم رئـــيس أســـاقفة الناصرة، وبلدوين أسقف سبسطية، وانسيلم([1]) أسقف بيت لحم، وهيو سيد يافا، وهمفـــري([2]) سيد تبنين،وولتر سيد قيسارية، وجلدوين رئيس دير وادي القديسة مريم، وهادريك فيكونـــت نابلس، وبلدوين([3]) سيد الخليل، وبحضور شهود آخرين، وقد تم هذا وسلم في البلاط الملكي في العام الميلادي 1129م تحت بند A في شهر مارس.

([1]) **انسيلم:** كان أسقفاً لبيت لحم وواحد من الذين عملوا في البلاط الملكي في عهد الملك فولك. الصوري، تاريخ،ج2، ص

([2]) **همفري:** تمكن من تكوين إقطاعية صليبية على حساب إمارة الجليل حيـــث الأراضـــي الجبليـــة حـــول قلعـــة تبنـــين التـــي شيدت عام500هـــ/1106م وقد خلفه في حكم الإقطاعية بقية أفراد آسرته التي كانت تضم أربعة يحملون نفس الاسمِ. Albert d,Aix, op.cit.,p.690 الصوري، تاريخ،ح1، ص627،626،ج2، ص1022،1021

([3]) **بلدوين:** وهو سيد الخليل عرف باسم سانت إبراهام كما أشارت إليه وثيقة تعود إلى عام 509هـــ/1115م وظلت الوثائق تشير إليه كشاهد للعقود أيضا في أعوام514هـــ/1120م، 520هـــ/1126م ، 523هـــ/1129م، 524هـــ/1130م، 530هـــ/1136م ولعل هذه الإشارات تدل على أهميته كما تشير إلى طول فترة حكمة.السيد، الخليل، ص125،126.

الملحق الثاني

الخلاف بين رجال الدين في كنيســـــة القيامة ورجال الدين في كنيسة جبل طابور حول أعشار قرية سنجل Sinjil.([1])

1145, 14 août. — Jérusalem

Guillaume, patriarche de Jérusalem, termine le litige entre le monastère Saint-Sauveur du Mont Thabor et le chapitre du Saint-Sépulcre de Jérusalem. Il confirme au Mont Thabor l'église du casal Saint-Gilles, la moitié des dîmes des deux casaux, Tūrmūs 'Ayyā et [ḫirbat] al-Dayr, et les dîmes de trois vignes. La seconde moitié des dîmes des deux casaux revient au Saint-Sépulcre. A l'avenir, pour tout bien acquis, le Mont Thabor versera la moitié des dîmes au Saint-Sépulcre et en outre donnera un cens annuel recognitif d'un rotl de cire le 15 juillet[1].

a. Rozière, n° 41, p. 77-79, d'après *Z*. — b. Migne, *P.L.*, t. 155, col. 1130-1132, d'après *a*.

Analyse : Röhricht, n° 234.

Willelmus, Dei gratia sanctę Jherusalem patriarcha, dilectis in Domino filiis Poncio[a], ęcclesię Sancti Salvatoris quę est in monte Thabor abbati, et monachis in ea communem vitam professis, in perpetuum. Traditę nobis officium exigit dignitatis ut ęcclesiis nobis commissis paterna sollicitudine provideamus et, si quid controversię in eis ortum fuerit, removere ac unitatem spiritus[b] easdem modis omnibus reformare studeamus. His itaque invigilantes attencius[c], controversiam de decimis casalis Sancti Egidii inter ęcclesiam Sepulcri Domini et vestram diu habitam, communi fratrum et coepiscoporum nostrorum consilio ac dilecti filii nostri Petri, Dominici Sepulcri prioris, tociusque capituli nostri assensu sedavimus. Nam ut inter easdem ęcclesias pax conservetur ęterna[d], ęcclesiam prefati casalis Sancti Egidii cum oblationibus suis et suorum duorumque casalium, *Turbasāim* videlicet et *Dera*, decimarum medietate vobis libere et absolute concedimus, ac ut trium vinearum vestrarum, quas nunc habetis, decima similiter, omni inquietatione sopita, iuri vestro remaneat adicimus. Aliam vero decimarum partem, ęcclesię Dominici Sepulcri canonicis reservamus. Ex his quidem, quę ex nostra concessione possidetis, ęcclesiam et clericos in ea Domino famulantes procurare debetis. Si que ętiam unde decima reddi debuerit, postmodum acquirere poteritis, decimę medietatem ęcclesię[e] Sepulcri Domini persolvetis. Sed et ne hec a memoria futurę deleantur posteritatis, cereum unius rotulę in festivitate Jherusalem annuatim prefatę Dominici Sepulcri ęcclesię horum dabitis in recognitione. Ut hec vobis, filii in Christo karissimi, firma et illibata in perpetuum conserventur, per presentem paginam sigilli nostri appositione munitam, confirmare decernimus. Hii quoque quorum subscribuntur nomina, huic nostrę concessioni interfuerunt, et suum cum consilio laudamentum unanimiter attribuerunt, scilicet : Balduinus, Cesariensis archiepiscopus ; Robertus, Nazareth archiepiscopus ; Rogerius, Ramethensis episcopus ; Anselmus, Bethleem episcopus ; Rainerius, Sebastensis episcopus ; Helias Tyberiadensis[f] episcopus ; Gaufridus, abbas Templi Domini ; Henricus, prior Montis Oliveti ; Letardus, prior Nazareth ; Willelmus, Dominici Sepulcri prepositus. Sed et ceteri canonici nostri qui subscribuntur huic rei assensum prebuerunt : Godefridus, thesaurarius ; Bertrandus de Podio ; Nicholaus ; Gamaliel ; Robertus, cellararius ; et omnes alii.

397

(1) Rohricht, op.cit., Doc.No.234, p.59 . Genevieve, B.B., op. cit., Acte 24, pp.83-85.

ترجمة الملحق الثاني

الخلاف بين رجال الدين في كنيسة القيامة ورجال الدين في كنيسة جبل طابور حول أعشار قرية سنجل Sinjil

بيت المقدس الثلاثاء 14أغسطس1145م.

وليم بطريرك بيت المقدس، وبفضل من الله يمنح للأبناء المتحابين في المسيح لبوتيوس رئيس كنيسة المسيح المقدسة الموجودة على جبل طابور وللرهبان الذين أقروا بالحياة فيهـا معـاً باستمرار، أعطونا (سلموا لنا) ذلك المنصب الكريم، وهو أن يعهد إلينـا بالاعتنـاء بـأمر الكنائس التي عهد إلينا بما كان مناط أيام آباؤنا؛ فإذا ما ظهر شيء مخالف لذلك؛ فلنتـدارس كيفية إعادة الروح الواحدة وإصلاح شؤون كل الأمور. وكذا فأننا إذ نعطي عنايـة كبيـرة واهتماماً كبيراً لهذه فقد قضينا على الخلاف بخصوص أعـشار قريـة سـنجل S.Egidil (Sinjil) بين كنيسة القيمة وكنيستكم (كنيسة جبل طابور)التي اعتبرت لكم؛ نتيجة المشاورة المتبادلة بين إخواننا وأساقفتنا وابننا المفضل بطرس رئيس كنيسة القيامة بموافقـة رئيـسنا جميعاً، وذلك لكي يدوم السلام الدائم بين الكنائس ذاتها؛ فإننا نمنح الكنيـسة قريـة سـنجل المذكورة مع كل متعلقاتها ومتعلقات القريتين التابعتين لها، وهما ترمـسعياTurmus Ayya والدير Dere بنصف الأعشار لكم حرة وبلا أي شيء ونصيف إلى ذلك الأعشار بالمثل ثابتة وبلا أدنى اختلال(أعشار الكروم الثلاثة الخاصة، والتي هي ألان بحوزتكم تبقى حقاً خالـصاً لكم)لنحتفظ بالجزء الآخر من الأعشار لرجال الدين في كنيسة القيامة، وحتى لا يضيع هـذا من ذكر الأجيال القادمة، فإنكم سوف تقدمون شمعدان واحد لبيت المقدس في عيد الـذكرى السنوية لكنيسة القيامة، وليظل هذا دائماً ثابتاً لا يمس؛ لكم يا أبناءنا. وقد قررنا أن نؤكد هذا نوثقه في السجل، وسوف نكتب أسماء هؤلاء الذين أسهموا بمشورتهم المشكورة وهم:

1- روبرت([1]) رئيس أساقفـة الناصـرة - بلدوين([2]) رئيس أساقفـة قيساريـة
3- روجر أسقف الرملة 4- انسيلم أسقف بيت لحم 5- ريناريوس أسقف سبسطيـة
6- إلياس أسقف طبرية 7- جودفري رئيس المعبد 8- هنري رئـيس ديـر جبـل الزيتون، وآخرون. وقد تم هذا سنة 1145م من ميلاد السيد المسيح، وقد تم تسجيله في البند الثامن، وتم تسليمه بوساطة الأرسنر مستشار الملك في التاسع عشر من شهر سبتمبر.

([1]) **روبرت رئيس أساقفة الناصرة:** امتاز بالورع والتقوى؛ اشترك مع الملك لدوين الثالث في حملته على دمشق 543هـ/1184م حصار عسقلان 548هـ/1153م إلى جانب كلمن أساقفة عكا وصيدا وبيت لحم ورئيسي فرسان الداوية الاسبتارية.الصوري، تاريخ،ج2، ص809،777،749.

([2]) **بلدوين رئيس أساقفة قيسارية:** كان هو الآخر من بين المشتركين في اتخاذ الترتيبات اللازمة لحصار مدينة عسقلان استعداداً للاستيلاء عليها. الصوري، تاريخ،ج2، ص809،777.

الملحق الثالث

منشور صلاح الدين الأيوبي لجمال الدين بن حجي بن كرامة

بسم الله الرحمان الرحيم

الحمـــد لله على نعمائـــه([1])

"يكون إجراء الأمير حجي بن كرامة على ما بيده من جبل بيروت؛ من أعمال الدامور؛ لمـــا وصل إلي الخدمة السلطانية، وتحققنا ما جرى عليه من جانب الكفار خذلهم الله، وهو ملكـــه ورثه عن أبيه وجده وهي: سر حمور، وعين كسور، ورمطون، والدوير، وطردلا، وعـــين درافيل، وكفر عمية، وذلك حبساً منا عليه واحتساباً إليه بمناصحته وخدمته ونهضته في العدو المثاغر له".

كتب بأرض بيروت فـــي العشـــر الآخـــر مـــن جمادي الأولـــى سنـــــة 583هـــ/1187م

([1]) ابن يحيى، تاريخ بيروت، ص51،52.

الملحق الرابع

النص اللاتيني لمرسوم ضريبةعام1188م "عشر صلاح الين"([1])

Henricus igitur rex Angliae, post cruces suseptionem, venit usque Cenomannum et ibi ordinatum est ab eo, in praesentia Ricardi fillii ejus,…………………………………………………………......quod:

1-Unusquisque decimam reddituum et mobilium souorum in eleemosynam dabil hoc anno, eceptis armis et equis et vestibus militum, exceptis similiter et libris et vestibus et vestimentis, et omnimoda capella clericorum, et lapidibus pretiosis tam clericorum quam laicorum.

11- Colligatur autem pecunia ista in signulis parochiis, praesente presbytero parochiae et archipresbytero, et uno Templario et uno hospitalario, et serviente domini Regis et Clerico Regis, serviente baronis et clerico ejus et clerico episcope, facta prius excommunications ab archiepiscopiis super unumquemque, qui decimam praetaxatam legitime non dedert sub praesenta et conscientia illorum qui debent, sicut dictum est interesse, Et si aliquis juxta conscientiam illorum minus dederit quam debuerit, eligentur de parochial quatuor vel sex viri legitimi, qui jurati dicant dicant quantitatem illam quam ill debuisset dixisse, et tunc oportebit illum superaddere quod minus debit.

111- Clerici autem et milites, qui crucem acceperunt, nihil de decimal ista dabunt, sed de proprio suo et dominico, et qucquid hominess illorum debuerient ad opus illorum colligentur per supradictos, et eis totum reddetur.

1v- Episcopi autem per litteras suas in signulis parochiis episcopatum suorum facient nonciari et in die Natalis, et Sancti Stephani, et Sancti Johannis, ut unusquisque decimam praetaxtam infra purificationem Beatae Virginis penes se Colligat, Sequenti die et deincepe illis praesentibus qui dicti sunt, ad locum quo vocatus fuerit, unusquisqus persolvet.

([1]) Benedict of Peterborough, Gesta Regis Henrici Secundi, ed. W. Stubbs, 2 vols. In R. S., London,1867, vol. pp. 30,31.

ترجمة الملحق الرابع

مرسوم ضريبة عام1188م"عشر صلاح الدين"الذي أصدره هنري الثاني ملك انجلترا في أواخر يناير1188م أواسط ذي القعدة584هـ.

ثم ذهب هنري ملك انجلترا بعد أن حمل الصليب إلى لي مان وفي حضور ابنه ريتشارد و.................................. ([1]) وكان هذا المرسوم الذي أصدره بأن:

1- على كل شخص أن يدفع عشر دخله ومنقولاته خلال هذا العام على سبيل التبرع، ويستثنى من ذلك أسلحة وجياد وملابس الجنود، وبالمثل جياد وكتب وملابس رجال الدين، وكل الأواني المقدسة الخاصة بالكهنة، وأيضاً كل المجوهرات الخاصة برجال الدين والعلمانيين.

2- بالإضافة إلى ذلك تجمع كل الأموال المذكورة في كل أبرشية في حضور قس الأبرشية ونائب المطران، وأحد جماعة فرسان الداوية، وأحد جماعة فرسان الإسبتارية، وأحد أعضاء خاصة الملك، وكاتب الملك، وواحد من خاصة البارون وكاتبة، وكاتب الأسقف، وبداية يصدر قرار الحرمان بواسطة رؤساء الأساقفة، والأساقفة ونواب المطارنة في كل أبرشية ضد كل شخص لا يدفع العشر المذكور بأمانة في حضور، وحسب تقدير أولئك المكلفين بالحضور آنذاك. وإذا ما دفع أي شخص اقل – حسب تقديرهم بوازع من ضمائرهم – مما يجب أن يدفع؛ يتم اختيار أربعة أو ستة رجال مترف بهم من أهل الأبرشية، وهؤلاء عليهم أن يقسموا بأنهم سيقدرون المبلغ الذي كان عليه أن يقدره بنفسه، والذي سيكون ملزماً بأن يدفعه بالإضافة إلى المبلغ الذي أنقص.

3- ومهما يكن من أمر؛ لا يتعين على رجال الدين، والفرسان الذين سيشتركون في الحملة الصليبية أن يؤدوا العشور، ولكن تجمع دخول أملاكهم، وكل ما يدين به لهم أتباعهم؛ عن طريق الأشخاص المذكورين آنفاً، وتعاد إليهم دون أن تمس.

4-وعلى الأساقفة أيضا أن يعلنوا بمكاتباتهم؛ في كل أبرشيات أسقفياتهم في عيد القديس ستيفن(26ديسمبر)وعيد القديس حنا(24يونيو) أنه يتعين على كل من كان مكلفاً بجمع العشر المذكور آنفاً، والمطلوب منه أن يؤديه بحلول عيد تطهر القديسة مريم (2نوفمبر1189)، وفي اليوم التالي عليه أن يدفعه بأمانة إلى هؤلاء الحاضرين من الأشخاص المذكورين في المكان المحدد.

([1]) يلي ذلك حوالي سبة اسطر تتضمن أسماء من شارك الملك إتخاذ هذا القرار من رجال الدين وبارونات وكونتات من أتباعه في أملاكه الفرنسية إلى جانب ابنه ريتشارد.

الخـــــــــــــــرائط

(1) خارطة مملكة بيت المقدس الصليبية في أقصى اتساع لها.

(2) الحدود السياسية للإقطاعات في مملكة بيت المقدس الصليبية.

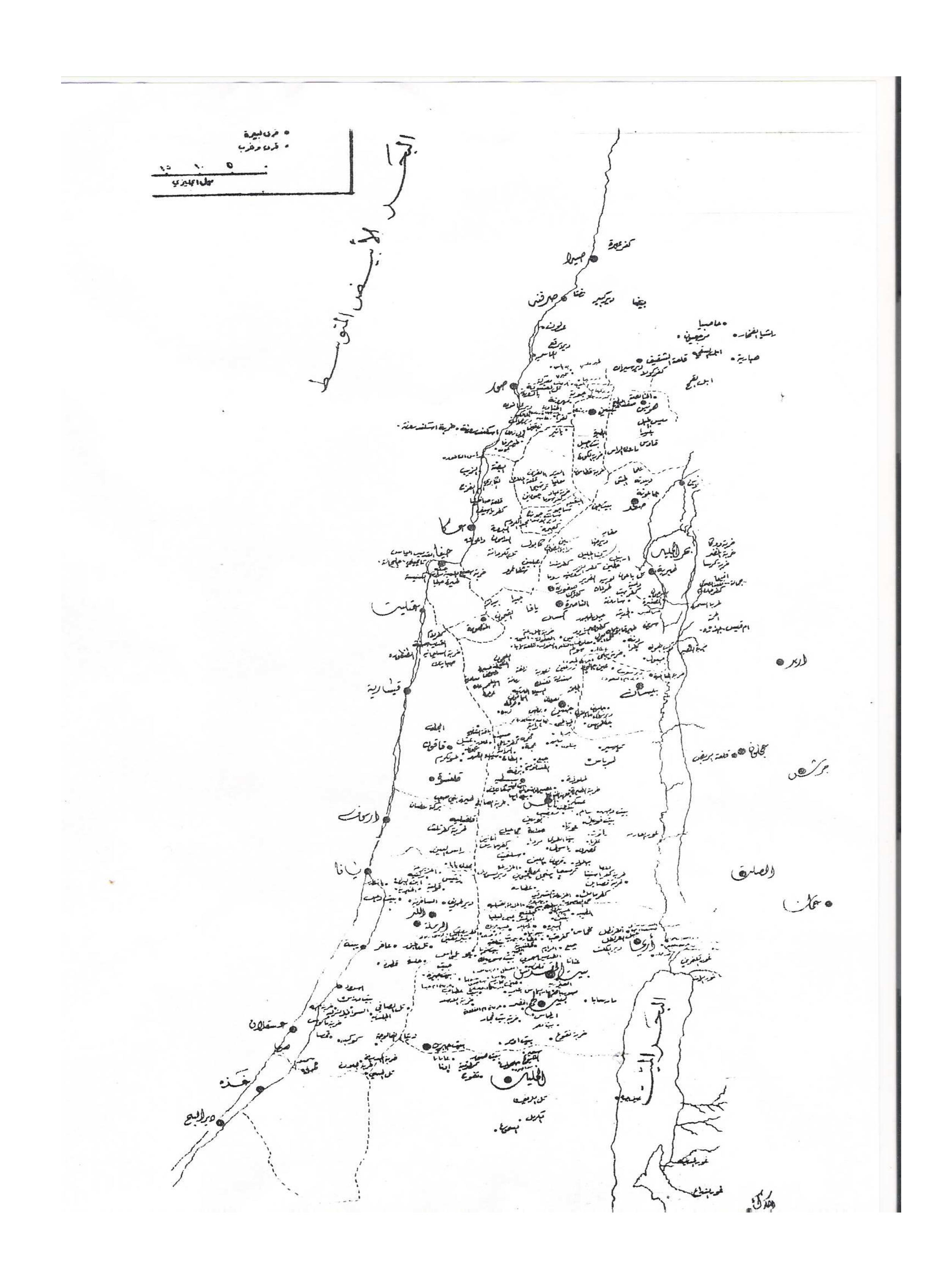
(3) الاستيطان الصليبي في المملكة الصليبية.

(4) القلاع في المملكة الصليبية.

(5) خريطة مدينة عكا.

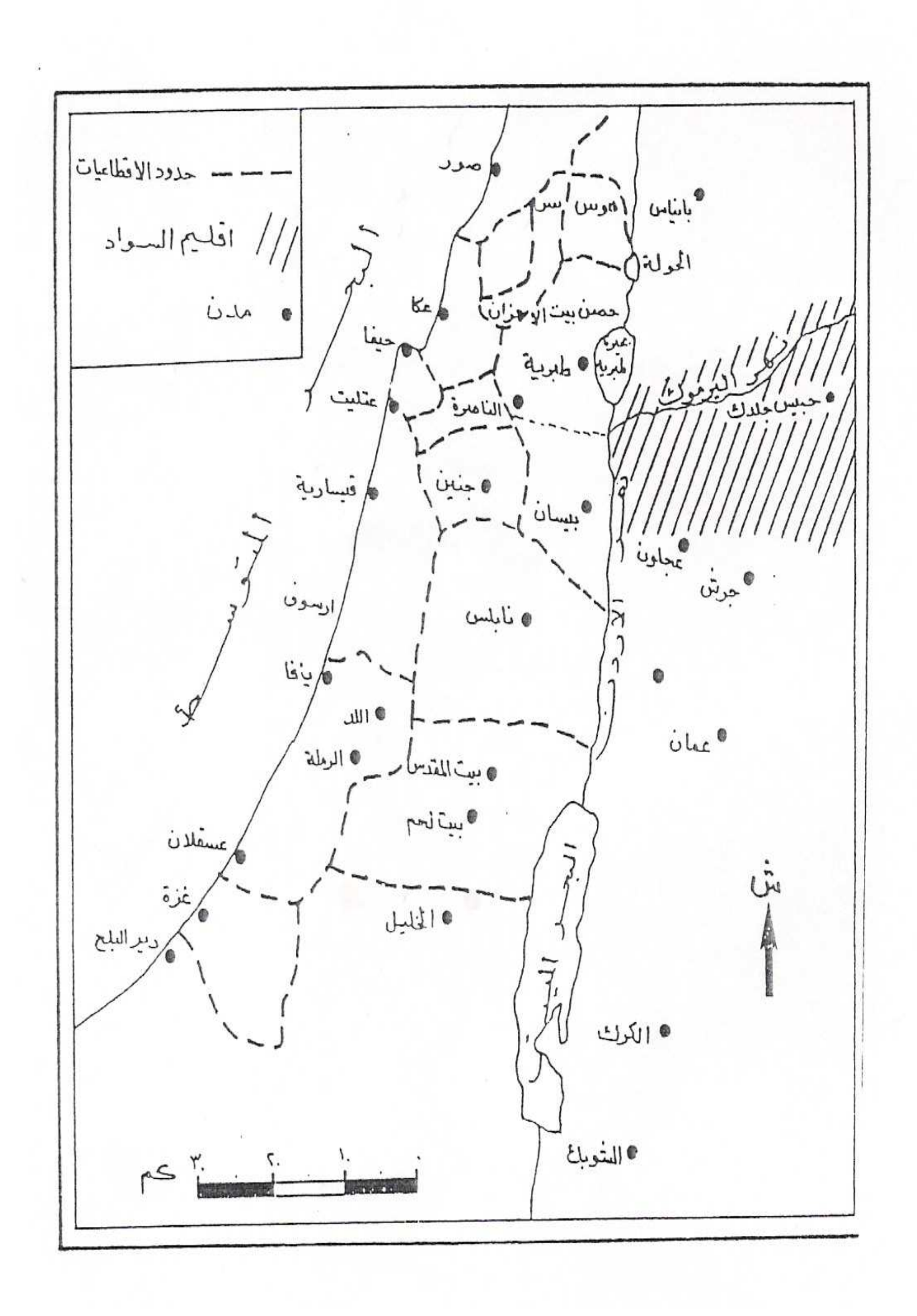
(6) خريطة مدينة القدس.

(7) خريطة الطرق التجارية في المملكة الصليبية.



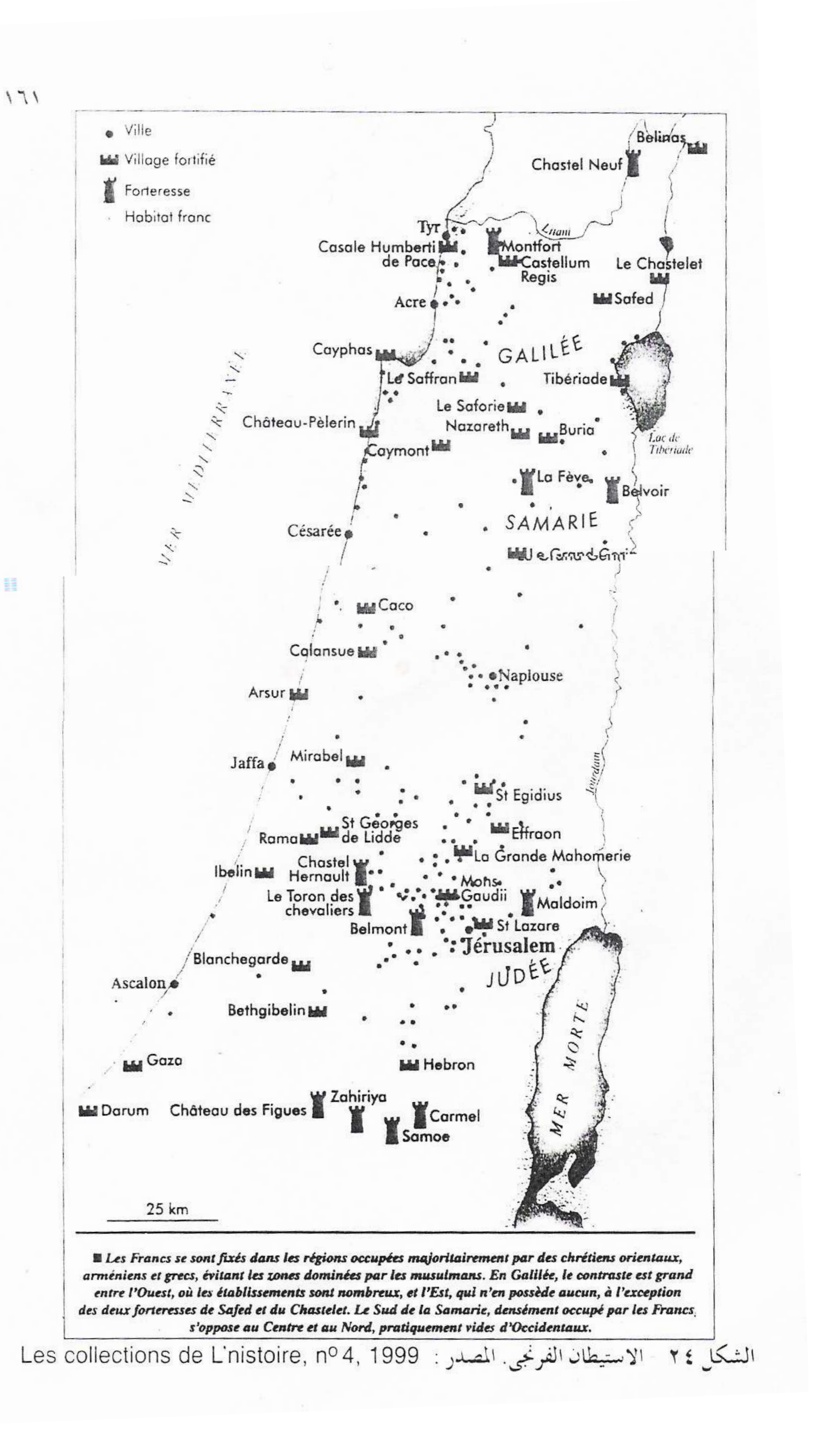
(1) خارطة مملكة بيت المقدس الصليبية في أقصى اتساع لها

نقلاً عن الممتلكات الكنسية للبيشاوي، ص501.



(2) الحدود السياسية للإقطاعات في مملكة بيت المقدس الصليبية

نقلا عن الممتلكات الكنسية للبيشاوي، ص502.



■ Les Francs se sont fixés dans les régions occupées majoritairement par des chrétiens orientaux, arméniens et grecs, évitant les zones dominées par les musulmans. En Galilée, le contraste est grand entre l'Ouest, où les établissements sont nombreux, et l'Est, qui n'en possède aucun, à l'exception des deux forteresses de Safed et du Chastelet. Le Sud de la Samarie, densément occupé par les Francs, s'oppose au Centre et au Nord, pratiquement vides d'Occidentaux.

الشكل ٢٤ - الاستيطان الفرنجي. المصدر : Les collections de L'histoire, nº 4, 1999

(3) الاستيطان الصليبي في المملكة الصليبي

نقلا عن الحملات الصليبية لبالار، ص161



(4) القـــلاع فـــي المملكـــــــة الصليبيـــــة

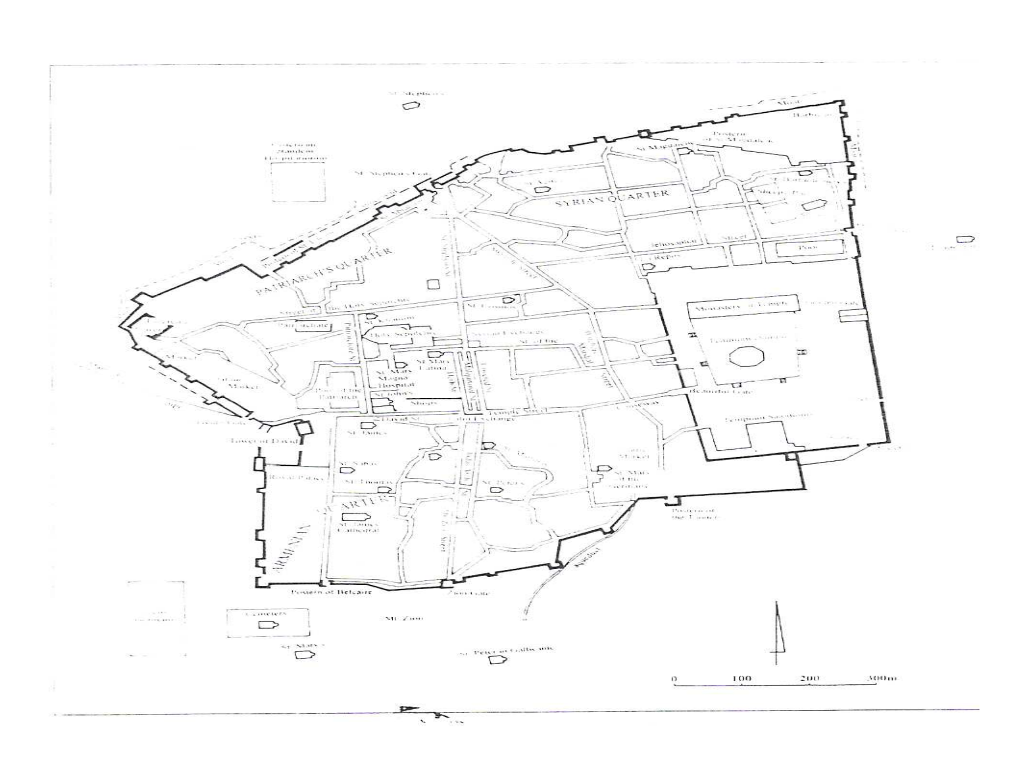
نقلا عن الحروب الصليبية لسميل، ص176،215.



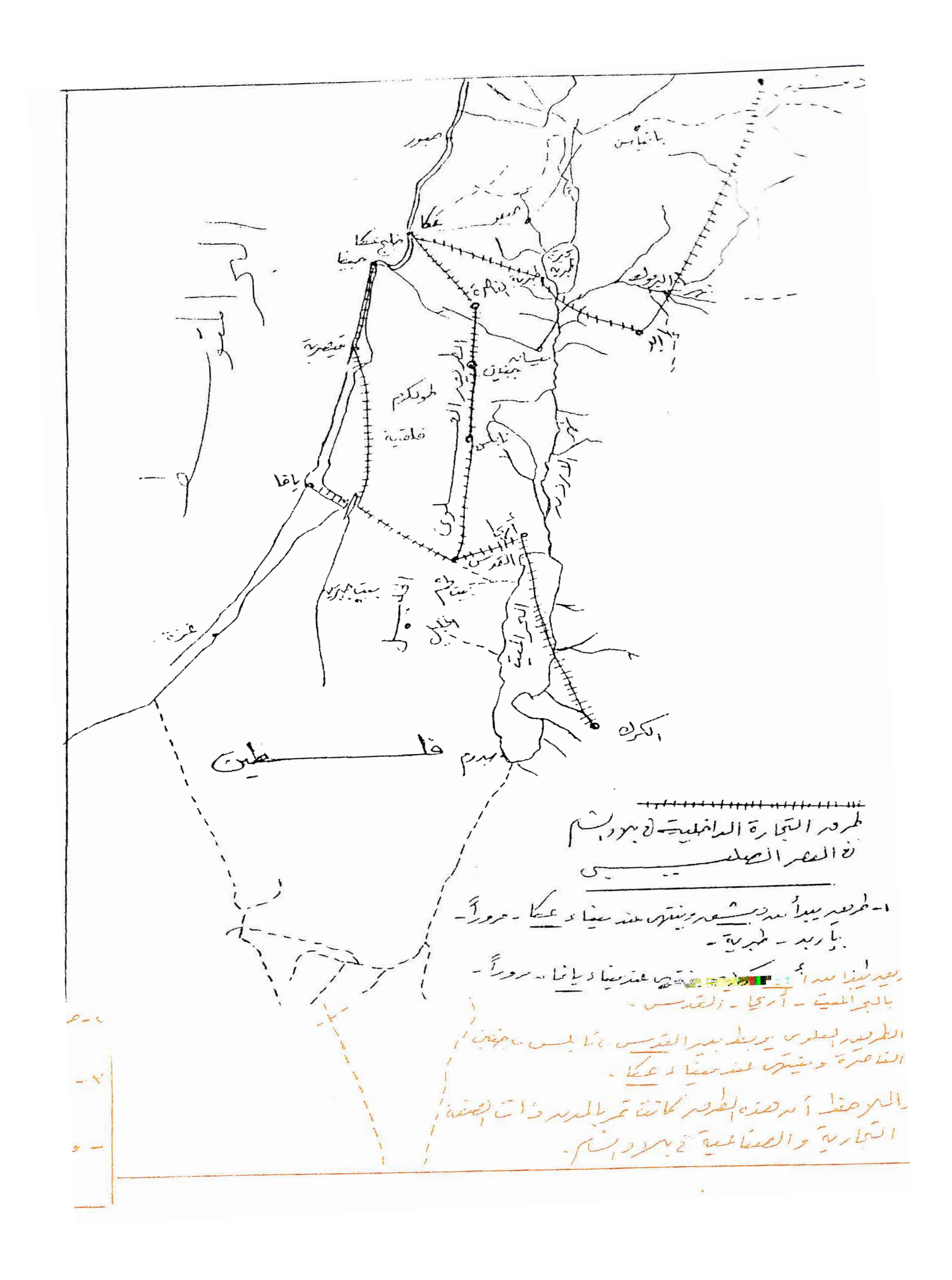
الشكل ٢٧ – مخطط عكا قبل حرب سان سابا، ١٢٥٦ – ١٢٥٨ .

(5) نقلا عن الحملات الصليبية لبالار، ص178.

١٦٩



(6) مخطط مدينة القدس نقلا عن الحملات الصليبية لبالار، ص165.



(7) طرق التجارة في مملكة بيت المقدس

نقلا عن الغمري، ص 119

قائمة المصادر والمراجع

أولا المصـــــــــــادر:

أ- المصـــادر العربيـــــــة.

ب- المصادر الأجنبيـــة غير المترجمـــة.

ج- المصـــادر الأجنبيـــة المعربـــــة.

ثانيـــا المراجــــــع:

أ- المراجــع العربيـــة.

ب- المراجع الأجنبية غير المترجمة.

ج- المراجــع المعربـــــة.

ثالثا- الموسوعات.

رابعا- الرسائل العلميـــــــة.

خامسا- البحـــــوث.

أولا المصـــــــــــــادر:

أ- المصـــادر العربيـــــة.

1.القران الكريم.

2.ابن الأثير، عز الدين محمد بن عبد الكريم(630هـ/1232م):

الكامل في التاريخ، 11ج، تحقيق أبـــو الفـــداء عبـــد الله القاضـــي، ط3، دار العلميـــة، بيروت، 1998م.

3.ابن الأخوة، ضياء الدين محمد القرشي(ت729هـ/1332م):

معالم القربة في أحكام الحسبة، علق عليه ووضع حواشيه إبراهيم شمس الـــدين، ط1،دار الكتب العلمية، بيروت،2001م.

4.الإدريسي، أبو عبد الله محمد(ت561هـ/1166م):

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، 2ج، ط1، عالم الكتب، بيروت، 1989م.

5.الاصطخرى، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد(ت في القرن4هـ/10م):

مسالك الممالك، د.ط، مطبعة أبريل، ليدن، 1927م

6.الأصفهاني، عماد الدين محمد(ت 597هـ/1201م):

❖ الفتح القسي في الفتح القدسي، علق عليه ووضع حواشيه، إبراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م.

❖ البرق الشامي، ج2، تحقيق فالح حسين، ط1، مؤسسة عبد الحميد، عمان، 1987م.

❖ البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان، وقع في الموســـوعة الـــشاملة،ج11، تحقيـــق سهيل زكار، ط1، دار الفكر، دمشق،1994م.

7.ابن أبي أصيبعه، موقف أبو العباس(ت 668هـ/1270م):

عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، د.ط، دار مكتبة الحيـــاة، بيـــروت، لبنان،د.ت. الكتب

8.ابن إياس، محمد بن احمد(ت930هـ/1533م):

بدائع الزهور في وقائع الدهور، 5ج، تحقيـــق محمـــد مـــصطفي ،ط3، الهيئـــة العامـــة للكتاب، القاهرة، 1983-1984م.

9.ابن أيبك الدواداري، أبو بكر بن عبد الله(ت 732هـ/1331م):

❖ لدر المطلوب في أخبار ابن أيوب، تحقيق، تحقيق سعيد عبد الفتـــاح عاشـــور، د.ط، دار إحياء الكتب، القاهرة، 1972م.

❖ الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، تحقيق أو لرخ هرمان، القاهرة.

10.ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم(ت 779هـ/1377م):
الرحلة المسماة تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، 2ج، تحقيق على المنتصر الكتاني، ط4، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1992م.
11.البكري، عبد الله بن عبد العزيز(ت 487هـ/1094م):
معجم ما استعجم من الأسماء والمواقع، 4ج، تحقيق مصطفي السقا، ط2، عالم الكتب، بيروت، 1403هـ..
12.البنداري، الفتح بن على بن محمد(ت622هـ/1225م):
سنا البرق الشامي، تحقيق فتحية النبراوي، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1979م
13.بيبرس المنصوري، ركن الدين(ت725هـ/1324م):
❖ التحفة المملوكية في الدولة التركية، قد له ووضع حواشيه عبد الحميد صالح حمدان، ط1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1987م.
❖ زبده الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق دونالدس ريتشاردز، ط1،مؤسسة حسيب ضرغام، بيروت، 1998م.
14.ابن ثغري بردى، جمال الدين يوسف(ت874هـ/1469م):
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 16ج، قدم له وعلق عليه محمد حسن شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1992م.
15.ابن جبير، محمد بن أحمد الكتاني(ت614هـ/ 1217م):
الرحلة المسماة تذكرة بالأخبار في اتفاقيات الأسفار، علق عليه إبراهيم شمس الدين، ط1،دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م.
16.ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن(ت 597هـ/1201م):
المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ومصطفي عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1992م.
17.ابن حجر، شهاب الدين أبي الفضل(ت825هـ/1448م):
❖ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، 6ج، تحقيق محمد عبد المعيد ضمان، ط2، دائرة المعارف، يدر أباد، 1972م.
❖ أبناء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1989م.
18.الحريري، احمد بن على الحريري(ت 926هـ / 1519م):
الأعلام والتبيين بخروج الفرنجة الملاعين على ديار المسلمين، تحقيق سهيل زكار، ط1، مكتبة دار الملاح، دمشق، 1981م.
19.الحموي، أبو الفضائل محمد بن على بن نظيف(ت7هـ/13م):

التاريخ المنصوري، المسمي تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان، تحقيق أبو العبد دودو، مطبعة الحجار، دمشق، 1982م.

20.الحموي، شهاب الدين ابن أبي عبد الله(ت676هـ/1228م):

معجم البلدان، 5ج، د.ط، دار الفكر، بيروت، د.ط.

21.الحنبلي، احمد بن إبراهيم (ت 876هـ / 1472م) :

شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق ناظم رشد، د.ط، د.ن، ببغداد، 1979م.

22.ابن حوقل،أبو القاسم محمد بن على الموصلي(ت367هـ/977م):

صورة الأرض،2ج،ليدن، 1938م.

23.خسرو، أبو المعين ناصر خسرو(ت 482 هـ/1088م):

سفرنامه، تحقيق يحيي الخشاب، ط3، دار الكتب الجديدة، بيروت، 1983م.

24.ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون(ت818هـ/1405م):

تاريخ ابن خلدون المسمي بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، 7ج، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م.

25.ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس(ت681هـ/1282م):

وفيات الأعيان وأنباء أهل الزمان، 8ج، تحقيق إحسان عباس، د.ط، دار صادر، بيروت، د.ت.

26.الرازي، محمد بن أبى بكر بن عبد القادر(ت721هـ/1321م):

مختار الصحاح، تحقيق محمود خاطر، د.ط.، مكتبة لبنان، بيروت، 1995م.

27.الذهبي، الحافظ الذهبي(748هـ/1348م):

❖سير أعلام النبلاء، 23ج، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي، ط9، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1413هـ.

❖ العبر في أخبار من خبر،6ج، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط2، مطبعة حكومة الكويت، 1984م.

28.سبط ابن الجوزي، أبو المظفر يوسف(654هـ/1256م):

مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، 8ج، تحقق مسفر سالم الغامدي، ط1، مكة المكرمة، 1987م.

29.السبكي،أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي (ت771هـ/1369م):

معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد علي النجار، ط2، مكتبة ألخانقي، القاهرة،1193م.

30.السمعاني، أبي سعيد عبد الكريم (ت 506هـ/1167م):

الأنساب، تحقيق عبد الله عمر البارودي، ط1، دار الفكر، بيروت، 1998م.
31.أبو شامة، شهاب الدين أبو محمد (ت 655هـ/1227م):
الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ويله الذيل على الروضتين، 5ج، قدم له وعلق عليه إبراهيم شمس الدين، ط1،دار الكتب العلمية، بيروت،2000م.
32.ابن شاهنشاه، محمد بن تقي الدين عمر(ت607هـ/1120م):
مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق حسن حبشي، د.ط، عالم الكتب، القاهرة،د.ت.
33.ابن شداد، بهاء الدين(ت632هـ/1224م):
النوادر السلطانية والمحاسبة اليوسفية، ط1، دار المنار، القاهرة، 2000م.
34.ابن شداد الحلبي، عز الدين أبو عبد الله(ت684هـ/1285م):
الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، 2ج، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، 1962.
35.شيخ الربوة الدمشقي، أبو طالب الأنصاري(ت727هـ/1326م):
نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، تحقيق مهران،ط1، بطرسبرج، 1935م.
36.الصفدي، صلاح الدين خليل(ت764هـ/1362م):
الوافي بالوفيات، 29ج، تحقيق، احمد الأرناؤوط، وتركي مصطفي، د.ط، دار إحياء التراث، بيروت، 2000م.
37.الطبري،أبو جعفر محمد بن جرير(ت310هـ/922م):
تاريخ الأمم والملوك، 10ج، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، د.ط، دار المعارف، القاهرة، 1968م
38.الطرسوسي، مرضي بن على بن مرضي الطرسوسي(ت589هـ-119):
تبصرة أرباب الباب،تحقيق كارين صادر، ط1، دار صادر، بيروت،1998م.
39.ابن طولون، محمد بن على الصالحى(ت952هـ/1553م):
القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، 2ج، تحقيق محمد احمد دهمان، ط2، مجمع اللغة العربية، دمشق، 1980م.
40.ابن عبد ربه، احمد ابن محمد(ت328هـ/940م):
العقد الفريد، تحقيق احمد أمين وآخرون، 7ج، د.ط.،مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1965م.
41.ابن عبد الظاهر، محي الدين(ت962هـ/1293م):
❖ الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، ط1، د.ن، الرياض، 1976م

❖تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كمال، د.ط، د.ن، القاهرة،1961م.

42.ابن العبري، غريغوريوس بن هرون بن توما الملطي(ت 985هـ/1256م):
تاريخ مختصر الدول، تحقيق سهيل زكار، وقع في الموسوعة الشاملة، ج5، ط1، دار الفكر، دمشق، 1995م.

43.العثماني، صدر الدين محمد بن عبد الرحمن(ت780هـ/1338م):
تاريخ صفد، تحقيق برنا رد لويس، مجلة الدراسات الشرقية والإفريقية، العدد5، 1953م.

44.ابن العديم، كمال الدين أبي القاسم(ت660هـ/1262م):
زبده الحلب من تاريخ حلب ،تحقيق خليل المنصور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996م.

45.ابن عساكر،أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت571هـ/1175م):
تهذيب تاريخ دمشق، اسطوانة ليزر، مركز دار التراث، القاهرة.

46.ابن على الكاتب، شافع بن على(ت730هـ/1331م):
الفضل المأثور في سيرة السلطان الملك المنصور، تحقيق عمر بن عبد السلام تدمري ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 1998م.

47.العليمي، مجير الدين الحنبلي(ت 927هـ/1521م) :
الإنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، 2ج، تحقيق عدنان يونس عبد الحميد، ط1، مكتبة دنديس، الخليل، 1999م.

48.ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي(ت1089هـ/1679م):
شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 4ج، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت .

49.العمري، شهاب الدين ابن فضل الله(749هـ/1348م):
مسالك الإبصار في ممالك$الأمصار، دراسة وتحقيق دوروتيا كرافولسكي، د.ط، المركز الإسلامي للبحوث ، بيروت، 1986م.

50.ابن العميد، جرجس بن العميد(ت 672هـ/1273م):
أخبار الأيوبيين، 7ج،مجلة المعهد العلمي بدمشق، د.ط، دمشق ، 1985م

51.العيني، بدر الدين أبو محمد(ت 855هـ/1451م):
عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد محمد أمين، د.ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1987م.

52.أبو الفداء، إسماعيل بن على،(ت732هـ/1332م):

❖ المختصر في أخبار البشر،5ج، د.ط، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
❖تقويم البلدان، تحقيق رينو، وري سيلان، د.ط، د.ن، باريس، 1948م
53.ابن الفرات، ناصر الدين محمد(ت807هـ/ 1404م):
تاريخ ابن الفرات، 4مج، نشر حسن محمد الشماع، د.ط، دار الطباعة الحديثة، البصرة، 1969م
54.ابن قاضي شهبه، تقي الدين أحمد(ت 851هـ/1448م):
❖ الكواكب الدرية في السيرة النورية، تحقيق محمود زايد، ط1، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1971م.
❖طبقات الشافعية، 4ج، تحقيق الحافظ عبد العليم خان، ط1، عالم الكتب، بيروت، 1407هـ .
55.القزويني، زكريا بن محمد بن محمود(ت 682هـ/1283م):
آثار البلاد وأخبار العباد، د.ط،دار صادر، بيروت ، د.ت.
56.ابن القلانسي، أبو يعلي حمزة(ت 555هـ/1160م):
ذيل تاريخ دمشق، ط1، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت، 1908م.
57.القلقشندى، أبو العباس احمد بن على(ت 821هـ/1418م):
❖صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، 14ج، قدم له ووضع حواشيه محمد شمس الدين، ط1، دار الفكر، بيروت، د.ت.
❖نهاية الأرب في معرفة انساب العرب،د.ط، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
58.الكتبي، محمد بن احمد بن شاكر(764هـ/1362م):
فوات الوفيات، 5ج، تحقيق إحسان عباس، د.ط، دار صادر، بيروت، د.ت.
59.ابن كثير، الحافظ عماد الدين إسماعيل(ت744هـ / 1373م):
البداية والنهاية، 14ج، ط1، دار التقوى، القاهرة، 1999م.
60.الماوردي، علي بن محمد بن حبيب ت (450هـ / 1058م):
الأحكام السلطانية، تحقيق،محمد فهمي السرجاني، ط1، المكتبة التوفيقية، مصر، د.ت.
61.المسعودي،على بن الحسين بن على (ت345 هـ/ 956م):
مروج الذهب ومعادن الجواهر، 4ج، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، د.ط، د.ن، القاهرة 1948م.
62.المقدسي البشارى، شمس الدين أبو عبد الله (ت 375هـ/985م):
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، قدم له ووضع حواشيه، محمد مخزوم، ط1، دار إحياء التراث، بيروت، 1987م.

63.المقريزي، تقي الدين احمد بن على(ت 845هـ/1441م):
❖ اتعاظ الحنفا بأخبار الأمة الفاطميين الخلفا، 2ج، تحقيق محمد عبد القادرعطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001م.
❖ السلوك بمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادرعطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.
❖ المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، ط1، دار الغرب الإسلامية، بيروت، 1987م.
❖ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، 3ج، تحقيق محمد زينهم، ومديحه الشرقاوي، ط1، مكتبة مدبولى، القاهرة، 1997م.
❖ ضوء الساري في خبر تميم الداري، تحقيق سيد احمد عاشور، ط1، دار الاعتصام، بيروت، القاهرة، 1976م.
❖ إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال،القاهرة،1940م
رسائل المقريزي، تحقيق رمضان البدرى واحمد قاسم، ط1، دار الحديث، القاهرة، 1998م0
64.ابن منظور،أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم(ت711هـ/1311):
لسان العرب،15 ج، ط1، دار صادر، بيروت، د.ت.
65.ابن منقذ، مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن مرشد بن على(ت 584هـ/1188/) :
الاعتبار، تحقيق سهيل زكار، وقع في الموسوعة الشاملة، ج12، ط1، دار الفكر، دمشق، 1995م
66.ابن ميسر، أبو عبد الله تاج الدين(ت 677هـ/1278م):
المنتقي في أخبار مصر، تحقيق أيمن فؤاد سيد، د.ط، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، د.ت.
67.النعيمي، عبد القادر بن محمد(ت978هـ/1570م):
الدارس في تاريخ المدارس، 2ج، إبراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1410هـ.
68.النويري، شهاب الدين أحمد(ت732هـ/1332م):
نهاية الإرب في فنون الأدب، د.ط، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، القاهرة، د.ت .
69.الهراوي، أبو الحسن على بن أبي بكر(ت611هـ/1215م):

كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق على عمر، ط1، مكتبــة الثقافــة الدينيــة، القاهرة، 2002م.

70.ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم(ت 691هـ/1291م):

مفرج الكروب في تاريخ بني أيوب، 5ج، من الجزء1-3 تحقيق جمال الــدين الــشيال، د.ط، د.ن، القاهرة،1953-1960م ومن الجزء4-5 تحقيق حسين محمد ربيــع، د.ط، د.ن، القاهرة، 1972-1977م.

71.ابن الوردي، أبو حفص زين الدين(ت 749هـ/1349م):

تتمة المختصر في أخبار البشر، 2ج، تحقيق أحمد رفعت البدراوى، ط1، دار المعرفــة، بيروت، 1970م.

72.اليافعي، أبو محمد عبد الله(ت 768هـ/1366م):

مرآة الجنان وعبرة اليقظان، 4ج، د.ط، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، 1413هـ .63

73.اليعقوبي، احمد بن أبي يعقوب(ت284هـ/896م):

❖كتاب البلدان، وضع حواشيه وعلق عليه محمد أمين ضناوي، ط1، دار الكتب العلميــة، بيروت، 2002م.

❖ تاريخ اليعقوبي، د.ط.، دار صادر، بيروت، د.ت.

74.اليونيني، قطب الدين موسي بن محمد(ت726هـ/1326م):

ذيل مرآة الزمان، 4ج، تحقيق كرنكو، د.ط، د.ن، حيدر أباد، 1337هـ .

ب- المصادر الأجنبيــة غير المترجمــة:

1- Albert d,Aix :
Historia Hierosolymitana, en: R. H. C. H. Occ., tome IV,paris,1879.

2- Beugnot,(ed.) :
Livre dos Assises de Jerusalem Tome I, II, Cf., R.H.C.paris,1843.

3- Delaville Le Roulx,(ed.) :
Cartulaire General de L,order des Hospitaliers de St. Jean de Jerusalem 1100-1310), 4 vols., Paris, 1894-1906.

4- Genevieve B.B:
Le cartulaire du chapitre saint-saint sepulcre de Jerusalem. Paeis,1984.

5- Ernoul :
La Chronique d,Ernoul et de Bernard le Tresorier, ed Mas Latrie, paris,1871.

6- Martin Abbe :
Les premiers princes Croises et les Syriens Jacobites de Jerusalem, J.A.XII 1888, pp.471-9-490, XIII 1889, pp.33-80.

7- Paoli, S.,(ed.) :
Codice Diplomatico Del Sacro Militare Ordine Geroslimitan Oggi di paoli,i Malto, vols, Lucca 1733-1737.
8 - Rohricht, R., Regni Hierosolymitam,voli,ti,Innsbruck,1893

ج- المصـــادر الأجنبيـــة المعربـــــة:

1. أرنول. وصف أوضاع مدينة القدس، والأماكن المقدسة، وقع ضمن الموسوعة الشاملة في الحروب الصليبية، ترجمة سهيل زكار، ج39، ط1، دار الفكر، دمشق،1999م.
2. أمبرويز.صليبية رتشارد قلب الأسد، 2ج، وقع ضمن الموسوعة الشاملة فـي الحـروب الصليبية، ترجمة سهيل زكار، ج32، ط1، دار الفكر، دمشق، 1998م.
3. التطيلي، بنيامين التطيلي. ترجمة عزار حداد، ط1، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2002م.
4. بادربورن، أولفر أوف بادربورن. الاستيلاء على دمياط، وقع ضمن الموسوعة الـشاملة في الحروب الصليبية، ترجمة سهيل زكار، ج34، ط1، دار الفكر، دمشق، 1998م.
5. بورشارد، الحاج بورشارد من دير جبل صهيون0 وصف الأرضي المقدسة، ترجمة سعيد البيشاوي، ط1، دار الشروق، عمان، 1995م.
6. توديبود، بطرس توديبود. تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ترجمة حسين عطية، ط1، دار المعارف الجامعية، الإسكندرية، 1998م.
7. ثيودريش. وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ترجمة سعيد البيشاوي، رياض شـاهين، ط1، دار الشروق، عمان الأردن، 2003م.
8. جوانفيل، جين جوانفيل. حياة القديس لويس، وقع ضمن الموسوعة الشاملة في الحـروب الصليبية، ترجمة سهيل زكار، ج36، ط1، دار الفكر، دمشق، 1999م.
9. دانيال، الحاج الروسي دانيال الراهب. وصف الأرضي المقدسة فـي فلـسطين"1106-1107م" ترجمة سعيد البيشاوي، و داوود أبو هدبه، ط1، دار الشروق، 2003م.
10.دويل، أودو أوف دويل. لويس السابع إلى الشرق، وقع ضمن الموسوعة الـشاملة فـي الحروب الصليبية، ترجمة سهيل زكار، ج7، ط1، دار الفكر، دمشق، 1993م.
11.ديسيتو، رالف أوف ديسيتو. صورة التاريخ، ضمن كتاب تواريخ أسرة بلانتغنت، وقـع ضمن الموسوعة الشاملة في الحروب الصليبية، ترجمة سـهيل زكـار، ج30، ط1، دار الفكر، دمشق، 1998م.
12.ريشنغر، وليم ريشنغر.ذيل تاريخ متى باريس، وقع ضـمن الموسـوعة الـشاملة فـي الحروب الصليبية، ترجمة سهيل زكار، ج50، ط1، دار الفكر، دمشق،2001م.
13.ريموندأجيل. تاريخ الفرنجة غزاه بيت المقدس، ترجمة حسين محمد عطيـة، ط1، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1990م.

14.سايولف. رحلة الحاج سايولف لبيت المقدس والأرض المقدسة(1102-1103م) ترجمة سعيد البيشاوي، ط1، دار الشروق، عمان، 1997م.
15.الشارتري، فوشيه الشارتري. تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة زياد العسلي، ط1، دار الشروق، عمان، 1990م.
16.الصوري، وليم الصوري. تاريخ الحروب الصليبية، 2ج، ترجمة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2003م.
17.فابري. جولات الراهب فيلكس فابري ورحلاته،4ج، وقع ضمن الموسوعة الشاملة في الحروب الصليبية، ترجمة سهيل زكار، ج40، ط1، دار الفكر، دمشق، 2000م
18.فوقاس.رحلة يونس فوقاس في الأرض المقدسة، وقع ضمن الموسوعة الشاملة في الحروب الصليبية، ترجمة سهيل زكار، ج35، ط1، دار الفكر، دمشق، 1998م.
19.فورزبورغ، يوحنا فورزبورغ. وصف الأرضي المقدسة في فلسطين، ترجمة سعيد البيشاوى، ط1، دار الشروق، عمان ، 1997م.
20.فيتليوس. رسالة فيتليوس في وصف الأرضي المقدسة، وقع ضمن الموسوعة الشاملة في الحروب الصليبية، ترجمة سهيل زكار، ج31، ط1، دار الفكر، دمشق، 1998م.
21.الفيتري، يعقوب الفيتري. تاريخ بيت المقدس، ترجمة سعيد البيشاوي، ط1، دار الشروق، عمان، 1998م.
22.لودولف.وصف الأرض المقدسة، وقع ضمن الموسوعة الشاملة في الحروب الصليبية، ترجمة سهيل زكار، ج39، ط1، دار الفكر، دمشق،1999م.
23.متى باريس. التاريخ الكبير، 5ج، وقع ضمن الموسوعة الشاملة في الحروب الصليبية، ترجمة سهيل زكار، ج46، ط1، دار الفكر، دمشق،2001م.
24.مجهول. أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة حسن حبشي، د.ط، دار الفكر العربي، د.م، 1958م.
25.مجهول. تتمة كتاب وليم الصوري المنسوب خطأ إلى روثلان، ترجمة أسامة زكي زيد، د.ط، مركز الدلتا للطباعة،القاهرة، 1989م.
26.مجهول. الحروب الصليبية الثالثة "صلاح الدين وريتشارد"، 2ج، ترجمة حسن حبشي، د.ط، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2000م.
27.مجهول. الحملتان الصليبيتان الأولي والثانية، وقع ضمن الموسوعة الشاملة في الحروب الصليبية، ترجمة سهيل زكار، ج5، ط1، دار الفكر، دمشق،1995م.
28.مجهول، حجاج مجهولون قبل سنة 1187م، وقع ضمن الموسوعة الشاملة في الحروب الصليبية، ترجمة سهيل زكار، ج39، ط1، دار الفكر، دمشق،1999م.

29.ميخائيل السوري. تاريخ ميخائيل السوري، وقع ضمن الموسوعة الشاملة في الحـــروب الصليبية، ترجمة سهيل زكار، ج5، ط1، دار الفكر، دمشق،1995م.

30.نوفار، فليب نوفار. حروب فردريك الثاني ضد الإيبليين في سورية وقبرص، وقع ضمن الموسوعة الشاملة في الحروب الصليبية، ترجمة سهيل زكار، ج35، ط1، دار الفكر، دمشق،2000م.

31.ويندوفر، روجر أوف ويندوفر.ورود التاريخ، 2ج، وقع ضمن الموسوعة الـــشاملة فـــي الحروب الصليبية، ترجمة سهيل زكار، ج34، ط1، دار الفكر، دمشق،2000م.

ثانيـــــا المراجــــــع:

أ- المراجــع العربيـــة.

1.أبو الرُب، هاني أبو الرُب.تاريخ فلسطين فـــي صـــدر الإســـلام، ط1، بيـــت المقـــدس، رام الله، 2002م.

2.أولبرايت، وليم فوكسيل. آثار فلسطين، ط2، مؤسسة الأسوار، عكا، د.ت.

3.بدوي،احمد احمد. الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمـــصر والـــشام، ط2، دار النهضة القاهرة، 1979م.

4.البيشاوي، سعيد عبد الله جبريل البيشاوي.

❖ الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية "1099-1291م"، د.ط، دار المعرفـــة الجامعية، الإسكندرية، 1989م.

❖نابلس الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية " 942-690هـــــ/1099-1211م"، ط1، د.ن، عمان، 1991م.

5.توفيق، عمر كامل توفيق. الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين، مؤسسة شباب الجامعة ، بالإسكندرية،1986م.

6.حبشي، حسن حبش. الحروب الصليبية، د.ط، دار الفكر العربي، القاهرة، 1958م.

7.حسين، حسن عبد الوهاب حسين.

❖تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأراضـــي المقدســـة حـــوالي"1190-1291/586-690هـــ"، د.ط، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1981م.

❖تـــاريخ فيـــسارية الـــشام فـــي العـــصر الإســـلامي، ط1، دارا لمعرفـــة الجامعيـــة، الإسكندرية، 1990م.

❖مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي، ط1، دار المعرفة الجامعة، الإسكندرية، 1997م.

❖ المهاجرون المسلمون في بلاد الشام ودورهم في الجهاد ضد الصليبين، ط1، دار المعرفة

الجامعية، الإسكندرية، 1990م.

8.جوني، وفاء جوني. دمشق والمملكة اللاتينية في القدس منذ أواخر القرن الحادي عشر حتى أواخر القرن الثاني عشر، ط1، دار الفكر، دمشق، 1997م.

9. حتي، فليب حتي وآخرون، تاريخ العرب، ط9، دار غندور، د.م، 1994م.

10.الحويري، محمد محمود الحويري.الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، ط1، دار المعارف، القاهرة، 1989م.

11.الحياري، مصطفي الحياري0

❖مدينة القدس زمن الفاطميين والفرنجة، د.ط، مكتبة عمان، 1994م.

❖الإمارة الطائية في بلاد الشام، ط1، وزارح الثقافة والشباب، عمان، 1977م.

12.خليل، عماد الدين خليل.

❖الإمارات الأرتيقية في الجزيرة والشام"465-812هـ/1072-1409م"، ط1،مؤسسة الرسالة، بيروت،1980.

❖نور الدين محمود وتجربته الإسلامية ،ط2، دار القلم، دمشق،1987م.

13.دويكات، فؤاد عبد الرحيم دويكات.إقطاعية طبرية ودروها في الصراع الإسلامي الصليبي"492-690هـ/1099-1291"، ط1، مؤسسة حمادة للدراسات، اربد، 2002م.

14.الدوري،عبد العزيز الدوري. مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ط5، دار الطليعة، بيروت، 1987م.

15.زكار، سهيل زكار. حطين مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس، ط1، دار حسان بيروت، 1994م.

16.زكي، نعيم زكي. طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، د.ط، د.ن القاهرة، 1973م.

17.زيد، أسامة زيد. صيدا ودورها في الصراع الصليبي الفرنجي، د.ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1980م.

18.سالم، السيد عبد العزيز سالم، واحمد مختار ألعبادي. تاريخ البحرية الإسلامية، 2ج، د.ن، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د.ت.

19.سلامة، جلال سلامة. عكا أثناء الحملة الصليبية الثالثة، ط1، دار الفاروق، نابلس، 1998م.

20.سلامة، إبراهيم خميس سلامة. دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، جماعة الفرسان الداوية، د.ط، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2002م.

21.الشاعر، محمد فتحي الشاعر. أحوال المسلمين تحت الحكم لـصليبي " 1199-1187/ مكتبة دار الثقافة ، بغداد، 1989م.
22.الشريفي، إبراهيم الشريفي. أورشليم وارض كنعان،ط1، الشرق الوسط للطباعة، عَمان، 1985م.
23.شراب، محمد محمد شراب. معجم بلدان فلسطين، ط1، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان،
24.صالحيه، محمد عيسي صالحيه. الطب والأطباء في فلسطين، وقع ضمن الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، ج3، ط1، بيروت، 1990م.
25.صبره، عفاف صبره. العلاقات بين الشرق والغرب، علاقة البندقية بمصر والشام " 1100-1400م "، د.ط، دار النهضة العربية، القاهرة، 1983م.
26.الصوافي، طالب الصوافي. القلاع والحصون في شمال فلسطين، ط1، مؤسسة الأسوار،عكا، 2000م.
27.الطحاوي، حاتم عبد الرحمن الطحاوي :
❖ الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام، ط1،عين للدراسات والبحوث، لقاهرة، 1990م.
❖ دراسات في تاريخ العصور الوسطي(تحرير)، ط1، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، 2003م.
28.طرخان، إبراهيم طرخان. النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط والعصور الوسطي، د.ط، دار الكتب العربي، القاهرة، 1968م.
29.الطراونة، طه تلجي الطراونة. مملكة صفد في عهد الحروب الصليبية، ط1،دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1982م.
30.ظاظا، حسن ظاظا. الفكر الإسرائيلي أطواره ومذاهبه، القاهرة، 1971م.
31.عامر، سامية عامر. الصليبيون في فلسطين، ط1، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، 2002م.
32.عاشور، سعيد عبد الفتاح عاشور.
❖ الحركة الصليبية،2ج، الجزء الأول، ط5، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1997م.
الجزء الثاني، ط7، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1999م.
❖ الأيوبيين والمماليك في مصر والشام، د.ط،دار النهضة العربية، القاهرة، 1993م.
33.العارف، عارف العارف. قبائل بئر السبع وعشائرها، القدس، 1934م.
34.عبد الحميد، رأفت عبد الحميد. قضايا من الحروب الصليبية، ط1، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، 1993م.

35.عبد المجيد، زينب عبد المجيد. الانجليز والحروب الصليبية، ط1، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، 1998م.
36.عثمان، محمد عبد الستار عثمان. المدينة الإسلامية، سلسة عالم المعرفة، رقم128، الكويت،1988م.
37.عثمان، احمد عثمان. تاريخ اليهود، ج2، د0ط، مكتبة الشروق، القاهرة، د.ت.
38.العرينى، السيد ألباز العرينى. الإقطاع الحربي عند الصليبيين بمملكة بيت المقدس الصليبية في القرنين " 12-13م "، د.ط، د.ن، القاهرة، 1959م.
39.العزة، رئيسة عبد الفتاح العزة. نابلس في العصر المملوكي"648-923هـ/1250-1517م" ط1، دار الفاروق، نابلس، 1998م.
40.العسلي، كامل العسلي. الحياة الفكرية في فلسطين، وقع ضمن الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، ج3، ط1، بيروت، 1990م.
41.العسلي، زياد العسلي. الدراسات الصهيونية للحركة الصليبية، وقع ضمن كتاب ندوة يوم القدس الثانية، عمان، 1991م.
42.عطا الله، محمود على خليل عطا الله، نيابة غزة في العهد المملوكي، ط1، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1986م.
43.عطية، حسين عطية.
❖ دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، ط1، دار المعرفة الجامعية،الإسكندرية، 2000م.
❖ إمارة أنطاكية والمسلمون" 1171-1268م "، ط1، دار المعرفة الجامعة، الإسكندرية، 1989م.
44.على، على السيد علي.
❖ العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، ط1، عيد للدراسات والبحوث، القاهرة، 1996م.
❖ الخليل والحرم الإبراهيمي في عصر الحروب الصليبية، "492- 583هـ/1099-1187م" ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1998.
❖ القدس في العصر المملوكي، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1986م.
45.على، محمد كرد على. خطط الشام، 6ج، ط2، دار العلم للملايين، بيروت، 1971م.
46.على، عبد الحفيظ على. مشكلات الوراثة في مملكة بيت المقدس وأثرها على الحركة الصليبية، ط1، دار النهضة العربية، القاهرة، 1959م.
47.عوض، محمد مؤنس عوض :

❖دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغـرب، ط1، عـين للدراسـات والبحـوث، القاهرة، 2003م.

❖الزلازل في بلاد الشام "عصر الحروب الصليبية"، ط1، عـين للدراسـات والبحـوث، القاهرة، 1996م.

❖الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمـن الحـروب الـصليبية، ط1، عـين للدراسات والبحوث، القاهرة، 1995م.

❖الحروب الصليبية–السياسية– الميـاه– العقيـدة، ط1، عـين للدراسـات والبحـوث، القاهرة، 2001م.

❖تاريخ الحروب الصليبية التنظيمات الدينية والحربية في مملكة بيت المقدس اللاتينية فـي القرنين" 6–7–هـ/12–13م"، ط1، دار الشروق، عمان، 2004م.

❖الحروب الصليبية دراسات تاريخية وتقويم، ط1، دار الشروق، عمان، 1999م.

❖الرحالة الأوروبيـون فـي مملكـة بيـت المقـدس الـصليبية،ط1، مكتبـة مـدبولي، القاهرة، 1992م.

❖ عالم الحروب الصليبية،بحوث ودراسات، ط1، عين للدراسات والبحوث،القاهرة، 2005م

48.غوانمه، يوسف غوانمه :

❖تاريخ نيابـة القـدس فـي العـصر المملـوكي، ط1، دار الحيـاة للنـشر والتوزيـع، الزرقاء، 1982م.

❖ إمارة الكرك الأيوبية، ط2، دار الفكر، عمان، 1983م.

❖مملكة الكرك في العهد المملوكي، ط1، د.ن، د.م،1976م.

❖دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين ، ط1، دار الفكر، عمان، 1983م.

49.قاسم، قاسم عبده قاسم.

❖الحرب الصليبية الأولي، نصوص ووثائق تاريخية، د.ط، عـين للدراسـات والبحـوث، القاهرة، 2001م.

❖ماهية الحروب الصليبية، الأيديولوجية–الدوافع–النتائج، د.ط، عين للدراسات والبحـوث، القاهرة ،203م.

❖بين التاريخ والفولكلور، ط3، عين للدراسات والبحوث، القاهرة ، 2001م.

❖الخلفية الأيديولوجية لحروب الصليبية، ط1، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، 1999م.

❖ عصر سلاطين المماليك، التاريخ السياسي والاجتماعي، ط1، عين للدراسات والبحـوث، القاهرة، 1998م.

❖أهل الذمة في مصر من الفتح الإسلامي حتى نهاية المماليك، ط1، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، 2003م.

❖رؤية إسرائيلية للحروب الصليبية، مركز بحوث الشرق الأوسط، سلسلة دراسات عن الشرق الأوسط(10) ط1، القاهرة، 1983م

50.كاتبي، غيداء خزانة كاتبي. الخراج منذ الفتح الإسلامي حتى أواسط القرن الثالث الهجري، ط2،مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،1997م.

51.محسن، محمد حسين محسن0 الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1986م.

52.محمد، احمد محمد رمضان. المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، د.ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1977م.

53.مصطفي، شاكر مصطفى.

❖فلسطين بين العهدين الفاطمي والأيوبي، وقع ضمن الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، ج2، ط1، بيروت، 1990م.

❖أل قدامة في الصالحية، حوليات كلية الآداب،رقم(3) جامعة الكويت، 1982م.

54.المعاضيدي، خاشع المعاضيدي. الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي(359-567هـ/969-1171م) ط1، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1976م.

55.المغربي، عبد الرحمن المغربي. عكا ومنطقها في العصور الوسطي" 497-583هـ/ 11- 1187"، ط1، مؤسسة الأسوار، عكا، 1997م.

56.ناصر، عامر نجيب موسى ناصر. الحياة الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي، ط1، دار الشروق، عمان، 2003م.

57.نصار، لطفي احمد نصار. وسائل الترفية في عصر سلاطين المماليك في مصر، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999م.

58.النعيرات، أسامة محمد نعيرات. إقطاعية بيسان ودورها في الصراع الإسلامي الفرنجي،492-690هـ/1099-1291م، ط1، مؤسسة الأسوار، عكا، 2002م.

59.النقاش، زكي النقاش. العلاقات الاجتماعية والثقافية بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1957م

60.نيروز، إبراهيم نيروز.

❖كشف المفقود من كنائس عابود، ط1، منشورات بيت القدس، رام الله، 2001م

❖رام الله -جغرافيا- تاريخ -حضارة، ط1، دار الشروق، رام الله،2004م.

61.يوسف، جوزيف نسيم يوسف :

❖ العرب والروم واللاتين، د.ط، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1989م.

❖ العدوان الصليبي على مصر، هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكو، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، 1984م.

❖ العدوان الصليبي على بلاد الشام، ط3، دار الكتب الجامعية، الإسكندرية، 1970م.

❖ الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العدوان الصليبي، د.ط، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1988م.

ب- المراجع الأجنبية غير المترجمة:

1- Benvenisti, M.: The Crusaders in the Holy Land, Jerusalem, 1970, New York, 1972.

2- chalandon, F.: Histoire de la Premiere Croisade, Paris 1925.

3- La Monte, J.: Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem, New york,1970.

4- Prawer, Joshua.:

- "Crusader Cities", in The Medieval city, ed. H. A. Miskimin, David Herlihy, A. L. Udovitch, London, 1977.
- "Social Classes in the Crusader states" Minorities, in setton, Vol., V, New Jersy,1983, pp.59-116.
- Social Classes in the Latin Kingdom of Jerusalem", Franks, in setton, Vol., V, pp. 117-162.

5- Smith, J R. : The Feudal Nobility and the Kingdom of Jerusalem, 1174-1277. London, 1973.

ج- المراجـــع المعربـــــة:

1.باركر، ارنست باركر. الحروب الصليبية، ترجمة سيد البـــاز العرينـــي، ط4دار النهـــضة العربية، بيروت، د.ت.

2.بالار، مشيل بالار. الحملات الصليبية والشرق اللاتيني في القرن 11-14 م، ترجمة بشير السباعي، ط1، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والإنسانية، القاهرة، 2003م.

3.براور، يوشع براور:

❖ الاستيطان الصليبي في فلسطين، مملكة بيت المقدس، ترجمة عبد الحافظ البنا، ط1،عـــين للدراسات والبحوث الاجتماعية والإنسانية، القاهرة، 2001م.

❖ عالم الصليبيين، ترجمة قاسم عبده قاسم، ومحمد خليفـــة حـــسن، ط1،عـــين للدراســـات والبحوث الاجتماعية والإنسانية ، القاهرة، 1999م.

4.بردج، أنتوني بردج. تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة احمـــد غـــسان ســـبانو، ونبيـــل الجيرودي، دار قتيبة، دمشق، 1985م.

5.بول، ستانلي لين بول. صلاح الدين وسقوط مملكة بيت المقدس، ترجمة فاروق سعيد أبو جاسر، ط1، القاهرة، 1995م.
6.البيشاوي،سعيد البيشاوي، ومحمد مؤنس عوض.(تحرير) تاريخ الحروب الصليبية، بإشراف كينيث سيتون،1ج، بيت المقدس للنشر والتوزيع، رام الله، 2004م.
7.جغلول.الإشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون، ترجمة فيصل العباس، ط3، دار الحداثة، بيروت، 1982م.
8.جونز، أرنولد جونز. مدن بلاد الشام حين كانت ولاية رومانية، ترجمة إحسان عباس،ط1، دار الشرق، عمان، 1977م.
9.ديفز، كارلس ديفز. أوربا في العصور الوسطى،ترجمة عبد الحميد حمدي محمود، ط1، مؤسسة شباب الجامعة،الإسكندرية،1958م.
10.رستون، جيمس رستون، مقاتلون في سبيل الله، ترجمة رضوان السيد، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض، 2002م.
11.رنسيمان، ستيفن رنسيمان. تاريخ الحروب الصليبية، 5ج، ترجمة السيد الباز العريني، ط1، دار الثقافة، بيروت، 1996م.
12.ريشار، جان ريشار. تكوين مملكة بيت المقدس اللاتينية وبنيتها، وقع ضمن كتاب الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين، ط1، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1994م.
13.زابوروف،ميخائيل زابوروف.الصليبيون في الشرق، ترجمة إلياس شاهين د.ط، دار التقدم، موسكو، 1986م.
14.سترانج، لي سترانج. فلسطين في العهد الإسلامية، ترجمة محمود عمايري. د.ط، وزارة الثقافة والإعلام، 1970م.
15.سميث، جوناثان ريلي سميث. الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، ترجمة محمد فتحي الشاعر،ط2، النهضة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999م.
16.سميث، جوناثان رايلي سميث. ما هي الحروب الصليبية، ترجمة محمد فتحي الشاعر، ط1، دار المعارف، القاهرة، 1996م.
17.سميل، ر.س. سميل. الحروب الصليبية، ترجمة سامي هاشم، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1967م.
18.كاهن، كولد كاهن. الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة احمد الشيخ، سينا للنشر، القاهرة، 1995م.

19.ماير، ايتش ماير. تاريخ الحملات الصليبية، 2ج، ترجمة محمد فتحي الشاعر، ط1، دار الأمين، القاهرة، 1999م.
20.ماير، هانز إبرهارد ماير. تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة عماد الـــدين غنـــيم، ط1، مجمع الفاتح للجامعات، طرابلس، 1995م.
21.ماير.الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي، ط1، الهيئة المصرية ألعامـــه للكتـــاب، القاهرة، 1972م
22.ماستناك، توماس ماستناك0 السلام الصليبي، ترجمة بشير السباعي، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة،2003م.
23.مولر، فولفغانغ مولر. القلاع أيام الحروب الصليبية، ترجمة محمد وليد الجلاد، ط2، دار الفكر، دمشق، 1984م.
24.مولر وليم مولر. تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة محمد عابـــدين، ط1، مكتبـــة مدبولي، القاهرة، 1995م.
25.هايد، فيلهلم هايد. تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطي، 4ج، ترجمـــة احمد محمد رضا، د.ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985–1994م.
26.هارتمان وباراكلاف.الدولة والإمبراطورية في العصور الوسطى، ترجمة جوزيف نسيم يوسف، ط2، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية،1984م.
27.إليسيف، نيكيتا إليسيف. المملكة اللاتينية في القدس والحكام المسلمون في القرن الثـــاني عشر ميلادي، وقع ضمن كتاب الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين، ط1، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1994م.

ثالثا– الموسوعات:

1.الدباغ، مراد مصطفي الدباغ. موسوعة بلادنا فلـــسطين، 10ج، ط1، دار الهـــدي، كفـــر قرع، 2000م.
2.دائرة المعارف الإسلامية،15ج، ترجمة محمـــد ثابـــت وآخـــرين، 15مـــج، د.ط ، دار المعرفة، بيروت،د.ت.
3.زكار،سهيل زكار. الموسوعة الشاملة في الحروب الصليبية، تأليف وتحقيـــق وترجمـــة، 50ج، ط1، دار الفكر، دمشق، 1995–2001م.
4.مجموعة من المؤلفين. الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، الدراسات الخاصـــة، 6مـــج، بيروت،1990م.
5.ألميسري، عبد الوهاب أليسري. موسوعة اليهود واليهوديـــة والـــصهيونية، 8ج، ط1،دار الشروق القاهرة، 1999م.

رابعا- الرسائل العلميـــــــة:

1.إبراهيم، عبد المجيد إبراهيم، الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصر الأيوبي، رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد التاريخ العربـي والتـراث العلمـي، اتحـاد المـؤرخين، بغداد، 2000م.

2.أبو ألكاس، جهاد علي أبو الكاس.النشاط الاقتصادي في فلسطين"583-650هـــ/1187-1252م" رسالة ماجستير غير منـشورة، كليـة الآداب، الجامعـة الإسـلامية، غـزة، 2004هــ/1425م

3.الجندي، جمعة الجندي. حياة الإفرنج ونظمهم في بلاد الشام خـلال القـرنين 12-13 م، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة، 198

4.زعرور، إبراهيم زعرور، الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصر الأيوبي والمملوكي، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق،1990م.

5.سلامة، جلال حسني سلامة. الاسـتيطان الـصليبي فـي الأراضـي المقدسـة"1099-1187م/492-583هــ" رسالة دكتوراه غير منشورة، كليـة البنـات لـلآداب والعلـوم والتربية، جامعة عين شمس، القاهرة،1425هــ/2004م.

6.عبد الهادي، محمد خضر عبد الهادي.عسقلان منذ منتصف القرن الرابع الهجري وحتـى النصف الثاني من القرن السبع الهجري دراسة تاريخية وحضاريه، رسالة دكتوراه غيـر منشورة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة،1421هــ/2000م

7.على، السيد على. المجتمع المسيحي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، رسـالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة القاهرة.

8.على، عبد الحفيظ محمد على. الحياة السياسية والاجتماعية عند الصليبيين فـي الـشرق الأدنى في القرنين 12-13، رسالة ماجستير غير منشورة،، ، كلية الآداب جامعة القاهرة، 1975م.

9.الغمري، سعيد محمد الغمري. الحرف والصناعات في بلاد الشام في عـصر الحـروب الصليبية"1099-1291م/495-687هــ" رسالة ماجستير غير منـشورة، كليـة الآداب، جامعة الزقازيق، مصر، 1998م.

10.الفراني، عبد الحميد جمال الفراني.المقاومة الشعبية للاحـتلال الـصليبي فـي بـلاد الشام"491-690هــ/1098-1291م" رسالة ماجستير غيـر منـشورة، كليـة الآداب، الجامعة الإسلامية، غزة،1426هــ/2005م.

11.المدني، رشاد عمر المدني. الحياة العلميـة في فلسطين فـي مرحلـة الصراع الصليبي

الإسلامي"491-690هـ/1098-1291م" رسالة ماجستير غير منشورة، كليـة الآداب، الجامعة الإسلامية، غزة،1426هـ/2005م

12يوسف، عبد الحافظ عبد الخالق0 الأسواق في المناطق الصليبية في بلاد الشام في الفتـرة "495-687هـ/1099-1291م" رسالة ماجستير غير منشورة، كليـة الآداب، جامعـة الزقازيق، مصر، 1998م.

خامسـا- البحـوث:

1.البكر، راغب حامد البكر.الاستيطان الإفرنجي في القدس، مؤتمر بلاد الـشام فـي فتـرة الصرع الإسلامي الإفرنجي، جامعة اليرموك، ط1، اربد، الأردن، 2000م.

2.بلدوين، مارشال بلدوين.اضمحلال وسقوط بيت القدس1174-1189م، ترجمـة وتعليـق سعيد البيشاوي، وقع ضمن كتاب تاريخ الحروب الصليبية، تحرير سعيد البيشاوي ومحمد عوض، ط1، منشورات بيت القدس، فلسطين،1004م.

3.بيضون، إبراهيم بيضون. طبرية في العهد الـصليبي فـي إشـكالية الموقـع والـدور، مؤتمر بلاد الشام في فترة الـصراع الإسـلامي الإفرنجـي، جامعـة اليرمـوك، ط1، اربد، الأردن، 1999م.

4.البيشاوى، سعيد البيشاوى .

❖لمقاومة الشعبية الفلسطينية ضد الفرنجة الصليبيين، مجلة جامعة النجاح للأبحاث، مج15، نابلس، فلسطين، حزيران، 2001م.

❖دراسة مقارنة بين الاستيطان الصليبي والـصهيوني، المجلـة الفلـسطينية للدراسـات التاريخية، مج1، ع1، رام الله، فلسطين، 1998م.

❖حيفـا فـي بدايـة الغـزو الفرنجـي الـصليبي(1100-1101م/493-494ه)، www.alwhdah.com

❖الاستيطان الفرنجي فـي بيـت المقـدس والمنـاطق المحيطـة بهـا(1099-1187م) www.alwhdah.com

5.الحيارى، مصطفى الحيارى.

❖ حصن بيت الأحزان"جانب من العلاقات بين المسلمين والفرنجة الـصليبيين فـي زمـن صلاح الدين"، مجلة دراسات، مج13،ع4، الجامعة الأردنية، عمان، 1986م.

❖حصن حبيس جلدك "جانب من العلاقـة بين المسلمين والفرنجة في القرن الثانـي عشـر الميلادي""، مجلة دراسات، مج13،ع12، الجامعة الأردنية،عمان، 1986م.

❖مدينة بانياس في القرن السادس الهجري / الثاني عـشر المـيلادي، مجلـة دراسـات، مج13،ع12، الجامعة الأردنية،عمان، 1986م

6.الدوري، عبد العزيز الدوري، العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الإسلام، لمؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردية، ط1، الدار المتحدة للنشر، عمان، الأردن، 1974م.
7.الرقب، شفيق محمد الرقب. صور من الحياة الاجتماعية للفرنجة من النثر الفني زمن الحروب الصليبية، مجلة دراسات للعلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، مج23، ع2، الأردن، 1996م.
8.رمضان، أحمد رمضان.بيت المقدس، ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، مج1، دار المعارف.
9.شاهين، رياض مصطفى شاهين.
❖قلعة جزيرة فرعون ساحة للصدام الصليبي الإسلامي مجلة دراسات للعلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، مج31، ع3، الأردن، 2004م.
❖أوضاع اليهود وموقفهم من الغزو الصليبي لبلاد الشام (491-690هـ/1098-1291م) مجلة المستقبل والتاريخ، جامعة طنطا، 2006م.
❖هدنة الرملة والظروف المحيطة بها، مجلة الجامعة الإسلامية، مج9، ع1، غزة، 2001م
10.صالح، عبد العزيز صالح. الحرم الشريف في ظل الغزو الفرنجي، مجلة المورد، مج16، ع3، 1987م.
11.الطراونة، طه الطراونة. "المرأة الصليبية" دراسة في تاريخ المجتمع الفرنجي في بلاد الشام، مؤتة للبحوث والدراسات، مج8، ع1، الأردن، 1993م.
12.عاشور، سعيد عبد الفتاح عاشور.
❖المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردية، ط1، الدار المتحدة للنشر،عمان، الأردن، 1974م.
❖ملامح المجتمع الصليبي في بلاد الشام، المستقبل العربي،ع102،1978م
13.العريني، السيد الباز العريني. نحو طبقة النبلاء الإقطاعيين في مملكة بيت المقدس، مجلة كلية الأدب، جامعة القاهرة، مج20،ج2، القاهرة 1958م.
14.عطية، حسين عطية.
❖مجلس نابلس "23يناير 1120" وأحوال مملكة بيت المقدس الصليبية، حولية التاريخ الإسلامي و الوسيط، كلية الآداب، جامعة عين شمس،مج1،القاهرة، 221م
❖المسلمون في الإمارات الصليبية في بلاد الشام، مؤتمر تاريخ بلاد الشام في فترة الصراع الإفرنجي، جامعة اليرموك، ط1، اربد، الأردن، 2000م.
15.على، على السيد على.

❖ المقاومة الشعبية للغزو الصليبي في بلاد "491-690هـ/1097-1291م"، مجلة العصور، مج6، ج1991،2م.
❖ ملامح الجانب العربي الإسلامي في المواجهة ضد الغزو الفرنجي، مجلة المستقبل العربي،ع102، سنة1987م.
16.غلاب، محمد السيد غلاب.سكان فلسطين ودراسة تاريخهم الجنسي، المجلة التاريخية المصرية، ع5، القاهرة، 1956م.
17.فنك، هارولد فنك. تأسيس الإمارات اللاتينية، 1099-1118م ترجمة وتعليق، عامر ناصر، وقع ضمن كتاب تاريخ الحروب الصليبية، تحرير سعيد البيشاوي ومحمد عوض، ط1، منشورات بيت القدس، فلسطين،1004م.
18.قاسم، قاسم عبده قاسم.
❖ اثر الحروب الصليبية على العلم العربي سكانيا- اجتماعيا-سياسيا، موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، ج3،ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،1995 م.
❖ بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، عالم الفكر، مج22، ع2، الكويت، أكتوبر، 1993م.
19.القوطي، عطية القوطي. صلاح الدين واليهود، الجلة التاريخية المصرية، ع24، القاهرة،1997م
20.الكيلاني، هيثم الكيلاني. الصليبية والصهيونية، دراسة مقارنة، شؤون عربية، ع52، 1987م.
21.لتل، رونالد لتل.القدس تحت حكم الأيوبيين والمماليك1187-1516م وقع ضمن كتاب القدس في التاريخ، ت كامل العسلي،د.ط.، منشورات الجامعة الأردنية، عمان،1992م.
22.مبروك، محمد إبراهيم مبروك.نقد النصرانية المحرفة، مجلة البيان، ع210، 2005م.
23.مصطفي، شاكر مصطفي.
❖ من الغزو الصليبي إلى الغزو الصهيوني وبالعكس، مجلة شؤون عربية، ع52، 1987م.
❖ دخول الترك الغز إلى الشام، المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردية، ط1، الدار المتحدة للنشر،عمان، الأردن، 1974م.
24.النقر، محمد الحافظ النقر. التغيرات الإدارية والعمرانية والسكانية في مدينة القدس في مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الإفرنجي، جامعة اليرموك، ط1، اربد، الأردن، 1999م.

Abstract

The title of this study is "the social situation in Palestine during the crusade wars " 1099-1291Ac.

The study is divided in to four chapters preceded by introduction included a critical study about the sources and references of the research.

The first chapter which is entitled "the Europeans occupation of Palestine and the establishment of the cruciferous kingdom of Jerusalem "deals with the events of the crusade, controlling the Palestine territories and cities and what happens to their inhabitants . It also deals with the cross section of the land by studying the political and administrative building of the new feudal European society. The study also tackled the castes in the crusade society.

The second chapter, "the European feudalism and its impact on the settlement movement ",includes European colonialism settlement in Palestine, the western scholar definition of the crusade and the attitudes of the cruciferous movement which was described by some of them as settlement enlargement movement in the Islamic east. It also deals with the pope invitation if the Christians in the European west to occupy the holy land and change it in to cruciferous entity. This is through changing its population and geographical situation and burying the Arabic origins of the land by following comprehensive missionary program

The researcher shed the light on the elements of the settlement and the policy which was followed by the crusade in order to increase the human elements and laws which was legislated to in courage the immigration and settlement, in the same context he also tackled the European military and taxes which was imposed to support the cruciferous entity. The researcher discusses the Islam's popular resistance, the various means of cruciferous occupation resistance, the attitude of the different casts of the inhabitants with regard to the occupation and the participation of the Palestinians in the liberation And retrieval operations of the Palestinian occupied cities.

Chapter three "the population structure of Palestine during the cruciferous occupation " it discuses the division of the population and the variation of the population structure happened in Palestine. the variety of the population structure in Palestine resulted from the cruciferous aggression of Palestine and its occupation. It was divided in to Muslims Christian, Jewish and other elements. The inhabitants were divided according to the way of living in tow sections.

The first, the settled societies of cities and villages and the second is the nomad.

This chapter also discusses the Arabian Islamic sites which were occupied by the crusaders and the new addition which was created in its structure to make the Palestinian land catholic.

The title of chapter four is " manifestations of the social life in the Palestinian society during the crusade wars ". The researcher started the chapter by discussing the costorns and tradition and the range of the crusader influence by the Arabian Islamic civilization. This influence reached the financial aspects and traditions as a result of the daily peaceful fife betonies the two sides.

The cruciferous society in Palestine was forced to create jurisprudence system to be the legal and legislative cover of all feudal practices.

With regard to the educational and social establishment, the researcher discusses the cultural life in Palestine under the cruciferous occupation making comparison between it and what happened under the Islamic authority he also mentioned a number of educational and health institutions. He also presents the social impact of the crusades and the impact of the cruciferous occupation and liberation wars on the population structure in Palestine.

Finally, the study reached to the important results which are mentioned in the conclusion.